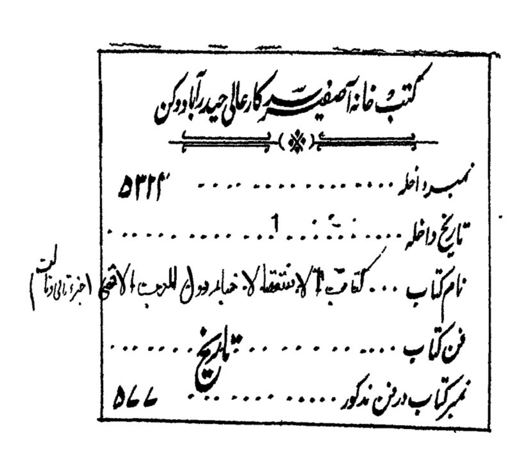
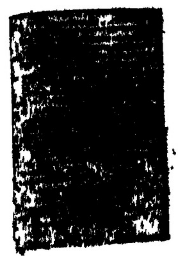


[illegible]

فهرسة الجزء الثاني من كتاب الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى

صحيفة

زيان

﴿ تمت الفهرست ﴾



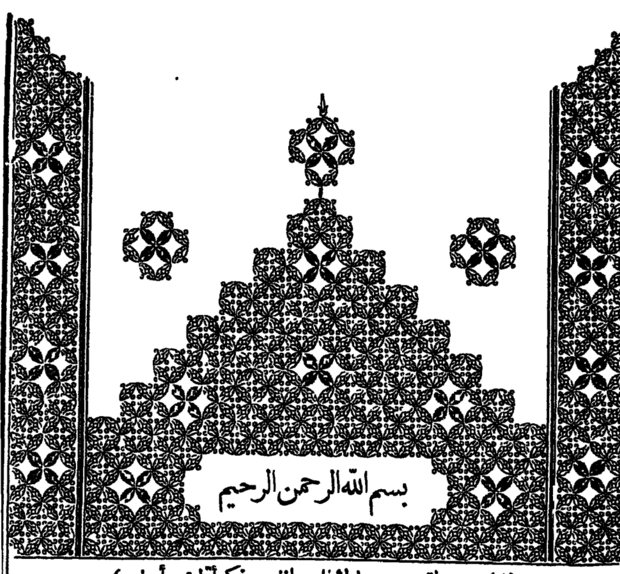
# ﴿الجــزء الثانى﴾

# من كتاب الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى

تأليف العالم العلامة المحقق الفهامة وحيد
الاوان وفريد الزمان بحر العلوم الراوى
الشيخ أحمد بن خالد الناصرى
السلاوى حفظه الله
وأدام علاه
آمين








## ﴿الخبر عن دولة بني مرين ملوك فاس والمغرب وذكر أوليتهم وأصلهم﴾

(اعلم) ان العلامة الرئيس أبا زيد عبد الرحمن بن خلدون رحمه الله قسم جيل زناتة الى طبقتين الطبقة الاولى هي التي كان منها مغراوة ملوك فاس وبنو يفرن ملوك سلا وقد تقدم الكلام على دولتهم مستوفى والطبقة الثانية هي التي كان منهم بنو عبد الواد ملوك تلمسان والمغرب الاوسط وبنو مرين ملوك فاس والمغرب الاقصى وهؤلاء هم الذين تعلق الغرض الآن بذكرهم فاعلم ان جيل زناتة في المغرب كما قال الرئيس المذكور جيل قديم معروف العين والاثر وهم لهذا العهد آخذون من شعار العرب في سكنى الخيام واتخاذ الابل وركوب الخيل والتقلب في الارض وايلاف الرحلتين وتخطف الناس من العمران والاباية من الانقياد الى النصفة وشعارهم من بين البربر اللغة التي يتراطنون بها وهي مشتهرة بنوعها عن سائر رطانة البربر ومواطنهم في سائر مواطن البربر بافريقية والمغرب فمنهم ببلاد النخيل ما بين غدامس والسوس الاقصى حتى ان عامة تلك القرى الجريدية بالصحراء منهم ومنهم قوم بالتلول بجبال طرابلس وضواحي افريقية وبجبل أوراس بقايا منهم سكنوا مع العرب الهلاليين لهذا العهد وأذعنوا لحكمهم والاكثر منهم بالمغرب الاوسط حتى انه ينسب اليهم ويعرف بهم فيقال وطن زناتة ومنهم بالمغرب الاقصى أمم أخر وكان بنو مرين منهم قبل استيلائهم على ملك المغرب أحياء ظواعن بمجالات القفر من فجيج الى سجلماسة الى ملوية وربما يخطون في ظعنهم الى بلاد الزاب ويذكر نسابتهم ان الرياسة كانت فيهم في تلك العصور لمحمد بن ورزير بن فكوس بن كرماط بن مرين ومرين يتصل نسبه بزانا ابن يحيى أبي الجيل وكان لمحمد المذكور سبعة من الولد اثنان منهم شقيقان وهم حمامة وعسكر وخمسة أبناء علات وكان يقال لهم بلسان زناتة تيربعين ومعناه الجماعة ويزعمون ان محمد بن ورزير لما هلك قام بامره في قومه ابنه حمامة بن محمد وكان الاكبر من ولده ثم من بعده شقيقه عسكر بن محمد ثم من بعده ابنه المخضب بن عسكر وهلك سنة أربعين وخمسمائة في بعض الحروب التي كانت بين عبد المؤمن والمرابطين

ثم

ثم قام بأمر بني مرين بعد المخضب ابن عمه أبو بكر بن حمامة بن محمد الى ان هلك فقام بأمرهم ابنه أبو خالد محيو بن أبي بكر ولم يزل مطاعا فيهم الى ان استنفرهم يعقوب المنصور الى غزوة الارك بالاندلس فشهدوها وأبلوا فيها البلاء الحسن وأصابت محيو بن أبي بكر يومئذ جراحات هلك منها بصحراء الزاب سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة وكان من رياسة عبد الحق ابنه من بعده وبقائها في عقبه ما نذكره ان شاء الله

## ﴿الخبر عن دخول بني مرين أرض المغرب الاقصى واستيلائهم عليه والسبب في ذلك﴾

كان السبب في دخول بني مرين لهذا القطر المغربي انه لما كانت وقعة العقاب بالاندلس سنة تسع وستمائة وهزم الناصر وهلك الجمهور من حامية المغرب ورعاياه حتى خلت البلاد من أهلها ثم حدث عقب ذلك الوباء العظيم الذي تحيف الناس الا قليلا وهلك الناصر سنة عشر بعدها فبايع الموحدون ابنه يوسف المنتصر وهو يومئذ صبي حدث لا يحسن التدبير وشغلته مع ذلك أحوال الصبا ولذات الملك عن القيام بأمر الرعية فتضافرت هذه الاسباب على الدولة الموحدية فاضعفتها حينها وأمرضتها المرض الذي كان سببا لحينها وكان بنو مرين يومئذ موطنين ببلاد القبلة من زاب افريقية الى سجلماسة يتنقلون في تلك القفار والصحارى لا يدخلون تحت حكم سلطان ولا تنالهم الدولة بهضيمة ولا يؤدون اليها ضريبة كثيرة ولا قليلة ولا يعرفون تجارة ولا حرثا انما اشغلهم الصيد وطراد الخيل والغارات على أطراف البلاد وكانت طائفة منهم ينتجعون تخوم المغرب وتلوله زمان الربيع والصيف فيكتالون من أطراف البلاد ما يحتاجون اليه من الميرة ويرعون فيها تلك المدة أنعامهم وشاءهم حتى اذا أقبل فصل الشتاء اجتمع نجعهم بأكرسيف ثم شدوا الرحلة الى بلادهم فكان ذلك دأبهم على مر السنين فلما كانت سنة عشر وستمائة أقبل نجعهم على عادته للارتفاق والميرة حتى اذا أطلوا على المغرب من ثناياه ألفوه قد تبدلت أحواله وبادت خيله ورجاله وفنيت حماته وأبطاله وعريت من أهله أوطانه وخف منها سكانه وقطانه ووجدوا البلاد مع ذلك طيبة المنبت خصيبة المرعى غزيرة الماء واسعة الاكناف فسيحة المزارع متوفرة العشب لقلة راعيها مخضرة التلول والربى لعدم غاشيها فاقاموا بمكانهم وبعثوا الى اخوانهم فاخبروهم بحال البلاد وما هي عليه من الخصب والامن وعدم المحامي والمدافع فاغتنموا الفرصة وأقبلوا مسرعين بنجعهم وحللهم وانتشروا في نواحي المغرب وأوجفوا عليها بخيلهم وركابهم واكتسحوا بالغارات والنهب بسيطها والجأت الرعايا الى حصونها ومعاقلها وتم لهم ما أرادوا من الاستيلاء على بسيط المغرب وسهله وانتجاع مواقع طله ووبله

## ﴿الخبر عن رياسة الامير أبي محمد عبد الحق بن محيو المريني رحمه الله﴾

لما دخل بنو مرين المغرب كان الامير عليهم يومئذ عبد الحق بن محيو بن أبي بكر بن حمامة بن محمد المريني فكثر عيثهم وضررهم بالمغرب وأعضل داؤهم وتضاعف على الرعية بلاؤهم فرفعت الشكايات بهم الى الخليفة بمراكش وهو يومئذ يوسف المنتصر بن الناصر بن المنصور فجهز لهم جيشا كثيفا من عشرين ألفا وعقد عليه لابي علي بن وانودين وكتب له الى صاحب فاس السيد أبي ابراهيم بن يوسف بن عبد المؤمن يأمره بالخروج معه لغزو بني مرين والاثخان فيهم وعدم الابقاء عليهم مهما قدر على ذلك واتصل الخبر ببني مرين وهم في جهات الريف وبلاد بطوية فتركوا أثقالهم وعيالهم بحصن تازوطا من أرض الريف وصمدوا الى الموحدين فالتقى الجمعان بوادي نكور فكان الظهور لبني مرين على الموحدين فهزموهم وقتلوهم وامتلأت الايدي من أسلابهم وأمتعتهم ورجع الموحدون الى فاس يخصفون عليهم من ورق النبات المعروف عند أهل المغرب بالمشعلة لكثرة الخصب يومئذ واعتمار الفدن بالزرع وأصناف الباقلي فسميت تلك السنة يومئذ بعام المشعلة وهي سنة ثلاث عشرة وستمائة ثم زحف الامير عبد الحق

فى ذى الحجة من السنة المذكورة بجموع بنى مرين الى رباط تازا حتى وقف بازاء يتونها فخرج عاملها لحربه فى جيش كثيف من الموحدين والعرب والحشد من قبائل تسول ومكناسة وغيرهم فقتلت بنو مرين العامل المذكور وهزموا جيوشه وجمع عبد الحق الاسلاب والخيل والسلاح وقسم ذلك كله فى قبائل بنى مرين ولم يمسك منها لنفسه شيأ وقال لبنيه اياكم أن تأخذوا من هذه الغنائم شيأ فانه يكفيكم منها الثناء والظهور على أعدائكم

## ﴿حرب بنى مرين مع عرب رياح ومقتل الامير عبد الحق رحمه الله﴾

لما انتصر بنو مرين على أعدائهم الموحدين حصل فى نفوس بنى عسكر بن محمد من عشيرتهم نفاسة عليهم وضاقت صدورهم من استقلال بنى عمهم حمامة بن محمد بالرياسة دونهم فخالفوا الامير عبد الحق وعشيرته الى مظاهرة الموحدين وأوليائهم من عرب رياح وكانت رياح يومئذ أشد قبائل المغرب قوة وأقواهم شوكة وأكثرهم خيلا ورجالا لحدوث عهدهم بالعز والبداوة فأغراهم الموحدون يومئذ ببنى مرين لينتصفوا لهم منهم واتفقت كلمتهم عليهم وسمعت بنو مرين باقبال العرب والموحدين وبنى عسكر اليهم فاجتمعوا الى أميرهم عبد الحق فقالوا له ما ترى فى أمر هؤلاء العرب المقبلين الينا فقال يا معشر مرين أما ما دمتم فى أمركم مجتمعين وفى آرائكم متفقين وكنتم على حرب عدوكم أعوانا وفى ذات الله اخوانا فلا أخشى ان ألقى بكم جميع أهل المغرب وان اختلفت أهواؤكم وتشتت آراؤكم ظفر بكم عدوكم فقالوا والله انا نجدد لك الآن بيعة على السمع والطاعة وان لا نختلف عليك ولا نفر عنك أو نموت دونك فانهض بنا اليهم على بركة الله فنهض الامير عبد الحق فى جموع بنى مرين فكان اللقاء بقربة من وادى سبو على أميال من تافرطاست فكانت بينهم حرب بعد العهد بمثلها وقتل فيها الامير عبد الحق وكبير أولاده ادريس ولما رأت بنو مرين ما وقع بأميرها وابنه حميت وغضبت وأقسمت بأيمانها ان لا يدفن حتى يأخذوا بثاره فصمموا العزم لقتال رياح واستأنفوا الجد لقراعهم وصبروا وصابروا جميلا فنصرهم الله على عدوهم فهزموا رياحا وقتلوا منهم خلقا كثيرا وشردوهم فى الشعاب والاودية ورؤس الهضاب واحتووا على ما كان فى محلتهم من السلاح والخيل والاثاث وقام بأمر بنى مرين بعد هلاك عبد الحق ابنه عثمان على ما نذكره ان شاء الله

## ﴿بقية أخبار الامير عبد الحق وسيرته﴾

قالوا كان الامير عبد الحق المرينى مشهورا فى قومه بالتقى والفضل والدين موسوما بالصلاح وصحة اليقين معروفا بالورع والعفاف موصوفا فى سيرته بالعدل والانصاف يطعم الطعام ويكفل الايتام ويؤثر المساكين ويحنو على المستضعفين وكانت له بركة معروفة ودعوة مستجابة موصوفة وكانت قلنسوته وسراويله يتبرك بهما فى جميع أحياء زناتة وكانوا يحملون فضلة وضوئه فيستشفون بها لمرضاهم وكان يسرد الصوم فلا يزال صائما طول عمره فى الحر والبرد لا يرى مفطرا الا فى أيام الاعياد كثير الذكر والاوراد لا يفترعنها فى سائر الحالات متحريا الاكل الحلال لا يقتات الا من لحوم ابله وألبانها أو ما يعانيه من الصيد معظما فى بنى مرين مطاعا فيهم يقفون عند أمره ولا يصدرون الا عن رأيه ﴿حكى﴾ ابن أبى زرع عمن حدثه من الثقات أنه قدم على أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق فى وفد من أعيان فاس وفقهائها وذلك فى رمضان سنة ثلاث وثمانين وستمائة والامير يعقوب يومئذ برباط الفتح يريد العبور الى الاندلس برسم الجهاد قال فجرى فى مجلسه ذكر والده الامير عبد الحق فقال الامير يعقوب كان الامير عبد الحق رحمه الله صادق القول اذا قال فعل واذا عاهد وفى لم يحلف بالله قط بارا ولا حانثا ولم يشرب مسكرا قط ولا ارتكب فاحشة تضع الحوامل ببركة ازاره متى عسرت عليهن الولادة وكان

يسرد الصوم ويقوم أكثر الليل وإذا سمع بخبر صالح أو عابد قصد لزيارته واستوهب منه الدعاء شديد الخوف من الصالحين متواضعا لهم وكان مع ذلك سما لاعدائه قاهرا لهم وما وجدنا الا بركته وبركة من دعا له من الصالحين اهـ قالوا وكان الامير عبد الحق في ابتداء أمره قليل الاولاد فرأى ذات ليلة في منامه كأن شعلا أربعا من نار خرجن منه فعلون في جو المغرب ثم احتوين على جميع أقطاره فكان تأويلها تملك بنيه الاربعة من بعده وهذا مثل الرؤيا التي رآها عبد الملك بن مروان من بوله في المحراب أربع مرات فكان تأويلها ان ولي الخلافة أربعة من بنيه الوليد وسليمان ويزيد وهشام وكان للامير عبد الحق تسعة من الولد ادريس وهو أكبرهم وقتل معه في حرب رياح وعثمان ومحمد وأبو بكر ويعقوب وهؤلاء الاربعة هم الذين ولوا الامر بعده وعبد الله وعبد الرحمن ويقال له بلسانهم رحوا وزيان وأبو عياد وبنت هي العاشرة والله أعلم

## الخبر عن رياسة الامير أبي سعيد عثمان بن عبد الحق رحمه الله

لما فرغ بنو مرين من حرب رياح ورجعوا من اتباعهم اجتمعوا الى الامير أبي سعيد عثمان بن عبد الحق وكان أكبر بني أبيه بعد ادريس فعزوه بمصاب أبيه وأخيه وبايعوه عن رضى منهم فاجتمعت عليه كلمتهم ولما فرغ الامير أبو سعيد من تجهيز أبيه وأخيه ودفنهما أقسم أن لا يرجع عن حرب رياح حتى يثأر بمائة شيخ منهم فسار اليهم وأثخن فيهم حتى شفا نفسه وأذعنوا الى الطاعة ولاذوا بالسلم فسالمهم على اتاوة يؤدونها اليه كل سنة ثم ضعفت شوكة الموحدين وتداعى أمرهم الى الاختلال وأشرف ملكهم على ربوة الاضمحلال وتقلص ظل حكامهم عن البدو جملة وفسدت السابلة واختلط المرعى بالهمل فلما رأى الامير أبو سعيد ما عليه أمر الموحدين من الضعف وما نزل برعايا المغرب من الجور والعسف جمع أشياخ مرين وندبهم الى القيام بامر الدين والنظر في مصالح المسلمين فاسرعوا الى اجابته وبادروا التلبية دعوته فسار بهم أبو سعيد في نواحي المغرب يتقرى مسالكه وشعوبه ويتتبع تلوله ودروبه ويدعو الناس الى طاعته والدخول في عهده وحمايته فمن أجابه منهم أمنه ووضع عليه قدرا معلوما من الخراج ومن أبى عليه نابذه وأوقع به فبايعه من قبائل المغرب هوارة وزكارة ثم تسول ومكناسة ثم بطوية وفشتالة ثم سدراتة وبهلولة ومديونة ففرض عليهم الخراج وفرق فيهم العمال ثم فرض على أمصار المغرب مثل فاس ومكناسة وتازا وقصر كتامة ضريبة معلومة يؤدونها على رأس كل حول على ان يكف الغارة عنهم ويصلح سابلتهم ثم لما كانت سنة عشرين وستمائة غزا بلاد فازاز ومن بها من ظواعن زناتة فأثخن فيهم حتى أذعنوا للطاعة وقبض أيديهم عن اذاية الناس بالغارات والنهب في الطرقات ثم في سنة احدى وعشرين بعدها غزا عرب رياح أهل ازغار وبلاد الهبط فأثخن فيهم حتى كاد يأتي عليهم ولم يزل دأبه ذلك من تدويخ بلاد المغرب وأقطاره حتى هلك باغتيال علج له كان رباه صغيرا فشب وسول له الشيطان الفتك به فترصد غرته وطعنه بحربة في منحره فمات لوقته سنة ثمان وثلاثين وكان ذا نجدة وشجاعة وعزم وكرم وايثار مكرما للفقهاء وأهل الصلاح سالكا في ذلك سنن أبيه رحمه الله

## الخبر عن رياسة الامير أبي معرف محمد بن عبد الحق رحمه الله

لما هلك الامير أبو سعيد قام بالامر بعده أخوه أبو معرف محمد بن عبد الحق فاقتفى سنن أخيه في تدويخ بلاد المغرب وأخذ الضريبة من أمصاره وجباية المغارم من باديته وبعث الرشيد بن المأمون صاحب مراكش قائده أبا محمد بن وانودين لحرب بني مرين وعقد له على مكناسة فاجحف باهلها في المغارم ثم نزل بنو مرين في بعض الاحيان بنواحيها وأجلبوا عليها فنادى أبو محمد في عسكره وخرج اليهم فدارت بينهم حرب شديدة هلك فيها خلق من الجانبين وبارز محمد بن ادريس ابن عبد الحق قائدا من قواد الفرنج

فاختلفا ضربتين بين هلال العلج باحداهما وجرح محمد بالاخرى فاندمل جرحه وصار أثرا في وجهه لقب من أجله بابي ضربة ثم شدّ بنو مرين على الموحدين فانكشفوا ورجع ابن وانودين الى مكناسة مفلولا وبقي بنو عبد المؤمن أثناء ذلك في مرض من الايام وتثاقل عن الحماية ثم أومضت دولتهم ايماضة الخمود وذلك انه لما هلك الرشيد بن المأمون سنة أربعين وستمائة وولي أخوه علي وتلقب بالسعيد وبايعه أهل المغرب انصرفت عزائمه الى غزو بني مرين وقطع أطماعهم عما سمت اليه من تلك المواطن فجهز عساكر الموحدين لقتالهم ومعهم قبائل العرب والمصامدة وجموع الفرنج فنهضوا سنة اثنتين وأربعين وستمائة في جيش كثيف يناهز عشرين ألفا فسمع الامير أبو معرّف باقبالهم فاستعد لقتالهم وزحف اليهم فكان اللقاء بموضع يعرف بصخرة أبي بياش من أحواز فاس فدارت بينهم حرب شديدة وصبر الفريقان ولما كان عشي النهار قتل الامير أبو معرّف بن عبد الحق في الجولة بيد زعيم من زعماء الفرنج تحامل فعثر فرس أبي معرّف به وأمكنت العلج فيه الفرصة فاغتنمها وطعنه فمات فانهزمت بنو مرين وتبعهم الموحدون فاتخذوا الليل جملا وأسروا طول ليلتهم بحللهم وعيالاتهم وأموالهم فاصبحوا بجبال غمانة من نواحي تازا فاعتصموا بها أياما ثم خرجوا الى بلاد الصحراء وولوا عليهم أبا بكر بن عبد الحق على ما نذكره وكانت هذه الوقعة وهلاك الامير أبي معرّف عشية يوم الخميس تاسع جمادى الآخرة سنة اثنتين وأربعين وستمائة

## ﴿الخبر عن دولة الامير أبي بكر بن عبد الحق رحمه الله﴾

هذا الامير هو الذي رفع من راية بني مرين وسما بها الى مرتبة الملك وكنيته أبو يحيى وهو أول من جند الجنود منهم وضرب الطبول ونشر البنود وملك الحصون والبلاد واكتسب الطارف والتلاد بايعه بنو مرين بعد مهلك أخيه أبي معرّف في التاريخ المتقدم فكان أول ما ذهب اليه ورآه من النظر لقومه ان قسم بلاد المغرب وقبائل جبايته بين بني مرين وأنزل كلا منهم بناحية منه سوّغهم اياها سائر الايام طعمة لهم وأمر كل واحد من أشياخ بني مرين ان يستركب الرجل ويستلحق الاتباع فحسنت حالهم وكثرت غاشيتهم وتوفرت جموعهم

## ﴿استيلاء الامير أبي بكر على مكناسة وبيعة أهلها الابن أبي حفص بواسطته﴾

ثم سار الامير أبو بكر بجملته فنزل جبل زرهون ودعا أهل مكناسة الى بيعة الامير أبي زكريا بن أبي حفص صاحب افريقية لانه كان يومئذ على دعوته وفي ولايته وحاصرها وضيق عليها بمنع المرافق وترديد الغارات الى ان أذعنوا للطاعة فافتتحها صلحا بداخلة أخيه يعقوب بن عبد الحق لزعيمها أبي الحسن ابن أبي العافية وبعثوا ببيعتهم الى الامير أبي زكريا الحفصي وكانت البيعة من انشاء أبي المطرف بن عميرة المخزومي وكان من أعلام ذلك العصر ومشاهيره وولي القضاء لبني عبد المؤمن بمدينة سلا ثم استقضوه بعدها بمكناسة فشهد هذه القضية وكتب البيعة ولما فتح الامير أبو بكر مكناسة أقطع أخاه يعقوب ثلث جبايتها جزاء له على وساطته وكان فتح مكناسة سنة ثلاث وأربعين وستمائة ثم آنس الامير أبو بكر من نفسه الاستبداد ومن قبيله الاستيلاء فاتخذ الآلة لذلك وسما بنفسه الى مرتبة الملك وأعدّ له عدّته وانتهى الخبر الى السعيد صاحب مراكش بتغلب الامير أبي بكر على مكناسة وصرفها الابن أبي حفص فوجم لها وفاوض الملأ من أهل دولته في أمره وأراهم كيف اقتطع الامر عنهم شيأ فشيأ حتى لم يبق بيدهم الا قرارة مراكش وما حولها بعد امتداد ظل ملكهم على المغربين وافريقية والاندلس ثم نهض السعيد من مراكش سنة خمس وأربعين وستمائة يريد مكناسة وبني مرين أولا ثم تلمسان ويغمراسن ابن زيان ثانيا ثم افريقية وابن أبي حفص آخرا ولما وصل الى وادي بهت عرض جيوشه وميزها واتصل الخبر بالامير أبي بكر وهو بمكناسة فخرج وحده ليلا يتجسس الاخبار ويستطلع أحوال السعيد

وجموعه فتقدم حتى أشرف على محلة السعيد من كثب ولاعلم لاحد به فرأى مالا طاقة له به ورأى من الرأي ان يخلي للسعيد عن البلاد ولا يناجزه الحرب فلحق بمكناسة واستدعى بني مرين من أماكنهم التي عين لهم فلاحقوا به وساروا الى قلعة تازوطا من بلاد الريف فتحصنوا بها وتقدم السعيد الى مكناسة فتلقاه أهلها خاضعين مستشفعين اليه بشيوخهم وصبيانهم فعفا عنهم ثم سار الى فاس فنزل بظاهرها من ناحية القبلة وخرج اليه أشياخها فسلموا عليه وسألوه الدخول الى البلد فتكرم عنهم وأبى ثم ارتحل الى رباط تازا فنزل بظاهرها وهنالك بعث اليه الامير أبو بكر ببيعته فقبلها وكتب له ولقومه بالامان وكان فيما خاطبه به الامير أبو بكر ان قال له ارجع يا أمير المؤمنين الى حضرتك وأنا أكفيك أمر يغمراسن وأفتح لك تلمسان فشاور السعيد خاصته في ذلك فقالوا لا تفعل يا أمير المؤمنين فان الزناتي أخو الزناتي لا يسلمه ولا يخذله وانا نخاف أن يصطلحا على حربك فأسعفهم وكتب الى الامير أبي بكر يقول له أقم بموضعك وابعث الى بحصة من قومك فأمده بخمسمائة من بني مرين وعقد عليها الابن عمه أبي عياد بن أبي يحيى بن حمامة وتقدم السعيد الى تلمسان فكان من هلاكه على قلعة تامزردكت ماقدمناه في أخبار دولته وكان الامير أبو بكر لما نازل حصن تازوطا وأهل ذلك الحصن يومئذهم بنو وطاس بطن من بني مرين أجمعوا الفتك به غيرة ونفاسة عليه فدس اليه بذلك بعض شيوخهم وأعلمه بما تواطأوا عليه من غدره فارتحل الامير أبو بكر عنهم الى بني يزناسن وكانوا نازلين يومئذ بعين الصفا فأقام هنالك معهم حتى رجعت اليه الحصة التي كانت مع السعيد وأعلموه بمقتله وافتراق جوعه فانتهز الامير أبو بكر الفرصة في فل الموحدين واعترضهم بآكرسيف فاستلبهم وانتزع الآلة من أيديهم وأدار اليه كتيبة الفرنج والناشبة من الاغزاز واتخذ المركب الملوكي من يومئذ ثم أغذ السير الى مكناسة فدخلها واستولى عليها وأقام بها أياما ثم نهض الى أعمال وطاط وحصون ملوية فافتتحها ودوخ جبالها وذلك أواخر صفر سنة ست وأربعين وستمائة

## ﴿استيلاء الامير أبي بكر على فاس وبيعة أهلها له﴾

لما فرغ الامير أبو بكر من فتح حصون ملوية صرف عزمه الى فتح فاس وانتزاعها من يد بني عبد المؤمن وكان العامل بها يومئذ السيد أبا العباس من بني عبد المؤمن فأناخ عليها الامير أبو بكر بخيله ورجله وتلطف في مداخلة أهلها وضمن لهم جميل النظر وحميد السيرة وكف الاذى عنهم فأجابوه ووثقوا بعهده وغنائه وأووا الى ظله وركنوا الى طاعته وانتحال الدعوة الحفصية بأمره ونبذوا طاعة بني عبد المؤمن يأسا من صريخهم فبايعوه بالرابطة خارج باب الشريعة وحضر هذه البيعة الشيخ أبو محمد الفشتالي ونشده الله على الوفاء بما اشترط على نفسه من النظر لهم والذب عنهم وسلوك طريق العدل فيهم فكان حضوره ملاك تلك العقدة والبركة التي يتعرف أثرها خلفهم في تلك البيعة ودخل الامير أبو بكر مدينة فاس زوال يوم الخميس السادس والعشرين من ربيع الآخر سنة ست وأربعين وستمائة بعد موت السعيد صاحب مراكش بشهرين ولما دخل الامير أبو بكر قصبة فاس أمن السيد أبا العباس عامل الموحدين بها وأخرجه من القصبة بعياله وأولاده وبعث معه سبعين فارسا يبلغونه الى مأمنه فاجازوه وادي أم الربيع ورجعوا ثم نهض الامير أبو بكر الى منازلة تازا وبها يومئذ السيد أبو علي بن محمد أخو أبي دبوس فنازلها أربعة أشهر حتى نزلوا على حكمه فقتل بعضهم ومن على آخرين منهم وسد ثغورها وأقطع أخاه يعقوب بن عبد الحق رباط تازا وحصون ملوية ورجع الى فاس فأقام بها نحو سنة واستقامت له الامور وقدمت عليه الوفود وأمر القبائل بالنزول في البسائط وعمارة القرى والمداشر وأمنت الطرقات وتحركت التجار ورخصت الاسعار وصلح أمر الناس واغتبطوا بولايته

## ﴿انتقاض أهل فاس على الامير أبي بكر ومحاصرته اياهم﴾

لما استولى الامير أبو بكر على المغرب وملك مدينة فاس كما ذكرنا نهض في ربيع الاول سنة سبع وأربعين وستمائة الى معدن العوام من بلاد فازاز لفتح بلاد زناتة وتدويخ نواحيها واستخلف على فاس مولاه السعود بن خرباش من جماعة الحشم أحلاف بني مرين وكان الامير أبو بكر لما افتتح فاسا استبقى من كان فيها من عسكر بني عبد المؤمن من غير نسبهم على الوجه الذي كانوا عليه من الخدمة مع الموحدين وكان من جملتهم طائفة من النصارى نحو المائتين وعليهم قائد منهم يقال له شريد الفرنجي فكانوا من حصة السعود هنالك فوقعت بينهم وبين شيعة الموحدين من أهل فاس مداخلة وعزم الفاسيون على الفتك بالسعود وتحويل الدعوة الى المرتضى فاجتمعوا الى القاضي أبي عبد الرحمن المغيلي وفاوضوه في ذلك فوافقهم على رأيهم فاستدعوا شريدا وقالوا له تقتل هذا الاسود وتضبط البلد حتى نكتب الى المرتضى فيبعث الينا من يقوم بأمرنا فأجابهم الى ذلك وكان ميله الى الموحدين وهواه معهم لكونه صنيعتهم وكان الذي مشى في هذه الثورة وتولى كبرها المشرف ولد القاضي المذكور وابن جشار وأخوه وابن أبي طاط وولده فلما كانت صبيحة يوم الثلاثاء الموفي عشرين من شوال سنة سبع وأربعين وستمائة طلع الاشياخ المذكورون الى القصبة للسلام على السعود على عادتهم في ذلك فدخلوا عليه بمجلس حكمه وهاجوه ببعض المحاورات فغضب وانتهرهم فوثبوا به ونادوا بشعارهم وكان شريد الفرنجي واقفا في عسكره أمام القصبة قد واطأهم على ذلك فاقتحم على السعود فقتله وقتل معه أربعة من رجاله واحتز العامة رأسه ورفعوه على عصا وطافوا به في أسواق البلد وسككها واقتحموا القصر فانتهبوه وسبوا الحرم ونصبوا النصراني لضبط البلد وبعثوا ببيعتهم الى المرتضى صاحب مراكش واتصل الخبر بالامير أبي بكر وهو بمنازل بلاد فازاز فأفرج عنها وأغذ السير الى فاس فأناخ عليها بعساكره وشمر لحصارها وقطع المادة عنها وبعث أهل فاس الى المرتضى بالصريخ فلم يرجع اليهم قولا ولا ملك لهم ضرا ولا نفعا ولا وجد لكشف ما نزل بهم حيلة ولا وجها سوى انه استجاش على الامير أبي بكر بيغمراسن بن زيان صاحب تلمسان وأمله لكشف هذه النازلة عمن انحاش الى طاعته فأجابه يغمراسن الى ذلك وطمع ان يكون ذلك سببا له في تملك المغرب وسما لصعود الى ذروة ملكه فاحتشد لحركته ونهض من تلمسان للاخذ بحجزة الامير أبي بكر عن فاس وأهلها واتصل بالامير أبي بكر خبر نهوضه اليه لتسعة أشهر من منازلته فاسا فجمر الكتائب عليها وصمد اليه قبل فصوله عن تخوم بلاده فلقيه بوادي ايسلي من بسيط وجدة فتزاحف القوم وكانت ملحمة عظيمة هلك فيها عبد الحق بن محمد بن عبد الحق بيد ابراهيم بن هشام من بني عبد الواد ثم انكشفت بنو عبد الواد ونجا يغمراسن بن زيان الى تلمسان برأس طمرة ولجام وترك محلته بما فيها فاحتوى عليها الامير أبو بكر وانكفأ راجعا الى فاس للاخذ بمخنقها فوصل اليها في جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وستمائة وأناخ عليها بكلكله واستأنف الجد وأرهف الحد وشدد في الحصار وأيس أهل فاس من اغاثة المرتضى وسقط في أيديهم ورأوا انهم قد ضلوا ولم يجدوا وليجة من دون مراجعة طاعة بني مرين فسألوا الامير أبا بكر الامان فبذله لهم على غرم ما أتلفوا له بالقصر من المال يوم الثورة وقدره مائة ألف دينار فتحملوها وأمكنوه من قياد البلد فدخلها في الثالث والعشرين من الشهر المذكور فأقام بها الى رجب الموالي له وطالبهم بالمال فسوفوه وتلوا في المقال فلما رأى ذلك منهم قبض على جماعة من أشياخها وأمنائها وأثقلهم بالحديد وطالبهم بالمال والاثاث الذي انتهبوه من القصر فقال له شيخ يعرف بابن الخباز الغافعل الذئب مناسبة فكيف تهلكنا بما فعل السفهاء منا ولو فعل الامير ما أشير به عليه لكان صوابا من الرأي فقال وما ذلك قال تعمد الى هؤلاء النفر الستة الذين سعوا في الفتنة فتأخذ رؤسهم وتشرد بهم من خلفهم ثم تأخذنا نحن بغرم المال فقال لعمري لقد أصبت ثم أمر بالقاضي المغيلي وابنه

وابن أبي طاط وابنه وابن جشار وأخيه فقتلوا ورفعت على الشرفات رؤسهم وأخذ الباقين بغرم المال طوعا وكرها ﴿قال ابن خلدون﴾ فكان ذلك مما عبد رعية فاس وقادها الاحكام بني مرين وضرب الرهب على قلوبهم فخشعت منهم الاصوات وانقادت منهم الهمم ولم يحدثوا بعدها أنفسهم بغمس يد في فتنة وكان مقتل النفر المذكورين خارج باب الشريعة يوم الاحد الثامن من رجب المذكور

## ﴿استيلاء الامير أبي بكر على مدينة سلا ثم ارتجاعها منه وهزيمة المرتضى بعد ذلك﴾

لما أكمل الله للامير أبي بكر فتح مدينة فاس واستوسق أمر بني مرين بها رجع الى ما كان فيه من منازلة بلاد فازاز فافتتحها ودوّخ أوطان زناتة واقتضى مغارمهم وحسم علل الثائرين بها ثم تخطى ذلك الى مدينة سلا ورباط الفتح سنة تسع وأربعين وستمائة فملكها وتاخم الموحدين بثغرها واستعمل عليها ابن أخيه يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق وعقد له على ذلك الثغر وضم الاعمال اليه وبلغ الخبر بذلك الى المرتضى بمراكش فأهمه الشأن وأحضر الملأ من الموحدين وفاوضهم واعتزم على حرب بني مرين وسرح العساكر سنة خمسين وستمائة فأحاطت بسلا ثم افتتحوها وعادت الى طاعة المرتضى وعقد عليها لابي عبد الله بن يعلو من مشيخة الموحدين ثم أجمع المرتضى النهوض بنفسه الى بني مرين فبعث في المدائن والقبائل حاشرين فاهرعت اليه أمم الموحدين والعرب والمصامدة وغيرهم وفصل من مراكش سنة ثلاث وخمسين وستمائة في نحو الثمانين ألفا والى السير حتى انتهى الى جبال بهلولة من نواحي فاس وصمد اليه الامير أبو بكر في عساكر بني مرين ومن اجتمع اليهم من ذويهم والتقى الجمعان هنالك وصدقهم بنو مرين الجلاد فاختل مصاف الموحدين وانهزمت عساكر المرتضى وأسلمه قومه ورجع الى مراكش مفلولا واستولى بنو مرين على معسكره واستباحوا سرادقه وانتهبوا فساطيطه وغنموا جميع ما وجدوا بها من المال والذخيرة واستاقوا سائر الكراع والظهر وامتلأت أيديهم من الغنائم واعتز أمرهم وانبسط سلطانهم وكان يوماله ما بعده ﴿وفي القرطاس﴾ ان انهزام جيش المرتضى في هذه المرة كان عن جولان فرس بين أخبيتهم ليلا فحسبوا ان بني مرين قد أغاروا عليهم فانهزموا لا يلوون على شيء والله أعلم ثم غزا الامير أبو بكر بعد هذا بلاد تادلا فاستباح حاميتها من بني جابر عرب جشم واستلحم أبطالهم وألان من حدهم وخضد من شوكتهم وفي خلال هذه الحروب كان مقتل علي بن عثمان بن عبد الحق وهو ابن أخي الامير أبي بكر شعر منه بفساد الدخلة والاجماع للتوثب على الامر فدس لابنه أبي حديد مفتاح ابن أبي بكر بقتله فقتله في جهات مكناسة سنة احدى وخمسين وستمائة والله تعالى أعلم

## ﴿استيلاء الامير أبي بكر على سجلماسة ودرعة وسائر بلاد القبلة﴾

لما كانت سنة خمس وخمسين وستمائة نهض الامير أبو بكر الى محاربة يغمراسن بن زيان وسمع به يغمراسن فنهض اليه أيضا فكان اللقاء بأبي سليط فاقتتلوا وانهزم يغمراسن واعتزم الامير أبو بكر على اتباعه فثناه عن رأيه في ذلك أخوه يعقوب بن عبد الحق لعهد تأكد بينه وبين يغمراسن فرجع ولما انتهى الى القرمدة من أحواز فاس بلغه ان يغمراسن قصد سجلماسة ودرعة لمداخلة كانت له من بعض أهلها وعورة أطمعته في ملكها فاسرع الامير أبو بكر السير بجموعه الى سجلماسة فدخلها قبل وصول يغمراسن اليها بيوم ثم جاء يغمراسن حتى نزل خارجها بباب تاحسنت وسقط في يده ويئس من غلبة الامير أبي بكر عليها ودارت بينهما حرب تكافأ الفريقان فيها وهلك سليمان بن عثمان بن عبد الحق ابن أخي الامير أبي بكر وانقلب يغمراسن الى بلاده وعقد الامير أبو بكر على سجلماسة ودرعة وسائر بلاد القبلة ليوسف بن يزكاسن واستعمل على الجباية عبد السلام الاوربي وجعل مسلحة الجند بها لنظر أبي يحيى القطراني وملكه قيادتهم وانكفأ راجعا الى فاس والله تعالى أعلم

## ﴿وفاة الامير أبي بكر رحمه الله﴾

لما رجع الامير أبو بكر من حرب يغمراسن على سجلماسة أقام بفاس أياما ثم نهض الى سجلماسة أيضا متفقدا لثغورها فانقلب منها عليلا ووصل الى فاس فتوفي بقصره من قصبتها أواسط رجب سنة ست وخمسين وستمائة ودفن داخل باب الجيزيين من أبواب عدوة الاندلس بازاء الشيخ أبي محمد الفشتالي حسبما أوصى بذلك وتصدى للقيام بالامر بعده ابنه عمر على ما نذكره

## ﴿الخبر عن دولة أبي حفص الامير عمر بن أبي بكر بن عبد الحق رحمه الله﴾

لما مات الامير أبو بكر رحمه الله اشتمل العامة من بني مرين على ابنه أبي حفص عمر فبايعوه ونصبوه للامر وتبار وا في خدمته ومالت المشيخة وأهل العقد والحل الى عمه يعقوب بن عبد الحق وكان غائبا عند مهلك أخيه بتازا فلما بلغه الخبر أسرع اللحاق بفاس وتوجهت اليه وجوه الاكابر وأحس عمر بميل الناس الى عمه يعقوب فقلق لذلك وأغراه أتباعه بالفتك بعمه فاعتصم بالقصبة ثم سعى الناس في الاصلاح بينهما فتفادى يعقوب من الامر ودفعه الى ابن أخيه على ان تكون له بلاد تازا وبطوية وملوية التي كان أقطعه اياها أخوه من قبل فانفصلوا على ذلك وخلص الامر لعمر واستمر بفاس أشهرا الى ان غلب عليه عمه المذكور حسبما نقص عليك

## ﴿الخبر عن دولة السلطان المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق رحمه الله﴾

هذا السلطان جليل القدر عظيم الشان وهو سيد بني مرين على الاطلاق وستسمع من أخباره الحسنة ما يستغرق الوصف ويستوقف السمع والطرف وهو رابع الاخوة الاربعة الذين ولوا الامر بالمغرب من بني عبد الحق وكانت أمه واسمها أم اليمن بنت علي البطوي رأت وهي بكر كأن القمر خرج من قبلها حتى صعد الى السماء وأشرق نوره على الارض فقصت رؤياها على أبيها فسار الى الشيخ الصالح أبي عثمان الورياكلي فقصها عليه فقال ان صدقت رؤياها فستلد ملكا عظيما فكان كذلك ولما انفصل الامير يعقوب بن عبد الحق عن ابن أخيه عمر بولاية تازا وما أضيف اليها اجتمع اليه كافة بني مرين وعذلوه فيما كان منه من التخلي عن الملك وجاءوا على العود في الامر ووعدوه من أنفسهم المظاهرة والنصر الى ان يتم أمره فأجاب وبايعوه وصعد الى فاس فبرز الامير عمر للقائه ولما تراءى الجمعان خذل عمر جنوده وأسلموه فرجع الى فاس مفلولا ووجه الرغبة الى عمه أن يقطعه مكناسة وينزل له عن الامر فأجابه الى ذلك ودخل السلطان يعقوب مدينة فاس فملكها سنة سبع وخمسين وستمائة ونفذت كلمته في بلاد المغرب ما بين ملوية وأم الربيع وما بين سجلماسة وقصر كتامة واقتصر عمر على امارة مكناسة فتولاها أياما ثم اغتاله بعض عشيرته فقتلوه لنحو سنة من امارته فكفي الامير يعقوب أمره واستقام سلطانه وذهب التنازع والشقاق عن ملكه وكان يغمراسن بن زيان لما سمع بموت قرنه الامير أبي بكر سما له أمل في الاجلاب على المغرب فجمع لذلك قومه من بني عبد الواد واستظهر ببني توجين ومغراوة ووعدهم ومناهم وأطمعهم في غيل الاسد ثم نهض بهم الى المغرب حتى اذا انتهوا الى كلدامان صمد اليهم الامير يعقوب ففلهم وردهم على أعقابهم ومر يغمراسن في طريقه بتافرسيت من بلاد بطوية فاحرقوا وانتسفوا واستباحوا وأعظم النكاية ورجع الامير يعقوب الى فاس واقتفى مذهب أخيه الامير أبي بكر في فتح أمصار المغرب وتدويخ أقطاره وكان مما أكرمه الله به ان فتح أمره باستنقاذ مدينة سلا من أيدي نصارى الاصبنيول فكان له بها أثر جميل وذكر خالد رحمه الله

## ﴿استيلاء نصارى الاصبنيول على مدينة سلا وايقاع السلطان يعقوب بهم وطردهم عنها﴾

كان يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق قد استعمله عمه الامير أبو بكر بن عبد الحق على مدينة سلا لما ملكها

كما ذكرناه ولما استرجعها الموحدون من يده أقام يتقلب في جهاتها مترصدا الفرصة وامكانها فيها ولما بويع عمه السلطان يعقوب بن عبد الحق آسفته بعض الاحوال منه فذهب مغاضبا حتى نزل عين غبولة وألطف الحيلة في تملك رباط الفتح وسلا ليعتدهما ذريعة لما أسر في نفسه من التوثب على الامر فتمت له الحيلة وملك سلا وركب عاملها أبو عبد الله بن يعلو البحر فارا الى آزمور وخلف أمواله وحرمه فتملك يعقوب بن عبد الله ذلك وتمكن من البلد وجاهر بالخلع وصرف الى منازعة عمه السلطان يعقوب وجوه العزم وتمكنت الوحشة بين اليعقوبين وداخل يعقوب سلا لتجار الحرب من الاصبنيول في الامداد بالسلاح فتبار وا في ذلك وكثرت سفن المترددين منهم اليها حتى كثروا أهلها وزاد عددهم فعزموا على الثورة بها واهتبلوا فيها غرة عيد الفطر من سنة ثمان وخمسين وستمائة عند اشتغال الناس بعيدهم وثار وا بسلا في اليوم الثاني من شوال فوضعوا السيف في أهلها وقتلوا الرجال وسبوا الحرم وانتهبوا الاموال وكان الحادث بها عظيما وضبطوا البلد وتحصن يعقوب بن عبد الله برباط الفتح وطار الصريخ الى السلطان يعقوب بن عبد الحق وهو يومئذ بتازا دخلها أوائل شعبان من السنة المذكورة لاستشراف أحوال يغمراسن بن زيان فوصل اليه الخبر في اليوم الرابع من شوال المذكور فنهض السلطان يعقوب من فوره بعد أن صلى العصر بتازا من ذلك اليوم فاسرى ليلته تلك في نحو الخمسين فارسا ومن الغد صلى العصر بظاهر سلا فكان قطعه مسافة ما بينهما في يوم وليلة وهذا أمر خارق للعادة بلا شك أظهره الله على يد هذا السلطان لصدق عزمه وحسن نيته والا فالمسافة ما بين تازا وسلا ست مراحل أو أكثر ثم تلاحقت به جيوش المسلمين من القبائل والمتطوعة من جميع آفاق المغرب فحاصر النصارى بها وضيق عليهم ووالى القتال عليهم بالليل والنهار حتى اقتحمها عليهم عنوة لاربع عشرة ليلة من حصارها وأثخن فيهم بالقتل ونجا من نجا منهم الى سفنهم فنشروا قلاعهم وذهبوا يلتفتون وراءهم ثم شرع السلطان يعقوب رحمه الله في بناء السور الغربي من سلا الذي يقابل الوادي منها فانها كانت لا سور لها من تلك الجهة من أيام عبد المؤمن بن علي فانه كان قد هدم أسوار قواعد المغرب مثل فاس وسبتة وسلا حسبما قدمنا الخبر عنه في دولته ومن هذه الثلمة كان دخول النصارى الى سلا فشرع السلطان يعقوب رحمه الله في بنائه فبناه من أول دار الصناعة قبلة الى البحر جوفا وكان رحمه الله يقف على بنائه بنفسه ويناول الحجر بيده ابتغاء ثواب الله وتواضعا وسعيا في صلاح المسلمين حتى تم السور المذكور على أحسن وجه وأكمله وددار الصناعة المذكورة في هذا الخبر هي الدار التي كانت تصنع بها الاساطيل البحرية والمراكب الجهادية يجلب اليها العود من غابة المعمورة فتصنع هنالك ثم ترسل في الوادي وكان ذلك من الامر المهم في دولة الموحدين حسبما سلف ﴿قال في الجذوة﴾ دار الصناعة بسلا بناها المعلم أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الله بن محمد بن الحاج من أهل اشبيلية وكان من العارفين بالحيل الهندسية ومن أهل المهارة في نقل الاجرام ورفع الاثقال بصيرا باتخاذ الآلات الحربية الجافية اه وأما يعقوب ابن عبد الله الثائر فانه خشي بادرة السلطان يعقوب بن عبد الحق فخرج من رباط الفتح وأسلمه فضبطه السلطان وثقفه ثم نهض الى بلاد تامسنا فاستولى عليها وملك مدينة آنفى وهي المسماة الآن بالدار البيضاء فضبطها ولحق يعقوب بن عبد الله بحصن علودان من جبال غمارة فامتنع به وسرح السلطان ابنه أبا مالك عبد الواحد وعلي بن زيان لمنازلته وسار هو الى لقاء يغمراسن فلقيه وعقد معه المهادنة وافترقا على السلم ووضع أوزار الحرب ورجع السلطان الى المغرب فخرج عليه بنو أخيه ادريس على ما نذكره

## ﴿خروج بني ادريس بن عبد الحق على عمهم السلطان يعقوب بن عبد الحق رحمه الله﴾

قد تقدم لنا ان الامير عبد الحق المريني كان له تسعة من الولد أكبرهم ادريس وقتل مع والده في حرب رياح وكان لادريس هذا عدة أولاد بقوا في كفالة أعمامهم ولما أفضى الامر الى السلطان يعقوب كان

أولاد ادريس قد ملكوا أمر أنفسهم واشتدت شكيمتهم فنفسوا عليه ما آتاه الله من الملك ورأوا أنهم أحق به منه لان أباهم هو الاكبر من ولد عبد الحق كما مر فخرجوا على عمهم يعقوب ولحقوا بقصر كتامة وتابعوا ابن عمهم يعقوب بن عبد الله على رأيه واجتمعوا الى كبيرهم محمد بن ادريس بن عبد الحق وانضم اليهم من كان على رأيهم من عشيرتهم ومواليهم واعتصموا بجبال غمارة فنهض اليهم السلطان يعقوب وتلطف بهم حتى استنزلهم واسترضاهم وعقد لعامر بن ادريس منهم سنة ستين وستمائة على عسكر من ثلاثة آلاف فارس أو يزيدون من المتطوعة من بني مرين وأغزاهم الاندلس لجهاد العدو وبها وجاهم وفرض لهم في العطاء وشفع بهذه الفعلة الحسنة عمله في واقعة سلا وهو أول جيش عبر البحر الى الاندلس من بني مرين فكان لهم في الجهاد والمرابطة مواقف مذكورة ومقامات محمودة تبع الخلف فيها السلف ودام ذلك فيهم برهة من الدهر وقاموا عن أهل المغرب والاندلس بهذا الواجب العظيم رحمهم الله وجزاهم عن المسلمين خيرا * وأما يعقوب بن عبد الله صاحب سلا فانه أقام خارجا بالنواحي متنقلا في الجهات الى ان قتله طلحة بن محلى من أولياء السلطان يعقوب على ساقية غبولة من ناحية رباط الفتح سنة ثمان وستين وستمائة فكفى السلطان يعقوب أمره

## ﴿حصار السلطان يعقوب حضرة مراكش ونزوع أبي دبوس منها اليه وهلاك المرتضى بعد ذلك﴾

لما فرغ السلطان يعقوب من شأن الخارجين عليه من عشيرته أجمع رأيه لمنازلة المرتضى والموحدين في دارهم وحضرتهم ورأى انه أوهن لشوكتهم وأقوى لامره عليهم فبعث في قومه واحتشد أهل مملكته واستكمل التعبية وسار سنة ستين وستمائة حتى انتهى الى جبل جيليز فشارف دار الخلافة ونزل بعقرها وأخذ بمخنقها وخفقت ألويته على جنباتها وعقد المرتضى على حربه لابي دبوس ادريس بن محمد بن أبي حفص بن عبد المؤمن فعبا كتائبه ورتب مصافه وبرز لمدافعتهم ظاهر الحضرة فكانت بينهم حروب بعد العهد بمثلها هلك فيها الامير عبد الله بن يعقوب بن عبد الحق ففت مهلكه في عضدهم وارتحلوا عنها الى أعمالهم واعترضتهم عساكر الموحدين بوادي أم الربيع وعليهم يحيى بن عبد الله بن وانودين فاقتتلوا في بطن الوادي وانهزمت عساكر الموحدين هزيمة شنعاء وتركوا الاموال والاثاث فاحتوى بنو مرين على ذلك كله وهي واقعة أم الرجلين ثم سعى سماسرة الفتن عند الخليفة المرتضى في ابن عمه وقائد حربه أبي دبوس بانه يطلب الامر لنفسه وشعر هو بالسعاية في جانبه فخشي بادرة المرتضى ولحق بالسلطان يعقوب سنة احدى وستين وستمائة عند دخوله الى فاس من محاصرته مراكش فأقام عنده مليا ثم سأله الاعانة على أمره بعسكر يمده به وآلة يتخذها للملك ومال يصرفه في ضرورياته على ان يشركه في الفتح والغنيمة والسلطان فامده السلطان يعقوب بخمسة آلاف من بني مرين وبالمستجاد من الآلة والكفاية من المال وأهاب له بالعرب والقبائل من أهل مملكته وغيرهم ان يكونوا معه يدا واحدة حتى يبلغ مراده من فتح مراكش وسار أبو دبوس في الكتائب حتى شارف الحضرة ودس الى أشياعه من الموحدين بأمره فتار وأبا المرتضى فكان من فراره الى آزمور ونزوله على صهره ابن عطوش ومقتله على يده ما قدمناه ذكره في دولته واستتب أمر أبي دبوس بمراكش وثبت قدمه بها فبعث اليه السلطان في الوفاء بالمشارطة فاستنكف واستكبر ونقض العهد وأساء الرد فنهض اليه السلطان يعقوب في جموع بني مرين وعساكر المغرب بنخام عن اللقاء واعتصم بالاسوار فزحف اليه السلطان يعقوب وحاصره أياما ثم سار في الجهات والنواحي يحطم الزروع وينسف الاقوات وعجز أبو دبوس عن مدافعته فاستجاش عليه بيغمراسن ابن زيان ليفت في عضده ويشغله عما أمامه بما وراءه فكان ما نذكره

## ﴿وقعة تلاغ بين يعقوب بن عبد الحق ويغمراسن بن زيان﴾

لما نازل السلطان يعقوب حضرة مراكش وربض على ترائبه للتوثب عليها لم يجد أبو دبوس ملجأ من دون الاستظهار عليه بيغمراسن بن زيان ليأخذ بحجزته عنها فبعث اليه بالصريخ فى ذلك وأكد العهد وأسنى الهدية فشمر يغمراسن لاستنقاذه وجذب السلطان يعقوب عنه من خلفه بشن الغارات على ثغور المغرب وايقاد نار الفتنة بها فهاج عليه من السلطان يعقوب ليث عاديا وأرهف منه حدا ماضيا فافرج للوقت عن مراكش ورجع عوده على بدئه يريد تلمسان وصاحبها يغمراسن بن زيان فنزل فاسا وتلوم بها أياما حتى أخذ أهبة الحرب وعدة النزال ثم نهض الى تلمسان منتصف محرم سنة ست وستين وستمائة وسلك على آكرسيف ثم على تافرطاست وتزاحف الفريقان بوادى تلاغ وعبا كل منهما كتائبه ورتب مصافه وبرز النساء فى القباب سافرات على سبيل التحريش والتحريض والتحم القتال وطال القراع والنزال ولما فاء الفيء ومال النهار وكثرت حشود بنى مرين جموع بنى عبد الواد ومن اليهم انكشفوا ومنحوا العدو أكتافهم وهلك فى الحومة أبو حفص عمر بن يغمراسن بن زيان وكان كبير أولاده وولى عهده وهلك معه جماعة من عشيرته ولما انهزم بنو عبد الواد بقى يغمراسن فى ساقتهم حاميا لهم من بنى مرين أن تركبهم من خلفهم فكان ردءا لهم الى ان وصلوا الى بلادهم وكانت وقعة تلاغ يوم الاثنين الثانى عشر من جمادى الاخيرة من السنة المذكورة ورجع السلطان يعقوب الى مكانه من حصار مراكش والله غالب على أمره

## ﴿فتح حضرة مراكش ومقتل أبى دبوس وانقراض دولة الموحدين بها﴾

لما قفل السلطان يعقوب من حرب يغمراسن صرف عزمه الى غزو مراكش والعود الى حصارها كما كان أول مرة فنهض اليها من فاس فى شعبان سنة ست وستين وستمائة ولما عبر وادى أم الربيع بث السرايا وشن الغارات وأطلق الاعنة والايدى للنهب والعيث فحطموا زروعها وانتسفوا آثارها وتقروا نواحيها كذلك بقية عامه ثم غزا عرب الخلط من جشم بتادلا فاثخن فيهم واستباحهم ثم نزل وادى العبيد فأقام هنالك أياما ثم غزا بلاد صنهاجة فاستباحها ولم يزل ينقل ركابه فى أحواز مراكش ويجوس خلالها الى آخر ذى القعدة من سنة سبع وستين وستمائة فاجتمع أشياخ القبائل من العرب والمصامدة عند أبى دبوس وقالوا له يا مولانا كم تقعد عن حرب بنى مرين وقد ترى ما نزل بنا فى حريمنا وأموالنا منهم فاخرج بنا اليهم لعل الله يجعله سبب الفتح فانهم قليلون وجمهورهم وذو والشوكة منهم قد بقوا برباط تازا لحراسة ذلك الثغر من بنى عبد الواد ولم يزالوا يفتلون له فى الذروة والغارب حتى أجابهم الى رأيهم فاستعد للحرب وبرز من حضرة مراكش فى جيوش ضخمة وجموع وافرة فاستجره السلطان يعقوب بالفرار أمامه ليبعد عن مدد الصريخ فيستمكن منه فلم يزل أبو دبوس يسعى خلفه حتى نزل ودغفوا فحينئذ كر عليه السلطان يعقوب فالتحمت الحرب واختل مصاف أبى دبوس وفر يسابق الى مراكش وأين منه مراكش فأدركته الخيول وحطمته الرماح فخر صريعا واحتز رأسه وجىء به الى السلطان يعقوب فسجد شكرا لله تعالى وذلك يوم الاحد ثانى محرم سنة ثمان وستين وستمائة ثم تقدم السلطان يعقوب نحو مراكش وفر من كان بها من الموحدين الى تينملل وبايعوا اسحق أخا المرتضى فبقى ذبالة هنالك الى ان قبض عليه سنة أربع وسبعين وستمائة وجىء به فى جماعة من قومه الى السلطان يعقوب فقتلوا جميعا وانقرض أمر بنى عبد المؤمن والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين * ثم خرج الملأ وأهل الشورى من الحضرة الى لقاء السلطان يعقوب ففرح بهم وأمنهم ووصلهم ودخل مراكش فى عسكر ضخم وموكب فخم يوم الاحد التاسع من محرم المذكور وورث ملك آل عبد المؤمن وتملاه واستوسق أمره بالمغرب وتطامن الناس لبأسه وسكنوا لظل سلطانه وأقام بمراكش الى رمضان من سنته ثم أغزى ابنه الامير أبا مالك عبد الواحد بن يعقوب بلاد السوس فافتتحها وأوغل فى ديارها ودوخ أقطارها

ورجع الى أبيه واستمر السلطان يعقوب بمراكش يصلح شؤنها الى رمضان من سنة تسع وستين وستمائة فخرج بنفسه الى بلاد درعة فأوقع بعربها الوقيعة المشهورة التى خضدت من شوكتهم ورجع لشهرين من غزاته ثم أجمع الرحلة الى دار ملكه بفاس فعقد على مراكش لمحمد بن على بن يحيى من كبار أوليائهم ومن أهل خؤلته وكان من طبقة الوزراء وأنزله بقصبة مراكش وجعل المسالح فى أعمالها النظره وعهد اليه بتدويخ الاقطار ومحو آثار بنى عبد المؤمن وفصل من مراكش قاصدا حضرة فاس فى شوال من السنة المذكورة والله تعالى أعلم

## مراسلة السلطان أبى عبد الله محمد المستنصر بالله الحفصى للسلطان المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق رحمهما الله

كانت دولة بنى أبى حفص أصحاب تونس وافريقية فرعا من دولة بنى عبد المؤمن وشعبة منها حسبما نبهنا عليه غير مرة ولما ضعفت دولة بنى عبد المؤمن بمراكش والمغرب كان صاحب افريقية أبو زكريا يحيى ابن عبد الواحد الهنتاتى يأمل الاستيلاء عليها والتملك لها ويتمنى ذلك لو ساعده القدر لانه كان يرى انه أولى بتلك الحضرة من غيره حتى من بنى عبد المؤمن لانها أرض سلفه وموطن أصله وعشيرته لان عمالة مراكش لم تعرف الا للمصامدة من قديم الزمان وقبيلة هنتاتة هى صميمها وذؤابتها فبهذا ونحوه كان بنو أبى حفص يتطاولون الى ملك مراكش ولما نبغ بنو مرين بالمغرب وغلبوا على الكثير من ضواحيه كانوا يدعون الى أبى زكريا الحفصى تأليفا لاهل المغرب واستجلابا لمرضاتهم واتيانا لهم من ناحية أهوائهم اذ كانت صبغة الدعوة الموحدية قد رسخت فى قلوبهم فلو دعوا الى غيرها من أول الامر لحاصوا عنها حيصة حمر الوحش ولما لم يمكن بنى مرين ان يدعوا الى بنى عبد المؤمن لانهم أقتالهم واياهم ينازعون ولهم يحاربون ويجالدون دعوا الى طاعة الحفصيين الذين هم فرع منهم والدعوة الى الفرع كالدعوة الى أصله فلم تنفر نفوس أهل المغرب عنها وانما كان بنو مرين يسرون من ذلك حسوا فى ارتغاء ولهذا لما استقل السلطان يعقوب بالامر وتمكن له السلطان بالمغرب قطع دعوة الحفصيين حالا بعد ان كان أولا يدعو اليها هو واخوته من قبله وكان بنو أبى حفص ينشطون لذلك ويمدون بنى مرين ويمدونهم بالمال والسلاح وغير ذلك ولما عزم السلطان يعقوب على منازلة مراكش كتب الى أبى عبد الله محمد المستنصر بالله بن أبى زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبى حفص يخبره بذلك ويستمده حتى كأنه نائب عنه لا غير وأرسل بكتابه مع ابن أخيه عامر بن ادريس بن عبد الحق فى جماعة من وجوه دولته فأكرم المستنصر وفادتهم ثم لما فتح السلطان يعقوب مراكش واستولى عليها بعث اليه المستنصر بهدية فيها من أصناف الخيل الجياد والسلاح والثياب الرفيعة ما اختاره واستحسنه وبعث بذلك مع جماعة من وجوه دولته أيضا وفيهم الكاتب أبو عبد الله محمد الكنانى فتاطف الكاتب المذكور فى ذكر المستنصر على منبر مراكش حتى تم له ذلك بمحضر وفد الموحدين فعظم سرورهم وانقلبوا الى صاحبهم بالخبر واتصلت المودة والمهاداة بين المستنصر والسلطان يعقوب سائر أيامهم ولما هلك المستنصر وبويع ابنه أبو زكريا يحيى المدعو بالواثق اقتفى سنن أبيه فى ذلك فبعث الى السلطان يعقوب بهدية حافلة مع قاضى بجاية أبى العباس الغمارى سنة سبع وسبعين وستمائة فعظم موقعها من السلطان يعقوب وكان لابى العباس الغمارى هذا بالمغرب ذكر تحدث الناس به دهرا وقطع السلطان يعقوب لاول أمره الدعوة الى الحفصيين كما قلنا والله تعالى أعلم

## عقد السلطان يعقوب ولاية العهد لابنه أبى مالك بسلا وما نشأ عن ذلك من خروج قرابته عليه

كان السلطان يعقوب حين خرج من مراكش بعد فتحها قاصدا حضرة فاس دار ملك بنى مرين اجتاز

عدينة سلا فاراح بها أياما فطرقه مرض وعك منه وعكا شديدا فلما أبل من مرضه جمع قومه وعقد العهد لا كبر أولاده أبي مالك عبد الواحد بن يعقوب لما علم من أهليته لذلك وأخذ له البيعة عليهم جميعا فاعطوها طواعية وعز ذلك على القرابة من بني عبد الحق وهم أولاد وسط النساء بنو ادريس بن عبد الحق وبنو عبد الله بن عبد الحق وبنو رحو ابن عبد الحق وانما قيل لهم أولاد وسط النساء لان هؤلاء الثلاثة من بني عبد الحق كانوا أشقاء أمهم اسمها سوط النساء فلما بايع السلطان يعقوب لابنه أبي مالك بولاية العهد آسفهم ذلك لانهم كانوا يرون انهم أحق بالامر حسبما سلف فارتدوا على أعقابهم وقلبوا المجن وعادت هيف الى أديانها وأسروا من ليلتهم من سلا ولم يصحبوا الا بجبل علودان من بلاد غمارة عش خلافهم ومدرج فتنتهم وكان ذلك في عيد الفطر من سنة تسع وستين وستمائة وانضم اليهم بنو أبي عياد بن عبد الحق وشايعوهم على رأيهم فخرج السلطان يعقوب في أثرهم وقدم بين يديه ابنه الامير يوسف بن يعقوب في خمسة آلاف فاحاط بهم وأخذ بمخنقهم ولحق به أخوه أبو مالك في عسكره ومعه مسعود بن كانون شيخ سفيان ثم لحق بهم السلطان يعقوب في عساكره فحاصروهم ثلاثا ولما رأوا ان قد أحيط بهم سألوا الامان فبذله لهم وأنزلهم ومسح صدورهم واسترضاهم واستل سخائمهم ووصل بهم الى حضرته فسألوا منه الاذن في اللحاق بتلمسان حياء مما ارتكبوه من الخلاف فاذن لهم فاجازوا البحر الى الاندلس وخالفهم عامر بن ادريس لما آنس من ميل عمه اليه فبقي بتلمسان حتى توثق لنفسه بالعهد وعاد الى قومه بعد منازلة السلطان يعقوب لتلمسان حسبما نذكره عن قريب ﴿قال ابن خلدون﴾ واحتل هؤلاء القرابة من بني عبد الحق بارض الاندلس على حين أقفر من الحامية جوها واستأسد العدو على ثغورها وتحلبت شفاهه لالتهامها فتبوؤها أسودا ضارية وسيوفا ماضية معودين لقاء الابطال وقراع الحتوف والنزال مستغلظين بخشونة البداوة وصرامة العز وبسالة التوحش فعظمت نكايتهم في العدو واعترضوا في صدره شجى دون الوطن الذي كان طعمة له في ظنه وارتدوه على عقبه ونشطوا من هم المسلمين المستضعفين وراء البحر وبسطوا من آمالهم لمدافعة طاغيتهم وزاحموا أمير الاندلس في رياستها بمنكب قوي فتجافى لهم عن خطة الحرب ورياسة الغزاة من أهل العدوة من أعياصهم وغيرهم من أمم البربر وتافقوه في مستقر عزه وساهموه في الجباية بفرض العطاء والديوان فبذله لهم واستعدوا على العدو وحسن اثرهم فيه حسبما تلم بالبعض من ذلك ان شاء الله

## ﴿هجوم النصارى على العرائش وتيشمس من ثغور المغرب﴾

لما كان المحرم من سنة ثمان وستين وستمائة هجم النصارى على مدينة العرائش وتيشمس من ثغور العدوة المغربية فقتلوا رجالها وسبوا نساءها وانتهبوا أموالها وأضرموها نارا ورجعوا عودهم على بدءهم فركبوا أجفانهم ولحقوا ببلادهم ولم تنلهم شوكة السلطان يعقوب لانه كان مشغولا بفتح مراكش في التاريخ المذكور ولم يبين في القرطاس هؤلاء النصارى من هم

## ﴿وقعة ايسلي بين السلطان يعقوب بن عبد الحق ويغمراسن بن زيان﴾

لما أنعم الله على السلطان يعقوب بامتداد ظل ملكه في أقطار المغرب ونواحيه ونفوذ كلمته في حواضره وبواديه وتم له الصنع بفتح مراكش ووراثة كرسي بني عبد المؤمن بها وعاد الى فاس كما قلنا تحرك ما كان في نفسه من ضغائن يغمراسن بن زيان وما آسفه به من تخذيل عزائمه ومجاذبته عن قصده ورأى ان وقعة تلاغ لم تشف صدره ولا أطفأت نار موجدته فاجمع أمره لغزوه ونشطه لذلك ما صار اليه من الملك وسعة السلطان فحشد جميع أهل المغرب وعزم على استئصاله وقطع دابره فعسكر بفاس وبعث ولده أبا مالك الى مراكش في جماعة من خواصه حاشرين في صداتها وضواحيها فاجتمع عليه من

قبائل العرب والمصامدة وصنهاجة وبقايا عساكر الموحدين بالحضرة وحامية الامصار من جند الفرنج وناشبة الغز واستكثر من ذلك كله واحتفل السلطان يعقوب بفاس كذلك ثم نهض منها غرة صفر سنة سبعين وستمائة فسار حتى نزل وادى ملوية فأقام عليه أياما حتى لحقه ابنه أبو مالك فى جموعه وتوافت لديه أمداد العرب من قبائل جشم أهل تامسنا الذين هم سفيان والخلط والعاصم وبنو جابر ومن معهم من الاثبج وقبائل ذوى حسان والشبانات من معقل أهل السوس الاقصى وقبائل رياح أهل ازغار وبلاد الهبط فعرض هنالك عساكره وميزها ورتبها فيقال انها بلغت ثلاثين ألفا وارتحل يريد تلمسان ولما انتهى الى انكاد قدمت عليه رسل ابن الاحمر ووفد أهل الاندلس يستصرخونه على العدو ويسألونه الاعانة والنصر ويخبرونه بأنه قد كاب عليهم وشره لالتهام بلادهم فتحركت همته رحمه الله للجهاد ونصر المسلمين واغاثة المستضعفين منهم ونظر فى صرف الشواغل عن ذلك وجنح للسلم مع يغمراسن وعزم عليها واستشار الملأ من أشياخ العرب وبنى مرين فى ذلك فصوبوا رأيه لما كانوا عليه أيضا من ايثار الجهاد ومحبته فبعث السلطان يعقوب جماعة من أشياخ القبائل الى يغمراسن يدعونه الى الصلح واجتماع الكلمة وقال لهم فى جملة قوله ان الصلح خير كله فان جنح يغمراسن اليه وأناب فذاك والا فاسرعوا الى بالخبر فسارت الاشياخ الى يغمراسن فوافوه بظاهر تلمسان وقد أخذ أهبته واستعد للقاء واحتشد قبائل زناتة المجاورين له فى تلك البلاد من بنى عبد الواد وبنى راشد وأحلافهم ومغراوة من عرب بنى زغبة فبلغوه الرسالة وعرضوا عليه مقالة السلطان يعقوب فأبى واستكبر وصم عن سماع قولهم وموعظتهم وقال أبعد مقتل ولدى أصالحه والله لا كان ذلك أبدا حتى أنال ثأرى به وأذيق أهل المغرب النكال من أجله فرجعت الرسل الى السلطان يعقوب بالخبر وتزاحف الفريقان فكان اللقاء على وادى ايسلى من بسيط وجدة وعبأ السلطان يعقوب كتائبه ورتب مصافه وجعل ابنه عبد الواحد فى الميمنة وابنه يوسف فى الميسرة ووقف هو فى القلب ودارت بينهم رحى الحرب وركدت مليا وهلك فى الحومة أبو عنان فارس بن يغمراسن بن زيان فى جماعة من بنى عبد الواد وهلك عامة عسكر الفرنج الذين كانوا معهم لثباتهم بثبات يغمراسن فطحنتهم رحى الحرب وتقبض على قائدهم برنيس وانهزم الباقون ونجى يغمراسن فى فله حاميا لهم ومدافعا عنهم من خلفهم ومر فى هزيمته بفساطيطه فأضرمها نارا تفاديا من معرة استيلاء العدو عليها وانتهبت بنو مرين باقى معسكره واستبيحت حرمه وارتحل السلطان يعقوب من الغد فى أثره حتى اذا انتهى الى وجدة وقف عليها فأمر بهدمها فتسارعت أيدى الجند اليها وجعلوا عاليها سافلها وألصقوا بالرغام جدرانها وتركوها قاعا صفصفا وكانت هذه الوقعة منتصف رجب من سنة سبعين وستمائة ثم تقدم الى تلمسان فنزل عليها وحاصرها أياما وأطلق الايدى فى ساحتها بالنهب والعيث ثم شن الغارات على البسائط فاكتسحها سبيا ونسفها نسفا وهلك فى طريقه الى تلمسان وزيره عيسى بن ماساى وكان من عليه وزرائه وحماة ميدانه وله فى ذلك أخبار مذكورة وكان مهلكه فى شوال من السنة المذكورة وقدم عليه وهو محاصر لتلمسان الامير أبو زيان محمد بن عبد القوى بن العباس ابن عطية كبير بنى توجين من زناتة فى جيش كثيف من قومه مباهيا بينوده وطبوله وآلة حربه وكان قدومه هذا بقصد مظاهرة السلطان يعقوب على يغمراسن وتلمسان لعداوة كانت بينهما فأكرم السلطان يعقوب وفادته واستركب الناس للقائه واتخذ زينة السلاح لمباهاته واستمر الحصار على تلمسان وعظمت نكاية بنى توجين فيها بتخريب الرباع وانتساف الجنات وقطع الثمار وافساد الزرع وتحريق القرى والضياع لما كان يغمراسن يعاملهم فى بلادهم بمثل ذلك أو أكثر ولما امتنعت تلمسان على السلطان يعقوب وأيس من فتحها لحصانتها واشتداد شوكة حاميتها عزم على الافراج عنها وأشار على الامير محمد بن عبد القوى بالقفول الى مأمنه قبل ان ينهض هو عن تلمسان ووصله وقومه وملأ حقائبهم من

التحف وجنب لهم مائة من الخيل المقربات الجياد بمراكبها وأراح عليهم ألف ناقة حلوب وعمهم بالخلع الفاخرة والصلات الوافرة واستكثر لهم من السلاح والفازات والفساطيط وحملهم على الظهر وارتحلوا الى منجاتهم ومقرهم من جبل وانشريس وتلوم السلطان يعقوب عليهم أياما ريثما وصلوا حذرا عليهم من يغمراسن أن ينتهز الفرصة فى اتباعهم ثم أقلع السلطان عن تلمسان وثنى عنانه الى المغرب فوصل الى رباط تازا فى أول يوم من ذى الحجة من السنة المذكورة فعيد بها عيد النحر ثم ارتحل الى فاس فدخلها افاتح سنة احدى وسبعين وستمائة فأقام بها الى اليوم الحادى عشر من صفر فتوفى ولده وولى عهده الامير أبو مالك عبد الواحد بن يعقوب فأسف لفقده ثم صبر واحتسب ثم نهض الى مراكش فدخلها أوائل ربيع الثانى من السنة المذكورة فاقام بها اشهرا حتى أصلح من شأنها ثم نهض الى طنجة وسبتة على مانذكره

## ﴿فتح طنجة وسبتة وما كان من أمر العزفى بهما﴾

قد تقدم لنا فى دولة أبى حفص عمر المرتضى أن الفقيه أبا القاسم العزفى استبد عليه بسبتة وتوارث ذلك بنوه من بعده وكان هؤلاء العزفيون من بيوتات سبتة وأهل الرياسة والعلم والدين فيهم ولما ضعف أمر بنى عبد المؤمن بالمغرب استقل الفقيه أبو القاسم بن أبى العباس العزفى برياستها وضبطها وانتظم فى طاعته سائر أعمالها ولما كانت سنة ثلاث وستين وستمائة بعث الفقيه المذكور أجفانه الى مدينة آصيلا فهدموا أسوارها ونقضوا قصبتها لانه خاف عليها من خلائها أن يملكها العدو ويتمنع بها واستمرت أموره فى سبتة ونواحيها على السداد وكانت طنجة تالية لسبتة فى سائر أحوالها وكانتا معا من أحصن بلاد المغرب فدخل صاحب طنجة وهو أبو الحجاج يوسف بن محمد الهمدانى المعروف بابن الامير فى طاعة أبى القاسم المذكور ثم انتقض عليه لمضى سنة من طاعته واستبد وخطب لابن أبى حفص صاحب افريقية ثم للخليفة العباسى صاحب بغداد ثم لنفسه وسلك فى طنجة مسلك العزفى فى سبتة ولبثوا على ذلك ماشاء الله حتى اذا ملك بنو مرين المغرب وافتتحوا معاقله وحصونه وهلك الامير أبو بكر بن عبد الحق وابنه أبو حفص عمر من بعده فتحيز بنوه فى أتباعهم وحشمهم الى ناحية طنجة وآصيلا فأوطنوا ضاحيتها وعاثوا فى نواحيها وضيقوا على أهل طنجة حتى شارطهم ابن الامير على خراج معلوم على ان يكفوا الاذية ويحموا الحوزة ويصلحوا السابلة فاتصلت يده بيدهم وترددوا الى البلد لاقتضاء حاجاتهم ثم مكروا وأضمروا الغدر فدخلوا فى بعض الايام متأبطين السلاح وفتكوا بابن الامير غيلة فثارت بهم عامة أهل طنجة واستلحموهم لحينهم فى مصرع واحد سنة خمس وستين وستمائة واجتمعوا على ولده فبايعوه وبقيت فى ملكته خمسة أشهر ثم استولى عليها أبو القاسم العزفى فنهض اليها بعساكره من الرجل برا وبحرا وملكها وفر ابن الامير فلحق بتونس ونزل على المستنصر الحفصى واستقرت طنجة فى ايالة العزفى فضبطها وقام بامرها وولى عليها من قبله وأشرك الملأ من أشرافها فى الشورى ولما استولى السلطان يعقوب على حضرة مراكش ومحى دولة آل عبد المؤمن منها وفرغ من أمر عدوه يغمراسن هم بتلك الناحية وأحب أن يضيفها الى ما بيده ليصفو له أمر المغرب الاقصى كله فنهض الى طنجة ونازلها مفتتح اثنتين وسبعين وستمائة لانها كانت فى البسيط دون سبتة فكان أمرها أسهل فحاصرها نحو ثلاثة أشهر فامتنعت عليه ويئس منها وعزم على الافراج عنها فبينما هو يقاتل فى عشى اليوم الذى عزم على النهوض فى غده اذا بجماعة من رماتها اقاموا على برج ورفعوا لواء أبيض ونادوا بشعار بنى مرين وذلك لخلاف وقع بينهم داخل البلد فتسارع الجند اليهم فملكوهم البرج فتسوروا اليه الحيطان وقاتلوا عليه سائر ليلتهم الى الصباح ثم تكاثرت جيوش بنى مرين واقتحموا البلد عنوة ونادى منادى السلطان يعقوب بالامان فلم يهلك من أهلها الا النفر يسير ممن رفع يده للقتال وشهر السلاح ساعة الدخول وكان

ذلك في ربيع الاول سنة اثنتين وسبعين وستمائة ولما فرغ السلطان يعقوب من طنجة بعث ولده الامير يوسف الى سبتة فحاصرها العزفي أياما ثم لاذ بالطاعة على ان يبقى ممتنعا بحصنه ويؤدي للسلطان خراجا معلوما كل سنة فقبل السلطان منه ذلك وأفرجت عنه عساكره وعاد الى فاس والله غالب على أمره

## ﴿فتح سجلماسة وما كان من أمرها﴾

قد ذكرنا ما كان من استيلاء الامير أبي بكر بن عبد الحق على سجلماسة ودرعة وانه عقد على مسلحتها لابي يحيى القطراني الذي كان السبب في فتحها عليه ولما هلك الامير أبو بكر استبد القطراني المذكور بسجلماسة ثم غلبه عليها المرتضى وقتل القطراني بواسطة القاضي ابن حجاج حسبما تقدم ذلك كله ثم غلب عليها بعد حين يغمراسن بن زيان بواسطة عرب المنبات من بني معقل أهل الصحراء وعقد عليها لعبد الملك بن محمد العبد الوادي المعروف بابن حنينة نسبة الى أمه وهي أخت يغمراسن بن زيان ولما فتح السلطان يعقوب بلاد المغرب وانتظمها في ملكته وجه عزمه الى افتتاح سجلماسة وانتزاعها من أيدي بني عبد الواد المتغلبين عليها فنهض اليها في رجب سنة اثنتين وسبعين وستمائة في جموع بني مرين وقبائل المغرب من العرب والبربر ونازلها ونصب عليها آلات الحصار من المجانيق والعرادات وغير ذلك ﴿قال ابن خلدون﴾ ونصب عليها هندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزانة أمام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة ترد الافعال الى قدرة باريها اهـ كلامه ﴿قلت﴾ وفيه فائدة أن البارود كان موجودا في ذلك التاريخ وان الناس كانوا يقاتلون به ويستعملونه في محاصراتهم وحروبهم يومئذ وفيه رد لما نقله أبو زيد الفاسي في شرح منظومته الموضوعة في العمل الجاري بفاس قال كان حدوث البارود سنة ثمان وستين وسبعمائة حسبما ذكره بعضهم في تأليف له في الجهاد وانه استخرجه حكيم كان يعمل الكيمياء فرقع له فاعاده فأعجبه فاستخرج منه هذا البارود اهـ وصرح الشيخ أبو عبد الله بناني في حاشيته على مختصر الشيخ خليل بان حدوثه كان في وسط المائة الثامنة وهو غير صواب لما علمت من كلام ابن خلدون انه كان موجودا قبل ذلك بنحو مائة سنة ويغلب على ظني ان لفظ السبعمائة تصحف بالسبعمائة فسرى الغلط من ذلك والله أعلم * وأقام السلطان يعقوب على حصار سجلماسة حولا كاملا وكان سفهاؤها يصعدون فوق الاسوار ويعلنون بالسب والفحش الى ان هتك المنجنيق ذات يوم طائفة من سورها فدخلت من هنالك عنوة بالسيف وعاث الجند في أهلها فقتلوا المقاتلة وسبوا الذرية وأتى القتل على عاملها عبد الملك ابن حنينة ومن كان بها من أشياخ بني عبد الواد وعرب المنبات وكان فتحها آخر صفر وقيل يوم الجمعة ثالث ربيع الاول سنة ثلاث وسبعين وستمائة وكمل بفتحها للسلطان يعقوب فتح بلاد المغرب وتمشت طاعته في أقطاره فلم يبق فيه أهل حصن يدينون بغير دعوته ولا جماعة تحيز الى غير فئته

## ﴿أخبار السلطان المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق المريني في الجهاد وما كان له بالاندلس من الذكر الجميل والفخر الجزيل رحمه الله﴾

قد تقدم لنا ما كان للعدو الكافر على المسلمين في وقعة العقاب من الظهور والغلبة وأن تلك الوقعة كانت سبب ضعف المسلمين بالمغرب والاندلس واستيلاء العدو الكافر على جل ثغورها وحصونها ولما ضعف أمر الموحدين بالمغرب استبد السادة منهم بالاندلس وصاروا الى المنافسة فيما بينهم واستظهار بعضهم على بعض بالطاغية واسلام حصون المسلمين اليه في سبيل تلك الفتنة فمشت رجالات الاندلس بعضهم الى بعض وأجمعوا على اخراج الموحدين من أرضهم فثاروا بهم لوقت واحد وأخرجوهم وتولى كبر ذلك محمد بن يوسف بن هود الجذامي ثم من بعده محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الاحمر ونازع ابن هود

الرياسة بالاندلس ولاتسأل عما ذهب فى منازعتهما من حصون المسلمين الكثيرة وبلادهم العديدة الشهيرة التى منها قرطبة واشبيلية قاعدتا أرض الاندلس كان كل واحد من هذين الثائرين يتقرب الى الطاغية بما غلب عليه من ذلك ليعينه على صاحبه والامر لله وحده وانقرض أمر ابن هود عن أمد قريب واستمرت دولة ابن الاحمر فى عقبه الى آخر المائة التاسعة ولما استتب أمر ابن الاحمر بالاندلس عقد السلم مع الطاغية على ان ينزل له عن جميع بسائط عرب الاندلس فنزل له عنها أجمع ولجأ بالمسلمين الى سيف البحر معتصمين باوعاره ومتشبثين بمعاقله وحصونه واختار ابن الاحمر لنزوله مدينة غرناطة واتخذها كرسى مملكته وابتنى بها السكاة حصن الحمراء وكان ابن الاحمر هذا يدعى بالشيخ وكان قد عهد الى ولده القائم من بعده محمد المعروف بالفقيه لانتحاله طلب العلم فى صغره وأوصاه اذا نابه أمر من العدو أو وصل اليه مكروه ان يستنصر عليه بنى مرين ويدرأ بهم فى نحره ويجعلهم وقاية بين العدو وبين المسلمين فلما تكالب الطاغية على بلاد الاندلس بادر محمد الفقيه الى العمل باشارة والده وأوفد مشيخة الاندلس كافة على السلطان يعقوب رحمه الله فلقيه وفدهم منصرفا من فتح سجلماسة فتبادر والسلام عليه وألقوا اليه كنه الخبر عن كلب العدو على المسلمين وثقل وطأته فحيى وفدهم واستبشر بمقدمهم وبادر لاجابة داعى الله وايثار الجنة وكان السلطان يعقوب رحمه الله منذ أول أمره مؤثرا عمل الجهاد كلفا به مختار الله لو أعطى الخيار على سائر أعماله حتى لقد كان اعتزم على الغزو الى الاندلس أيام أخيه الامير أبى بكر وطلب اذنه فى ذلك فلم يأذن له فكان فى نفسه من ذلك شغل وله اليه صاغية فلما قدم عليه هذا الوفد نبهوا عزيمته وأيقظوا همته فاعمل فى الاحتشاد وبعث فى النفير ونهض من فاس فى شوال سنة ثلاث وسبعين وستمائة فوصل الى طنجة وأقام هنالك وجهز خمسة آلاف من قومه أزاح عللهم وأجزل أعطياتهم وعقد عليهم لابنه أبى زيان وأعطاه الراية واستدعى من العزفى صاحب سبتة السفن لاجازتهم فوافاه بقصر المجاز منه عشرون اسطولا فاجاز العسكر المذكور ونزل بطريف فى السادس عشر من ذى القعدة من السنة المذكورة فاراح الامير أبو زيان بطريف ثلاثا ثم دخل دار الحرب وتوغل فيها وأجلب على ثغورها وبسائطها وامتلأت أيديهم من المغانم وأثخنوا بالقتل والاسر وتخريب العمران ونسف الآثار حتى نزل بساحة شريش فخام حاميتها عن اللقاء وتحصنوا بالاسوار وقفل الامير أبو زيان الى الجزيرة الخضراء وقد امتلأت أيدى عسكره من الاموال وحقائبهم من السبى وركائبهم من السلاح والاثاث ورأى أهل الاندلس ان قد ثأروا بمام العقاب بعد أن لم تنتصر لهم راية من ذلك اليوم الى الآن والله غالب على أمره

## ﴿ الجواز الاول للسلطان يعقوب الى الاندلس برسم الجهاد ﴾

ثم اتصل الخبر بالسلطان يعقوب رحمه الله ان العدو قد أخذ فى الاستعداد وعزم على الخروج الى بلاد المسلمين فاعتزم على الغزو بنفسه وخشى على ثغور بلاده من عادية يغمراسن صاحب تلمسان فبعث حافده تاشفين بن عبد الواحد بن يعقوب فى وفد من بنى مرين لعقد السلم مع يغمراسن والرجوع للاتفاق والموادعة ووضع أوزار الحرب بين المسلمين للقيام بوظيفة الجهاد فاكرم موصله وموصل قومه وبادر الى الاجابة والالفة وأوفد مشيخة بنى عبد الواد على السلطان يعقوب لعقد السلم وبعث معهم الرسل وأسنى الهدية وجمع الله كلمة الاسلام وعظم موقع هذه السلم من السلطان يعقوب لما كان فى نفسه من الميل الى الجهاد وايثار مبرورات الاعمال فبث الصدقات شكرا لله تعالى على ما منحه من التفرغ لذلك ثم استنفر الكافة واحتشد القبائل والجموع ودعا المسلمين الى جهاد عدوهم وخاطب فى ذلك سائر أهل المغرب من زناتة والعرب والموحدين والمصامدة وصنهاجة وغمارة وأوربة ومكناسة وجميع قبائل البربر من المرتزقة والمتطوعة وأهاب بهم وشرع فى عبور البحر فاجازهم من فرضة قصر المجاز فى صفر سنة أربع

وسبعين وستمائة واحتل بساحل طريف وكان السلطان يعقوب حين استصرخه ابن الاحمر وأوفد عليه
مشايخ الاندلس اشترط عليه السلطان يعقوب النزول عن بعض الثغور بساحل الفرضة لاحتلال
عساكره بها فتجافى له عن رندة وطريف ولما أحس الرئيس أبو محمد بن اشقيلولة باجازة السلطان يعقوب
قدم اليه الوفد من أهل مالقة ببيعتهم وصريخهم وكان أبو محمد بن اشقيلولة وأخوه أبو اسحق من أصهار
ابن الاحمر وكانا مستوليين على مالقة ووادى آش وقمارش ووقعت بينهما وبين ابن الاحمر منافسة فخرجا
عن طاعته ولما عبر السلطان يعقوب الى الاندلس بادر أبو محمد بن اشقيلولة اليه واتصل به وأمحضه
الود والنصح وسابق ابن الاحمر فى ذلك ونازعه فى برور مقدمه والاذعان له وربما صدرت من ابن اشقيلولة
فى حق ابن الاحمر جفوة بمحضر السلطان يعقوب أدت الى بعض الفساد وانصرف ابن الاحمر مغاضبا
للسلطان من أجل ذلك ولما احتل السلطان بناحية طريف ملأت كتائبه ساحة الارض ما بينها
وبين الجزيرة الخضراء ثم نهض الى العدو قبل ان يسبق اليهم الخبر فدخل دار الحرب وانتهى الى الوادى
الكبير فعقد هنالك لولده الامير يوسف على خمسة آلاف من عسكره قدمها بين يديه ثم تبعه على أثره
وسرح كتائبه فى البسائط وخلال المعاقل تنسف الزروع وتحطم الغروس وتخرب العمران وتنهب
الاموال وتكتسح السرح وتقتل المقاتلة وتسبي النساء والذرية حتى انتهى الى حصن المدور وبياسة
وأبدة واقتحم حصن بلمة عنوة وأتى على سائر الحصون فى طريقه فطمس معالمها واكتسح أموالها وقفل
السلطان يعقوب رحمه الله والارض تموج سبيا الى ان عرس باستجة من تخوم دار الحرب وجاءه النذير
باتباع العدو آثاره لاستنقاذ أسراه واسترجاع أمواله وان زعيم الفرنج وعظيمهم نونه خرج فى طلبهم
فى أمم النصرانية من المحتلم الى الشيخ فقدم السلطان الغنائم بين يديه وسرح ألفا من الفرسان أمامها وسار
يقتفيها من خلفها حتى اذا أطلت رايات العدو من ورائهم كان الزحف ورتب المصاف وجرد السيف
وذكر اسم الله وراجعت زناتة بصائرها وعزائمها وتحركت هممها وأبلت فى طاعة ربها والذب عن دينها
وجاءت بما يعرف من بأسها وبلائها فى مقاماتها ومواقفها فلم يكن الا كلا ولا حتى هبت ريح النصر وظهر
أمر الله وانكشفت جموع النصرانية وقتل الزعيم نونه وكان هذا اللعين زعيم النصرانية بالاندلس
قد قدمه الفنش على جيوشه واستعمله على حروبه وفوض له فى جميع أموره وكان النصارى
قد سعدوا بطائره وتيمنوا بنقيبته لانه لم تهزم له قط راية وكان وبالا على بلاد الاسلام كثير الغارات عليها
حتى جمع الله بينه وبين السلطان يعقوب فأراحه من تعب الحرب وكد الغارات وألحقه بامه الهاوية ومنح
المسلمين رقاب الفرنج واستحر فيهم القتل حتى بلغت قتلاهم عدد الالوف وجمعوا من رؤسهم ما أذن
أذنوا عليها الصلاتى الظهر والعصر واستشهد من المسلمين ما يناهز الثلاثين أكرمهم الله تعالى بالشهادة
وآثرهم بما عنده ونصر الله حزبه وأعز أولياءه وأظهر دينه وبدا للعدو ما لم يكن يحتسبه بحاماة هذه
العصابة عن الملة وقيامها بنصر الكلمة وبعث السلطان يعقوب رحمه الله برأس الزعيم نونه الى ابن الاحمر
فيقال انه بعثه سرا الى قومه بعد ان طيبه وأكرمه ولاية أخلصها لهم ومداراة وانحرافا عن السلطان
يعقوب ظهرت شواهد ذلك عليه بعد حين ﴿واعلم﴾ ان هذا الزعيم يسميه كثير من المؤرخين دون نونه
ولفظة دون معناها فى لسانهم السيد أو العظيم أو ما أشبه ذلك فلذا أسقطناها وقفل السلطان يعقوب
من غزاته هذه الى الجزيرة الخضراء منتصف ربيع من السنة المذكورة فقسم فى المجاهدين الغنائم
وما نفلوه من أموال عدوهم وسباياهم وأسراهم وكراعهم بعد الاستئثار بالخمس لبيت المال على
موجب الكتاب والسنة ليصرفه فى مصارفه ويقال كان مبلغ الغنائم فى هذه الغزاة مائة ألف من البقر
وأربعة وعشرين ألفا من السبي ومن الاسارى سبعة آلاف وثمانمائة وثلاثون ومن الكراع أربعة
عشر ألفا وستمائة وأما الغنم فاتسعت عن الحصر كثرة حتى لقد زعموا انه قد بيعت الشاة الواحدة بدرهم

وكذلك السلاح وأقام السلطان يعقوب بالجزيرة أياما ثم نهض في جمادى الاولى من السنة المذكورة غازيا اشبيلية فجاس خلالها وتقرى نواحيها وأقطارها وأثخن بالقتل والنهب في جهاتها وعاث في عمرانها وأوغل في مسيره حتى وقف على بابها وزعقت طبوله في جوها وخفقت ألويته على جنباتها ولجأت الفرنج الى الاسوار واعتمدوا على الحصار ولم يخرج اليه منهم أحد ثم ارتحل الى شريش فاذاقها من وبال العيث والاكتساح مثل ذلك أو أكثر ورجع الى الجزيرة لشهرين من غزاته فبيعت الفرنجية من سبيها بمثقال ونصف لكثرة السبي حينئذ ودخل فصل الشتاء فنظر السلطان يعقوب في اختطاط مدينة بفرضة المجاز من العدوة لنزول عسكره منتبذا عن الرعية لما يلحقهم من ضرر العسكر وجفائهم وتخير لها مكانا ملاصقا للجزيرة فاوعز ببناء المدينة المشهورة بالبنية ثم أجاز البحر الى المغرب في رجب من سنته أعني سنة أربع وسبعين وستمائة فكان مغيبه وراء البحر ستة أشهر واحتل بقصر مصمودة وأمر ببناء السور على بادس مرفاء السفن ومحل العبور من بلاد غمارة ثم رحل الى فاس فدخلها في النصف من شعبان من السنة المذكورة

## ﴿فتح جبل تينملل ونبش قبور بني عبد المؤمن على يد المليانى عفا الله عنه﴾

قد تقدم لنا ان جبل تينملل كان حصنا للموحدين وملجأ لهم اذا نابهم مكروه وكان مسجده مزارا اعظيما لهم لانه مدفن امامهم وملحد خلفائهم فكانوا يعكفون عليه ويلتمسون بركة زيارته ويقدمون ذلك بين يدي غزواتهم قربة يتقربون بها الى الله تعالى ولما استولى السلطان يعقوب على مراكش فرمن كان بها من الموحدين الى الجبل المذكور واعتصموا به وبايعوا اسحق أخا المرتضى وأملوا منه رجع الكرة وادالة الدولة واستمر الحال على ذلك الى هذه السنة فنهض عامل مراكش من قبل السلطان يعقوب وهو محمد ابن على بن محلى أحد خؤلته ونازل الجبل المذكور وحاصره مدة ثم اقتحمه عنوة واقتض عذرته وفك ختامه وتقبض على خليفة الموحدين اسحق وابن عمه السيد أبي سعيد بن أبي الربيع ومن معهما من الاولياء وجنبوا الى مصارعهم بباب الشريعة من مراكش فضربت أعناقهم وصلبت أشلاؤهم وكان فيمن قتل منهم الكاتب القبائلى وأولاده وعاثت عساكر بنى مرين في جبل تينملل واكتسحوا أمواله ونبشوا قبور خلفاء بني عبد المؤمن واستخرجوا أشلاءهم وكان فيها شلو يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب المنصور فقطعت رؤسهم وتولى كبر ذلك أبو على بن أحمد الملياني كان أبو على هذا ثار على الحفصيين بمدينة مليانة فجهزوا اليه عساكرهم وأجهضوه عنها ففر الى السلطان يعقوب فقبله وآواه وأقطعه بلد اغمات اكراما له فحضر هذه الوقعة في جملة العسكر وارتكب هذا الفعل الشنيع ورأى انه قد شفى نفسه باستخراج هؤلاء الخلائق من أرماسهم والعبث باشلائهم وقد أنكر الناس عامة والسلطان يعقوب خاصة هذه الفعلة منه ولم يرضوها ومع ذلك فقد تجاوز له السلطان يعقوب عنها تأنيسا لغربته ورعيا لجواره ولما توفي السلطان يعقوب وولى بعده ابنه يوسف سعى اليه في المليانى هذا فنكبه على مانذكره ان شاء الله ولما وصل السلطان يعقوب من غزوته الى فاس انتقض عليه طلحة بن محلى أحد أخواله وتمنع بجبل آصروا من بلاد فازاز فسار اليه السلطان يعقوب وحاصره به فاناب الى الطاعة ونزل على الامان وذلك في منتصف رمضان سنة أربع وسبعين وستمائة وفي ثانى يوم من شوال من هذه السنة ثارت العامة باليهود بفاس بسبب حدث أحدثوه فقتلوا منهم أربعة عشر يهوديا ولولا ان السلطان ركب بنفسه ورد العامة عنهم لكانت اياها

## ﴿بناء المدينة البيضاء المسماة اليوم بفاس الجديد﴾

لما فتح جبل تينملل ومحيت منه بقية آل عبد المؤمن وتمهد ملك المغرب للسلطان يعقوب واستفحل أمره

وكثرت غاشيته ورأى أن يختط بلدا ينسب اليه ويتميز بسكناه وينزل فيه بحاشيته وأوليائه الحاملين لسرير ملكه فامر ببناء المدينة البيضاء الاصقة لمدينة فاس على ضفة واديها المخترق لها من جهة أعلاه وشرع فى تأسيسها ثالث شوال من سنة أربع وسبعين وستمائة وركب السلطان بنفسه فوقف عليها حتى خطت مساحتها وأسست جدرانها وجمع الايدى عليها وحشر الصناع والعملة لبنائها وأحضر لها أهل النجامة والمعدلين لحركات الكواكب فاختاروا لها من الطوالع ما يرضون أثره ويحمدون سيره وأسست فيه وكان فى أولئك المعدلين امامان شهيران أبو الحسن بن القطان وأبو عبد الله بن الحباك المقدمان فى الصناعة فكمل تشييد هذه المدينة على ما رسم رحمه الله وكما رضى ونزلها بحاشيته وذويه سنة أربع وسبعين المذكورة واختط الناس بها الدور والمنازل وأجريت فيها المياه الى القصور وكانت من أعظم آثار هذه الدولة وأبقاها على الايام ﴿قال ابن أبى زرع﴾ ومن سعادة طالعها انه لا يموت فيها خليفة ولم يخرج منها لواء قط الا كان منصورا ولا جيش الا كان ظافرا ثم أمر رحمه الله ببناء قصبة مكناسة فشرع فى بنائها وبناء جامعها فى السنة المذكورة ثم استوزر صنيعته أبا سالم فتح الله السدراتى وأجرى له رزق الوزارة على عادتهم ثم كافأ يغمراسن بن زيان على هديته التى كان بعث بها اليه قبل اجازته الى الاندلس فبعث اليه فسطاطا رائقا كان صنع له بمراكش وثلاثين من البغال الفارهة ذكرانا وانا ثا وغير ذلك مما يباهى به ملوك المغرب وفى سنة خمس وسبعين وستمائة أهدى اليه الامير محمد بن عبد القوى التوجينى صاحب جبل وانشريس أربعة من الجياد انتقاها من خيل المغرب كافة ورأى انها على قلة عددها أحفل هدية وفى نفسه أثناء هذا كله من أمر الجهاد شغل شاغل يتخطى اليه سائر أعماله حسبما نذكره ان شاء الله

## ﴿الجواز الثانى للسلطان يعقوب الى الاندلس برسم الجهاد﴾

لما قفل السلطان يعقوب من غزوته الاولى واستنزل الخوارج وثقف الثغور وهادى الملوك واختط المدينة البيضاء لنزوله كما ذكرنا خرج فاتح سنة خمس وسبعين وستمائة الى جهة مراكش لسد ثغورها وتثقيف أطرافها وتوغل فى أرض السوس وبعث وزيره فتح الله السدراتى فى العساكر فجاس خلالها ثم انكفأ راجعا وهنالك خاطب السلطان يعقوب رحمه الله قبائل المغرب كافة بالنفير الى الجهاد فتثاقلوا عليه فلم يزل يحرضهم وهم يسوفون الى ان دخلت سنة ست وسبعين بعدها ولما رأى تثاقل الناس عليه نهض الى رباط الفتح وتلوم به أياما فى انتظار الغزاة فابطؤا عليه فخف فى خاصته وتقدم فى حاشيته حتى انتهى الى قصر المجاز وقد تلاحق به الناس من كل جهة لما رأوا من عزمه وتصميمه فاجاز بهم البحر واحتل بطريف آخر محرم من السنة المذكورة ثم ارتحل الى الجزيرة الخضراء ثم الى رندة فوافاه بها الرئيسان أبو محمد عبد الله بن أبى الحسن على بن اشقيلولة صاحب مالقة وأخوه أبو اسحق ابراهيم بن أبى الحسن برسم الجهاد معه ثم ارتحل السلطان من رندة فاتح ربيع الاول من السنة المذكورة حتى انتهى الى اشبيلية فعرس عليها يوم المولد النبوى وكان بها يومئذ ملك الجلالقة ابن اذفونش فلم يجد بدا من الخروج اليه بعد ان خام عن اللقاء أولا فبرز فى جموعه وصفها على ضفة الوادى الكبير من ناحية السلطان وأظهر من أبهة الحرب ما قدر عليه فكانت جيوشه كلها فى الدروع السوابغ والبيض اللوامع والسيوف البواتر وغير ذلك من آلات الحرب التى يكاد شعاعها يدهش البصر وزحف اليه السلطان يعقوب رحمه الله بعد ان صلى ركعتين ودعا الله تعالى ووعظ الناس وذكرهم فرتب مصافه وجعل ولده الامير يوسف فى المقدمة وزحف على التعبية فاقتتلوا مليا ثم انهزمت الفرنج فتساقط بعضهم فى الوادى وانحدر آخرون مع ضفته وتصاعد آخرون كذلك واقتحم المسلمون عليهم وسط الماء وقتلوهم فى لجته حتى صار الماء أحمر وطفت جيفهم من الغد عليه فكان فيهم عبرة لمن اعتبر وبات السلطان والمسلمون تلك الليلة على صهوات خيولهم يقتلون ويأسرون وأضرموا النيران بساحة اشبيلية حتى صار الليل

نهارا .

نهارا وباتت الفرنج على الاسوار ينفخون فى القرون ويحترسون طول ليلتهم ثم ارتحل السلطان من الغد الى جبل الشرف وبث السرايا فى نواحيه فلم يزل يتقرى تلك الجهات حتى أباد عمرانها وطمس معالمها ودخل حصن قطنيانة وحصن جليانة وحصن القليعة عنوة وأثخن فى القتل والسبى ثم ارتحل بالغنائم والاثقال الى الجزيرة الخضراء فدخلها فى الثامن والعشرين من ربيع الاول المذكور فاراح بها وقسم الغنائم فى المجاهدين ثم خرج غازيا مدينة شريش منتصف ربيع الآخر فنازلها وأذاقها نكال الحرب ووبال الحصار وقطع الزياتين والاعناب وسائر الاشجار وأباد خضراءها وحرق ديارها وأثخن فيها بالقتل والاسر وكان السلطان يعقوب يباشر قطع الشجر والثمر بيده وسرح ولده الامير يوسف من معسكره فى سرية للغارة على اشبيلية وحصون الوادى الكبير فبالغ فى النكاية واكتسح حصن روطة وشلوقة وغليانة والقناطر ثم صبح اشبيلية فاكتسحها وانكفأ راجعا بالمغانم والسبى الى السلطان يعقوب فسر بمقدمه وقفلوا جميعا الى الجزيرة الخضراء فاراح السلطان بها أياما وقسم فى المجاهدين غنائمهم ثم جمع أشياخ القبائل وندبهم الى غزو قرطبة وقال يامعشر المجاهدين ان اشبيلية وشريش وأحوازها قد ضعفت وبادت ولم يبق لكم بها كبير نفع ولا نكاية وان قرطبة وأعمالها بلاد حصينة عامرة وعليها اعتماد الفرنج ومنها معاشهم ومادتهم فان غزوتموها واستأصلتم خضراءها مثل مافعلتم باشبيلية وشريش كان ذلك سبب ضعف النصرانية بهذا القطر فاجابوا بالسمع والطاعة فدعا لهم وفرق فيهم الاموال والخلع وخاطب ابن الاحمر يستنفره للجهاد معه وقال له ان خروجك معى الى قرطبة يكون لك مهابة فى قلوب الفرنج ماعشت سوى ماتستوجبه من الله تعالى من الثواب فى ذلك ونهض السلطان الى قرطبة فاتح جمادى الاولى من سنة ست وسبعين المذكورة فوافاه ابن الاحمر بناحية شدونة فاكرم موصله وشكر خفوفه الى الجهاد وبداره اليه ونازلوا حصن بنى بشير فدخلوه عنوة وقتلت المقاتلة وسبيت النساء ونفلت الاموال وهدم الحصن حتى لم يبق له أثر ثم بث السلطان رحمه الله السرايا والغارات فى البسائط فاكتسحوها وامتلأت الايدى وأثرى العسكر وفاض عليهم من الغنم والبقر والمعز والخيل والبغال والحمير والقمح والشعير والزيت والعسل مالا يوصف ثم ساروا يتقرون المنازل والعمران فى طريقهم حتى احتلوا بساحة قرطبة فنازلوها وخفقت ألوية السلطان فى نواحيها وزعقت طبوله فى فضائها وتقدم فى أبطاله وحماته حتى وقف على بابها ثم دار باسوارها ينظر كيف الحيلة فى قتالها ووقف ابن الاحمر بعساكر الاندلس أمام محلة المسلمين يحرسونها خوفا من كرة العدو وخنس الفرنج وراء الاسوار وانبثت بعوث المسلمين وسراياهم فى نواحى قرطبة وقراها فنسفوا آثارها وخربوا عمرانها وترددوا على جهاتها ودخلوا حصن الزهراء بالسيف وأقام السلطان على قرطبة ثلاثا ثم ارتحل عنها الى حصن بركونة فدخله عنوة ثم ارجونة كذلك ثم قدم بعثا الى مدينة جيان فقام بها حظهامن الخسف والدمار وخام الطاغية عن اللقاء وأيقن بخراب عمرانه واتلاف بلاده فجنح الى السلم وخطبه من السلطان يعقوب ورغب فيه اليه وبعث الاقسة والرهبان للوساطة فى ذلك فرفعهم السلطان يعقوب الى ابن الاحمر وجعل الامر فى ذلك اليه تكرمة لمشهده ووفاء بحقه وقال لوفد الفرنج انما أنا ضيف والضيف لا يصالح على رب المنزل فساروا الى ابن الاحمر وقالوا له ان السلطان يعقوب قد رد الامر اليك ونحن قد جئناك لنعقد معك صلحا مؤبدا لا يعقبه غدر ولا حرب وأقسموا له بصلبانهم ان لم يرضه الفنش ليخلعنه لانه لم ينصر الصليب ولا حمى الحوزة فاجابهم ابن الاحمر اليه بعد عرضه على أمير المسلمين والتماس اذنه فيه لما فيه من المصلحة وجنوح أهل الاندلس اليه منذ المدد الطويلة فانعقد السلم فى آخر شهر رمضان من السنة المذكورة وقفل السلطان يعقوب من غزاته هذه وجعل طريقه على غرناطة احتفاء بالسلطان ابن الاحمر وخرج له عن الغنائم كلها فاحتوى عليها ابن الاحمر وساقها الى غرناطة وقال له

السلطان يعقوب يكون حظ بنى مرين من هـذه الغزاة الاجر والثواب مثل مافعـل يوسف بن تاشفين رحمه الله مع أهل الاندلس يوم الزلاقة ولما قفل السلطان يعقوب من هذه الغزوة اعتل الرئيس أبو محمد ابن اشقيلولة ثم هلك غرة جمادى من السنة المذكورة فلحق ابنه محمد بالسلطان يعقوب آخر شهر رمضان وهو متلوم بالجزيرة الخضراء منصرفه من الغزو كما ذكرناه فتنزل له عن مالقـة ودعاه الى حوزها منـه وقال له ان لم تحزها أعطيتها للفرنج ولا يتملكها ابن الاحمر فحازها السلطان يعقوب منه وعقد عليها لابنه أبى زيان منـديل بن يعقوب فسـار اليها وتملكها واعتز ذلك على ابن الاحمر غاية لانه لما بلغه وفاة أبى محمـد ابن اشقيلولة سما أمله اليها وان ابن أخته وهو محمـد الوافد على السلطان يعقوب شـيعة له لا يبغى به بدلا فأخطأ ظنه وخرج الامر بخـلاف ما كان يرتقب ولما قضى السلطان يعقوب بالجزيرة الخضراء صومه ونسكه خرج الى مالقـة فدخلها سادس شوال من السـنة وبرز اليـه أهلها فى يوم مشهود واحتفلوا له احتفال أيام الزينة سرورا بمقـدم السلطان واغتباطا بدخولهـم فى دعوته وانخراطهـم فى سلك رعيته وأقام فيهم الى خاتم سنته ثم عقد عليها لعمر بن يحيى بن محلى من صنائع دولتهـم وأنزل معه المسالح وترك عنده زيان بن أبى عيـاد بن عبد الحق فى طائفة لنظره من أبطال بنى مرين واسـتوصاه بمحمد بن اشقيلولة وارتحل الى الجزيرة الخضراء ثم أجاز منها الى المغرب فاتح سـنة سبع وسـبعين وستمائة وقد اهتزت الدنيا لمقدمه وامتلأت القلوب سرورا وابتهاجا بما أعاه الله من نصر المسلمين بالاندلس وعلو راية الاسلام على كل راية وعظمت بذلك كله موجدة ابن الاحمر ونشأت الفتنة كما نذكره ان شاء الله

## حدوث الفتنة بين السلطان يعقوب وابن الاحمر وما نشأ عن ذلك من حصار الجزيرة الخضراء وغير ذلك

قد تقـدم لنا ان بنى اشقيلولة كانوا أصهار الابن الاحمر وانهم لما قدموا على السلطان يعقوب بالجزيرة الخضراء فى جوازه الاول صـدرت من ابن اشقيلولة كلمات أحفظت ابن الاحمر وغاظته فذهب لاجلها مغاضبا وانحرف عن السلطان يعقوب ولم يشهد معـه الغزو ولا عرج على الجهاد ولما نصر الله السلطان يعقوب على عدوه وقتـل العلج وبعث برأسـه الى ابن الاحمر طيبه وبعثه الى قومه انحرافا عن السلطان وموالاة للعدو ولما جاز السلطان يعـقوب الجواز الثانى انقبض عنه ابن الاحمر ولم يلقه حتى خاطبـه السلطان واستنفره الى الجهاد فلحقه بشدونة كامر ولما صـنع الله للسلطان ما صنع من الظهور والعز الذى لا كفاء له واسـتولى على مالقة من يد ابن اشقيلولة ارتاب ابن الاحمر بمكانه وظن به الظنون وتخوف منـه ما كان من يوسف بن تاشـفين للمعتمد بن عباد وغـيره من ملوك الطوائف فغص بمكانه وأظلم الجو بينهـما ودارت بينهـما مخاطبات شـعرية على ألسـنة الكتاب فى معنى العتاب ولم تزل القوارص بين السلطانين تجرى وعقارب السعاية تدب وتسرى وخوف ابن الاحمر على ملكه يشتد ويزيد وأوامر الاخوة الاسلامية تتلاشى وتبيد الى ان استحكمت البغضاء وضاق بينهـما رحب الفضـاء ففزع ابن الاحمر الى مداخلة الطاغيـة فى شأنه واتصال يده بيـده وحبله بحبله وأن يعود الى منزلة أبيه معـه من ولايته ليدافع به السلطان يعقوب وقومه عن أرضه ويأمن معه من زوال سلطانه فاغتنم الطاغية هذه الفرصة ونكث عهد السلطان يعقوب ونقض السلم وأعلن بالحرب وأغزا أساطيله الجزيرة الخضراء حيث كانت مسـالح السلطان يعقوب وجنوده وأرست بالزقاق حيث فراض المجاز وانقطعت عساكر السلطان وراء البحر وحال العـدو بينهـم وبين اغاثته اياهم واتصلت يد ابن الاحمر بيد الطاغيـة واتفقا على منع السلطان يعقوب من عبور البحر وداخـل ابن الاحمر عمر بن يحيى بن محـلى صاحب مالقـة فى النزول له عنها بعوض ففعل واستولى ابن الاحمر عليها ثم راسل هو والطاغية يغمراسن بن زيان من وراء البحر وراسلهـم هو فى مشاقة السلطان وافساد ثغوره وازال العوائق المـانعـة له من حركته والاخـذ

بأذياله عن النهوض الى الغزو وأسنوا فيما بينهما الهدايا والتحف وجنب يغمراسن الى ابن الاحمر ثلاثين من عتاق الخيل مع ثياب من عمل الصوف وبعث اليه ابن الاحمر مكافأة على ذلك عشرة آلاف دينار فلم يرض بالمال ورده وأصفقت آراؤهم جميعا على السلطان يعقوب ورأوا ان قد أبلغوا في احكام أمرهم وسد مذاهبه اليهم واتصل خبر هذا كله بالسلطان وهو بمراكش كان خروج اليها من جمعه من الغزو في المحرم سنة سبع وسبعين وستمائة لما كان من عيث عرب جشم بتامسنا وافسادهم السابلة فثقف أطرافها وحسم مادة فسادها ثم اتصل به خبر ابن محلى ونزوله عن مالقة لابن الاحمر ومنازلة الطاغية باساطيله للجزيرة الخضراء وتضييقه على المسلمين بها فبلغ ذلك منه كل مبلغ ونهض من مراكش ثالث شوال من السنة يريد طنجة فوصل الى قرية مكول من بلاد تامسنا فتوالت عليه بها الامطار والسيول وعاقته عن النهوض وبينما هو في ذلك ورد عليه الخبر أيضا بنزول الطاغية على الجزيرة الخضراء برا واحاطة عسكره بها بعد ان كانت أساطيله منازلة لها في البحر منذ ستة أشهر أو سبعة وانه مشرف على التهامها وبعثوا اليه يستصرخونه ويخبرونه بالحال فاعتزم على الرحيل ثم اتصل به الخبر ثانيا بخروج مسعود بن كانون السفياني ببلاد نفيس من أرض المصامدة خامس ذي القعدة من السنة وان الناس اجتمعوا اليه من قومه وغيرهم فانخرقت على السلطان الفتوق وتوالت عليه الخطوب ولم يدر ما يصنع الا انه رأى ان يقدم أمر ابن كانون والعرب فكر راجعا اليه وقدم بين يديه حافده تاشفين بن أبي مالك ووزيره يحيى بن حازم العلوي وجاء هو على ساقتهم وفر مسعود بن كانون وجموعه أمام السلطان فانتهب معسكرهم وحللهم واستباح عرب الحارث من سفيان ولحق مسعود بجبل سكسيوة فاعتصم به وشايع عبد الواحد السكسيوي القائم به على خلافه ونازله السلطان يعقوب بمعاكره أياما وسرح ابنه الامير أبا زيان منديل الى بلاد السوس لتمهيدها وتدويخ أقطارها فأوغل في ديارها وقفل الى أبيه في آخر يوم من السنة المذكورة واتصل بالسلطان ما تضاعف على أهل الجزيرة من ضيق الحصار وشدة القتال واعواز الاقوات وانهم ختنوا الاصاغر من أولادهم خشية عليهم من معرة الكفر فاهمه ذلك وكان أقسم أن لا يرتحل عن ابن كانون حتى ينزل على حكمه أو يهلك دون ذلك فاعمل النظر فيما يكون به خلاص أهل الجزيرة فعقد لولي عهده ابنه الامير يوسف وكان بمراكش على الغزو اليها وكان أهل الجزيرة كما قلنا قد أحاط بهم العدو برا وبحرا وانقطعت عنهم المواد وعميت عليهم الانباء الا ما يأتيهم به الحمام من جبل طارق وفني أكثرهم بالقتل والجوع وسهر الليل على الاسوار وشدة الحصار حتى أشرف بقيتهم على الهلاك وأيسوا من الحياة فحينئذ جمعوا صبيانهم وختنوهم كما مر وبينما هم على ذلك قدم الامير يوسف بجيوشه الى طنجة وكان قدومه اليها في أوائل صفر من سنة ثمان وسبعين وستمائة وكان السلطان يعقوب لما بعث ابنه الامير يوسف الى طنجة قد كتب الى الثغور باعداد الاساطيل وعمارتها وتوجيهها اليه وقسم الاعطيات وحض الناس على النهوض فتوفرت همم المسلمين على الجهاد وأجابوا من كل ناحية وأبلى الفقيه أبو حاتم العزفي صاحب سبتة لما بلغه الخطاب من السلطان في شأن الاساطيل البلاء الحسن وقام فيه المقام المحمود فهيأ خمسة وأربعين أسطولا واستنفر كافة أهل بلده من المحتلم الى الشيخ فركبوا البحر أجمعون ولم يبق بسبتة الا النساء والشيوخ والصبيان ورأى ابن الاحمر ما نزل بأهل الجزيرة وأشراف الطاغية على أخذها فندم على ممالاته اياه وأعد أساطيل سواحله من المنكب والمرية ومالقة فكانت اثني عشر اسطولا فبعثها مددا للمسلمين وقدم من بادس وسلا وآنفي خمسة عشر اسطولا فنض في الوقت اثنان وسبعون اسطولا واجتمعت كلها بمرفأ سبتة قد أخذت بطرفي الزقاق في أحفل زي وأكمل استعداد ثم تقدمت الى طنجة ليراها الامير يوسف فشاهدها ومر بها وعقد لهم رايته مع جماعة من أبطال بني مرين رغبوا في الجهاد ثم أقلعت الاساطيل عن طنجة ثامن ربيع الاول سنة ثمان وسبعين

وستمائة وانتشرت قلاعهم فى البحر فأجازوه وباتوا ليلة المولد الكريم بعرفاء جبل الفتح وصبحوا العدو وأساطيله يومئذ تناهز أربعمائة فتظاهر المسلمون فى دروعهم وأسبغوا من شكتهم وأخلصوا لله عزائمهم وتنادوا بالجنة وشعارها ووعظ خطباؤهم وذكر صلحاؤهم والتحم القتال ونزل الصبر فلم يكن الا كلا ولا حتى نضحوا العدو بالنبل ففسدت افروطتهم واختل مصافهم وانكشفوا وتساقطوا فى عباب البحر فاستلحمهم السيف وغشيهم اليم واستولى المسلمون على أساطيلهم فملكوها وأسروا قائدها الملند فى جماعة من حاشيته واستمر منتقما بفاس حتى فر بعد ذلك وسر المسلمون الذين بداخل الجزيرة بفساد افروطة العدو وهلاكها ولما رأى عسكر الطاغية الذى فى البر ما أصاب أهل البحر منهم من القتل والاسر داخلهم الرعب وخافوا من هجوم الامير يوسف عليهم اذ كان مقيما بساحل طنجة مستعدا للعبور فقوضوا أبنيتهم وأفرجوا عن البلد لحينهم وانتشر المسلمون والنساء والصبيان بساحة البلد كأنما نشروا من قبر وغلبت مقابلتهم كثيرا من عسكر العدو على متاعهم فغنموا من الحنطة والادام والفواكه ما ملأ أسواق البلد أياما حتى وصلتها الميرة من النواحى وأجاز الامير يوسف البحر من حينه فاحتل بساحل الجزيرة وأرهب العدو فى كل ناحية لكنه صده عن الغزو شأن الفتنة مع ابن الاحمر فرأى ان يعقد مع الطاغية سلما ويصل يده بيده لمنازلة غرناطة دار ابن الاحمر فاجابه الطاغية الى ذلك رهبة من بأسه وموجدة على ابن الاحمر فى مدد أهل الجزيرة وبعث أساقفته لعقد ذلك واحكامه فأجازهم الامير يوسف الى أبيه وهو بناحية مراكش فغضب لها وأنكر على ابنه وزوى عنه وجه رضاه وأقسم أن لا يرى اسقفاهم الان براه بارضه ورجعهم الى طاغيتهم مخفق السعى كاسف البال ووصلت فى هذه السنة هدية السلطان أبى زكريا يحيى الواثق الحفصى مع أبى العباس الغمارى حسبما مرت الاشارة اليه قبل هذا * ثم ان السلطان يعقوب رحمه الله رجع الى فاس وبعث خطابه الى الآفاق مستنفرا للجهاد وفصل عنها غرة رجب من سنة ثمان وسبعين وستمائة حتى انتهى الى طنجة وعاين ما اختل من أحوال المسلمين فى تلك الفترة وما جرت اليه فتنة ابن الاحمر من اعتزاز الطاغية وما حدثته نفسه من التهام الجزيرة الاندلسية ومن فيها وكان قد أمر أمره فى هذه المدة وظاهره أعداء ابن الاحمر من بنى اشقيلولة وغيرهم عليه حتى حاصروا غرناطة ومرج أمر الاندلس ونغلت أطرافها وأشفق السلطان يعقوب رحمه الله على المسلمين الذين بها وعلى ابن الاحمر مما ناله من خسف الطاغية فراسله فى الموادعة واتفاق الكلمة على أن يتنزل له عن مالقة التى خادع عنها ابن محلى كما تقدم فامتنع ابن الاحمر وأساء الرد فى ذلك فرجع السلطان يعقوب الى ازالة العوائق عن شأنه فى الجهاد وكان من أعظمها فتنة يغمراسن واستيقن ما كان بينه وبين ابن الاحمر والطاغية ابن اذفونش من الاتصال والاصفاق على تعويقه عن الغزو فبعث الى يغمراسن يسأله عن الذى بلغه عنه ويطلب منه تجديد الصلح وجمع الكلمة فلج فى الخلاف وكشف وجه العناد وأعلن بما وقع بينه وبين أهل العدوة الاندلسية مسلمهم وكافرهم من الوصلة وانه معتزم على وطء بلاد المغرب فصرف السلطان يعقوب عزمه الى غزو يغمراسن وقفل الى فاس لثلاثة أشهر من حلوله بطنجة فدخلها آخر شوال من السنة المذكورة وأعاد الرسل الى يغمراسن لاقامة الحجة عليه وقال له فيما خاطبه به الى متى يا يغمراسن هذا النفور والتمادى فى الغرور أما آن أن تنشرح الصدور وتنقضى هذه الشرور فى كلام غير هذا فصم يغمراسن عن ذلك كله ولم يرفع به رأسا ولما أيس السلطان يعقوب من اقلاعه ورجوعه نهض اليه من فاس آخر سنة تسع وسبعين وستمائة وقدم ابنه الامير يوسف فى العساكر وتبعه فأدركه بتازا ولما انتهى الى ملوية تلوم أياما فى انتظار العساكر ثم ارتحل حتى نزل وادى تافنا وصمد اليه يغمراسن بجموع زناتة والعرب بحللهم ونجعهم وشائهم ونعمهم والتقت طوالع القوم أولا فكانت بينهم ماحروب ثم ركب على آثارهما العسكران والتحم القتال سائر النهار وكان

الزحف بالموضع المعروف باللعب من أحواز تلمسان ثم انكشفت بنو عبد الواد عندما أراح القوم وانتهب معسكرهم بما فيه من الكراع والسلاح والفساطيط والمتاع وبات عسكر السلطان يعقوب تلك الليلة على متون جيادهم واتبعوا من الغد آثار عدوهم واكتسحت أموال العرب الناجعة الذين كانوا مع يغمراسن وامتلأت أيدي بني مرين من شائهم ونعمهم وتوغلوا في أرض يغمراسن ووافاه هنالك محمد بن عبد القوي أمير بني توجين لقيه بناحية القصبات وعاثوا جميعا في بلاده تخريبا ونهبا ثم أذن السلطان يعقوب لبني توجين في اللحاق ببلادهم وأخذ هو بمخنق تلمسان محاصرا لها حتى يصل محمد بن عبد القوي الى مأمنه من جبل وانشريس خوفا عليه من غائلة يغمراسن واتباعه اياه ثم أفرج عنها وقفل الى المغرب فدخل حضرة فاس في رمضان سنة ثمانين وستمائة ثم نهض الى مراكش فدخلها فاتح سنة احدى وثمانين بعدها فبنى بها بامرأة مسعود بن كانون السفياني لانه كان قد هلك قبل هذه السنة وسرح ابنه الامير يوسف الى السوس لتدويخ أقطاره ثم وافاه وهو بمراكش صريخ الطاغية على ما نذكره الآن

## ﴿الجواز الثالث للسلطان يعقوب الى الاندلس مغيثا للطاغية ومغتنما فرصة الجهاد﴾

لما كان السلطان يعقوب رحمه الله بمراكش سنة احدى وثمانين وستمائة قدم عليه كتاب طاغية الاصبنيول واسمه هراندة مع وفد من بطارقته وزعماء دولته مستصرخا له على ابنه سانجة الخارج عليه في طائفة من النصارى وانهم غلبوه على أمره زاعمين بانه شاخ وضعف عن تدبيرهم ولم يقدر على القيام بنصرتهم فاستنصره عليهم ودعاه لحربهم وأمله لاسترجاع ملكه من يدهم فاغتنم السلطان يعقوب هذه الفرصة في الحال وجعل جوابه نفس النهوض والارتحال فسار معهم لم يعرج على شئ حتى أتى قصر المجاز وهو قصر مصمودة فعبر منه واحتل لوقته بالجزيرة الخضراء في ربيع الثاني من سنة احدى وثمانين المذكورة وأوعز الى الناس بالنفير الى الجهاد واجتمعت عليه مسالح الثغور بالاندلس وسار حتى نزل صخرة عباد وهنالك قدم عليه الطاغية هراندة دليلا لعزة الاسلام مؤملا لصريخ السلطان فاكرم موصله وأكرم وفادته ﴿وذكر ابن خلدون وابن الخطيب وغيرهما من الاثبات﴾ ان هذا الطاغية لما اجتمع بالسلطان يعقوب قبل يده اعظاما للقدره وخضوعا للعزه فدعا السلطان رحمه الله بماء فغسل يده من تلك القبلة بمحضر من كان هنالك من جموع المسلمين والفرنج ثم التمس الطاغية من السلطان أن يمده بشئ من المال ليستعين به على حربه ونفقاته فأسلفه السلطان مائة ألف دينار من بيت مال المسلمين رهنه الطاغية فيها تاجه الموروث عن سلفه ﴿قال ابن خلدون﴾ وبقي هذا التاج بدار بني يعقوب بن عبد الحق فخر الاعقاب لهذا العهد ﴿قلت﴾ وما أبعد حال هذا الطاغية المهين من حال عطارد بن حاجب التميمي الذي لم يسلم قوس أبيه على تطاول السنين والقصة مشهورة فانظر ما بين الهمم العربية والعجمية من البون وحال الفريقين في الابتذال والصون * ثم ان السلطان يعقوب رحمه الله تقدم مع الطاغية ودخل دار الحرب غازيا حتى نازل قرطبة وبها يومئذ سانجة ابن الطاغية الخارج عليه مع طائفته فقاتلها أياما ثم أفرج عنها وتنقل في جهاتها وبعث سراياه الى جيان فأفسدوا زروعها ثم ارتحل الى طليطلة فعاث في جهاتها وخرب عمرانها حتى انتهى الى حصن مجريط من أقصى الثغر فامتلأت أيدي المسلمين وضاق معسكرهم بالغنائم التي استاقوها فقفل السلطان من أجل ذلك الى الجزيرة فاحتل بها في شعبان وأقام بها الى آخر السنة المذكورة وكانت غزوة لم يسمع الدهر بمثلها ﴿وفي هذه السنة﴾ توفي يغمراسن بن زيان على ما في القرطاس ﴿وذكر ابن خلدون﴾ أنه لما حضرته الوفاة أوصى ابنه عثمان وقال له يا بني ان بني مرين بعد استفحال ملكهم واستيلائهم على حضرة الخلافة بمراكش لا طاقة لنا بلقائهم فاياك أن تحاربهم فان مددهم موفور ومددك محصور ولا يغرنك اني كنت أحاربهم ولا أنكص عن لقائهم لاني كنت أخشى معرة الجبن عنهم بعد التمرس بهم والاجتراء عليهم وأنت لا يضرك ذلك لانك لم تحاربهم

قف واعتبر

ولم تمرس بهم فعليك بالتحصن ببلدك متى زحفوا اليك وحاول ما استطعت الاستيلاء على ما جاورك من عمالات الموحدين أصحاب تونس يستفحل بها ملكك وتكافئ حشد العدو بحشدك قال فعمل ابنه عثمان على وصيته وأوفد أخاه محمد بن يغمراسن على السلطان يعقوب وهو بالاندلس فى جوازه الرابع فعقد معه السلم على ما حب وانكفأ راجعا الى أخيه فطابت نفسه وتفرغ لافتتاح البلاد الشرقية

## انعقاد الصلح بين السلطان يعقوب وابن الاحمر والسبب فى ذلك

لما اتصلت يد السلطان يعقوب رحمه الله بيد الطاغية وقام معه فى ارتجاع ملكه خشى ابن الاحمر عاديته فجنح الى موالاة ابنه سانجة الخارج عليه ووصل يده بيده وأكد له العقد واضطرمت الاندلس نارا وفتنة بسبب هذا الخلاف ولما قفل السلطان يعقوب من غزوته مع الطاغية وقد ظهر على ابنه أجمع على منازلة مالقة التى استحوذ عليها ابن الاحمر وخدع عنها ابن محلى فنهض السلطان اليها من الجزيرة الخضراء فاتح سنة اثنتين وثمانين وستمائة فغلب أولا على الحصون الغربية كلها ثم أسف الى مالقة فأناخ عليها بعساكره وضاق على ابن الاحمر النطاق ولم تغن عنه موالاة سانجة شيأ وبدا له سوء المغبة فى شأن مالقة وندم على تناولها فأعمل نظره فى الخلاص من ورطتها ولم يرها الا الامير يوسف ابن السلطان يعقوب فخاطبه بمكانه من المغرب مستصرخا له لرقع هذا الخرق ورتق هذا الفتق وجمع كلمة المسلمين على عدوهم فأجابه واغتنم المثوبة فى مسعاه وعبر البحر الى الاندلس فى صفر سنة اثنتين وثمانين المذكورة فوافى أباه بمعسكره على مالقة ورغب منه السلم لابن الاحمر فى شأنها والتجافى له عنها فاسعف رغبة ابنه لما يؤمل فى ذلك من رضا الله عز وجل فى جهاد عدوه واعلاء كلمته وانعقد السلم وانبسط أمل ابن الاحمر وتجددت عزائم المسلمين للجهاد وقفل السلطان يعقوب الى الجزيرة الخضراء فبث السرايا فى دار الحرب فأوغلوا وأثخنوا ثم استأنف الغزو بنفسه الى طليطلة فخرج من الجزيرة غازيا غرة ربيع الثانى من سنة اثنتين وثمانين المذكورة حتى انتهى الى قرطبة فأثخن وغنم وخرب العمران وافتتح الحصون ثم ارتحل نحو البرت وترك محلته على بياسة بالمغانم والاثقال وترك معها خمسة آلاف فارس يحمونها من كرة العدو ثم أغذ السير فى أرض قفرة ليلتين حتى انتهى الى البرت من نواحى طليطلة فسرح الخيل فى البسائط وجالت فى أكنافها ولم تنته الى طليطلة لتثاقل الناس بكثرة الغنائم وأثخن فى القتل وقفل على غير طريقه فأثخن وخرب وانتهى الى أبدة فوقف بساحتها وقاتلها ساعة من نهار فرماه علج من خلف السور بسهم أصاب فرسه فارتحل عنها الى معسكره ببياسة فأراح بها ثلاثا ينسف آثارها ويقتلع أشجارها وقفل الى الجزيرة وبين يديه من السبى والغنائم ما يعجز عنه الوصف فدخلها فى شهر رجب من السنة المذكورة فقسم الغنائم ونفل من الخمس وولى على الجزيرة حافده عيسى بن عبد الواحد بن يعقوب فهلك شهيدا على شريش بسهم مسموم لشهرين من ولايته ثم عبر السلطان الى المغرب فاتح شعبان ومعه ابنه أبو زيان منديل فأراح بطنجة ثلاثا ثم نهض الى فاس فدخلها آخر شعبان ولما قضى صيامه ونسك عيده ارتحل الى مراكش لتمهيدها وتفقد أحوالها وقسم من نظره لنواحى سلا حظا فأقام برباط الفتح شهرين اثنين وتوفيت فى هذه المدة الحرة أم العز بنت محمد بن حازم العلوى وهى أم الامير يوسف وكانت وفاتها برباط الفتح فدفنت بشالة ثم نهض السلطان يعقوب الى مراكش فدخلها فاتح ثلاث وثمانين وستمائة وبلغه مهلك الطاغية هراندة بن اذفونش واجتماع النصرانية على ابنه سانجة الخارج عليه فتحركت همته الى الجهاد ثم سرح ابنه الامير يوسف ولى عهده بالعسكر الى بلاد السوس لغزو العرب الذين بها وكف عاديتهم ومحو آثار الخوارج المنتزين على الدولة فأجفلوا أمامه واتبع آثارهم الى الساقية الحمراء آخر العمران من بلاد السوس فهلك أكثر العرب فى تلك القفار جوعا وعطشا وقفل راجعا لما بلغه من اعتلال والده السلطان يعقوب فوصل الى مراكش وقد أبل من مرضه وعزم على الجهاد شكرا لله تعالى

على

على نعمة العافية ﴿وفي هذه السنة﴾ وصل ماء عين غبولة الى قصبة رباط الفتح بأمر السلطان يعقوب وكان ذلك على يد المعلم المهندس أبي الحسن على بن الحاج والله تعالى أعلم

﴿الجواز الرابع للسلطان يعقوب الى الاندلس برسم الجهاد﴾

لما اعتزم السلطان يعقوب على العبور الى الاندلس عرض جنوده وحاشيته وأزاح عللهم وبعث في قبائل المغرب بالنفير ونهض من مراكش في جمادى الآخرة لثلاث وثمانين وستمائة واحتل برباط الفتح منتصف شعبان فقضى به صومه ونسكه ثم ارتحل الى قصر المجاز وشرع في اجازة العساكر والحشود من المرتزقة والمتطوعة خاتم سنته ثم أجاز البحر بنفسه غرة صفر من سنة أربع وثمانين بعدها واحتل بظاهر طريف ثم سار الى الجزيرة الخضراء فاراح بها أياما ثم خرج غازيا حتى انتهى الى وادي لك وسرح الخيول في بلاد العدو وبسائطه يحرق وينسف فلما خرب بلاد النصرانية ودمر أرضهم قصد مدينة شريش فنزل بساحتها وأناخ عليها في العشرين من صفر سنة أربع وثمانين المذكورة وبث السرايا والغاوات في جميع نواحيها وبعث عن المسالح التي كانت بالثغور فتوافت لديه ولحقه حافده عمر بن عبد الواحد بجمع وافر من المجاهدين من أهل المغرب فرسانا ورجالا ووافته حصة العزفي صاحب سبتة غزاة ناشبة تناهز خمسمائة وأوعز الى ولي عهده الامير يوسف باستنفار من بقي من أهل العدوة وكان السلطان رحمه الله لما أناخ على شريش بعث وزيره محمد بن عطوا ومحمد بن عمران عيو نافوا فوا حصن القناطر وروطة واستكشفوا ضعف الحامية واختلال الثغور وعادوا الى السلطان فأخبروه ثم عقد السلطان لحافده منصور بن عبد الواحد على ألف فارس من بني مرين والغز وعرب العاصم والخلط والاثبج وأعطاه الراية وبعثه لغزو اشبيلية وذلك في يوم الاحد التاسع والعشرين من صفر من السنة المذكورة فغنموا ومروا بقرمونة في منصرفهم فاستباحوها وأثخنوا بالقتل والاسر ورجعوا وقد امتلأت أيديهم من الغنائم ثم عقد ثانية لحافده عمر بن عبد الواحد على مثلها من الفرسان في يوم الخميس الثالث من شهر ربيع الاول من السنة وأعطاه الراية وسرحه الى بسائط وادي لك فرجعوا من الغنائم بما ملأ العساكر بعد ان أثخنوا فيها بالقتل والتخريب وتحريق الزروع واقتلاع الثمار وأبادوا عمرانها ثم سرح ثامن ربيع المذكور عسكرا من خمسمائة فارس للاغارة على حصن ركش فوافوه على غرة فاكتسحوا أموالهم وسبوا ثم عقد تاسع ربيع أيضا لابنه أبي معرف على ألف من الفرسان وسرحه لغزو اشبيلية فساروا حتى هجموا عليها يوم المولد الكريم وتحصنت منه حاميتها بالاسوار فخرب عمرانها وقطع أشجارها وامتلأت أيدي عسكره سبيا وأموالا ورجع الى محلة السلطان وهي نازلة على شريش كما قدمناه من الحقائب ثم عقد ثالثة لحافده عمر منتصف ربيع المذكور لغزو حصن كان بالقرب من معسكره كان أهله يقطعون الطريق على من خرج من المحلة مفردا أو في قلة وسرح معه الرجل من الناشبة والفعلة بآلات من المساحي والفؤس وأمده بالرجل من المصامدة وغزاة سبتة فاقتحموه عنوة على أهله وقتلوا المقاتلة وسبوا النساء والذرية وألقوا أخذه بالتراب ونسفوا آثاره نسفا ولسبعة عشر من الشهر ركب السلطان الى حصن مرتقوط قريبا من معسكره فخربه وحرقه بالنار واستباحه وقتل المقاتلة وسبي الاهل ولعشرين من شهره المذكور وصل ولي عهده الامير يوسف من العدوة المغربية بنفير أهل المغرب وكافة القبائل في جيوش ضخمة وعساكر موفورة وركب السلطان للقائهم وبرور مقدمهم وعرض العساكر القادمة معه يومئذ فكانت ثلاثة عشر ألفا من المصامدة وثمانية آلاف من برابرة المغرب كلهم متطوع بالجهاد فعقد السلطان لولي العهد على خمسة آلاف من المرتزقة وألفين من المتطوعة وثلاثة عشر ألفا من الرجل وألفين من الناشبة وذلك في يوم الجمعة الخامس والعشرين من ربيع الاول المذكور وسرحه لغزو اشبيلية والاثخان في نواحيها فعبأ كتائبه ونهض لوجهه وبث

الغارات بين يديه فأثخنوا وسبوا وقتلوا واقتحموا الحصون واكتسحوا الاموال وعاج ولى العهد على الشرف والغابة من بسيط اشبيلية فنسف قراها واقتحم بعض حصونها وقفل الى معسكر السلطان وهو بمكانه من حصار شريش وفى يوم الاثنين السادس من ربيع الثانى قدم أبو زيان منديل ابن السلطان يعقوب من المغرب فى جيش كثيف فيهم خمسمائة فارس من عرب بنى جابر أهل تادلا مع كبيرهم يوسف ابن قيطون وفيهم من المتطوعة والناشبة عدد كثير فعقد له السلطان غداة وصوله وأمده بعسكر آخر وأغزاه قرمونة والوادى الكبير فأغار على قرمونة وطمعت حاميتها فى المدافعة فبرز واله وصدقهم القتال فانكشفوا حتى أدخلوهم البلد ثم أحاطوا ببرج كان قريبا من البلد فقاتلوه ساعة من نهار واقتحموه عنوة ولم يزل يتقرى المنازل والعمران حتى وقف بساحة اشبيلية فأغار واقتحم برجا كان هنالك عينا على المسلمين وأضرمه نارا وامتلأت أيدى عساكره وقفل الى معسكر السلطان على شريش ولثلاث عشرة ليلة من ربيع الثانى عقد السلطان لولى العهد الامير يوسف لمنازلة جزيرة كبتور فصمد اليها وقاتلها واقتحمها عنوة وفى ثانى جمادى الاولى عقد السلطان للحاج أبى الزبير طلحة بن يحيى بن محلى وكان بعد مداخلته أخاه عمر فى شأن مالقة سنة خمس وسبعين خرج الى الحج فقضى فرضه ورجع ومر فى طريقه بتونس فاتهمه الدعى ابن أبى عمارة كان بها يومئذ فاعتقله سنة اثنتين وثمانين ثم سرحه ولحق بقومه بالمغرب ثم عبر الى الاندلس غازيا مع السلطان يعقوب فعقد له فى هذا اليوم على مائتين من الفرسان وسرحه الى اشبيلية ليكون ربيئة للعسكر وبعث معه لذلك عيونا من اليهود والمعاهدين من النصارى يتعرفون له أخبار الطاغية سانجة والسلطان يعقوب رحمه الله أثناء هذا كله يغادى شريش ويراوحها بالقتال والتخريب ونسف الآثار وبث السرايا كل يوم وليلة فى بلاد العدو فلا يخلو يوم من تجهيز عسكر أو اغزاء جيش أو عقد راية أو بعث سرية حتى انتسف العمران فى جميع بلاد النصرانية وخرب بسائط اشبيلية ولبلة وقرمونة واستجة وجبال الشرف وجميع بسائط الفرنتيرة وأبلى فى هذه الغزوات عياد بن أبى عياد العاصمى من شيوخ جشم والخضر الغزى من أمراء الاكراد بلاء عظيما وكان لهم فيها ذكر وصيت وكذلك غزاة سبتة وكذا سائر المجاهدين من عرب جشم وغيرهم مثل مهلهل بن يحيى الخلطى صهر السلطان ويوسف بن قيطون الجابرى وغير هؤلاء ممن يطول ذكرهم فلما دمرها تدميرا وأوسعها تخريبا ونسفها نسفا واكتسحها غارة ونهبا وهجم فصل الشتاء وانقطعت الميرة عن العسكر اعتزم السلطان على القفول وأفرج عن شريش لآخر جمادى الاولى من السنة المذكورة بعد ان حاصرها نحوا من ثلاثة أشهر وعشرة أيام واتصل به ان العدو أوعز الى أساطيله باحتلال الزقاق والاعتراض دون الفراض فأوعز السلطان الى جميع سواحله من سبتة وطنجة وبلاد الريف ورباط الفتح والمنكب والجزيرة وطريف بتوجيه أساطيلهم فتوافت منها ستة وثلاثون اسطولا متكاملة فى عدتها فأحجمت أساطيل العدو عنها وارتدت على أعقابها واحتل السلطان يعقوب بالجزيرة الخضراء وهى المسماة اليوم بخوزيرت غرة رمضان من سنة أربع وثمانين وستمائة ونزل بقصره من المدينة الجديدة التى بناها بازائها فبرزت أساطيل المسلمين أمامه بالمرسى وهو جالس بشور قصره فلعبوا بمرأى منه فى البحر وتجاولوا وتناطحوا وتطاردوا كفعلهم ساعة الحرب فسر بذلك وأحسن اليهم وصرفهم الى حال سبيلهم

## ﴿وفادة الطاغية على السلطان يعقوب باحواز الجزيرة الخضراء وعقد الصلح بينهما والسبب فى ذلك﴾

﴿قال ابن خلدون رحمه الله﴾ لما نزل ببلاد النصرانية من السلطان يعقوب ما نزل من تدمير قراهم واكتساح أموالهم وسبى نسائهم وابادة مقاتلتهم وتخريب معاقلهم وانتساف عمرانهم زاغت منهم الابصار وبلغت القلوب الحناجر واستيقنوا أن لا عاصم لهم من أمير المسلمين فاجتمعوا الى طاغيتهم سانجة خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة متوجعين مما أذاقهم جنود الله من سوء العذاب وأليم النكال وجاؤه

على الضراعة لأمير المسلمين في السلم وايفاد الملأ من كبار النصرانية عليه في ذلك والا فلا تزال تصيبهم منه قارعة أو تحل قريبا من دارهم فأجاب الى ما دعوه اليه من الخسف والهضيمة لدينه وأوفد على أمير المسلمين وهو بالجزيرة الخضراء وفدا من بطارقتهم وشمامستهم يخطبون السلم ويضرعون في المهادنة والابقاء ووضع أوزار الحرب فردهم أمير المسلمين اعتزازا عليهم ثم أعادهم الطاغية بترديد الرغبة على ان يشترط ما شاء من عز دينه وقومه فاسعفهم أمير المسلمين وجنح الى السلم لما تيقن من صاغيتهم اليه وذلهم لعز الاسلام وأجابهم الى ما سألوه واشترط عليهم ما تقبلوه من مسالمة المسلمين كافة من قومه وغير قومه والوقوف عند مرضاته في ولاية جيرانه من الملوك أو عداوتهم ورفع الضريبة عن تجار المسلمين بدار الحرب من بلاده وترك التضريب بين ملوك المسلمين والدخول بينهم في فتنة واستدعى السلطان الشيخ أبا محمد عبد الحق الترجمان وبعثه لاشتراط ذلك واحكام عقده فسار عبد الحق الى الطاغية سانجة وهو باشبيلية فعقد معه الصلح واستبلغ وأكد في الوفاء بهذه الشروط ووفدت رسل ابن الاحمر على الطاغية وهو عنده لعقد السلم معه على قومه وبلاده دون أمير المسلمين وأن يكون معه يدا واحدة عليه فاحضرهم الطاغية بمشهد عبد الحق وأسمعهم ما عقد مع أمير المسلمين على قومه وأهل ملته كافة وقال لهم انما أنتم عبيد آبائي فلستم معي في مقام السلم والحرب وهذا أمير المسلمين على الحقيقة ولست أطيق مقاومته ولا دفاعه عن نفسي فكيف عنكم فانصرفوا ولما رأى عبد الحق ميله الى رضا السلطان ووسوس اليه بالوفادة عليه لتتمكن الالفة وتستحكم العقدة وأراه مغبة ذلك في سل السخيمة وتسكين الحفيظة فمال الى موافقته وسأله اتى الامير يوسف ولي عهد السلطان أولا ليطمئن قلبه فوصل اليه ولقيه على فراسخ من شريش وبات بمعسكر المسلمين هنالك ثم ارتحلا من الغد للقاء السلطان يعقوب وكان قد أمر الناس بالاحتفال للقاء الطاغية وقومه واظهار شعائر الاسلام وأبهته وان لا يلبسوا الا البياض فاحتفلوا وتأهبوا وأظهروا اعز الملة وشدة الشوكة ووفود الحامية وقدم الطاغية في جماعته سود اللباس خاضعين ذليلين فاجتمعوا بالامير بحصن الصخرات على مقربة من وادي لك وذلك يوم الاحد العشرين من شعبان سنة أربع وثمانين وستمائة وتقدم الطاغية فلقيه أمير المسلمين باحسن مبرة وأتم كرامة يليق بامثله من عظماء الملل وقدم الطاغية بين يديه هدية من طرف بلاده أتحف بها السلطان وولي عهده كان فيها زوج من الحيوان الوحشي المسمى بالفيل وحمارة من حمر الوحش الى غير ذلك من الطرف فتقبلها السلطان وابنه وأضعفوا له المكافأة وكمل عقد السلم وقبل الطاغية سائر الشروط ورضي بعز الاسلام عليه وانقلب الى قومه بملء صدره من الرضا والمسرة وسأل منه السلطان أن يبعث اليه بكتب العلم التي بايدي النصارى منذ استيلائهم على مدن الاسلام فبعث اليه منها ثلاثة عشر حملا فيها جملة من مصاحف القرآن الكريم وتفاسيره كابن عطية والثعلبي ومن كتب الحديث وشروحاتها كالتهذيب والاستذكار ومن كتب الاصول والفروع واللغة والعربية والادب وغير ذلك فأمر السلطان رحمه الله بحملها الى فاس وتحبيسها على المدرسة التي أسسها لطلبة العلم وقفل السلطان فاحتل بقصره من الجزيرة لليلتين بقيتا من شعبان فقضى صومه ونسك عيده وجعل من قيام ليله جزأ لمحاضرة أهل العلم وأعد الشعراء كلمات أنشدوها يوم عيد الفطر بمشهد الملأ في مجلس السلطان وكان من أسبقهم في ذلك الميدان شاعر الدولة أبو فارس عبد العزيز الملزوزي الاصل المكناسي الدار ويعرف بعزوز أتى بقصيدة طويلة من بحر الوافر على روي الياء المفتوحة المردوفة بالالف ذكر فيها سيرة السلطان وغزواته وغزوات بنيه وحفدته وامتدح قبائل مرين ورتبهم على منازلهم وذكر فضلهم وقيامهم بالجهاد وذكر قبائل العرب على اختلافها وأنشدت بحضر السلطان والحاشية فأمر السلطان لمنشئها بألف دينار وخلعة وللمنشدها بمائتين دينار ثم أعمل السلطان نظره في الثغور فرتب بها المسالح وبعث ولده الامير أبا زيان منديلا

ليقف على الحد بين أرضه وأرض ابن الاحمر وعقد له على تلك الناحية وأنزله بحصن ذكوان قرب مالقة وأوصاه أن لا يحدث في بلاد ابن الاحمر حدثا وعقد لعياد بن أبي عياد العاصمي على مسلحة أخرى وأنزله بأسطبونة وأجاز ابنه الامير يوسف الى المغرب لتفقد أحواله ومباشرة أموره وأمره أن يبني على قبر والده أبي الملوك عبد الحق بتافرطاست زاوية فاختط هنالك رباطا حفيلا وبني على قبر الامير عبد الحق وابنه ادريس أسنمة من الرخام ونقشها بالكتابة ورتب عليها قراء التلاوة القرآن ووقف على ذلك ضياعا وأرضا تسع حرث أربعين زوجا رحم الله الجميع بمنه

## ﴿وفاة السلطان يعقوب بن عبد الحق رحمه الله﴾

وفي آخر ذي القعدة من سنة أربع وثمانين وستمائة مرض السلطان يعقوب بن عبد الحق مرضه الذي توفي منه فلم يزل ألمه يشتد وحاله يضعف الى ان توفي بقصره من الجزيرة الخضراء من أرض الاندلس في ضحى يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من المحرم فاتح سنة خمس وثمانين وستمائة وحمل الى رباط الفتح من بلاد العدوة فدفن بمسجد شالة وقبره اليوم طامس الاعلام رحمه الله

## ﴿بقية أخبار السلطان يعقوب بن عبد الحق وسيرته﴾

كان السلطان يعقوب رحمه الله أبيض اللون تام القد معتدل الجسم حسن الوجه واسع المنكبين كامل اللحية معتدلها أشيب نقي البياض حليما متواضعا جوادا مظفرا منصور الراية ميمون النقيبة لم يقصد جيشا الاهزمه ولا عدوا الاقهره ولا بلدا الافتحه صواما قواما دائم الذكر كثير البر لا تزال سبحته في يده مقربا للعلماء مكرما للصلحاء صادرا في أكثر أموره عن رأيهم ولما استقام له الامر بنى المرستانات للمرضى والمجانين ورتب لهم الاطباء لتفقد أحوالهم وأجرى على الكل المرتبات والنفقات من بيت المال وكذا فعل بالجذمى والعمي والفقراء رتب لهم مالا معلوما يقبضونه في كل شهر من جزية اليهود وبنى المدارس لطلبة العلم ووقف عليها الاوقاف وأجرى عليهم بها المرتبات كل ذلك ابتغاء ثواب الله تعالى نفعه الله بقصده

## ﴿الخبر عن دولة السلطان الناصر لدين الله يوسف بن يعقوب بن عبد الحق رحمه الله تعالى﴾

لما مرض السلطان يعقوب بقصره من الجزيرة الخضراء مرضه نساؤه وطيرن بالخبر الى ولي عهده الامير يوسف وكان يومئذ بالمغرب فاتصل به الخبر وهو باحواز فاس فاسرع السير الى طنجة وقدمات أبوه قبل وصوله فاخذ البيعة له الوزراء والاشياخ ولما عبر اليهم البحر واحتل بالجزيرة جددوا له البيعة غرة صفر سنة خمس وثمانين وستمائة وأخذوها له على الكافة فاستتب ملكه واستقام أمره ففرق الاموال وأجزل الصلات وسرح السجون ورفع عن الناس الاخذ بزكاة الفطر ووكلهم فيها الى أمانتهم وكف أيدي الظلمة والعمال عن الناس وأزال المكوس ورفع الانزال عن دور الرعية وصرف اعتناءه الى اصلاح السابلة فازال أكثر الرتب والقبالات التي كانت بالمغرب الا ما كان منها في الاقطار الخالية والمفازات المخوفة فخضعت من تحت قهره وصلح أمر الناس في أيامه وكان أول شيء أحدث من أمره ان بعث الى ابن الاحمر وضرب له موعدا للاجتماع به فبادر اليه ولقيه بظاهر مربالة في العشر الاول من ربيع الاول من السنة المذكورة فلقاه السلطان مبرة وتكريما وتجافى له عن جميع الثغور الاندلسية التي كانت في ملكة أبيه ونزل له عنها ما عدى الجزيرة ورندة وطريف وتفرقا من مكانهما على أكمل حالات المصافاة والوصلة ورجع السلطان يوسف الى الجزيرة فقدم عليه بها وفد الطاغية سانجة مجددين عقد السلم الذي عقده لهم السلطان يعقوب رحمه الله ولما تمهد للسلطان يوسف أمر الاندلس عقد لاخيه أبي عطية العباس بن يعقوب على الثغور الغربية وأوصاه بضبطها وعقد للشيخ المجاهد أبي الحسن علي بن يوسف

ابن يزكاتن على مسلحتها وجعل اليه أمر الحرب وأعنة الخيل وأمده بثلاثة آلاف من بني مرين والعرب
ثم عبر البحر الى المغرب يوم الاثنين سابع ربيع الآخر من السنة المذكورة فنزل بقصر المجاز ثم سار الى
حضرة فاس فدخلها ثاني عشر جمادى الاولى منها ولحين استقراره بها خرج عليه محمد بن ادريس
ابن عبد الحق في بنيه واخوته ومن انضم اليه ولحق بجبال ورغة ودعا لنفسه فسرح اليه السلطان يوسف
أخاه أبا معرّف محمد بن يعقوب فبدا له في النزوع اليهم فلحق بهم وشايعهم على رأيهم من الخلاف فأغزاهم
السلطان يوسف عساكره وردد اليهم البعوث والكتائب ثم تلطف في استنزال أخيه حتى نزل على
الامان وفرّ بنو ادريس الى تلمسان فقبض عليهم أثناء طريقهم وجيء بهم في الحديد الى تازا فبعث
السلطان يوسف أخاه أبا زيان فقتلهم خارج باب الشريعة منها في رجب من السنة ورهب الاعياص
من بني عبد الحق يومئذ وخافوا بادرة السلطان يوسف فلحقوا بغرناطة متلفين على بني ادريس منهم
ثم ارتحل السلطان في رمضان من السنة المذكورة الى مراكش لتمهيد نواحيها وتثقيف أطرافها
فدخلها في شوال وأقام بها الى رمضان القابل من سنة ست وثمانين وستمائة فنهض من مراكش لغزو
عرب معقل بصحراء درعة لانهم كانوا قد أضروا بالرعايا وأفسدوا السابلة فسار اليهم في اثني عشر ألفا من
الخيل ومر على بلاد هسكورة معترضا جبل درن وأدركهم نواجع بالقفر فأثخن فيهم بالقتل والسبي
واستكثر من رؤسهم فعلقت بشرفات مراكش وسجلماسة وفاس وقفل من غزوه آخر شوال من السنة
المذكورة الى مراكش فنكب محمد بن علي بن محلي عاملها القديم الولاية بها من لدن انقراض الدولة
الموحدية لما وقع من الارتياب باولاد محلي بكثرة خروجهم على الدولة وكانت نكبته غرة محرم سنة سبع
وثمانين وستمائة وهلك في السجن في صفر الموالي له وعقد السلطان يوسف على مراكش وأعمالها لمحمد
ابن عطو الجاناتي من موالي دولتهم ولاء حلف وترك معه ابنه أبا عامر عبد الله بن يوسف ثم ارتحل
السلطان يوسف الى فاس فدخلها منتصف ربيع من السنة المذكورة

## ﴿قدوم بني اشقيلولة على السلطان يوسف بسلا واقطاعه اياهم قصر كتامة والسبب في ذلك﴾

قد تقدم لنا ان بني اشقيلولة كانوا من وجوه الاندلس وأهل الرياسة بها حتى صاهرهم ابن الاحمر بابنته
وأخته وقاموا معه في اثبات قواعد ملكه ثم انحرفوا عنه الى موالاة بني مرين ونزل محمد بن عبد الله بن
أبي الحسن منهم الى السلطان يعقوب عن مالقة وكان عمه أبو اسحق بن أبي الحسن صاحب وادي آش
وأعمالها واتصل ذلك في بنيه الى ان بويع السلطان يوسف فقاموا بدعوته فيها ثم حصلت المصافاة وتأكدت
المودة بين السلطان يوسف وابن الاحمر على ما أسلفناه آنفا فطلب ابن الاحمر من السلطان يوسف ان ينزل
له عن وادي آش التي هي لبني اشقيلولة المتمسكين بدعوته كما نزل له عن غيرها من الثغور فأجابه السلطان
الى ذلك وكتب الى أبي الحسن بن أبي اسحق بن اشقيلولة يأمره بالتخلي له عنها فتركها له وعبر هو وحاشيته
البحر الى السلطان يوسف سنة سبع وثمانين المذكورة فلقيه بمدينة سلا فأعطاه السلطان يوسف القصر
الكبير وأعماله طعمة سوّغه اياها فلم تزل ولايته متوارثة في بنيه حتى انقرضوا آخر دولة بني مرين
واستمكن ابن الاحمر من وادي آش وحصونها ولم يبق له بالاندلس منازع من قرابته والله أعلم

## ﴿حدوث الفتنة بين السلطان يوسف وعثمان بن يغمراسن بن زيان صاحب تلمسان﴾

قد تقدم لنا ان يغمراسن لما حضرته الوفاة أوصى ابنه عثمان ان لا يحدث مع بني مرين حربا ولا يواقفهم
في زحف ما استطاع لاستغلاظ أمرهم عليه بملكهم المغرب الاقصى وأعماله وان عثمان قد عمل على ذلك
فأوفد أخاه محمد بن يغمراسن على السلطان يعقوب بالاندلس وعقد معه السلم ورجع الى أخيه كما تقدم
ولما ولي السلطان يوسف وقفل من مراكش الى فاس في هذه المرة بعد ان ترك ابنه أبا عامر عبد الله

مع محمد بن عطوا عامل مراكش ثار أبو عامر المذكور بها وخلع طاعة أبيه ودعا الى نفسه وشايعه ابن عطوا على ذلك واتصل الخبر بالسلطان يوسف وهو بفاس فاسرع السير الى مراكش وبرز اليه ابنه أبو عامر فاقتتلوا ثم انهزم أبو عامر فعاد الى مراكش واكتسح بيت المال بها وفر الى تلمسان ومعه ابن عطوا المذكور فقدماها سنة ثمان وثمانين وستمائة فآواهم عثمان بن يغمراسن ومهد لهم المكان فلبثوا عنده مليا ثم عطفت السلطان على ابنه الرحم فرضى عنه وأعاده الى مكانه وطالب عثمان ابن يغمراسن ان يسلم اليه ابن عطوا الناجم في النفاق مع ابنه فأبى من اضاعة جواره واخفاء ذمته وأغلظ له الرسول في القول فسطابه عثمان واعتقله فثارت من السلطان يوسف الحفائظ الكامنة وتحركت منه الاحن القديمة والنزغات المتوارثة فاعتزم على غزو تلمسان ونهض اليها من مراكش في صفر من سنة تسع وثمانين وستمائة بعد ان عقد عليها لابنه الامير أبي عبد الرحمن يعقوب بن يوسف ثم نهض من فاس اليها آخر ربيع الآخر من سنته في عساكره وجنوده وحشد القبائل وكافة أهل المغرب وسار حتى نازل تلمسان فتحصن منه عثمان وقومه باسوارها فحاصره السلطان يوسف وضيق عليه ونصب عليه المجانيق وكان حصاره اياها في رمضان من السنة المذكورة ثم سار في نواحيها ينسف الآثار ويخرب القرى ويحطم الزروع ثم نزل بذراع الصابون من ناحيتها ثم انتقل منه الى تامت وحاصرها أربعين وما وقطع أشجارها وأباد خضراءها ولما امتنعت عليه أفرج عنها وانكفأ راجعا الى المغرب وقضى نسك الفطر بعين الصفا من بلاد بني يزناسن ونسك الاضحى وقربانه بتازا وتلبث بها أياما ثم نهض منها الى الاندلس بقصد الجهاد على ما نذكره

## انتقاض الطاغية سانجة واجازة السلطان يوسف اليه

لما رجع السلطان يوسف من غزو تلمسان وافاه الخبر وهو بتازا ان الطاغية سانجة قد انتقض ونبذ العهد وتجاوز التخوم وأغار على الثغور فاوعز السلطان الى قائد المسالح بالاندلس على بن يوسف بن يزكاتن بالدخول الى دار الحرب ومنازلة شريش وشن الغارات على بلاد الطاغية فنهض لذلك في ربيع الآخر من سنة تسعين وستمائة وجاس خلالها وتوغل في أقطارها وأبلغ في النكاية ثم فصل السلطان يوسف من تازا غازيا على أثره في جمادى الاولى من السنة المذكورة واحتل قصر مصمودة وهو قصر المجاز واستنفر أهل المغرب وقبائله فنفروا وشرع في اجازتهم البحر فبعث الطاغية أساطيله الى الزقاق تحجز لهم دون الاجازة فاوعز السلطان يوسف الى قواد أساطيله بالسواحل بعمارتها لمقابلة أساطيل العدو ففعلوا وقدمت فالتقت مع أساطيل العدو ببحر الزقاق في شعبان من السنة فاقتتلوا وانكشف المسلمون ومحصهم الله وقتل قواد الاساطيل فأمر السلطان يوسف باستئناف العمارة ثم أغزاهم ثانية فخامت أساطيل العدو عن اللقاء وصاعدوا عن الزقاق فلكته أساطيل السلطان فاجاز أخريات رمضان من السنة واحتل بطريف ثم دخل دار الحرب غازيا فنازل حصن بجير ثلاثة أشهر وضيق عليهم وبث السرايا في أرض العدو وردد الغارات على شريش واشبيلية ونواحيها الى ان بلغ في النكاية والاثخان غرضه وقضى من الجهاد وطره وهجم عليه فصل الشتاء وانقطعت الميرة عن العسكر فافرج عن الحصن ورجع الى الجزيرة الخضراء ثم عبر الى المغرب فاتح سنة احدى وتسعين وستمائة فتظاهر ابن الاحمر والطاغية على منعه من الجواز مرة أخرى كما نذكره الآن

## حدوث الفتنة بين السلطان يوسف وابن الاحمر واستيلاء الطاغية على طريف بمظاهرة ابن الاحمر له عليها

لما قفل السلطان يوسف من الاندلس وقد أبلغ في نكاية العدو كما قلنا عظم على الطاغية أمره وثقلت

عليه وطأته فشرع في اعمال الحيلة في الافساد بينه وبين ابن الاحمر وكان ابن الاحمر يتخوف من السلطان يوسف أن يغلبه على بلاده فخاص مع الطاغية نجيا وتفاوضا في أمر السلطان يوسف وان تمكنه من الاجازة اليهم انما هو لقرب مسافة بحر الزقاق وانتظام ثغور المسلمين حفافيه وتصرف شوانيهم وسفنهم فيه متى أراد وافضلا عن الاساطيل الجهادية وان أم تلك الثغور هي طريف وانهم اذا استمكنوا امنها منعوا السلطان من العبور وكانت عينا لهم على الزقاق وكان أسطولهم بمرفئها رصدا لاساطيل صاحب المغرب الخائضة لجة ذلك البحر فاعتزم الطاغية على منازلة طريف وبها يومئذ مسلحة بني مرين وتكفل له ابن الاحمر بمظاهرته على ذلك والترم له بالمدد والميرة للعسكر أيام منازلتها على ان تكون له ان خلصت للطاغية وتعاهدوا على ذلك وأناخ الطاغية بعساكر النصرانية على طريف وألح عليها بالقتال ونصب الآلات من المجانيق والعرادات وأحاط بها برا وبحرا وانقطع المدد والميرة عن أهلها وحالت أساطيل العدو بينهم وبين صريخ السلطان واضطرب ابن الاحمر معسكره بمالقة قريبا من عسكر الطاغية وسرب اليه المدد من الرجال والسلاح والميرة وأصناف الاقوات وبعث عسكر المنازلة حصن اسطبونة فتغلب عليه بعد مدة من الحصار واتصلت هذه الحال أربعة أشهر حتى أصاب أهل طريف الجهد ونال منهم الحصار فراسلوا الطاغية في الصلح والنزول عن البلد فصالحهم واستنزلهم وتملكها آخر يوم من شوال سنة احدى وتسعين وستمائة ووفى لهم بما عاهدهم عليه واستشرف ابن الاحمر الى تجافي الطاغية له عنها حسبما تعاهدا عليه فاعرض عن ذلك واستأثر بها بعد ان كان نزل له عن ستة من الحصون عوضا عنها فخرج من يده الجميع ولم يحصل على طائل فكانت حاله في ذلك كحال صاحبة النعامة المضروب بها المثل عند العرب وبالله تعالى التوفيق

## ثورة عمر بن يحيى بن الوزير الوطاسي بحصن تازوطا

(اعلم) ان بني وطاس فخذ من بني مرين لكنهم ليسوا من بني عبد الحق وكانت الرياسة فيهم لبني الوزير منهم وبنو الوزير يزعمون ان نسبهم دخيل في مرين وانهم من أعقاب يوسف بن تاشفين اللمتوني لحقوا بالبادية ونزلوا على بني وطاس فالتحموا بهم ولبسوا جلدتهم وحازوا رياستهم ولما دخل بنو مرين المغرب واقتسموا أعماله كما قدمنا بقيت بلاد الريف خالصة لبني وطاس هؤلاء فكانت ضواحيها لنزولهم وأمصارها ورعاياها لجبايتهم وكان حصن تازوطا بها من أمنع معاقل المغرب ولما غلب الامير أبو بكر بن عبد الحق على مكناسة وأقام فيها دعوة الحفصيين ونهض السعيد بن المأمون الموحدي من مراكش لغزوه فر أمامه الى حصن تازوطا هذا ونزل به على بني الوزير هؤلاء لاجيا اليهم ومستجيرا بهم فارادوا الفتك به غيرة منه وحسدا له فشعر بهم وتحول عنهم الى عين الصفا من بلاد بني يزناسن حسبما تقدم ذلك كله ولما انقرض أمر بني عبد المؤمن واستقام ملك المغرب لبني مرين صرفوا اعنايتهم الى هذا الحصن فكانوا ينزلون به من الحامية من يثقون بغنائه واضطلاعه ليكون آخذا بناصية هؤلاء الرهط من بني وطاس لما يعلمون من سموهم الى الرياسة وتطلعهم اليها وكان السلطان يوسف رحمه الله قد عقد على هذا الحصن لابن أخيه منصور بن عبد الواحد بن يعقوب وكان عمر وعامر ابنا يحيى بن الوزير رئيسين على بني وطاس لذلك العهد فاستهونوا أمر السلطان يوسف بعد موت والده وحدثوا أنفسهم بالثورة في ذلك الحصن والاستبداد بتلك الناحية فوثب عمر بن يحيى منهم بمنصور بن عبد الواحد في شعبان من سنة احدى وتسعين وستمائة وفتك بحاشيته ورجاله وأزعجه عن الحصن وغلبه على ما كان بقصره من مال وسلاح ومتاع وأعشار للروم كانت مختزنة هنالك وضبط الحصن وشحنه برجاله ووجوه قومه ولحق منصور ابن عبد الواحد بعمه السلطان يوسف فهلك الليال أسفا على ما أصابه وسرح السلطان يوسف وزيره الناصح أبا علي عمر بن السعود بن خرباش الحشمي بالحاء المهملة في العساكر لمنازلة حصن تازوطا فاناخ

عليه بكلكاله ثم تبعه السلطان يوسف على أثره وفي صحبته عامر بن يحيى بن الوزير أخو عمر الثائر فانه كان قد نزع اليه فاحاط السلطان بالحصن وضيق عليه حتى أشفق عمر لشدة الحصار ويئس من الخلاص وظن انه قد أحيط به فدس الى أخيه عامر في كشف ما نزل به فضمن عامر للسلطان يوسف نزول أخيه ان هو تركه يصعد اليه حتى يجتمع به فاذن له السلطان يوسف في ذلك فصعد اليه وتفاوضا في أمرهما وآخر الامر ان عمر احتمل الذخيرة وفر ليلا الى تلمسان وبدا لعامر في النزول عندما صار في الحصن فامتنع به قيل لانه بلغه ان السلطان يوسف عزم على قتله أخذا بثار ابن أخيه منصور ولا فلانه أخاه من يده واستمر على ذلك الى ان قدم على السلطان يوسف وفد الاندلس وفيهم الرئيس أبو سعيد فرج بن اسمعيل بن الاحمر صاحب مالقة راغبا في الصلح مع ابن عمه ومعتذرا عنه فارسي أساطيله بمرسى غساسة ونزل الى السلطان وقدم بين يديه هدية تناسب الحال فسمع بهم عامر الوطاسي وهو في الحصن فبعث اليهم يسألهم الشفاعة له عند السلطان يوسف لوجاهتهم لديه فشفع له الرئيس أبو سعيد فقبل السلطان يوسف شفاعته بشرط ان ينتقل بحاشيته الى الاندلس وكره عامر ذلك فاظهر الرضا وقدم بين يديه جماعة من حاشيته الى المرسى وركب أكثرهم الاسطول وتأخر عامر الى جوف الليل فنزل من الحصن وخاض الفلاة الى تلمسان فتبعت الخيل أثره ففاتهم وأدركوا ولده أبا الخيل فجيء به الى السلطان يوسف فبعث به الى فاس فضربت عنقه وصلب هنالك وأنزل السلطان يوسف بقية الحاشية من الاسطول فامر بهم فاستلحموا مع من كان بالحصن من أتباعهم وقرابتهم وذرياتهم وتملك السلطان يوسف حصن تازوطا وأنزل به عماله ومسلحته وقفل الى حضرته بفاس آخر جمادى الاولى من سنة اثنتين وتسعين وستمائة ولما كان السلطان نازلا على تازوطا قدم عليه رجل من فرنج جنوة بهدية جليلة فيها شجرة مموهة بالذهب عليها أطيار تصوت بحركات هندسية مثل ما صنع للمتوكل العباسي وفي هذه المدة سعى عند السلطان يوسف باولاد الامير أبي بكر بن عبد الحق وانهم أرادوا الخروج عليه فحقد عليهم لذلك وأحسوا بالشر ففروا الى تلمسان وأقاموا هنالك الى ان بعث السلطان يوسف اليهم بالامان فاقبلوا حتى اذا كانوا بصبرة من ناحية ملوية اعترضهم الامير أبو عامر عبد الله ابن السلطان يوسف فاستلحمهم أجمعين وهو يرى انه قد أرضى أباه بذلك الفعل واتصل الخبر بالسلطان يوسف فسخطه وأقصاه وتبرأ منه فلم يزل طريدا ببلاد الريف وجبال غمارة الى ان هلك ببني سعيد منهم آخر سنة ثمان وتسعين وستمائة وحمل الى فاس فدفن بالزاوية التي داخل باب الفتوح وخلف ثلاثة أولاد عامرا وسليمان وداود فكفلهم جدهم السلطان يوسف الى ان هلك فولي الامر بعده حافده عامر وبعد عامر سليمان وسيأتي ذكرهما ان شاء الله

## ﴿انعقاد الصلح بين السلطان يوسف وابن الاحمر ووفادته عليه بطنجة﴾

لما استولى الطاغية على طريف بمظاهرة ابن الاحمر له عليها ونقض الطاغية عهد ابن الاحمر في النزول له عنها سقط في يد ابن الاحمر وندم على فعله ورجع الى التمسك بالسلطان يوسف فاوفد عليه ابن عمه الرئيس أبا سعيد فرج بن اسمعيل ووزيره أبا سلطان عزيز الداني في وفد من أهل حضرته لتجديد العهد وتأكيد المودة وتقرير المعذرة عن شأن طريف فوافوه بمكانه من حصار تازوطا كما قدمناه فابرموا العقد وأحكموا الصلح وانصرفوا الى ابن الاحمر سنة اثنتين وتسعين وستمائة باسعاف غرضه من المواخاة واتصال اليد فوقع ذلك منه أجمل موقع وطار سرورا وأمن اعواده وأجمع الرحلة الى السلطان لاحكام العقد والاستبلاغ في العذر عن واقعة طريف والرغبة اليه في نصرة بلاد الاندلس واغاثة المسلمين الذين بها فتهيأ لذلك وعبر البحر في ذي القعدة من سنة اثنتين وتسعين وستمائة واحتل بجبل بنيونش من ناحية سبتة ثم ارتحل الى طنجة فلقيه بها الاميران أبو عامر عبد الله وأبو عبد الرحمن يعقوب ابنا السلطان يوسف وكان أبو عامر لا زال يومئذ من أبيه بعين الرضا ولما علم السلطان يوسف بقدومه خرج من فاس للقائه وبرور

مقدمه فوافاه بطنجة فتقدم ابن الاحمر بين يدى نجواه هدية أتحف بها السلطان يوسف كان من أحسنها موقعا لديه المصحف الكبير الذى يقال انه مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه كان بنو أمية يتوارثونه بقرطبة ثم خلص الى ابن الاحمر فاتحف به السلطان يوسف فى هذه المرة فقبل السلطان ذلك وكافأه باضعافه وبالغ فى تكريمته وأسعفه بجميع مطالبه وأراد ابن الاحمر ان يبسط العذر عن شأن طريف فتجافى السلطان يوسف عن سماع ذلك وأضرب عن ذكره صفحا وبر وأحفى ووصل وأجزل ونزل لابن الاحمر عن الجزيرة ورندة والغربية وعشرين حصنا من ثغور الاندلس كانت قبل فى ملكته وملكة أبيه وعاد ابن الاحمر الى أندلسه آخر سنة اثنتين وتسعين وستمائة محبوا محبورا وعبرت معه عساكر السلطان يوسف لحصار طريف ومنازلته وعقد على حربها لوزيره الشهير الذكر عمر بن السعود بن خرباش الحشمى فنازلها مدة فامتنعت عليه وأفرج عنها وفى سنة ثلاث وتسعين بعدها فرغ السلطان يوسف من بناء جامع تازا وعلقت به الثريا الكبرى من النحاس الخالص وزنها اثنان وثلاثون قنطارا وعدد كؤوسها خمسمائة كاس وأربعة عشر كأسا وأنفق السلطان فى بناء الجامع وعمل الثريا المذكورة ثمانية آلاف دينار ذهبا وفى سنة أربع وتسعين بعدها خرج السلطان يوسف لغزو تلمسان فوصل الى تاوريرت وكانت تخم العمل بنى مرين وبنى عبد الواد فنصفها للسلطان يوسف ونصفها لعثمان بن يغمراسن ولكل واحد منهما بها عامل من ناحيته فطرد السلطان يوسف عامل ابن يغمراسن وشرع فى بناء الحصن الذى هنالك فادار سوره وشيده وركب أبوابه مصفحة بالحديد وكان يقف على بنائه بنفسه من صلاة الغداة الى المساء لا يغيب عن العملة الا فى أوقات الضرورة وفرغ من بنائه وتحصينه فى رمضان من السنة المذكورة ولما تم شحنه بالعسكر والسلاح وعقد عليه لاخيه أبى بكر بن يعقوب ويكنى أبا يحيى وانكفأ راجعا الى الحضرة ثم خرج من فاس سنة خمس وتسعين بعدها بقصد تلمسان فسار حتى نزل على ندرومة فحاصرها وشدد فى قتالها ورماها بالمنجنيق أربعين يوما فامتنعت عليه فافرج عنها ثانى عيد الفطر من السنة المذكورة ثم دخلت سنة ست وتسعين وستمائة فسار الى تلمسان وبرز عثمان بن يغمراسن لمدافعته فانهزم وتحصن بالاسوار وتقدم السلطان يوسف حتى نزل على تلمسان وقتل من أهلها خلقا ثم أقلع عنها ورجع الى المغرب فقضى نسك الاضحى من السنة المذكورة برباط تازا وأمر ببناء القصر بها وسار الى فاس فدخلها فاتح سنة سبع وتسعين وستمائة ثم ارتحل الى مكناسة فقضى بها بعض الوطر ثم عاد الى فاس ثم خرج منها فى جمادى الاولى من السنة المذكورة غازيا تلمسان ومر فى طريقه بمدينة وجدة فامر ببنائها وكان أبوه السلطان يعقوب قد هدمها كما مر فبناها السلطان يوسف فى هذه المرة وحصن أسوارها وبنى بها قصبة ودار السكة وحماما ومسجدا ثم سار الى تلمسان فنزل بساحتها وأحاطت عساكره بها احاطة الهالة بالقمر ونصب عليها القوس البعيدة النزع العظيمة الهيكل المسماة بقوس الزيار اخترعها المهندسون والصناع وتقربوا الى السلطان بعملها فاعجبته وكانت تحمل على احد عشر بغلا ولما امتنعت تلمسان عليه أفرج عنها فاتح سنة ثمان وتسعين وستمائة ومر فى عوده الى المغرب بوجدة فانزل بها الحامية من بنى عسكر بن محمد لنظر أخيه الامير أبى بكر بن يعقوب كما كانوا بتاوريرت وأمرهم بشن الغارات على أعمال تلمسان مع الساعات والاحيان ففعلوا واستولى الامير أبو بكر بذلك على أكثر تلك الجهات والله تعالى أعلم

## ﴿فتك ابن المليانى بشيوخ المصامدة وتزويره الكتاب بهم والسبب فى ذلك﴾

قد تقدم لنا عند الكلام على فتح جبل تينملل ان أبا على المليانى كان قد سعى فى نبش قبور بنى عبد المؤمن والعبث باشلائهم وان الناس قد غاظهم ذلك لاسيما المصامدة منهم ولما هلك السلطان يعقوب وولى بعده ابنه يوسف استعمل أبا على المليانى على جباية المصامدة فباشر هامدة ثم سعى به شيوخ المصامدة عند السلطان بانه احتجن المال لنفسه فامر السلطان بمحاسبته فحوسب وظهرت مخايل صدقهم عليه فنكبه

السلطان يوسف أولا ثم قتله ثانيا واصطنع ابن أخيه أبا العباس أحمد بن علي المليانى واستعمله فى كتابته وأقامه ببابه فى جملة كتابه وكان السلطان يوسف قد سخط على بعض شيوخ المصامدة منهم على بن محمد كبير هنتاتة وعبد الكريم بن عيسى كبير قدميوة وأوعز الى ابنه الامير على بن يوسف بمراكش باعتقالهما فاعتقلهما فيمن لهما من الولد والحاشية وأحس بذلك أحمد بن المليانى فاستعجل الثار الذى كان يعتمده عليهم فى عمه أبى على وكانت العلامة السلطانية يومئذ موكولة الى كتاب الدولة لم تختص بواحد منهم لما كانوا كلهم ثقات أمناء وكانوا عند السلطان كاسنان المشط فكتب أحمد بن المليانى الى الأمير أبى على كتابا على لسان والده يأمره فيه أمرا جزما بقتل مشيخة المصامدة ولا يمهلهم طرفة عين ووضع عليه العلامة التى تنفذ بها الاوامر السلطانية وختم الكتاب وبعث به مع البريد ﴿قال ابن الخطيب﴾ ولما أكد على حامله فى العجل وضايقه فى تقدير الاجل تأنى حتى اذا علم انه قد وصل وان غرضه قد حصل فر الى تلمسان وهى بحال حصارها فاتصل بانصارها حالا بين أنوفها وأبصارها وتعجب الناس من فراره وسوء اغتراره ورجمت الظنون فى آثاره ثم وصلت الاخبار بتمام الحيلة واستيلاء القتل على اعلام تلك القبيلة فتركها شنعاء على الايام وعارا فى الاقاليم على جملة الاقلام اهـ ولما وصل الكتاب الى ولد السلطان أخرج أولئك الرهط المعتقلين الى مصارعهم وحكم السيف فى رقاب جميعهم فقتل على بن محمد الهنتاتى وولده وعبد الكريم بن عيسى القدميوى وبنوه الثلاثة عيسى وعلى ومنصور وابن أخيه عبد العزيز بن محمد وطير الامير على بالاعلام الى والده مع بعض وزرائه وهو يرى انه قد امتثل الامر واستوجب الشكر فلما وصل الرسول بالخبر الى السلطان يوسف بطش به فقتله غيظا عليه وأنفذ البريد فى الحال باعتقال ولده وقام وقعد لذلك ومن ذلك الوقت قصر السلطان علامته على من يختاره من ثقات الكتاب وعدولهم وجعلها يومئذ للفقيه الكاتب أبى محمد عبد الله بن أبى مدين وكان من الكفاة المضطلعين بامور الدولة المتحملين الكثير من أعبائها وأما ابن المليانى فانه فر الى تلمسان والسلطان يوسف محاصر لها ولما وقع الافراج عنها بعد حين انتقل الى الاندلس فبقى هنالك الى ان توفى بغرناطة سنة خمس عشرة وسبعمائة ومن شعره يفخر بهذه الفعلة وغيرها قوله

العز ما ضربت عليه قبابى * والفضل ما اشتملت عليه ثيابى
والزهر ما أهداه غصن يراعتى * والمسك ما أبداه نفس كتابى
فالمجد يمنع أن يزاحم موردى * والعزم يأبى ان يضام جنابى
فاذا بلوت صنيعة جازيتها * بجميل شكرى أو جزيل ثوابى
واذا عقدت مودة أجريتها * مجرى طعامى من دمى وشرابى
واذا طلبت من الفراقد والسهى * ثارا فاوشك أن أنال طلابى

﴿الحصار الطويل وما تخلل ذلك من الاحداث على تلمسان﴾

تقدم لنا ان السلطان يوسف لما رجع من محاصرة تلمسان فاتح سنة ثمان وتسعين وستمائة مر فى طريقه بوجدة فانزل بها الحامية من بنى عسكر الى نظر أخيه الامير أبى بكر وأمره بشن الغارات على أعمال بنى زيان فامتثل الامير أبو بكر أمره وألح على النواحى بالغارات وافساد السابلة فضاق أهل ندرومة بذلك ذرعا وأوفدوا وفدا منهم على الامير أبى بكر يسألونه الامان لهم ولمن وراءهم من قومهم على ان يمكنوه من قياد بلدهم ويدينوا بطاعة السلطان يوسف فبذل لهم من ذلك ما أرضاهم ونهض الى البلد فدخله بعسكره وتبعهم على ذلك أهل تاونت فاوفد الامير أبو بكر جماعة من أهل البلدين على أخيه السلطان يوسف فقدموا عليه منتصف رجب من سنة ثمان وتسعين المذكورة فأدوا طاعتهم فقبلها ورغبوا اليه فى الحركة الى بلادهم ليريحهم من ملكة عدوه وعدوهم عثمان بن يغمراسن ووصفوا له من

عسفه وجوره وضعفه عن الحماية ما أكد عزمه على النهوض فنهض لحينه من فاس في رجب المذكور بعد ان استكمل حشده ونادى في قومه وعرض عسكره وأجزل أعطياتهم وأزاح عللهم وسار في التعبية حتى نزل بساحة تلمسان ثاني شعبان سنة ثمان وتسعين وستمائة فأناخ عليها بكلكله وربض قبالتها على تراثبه وأنزل محلته بفنائها وأحاط بجميع جهاتها وتحصن يغمراسن وقومه بالجدران وعولوا على الحصار ولما رأى السلطان يوسف ذلك أدار سورا عظيما جعله سياجا على تلمسان وما اتصل بها من العمران وصيرها في وسطه ثم أردف ذلك السور من ورائه بحفير بعيد المهوى وفتح فيه مداخل لحربها ورتب على أبواب تلك المداخل مسالح تحرسه وأوعد بالعقاب من يختلف الى تلمسان برفق أو يتسلل اليها بقوت وأخذ بمخنقها من بين يديها ومن خلفها حتى لم يخلص اليها الطير لا بل الطيف واستمر مقيما عليها كذلك مائة شهر ولما دخلت سنة اثنتين وسبعمائة اختط الى جانب ذلك السور بمكان فسطاطه قصرا لسكناه واتخذ به مسجدا للصلاة وأدار عليهما سورا يحرزهما ثم أمر الناس بالبناء حول ذلك فبنوا الدور الواسعة والمنازل الرحيبة والقصور الانيقة واتخذوا البساتين وأجروا المياه وأمر السلطان باتخاذ الحمامات والفنادق والمارستان وابتنى مسجدا جامعا أقامه على الصهريج الكبير وشيد له منارا رفيعا وجعل على رأسه تفافيح من ذهب صير عليها سبعمائة دينار ثم أدار السور على ذلك كله فصارت مدينة عظيمة استبحر عمرانها ونفقت أسواقها ورحل اليها التجار بالبضائع من جميع الآفاق وسماها المنصورة فكانت من أعظم أمصار المغرب وأحفلها الى ان خربها آل يغمراسن عند مهلك السلطان يوسف وارتحال جيوشه عنها ولما تمكن السلطان يوسف من حصار تلمسان سرح كتائبه وسراياه في أعمالها وحصونها فاستولى في مدة قريبة على ندرومة وهنين ووهران وتالموت وتامزردكت ومستغانم وتنس وشرشال وبرشك والبطحاء ومازونة وونشريس ومليانة والقصبات ولمدية وتافرجينت وجميع بلاد بني عبد الواد وبلاد بني توجين وبلاد مغراوة وبايعه ابن علان صاحب الجزائر وأخذ رعبه بملوك النواحي وكانت دولة بني أبي حفص يومئذ قد انقسمت بقسمين فصار كرسي منها بتونس وآخر ببجاية فتنافس صاحب تونس وصاحب بجاية في مصانعة السلطان يوسف والتقرب اليه بالهدايا والتحف وصار السلطان يوسف في ذلك الوقت ملك المغرب على الحقيقة والاطلاق والله غالب على أمره

## نكبة بني وقاصة من يهود فاس

كان بنو وقاصة هؤلاء من يهود ملاح فاس وكانوا مداخلين للسلطان يوسف من صغره الى كبره وكانوا يتولون قهرمة داره ويقضون أموره الخاصة به ويخلصون الى الكثير من باطن أمره قد التحموا به التحاما وامتزجوا به امتزاجا يجالسونه في خلواته ويناد مونه في ساعة أنسه فعظم جاههم عند الحاشية لاقبال السلطان عليهم واستتبعوا الوزراء فمن دونهم من رجال الدولة وتعددت فيهم الرؤساء والقهارمة فكان منهم خليفة بن وقاصة وأخوه ابراهيم وصهره موسى بن السبتي وابن عمه خليفة الاصغر وغيرهم واستمروا على ذلك برهة من الدهر ثم ان السلطان يوسف استفاق استفاقة والتفت اليهم التفاتة وراجع بصيرته في شأنهم فاهمه أمرهم وشعر كاتبه بذلك القائم بامور دولته أبو محمد عبد الله بن أبي مدين فسعى عنده فيهم وأوجده السبيل عليهم فسطا بهم سطوة منكرة واعتقلوا في شعبان من سنة احدى وسبعمائة بمعسكره من حصار تلمسان وقتل خليفة الكبير وأخوه ابراهيم وموسى بن السبتي واخوته بعد ان امتحنوا ومثل بهم وأتت النكبة على حاشيتهم وأقاربهم فلم تبق منهم باقية الا أن السلطان استبقى منهم خليفة الاصغر احتقارا لشأنه حتى كان من قتله بعد ما نذكره وعبث بسائرهم وطهرت الدولة من رجسهم وأزيل منها معرة رياستهم والامور بيد الله سبحانه ثم لما كانت سنة ثلاث وسبعمائة توفي عثمان ابن يغمراسن في الحصار عقب شربة لبن يقال انه جعل فيها سما وشربه بفعل ذلك بنفسه تفاديا من معرة

غلبة عدوه عليه فاجتمع بنو عبد الواد لحينهم وبايعوا ابنه محمد بن عثمان واجتمعوا عليه ثم برزوا الى قتال عدوهم على العادة حتى كأن عثمان لم يمت وبلغ الخبر الى السلطان يوسف فتفجع على عثمان وعجب من صرامة قومه من بعده

## ﴿انتقاض ابن الاحمر واستيلاء الرئيس أبى سعيد على سبتة﴾

كان محمد بن الاحمر المعروف بالفقيه قد هلك سنة احدى وسبعمائة وولى الامر بعده ابنه محمد المعروف بالمخلوع واستبد عليه كاتبه أبو عبد الله محمد بن الحكيم الرندى وكان من أوّل ما فعله محمد المخلوع بعد استقلاله بالامر المبادرة الى احكام عقد الموالاة بينه وبين السلطان يوسف فاوفد عليه وزير أبيه أبا سلطان عبد العزيز بن سلطان الدانى ووزيره الكاتب أبا عبد الله بن الحكيم فوصلا الى السلطان يوسف بمعسكره من حصار تلمسان فتلقاهما بالقبول والمبرة وجددت لهما أحكام الود والولاية وانقلبا الى مرسامها خير منقلب وطلب السلطان منهما أن يمدوه بالرجل من عسكر الاندلس وناشبتهم المعوّدين منازلة الحصون والمثاغرة بالرباط فأسعفوه ثم فسد ما بينهم المنافسات جرت الى ذلك فانتقض ابن الاحمر وعاد لسنة سلفه من موالاة الطاغية وموالاته على المسلمين أهل المغرب وأحكم العهد مع هراندة بن سانجة من بنى اذفونش ملوك قشتالة خذلهم الله ثم أوعز ابن الاحمر الى ابن عمه الرئيس أبى سعيد فرج بن اسمعيل صاحب مالقة فى اعمال الحيلة فى الغدر بأهل سبتة ففعل وداخل فى ذلك بعض عمال بنى العزفى بها فأمكنه من البلد فاقتحمها باساطيله وجنده على حين غفلة من أهلها وتقبض على بنى العزفى وعلى حاشيتهم وأركبهم الاسطول وبعث بهم الى مالقة ثم منها الى غرناطة فتلقاهم ابن الاحمر واحتفل لهم وأنزلهم بقصوره وأجرى عليهم النفقة واستقروا بالاندلس برهة من الدهر ثم عادوا الى المغرب كما نذكر واستبد الرئيس أبو سعيد بامر سبتة وثقف أطرافها وسدّ ثغورها وبلغ الخبر بذلك الى السلطان يوسف فحمى أنفه وعظم عليه الامر فبعث ولده الامير أبا سالم ابراهيم فى جيش كثيف الى حصارها وحشد اليها قبائل الريف وقبائل تازا فلم يغن شيأ ورجع مهزوما فسخطه السلطان لذلك وأهمله وبقى على ذلك الى وفاة السلطان رحمه الله وكان انتقاض ابن الاحمر سنة ثلاث وسبعمائة

## ﴿ثورة عثمان بن أبى العلاء بجبال غمارة﴾

كان عثمان بن أبى العلاء ادريس بن عبد الله بن عبد الحق من اعياص الملك المرينى وكان قد قدم من الاندلس فى صحبة الرئيس أبى سعيد عند استيلائه على سبتة ثم ثار بعد ذلك ببلاد غمارة ودعا لنفسه وبقى متنقلا هنالك مدة فتغلب على تكساس وآصيلا والعرايش وانتهى الى قصر كتامة وخب فى الفتنة ووضع الى ان لحق بالاندلس لاوّل دولة السلطان أبى الربيع فولى بها مشيخة الغزاة وكانت له فى جهاد العدوّ اليد البيضاء كما سيأتى ان شاء الله وفى سنة ثلاث وسبعمائة بعث السلطان يوسف وهو محاصر لتلمسان ركب الحاج المغربى الى الحرمين الشريفين واعتنى بشأن هذا الركب فبعث معهم حامية من زناتة تناهز خمسمائة فارس من الابطال وخاطب صاحب الديار المصرية لعهده وهو الملك الناصر محمد ابن قلاوون الصالحى من مماليك بنى أيوب المعروفين بالبحرية وأسنى وصاه بحجاج أهل المغرب وأتحفه بهدية استكثر فيها من الخيل العراب والمطايا الفارهة يقال كان عدد الخيل أو المطايا أربعمائة الى غير ذلك مما يناسب من طرف المغرب وماعونه وبعث معهم الى حرم مكة مصحفا ضخما اعتنى به واستكتبه وجعل له غشاء مكللا بنفيس الدرّ وشريف الياقوت ورفيع الاحجار ونهج السلطان يوسف رحمه الله بهذا الركب والهدية السبيل لحاج المغرب فاجمعوا الحج سنة أربع بعدها فاجتمع منهم عدد وافر وركب ضخم فعقد السلطان يوسف على دلالتهم لابى زيد الغفارى وفصلوا من تلمسان فى شهر ربيع الاوّل من السنة

المذكورة

المذكورة وفى شهر ربيع الآخر بعده قدم حاج الركب الاول الذين حملوا المصحف والهدية ووفد معهم على السلطان يوسف شريف مكة السيد لبيدة بن أبى نمى نازعا عن سلطان الترك صاحب مصر لما كان قد قبض على أخويه حميضة ورميثة بعد مهلك أبيهم أبى نمى صاحب مكة فاستبلغ السلطان يوسف فى اكرامه والتنويه بقدره وسرحه الى المغرب ليجول فى أقطاره ويطوف على معالم الملك وقصوره وأوعز الى العمال بالبر وربه واتحافه على ما يناسب قدره ورجع هذا الشريف الى حضرة السلطان من تلمسان سنة خمس وسبعمائة ثم فصل منها الى مشرفه وفى شعبان من هذه السنة قدم أبو زيد الغفارى دليل ركب الحاج الثانى ومعه بيعة الشرفاء أهل مكة للسلطان يوسف لما كان صاحب مصر قد أسفهم بالتقبض على اخوانهم وكان ذلك شأنهم متى غاظهم السلطان وأهدوا الى السلطان يوسف ثوبا من كسوة الكعبة أعجب به فاتخذ منه ثوبا للبوسه فى الجمع والاعياد كان يستبطنه بين ثيابه تبركا به ﴿وأما﴾ الملك الناصر صاحب مصر فانه كافأ السلطان يوسف على هديته بان جمع من طرف بلاد المشرق ما يستغرب جنسه وشكله من الثياب والحيوانات ونحو ذلك مثل الفيل والزرافة ونحوهما وأوفد به مع عظماء دولته وفصلوا من القاهرة آخر سنة خمس وسبعمائة فوصلوا الى السلطان يوسف وهو بالمنصورة فى جمادى الآخرة سنة ست بعدها واهتز لقدومهم وأركب الناس للقيهم وأكرم وفادتهم وبعثهم الى المغرب للتطوف به على العادة فى مبرة أمثالهم وهلك السلطان يوسف أثناء ذلك وأفضى الامر الى حافده أبى ثابت فاحسن منقلبهم وملأ حقائبهم وفصلوا من المغرب الى بلادهم فى ذى الحجة من سنة سبع وسبعمائة ولما انتهوا الى بلاد بنى حسن فى ربيع من سنة ثمان بعدها اعترضتهم الاعراب بالقفر فانتهبوهم وخلصوا الى مصر بجريعة الذقن فلم يعاودوا بعدها الى المغرب سفرا ولا التفتوا اليه وجها وطالما أوفد عليهم ملوك المغرب بعدها من رجال دولتهم من يؤبه له ويهادونهم ويكافئون ولا يزيدون فى ذلك كله على الخطاب شيأ

## ﴿وفاة السلطان يوسف رحمه الله﴾

كان السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق رحمه الله قد اتخذ فى جملة حاشيته ومماليكه خصيا اسمه سعادة وكان هذا الخصى قد تصير اليه من جهة أبى على المليانى أيام كان عاملا له على مراكش وكان السلطان يوسف فى ابتداء أمره يخلط الخصيان بأهله ولا يحجبهم عن حرمه وعياله ثم حدثت للسلطان ريبة فى بعض الخصيان فاعتقل جملة منهم كان فيهم عنبر الكبير عريفهم وحجب سائرهم فارتاعوا لذلك وفسدت نياتهم فسولت لهذا الخصى الخبيث نفسه الشيطانية الفتك بالسلطان فعمد اليه وهو فى بعض حجر قصره فاستأذن عليه فأذن له فألفاه مستلقيا على فراشه مختضبا بحناء فوثب عليه وطعنه طعنات قطع بها امعاءه وخرج هاربا وانطلق بعض الاولياء فى أثره فأدركه من العشى بناحية تاسالة فقبض عليه وجىء به الى القصر فقتلته العبيد والحاشية وصابر السلطان يوسف منيته الى آخر النهار ثم قضى رحمه الله يوم الاربعاء سابع ذى القعدة من سنة ست وسبعمائة وقبر هنالك ثم نقل بعد ما سكنت الهيعة الى مقبرتهم بشالة فدفن بها مع سلفه وأطلال ضريحه لازالت ماثلة الى الآن وبموت السلطان يوسف انقضت مدة الحصار عن آل يغمراسن وقومهم من بنى عبد الواد وسائر أهل تلمسان وكانت المدة فى ذلك مائة شهر كما قلنا نالهم فيها من الجهد والشدة ما لم ينل أمة من الامم واضطروا الى أكل الجيف والقطوط والفيران حتى انهم أكلوا فيها أشلاء الموتى من الناس وخربوا السقوف للوقود وغلت أسعار الاقوات والحبوب وسائر المرافق بما تجاوز حد العادة وعجز وجدهم عنها فكان ثمن مكيال القمح ومقداره اثناعشر رطلا ونصف مثقالين ونصفا من الذهب العين وثمن الشخص الواحد من البقر ستين مثقالا ومن الضأن سبعة مثاقيل ونصفا وأثمان اللحم من الجيف الرطل من لحم البغال والحمير بثمن المثقال ومن الخيل بعشر

المثقال والرطل من الجلد البقري، بيتة أو مذكى بثلاثين درهما والهر الداجي بمثقال ونصف والكلب بمثله والفأر بعشرة دراهم والحية بمثل ذلك والدجاجة بثلاثين درهما والبيض واحدة بستة دراهم والعصافير كذلك والاوقية من الزيت باثني عشر درهما ومن السمن بمثلها ومن الشحم بعشرين درهما ومن الملح بعشرة دراهم ومن الحطب كذلك والاصل الواحد من الكرنب بثلاثة أثمان المثقال ومن الخس بعشرين درهما ومن اللفت بخمسة عشر درهما والواحدة من القثاء والفقوس بأربعين درهما والخيار بثلاثة أثمان الدينار والبطيخ بثلاثين درهما والحبة من التين والاجاص بدرهمين واستهلك الناس أموالهم وموجودهم وضاقت أحوالهم وهلكت حاميتهم فاعتزموا على الالقاء باليد والخروج للاستماتة فهيأ الله لهم الصنع الغريب ونفس عن مخنقهم بهلاك السلطان يوسف على يد الخصي المريب وأذهب الله العناء عن آل زيان وقومهم وخرجوا كأنما نشروا من القبور وكتبوا بعد هذه الحادثة في سكتهم ما أقرب فرج الله استغرابا لها ﴿قال ابن خلدون﴾ حدثني شيخنا أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الابلي قال جلس السلطان أبو زيان بن عثمان بن يغمراسن صبيحة يوم الفرج وهو يوم الاربعاء سابع ذي القعدة في زاوية من زوايا قصره يفكر واستدعى ابن حجاف خازن الزرع فسأله كم بقي من الاهراء والمطامير المختومة فقال له انما بقي عولة اليوم وغد فاستوصاه بكتمان ذلك وبينما هم يتذاكرون في ذلك دخل عليهم أخوه أبو حمو فأخبروه بذلك فوجم وجلسوا سكوتا لا ينطقون واذا بدعد قهرمانة القصر وكانت وصيفة من وصائف بنت السلطان أبي اسحق خطيبة أبيهم قد خرجت من القصر اليهم وحيتهم وقالت لهم تقول لكم حظايا قصركم وبنات زيان حرمكم ما لنا وللبقاء وقد أحيط بكم وأسف عدوكم لالتهامكم ولم يبق الا فواق ناقة لمصارعكم فأريحونا من معرة السبي وقربونا الى مصارعنا وأريحوا أنفسكم فينا فالحياة في الذل عذاب والوجود بعدكم عدم فالتفت أبو حمو الى أخيه أبي زيان وكان من الشفقة بمكان فقال قد صدقتك الخبر فانتظر بهن فقال يا موسى أرجئني ثلاثا لعل الله يجعل بعد عسر يسرا ولا تشاورني بعدها فيهن بل سرح اليهود والنصارى الى قتلهن وتعال الي نخرج مع قومنا الى عدونا فنستميت ويقضي الله ما شاء فغضب أبو حمو وأنكر عليه التأخير في ذلك وقال انما نحن والله نتربص المعرة بهن وبأنفسنا وقام عنه مغضبا وجهش السلطان أبو زيان بالبكاء قال ابن حجاف وأنا بمكاني بين يديه لا أملك متأخرا ولا متقدما الى ان غلب عليه النوم فما راعني الا حرسي بالباب يشير الي ان أعلم السلطان بمكان رسول جاء من محلة بني مرين وها هو بسدة القصر قال ابن حجاف فلم أطق رد جوابه الا بالاشارة وانتبه السلطان من همسنا فزعا فأعلمته فاستدعاه للحين فلما وقف بين يديه قال ان السلطان يوسف بن يعقوب هلك الساعة وأنا رسول حافده أبي ثابت اليكم فاستبشر السلطان أبو زيان واستدعى أخاه وقومه حتى بلغ الرسول المذكور رسالته بمسمع منهم فكانت احدى المغربات في الايام وكان من خبر هذه الرسالة ان السلطان يوسف لما هلك تطاول للامر بعده القرابة من اخوته وولده وحفدته وتحيز حافده أبو ثابت الى بني ورتاجن لخؤلة كانت له فيهم فاستجاش بهم واعصوصبوا عليه وبعث الى بني زيان ان يعطوه آلة الحرب ويكونوا مفزعا له ان أخفق مسعاه على انه ان تم أمره قوض عنهم معسكر بني مرين وأفرج عنهم فعاقدوه على ذلك فوفى لهم لما تم أمره وتزل لهم عن جميع الاعمال التي كان السلطان يوسف غلب عليها من بلادهم ورحلوا الى مغربهم والله غالب على أمره

## ﴿بقية أخبار السلطان يوسف وسيرته﴾

كان السلطان يوسف رحمه الله أبيض حسن القد مليح الوجه أقنى الانف مهيبا لا يكاد أحد يبدؤه بالكلام جوادا مشفقا على الرعية متفقدا لاحوالها شجاعا شهما ذا عزيمة

اذا هم ألقى بين عينيه همه * ونكب عن ذكر العواقب جانباه

وهو أول من هذب ملك بني مرين وأكسبه رونق الحضارة وبهاء الملك وكان غليظ الحجاب لا يكاد يوصل اليه الا بعد الجهد ومن أعيان كتابه الكاتب أبو محمد عبد الله بن أبي مدين العثماني ومن أعيان شعرائه أبو الحكم مالك بن المرحل السبتي وأبو فارس عبد العزيز الملزوزي المكناسي وغيرهما والله تعالى أعلم ﴿ولنذكر﴾ ما كان في هذه المدة من الاحداث (ففي سنة ست وخمسين وستمائة) وهي السنة التي بويع فيها السلطان يعقوب بن عبد الحق كان الرخاء المفرط بالمغرب بحيث كان الدقيق يباع بفاس وغيرها ربع منه بدرهم والقمح ستة دراهم للصحفة والشعير ثلاثة دراهم للصحفة وأما القطاني فلم يكن لها ثمن والعسل ثلاثة أرطال بدرهم والزيت أربعون أوقية بدرهم والزبيب درهم ونصف للربع والتمر ثمانية أرطال بدرهم واللوز صاع بدرهم والشابل الطري فردة بقيراط والملح حمل بدرهم ولحم البقر مائة أوقية بدرهم ولحم الضأن سبعون أوقية بدرهم والكبش بخمسة دراهم وهكذا ﴿وفي سنة احدى وستين وستمائة﴾ ظهر النجم أبو الذوائب وكان ابتداء ظهوره ليلة الثلاثاء الثاني عشر من شعبان من السنة المذكورة وبقي يطلع كل ليلة وقت السحر نحوا من عشرين يوما ﴿وفي سنة أربع وستين وستمائة﴾ كان دخول الشريف المولى حسن بن قاسم الحسني من أرض ينبع الحجاز الى سجلماسة وهذا الشريف هو جد الاشراف العلويين السجلماسيين ملوك المغرب الاقصى في عصرنا هذا أعلى الله تعالى قدرهم وخلد مجدهم وفخرهم وعند الكلام على دولتهم السعيدة نذكر كيفية دخول هذا الشريف الى المغرب والسبب فيه ان شاء الله ﴿وفي سنة ست وستين وستمائة﴾ سرق من بيت المال بقصبة فاس اثنا عشر ألف دينار وثلاث قلائد تساوي أكثر من ذلك ﴿وفي حدود السبعين وستمائة﴾ كان ظهور البارود وعلى ما مر من ان السلطان يعقوب بن عبد الحق فتح به سجلماسة في هذه المدة والله تعالى أعلم ﴿وفي سنة سبع وسبعين وستمائة﴾ بني المسجد الجامع بفاس الجديد ﴿وفي سنة تسع وسبعين وستمائة﴾ علقت به ثرياه وذلك يوم السبت السابع والعشرين من ربيع الأول منها ووزن هذه الثريا سبعة قناطير وخمسة عشر رطلا وعدد كؤوسها مائتا كاس بالتثنية وسبع وثمانون كاسا وفيها كان الجراد العام بالمغرب أكل الشجر والزرع ولم يترك خضراء على وجه الارض وبلغ القمح عشرة دراهم للصاع ﴿وفي سنة ثمانين وستمائة﴾ بنيت قنطرة وادي النجاة وقنطرة ماريج ﴿وفي سنة ثلاث وثمانين وستمائة﴾ كان بالمغرب قحط شديد لم ير الناس قطرة ماء حتى كان اليوم السابع والعشرون من رمضان وهو اليوم الذي توفيت فيه الحرة أم العز بنت محمد بن حازم العلوية من بني علي بن عسكر وهي أم السلطان يوسف فغاث الله العباد وأحيى برحمته البلاد ﴿وفي سنة خمس وثمانين وستمائة﴾ بنيت قصبة تطاوين وفيها ركبت الناعورة الكبرى على وادي فاس شرع في عملها في رجب من السنة المذكورة ودارت في صفر من السنة بعدها ﴿وفي سنة ست وثمانين وستمائة﴾ بني سور قصر المجاز وركبت أبوابه وفيها غرس بستان المصارة بفاس الجديد وبنيت الدار البيضاء بها أيضا ﴿وفي سنة تسع وثمانين وستمائة﴾ كانت الريح الشرقية المتوالية الهبوب ونشأ عنها القحط الشديد واستمر ذلك الى آخر سنة تسعين بعدها فرحم الله بلاده وعباده وفيها توفي الشيخ الصالح أبو يعقوب الاشقر بالكندرتين من بلاد بني بهلول من أحواز فاس ولعل أبا يعقوب هذا هو الذي تنسب اليه الحمة التي قدمنا الكلام عليها في أخبار المنصور الموحدي والله أعلم وفيها بني المسجد الجامع بمدينة تازا وبنيت قبة مكناسة الزيتون وربا عها ﴿وفي سنة احدى وسبعين وستمائة﴾ أمر السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق بعمل المولد النبوي وتعظيمه والاحتفال له وصيره عيدا من الاعياد في جميع بلاده وذلك في شهر ربيع الاول من السنة المذكورة وكان الامر به قد صدر عنه وهو بصبرة من بلاد الريف في آخر صفر من السنة فوصل برسم اقامته بحضرة فاس الفقيه أبو يحيى بن أبي الصبر واعلم انه قد كان سبق السلطان يوسف الى هذه المنقبة المولدية بنو العزفي أصحاب سبتة فهم أول من أحدث عمل المولد الكريم بالمغرب

عمل المولد النبوي

والله تعالى أعلم ﴿وفي سنة ثلاث وتسعين وستمائة﴾ كان كسوف الشمس وذلك قرب زوال يوم الاحد التاسع والعشرين من رجب من السنة المذكورة كسف منها نحو الثلثين وصلى بالناس صلاة الكسوف بجامع القرويين من فاس الخطيب أبو عبد الله بن أبي الصبر حتى انجلت فخرج من المحراب ووقف بازائه فوعظ الناس وذكرهم وفي هذه السنة رفعت أيدي الموثقين من الشهادة بفاس ولم يبق بها منهم سوى خمسة عشر رجلا من أهل العدالة والمعرفة وكانوا قبل ذلك أربعة وتسعين وكان ذلك يوم الاثنين الحادي عشر من شوال من السنة المذكورة وفيها كانت المجاعة الشديدة والوباء العظيم عم ذلك بلاد المغرب وافريقية ومصر فكانت الموتى تحمل اثنان وثلاثة وأربعة على المغتسل وبلغ القمح عشرة دراهم للمد والدقيق ست أواق بدرهم وأمر السلطان يوسف بتبديل الصيعان وجعلها على مد النبي صلى الله عليه وسلم وكان ذلك بالحضرة على يد الفقيه أبي فارس عبد العزيز الملزوزي الشاعر المشهور ﴿ثم دخلت سنة أربع وتسعين وستمائة﴾ فيها اصطلح أمر الناس وانجبرت أحوالهم ورخصت الاسعار في جميع الامصار فبيع القمح بعشرين درهما الصحفة وفي هذه السنة كسفت الشمس أيضا الكسوف الكلي بحيث غاب قرص الشمس كله وصار النهار ليلا كالحالة التي تكون ما بين العشاءين وظهرت النجوم وماج الناس وضاقت نفوسهم ولولا ان الله سبحانه تداركهم بسرعة انجلائها لهلكوا جزعا وكان ذلك بعد صلاة ظهر الثلاثاء الثامن والعشرين من ذي الحجة من سنة أربع وتسعين المذكورة ﴿وفي سنة سبعمائة﴾ أسس السلطان يوسف بن يعقوب مدينته المنصورة بازاء تلمسان وهو محاصر لها الحصار الطويل حسبما مر الخبر على ذلك مستوفى وبالله تعالى التوفيق

## ﴿الخبر عن دولة السلطان أبي ثابت عامر بن عبد الله بن يوسف بن يعقوب بن عبد الحق رحمه الله﴾

قد تقدم لنا ان أبا عامر عبد الله ابن السلطان يوسف كان قد انتبذ عن أبيه وبقي متنقلا في جهات الريف وبلاد غمارة الى ان هلك في بلاد بني سعيد منهم وانه خلف ثلاثة أولاد أحدهم أبو ثابت عامر بن عبد الله هذا الذي ولي الامر بعد جده وذلك انه لما هلك السلطان يوسف رحمه الله بالمنصورة كما تقدم كان حافده أبو ثابت هذا في جملته وكان له في بني ورتاجن من أهل تلك البلاد خؤولة فلحق بهم ودعا لنفسه فبايعوه وقاموا معه في أمره وبايعه معهم أشياخ بني مرين والعرب بظاهر المنصورة يوم الخميس ثاني يوم وفاة جده يوسف وبادر الحاشية والوزراء ومن شايعهم بداخل المنصورة الى بيعة الامير أبي سالم ابن السلطان يوسف وكاد أمر بني مرين يفسد وكلمتهم تفترق فبعث السلطان أبو ثابت حينه وكان شهما مقداما الى صاحبي تلمسان أبي زيان وأبي حمو ابني عثمان بن يغمراسن فعقد لهما عهدا على ان يرحل عنهم بجموعه وان يعدوه بالآلة ويرفعوا له كسر بيتهم ويضموه اليهم ان خاب أمله ولم يتم له أمر فاجابوه الى ذلك وحضر العقد أبو حمو فأحكمه وشرط عليه السلطان أبو ثابت أن لا يتعرضوا المدينة جده المنصورة بسوء وان يتعاهدوا مساجدها وقصورها بالاصلاح وان من أراد الاقامة بها من أهلها فلا لاحد عليه من سبيل لان الناس كانوا قد استوطنوها وألفوها وطاب مقامهم بها وتأثلوا بها الاثاث والمتاع والخرثي وسائر الماعون مما يثبط المرتحل ويثقل جناح الناهض فقبل أبو حمو ذلك كله وتفرغ السلطان أبو ثابت لشأنه وجمع كلمة قومه واختل أمر أبي سالم فلم يتم وكتب السلطان أبو ثابت الى حامية بني مرين وحصصها التي كانت متفرقة في الثغور الشرقية التي استولى عليها السلطان يوسف أيام حياته فاقبلوا اليه ينسلون من كل حدب وأسلموا البلاد الى أهلها من بني عبد الواد وقتل السلطان أبو ثابت عمه أبا سالم بن يوسف ثم اتبعه بعم أبيه أبي بكر بن يعقوب في آخرين من القرابة وغيرهم ممن يتوقع منه الشر وفر بقية القرابة خشية على أنفسهم من سطوة أبي ثابت فلحقوا بعثمان ابن أبي العلاء الثائر بجبال غمارة من عهد السلطان يوسف فشايعوه على أمره وتقوى بهم على ما نذكره

ثم ارتحل السلطان أبو ثابت قاصداً حضرة فاس في جموع لا تحصى وأمم لا تستقصى فعيد عيد الاضحى من سنة ست وسبعمائة في طريقه بين تلمسان ووجدة ثم نهض الى فاس فدخلها فاتح سنة سبع وسبعمائة ثم نهض بعد ذلك الى مراكش على ما نذكره ولما علم بنو يغمراسن ان أبا ثابت قد أبعد عنهم وانه توغل في البلاد المراكشية واشتغل بحروب الثائرين بها عمدوا الى المنصورة فجعلوا عاليها سافلها وطمسوا معالمها ومحوا آثارها فاصبحت كأن لم تغن بالامس

## ﴿ثورة يوسف بن محمد بن أبي عياد بن عبد الحق وما كان من أمره﴾

كان السلطان أبو ثابت لما انفصل من تلمسان قدم بين يديه ابن عمه الحسن بن عامر بن عبد الله بن يعقوب وأمره بالنظر في أحوال فاس والمغرب وأمره بضبطها وتسريح سجونها ورد مظالمها وتفريق الاموال على الخاصة والعامة ففعل ولما قدم حضرة فاس عقد لابن عمه يوسف بن محمد بن أبي عياد بن عبد الحق على مراكش ونواحيها وعهد اليه بالنظر في أحوالها وضبطها فصمد اليها واحتل بها وتمكن منها ثم حدثته نفسه بالانتزاء فاستلحق واستركب واتخذ الآلة وجاهر بالخلعان وتقبض على الوالي بمراكش الحاج المسعود فقتله من تحت السياط في جمادى الآخرة سنة سبع وسبعمائة ودعا لنفسه واتصل الخبر بالسلطان أبي ثابت وهو بفاس فسرح اليه وزيره يوسف بن عيسى بن السعود بن خرباش الحشمي بالحاء المهملة ويعقوب بن آصناك في خمسة آلاف فارس فسار والى مراكش وبرز يوسف بن محمد بن أبي عياد الى حربهم وعبر اليهم وادي أم الربيع فالتقوا معه على ضفته الشرقية فهزموه وعاد الى مراكش واتبعه الوزير ودخل ابن أبي عياد مراكش فقتل جماعة من جند الفرنج الذين بها وسبى ذراريهم وخرج منها الى اغمات فلم يستقربها ثم فر الى جبال هسكورة فنزل على كبيرها مخلوف بن هنو الهسكوري ولحق به موسى بن سعيد الصبيحي من اغمات تدلى من سورها فلحق به ودخل السلطان أبو ثابت مراكش منتصف رجب من سنة سبع وسبعمائة وأمر بقتل أوربة المداخلين لابن أبي عياد في انتزائه فاستلحموا جميعا ولما لحق ابن أبي عياد بمخلوف بن هنو الهسكوري واستجار به لم يجره على السلطان أبي ثابت بل قبض عليه مع ثمانية من كبار أصحابه وبعثهم في الحديد اليه وهو بمراكش فقتلوا في مصرع واحد بعد ان مثل بهم بالسياط وبعث برأس ابن أبي عياد الى فاس فطيف به فيها ونصب على سورها ثم أثخن أبو ثابت في كل من كان على رأى ابن أبي عياد وخاض معه في الفتنة فاستلحم منهم بمراكش ما ينيف على الستمائة وصلبهم على سورها من باب الرب أحد أبواب مراكش الى برج دار الحرة عزونة وقتل في اغمات منهم مثل ذلك وخرج منتصف شعبان الى منازلة السكسيوي وتدويخ جهات مراكش فنزل بتامزوارت وتلقاه السكسيوي بالبيعة والهدية والضيافة فقبل السلطان أبو ثابت ذلك منه ثم بعث قائده يعقوب بن آصناك في جيش من ثلاثة آلاف فارس الى بلاد حاحة برسم غزو قبائل زكنة ففروا بين يديه حتى دخلوا بلاد القبلة وانقطع أثرهم ورجع الى معسكر السلطان بتامزوارت وأخبره بسكون البلاد وأمنها فانكفأ السلطان أبو ثابت راجعا الى مراكش فدخلها غرة رمضان من سنة سبع وسبعمائة ثم خرج منها في منتصفه قاصدا رباط الفتح فاجتاز على بلاد صنهاجة وعبر وادي أم الربيع من مشرع كتامة في القوارب لزيادة الماء يومئذ ثم ارتحل فاجتاز ببلاد تامسنا فتلقاه بها عرب جشم من قبائل الخلط وسفيان وبني جابر والعاصم فاستصحبهم معه الى مدينة آنفي بعد ان استأذنوه في الرجوع فلم يأذن لهم ولما احتل بآنفي دعا بأشياخهم فحضروا اعنده فقبض على ستين منهم أودعهم سجن آنفي وضرب أعناق عشرين من فسادهم القاطعين للسبل وصلبهم على سور آنفي ثم نهض الى رباط الفتح فدخله في السابع والعشرين من رمضان فعيد هنالك عيد الفطر وقتل به ثلاثين من فتاك العرب المتهمين بالحرابة وقطع الطريق وصلبهم على أسوار العدوتين ثم ارتحل منتصف شوال لغزو عرب رياح

الموطنين بابى طويل وفحص آزغار وبلاد الهبط فغزاهم وأخذهم بالاحن القديمة فقتل منهم خلقا وسبى ذراريهم وانتهب أموالهم ونهض الى فاس فاحتل بها منتصف ذى القعدة وعيد بها عيد الاضحى ثم نهض الى سبتة على مانذكره

﴿غزو السلطان أبى ثابت بلاد غمارة وسبتة ومحاصرته لعثمان بن أبى العلاء﴾

قد تقدم لنا ان عثمان بن أبى العلاء كان قد ورد من الاندلس صحبة الرئيس أبى سعيد بن الاحمر المتغلب على سبتة أيام السلطان يوسف وانه ثار بجبال غمارة ودعا لنفسه واستحوذ عليها وكان السلطان يوسف بلغه خبره وأهمه شأنه الا انه كان يرجو ان يفتح تلمسان عن قريب ثم ينهض اليه فعاجله الحمام دون ذلك ولما أفضى الامر الى السلطان أبى ثابت وقدم حضرة فاس شغله عن عثمان بن أبى العلاء ما كان من ثورة يوسف بن محمد بن أبى عياد بمراكش كما قدمناه فعقد على حرب عثمان بن أبى العلاء لابن عمه عبد الحق ابن عثمان بن محمد بن عبد الحق فزحف اليه ونهض عثمان بن أبى العلاء الى لقائه منتصف ذى الحجة سنة سبع وسبعمائة فهزمه عثمان بن أبى العلاء واستلحم من كان معه من جند الفرنج وهلك فى تلك الوقعة عبد الواحد الفودودى من رجالات الدولة المرشحين للوزارة وسار عثمان بن أبى العلاء الى قصر كتامة فدخله واستولى على جهاته وكان بطلا من الابطال وعلى اثر ذلك كان رجوع السلطان أبى ثابت من غزاة مراكش وقد حسم الداء ومحى أثر النفاق فاعتزم على النهوض الى بلاد غمارة ليمحو منها أثر دعوة ابن أبى العلاء التى كادت تلج عليه دار ملكه ويستخلص سبتة من يد ابن الاحمر المتغلب عليها لانها صارت ركابا لمن يروم الخروج على السلطان من القرابة المستقرين وراء البحر غزاة فى سبيل الله فنهض السلطان أبو ثابت من فاس عقب عيد الاضحى من سنة سبع وسبعمائة حتى انتهى الى قصر كتامة فتلوم به ثلاثا حتى تلاحق به قبائل مرين والعرب والرماة من سائر البلاد فعرض جيشه وارتحل قاصدا جبال غمارة وكان عثمان بن أبى العلاء قد فر أمامه الى ناحية سبتة فسار السلطان أبو ثابت فى اتباعه حتى نازل حصن علودان واقتحمه عنوة واستلحم به زهاء أربعمائة ثم نازل بلد الدمنة على شاطئ البحر فقتل الرجال وسبى النساء والذرية وانتهب الاموال وكانوا قد تمسكوا بطاعة ابن أبى العلاء وأجازوه الى القصر فى وسط بلادهم وبالغوا فى تضييفه واكرامه ودخلوا معه القصر وأصيلا ونهبوا كثيرا من مال أهلهما ثم ارتحل السلطان أبو ثابت الى طنجة فدخلها فاتح سنة ثمان وسبعمائة وتحصن ابن أبى العلاء بسبتة مع أوليائه من بنى الاحمر وسرح السلطان أبو ثابت عساكره فتفرقت فى نواحى سبتة بالغارات واكتساح الاموال (بناء مدينة تطاوين) ثم أمر السلطان باختطاط مدينة تطاوين لنزول عسكره وللاخذ بمخنق سبتة هكذا عند ابن أبى زرع وابن خلدون ﴿واعلم﴾ ان تطاوين هذه هى تطاوين القديمة وقد تقدم لنا ان قصبتها بنيت فى سنة خمس وثمانين وستمائة وذلك لاول دولة السلطان يوسف بن يعقوب ابن عبد الحق ثم بنى السلطان أبو ثابت هذا المدينة عليها فى هذا التاريخ الذى هو فاتح سنة ثمان وسبعمائة وكان بناؤها خفيفا اشبه بالقرية عدا قصبتها فان بناءها كان محكما وثيقا واستمرت هذه المدينة عامرة الى صدر المائة التاسعة فخربت ثم جدد بناؤها بعد نحو تسعين سنة حسبما يأتى الخبر عن ذلك مستوفى ان شاء الله تعالى (قالوا) ولفظ تطاوين مركب من كلمتين تيط ومعناها فى لسان البربر العين وين وهى كناية عن المخاطب نحو يا فلان وما أشبه ذلك (قالوا) والسبب فى تسميتها بذلك انهم فى وقت اختطاطهم لها كانوا يضعون الحرس على أسوارها مخافة فجأة العدو فكان الحرس ينادون بالليل أو بالنهار تطاوين تطاوين أى يا فلان افتح عينك لان عادة الحارس ان يقول ذلك فصار هذا اللفظ علما عليها ويظهر ان هذا من كلام العامة ولا أصل له وكذا قول بعضهم تيط معناها العين ووين معناها المقلة ومعنى مجموع الكلمتين مقلة العين والاضافة مقلوبة كما هى فى لسان بعض الامم العجمية فانه لا مستند له والله تعالى

أعلم ولما شرع السلطان أبو ثابت فى بناء مدينة تطاوين أوفد كبير الفقهاء بمجلسه أبا يحيى بن أبى الصبر الى ابن الاحمر صاحب سبتة فى شأن النزول له عن البلد وأقام هو بقصبة طنجة ينتظر الجواب عما ذا يكون وفى أثناء ذلك مرض مرض موته وتوفى فى يوم الاحد الثامن من شهر صفر سنة ثمان وسبعمائة ودفن بظاهر طنجة ثم حمل شلوه بعد أيام الى مدفن آبائه بشالة فوورى هنالك رحمة الله عليه وعليهم

﴿الخبر عن دولة السلطان أبى الربيع سليمان بن أبى عامر عبد الله بن يوسف﴾
﴿ابن يعقوب بن عبد الحق رحمه الله﴾

لما هلك السلطان أبو ثابت تصدى للقيام بالامر عمه على بن يوسف المعروف بابن زربقاء وهى أمه وعلى هذا هو الذى قتل شيوخ المصامدة بكتاب ابن الملياني كما تقدم وخلص الملا من بنى مرين أهل الحل والعقد الى أبى الربيع المذكور أخى أبى ثابت فبايعوه واستتب أمره فتقبض على عمه على بن زربقاء وسجنه بطنجة فبقى مسجونا بها الى ان هلك سنة عشر وسبعمائة وبث السلطان أبو الربيع العطاء فى الناس وأجزل الصلات فأرضى الخاصة والعامة وصفا له الامر ثم ارتحل نحو فاس واستدعى من كان بمحلة تطاوين من الجند فأقبلوا اليه وأرضاهم بالمال كذلك ولما فصل من طنجة تبعه عثمان بن أبى العلاء من سبتة فى جيش كثيف ليضرب فى محلته ليلا فنذر به عسكر السلطان أبى الربيع فأسهروا ليلتهم وباتوا على صهوات خيولهم فوافاهم عثمان بساحة علودان وهم على ذلك فناجزهم الحرب فهزموه وتقبض على ولده وكثير من عسكره وقتل آخرون وكان السلطان أبى الربيع الظهور الذى لا كفاء له ووصل أبو يحيى بن أبى الصبر من الاندلس وقد أحكم عقدة الصلح مع ابن الاحمر صاحب غرناطة ولما رأى عثمان بن أبى العلاء ذلك سقط فى يده وأيس من المغرب فعبر البحر فيمن معه من القرابة الى الاندلس وولى مشيخة الغزاة بها فكانت له فى جهاد العدو اليد البيضاء وعلا أمره بالاندلس وزاحم بنى الاحمر ملوكها فى رياستهم وجبايتهم حتى كاد يستولى على الامر من أيديهم وشر قوابدائه ومارسهم ومارسوه مدة طويلة وعدلوا فى أمره الى المصانعة والمجاملة فى أخبار ليس جلبها من غرضنا الى ان توفى لكنا نذكر من ذلك انموذجا يستدل به الواقف عليه على ماوراءه فنقول لما توفى عثمان بن أبى العلاء رحمه الله كتب على قبره ما صورته ﴿هذا قبر شيخ الحماة وصدر الابطال والكماة واحد الجلالة ليث الاقدام والبسالة علم الاعلام حامى ذمار الاسلام صاحب الكتائب المنصورة والافعال المشهورة والمغازى المسطورة وامام الصفوف القائم بباب الجنة تحت ظلال السيوف سيف الجهاد وقاصم الاعاد وأسد الآساد العالى الهمم الثابت القدم الهمام الماجد الارضى البطل الباسل الامضى المقدس المرحوم أبى سعيد عثمان ابن الشيخ الجليل الهمام الكبير الاصيل الشهير المقدس المرحوم أبى العلاء ادريس بن عبد الله بن عبد الحق﴾ كان عمره ثمانيا وثمانين سنة أنفقه ما بين روحة فى سبيل الله وغدوة حتى استوفى فى المشهور سبعمائة واثنتين وثلاثين غزوة وقطع عمره مجاهدا مجتهدا فى طاعة الرب محتسبا فى ادارة الحرب ماضى العزائم فى جهاد الكفار مصادما بين جموعهم تدفق التيار وصنع الله تعالى له فيهم من الصنائع الكبار ما سار ذكره فى الاقطار أشهر من المثل السيار حتى توفى رحمه الله وغبار الجهاد طى أثوابه وهو مراقب لطاغية الكفار وأحزابه فمات على ماعاش عليه وفى ملحمة الجهاد قبضه الله اليه واستأثر به سعيدا مرتضى وسيفه على رأس ملك الروم منتضى مقدمة قبول واسعاد ونتيجة جهاد وجلاد ودليلا على نيته الصالحة وتجارته الرابحة فارتجت الاندلس لبعده أتحفه الله برحمة من عنده توفى يوم الاحد الثانى لذى الحجة من سنة ثلاثين وسبعمائة رحمه الله ﴿وأما السلطان أبو الربيع﴾ فانه لما سار عن طنجة دخل حضرة فاس حادى عشر ربيع الاول من سنة ثمان وسبعمائة فأقام بها سنة المولد الكريم وفرق الاموال واستقامت الامور وتمهد الملك وعقد السلم مع

صاحب تلمسان أبي حمو موسى بن عثمان بن يغمراسن وأقام وادعا بحضرته مجتنيا ثمرة ملكه وكان في أيامه غلاء الا أن الناس انفتحت لهم فيها أبواب المعاش والترف حتى تغالوا في أثمان العقار فبلغت قيمتها فوق المعتاد حتى لقد بيع كثير من الدور بفاس بألف دينار من الذهب العين وتنافس الناس في البناء فاتخذوا القصور المشيدة وتأنقوا فيها بالزليج والرخام وأنواع النقوش وتناغوا في لبس الحرير وركوب الفاره وأكل الطيب واقتناء الحلي من الذهب والفضة واستبحر العمران وظهرت الزينة والامور كلها بيد الله تعالى

## ﴿نكبة الفقيه الكاتب أبي محمد عبد الله بن أبي مدين واستئصال بني وقاصة اليهوديين بعد ذلك﴾

كان الفقيه الثابت أبو محمد عبد الله بن أبي مدين شعيب بن مخلوف من بني أبي عثمان احدى قبائل كتامة المجاورين للقصر الكبير وكان بيته بيت العلم والدين واتصلوا بخدمة بني مرين أيام دخولهم المغرب واستيلائهم عليه وكان أبو محمد هذا من خاصة السلطان يوسف بن يعقوب وجعل بيده وضع العلامة على الرسائل وفوض اليه في حسبان الخراج والضرب على أيدي العمال وتنفيذ الاوامر بالقبض والبسط فيهم واستخلصه لمناجاته والافضاء اليه بسره ولما هلك السلطان يوسف وولي بعده السلطان أبو ثابت ضاعف رتبة هذا الرجل وشفع لديه حظه ومنصبه ورفع على الاقدار قدره ثم ولي بعده أخوه أبو الربيع فسلك فيه مذهب سلفه واضطلع أبو محمد بن أبي مدين بأمور دولته وكان بنو وقاصة اليهود حين نكبوا أيام السلطان يوسف يرون ان نكبتهم كانت بسعاية أبي محمد فيهم وكان خليفة الاصغر منهم قد أفلت من تلك النكبة كما ذكرناه فلما أفضى الامر الى السلطان أبي الربيع استعمل خليفة هذا بداره في بعض المهن فباشر الامور وترقى فيها حتى اتصل بالسلطان فجعل غاية قصده السعاية بأبي محمد بن أبي مدين وكان يؤثر عن السلطان أبي الربيع انه يختلي مع حوم حاشيته وتعرف خليفة ذلك من مقالات الناس فدس الى السلطان بأن ابن أبي مدين يعرض باتهامك في ابنته وان صدره قد وغر لذلك وانه متربص بالدولة ومتربص بها الدوائر فتمكنت سعايته من السلطان وظن انه صادق وكان يخشى غائلة ابن أبي مدين بما كان له من الوجاهة في الدولة ومداخلة القبيل فاستعجل السلطان أبو الربيع دفع غائلته ودس الى قائد جند الفرنج بقتله فسار اليه ولقيه بمقبرة الشيخ أبي بكر بن العربي فرصده وأتاه من خلفه فطعنه طعنة كبته على ذقنه واحتز رأسه وألقاه بين يدي السلطان أبي الربيع ودخل الوزير سليمان بن يرزيكن فوجد الرأس بين يديه فذهبت نفسه عليه وعلى مكانه من الدولة حسرة وأسفا وأيقظ السلطان لمكر اليهودي وأطلعه على خبثه وأخرج له براءة كان بعث بها ابن أبي مدين معه الى السلطان يتنصل فيها ويحلف على كذب ما رمي به عنده فتنبه السلطان لمكر اليهودي وعلم انه قد خدعه وندم حيث لم ينفعه الندم وفتك لحينه بخليفة بن وقاصة وحاشيته من اليهود المتصدين للخدمة وسطا بهم سطوة الملكة فأصبحوا مثلا للآخرين

## ﴿انتقاض أهل سبتة على بني الاحمر ومراجعتهم طاعة بني مرين﴾

كان أهل سبتة قد سئموا ملكة أهل الاندلس وثقلت عليهم ولايتهم لاسيما حين رحل عنهم عثمان بن أبي العلاء وعبر البحر بقصد الجهاد كما مر واتصل خبر ذلك بالسلطان أبي الربيع فانتهز الفرصة فيهم وعقد لثقته تاشفين بن يعقوب الوطاسي أخي وزيره عبد الرحمن بن يعقوب على عسكر ضخم من بني مرين وسائر طبقات الجند وبعثه الى سبتة فاغذ السير اليها ونزل بساحتها ولما أحس به أهل البلد تمشت رجالاتهم فيما بينهم وتنادوا بشعار بني مرين وثاروا على من كان بسبتة من حامية ابن الاحمر فأخرجوهم منها واقتحم تاشفين بن يعقوب البلد عاشر صفر من سنة تسع وسبعمائة وتقبض على قائد القصبة أبي

زكرياء يحيى بن مليلة وعلى قائد البحر أبى الحسين بن كماشة وعلى قائد الحرب بها من القرابة عمر بن رحوا ابن عبد الله بن عبد الحق وطير تاشفين بالخبر الى السلطان أبى الربيع فعم السرور وعظم الفرح واتصل ذلك بابن الاحمر فضاق ذرعه وخشى عادية بنى مرين وجيوش المغرب حين انتهوا الى الفرضة وملكوها فقلب رأيه ورأى ان يجنح الى السلم مع السلطان أبى الربيع لشدة شوكته ولكلب الطاغية عليه فى أرضه لولا ان غزاة بنى مرين يكفون من غربه فبادر السلطان ابن الاحمر وهو أبو الجيوش نصر ابن محمد أخو المخلوع الذى كان قبله وأوفد رسله على السلطان أبى الربيع راغبين فى السلم خاطبين للولاية وتبرع بالنزول عن الجزيرة ورندة وحصونها ترغيبا للسلطان أبى الربيع فى الجهاد فقبل منه ذلك وعقد له الصلح على ما أراد وخطب منه أخته فانكحه ابن الاحمر اياها وبعث السلطان أبو الربيع اليه بالمدد للجهاد أموالا وخيولا جنائب مع ثقته عثمان بن عيسى اليرنيانى أخى وزيره ابراهيم بن عيسى واتصلت بينهما الولاية الى ان توفى السلطان أبو الربيع رحمه الله

## ﴿انتقاض الوزير عبد الرحمن بن يعقوب الوطاسى على السلطان أبى الربيع﴾ ﴿ومبايعته لعبد الحق بن عثمان والسبب فى ذلك﴾

لما انعقد الصلح بين السلطان أبى الربيع وابن الاحمر وحصلت المصاهرة بينهما والمودة كانت رسل ابن الاحمر لا تزال تتردد الى حضرة السلطان بفاس فقدم منهم ذات يوم بعض المنهمكين فى اللهو المدمنين للشرب والقصف فكشف صفحة وجهه فى معاقرة الخمر وتجاهر بذلك بين الناس وكان السلطان أبو الربيع قد عزل قاضى فاس أبا غالب المغيلى وولى القضاء مكانه الشيخ الفقيه أبا الحسن الزرويلى المعروف بالصغير صاحب التقييد على المدونة وكان رحمه الله قد شدد على أهل الفسوق والمناكر فسيق اليه ذات يوم هذا الاندلسى وهو سكران فامر العدول فاستروحوه واشتموا منه رائحة الخمر وأدوا شهادتهم على ذلك فامضى القاضى حكم الله فيه وجلده الحد فاضطرم الاندلسى غيظا وتعرض للوزير عبد الرحمن ابن يعقوب الوطاسى ويقال له رحو ابا للسان الزناتى فكشف له عن ظهره يريه أثر السياط وينعى عليه سوء هذا الفعل مع رسل الدول فضجر الوزير من ذلك وأخذته العزة بالاثم ولعله كان فى قلبه شئ على القاضى فامر وزعته باحضاره على أسوء الحالات وعزم على البطش به فتبادروا اليه واعتصم القاضى بالمسجد الجامع ونادى فى المسلمين فثارت العامة بهم ومرج أمر الناس وقامت الفتنة على ساق واتصل الخبر بالسلطان فتلافى الامر وأحضر أصحاب الوزير فضرب أعناقهم وشرّد بهم من خلفهم جزاه الله خيرا فأسرّها الوزير فى نفسه وداخل الحسن بن على بن أبى الطلاق من بنى عسكر بن محمد وكان من شيوخ بنى مرين وأهل الشورى فيهم وداخل قائد الفرنج غنصالوا المنفرد برياسة العسكر وشوكة الجند وكان لهؤلاء الفرنج بالوزير اختصاص بحيث آثروه على السلطان فدعاهم لخلع طاعة السلطان أبى الربيع وبيعة عبد الحق بن عثمان بن محمد بن عبد الحق كبير القرابة وأسد الاعياص فاجابوه وبايعوا له وتم أمرهم ولما كان يوم السبت الثالث والعشرون من ربيع الآخر من سنة عشر وسبعمائة فرّ الوزير المذكور وقائد الفرنجى ومن شايعهم على رأيهم فخرجوا الى ظاهر البلد الجديد وجاهروا بالخلعان وأقاموا الآلة والرسم وبايعوا سلطانهم عبد الحق على عيون الملا وعسكروا بالعدوة القصوى من سبو ثم ساروا الى ناحية تازا ولما استقروا برباطها أخذوا فى جمع الجيوش ومكاتبة الخاصة من بنى مرين والعرب يدعونهم الى بيعة سلطانهم والمشايعة لهم على رأيهم وأوفدوا على أبى حمو موسى بن عثمان ابن يغمراسن صاحب تلمسان يدعونه الى المظاهرة على أمرهم واتصال اليد والمدد بالعسكر والمال فتوقف أبو حمو ولم يقدم ولم يحجم وبقى ينتظر عماذا ينجلى أمرهم واتصل خبر ذلك كله بالسلطان أبى الربيع فنهض اليهم وقدم بين يديه يوسف بن عيسى الحشمى وعمر بن موسى الفودودى فى جيش كثيف

من بنى مرين وسار هو فى ساقتهم واتصل خبر توجه بعبد الحق بن عثمان ووزيره فانكشفوا عن تازا ولحقوا بتلمسان وكانوا يظنون ان السلطان لا يخرج اليهم وجدا أبو حموا عاقبة توقفه عن نصرهم ويشسواهم من صريخه اياهم ولما ضاقت عليهم الارض بما رحبت أجاز عبد الحق بن عثمان ووزيره الى الاندلس ورجع الحسن بن على ومن معه الى السلطان أبى الربيع بعد ان أخذ منه الامان وهلك رحو ابن يعقوب بالاندلس لمدة قريبة ولما احتل السلطان أبو الربيع بتازا حسم الداء ومحى أثر الشقاق وأثخن فى حاشية الخوارج وشيعتهم بالقتل والسبى ثم اعتل أياما أثناء ذلك فتوفى بتازا بين العشاء بن ليلة الاربعاء منسلخ جمادى الاخيرة من سنة عشر وسبعمائة ودفن من ليلته تلك بصحن الجامع الاعظم من تازا رحمه الله

## الخبر عن دولة السلطان أبى سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق رحمه الله

كان هذا السلطان من أهل العلم والحلم والعفاف جوادا متواضعا متوقفا فى سفك الدماء لقبه السعيد بفضل الله وأمه حرة اسمها عائشة بنت الامير أبى عطية مهلهل بن يحيى الخلطى ولما هلك السلطان أبو الربيع بتازا فى التاريخ المتقدم تطاول للامر عمه أبو سعيد الاصغر وهو عثمان ابن السلطان يوسف وخب فى ذلك ووضع وأسدى وألحم فلم يحصل على شئ واجتمع الوزراء والمشيخة بالقصر بعد هدء من الليل وتفاوضوا فى أمرهم حتى وقع اختيارهم على أبى سعيد الاكبر وهو عثمان ابن السلطان يعقوب ابن عبد الحق فاستدعوه فحضر فبايعوه ليلتئذ وتم أمره وأنفذ كتبه الى النواحى والجهات باقتضاء البيعة وسرح ابنه الاكبر الامير أبا الحسن على بن عثمان الى فاس فدخلها غرة رجب من سنة عشر وسبعمائة وملك قصر الخلافة بالحضرة واحتوى على أمواله وذخيرته وفى غد ليلته أخذت البيعة للسلطان أبى سعيد بظاهر تازا على بنى مرين وسائر زناتة والعرب والعسكر والحاشية والموالى والصنائع والعلماء والصلحاء ونقباء الناس وعرفائهم والخاصة والدهماء فقام بالامر واستوسق له الملك وفرق الاعطيات وأسنى الجوائز وتفقد الدواوين ورفع الظلامات وحط المغارم والمكوس وسرح السجون ورفع عن أهل فاس ما كان يلزم رباعهم من الوظائف المخزنية فى كل سنة فصلح حال الناس فى أيامه ثم ارتحل لعشرين من رجب من السنة فدخل حضرة فاس فاستقر بها وقدم عليه وفود التهنئة من جميع بلاد المغرب ثم خرج فى ذى القعدة الى رباط الفتح لتفقد الاحوال والنظر فى أمور الرعية وانشاء الاساطيل الجهادية فعيد هنالك عيد الاضحى وباشر أمور الناس وأمر بانشاء الاساطيل بدار الصناعة من سلا برسم جهاد الفرنج ثم رجع الى فاس فعقد سنة احدى عشرة وسبعمائة لاخيه الامير أبى البقاء يعيش على ثغور الاندلس الجزيرة ورندة وما اليهما من الحصون ثم نهض سنة ثلاث عشرة وسبعمائة الى ناحية مراكش لما كان بها من اختلال الاحوال وخروج عدى بن هنو الهسكورى ونقضه للطاعة فنازله السلطان أبو سعيد وحاصره مدة ثم اقتحم عليه حصنه عنوة وقبض عليه وبعثه موثقا فى الحديد الى فاس فاودعه المطبق وقفل راجعا الى حضرته فاحتل بها مؤيدا منصورا والله تعالى أعلم

## غزو السلطان أبى سعيد ناحية تلمسان

كان بنو مرين قد حقدوا على أبى حمو صاحب تلمسان من أجل توقفه فى أمر عبد الحق بن عثمان ووزيره رحو ابن يعقوب الوطاسى وتسهيله الطريق لهم الى الاندلس ومداهنته فى ذلك وكان مقتضى الصلح المنعقد بينه وبين السلطان أبى الربيع ان يقبض عليهم ويبعث بهم اليه حالا فحقد بنو مرين على أبى حمو ووجدوا فى أنفسهم عليه ولما أفضى الامر الى السلطان أبى سعيد واستوسق ملكه ودوخ الجهات

المراكشية وفرغ من شأن المغرب اعتزم على غزو تلمسان فنهض اليها سنة أربع عشرة ولما انتهى الى وادي ملوية قدم ابنيه الاميرين أبا الحسن وأبا علي في عسكرين عظيمين في الجناحين وسار هو في ساقتهما فدخل بلاد بني عبد الواد على هذه التعبية فاكتسح نواحيها واصطلم نعمتها ثم نازل وجدة فقاتلها قتالا شديدا فامتنعت عليه ثم نهض الى تلمسان فنزل بالملعب من ساحتها وتحصن أبو حمو بالاسوار وغلب السلطان أبو سعيد على معاقلها وسائر ضواحيها فحطمها حطما ونسفها نسفا ودوّخ جبال بني يزناسن وأثخن فيهم وانتهى في قفوله الى وجدة ففر أخوه أبو البقاء يعيش وكان في معسكره من أجل استرابة لحقته من السلطان وسار الى تلمسان فنزل على أبي حمو ورجع السلطان أبو سعيد على التعبية فانتهى الى تازا فأقام بها وبعث ابنه الامير أبا علي الى فاس فكان من خروجه عليه ما نذكره

## ﴿خروج الامير أبي علي على أبيه السلطان أبي سعيد والسبب في ذلك﴾

كان للسلطان أبي سعيد ولدان أحدهما وهو الاكبر من أمته الحبشية وهو أبو الحسن علي بن عثمان وثانيهما وهو الاصغر من علجة من سبي الفرنج وهو أبو علي عمر بن عثمان وكان هذا الاصغر أعلق بقلب السلطان وأحبهما اليه ولما استولى على ملك المغرب رشحه لولاية العهد وهو شاب لم يطر شاربه ووضع له ألقاب الامارة وصير معه الجلساء والخاصة والكتاب وأمره باتخاذ العلامة في كتبه ولم يدخر عنه شيأ من مراسم الرياسة والملك وعقد على وزارته لابراهيم بن عيسى اليرنياني من كبار الدولة ووجوهها وكان أخوه الاكبر أبو الحسن شديد البرور بابيه فلما رأى اقبال أبيه على أخيه أبي علي انحاش هو أيضا اليه وصار في جملته وخلط نفسه بحاشيته طاعة لابيه ومسارعة في هواه واستمرت حال الامير أبي علي على هذا وخاطبه ملوك النواحي وخاطبهم وهادوه وهاداهم وعقد الرايات وأثبت في الديوان ومحى وزاد في العطاء ونقص وكاد يستبد بالامر كله ولما قفل السلطان أبو سعيد من تلمسان أواخر سنة أربع عشرة وسبعمائة أقام بتازا وبعث ولديه الى فاس فلما استقر الامير أبو علي بها حدثته نفسه بالقيام على أبيه وخلع طاعته فراوده المداخلون له على التربص حتى يمكر بابيه ويقبض عليه باليد فأبى واستعجل الامر وركب الخلاف وجاهر بالخلعان ودعا لنفسه فاطاعه الناس ولم يتوقفوا عنه لما كان أبوه جعل اليه من أمرهم وعسكر بساحة البلد الجديد يريد غزو أبيه فبرز السلطان أبو سعيد من تازا في عسكره يقدم رجلا ويؤخر أخرى ثم بدا للامير أبي علي في وزيره ابراهيم بن عيسى وعزم على القبض عليه لانه بلغه انه يكاتب أباه فبعث للقبض عليه عمر بن يخلف الفودودي وتفطن الوزير لما أراده من المكر به فقبض هو على الفودودي ونزع الى السلطان أبي سعيد فتقبله ورضي عنه وكان الامير أبو الحسن قد لحق بابيه قبل ذلك نازعا عن جملة أخيه فقوى جناح السلطان بهما وارتحل الى لقاء ابنه أبي علي ولما تراآ الجمعان بالقرمدة ما بين فاس وتازا اختل مصاف السلطان وانهزم جريحا الى تازا فاتبعه ابنه أبو علي وحاصره بها ويقال ان أبا الحسن انما لحق بابيه بعد المحنة ثم سعى الخواص بين السلطان وابنه أبي علي بالصلح على ان يخرج له السلطان عن الامر ويقتصر على تازا وجهاتها فقط فرضي السلطان بذلك وشهد الملا من مشيخة العرب وزناتة وأهل الامصار واستحكم العقد بينهما وانكفأ الامير أبو علي راجعا الى حضرة فاس مملكا على المغرب وتوافت اليه بيعات الامصار ووفودهم واستوسق أمره ثم تدارك الله السلطان أبا سعيد بلطفه ورد عليه حقه من حيث لا يحتسب وذلك ان الامير أبا علي اعتل عقب وصوله الى فاس واشتد وجعه حتى أشرف على الهلاك وخشي الناس على أنفسهم اختلال الامر عونه فتسايلوا الى والده السلطان أبي سعيد بتازا ولحق به سائر خواص الدولة وحملوه على تلافي الامر وانتهاز الفرصة فنهض من تازا واجتمع اليه كافة بني مرين والجند وعسكر على البلد الجديد وأقام محاصرا له وابتنى دار السكناه وجعل لابنه الامير أبي الحسن ما كان لاخيه أبي علي من ولاية العهد وتفويض الامر ولما تبين للامير أبي علي اختلال أمره

بعث الى أبيه فى الصلح على ان يعوّض سجلماسة وما والاها فاجيب الى ذلك ووفى له السلطان بما اشترط وارتحل الى سجلماسة سنة خمس عشرة وسبعمائة فاقام بها دولة تخيمة واستولى على بلاد القبلة ودون الدواوين واستلحق واستركب واستخدم ظواعن العرب من بنى معقل وافتتح معاقل الصحراء وقصور توات وتيكرارين وتامنطيت وغير ذلك وأما السلطان أبو سعيد فانه دخل الى فاس الجديد ونزل بقصره وأصلح شؤن ملكه وأنزل ابنه الامير أبا الحسن بالدار البيضاء من قصوره وفوّض اليه فى سلطانه تفويض الاستقلال وأذن له فى اتخاذ الوزراء والكتاب ووضع العلامة على كتبه وسائر ما كان لاخيه ووفدت عليه بيعات الامصار بالمغرب ورجعوا الى طاعته وفى سنة خمس عشرة وسبعمائة أمر السلطان أبو سعيد ببناء الباب أمام القنطرة من الجزيرة الخضراء ثم بعد ذلك أدار الستارة بالمدينة المذكورة وفيها سار الى مراكش فاقام بها أياما حتى أصلح شؤنها وعاد الى الحضرة وفى سنة ثمان عشرة وسبعمائة نكب السلطان أبو سعيد كاتبه منديل بن محمد الكنانى وكان السبب فى ذلك انه لما ثار الامير أبو على على أبيه وخلعه انحاش اليه منديل هذا ثم لما اختل أمر أبى على عاد منديل الى السلطان أبى سعيد وترتب فى منزلته التى كان عليها قبل وكان الامير أبو الحسن يحقد عليه لاجل انحياشه الى أخيه لما كان بينهما من المنافسة وكان هو كثيرا ما يوغر صدر أبى الحسن بايجاب حق أخيه عليه وامتهانه فى خدمته فطوى له أبو الحسن على البث حتى اذا فصل أبو على الى سجلماسة وانفرد أبو الحسن بمجلس أبيه وخلا له وجهه أحكم السعاية فى منديل عند أبيه وكان منديل كثيرا ما يغضب السلطان فى المحاورة والخطاب دالة عليه وكبرا فاعتمد السلطان عليه بشئ من ذلك مع ما كان ابنه أبو الحسن يغريه به فسخطه سنة ثمان عشرة وسبعمائة وأذن لابنه أبى الحسن فى نكبته فاعتقله واستصفى أمواله وطوى دواوينه وامتحنه أياما ثم قتله بمحبسه خنقا وقيل جوعا وذهب فى الذاهبين وأبوه أبو عبد الله محمد الكنانى هو الذى بعثه السلطان يعقوب بن عبد الحق الى المستنصر الحفصى عند فتح مراكش وعاد اليه منه بالهدية صحبة وفد أهل تونس وتلطف أبو عبد الله الكنانى حتى ذكر المستنصر فى الخطبة على منبر مراكش وفرح الوفد بذلك حسبما تقدم الخبر عنه مستوفى ونشأ ابنه منديل هذا فى ظل الدولة المرينية فكان من أمره ما قصصناه عليك

﴿وفادة أهل الاندلس على السلطان أبى سعيد واستصراخهم اياه على الطاغية وما نشأ عن ذلك﴾

كان الملوك من بنى مرين قد انقطع غزوهم عن الاندلس برهة من الدهر منذ دولة السلطان يوسف بن يعقوب لاشتغاله فى آخر أمره بحصار تلمسان واشتغال حفدته من بعده بأمر المغرب مع قصر مدتهم فتطاول العدو وراء البحر على المسلمين بسبب هذه الفترة واشتد كلبه على ثغورها مع ان القرابة من بنى مرين كانوا شجى فى صدره وقذى فى عينيه فى تلك البلاد حسبما ألمعنا اليه غير مرة ولما أفضى الامر الى السلطان أبى سعيد اشتغل فى صدر دولته بأمر ابنه أبى على ونحو وجهه عليه فاهتبل الطاغية الغرة فى الاندلس وزحف فى جموعه الى غرناطة سنة ثمان عشرة وسبعمائة * وكان من خبر هذه الوقعة أن الطاغية بطرة بن سانجة ويقال دون بطرة وقد نبهنا على لفظة دون فيما سبق ذهب الى طليطلة ودخل على مرجعهم الذى يقال له البابا وسجد له وتضرع بين يديه وطلب منه استئصال ما بقى من المسلمين بأرض الاندلس وأكد عزمه وتأهب لذلك غاية الاهبة فوصلت أثقاله ومجانيقه وآلات الحصار والاقوات فى المراكب وتقدم فى جموعه حتى نزل باحواز غرناطة وكان رديفه فى ذلك الجند علجا آخر يقال له جوان وانضم اليهم ملوك آخرون من ملوك الاطراف قيل سبعة وقيل أكثر وامتلأت الارض بهم وعزموا على استئصال بقية المسلمين بالاندلس وكان جيشهم فيما قيل يشتمل على خمسة وثلاثين ألفا من الفرسان وعلى نحو مائة ألف من الرجالة المقاتلة ولما رأى أهل الاندلس ذلك بعثوا صريخهم الى

السلطان أبي سعيد فقدم عليه وفدهم بحضرته من فاس وفيهم من وجوه الاندلس وصلحائهم الشيخ أبو عبد الله الطنجالي والشيخ ابن الزيات البلشي والشيخ أبو اسحق بن أبي العاص وغيرهم فاعتذر اليهم السلطان أبو سعيد بمكان عثمان بن أبي العلاء من دولتهم ومحله من دار ملكهم وكان عثمان بن أبي العلاء يتولى يومئذ مشيخة الغزاة بالاندلس لان وفاته تأخرت الى سنة ثلاثين وسبعمائة حسبما مر فشرط عليهم السلطان أبو سعيد أن يمكنوه منه ليتأتى له العبور الى تلك البلاد وجهاد العدو بها من غير تشويش وقال ادفعوه الينا برمته حتى يتم أمر الجهاد ثم نرده عليكم حياطة على المسلمين وخشية من تفريق كلمتهم فاستصعب أهل الاندلس هذا الشرط لما يعلمونه من صرامة عثمان بن أبي العلاء وادلاله بيأسه وبأس عشيرته فأخفق سعيهم ورجعوا منكسرين وأطالت الفرنج المقام على غرناطة وطمعوا في التهامها ثم ان الله تعالى نفس عن مخنقهم ودافع بقدرته عنهم وهيأ لعثمان بن أبي العلاء في الفرنج واقعة كانت من أغرب الوقائع وذلك انه لما كان يوم المهرجان وهو الخامس من جمادى الاولى من سنة تسع عشرة وسبعمائة عمد عثمان بن أبي العلاء الى جماعة جنده واختار من أنجاد بني مرين منهم نحو المائتين وقيل أكثر وتقدم بهم نحو جيش الفرنج فظن النصارى انهم انما خرجوا لامر غير القتال من مفاوضة أو ابلاغ رسالة أو نحو ذلك حتى اذا سامتوا موقف الطاغية ورديفه جوان صمموا نحوهما حتى خالطوهما في مراكزهما فصرعوهما في جملة من الحاشية وانهزم ذلك الجمع من حينه وولوا الادبار واعترضهم من ورائهم مسارب الماء الشرب على نهر شنيل فتطارحوا فيها وهلك أكثرهم واكتسحت أموالهم وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ثلاثة أيام وخرج أهل غرناطة لجمع الاموال وأخذ الاسرى فاستولوا على أموال عظيمة منها من الذهب فيما قيل ثلاثة وأربعون قنطارا ومن الفضة مائة وأربعون قنطارا ومن السبي سبعة آلاف نفس حسبما كتب بذلك بعض الغرناطيين الى الديار المصرية وكان من جملة الاسارى امرأة الطاغية وأولاده فبذلت في نفسها مدينة طريف وجبل الفتح وثمانية عشر حصنا فيما حكى بعض المؤرخين فلم يقبل المسلمون ذلك ﴿قلت﴾ هذا خطأ في الرأي وضعف في السياسة قالوا وزادت عدة القتلى في هذه الغزوة على خمسين ألفا ويقال انه هلك منهم بالوادي مثل هذا العدد لعدم معرفتهم بالطريق وأما الذين هلكوا بالجبال والشعاب فلا يحصون وقتل الملوك السبعة جميعهم وقيل خمسة وعشرون واستمر البيع في الاسرى والسبي والدواب ستة أشهر ووردت البشائر بهذا النصر العظيم الى سائر البلاد ومن العجب انه لم يقتل من المسلمين سوى ثلاثة عشر نفسا وقيل عشرة أنفس وسلخ الطاغية بطرة وحشي جلده قطنا وعلق على باب غرناطة وبقي معلقا سنين وطلبت النصارى الهدنة فعقدت لهم والله تعالى أعلم

## ﴿انتقاض الامير أبي علي على أبيه السلطان أبي سعيد وما نشأ عن ذلك﴾

لما كانت سنة عشرين وسبعمائة انتقض الامير أبو علي صاحب سجلماسة والصحراء على أبيه السلطان أبي سعيد وتغلب على درعة وسما الى طلب مراكش فقعد السلطان أبو سعيد على حربه لاخيه الامير أبي الحسن وأغزاه اياه ثم نهض على أثره فاحتل بمراكش وثقف أطرافها وحسم عللها وعقد عليها لمكندوز بن عثمان من صنائع دولتهم وقفل الى الحضرة ثم لما كانت سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة نهض الامير أبو علي في جموعه من سجلماسة وأغذ السير الى مراكش فاقتحمها بعساكره قبل أن يجمع لكندوز أمره وتقبض عليه وضرب عنقه ورفعه على القناة وملك مراكش وسائر ضواحيها وبلغ الخبر الى السلطان أبي سعيد فخرج من حضرته في عساكره بعد ان احتشد وأزاح العلل واستوفى الاعطيات وقدم بين يديه ابنه الامير أبا الحسن ولي عهده وجاء هو على ساقته وساروا على هذه التعبية ولما انتهوا الى وادي ملوية اتصل بهم الخبر ان أبا علي يريد أن يبيتهم فأسهروا ليلتهم وباتوا على ظهور خيلهم وبعد

مضى جزء من الليل طرقهم أبو علي في جموعه فكانت الدبرة عليه وفل عسكره وارتحلوا من الغد في أثره وكان قد سلك جبل درن فافترقت جنوده في أوعاره ولحقهم من المشاق ما يفوت الوصف حتى ترجل الامير أبو علي عن فرسه وسعى على قدميه وخاص من ورطة ذلك الجبل بعد عصب الريق ولحق بسجلماسة ومهد السلطان أبو سعيد نواحي مراكش وعقد عليها لموسى بن علي الهنتاتي فعظم غناؤه في ذلك واضطلاعه وامتدت أيام ولايته وارتحل السلطان الى سجلماسة فدافعه الامير أبو علي بالخضوع ورغب اليه في الصفح والرضا والعود الى السلم فأجابه السلطان الى ذلك لما كان قد شغفه من حبه فقد كان يؤثر عنه من ذلك غرائب ورجع الى الحضرة وأقام الامير أبو علي بمكانه من مملكة القبلة الى ان هلك السلطان أبو سعيد وتغلب عليه أخوه السلطان أبو الحسن كما نذكره ان شاء الله

## ﴿بناء مدارس العلم بحضرة فاس حرسها الله﴾

قد تقدم لنا ان السلطان يعقوب بن عبد الحق رحمه الله كان قد بنى مدرسته التي بفاس مع غيرها مما سبق التنبيه عليه ووقف عليها كتب العلم التي بعثها اليه الطاغية سانجة عند عقد الصلح معه ووقف عليها غير ذلك واقتفى أثره في هذه المنقبة الشريفة بنوه من بعده فاستكثروا من بناء المدارس العلمية والزوايا والربط ووقفوا عليها الاوقاف المغلة وأجروا على الطلبة بها الجرايات الكافية فامسكوا بسبب ذلك من رمق العلم وأحيوا من اسمه وأخذوا بضبعه جزاهم الله عن نيتهم الصالحة خيرا * ولما كانت سنة عشرين وسبعمائة أمر السلطان أبو سعيد رحمه الله ببناء المدرسة التي بفاس الجديد فبنيت أتقن بناء وأحسنه ورتب فيها الطلبة لقراءة القرآن والفقهاء لتدريس العلم وأجرى عليهم المرتبات والمؤن في كل شهر وحبس عليها الرباع والضياع ابتغاء ثواب الله ورغبة فيما عنده * وفي سنة احدى وعشرين بعدها بنى ولي عهده الامير أبو الحسن المدرسة التي بغربي جامع الاندلس من حضرة فاس فجاءت على أكمل الهيآت وأعجبها وبنى حولها سقاية ودار وضوء وفندقا لسكنى طلبة العلم وجلب الماء الى ذلك كله من عين خارج باب الجديد أحد أبواب فاس وأنفق على ذلك أموالا جليلة تزيد على مائة ألف دينار وشحنها بطلبة العلم وقراء القرآن وحبس عليها رباعا كثيرة ورتب فيها الفقهاء للتدريس وأجرى عليهم الانفاق والكسوة نفعه الله بقصده * وفي سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة في فاتح شعبان منها امر السلطان أبو سعيد أيضا ببناء المدرسة العظمى بازاء جامع القرويين بفاس وهي المعروفة اليوم بمدرسة العطارين فبنيت على يد الشيخ أبي محمد عبد الله بن قاسم المزوار وحضر السلطان أبو سعيد بنفسه في جماعة من الفقهاء وأهل الخير حتى أسست وشرع في بنائها بحضره فجاءت هذه المدرسة من أعجب مصانع الدول بحيث لم يبن ملك قبله مثلها وأجرى بها ماء معينا من بعض العيون هنالك وشحنها بالطلبة ورتب فيها اماما ومؤذنين وقومة يقومون بأمرها ورتب فيها الفقهاء لتدريس العلم وأجرى على الكل المرتبات والمؤن فوق الكفاية واشترى عدة أملاك ووقفها عليها احتسابا لله تعالى وسيأتي التنبيه على ما بناه ابنه من ذلك أبو الحسن أيام ولايته وحافده أبو عنان وغيرهما ان شاء الله ﴿وبالجملة﴾ فقد كان لبني مرين جنوح الى الخير ومحبة في العلم وأهله تشهد بذلك آثارهم الباقية الى الآن في مدارسهم العلمية وغيرها وفي مثل ذلك يحسن ان ينشد

همم الملوك اذا أرادوا ذكرها * من بعدهم فبألسن البنيان
ان البناء اذا تعاظم شأنه * أضحى يدل على عظيم الشان

## ﴿أخبار بني العزفي أصحاب سبتة﴾

قد تقدم لنا ان الرئيس أبا سعيد فرج بن اسمعيل بن الاحمر صاحب مالقة كان قد غدر بأهل سبتة وقبض على رؤسائها من بني العزفي وغربهم الى غرناطة سنة خمس وسبعمائة فاستقروا هنالك في ايالة السلطان

ابن الاحمر المعروف بالمخلوع مدة وملما استولى السلطان أبو الربيع المريني على سبتة ونفى بني الاحمر عنها استأذنه بنو العزفي في الرجوع الى المغرب والقدوم عليه فأذن لهم واستقروا بفاس وكان أبو زكرياء يحيى وأبو زيد عبد الرحمن ابنا أبي طالب عبد الله بن أبي القاسم محمد بن أبي العباس أحمد العزفي من سرواتهم وأهل المروءة والدين فيهم وكانوا يغشون مجالس العلم بمسجد القرويين من فاس لما كانوا عليه من انتحاله وكان السلطان أبو سعيد أيام ولاية بني أبيه من قبله يحضر مجالس الشيخ الفقيه أبي الحسن الصغير وكان أبو زكرياء يحيى بن أبي طالب يلازمه ويتودد اليه فاتصل به وصارت له بذلك وسيلة عنده فلما أفضى الامر الى السلطان أبي سعيد رعى لبني العزفي تلك الوسيلة فأنعم عليهم وعقد لابي زكرياء منهم على سبتة وردهم الى موطن سلفهم ومقر رياستهم فقدموها سنة عشر وسبعمائة وأقاموا فيها دعوة السلطان أبي سعيد والتزموا طاعته ولما فوض السلطان أبو سعيد الى ابنه أبي علي الامر وجعل له الابرام والنقض عقد أبو علي على سبتة لابي زكرياء حيون بن أبي العلاء القرشي وعزل أبا زكرياء يحيى بن أبي طالب منها واستقدمه الى فاس فقدمها هو وأبوه أبو طالب وعمه أبو حاتم واستقروا في جملة السلطان وهلك أبو طالب بفاس أثناء تلك المدة ثم كان من خروج الامير أبي علي على أبيه وانتقاضه عليه ما قدمناه فلحق أبو زكرياء ابن أبي طالب وأخوه أبو زيد بالسلطان أبي سعيد نازعين اليه ومفارقين لابنه الثائر عليه واستمروا في جملته الى ان مرض الامير أبو علي وزحف أبوه اليه وحاصره بفاس حسبما مر فحينئذ عقد السلطان أبو سعيد لابي زكرياء على سبتة ثانيا وبعثه اليها ليقيم دعوته في تلك الجهات وترك ابنه محمد بن أبي زكرياء تحت يده رهنا على الطاعة فاستقل أبو زكرياء بامارتها وأقام دعوة السلطان أبي سعيد بها واتصل ذلك منه نحو سنتين ثم هلك عمه أبو حاتم بسبتة سنة ست عشرة وسبعمائة وانتقض أبو زكرياء بن أبي طالب على السلطان أبي سعيد ورجع الى حال سلفه من الاستبداد واقامة الشورى بالبلد واستقدم من الاندلس عبد الحق بن عثمان الذي كان خرج على السلطان أبي الربيع مع الوزير عبد الرحمن الوطاسي فقدم عليه وعقد له على الحرب ليفرق به كلمة بني مرين بالمغرب ويوهن بأسهم فخف عليه وطأتهم واتصل ذلك كله بالسلطان أبي سعيد فقام وقعد وجهز الى سبتة العساكر من بني مرين وعقد على حربها للوزير ابراهيم ابن عيسى اليرنياني فزحف اليها وحاصرها فاعتذر اليه أبو زكرياء بحبس ابنه عنه ومفارقته له وانه اذا رجع اليه ابنه بذل الطاعة وراجع الدعوة فأعلم الوزير السلطان بذلك فبعث اليه بالولد ليسلمه الى أبيه بعد ان يقتضي منه موجبات الطاعة وأسبابها وجاء الخبر الى أبي زكرياء بان ابنه قد قدم وانه كائن بفسطاط الوزير بساحل البحر بحيث تتأتى الفرصة في أخذه فبعث أبو زكرياء الى عبد الحق بن عثمان قائد الحرب وأعلمه بمكان ابنه فواطأه عبد الحق على انتزاعه منهم ثم هجم ليلا في جماعة من حاشيته على فسطاط الوزير فاحتمل الولد وأصبح به عند أبيه وسمع أهل عسكر الوزير بالهيعة فركبوا وتبعوا الاثر فلم يقفوا على خبر وتفقد الوزير الولد الذي كان عنده فلم يجده واتهم الجيش الوزير بأنه مالأ شيعة أبيه على أخذه والا فلا يقدم أحد هذا الاقدام بدون مداخلة من بعض الجيش فتقبضوا على الوزير وجاؤا الى السلطان ابلاء في الطاعة وابلاغا في العذر فشكر لهم ذلك وأطلق الوزير لعلمه ببراءته ونصحه ثم رغب أبو زكرياء بعدها في رضا السلطان وطاعته وولايته فنهض السلطان أبو سعيد رحمه الله سنة ست عشرة الى طنجة لاختبار طاعة أبي زكرياء فبان له صدقه وعقد له على سبتة واشترط هو على نفسه حمل الجباية الى السلطان واسناء الهدية في كل سنة واستمرت الحال على ذلك الى ان هلك أبو زكرياء سنة عشرين وسبعمائة وقام بالامر بعده ابنه محمد بن أبي زكرياء الى نظر ابن عمه محمد بن علي ابن الفقيه أبي القاسم شيخ قرابتهم وكان قائد الاساطيل بسبتة ولي النظر فيها بعد ان نزع القائد يحيى الرنداحي الى الاندلس وتغلب محمد بن علي هذا بسبتة واختلفت كلمة الغوغاء واضطرب

الامر على بنى العزفى بها فانتهز السلطان أبو سعيد الفرصة فيها وأجمع النهوض اليها فنهض سنة ثمان وعشرين وسبعمائة ونزل عليها فبادر أهل سبتة باتاء طاعتهم وعجز محمد بن أبى زكرياء عن المناهضة وظنها محمد بن على من نفسه فتعرض للامر فى أوغاد من لفيفها اجتمعوا اليه فدافعهم الملا من أهل سبتة عن ذلك وحاوهم على الطاعة واقتادوا بنى العزفى الى السلطان أبى سعيد فانقادوا اليه واحتل السلطان بقصبة سبتة وثقف جهاتها ورم منثلها وأصلح خللها واستعمل كبار رجالاته وخواص مجلسه فى أعمالها فعقد لحاجبه عامر بن فتح الله السدراتى على حاميتها وعقد لابى القاسم بن أبى مدين العثمانى على جبايتها والنظر فى مبانيها واخراج الاموال للنفقات فيها وأسنى جوائز الملا من مشيختها ووفر اقطاعاتهم وجراياتهم وأوعز ببناء البلد المسمى افراك على سبتة فشرعوا فى بنائها سنة تسع وعشرين وسبعمائة وانكفأ راجعا الى حضرته ﴿وقد ذكر﴾ ابن الخطيب فى كتاب الاكليل محمد بن أبى زكرياء هذا فقال فيه ماصورته فرع تأود من الرياسة فى دوحة وتردد بين غدوة فى المجد وروحة نشأ والرياسة العزفية تعله وتنهله والدهر يسر أمله الاقصى ويسهله حتى اتسقت أسباب سعده وانتهت اليه رياسة سلفه من بعده فألقت اليه رحالها وحطت ومتعته بقربها بعد ماشطت ثم كلح له الدهر بعد ماتبسم وعاد زعزعا نسيمه الذى كان تنسم وعاقه لاله عن تمه ماكان من تغلب ابن عمه واستقر بهذه البلاد نازح الدار بحكم الاقدار وان كان نبيه المكانة والمقدار وجرت عليه جراية واسعة ورعاية متتابعة الى آخر كلامه ويعنى بقوله هذه البلاد بلاد الاندلس والله أعلم

﴿المصاهرة بين السلطان أبى سعيد فى ابنه أبى الحسن وبين أبى بكر بن أبى زكرياء الحفصى والسبب فى ذلك﴾

كان أبو تاشفين عبد الرحمن بن أبى حموا موسى بن عثمان بن يغمراسن صاحب تلمسان قد ضايق بنى أبى حفص أصحاب تونس وافريقية فى بلادهم واستولى على كثير من ثغورهم وردد البعوث والسرايا الى أطراف ممالكهم * وفى سنة تسع وعشرين وسبعمائة جهز أبو تاشفين اليهم جيشا كثيفا وعقد عليه ليحيى بن موسى من صنائع دولته ونصب مع ذلك الملك تونس وافريقية بعض أعقاب الحفصيين وهو محمد بن أبى عمران كان لجأ اليه فى بعض الفتن التى كانت له مع بنى عمه وتقدم هذا الجيش الى أبى بكر بن أبى زكرياء الحفصى فهزموه واقتحموا مدينة تونس فاستولوا عليها ونصبوا لملكها والولاية عليها محمد بن أبى عمران المذكور وليس له من الملك الا الاسم والامر كله بيد يحيى بن موسى قائد الجيش وخلص السلطان أبو بكر بن أبى زكرياء الحفصى الى بونة بجامطرو وداعن كرسى ملكه ودار عزه فعزم حينئذ على الوفادة على السلطان أبى سعيد المرينى ليأخذ له حقه من آل يغمراسن المتغلبين عليه وأراد مع ذلك تجديد الوصلة التى كانت لسلفه مع بنى مرين فأشار عليه حاجبه محمد بن سيد الناس بانفاذ ابنه الامير أبى زكرياء صاحب الثغر استنكافا له عن مثلها فقبل اشارته وأركب ابنه المذكور البحر وبعث معه وزيره أبا محمد عبد الله بن تافراجين نافضا أمامه طرق المقاصد والمحاورات ونزلوا بمرسى غساسة من ساحل المغرب وقدموا على السلطان أبى سعيد بحضرته فابلغوه رسالة أبى بكر الحفصى فاهتز لذلك هو وابنه الامير أبو الحسن وقال لوفد الحفصيين والله لأبذلن فى مظاهرتكم مالى وقومى ونفسى ولأسيرن بعساكرى الى تلمسان فأنازلها وكان فيما اشترط عليهم السلطان أبو سعيد مسير أبى بكر الحفصى بعساكره الى منازلة تلمسان معه فقبلوا وانصرفوا الى منازلهم مسرورين ونهض السلطان أبو سعيد الى تلمسان سنة ثلاثين وسبعمائة ولما انتهى الى وادى ملوية وعسكر بصبرة جاءه الخبر اليقين بعود أبى بكر الحفصى الى تونس وجلوسه على كرسيه بها فاستدعى السلطان أبو سعيد ابنه أبا زكرياء ووزيره أبا محمد بن تافراجين وأعلمهما الخبر وأسنى جوائزهم وأمرهم بالانصراف الى صاحبهم فركبوا أساطيلهم

من غساسة وبعث معهم ابراهيم بن أبي حاتم العزفي والقاضي بحضرته أبا عبد الله بن عبد الرزاق يخطبون بنت السلطان أبي بكر الحفصي لابنه الامير أبي الحسن فوصلوا الى الحفصي وأدوا الرسالة وانعقد الصهر بينهم في ابنته فاطمة شقيقة الامير أبي زكرياء وزفها اليهم في أساطيله مع مشيخة الموحدين وكبيرهم أبي القاسم بن عتو افوصلوا الى مرسى غساسة سنة احدى وثلاثين وسبعمائة فقام بنو مرين لها على أقدام البر والكرامة وبعثوا ابا الظهر الى غساسة لركوبها وحمل أثقالها وصيغت حكمات الذهب والفضة ومدت ولايا الحرير المغشاة بالذهب واحتفل السلطان أبو سعيد رحمه الله لوفدها واعراسها بما لم يسمع بمثله في دولتهم وتحدث الناس به دهرا وهلك السلطان أبو سعيد بين يدي موصلها كما نذكر

## ﴿وفاة السلطان أبي سعيد بن يعقوب رحمه الله﴾

كان السلطان أبو سعيد رحمه الله لما بلغه الخبر بوصول العروس فاطمة بنت السلطان أبي بكر بن أبي زكرياء الحفصي سنة احدى وثلاثين وسبعمائة ارتحل بنفسه الى تازا لتشارف أحوالها كرامة لها ولابيها وسرورا بعرس ابنه فاعتل هنالك وازداد مرضه حتى اذا أشفى على الهلكة ارتحل به ولي العهد الامير أبو الحسن الى الحضرة وحمله في فراشه على أكتاد الحاشية والجند حتى نزل بوادي سبوا ثم أدخله كذلك ليلا الى قصره فأدركته المنية في طريقه فتوفي في ليلة الجمعة الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة احدى وثلاثين وسبعمائة وكان مرضه بعلة النقرس فوضعوه بمكانه من بيته واستدعى ابنه أبو الحسن الصالحين لمواراته فدفن هنالك ببعض قبابه رحمه الله وكانت أيامه أعيادا ومواسم ومن أكابر كتابه الرئيس أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي السبتي

## ﴿الخبر عن دولة السلطان المنصور بالله أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق رحمه الله﴾

هذا السلطان هو أفخم ملوك بني مرين دولة وأضخمهم ملكا وأبعدهم صيتا وأعظمهم أبهة وأكثرهم آثارا بالمغربين والاندلس ويعرف عند العامة بالسلطان الاكحل لان أمه كانت حبشية فكان أسمر اللون والعامة تسمي الاسمر والاسود أكحل وانما الاكحل في لسان العرب أكحل العينين فقط وكان أخوه أبو علي لمملوكة من سبي النصارى فكان أبيض وانضاف لذلك أن كان أبو الحسن ملكا على الحضرة وأبو علي ملكا على بلاد القبلة فكانا أخوين ملكين في عصر واحد أحدهما أسمر والآخر أبيض فعرف هذا بالاكحل والآخر بالابيض للمقابلة ﴿ولما هلك السلطان أبو سعيد رحمه الله﴾ اجتمع الخاصة من المشيخة ورجالات الدولة على ولي عهده أبي الحسن المذكور وعقدوا له على أنفسهم وآتوه طاعتهم فأمر لحين بنقل معسكره من ناحية سبوا الى الزيتون من ناحية فاس ولما فرغ من دفن أبيه خرج الى معسكره بالمحل المذكور واجتمع الناس اليه على طبقاتهم لاداء البيعة بفسطاطه وتولى أخذ البيعة له يومئذ على الناس الشيخ أبو محمد عبد الله بن قاسم المزوار والمزوار في لسان زناتة معناه الرئيس وكان هذا الرجل رئيس الوزعة والمتصرفين وحاجب الباب السلطاني قديم الولاية في ذلك منذ عهد السلطان يوسف بن يعقوب ثم زفت على السلطان أبي الحسن زوجته الحفصية فبنى بها بمكانه من المعسكر المذكور وأجمع رأيه على الانتقام لابيهما من عدوه أبي تاشفين الزياني على مانذكره

## ﴿حدوث الفتنة بين الاخوين أبي الحسن وأبي علي ثم مقتل أبي علي والسبب في ذلك﴾

كان السلطان أبو سعيد رحمه الله لما عهد بالامر لابنه أبي الحسن وتحقق مصيره اليه كثيرا ما يستوصيه بأخيه أبي علي لكلفه به وشفقته عليه فلما خلص الامر الى أبي الحسن وكان مؤثرا رضا أبيه جهده اعتزم على الحركة الى سجلماسة لمشارفة أحوال أخيه واختبار أمره وماهو عليه من سلم أو حرب ليعمل على مقتضى ذلك فارتحل من معسكره بالزيتون قاصدا سجلماسة فتلقته وفود أخيه أبي علي أثناء الطريق

مؤديا حقه وموجبا مبرته ومهنئاله بما آتاه الله من الملك ويسلمه مع ذلك بأنه متجاف عن المنازعة له قانع من تراث أبيه بما في يده طالب منه أن يعقدله بذلك فأجابه السلطان أبو الحسن الى ما سأل وعقدله على سجلماسة وما والاها من بلاد القبلة كما كان لعهد أبيه وأشهد على ذلك الملا من بني مرين وسائر زناتة والعرب وانكفأ السلطان أبو الحسن راجعا الى تلمسان عازما على الانتقام من أبي تاشفين الزياني فسار حتى انتهى الى تلمسان ثم تجاوزها الى جهة الشرق حتى نزل بتاسالت منتظر القدوم صهره السلطان أبي بكر الحفصي عليه وفاء بالعهد الذي كان انعقدله مع السلطان أبي سعيد أيام وفادة ابنه أبي زكرياء عليه من انهما يكونان يدا واحدة على حصار تلمسان حتى يحكم الله بينهما وبين صاحبها فعسكر أبو الحسن بتاسالت ثم بعث بحصة من جنده في البحر الى صهره الحفصي مدداله وهو يومئذ ببجاية يقاتل جيش بني زيان عليها ولما اتصل الخبر بأبي تاشفين صاحب تلمسان فكر في أمر أبي الحسن وأعمل الحيلة بأن دس الى أخيه الامير أبي علي صاحب سجلماسة في ادهال اليد به والاتفاق معه على أخيه أبي الحسن وان يأخذ كل واحد منهما بحجزته عن صاحبه ويشغله عنه حتى يتمكنا منه ووعده أبو تاشفين ومناه ولم يزل به حتى انتقض على أخيه ونهض من سجلماسة الى درعة فقتل عاملها وولى عليها عاملا من قبله ثم سرح العساكر الى جهة مراكش وأجلب عليها بخيله ورجله واتصل الخبر بالسلطان أبي الحسن وهو بعسكره من تاسالت ينتظر قدوم الحفصي عليه فانكفأ راجعا الى الحضرة مجمعا الانتقام من أخيه ولما انتهى في طريقه الى حصن تاوريرت شحنه بالعسكر وعقد عليه لابنه تاشفين ابن أبي الحسن ووقف أمره على نظر منديل بن حمامة شيخ بني تيربيعين ثم أغذ السير الى سجلماسة فنزل عليها وأخذ بمخنقها وحشر الفعلة والصناع لصنع الآلات والبناء بساحتها وأقام عليها يغاديها بالقتال ويراوحها حولا كاملا ونهض أبو تاشفين في عساكره من تلمسان يريد الغارة على أطراف المغرب كي يشغل أبا الحسن عن أخيه بذلك فانتهى الى تاوريرت فبرز اليه تاشفين بن أبي الحسن في عساكر مرين فهزموه وردوه على عقبه الى تلمسان ثم بعث بحصة من جنده مدد الاميرأبي علي فتسربوا الى سجلماسة جماعات وأفذاذا حتى تكاملوا لديه فلم يغنوا شيأ وطاولهم السلطان أبو الحسن الحصار وأنزل بهم أنواع النكال حتى اقتحم البلد عنوة تاسع عشر محرم سنة أربع وثلاثين وسبعمائة وتقبض على الامير أبي علي عند باب قصره وجيء به الى أخيه أبي الحسن وقد خامره الجزع فلما مثل بين يديه تضرع اليه وقبل حافر فرسه فأمر أبو الحسن بتثقيفه وحمله على بغل الى فاس وانكفأ هو راجعا الى الحضرة فلما دخلها اعتقل أخاه ببعض حجر القصر أشهرا ثم قتله فصدا وخنقا وكانت سن أبي علي يومئذ سبعا وثلاثين سنة وكانت دولته بسجلماسة تسع عشرة سنة وأشهرا وكان رقيق الحاشية ينتمي الى الادب وهو الذي استقدم أبا محمد عبد المهيمن الحضرمي من سبتة واستكتبه أيام أبيه ومن شعر الامير أبي علي يخاطب أخاه أبا الحسن أيام حصاره له بسجلماسة وقد أيقن بزوال أمره

فلا يغرنك الدهر الخؤون فكم * أبادمن كان قبلي يا أبا الحسن

الدهر مذ كان لا يبقي على صفة * لابد من فرح فيه ومن حزن

أين الملوك التي كانت تهابهم * أسد العرين ثوواقي اللحد والكفن

بعد الاسرة والتيجان قدمحيت * رسومها وعفت عن كل ذي حسن

فاعمل لاخرى وكن بالله مؤتمرا * واستغن بالله في سر وفي علن

واختر لنفسك أمرا أنت آمره * كأنني لم أكن يوما ولم تكن

## وفادة السلطان ابن الاحمر على السلطان أبي الحسن بحضرة فاس وفتح جبل طارق

لما هلك السلطان أبو الوليد اسمعيل ابن الرئيس أبي سعيد فرج ابن الاحمر المتغلب على ملك الاندلس من

يد ابن عمه أبي الجيوش قام بالامر بعده ابنه محمد طفلا صغيرا واستبد عليه وزيره محمد بن المحروق فقتله بعد ما شب وعقل وكان الطاغية قد استولى على جبل الفتح وهو جبل طارق سنة تسع وسبعمائة وزاحم الفرنج به ثغور المسلمين وصار شجى في صدر الدولتين المرينية والاحمرية واستمر الحال على ذلك الى ان بويع الامير السلطان أبو الحسن وكان له رغبة في الجهاد اقتداء بمذهب جده يعقوب بن عبد الحق فبادر السلطان محمد بن اسمعيل ابن الاحمر الى الوفادة عليه لاحكام عقد المودة معه وللمفاوضة في أمر الجهاد وغير ذلك مما فيه صلاح لدولته فقدم عليه بدار ملكه بفاس سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة فأكبر السلطان أبو الحسن موصله وأركب الناس للقائه وأنزله بروض المصارة لصق داره واستبلغ في اكرامه وفاوضه ابن الاحمر في شأن المسلمين وراء البحر وما أهمهم من عدوهم وشكى اليه حال الجبل واعتراضه شجى في صدور الثغور قبل وشكى اليه أمر بني عثمان بن أبي العلاء لانهم كانوا قد استطالوا عليه في أرضه فأشكاه أبو الحسن وعامل الله تعالى في أسباب الجهاد وكان يومئذ مشغولا بفتنة أخيه أبي علي ومع ذلك فقد أمده بالجند وعقد لابنه أبي مالك على خمسة آلاف من أنجاد بني مرين وأنفذهم مع ابن الاحمر لمنازلة جبل الفتح فاحتل أبو مالك بالجزيرة الخضراء وتتابعت اليه الاساطيل بالمدد وأرسل ابن الاحمر في الاندلس حاشرين فتسايل الناس اليه من كل جهة وزحفوا جميعا الى الجبل وأحاطوا به وأبلوا في منازلته البلاء الحسن الى ان فتحوه سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة واقتحمه المسلمون عنوة ونفاهم الله من كان به من النصارى بجامعهم وشرع المسلمون في شحنه بالاقوات ينقلونها من الجزيرة الخضراء على خيولهم خوفا من كرة العدو وباشر نقلها الاميران أبو مالك وابن الاحمر بأنفسهما ونقلها الناس عامة وتحيز الامير أبو مالك الى الجزيرة الخضراء وترك بالجبل يحيى بن طلحة بن محلي من وزراء أبيه ووصل الطاغية بعد ثلاث من فتحه فأناخ عليه وحاصره وبرز أبو مالك بعساكره من الجزيرة فنزل بازائه وزحف ابن الاحمر فنزل بازائه أيضا ثم خاف ابن الاحمر عادية العدو لقرب العهد بارتجاع الجبل وخفة من به من الحامية والسلاح فبادر الى لقاء الطاغية وسبق الناس الى فسطاطه مجلا بانعا نفسه من الله في رضا المسلمين وسد خلتهم فتلقاه الطاغية راجلا حاسرا اعظاما له وأجابه الى ما سأل من الافراج عن هذا المعقل وأتحفه بذخائر هديه وارتحل من فوره وشرع الامير أبو مالك في تحصين ذلك الثغر وسد فروجه ﴿وقال أبو العباس المقري في النفح﴾ ارتجع السلطان أبو الحسن جبل طارق بعد ان أنفق عليه الاموال وصرف اليه الجنود والحشود ونازلته جيوشه مع ولده وخواصه وضيقوا به الى ان استرجعوه ليد المسلمين واهتم بنائه وتحصينه وأنفق عليه أحمال المال في بنائه وحصنه وسوره وبني أبراجه وجامعه ودوره ومحاربه ولما كاد يتم ذلك نازله العدو برا وبحرا فصبر المسلمون وخيب الله سعي الكافرين فاراد السلطان المذكور أن يحصن سفح الجبل بسور محيط به من جميع جهاته حتى لا يطمع عدو في منازلته ولا يجد سبيلا للتضييق عليه بمحاصرته ورأى الناس ذلك من المحال فانفق الاموال وأنصف العمال فاحاط بمجموعه احاطة الهالة بالهلال وكان بقاء هذا الجبل بيد العدو نيفا وعشرين سنة وحاصره السلطان أبو الحسن ستة أشهر وزاد في تحصينه ابنه السلطان أبو عنان رحمهما الله تعالى ﴿وأما ابن الاحمر﴾ فان أولاد عثمان بن أبي العلاء شيوخ الغزو بالاندلس لما رأوا ما حصل بينه وبين السلطان أبي الحسن من الوفاق واتصال اليد خافوا أن تعود موافقتهم بالضرر عليهم اذ كانوا أعداء الدولتين معا أما دولة المغرب فبخروجهم عليهم ومنابذتهم اياهم غير مرة وأما دولة الاندلس فباستحواذهم على أهلها ومزاحمتهم اياهم في رياستها فتشاوروا فيما بينهم وفتكوا بابن الاحمر يوم رحيله عن الجبل الى غرناطة فتقاصفوه بالرماح وقدموا أخاه أبا الحجاج يوسف بن اسمعيل مكانه فقام بالامر بعده وشمر للاخذ بثار أخيه فاحتال على بني أبي العلاء حتى قبض عليهم وأودعهم المطبق ثم غربهم الى تونس الى ان كان من أمرهم ما نذكره

## ﴿فتح تلمسان ومقتل صاحبها أبي تاشفين وانقراض الدولة الاولى لبني زيان بمهلكه﴾

لما استقام ملك المغرب للسلطان أبي الحسن بمقتل أخيه أبي علي صاحب سجلماسة ونصر الله جنده على الطاغية بالاندلس تفرغ لشأن تلمسان والانتقام من صاحبها أبي تاشفين الذي ضايق أصهاره من بني أبي حفص في أرضهم ونازعهم في ملكهم وكان السلطان أبو الحسن قد بعث لاول بيعته شفعاء الى أبي تاشفين في ان يتخلى عن عمل الموحدين ويرجع الى تخوم أعماله التي ورثها عن سلفه وقال له في جملة ذلك كف عنهم ولو سنة واحدة ليسمع الناس اني نافحت عن صهري ويقدر واقدري فاستنكف أبو تاشفين من ذلك وأغلظ للرسل في القول وأفحش بعض السفهاء من عبيده في الرد عليهم بمجلسه ونالوا من السلطان أبي الحسن بمحضره فعادت الرسل اليه وأعلموه بالقضية على وجهها فحمي لذلك وغضب وتأكد عزمه على النهوض الى تلمسان فكان من نهوضه أولا وانتقاض أخيه عليه وعوده اليه من تاسالت ماقصصناه قبل مستوفى ثم عاود السلطان النهوض الى تلمسان في هذه المرة فعسكر بظاهر فاس الجديد وبعث وزراءه ووجوه دولته الى قاصية البلاد المراكشية لحشد القبائل والجموع ثم تجهل وعرض جنوده وأزاح عللهم وعبى مواكبه وفصل في التعبية من فاس أواسط خمس وثلاثين وسبعمائة فسار بجر الشوك والمدر من أمم المغرب وجنوده ومر بوجدة فجمر عليها الكتائب للحصار ثم مر بندرومة فقاتلها بعض يوم ثم اقتحمها عنوة فاستولى عليها وقتل حاميتها ثم سار على التعبية حتى أناخ على تلمسان ثم بلغه الخبر بتغلب عسكره على وجدة سنة ست وثلاثين وسبعمائة فأوعز اليهم بتخريب أسوارها فاضرعوها بالارض وتوافت لديه امداد النواحي وحشودها ووفدت عليه قبائل مغراوة وبني توجين فأتوه طاعتهم وسرح كتائبه الى القاصية فتغلب على وهران وهنين ثم على مليانة وتنس والجزائر وغيرها واستولى على الضواحي ونزع اليه يحيى بن موسى كبير قواد أبي تاشفين وصاحب الثغور الشرقية من أعماله فلقاه مبرة وكرامة ورفع بساطه ونظمه في طبقات وزرائه وجلسائه وعقد على فتح البلاد الشرقية ليحيى بن سليمان العسكري شيخ بني عسكر بن محمد وصهر السلطان على ابنته فسار في الالوية والجنود فطوع ضاحية الشرق وافتتح أمصاره حتى انتهى الى المدية وتظم البلاد في طاعة السلطان أبي الحسن واحتشد جموعها فلحقوا بعسكره واستعمل السلطان أبو الحسن عماله على الجهات واختط بغربي تلمسان البلد الجديد لسكناه ونزول عساكره وأحيا معالم المنصورة التي كان اختطها عمه يوسف ابن يعقوب وخربها بنو زيان من بعده فأدار عليها سياجا من السور ونطاقا من الخندق ونصب المجانيق والآلات من وراء خندقه وجعلت رماته تنضح رماة العدو بالنبل ويشغلونهم بانفسهم حتى شيد برجا آخر بقرب منهم وترتفع شرفاته فوق خندقهم وتماصع المقاتلة بالسيوف من أعاليه ورتب المجانيق لرجمها وأحكم عملها الدكها فنالت من ذلك فوق الغاية وعظم أثرها في القصور العظيمة والقباب الرفيعة التي تأنق أبو تاشفين في تشييدها وكان السلطان أبو الحسن يصبح المقاتلة كل يوم ويطوف على البلد من جميع جهاته لتفقد رؤساء العسكر في مراكزهم وربما انفرد في طوافه فطاف في بعض الايام منتبذا عن الحاشية فاهتبل بنو عبد الواد غرته حتى اذا سلك ما بين الجبل والبلد فتحوا أبوابهم وأرسلوا عليه عقبان جنودهم يحسبونها فرصة كالتي كانت ليغمراسن بن زيان في السعيد الموحدي واضطروه الى سفح الجبل حتى لحق باوعاره وكاد ينزل عن فرسه هو ووليه عريف بن يحيى أمير عرب سويد وأحس أهل المعسكر بذلك فركبوا زرافات ووحدانا وركب ابناه الاميران أبو عبد الرحمن وأبو مالك وهما جناحا عسكره وعقابا جحافله وتهاوت اليهم صقور بني مرين من كل جو فانكشفت عساكر بني عبد الواد وولوا الادبار منهزمين لا يلوي أحد منهم على أحد واعترضهم مهوى الخندق فتطارحوا فيه وتهافتوا على ردمه فكان الهالك يومئذ فيه أكثر من الهالك بالسلاح وهلك من بني توجين يومئذ عمر بن عثمان كبير الحشم وعامل جبل

وانشريس ومحمد بن سلامة بن على كبير بنى يدللتن وصاحب قلعة تاوغزوت وهما اماماهما في زناتة الى اشباه لهما استلحموا فى هذه الوقعة فحص هذا اليوم من جناح دولة بنى زيان وحطم منها واتصل الحصار مدة من ثلاث سنين حتى اذا كان السابع والعشرون من رمضان من سنة سبع وثلاثين وسبعمائة اقتحم السلطان أبو الحسن مدينة تلمسان عنوة و وقف أبو تاشفين رحمه الله عند باب قصره فى جماعة من أصحابه منهم ولداه عثمان ومسعود ووزيره موسى بن على ووليه عبد الحق بن عثمان وهو الذى كان خرج على السلطان أبى الربيع وبايعه عبد الرحمن بن يعقوب الوطاسى حسبما مر فانه لحق بعد تلك الوقعة بتلمسان ثم منها الى الاندلس ثم حضر استقاض العز فى بسبتة سنة ست عشرة كما مر ثم لحق بأبى بكر الحفصى ثم نزع عنه الى أبى تاشفين واستمر عنده الى هذا اليوم فشهده فى جماعة من بنيه وبنى أخيه وكانوا احلاس حرب وقتيان كريهة فمانعوا دون القصر واستماتوا اعاليه الى ان استلحموا ورفعت رؤسهم على عصا الرماح فطيف بها وغصت سكك البلد من داخلها وخارجها بالعساكر وكظت أبوابها بالزحام حتى لقد كب الناس على أذقانهم وتواقعوا فى مساربهم فوطئوا بالحوافر وتراكمت أشلاؤهم ما بين البابين حتى ضاق المسلك ما بين السقف ورحبة الباب وانطلقت الايدى على المنازل نهبا واكتساحا ﴿وأما أبو تاشفين﴾ فانه قاتل حتى قتل ابناه عثمان ومسعود أمامه وخلصت اليه جراحات فأثخنته وتقبض عليه بعض الفرسان فساقه الى السلطان فلقيه ابنه الامير أبو عبد الرحمن فأمر به فقتل فى الحين واحتز رأسه وسخط السلطان ذلك من فعله لانه كان حريصا على توبيخه وتقريعه ﴿وقال ابن الخطيب﴾ وقف أبو تاشفين وبنوه بازاء القصر مدافعين عن أنفسهم وقاموا مقام الصبر والاستجماع وصدقوا عن أنفسهم الدفاع الى ان كوثروا وأعجلتهم ميتة العز عن شد الوثاق وامكان الشمات فكان فى شأنهم عبرة رحمهم الله وخلص السلطان أبو الحسن الى المسجد الجامع بحاشيته واستدعى شيوخ الفتيا بتلمسان وهما الامامان الشهيران أبو زيد عبد الرحمن وأبو موسى عيسى ابنا الامام فخلصوا اليه بعد الجهد ووعظوه وذكروه بما نال الناس من النهب والعيث فركب لذلك بنفسه وسكن الناس وقبض أيدى الجند عن الفساد وعاد الى معسكره بالبلد الجديد وقد كمل الفتح وعز النصر واستولى السلطان أبو الحسن على تلك الامارة المؤثلة بما اشتملت عليه من نفيس الحلى وثمين الذخيرة وفاخر المتاع وخطير العدة وبديع الآلة وصامت المال وضروب الرقيق وصنوف الاثاث والماعون ورفع القتل عن بنى عبد الواد أعدائه وشفا نفسه بقتل سلطانهم وعفا عنهم وأثبتهم فى الديوان وفرض لهم العطاء واستتبعهم على راياتهم ومراكزهم وجمع كلمة بنى واسين من بنى مرين وبنى عبد الواد وبنى توجين وسائر زناتة وصار واعصبا تحت لوائه وسد بكل طائفة منهم ثغرا من أعماله فأنزل منهم بقاصية السوس وبلاد غمارة وأجاز منهم الى ثغور عمله بالاندلس حامية ومرابطين واندرجوا فى جملته واتسع نطاق مملكته وأصبح أبو الحسن ملك زناتة بعد ان كان ملك بنى مرين وسلطان العدوتين بعد ان كان سلطان المغرب فقط وانما الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين

## ﴿مراسلة السلطان أبى الحسن لسلطان مصر وبعثه المصاحف من خطه الى المساجد الثلاثة شرفها الله﴾

كان للسلطان أبى الحسن مذهب ورأى فى ولايته ملوك المشرق والكلف بالمعاهد الشريفة اقتداء فى ذلك بعمه يوسف بن يعقوب وغيره من سلفه وضاعف ذلك لديه متين ديانته ورفيع همته ولما قضى من أمر تلمسان ما قضى واستولى على المغرب بن خاطب لحينه صاحب مصر والشام والحجاز الملك الناصر محمد بن قلاوون وعرفه بالفتح وارتفاع العوائق عن ركب الحاج فى سابلتهم وكان سفيره فى ذلك فارس ابن ميمون بن وردار وعاد بجواب الكتاب وتقرير المودة بين الخلف كما كانت بين السلف فأجمع السلطان

أبو الحسن حينئذ على كتب نسخة عتيقة من المصحف الكريم بخط يده ليوقفها بالحرم الشريف حرم مكة قربة الى الله تعالى وابتغاء للمثوبة فانتسخها بيده وجمع الوراقين لتنميقها وتذهيبها والقراء لضبطها وتهذيبها وصنع لها وعاء مؤلفا من الآبنوس والعاج والصندل فائق الصنعة وغشى بصفائح الذهب ورصع بالجوهر والياقوت واتخذ له أصونة الجلد المحكمة الصنعة المرقوم أديمها بخطوط الذهب ومن فوقها اغلائف الحرير والديباج وأغشية الكتان وأخرج من خزائنه أموالا عينها لشراء الضياع بالمشرق لتكون وقفا على القراء فيها وأوفد على الملك الناصر خواص مجلسه وكبار أهل دولته مثل عريف بن يحيى أمير بني زغبة من عرب بني هلال ومثل السابق المقدم في بساطه على كل خالصة عطية بن مهلهل ابن يحيى كبير أخواله من عرب الخلط وبعث كاتبه أبا الفضل بن محمد بن أبي مدين وعريف الوزعة ببابه الشيخ أبا محمد عبد الله بن قاسم المزوار واحتفل في الهدية للسلطان صاحب مصر احتفالا تحدث الناس به دهرا ﴿قال ابن خلدون﴾ وقفت على برنامج الهدية بخط أبي الفضل بن أبي مدين الرسول المذكور ووعيته ثم أنسيته وذكر لي بعض قهارمة الدار انه كان فيها خمسمائة من عتاق الخيل المقربات بسروج الذهب والفضة ولجمها خالصا أو مغشى ومموها وخمسمائة حمل من متاع المغرب وماعونه وأسلحته ومن نسج الصوف المحكم ثيابا وأكسية وبرانس وعمائم وأزرا معلمة وغير معلمة ومن نسج الحرير الفائق المعلم بالذهب ملونا وغير ملون وساذجا ومنمقا ومن الدرق المجاوبة من بلاد الصحراء المحكمة الدبغ المنسوبة الى اللمط ومن خرثي المغرب وماعونه ما تستطرف صناعته بالمشرق حتى لقد كان فيها مكيل من حصى الجوهر والياقوت واعتزمت حظية من حظايا أبيه على الحج في ذلك الركب فاذن لها واستبلغ في تكرمتها واستوصى بها وفده وسلطان مصر في كتابه وفصلوا من تلمسان سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة ووصلوا الى مصر في الثاني والعشرين من رمضان من السنة المذكورة وأدوا رسالتهم الى الملك الناصر وقدموا هديتهم اليه فقبلها وحسن موقعها لديه وكان يوم وفادتهم عليه بمصر يوما مشهودا تحدث الناس به دهرا ولقاهم سلطان مصر في طريقهم أنواع البر والكرامة حتى قضوا فرضهم ووضعوا المصحف الكريم حيث أمرهم صاحبه وأسنى الملك الناصر هدية السلطان من الفساطيط المشرقية الغريبة الشكل والصنعة بالمغرب ومن ثياب الاسكندرية البديعة النسج المرقومة بالذهب ورجعهم بها الى مرسلهم وقد استبلغ في تكرمتهم وصلتهم وبقي حديث هذه الهدية مذكورا بين الناس لهذا العهد اهـ كلام ابن خلدون ببعض ايضاح ﴿وقد ذكر﴾ الامام الخطيب أبو عبد الله بن مرزوق في كتابه المسند الصحيح الحسن من أخبار السلطان أبي الحسن هذه الهدية وفصل منها بعض ما أجمله ابن خلدون فقال أرسل السلطان أبو الحسن للناصر بن قلاوون صاحب الديار المصرية من أحجار الياقوت العظيم القدر والثمن ثمانمائة وخمسة وعشرين ومن الزمرذ مائة وثمانية وعشرين ومن الزبرجد مائة وثمانية وعشرين ومن الجوهر النفيس الملوكي ثلاثمائة وأربعة وستين وأرسل حلالا كثيرة منها مذهبة ثلاثة عشر ومن الاثنان عشرين مذهبة ومن الخلادى ستة وأربعين ومن القنوع ستة وعشرين مذهبة ومن المحررات المختمة ثمانمائة ومن الرصان عشرين شقة ومن الاكسية المحررة أربعة وعشرين ومن البرانس المحررة ثمانية عشر ومن المشقفات مائة وخمسين ومن أحارم الصوف المحررة عشرين ومن شقق الملف الرفيع ستة عشر ومن الفضالي المنوعة والفرش والمخاد المنبوق والحلل ثمانمائة ومن أوجه اللحف المذهبة عشرين وحائطين حلة وحنابل مائة واثني عشر كلها حرير وفرش جلد مخروز بالذهب والفضة ومن السيوف المحلاة بالذهب المنظم بالجوهر عشرة والسروج عشرة بركب الذهب كذلك ومهاميز الذهب وثلاثة ركب فضة وستة مزججة ومذهبة ومضمتان من ذهب مما يليق بالملوك وشاشية حديد بذهب مكلل بالجوهر ومن لزمات الفضة عشرة وسروج مخروزة بالفضة عشرة

وعشر علامات مغشاة مذهبة وعشر رايات مذهبة وعشر براقع مذهبة وعشر أمثلة مرقومة وثلاثون جلدا أشرك وأربعة آلاف درقة لمط منها مائتان بنهود الذهب وثمانمائة بنهود الفضة وخباء قبة كبيرة من مائة بنيقة لها أربعة أبواب وقبة أخرى مضربة من ست وثلاثين بنيقة مبطنة بحلة مذهبة وهي من حرير أبيض ومرابطها حرير ملون وعمودها عاج وآبنوس واكبارها من فضة مذهبة ومن البزات الاحرار المنتقات أربعة وثلاثين ومن عتاق الخيل العراب ثلاثمائة وخمسا وثلاثين ومن البغال الذكور والاناث مائة وعشرين ومن الجمال سبعمائة وتوجهت مع هذه الهدية أم برسم الحج مع الربعة المكرمة يعني ربعة المصحف الكريم وأعطى السلطان الحرة أم أخته أم ولد أبيه مريم ثلاثة آلاف وخمسمائة ذهبا ولقاضي الركب ثلاثمائة وكسوة ولقائد الركب أربعمائة وكساوي متعددة وبغلات والرسول المعين للهدية ألفا ولشيخ الركب أحمد بن يوسف بن أبي محمد صالح خمسمائة وللجماعة الضعفاء من الحجاج ستمائة وبرسم العطاء للعرب ثلاثة آلاف وثمانمائة ولشراء الرباع ستة عشر ألفا وخمسمائة ذهبا اه ﴿وذكر في الكتاب المذكور﴾ ان السلطان أبا الحسن أهدى هدايا غير هذه لكثير من الملوك منها لصاحب الاندلس صلة وصدقة وهدية في مرات ومنها لملوك النصارى بعد هداياهم ومنها لسلاطين السودان كصاحب مالي ومنها لصاحب افريقية ومنها لصاحب تلمسان اه ﴿وقال العلامة المقريزي﴾ مؤرخ مصر في كتاب السلوك مانصه وفي ثان وعشرين من رمضان سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة قدمت الحرة من عند السلطان أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب المريني صاحب فاس تريد الحج ومعها هدية جليلة الى الغاية نزل لحملها من الاسطول السلطاني ثلاثون قطارا من بغال النقل سوى الجمال وكان من جملتها أربعمائة فرس منها مائة حجرة ومائة فحل ومائتا بغل وجميعها بسروج ولجم مسقطة بالذهب والفضة وبعضها سروجها وركبها ذهب وكذلك لجمها وعدتها اثنان وأربعون رأسا منها سرجان من ذهب مرصع بجوهر وفيها اثنان وثلاثون بازا وفيها سيف قرابه ذهب مرصع وحياصة ذهب مرصع وفيها مائة كساء وغير ذلك من القماش العالي وكان قد خرج المهمندار الى لقائهم وأنزلهم بالقرافة قريب مسجد الفتح وهم جمع كثير جدا وكان يوم طلوع الهدية من الايام المذكورة ففرق السلطان الهدية على الامراء باسرهم على قدر مراتبهم حتى نفدت كلها سوى الجوهر واللؤلؤ فانه اختص به فقدرت قيمة هذه الهدية بما يزيد على مائة ألف دينار ثم نقلت الحرة الى الميدان بمن معها ورتب لها من الغنم والدجاج والسكر والحلواء والفاكهة في كل يوم بكرة وعشية ماعمهم وفضل عنهم فكان مرتبهم كل يوم عدة ثلاثين رأسا من الغنم ونصف أردب أرزا وقنطار حب رمان وربع قنطار سكرا وثمان فانوسيات شمعا وتوابل الطعام وحمل اليها برسم النفقة مبلغ خمسة وسبعين ألف درهم وأجرة حمل أثقالهم مبلغ ستين ألف درهم ثم خلع على جميع من قدم مع الحرة فكانت عدة الخلع مائتين وعشرين خلعة على قدر طبقاتهم حتى خلع على الرجال الذين قادوا الخيول وحمل الى الحرة من الكسوة مايجل قدره وقيل لها ان تملي ماتحتاج اليه ولا يعوزها شئ وانما تريد عناية السلطان اكرامها واكرام من معها حيث كانوا فتقدم السلطان الى النشو والى الامير أحمد أن يقابتجهيزها اللائق بها فقاما بذلك واستخدما لها السقائين والضوية وهيأ كل ما تحتاج اليه في سفرها من أصناف الحلاوات والسكر والدقيق والبقسماط وطلبا الجمالة لحمل جهازها وأزودتها وندب السلطان للسفر معها جمال الدين متولي الجيزة وأمره أن يرحل بها في مركب لها بمفردها قدام المحمل ويمتثل كلما تأمر به وكتب لاميري مكة والمدينة بخدمتها أتم خدمة اه وفيه بعض مخالفة لما وصفه ابن مرزوق في الهدية والخطب سهل * ثم انتسخ السلطان أبو الحسن رحمه الله نسخة أخرى من المصحف الكريم على القانون الاول ووقفها على القراء بالمدينة وبعث بها من تخيره لذلك العهد من أهل

دولته سنة أربعين وسبعمائة وفعل مثل ذلك بحرم بيت المقدس ﴿قال العلامة أبو العباس المقري في نفح الطيب﴾ كان السلطان أبو الحسن المريني قد كتب ثلاثة مصاحف شريفة بخطه وأرسلها الى المساجد الثلاثة التي تشد اليها الرحال ووقف عليها أوقافا جليلة كتب سلطان مصر والشام توقيعه بمسامحتها من انشاء الاديب الشهير جمال الدين بن نباتة المصري ونص ما يتعلق به الغرض منه هنا قوله وهو الذي مد تعيينه بالسيف والقلم فكتب في أصحابها وسطر الختمات الشريفة فأيد الله حزبه بما سطر من أحزابها واتصلت ملائكة النصر بلوائه تغدو وتروح وكثرت فتوحه لا مليء الغرب فقالت أوقاف الشرق لابد للفقراء من فتوح ثم وصلت ختمات شريفة كتبها بقلمه المجيد المجدي وخط سطورها بالعربي وطالما خط في صفوف الاعداء بالهندي ورتب عليها أوقافا تجري أقلام الحساب في اطلاقها وطلقها وحبس أملاكا شامية تحدث بنعم الاملاك التي سرت من مغرب الارض الى مشرقها والله تعالى يمتع من وقف هذه الختمات بما سطر له في أكرم الصحائف وينفع الجالس من ولاة الامور في تقريرها ويتقبل من الواقف اهـ ﴿قال المقري﴾ وقد رأيت أحد المصاحف المذكورة وهو الذي ببيت المقدس ورأيته في غاية الصنعة اهـ والله تعالى أعلم * واتصلت الولاية بين السلطان أبي الحسن وبين الملك الناصر الى ان هلك سنة احدى وأربعين وسبعمائة وولي أمر مصر من بعده ابنه أبو الفداء اسمعيل بن محمد ابن قلاوون فخاطبه السلطان أبو الحسن أيضا على ما نذكره بعد ان شاء الله

## ﴿نكبة الامير أبي عبد الرحمن يعقوب ابن السلطان أبي الحسن وفرار وزيره﴾ ﴿زيان بن عمر الوطاسي والسبب في ذلك﴾

كان السلطان أبو الحسن رحمه الله عندما نهض الى تلمسان أولا وثانيا ينتظر قدوم صهره السلطان أبي بكر ابن أبي زكرياء الحفصي عليه لما كان انعقد بينه وبين أبيه أبي سعيد رحمه الله من الاجتماع على تلمسان والتعاون على حصارها ولما فتح أبو الحسن تلمسان في التاريخ المتقدم كان وزير الحفصيين الشيخ أبو محمد ابن تافراجين شاهد الذلك الفتح قدم رسولا من عند مخدومه السلطان أبي بكر المذكور فاسر الى السلطان أبي الحسن بان مخدومه قادم عليه للقائه وتهنئته بالظفر بعدوه فتشوف السلطان أبو الحسن اليها لما كان يحب الفخر ويعنى به وارتحل عن تلمسان سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة وعسكر بمتيجة منتظرا لوفادة صهره عليه فتكاسل الحفصي عن القدوم بسبب تثبيط محمد بن الحكيم من رجال دولته اياه عن ذلك وقال له ان لقاء سلطانين لا يتفق الا في يوم على أحدهما فكره الحفصي ذلك وتقاعد عنه وطال مقام السلطان أبي الحسن في انتظاره ثم طرقه بقسطاطه مرض ألزمه الفراش حتى تحدث أهل العسكر بهلكه وكان ابناه الاميران أبو عبد الرحمن وأبو مالك متناغيين في ولاية عهده منذ أيام جدهما أبي سعيد وكان أبوهما قد جعل لهما الاول دولته ألقاب الامارة وأحوالها من اتخاذ الوزراء والكتاب ووضع العلامة وتدوين الدواوين واثبات العطاء واستلحاق الفرسان وانفراد كل بعسكره على حدة وجعل لهما مع ذلك الجلوس بمقعد له مناوبة لتنفيذ الاوامر السلطانية فكانا لذلك رديفين له في سلطانه ولما اشتد وجع السلطان في هذه المرة تمشت سماسرة الفتن بينهما وتحزب أهل العسكر لهما حزبين وشوشوا بواطنهما فبث كل واحد منهما المال وحمل على المقربات وصار الجيش شيعا وهم الامير أبو عبد الرحمن بالتوثب على الامر قبل ان يتبين حال السلطان باغراء وزرائه وبطانته بذلك وتفطن خاصة السلطان لما وقع فاخبروه الخبر وحضوه على الخروج الى الناس قبل ان يتفاقم الامر ويتسع الخرق فبرز السلطان الى فسطاط جلوسه وتسامع أهل العسكر به فازدحموا الى بساطه وتقبيل يده وتقبض على أهل الظنة من الجيش فاودعهم السجن وسخط على الاميرين وأمر برحيل من كان معهما من الجند فردهم الى معسكره ثم رجع الى فسطاطه وطفئت نار الفتنة وسكن سعي المفسدين واتبذ الناس عن الاميرين المذكورين

فبقيا أوحش من وتد بقاع فاشتد جزع الامير أبي عبد الرحمن وركب من فسطاطه وخاض الليل فاصبح بحلة أولاد على أمراء بني زغبة من هلال الموطنين بارض حمزة فتقبض عليه أميرهم موسى بن أبي الفضل ورده الى أبيه فاعتقله بوجدة ورتب العيون لحراسته ولحق وزيره زيان بن عمر الوطاسي بالموحدين أصحاب تونس فاجاروه ورضي السلطان صبيحة فرار أبي عبد الرحمن عن أخيه أبي مالك وعقد له على ثغور عمله بالاندلس وصرفه اليها وانكفأ راجعا الى تلمسان والله أعلم

## ﴿ثورة ابن هيدور الجزار وما كان من أمره﴾

لما تقبض السلطان أبو الحسن على ابنه أبي عبد الرحمن وأودعه السجن تفرق خدمه وحشمه في الجهات وكان منهم رجل جزار مرتب في مطبخه يعرف بابن هيدور وكان له شبه في الصورة بابي عبد الرحمن فلحق ببني عامر بن زغبة وكانوا لذلك العهد منحرفين عن طاعة السلطان أبي الحسن لاختصاصه عريف بن يحيى أمير بني سويد أعدائهم فلما لحق بهم ابن هيدور هذا انتسب لهم الى السلطان أبي الحسن وانه ابنه أبو عبد الرحمن فشبه لهم وبايعوه وأجلبوا به على نواحي المدية فبرز اليهم قائدها فهزموه ثم جمع لهم ونزمر بن عريف بن يحيى فهزمهم وافترق جمعهم ونبذوا الجزار عهده فلحق ببني يرناتن من زواوة فنزل على شيختهم شمسي من بني عبد الصمد منهم وكانت هذه المرأة قد ملكتهم وغلبت عليهم بقومها ورجالها وكان لها بنون عشرة فاستفحل أمر هابهم ولما نزل عليها الجزار المذكور وانتسب لها الى السلطان أبي الحسن قامت بامره وشمرت عزائمها لاجارته وحملت قومها على طاعته وشاع في الناس خبره فمن مصدق ومن مكذب وسرب السلطان أبو الحسن الاموال في قومها وبنيها على اسلامه اليه فأبت ثم نمي اليها الخبر بكذبه وتمويهه فنبذت اليه عهده وخرج عنها الى بلاد العرب فلحق بالدواودة أمراء رياح من بني هلال ونزل على سيدهم يعقوب بن علي وانتسب له في مثل ذلك فاجاره ان صدق نسبه وأوعز السلطان أبو الحسن الى صهره أبي بكر الحفصي في شأن الجزار فبعث الحفصي الى يعقوب بن علي في ذلك فاشخصه الى السلطان أبي الحسن مع بعض حاشيته فلحق به بمكانه بسبتة يريد الجهاد فامتحنه وقطعه من خلاف وانحسم داؤه وبقي بالمغرب تحت جراية من الدولة الى ان هلك في بعض السنين وأما الامير أبو عبد الرحمن فانه لما سجن بوجدة بقي هنالك الى سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة فوثب ذات يوم بالسجان فقتله واتصل الخبر بالسلطان أبي الحسن فأنفذ حاجبه علال بن محمد فقضى عليه رحمه الله الجميع

## ﴿أخبار السلطان أبي الحسن في الجهاد وما كان من وقعة طريف التي محص الله فيها المسلمين وغير ذلك﴾

لما فرغ السلطان أبو الحسن من شأن عدوه وعلت على الايدي يده وانفسح نطاق ملكه دعته همته الى الجهاد وكان كلفا به فاوعز الى ابنه الامير أبي مالك أمير الثغور الاندلسية سنة أربعين وسبعمائة بالدخول الى دار الحرب وجهز اليه العساكر من حضرته وأنفذ اليه الوزراء فشخص أبو مالك غازيا وتوغل في بلاد النصرانية واكتسحها وخرج بالسبي والغنائم الى ادنا صدر من أرضهم وأناخ بها فاتصل به الخبر ان النصارى قد جمعوا له وانهم أغذوا السير في اتباعه فاشار عليه الملأ بالخروج من أرضهم وعبور الوادي الذي كان تخما بين أرض المسلمين ودار الحرب ويتحيز الى مدن المسلمين فيمتنع بها فلج في اباته وصمم على التعريس وكان قرما ثبتا الا انه غير بصير بالحرب لصغر سنه فصبحتهم عساكر النصرانية في مضاجعهم قبل ان يركبوا وخالطوهم في بياتهم وأدركوا الامير أبا مالك بالارض قبل ان يستوي على فرسه فجدلوه واستلحموا الكثير من قومه واحتووا على المعسكر بما فيه من أموال المسلمين وأموالهم ورجعوا على أعقابهم واتصل الخبر بالسلطان أبي الحسن فتفجع لهلاك ابنه واسترحم له واحتسب عند الله أجره ثم أنفذ وزراءه الى سواحل المغرب لتجهيز الاساطيل وفتح ديوان العطاء وعرض الجنود وأزاح عللهم

واستنفر أهل المغرب كافة ثم ارتحل الى سبتة ليباشر أحوال الجهاد وتسامعت به أمم النصرانية فاستعدوا للدفاع وأخرج الطاغية أسطوله الى الزقاق ليمنع السلطان من الاجازة واستحث السلطان أساطيل المسلمين من مراسي المغرب وبعث الى أصهاره الحفصيين بتجهيز أسطولهم اليه فعقدوا عليه لزيد بن فرحون قائد أسطول بجاية ووافى سبتة في ستة عشر أسطولا من أساطيل افريقية كان فيها من طرابلس وقابس وجربة وتونس وبونة وبجاية وتوافت أساطيل المغربين بمرسى سبتة تناهز المائة وعقد السلطان عليها لمحمد بن على العزفي الذي كان صاحب سبتة يوم فتحها أيام السلطان أبي سعيد وأمره بمناجزة أسطول النصارى بالزقاق وقد تكامل عديدهم وعدتهم فاستلئموا وتظاهروا في السلاح وزحفوا الى أسطول النصارى وتوافقوا مليا ثم قربوا الاساطيل بعضها من بعض وقرنوها بالاصاف فلم يعض الا كلا ولا حتى هبت ريح النصر وأظفر الله المسلمين بعدوهم وخالطوهم في أساطيلهم واستلحموهم هبرا بالسيوف وطعنا بالرماح وألقوا أشلاءهم في اليم وقتلوا قائدهم الملند واستاقوا أساطيلهم مجنوبة الى مرسى سبتة فبرز الناس لمشاهدتها وطيف بكثير من رؤسهم في جوانب البلد ونظمت أصفاد الاسرى بدار الانشاء وعظم الفتح وجلس السلطان للتهنئة وأنشد الشعراء بين يديه وكان ذلك يوم السبت سادس شوال سنة أربعين وسبعمائة فكان من أعز أيام الاسلام ثم شرع السلطان أبو الحسن في اجازة العساكر من المتطوعة والمرتزقة وانتظمت الاساطيل سلسلة واحدة من العدوة الى العدوة ولما تكاملت العساكر بالعبور وكانت نحو ستين ألفا أجاز هو في أسطوله مع خاصته وحشمه آخر سنة أربعين وسبعمائة ونزل بساحة طريف وأناخ عليها ثالث محرم من السنة بعدها وشرع في منازلتها ووافاه سلطان الاندلس أبو الحجاج يوسف بن اسمعيل ابن الاحمر في عسكر الاندلس من غزاة بني مرين وحامية الثغور ورجالة البدو فعسكر واحذاء معسكره وأحاطوا بطريف نطاقا واحدا وأنزلوا بها أنواع القتال ونصبوا عليها الآلات وجهز الطاغية أسطولا آخر اعترض به الزقاق لقطع المرافق عن المعسكر وطال مقام المسلمين بمكانهم حول طريف ففنيت أزوادهم وقلت العلوفات فوهن الظهر واختلت أحوالهم ثم احتشد الطاغية أمم النصرانية وظاهره البرتقال صاحب اشبونة وغرب الاندلس وزحفوا الى المسلمين لستة أشهر من نزولهم على طريف ولما قرب الطاغية من معسكر المسلمين سرب الى طريف جيشا من النصارى أكمنهم بها الى وقت الحاجة اليه فدخلوها ليلا على حين غفلة من العسس الذين أرصدوا لهم وأحسوا بهم آخر الليل فثاروا بهم من مراصدهم وأدركوا أعقابهم قبل دخول البلد فقتلوا منهم عددا وقد نجا أكثرهم فلبسوا على السلطان بأنه لم يدخل البلد سواهم حذرا من سطوته ثم زحف الطاغية من الغد في جموعه الى المسلمين وعبى السلطان مواكبه صفوفا وتزاحفوا ولما نشبت الحرب برز الجيش الكمين من البلد وهو الذي دخل ليلا وخالفوا المسلمين الى معسكرهم وعمدوا الى فسطاط السلطان فدافعهم عنه الناشبة الذين كانوا على حراسته فاستلحموهم لقلتهم ثم دافعهم النساء عن أنفسهن فقتلوهن كذلك وخلصوا الى حظايا السلطان منهن عائشة بنت عمه أبي بكر بن يعقوب بن عبد الحق وفاطمة بنت السلطان أبي بكر بن أبي زكرياء الحفصي وغيرهما من حظاياه فقتلوهن واستلبوهن ومثلوا بهن وانتهبوا سائر الفسطاط وأضرموا المعسكر نارا ثم أحس المسلمون بما وراءهم في معسكرهم فاختل مصافهم وارتدوا على أعقابهم بعد أن كان تاشفين ابن السلطان أبي الحسن صمم في طائفة من قومه وحاشيته حتى خالطهم في صفوفهم فأحاطوا به وتقبضوا عليه وعظم المصاب بأسره وكان الخطب على الاسلام قلما فجع بمثله وذلك ضحوة يوم الاثنين سابع جمادى الآخرة من سنة احدى وأربعين وسبعمائة وولى السلطان أبو الحسن متحيزا الى فئة المسلمين واستشهد كثير من الغزاة وتقدم الطاغية حتى انتهى الى فسطاط السلطان من المحلة فأنكر قتل النساء والولدان وكان ذلك منتهى أثره ثم انكفأ راجعا الى بلاده ولحق

ابن الاحمر بغرناطة وخاص السلطان أبو الحسن الى الجزيرة الخضراء ثم منها الى جبل الفتح ثم ركب الاسطول الى سبتة فى ليلة غده ومحص الله المسلمين وأجزل ثوابهم

﴿استيلاء العدو على الجزيرة الخضراء﴾

لما رجع الطاغية من طريف استأسد على المسلمين بالاندلس وطمع فى التهامهم وجمع عساكر النصرانية ونازل أولا قلعة بنى سعيد ثغر غرناطة وعلى مرحلة منها وجمع الآلات والايدى على حصارها وأخذ بمخنقها فاصابهم الجهد من العطش فنزلوا على حكمه سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة وأدال الله الطيب منها بالخبيث وانصرف الطاغية الى بلاده وكان السلطان أبو الحسن لما أجاز الى سبتة أخذ نفسه بالعود الى الجهاد لرجع الكرة فارسل فى المدائن حاشرين وأخرج قواده الى سواحل المغرب لتجهيز الاساطيل فتكامل له منها عدد معتبر ثم ارتحل الى سبتة لمشارفة ثغور الاندلس وقدم عساكره اليها مع وزيره عسكر بن تاحضريت وعقد على الجزيرة الخضراء لمحمد بن العباس بن تاحضريت من قرابة الوزير وبعث اليها مددا من العسكر مع موسى بن ابراهيم اليرينانى من الموشحين للوزارة نيابة وبلغ الطاغية خبره فجهز أسطوله وأجراه الى بحر الزقاق لمدافعته وتلاقت الاساطيل ومحص الله المسلمين واستشهد منهم أعداد وتغلب أسطول الطاغية على بحر الزقاق فلكه دون المسلمين وأقبل الطاغية من اشبيلية فى عساكر النصرانية حتى أناخ بها على الجزيرة الخضراء مرفأ أساطيل المسلمين وفرضة المجاز ورجى ان ينظمها فى ملكته مع جارتها طريف وحشر الفعلة والصناع للآلات وجمع الايدى عليها وطا ولها الحصار واتخذ أهل المعسكر بيوتا من الخشب للمطاولة وجاء السلطان أبو الحجاج ابن الاحمر بعساكر الاندلس فنزل قبالة الطاغية بظاهر جبل الفتح فى سبيل الممانعة وأقام السلطان أبو الحسن بمكانه من سبتة يسرب الى أهل الجزيرة المدد من الفرسان والمال والقوت فى أوقات الغفلة من أساطيل العدو وتحت جناح الليل وأصيب كثير من المسلمين فى ذلك ولم يغن عن أهل الجزيرة ذلك المدد شيأ واشتد عليهم الحصار وأصابهم الجهد وأجاز السلطان أبو الحجاج الى السلطان أبى الحسن يفاوضه فى شأن السلم مع الطاغية بعد ان أذن الطاغية له فى الاجازة مكرا به وأرصد له بعض الاساطيل فى طريقه فصدقهم المسلمون القتال وخلصوا الى الساحل بعد غص الريق وضاقت أحوال أهل الجزيرة ومن كان بها من عسكر السلطان فسألوا الطاغية الامان على ان ينزلوا له عن البلد فبذله لهم وخرجوا اليه وفى لهم وأجازوا الى المغرب سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة فاتزلهم السلطان ببلاده على خير نزل ولقاهم من المبرة والكرامة ما عوضهم بما فاتهم وخلع عليهم وحملهم ووصلهم بما تحدث الناس به وتقبض على وزيره عسكر بن تاحضريت عقوبة له على تقصيره فى المدافعة مع تمكنه منها وانكفأ السلطان أبو الحسن راجعا الى حضرته موقنا بظهور أمر الله وانجاز وعده والله متم نوره ولو كره الكافرون

﴿بقية أخبار بنى أبى العلاء﴾

قد تقدم لنا ان عثمان بن أبى العلاء كان يلى مشيخة الغزاة بالاندلس وانه استشهد سنة ثلاثين وسبعمائة وقام بامره ابنه أبو ثابت فاستحوذ بعصبيته وقومه على بنى الاحمر فقتلوا محمد بن اسمعيل منهم مرجعه من فتح جبل الفتح ونصبوا للامر أخاه يوسف بن اسمعيل حسبما تقدم الالماع بذلك ثم ان السلطان أبا الحجاج هذا بقى بين جنبيه داء دخيل من بنى أبى العلاء الذين فتكوا باخيه فلم يزل يسعى فى أمرهم حتى قبض عليهم وأودعهم المطبق ثم غربهم الى تونس فنزلوا على السلطان أبى بكر بن أبى زكرياء الحفصى واتصل الخبر بالسلطان أبى الحسن فكتب اليه باعتقالهم ففعل ثم بداله فبعث اليه مع عريف الوزعة ببابه ميمون بن بكرون فى أشخاصهم الى حضرته فتوقف الحفصى عن ذلك وأبى من اخفار ذمتهم فاشار

عليه وزيره أبو محمد بن تافراجين بيعثهم اليه وانه لا يريبهم الا الخير فبعثهم وبعث كتابه بالشفاعة فيهم فقدموا على السلطان أبي الحسن مرجعه من الجهاد سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة فتلقاهم بالبر والكرامة اكراما لشفيعهم وأنزلهم بعسكره وحملهم على الخيول المسومة بالمراكب الثقيلة وضرب لهم الفساطيط وأسنى لهم الخلع والجوائز وفرض لهم في أعلى رتب العطاء وصار وافي جملته ولما احتل بسبتة لمشارفة أحوال الجزيرة الخضراء سعى عنده فيهم بان كثيرا من المفسدين يداخلونهم في الخروج والتوثب على الامر فتقبض عليهم وأودعهم السجن بمكاسة الزيتون واستمروا هنالك الى ان قام أبو عنان فأطلقهم واستعان بهم على أمره حسبما نذكره ان شاء الله

## ﴿مراسلة السلطان أبي الحسن لصاحب مصر أبي الفداء اسمعيل بن محمد بن قلاوون﴾

قد تقدم لنا ان السلطان أبا الحسن واصل الملك الناصر صاحب مصر وهاداه بما عظم وقعه عند الخاصة والعامة واتصلت الولاية بينه وبين الملك الناصر الى ان توفي سنة احدى وأربعين وسبعمائة وولي الامر من بعده ابنه أبو الفداء اسمعيل فخاطبه السلطان أبو الحسن أيضا وأتحفه وعزاه عن أبيه وأوفد عليه كاتبه وصاحب ديوان الخراج أبا الفضل ابن أبي عبد الله بن أبي مدين وفي صحبته الحرة أخت السلطان أبي الحسن فقضى من وفادته ما حمل وأصحبه السلطان أبو الحسن كتابا الى الملك الصالح أبي الفداء وكان وصوله الى مصر منتصف شعبان سنة خمس وأربعين وسبعمائة ونص الكتاب بعد البسملة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم من عند أمير المسلمين المجاهد في سبيل الله رب العالمين المنصور بفضل الله المتوكل عليه المعتمد في جميع أموره لديه سلطان البرين حامي العدوتين مؤثر المرابطة والمثاغرة موازر حزب الاسلام حق الموازرة ناصر الاسلام مظاهر دين الملك العلام ابن أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين فخر السلاطين حامي حوزة الدين ملك البرين امام العدوتين ممهد البلاد مبدد شمل الاعاد مجند الجنود المنصور الرايات والبنود محط الرحال مبلغ الآمال أبي سعيد ابن أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين حسنة الايام حسام الاسلام أبي الاملاك مشجي أهل العناد والاشراك مانع البلاد رافع علم الجهاد مدوخ أقطار الكفار مصرخ من ناداه للانتصار القائم لله بما علا من دين الحق أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق أخلص الله لوجهه جهاده ويسر في قهر عداة الدين مراده الى محل ولدنا الذي طلع في أفق العلا بدرا تما وصدع بانواع الفخار فجلى ظلاما وظلما وجمع شمل المملكة الناصرية فأعلى منها علما وأحيى رسما حائط الحرمين القائم بحفظ القبلتين باسط الامان قابض كف العدوان الجزيل النوال الكفيل تامينه بحياطة النفوس والاموال قطب المجد وسماكه حسب الحمد وملاكه السلطان الجليل الرفيع الاصيل الحافل العادل الفاضل الكامل الشهير الخطير الاضخم الافخم المعان المؤزر المؤيد المظفر الملك الصالح أبي الوليد اسمعيل ابن محل أخينا الشهير علاؤه المستطير في الآفاق ثناؤه زين الايام والليال كمال عين انسان المجد وانسان عين الكمال وارث الدول الناقذ بصحيح رأيه في عقود أهل الملل والنحل حامي القبلتين بعدله وحسامه النامي في حفظ الحرمين أجر اضطلاعه بذلك وقيامه هازم أحزاب المعاندين وجيوشها هادم الكنائس والبيع فهي خاوية على عروشها السلطان الاجل الهمام الاحفل الافخم الاضخم الفاضل العادل الشهير الكبير الرفيع الخطير المجاهد المرابط المقسط عدله في الجائر والقاسط المؤيد المظفر المنعم المقدس المطهر زين السلاطين ناصر الدنيا والدين أبي المعالي محمد ابن الملك الارضى الهمام الامضى والد السلاطين الاخيار عاقد لواء النصر في قهر الارمن والفرنج والتتار محيي رسوم الجهاد معلي كلمة الاسلام في البلاد جمال الايام ثمال الاعلام فاتح الاقالم صالح ملوك عصره المتقادم الامام المؤيد المنصور المسدد قسيم أمير المؤمنين

فيما تقلد الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون مكن الله له تمكين أوليائه وغى دولته التي أطلعها
له السعد شمسا في سمائه وأحسن ايزاعه للشكر أن جعله وارث آبائه سلام كريم يفاوح زهر الربى
مسراه وينافح نسيم الصبا مجراه يصحبه رضوان يدوم ما دامت تقل الفلك حركاته ويتولاه روح
وريحان تحييه به رحمة الله وبركاته أما بعد حمد الله مالك الملك جاعل العاقبة للتقوى صدعا باليقين ودفعا
للشك وخاذل من أسر النفاق في النجوى فاصر على الدخن والافك والصلاة والسلام على سيدنا محمد
رسوله الذي محى بانوار الهدى ظلم الشرك ونبيه الذي ختم به الانبياء وهو واسطة ذلك السلك ودعا به
حجة الحق فبادت بالكفرة محمولة الافلاك وماجت بهم حاملة الفلك والرضا عن آله وصحبه الذين
سلكوا سبيل هداه فسلك في قلوبهم أجمل السلك وملكوا أعنة هواهم فلزموا من محجة الصواب
أنجح المسالك وصابروا في جهاد الاعداء فزاد خلوصهم مع الابتلاء والذهب يزيد خلوصا على السبك
والدعاء لاولياء الاسلام وحماته الاعلام بنصر لضامنه في العدى أعظم الفتك ويسر بقضائه درك
آمال الظهور وأحفل بذلك الدرك فكتبناه اليكم كتب الله لكم رسوخ القدم وسبوغ النعم من
حضرتنا مدينة فاس المحروسة وصنع الله سبحانه يعرف مذاهب الالطاف ويكيف مواهب تلهج
الالسنة في القصور عن شكرها بالاعتراف ويصرف من أمره العظيم وقضائه الملتقى بالتسليم
ما يتكون بين النون والكاف ومكانكم العتيد سلطانه وسلطانكم المجيد مكانه وولاؤكم الصحيح
برهانه وعلاؤكم الفسيح في مجال الجلال ميدانه والى هذا زاد الله سلطانكم تمكينا وأفاد مقامكم
تحصينا وتحسينا وسلك بكم من سنن من خلفتموه سبيلا مبينا فلا خفاء بما كانت عقدته أيدي التقوى
ومهدته الرسائل التي على الصفاء تطوى بيننا وبين والدكم نعم الله روحه وقدسه وبقربه مع الابرار
في عليين أنسه من مؤاخاة أحكمت منها العهود تالية الكتب والفاتحة وحفظ عليها محكم الاخلاص
معوذتاها المحبة والنية الصالحة فانعقدت على التقوى والرضوان واعتضدت بتعارف الارواح عند
تنازح الابدان حتى استحكمت وصلة الولاء والتأمت لحمة النسب لحمة الاخاء فما كان الا وشيكا
من الزمان ولا عجب قصر زمن الوصلة أن يشكوه الخلان ورد واردا أورد رنق المشارب وحقق قول
ومن يسأل الركبان عن كل غائب أنبأ باستئثار الله تعالى بنفسه الزكية واكتنان درته السنية
وانقلابه الى ما أعد له من المنازل الرضوانية بجليل ما وقر لفقده في الصدور وعظيم ما تأثرت له
النفوس لوقوع ذلك المقدور حنانا للاسلام بتلك الاقطار واشفاقا من ان يمتو رقاصدي بيت الله
الحرام من جراء الفتن عارض الاضرار ومساهمة في مصاب الملك الكريم والوصي الحميم ثم نميت
الاخبار وطويت طي السجل الآثار فلم نر مخبرا صادقا ولا معلما عن استقر له ذلكم الملك حقا وفي
أثناء ذلك حفزنا الحركة عن حضرتنا استصراخ أهل الاندلس وسلطانها وتواتر الاخبار بان النصارى
أجمعوا على خراب أوطانها ونحن أثناء ذلكم الشأن نستخبر الوراد من تلكم البلدان عما أجلى عنه ليل
الفتن بتلكم الاوطان فبعد لأي وقفنا منها على الخبير وجاءنا وقاية حرم الله بكم البشير وتعرفنا ان الملك
استقر منكم في نصابه وتداركه الله تعالى منكم بفاتح الخير من أبوابه فاطفأ بكم نار الفتنة وأخمدها
وأبرأ من أدواء النفاق ما أعل البلاد وأفسدها فقام سبيل الحج سابلا وعبر طريقه لمن جاء قاصدا او قافلا
ولما احتفت بهذا الخبر القرائن وتواتر بنقل الحاضر المعاين آثار حفظ الاعتقاد البواعث والود
الصحيح تجره حقا المواريث فأصدرنا لكم هذه المخاطبة المتفننة الاطوار الجامعة بين الخبر والاستخبار
الملبسة من العزاء والهناء ثوبي الشعار والدثار ومثل ذلكم الملك رضوان الله عليه من تجل المصائب
لفقدانه وتحل عرى الاصطبار بموته ولات حين أوانه لكن الصبر أجمل ما ارتداه ذو عقل حصين
والاجر أولى ما اقتناه ذو دين متين ومثلكم من لا يخف وقاره ولا يشف عن ظهور الجزع الحادث

اصطباره ومن خلفتموه فاماتت ذكره ومن قمتم بامره فما زال بل زاد فخره وقد طالت والحمد لله العيشة الراضية بالعقب وطاب بين مبداه ومختضره هنيئا بما من الاجر اكتسب وصار جيدا الى خير منقلب ووفد من كرم الله على أفضل ما منح موفدا ووهب فقد ارتضا كم الله بعده لحياطة أرضه المقدسة وحماية زوار بيته مقبلة أو معرسة ونحن بعد بسط هذه التعزية نهنيكم بما خولكم الله أجل التهنية وفى ذات الله الايراد والاصدار وفى مرضاته سبحانه الاضمار والاظهار فاستقبلوا دولة ألقى العز عليها رواقه وعقد الظهور عليها نطاقه وأعطاها أمان الزمان عقده وميثاقه ونحن على ما عاهدنا عليه الملك الناصر رضوان الله عليه من عهود موثقه وموالاة محققه وثناء كمائمه عن أذكى من الزهر عب القطر مفتقه ولم يغب عنكم ما كان من بعثنا المصحفين الاكرمين اللذين خطتهما منا اليمين وآوت بهما الرغبة من الحرمين الشريفين الى قرار مكين وانه كان لوالدكم الملك الناصر تولاه الله برضوانه وأورده موارد احسانه فى ذلكم من الفعل الجميل والصنع الجليل ما ناسب مكانه الرفيع وشاكل فضله من البر الذى لا يضيع حتى طبق فعله الآفاق ذكرا وطوق أعناق الورّاد والقصاد برا وكان من أجل ما به تحفى وأتحف وأعظم ما يعرفه الملك العلام فى ذلك تعرّف اذنه للمتوجهين اذ ذاك فى شراء رباع توقف على المصحفين ورسم المراسم المباركة بتحرير ذلك الوقف مع اختلاف الجديدين فجرت أحوال القراء فيهما بذلك الخراج المستفاد ويتمايصالهم من خراج ما وقفنه عليهم بهذه البلاد على ما رسمه رحمة الله عليه من عناية بهم متصلة واحترام فى تلك الاوقاف فوائدها به متوفرة متحصلة وقد أمرنا مؤدى هذا الكتاب لكم وموفده على جلالكم كاتبنا الاسنى الفقيه الاجل الاحظى الاكمل أبا المجد ابن كاتبنا الشيخ الفقيه الاجل الحاج الاتقى الارضى الافضل الاحظى الاكمل المرحوم أبى عبد الله ابن أبى مدين حفظ الله عليه رتبته ويسر فى قصد البيت الحرام بغيته بان يتفقد أحوال تلك الاوقاف ويتعرّف تصرف الناظر عليها وما فعله من سداد واسراف وان يتخير لها من يرتضى لذلك ويحمد تصرفه فيما هنالك وخاطبنا سلطانكم فى هذا الشان جريا على الود الثابت الاركان واعلاما بما لوالدكم رحمه الله تعالى فى ذلك من الافعال الحسان وكمالكم يقتضى تخليد ذلكم البر الجميل وتجديد عمل ذلكم الملك الجليل وتشييد ما اشتمل عليه من الثراء الاصيل والاجر الجزيل والتقدم بالاذن السلطانى فى اعانة هذا الوافد بهذا الكتاب على ما يتوخاه فى ذلك الشأن من طرق الصواب وثناؤنا عليكم الثناء الذى يفاوح زهر الربا ويطارح نغم حمام الايك مطربا وبحسب المصافاة ومقتضى الموالاة نشرح لكم المتزايدات بهذه الجهات ونبثكم موجب ابطاء انفاذ هذا الخطاب على ذلكم الجناب وذلك انه لما وصلنا من الاندلس الصريخ ونادى منادى الجهاد عزما المتمثل ندائه يصيخ أنبأنا ان الكفار قد جمعوا أحزابهم من كل صوب وفرض عليهم باباهم اللعين التناصر من كل أوب وان تقصد طواغيتهم البلاد الاندلسية باجحافها وتنقص بالمنازلة أرضها من أطرافها ليمحو كلمة الاسلام منها ويقلصوا ظل الايمان عنها فقدمنا من يشتغل بالاساطيل من القواد وسرنا على أثرهم الى سبتة منتهى الغرب الاقصى وباب الجهاد فما وصلناها الا وقد أخذه العدو الكفور وسدت أجفان الطواغيت على التعاون مجاز العبور وأتوا من أجفانهم بما لا يحصى عددا وأرصدوها بمجمع البحرين حيث المجاز الى دفع العدا وتقلصوا عن الانبساط فى البلاد واجتمعوا الى الجزيرة الخضراء أعادها الله بكل من جمعوه من الاعاد لكم مع انسداد تلك السبيل وعدم أمور نستعين بها فى ذلكم العمل الجليل حاولنا امداد تلكم البلاد بحسب الجهد وأصرخناهم بما أمكن من الجند وجهزنا أجفانا مختلسين فرصة الاجازه تتردد على خطر عن جهز للجهاد جهازه وأمرنا لصاحب الاندلس من المال بما يجهز به حركته لمداناة محلة حزب الضلال وأجرينا له ولجيشه العطاء الجزل مشاهرة وأرضخنا لهم من

النوال ماترجو به ثواب الآخرة وجعلت أجفاننا تتردد في مينا السواحل وتلج أبواب الخوف العاجل لاحراز الأمن الآجل مشحونة بالعدد الموفورة والابطال المشهورة والخيل المسومة والاقوات المقومة فمن ناج طارب دونه الاجل وشهيد مضى لما عند الله عزوجل ومازالت الاجفان تتردد على ذلك الخطر حتى تلف منها سبع وستون قطعة غزوية أجوها عند الله يدخر ثم لم نقنع بهذا العمل في الامداد فبعثنا أحد أولادنا أسعدهم الله مساهمة به لاهل تلك البلاد فلقي من هول البحر وارتجاجه والحاح العدو ولجاجه ما به الامثال تضرب وبمثله يتحدث ويستغرب ولما خلص لتلك العدوة عن أبقته الشدائد نزل بازاء الكافر الجاحد حتى كان منه بفرسخين أو أدنى وقد ضرب ببطن بصائح العدو وبأسه بحرب بها يعنى وقد كان من مددنا بالجزيرة جيش شريت شراوته وقويت في الحرب ادارته يبلون البلاء الاصدق ولا يبالون بالعدو وهم منه كالشامة البيضاء في البعير الاورق الا ان المطاولة بحصارها في البحر مدة ثلاثة أعوام ونصف ومنازلتها في البر نحو عامين معقودا عليها الصف بالصف أدى الى فناء الاقوات في البلد حتى لم يبق لاهليه قوت شهر مع انقطاع المدد وبه من الخلق ما يربي على عشرة آلاف دون الحرم والولد فكتب الينا سلطان الاندلس يرغب في الاذن له في عقد الصلح ووقع الاتفاق على انه لاستخلاص المسلمين من وجوه النجح فأذناله فيه الاذن العام اذ في اصراخه واصراخ من بقطره من المسلمين توخينا ذلك المرام هنالك دعى النصارى الى السلم فاستجابوا وقد كانوا علموا فناء القوت وما استرابوا فتم الصلح الى عشر سنين وخرج من بها من فرسان ورجال وأهل وبنين ولا رزئوا مالا ولا عدة ولا لقوا في خروجهم غير التزوح عن أول أرض مس الجلد ترابها شدة ووصلوا الينا فأجزلنا لهم العطاء وأسليناهم عما جرى بالحباء فمن خيل تزيد على الالف عتاقها وخلع تربي على عشرة آلاف أطواقها وأموال عمت الغني والفقير ورعاية شملت الجميع بالعيش النضير وكف الله ضر الطواغيت عما عداها وما انقلبوا بغير مدرة عفار سمها وصم صداها وقد كان من لطف الله حين قضى باخذ هذا الثغر ان قدر لنا فتح جبل طارق من أيدي الكفر وهو المطل على هذه المدرة والفرصة منه ان شاء الله تعالى متيسرة حتى يفرق عقد الكفار ويفرج بهذه الجهة منهم مجاوروا هذه الاقطار فلولا اجلابهم من كل جانب وكونهم سدوا مسالك العبور بما لجميعهم من الاجفان والمراكب لما ابينا باصفاقهم ولحل التابعون الله عقد اتفاقهم ولكن للموانع أحكام ولا راد لما جرت به الاقلام وقد أمرنا لذلك الثغر بمزيد المدد وتخيرنا له ولسائر تلك البلاد العدد والعدد وعدنا لحضرتنا فاس لنستريح الجيوش من وعثاء السفر ونرتبط الجياد وننتخب العدد لوقت الظهور المنتظر ونكون على أهبة الجهاد وعلى مرقبة الفرصة عند تمكنها في الاعاد وعند عودنا من تلك المحاولة تيسر الركب الحجازي موجها الى هنا كم رواحله فأصدرنا اليكم هذا الخطاب اصدار الود الخالص والحب اللباب وعندنا لكم ما عند أحنى الآباء واعتقادنا فيكم في ذات الله لا يخشى جديده من البلاء وما لكم من غرض بهذه الانحناء فوفي قصده على أكمل الاهواء موالي تتميمه على أجمل الآراء والبلاد باتحاد الود متحدة والقلوب والايدي على ما فيه مرضات الله عزوجل منعقدة جعل الله ذلكم خالصا لرب العباد مذخورا ليوم التناد مسطورا في الاعمال الصالحة يوم المعاد بمنه وفضله هو سبحانه يصل اليكم سعدا تتفاخر به سعود الكواكب وتتضافر على الانقياد له صدور المواكب وتتقاصر عن نيل مجده متطاولات المناكب والسلام الاتم يخصكم كثيرا أثيرا ورحمة الله وبركاته وكتب في يوم الخميس السادس والعشرين لشهر صفر المبارك من عام خمسة وأربعين وسبعمائة وصورة العلامة وكتب في التاريخ المؤرخ ﴿قال ابن خلدون﴾ فقضى أبو الفضل ابن أبي عبد الله بن أبي مدين من وفادته ما حمل وكان شأنه عجبا في اظهار أبهة سلطانه والانفاق على المستضعفين من الحاج في طريقه واتحاف رجال

الدولة التركية بذات يده والتعفف عما في أيديهم رحمه الله ﴿وقال العلامة المقريزي﴾ وفي منتصف شعبان من سنة خمس وأربعين وسبعمائة قدمت الحرة أخت صاحب المغرب في جماعة كثيرة وعلى يدها كتاب السلطان أبي الحسن يتضمن السلام وأن يدعو له الخطباء في يوم الجمعة ومشايخ الصلاح وأهل الخير بالنصر على عدوهم ويكتب الى أهل الحرمين بذلك اهـ ولعل هذا كتاب آخر غير الذى سردناه يتضمن ماذكره والله أعلم ونسخة الجواب عن الكتاب الذى سردناه من انشاء خليل الصفدى شارح لامية العجم بعد البسملة في قطع النصف بقلم الثلث عبد الله وليه صورة العلامة ولده اسمعيل بن محمد السلطان الملك الصالح السيد العالم العادل المؤيد المجاهد المرابط المظفر المنصور عماد الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين محيي العدل في العالمين منصف المظلومين من الظالمين وارث الملك ملك العرب والعجم والترك فاتح الأقطار واهب الممالك والامصار اسكندر الزمان مملك أصحاب المنابر والاسرة والتخوت والتيجان ظل الله في أرضه القائم بسنته وفرضه مالك البحرين خادم الحرمين الشريفين سيد الملوك والسلاطين جامع كلمة الموحدين ولي أمير المؤمنين أبو الفداء اسمعيل ابن السلطان الشهيد السعيد الملك الناصر ناصر الدنيا والدين أبي الفتح محمد ابن السلطان الشهيد السعيد الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون خلد الله تعالى سلطانه وجعل الملائكة أنصاره وأعوانه يخص المقام العالي الملك الاجل الكبير المجاهد المؤيد المرابط المثاغر المعظم المكرم المظفر المعمر الاسعد الاصعد الاوحد الامجد السني السري المنصور أبا الحسن علي ابن أمير المسلمين أبي سعيد عثمان ابن أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق أمده الله بالظفر وقرن عزمه بالتأييد في الآصال والبكر سلاما وشت البروق وشائعه وادخرت الكواكب ودائعه واستوعب الزمان ماضيه ومستقبله ومضارعه وثناء اتخذ النفحات المسكية طلائعه ونبه للتغريد في الروض سواجعه وجلى في كأسه من الشفق المحمر مدامه ومن النجوم فواقعه ﴿أما بعد﴾ حمد الله على نعم أدت لنا الامانة في عود سلطنة والدنا الموروثة وأجلستنا على سرير مملكة زرابيها بين النجوم مبثوثة وأحسنت بنا الخلف عن سلف عهوده في الاعناق غير منكورة ولا منكوثة وصلاته على سيدنا محمد عبده ورسوله وعلى آله وصحبه الذين بلغ بجهادهم في الكفرة غاية أمله وسؤله صلاة تحط بالرضوان شيولها وتجر بالغفران ذيولها ماتراسل أصحاب وتواصل أحباب فيوضح للعلم الكريم وورود كتابكم العظيم وخطابكم الفائق على الدر النظيم تفاخر الخمائل سطوره ويصبغ خد الورد بالخجل منثوره ويحكي الرياض اليانعة فالالفات غصونه والهمزات عليها طيوره ويخلع على الآفاق حلل الايام والليالي فالطرس صباحه والنقس ديجوره لفظه يطرب ومعناه يعرب فيغرب وبلاغته تدل على انه آية لان شمس بيانها طلعت من المغرب فاتخذنا سطوره ريحانا وورجعنا ألفاظه ألحانا ورجعنا الى الجد فشبهنا ألفاته بظلال الرماح وورقه بصقال الصفاح وحروفه المفرقة بأفواه الجراح وسطوره المنتظمة بالفرسان المزدحمة يوم الكفاح وانتهينا الى ماأودعتموه من اللفظ المصوع والمعنى الذى يطرب طائره المسموع والبلاغة التي فضح التطبع بيانها المطبوع فاما العزاء بأخيكم الوالد قدس الله روحه وسقى عهده وأحسن لسلفه خلفا بعده فلنا برسول الله اسوة حسنه ولولا الوثوق بأنه في عدة الشهداء ماارام القلب قراره ولا الطرف وسنه عاش سعيدا بملك الارض ومات شهيدا يفوز بالجنة يوم العرض قد خلد الله ذكره يسير مسير الشمس في الآفاق ويوقف عند نضارة حدائقه نظرات الاحداق وورثنا منه حسن الاخاء لكم والوفاء بعهود مودة تشبه في اللطف شمائلكم ﴿وأما﴾ الهناء بوراثة ملكه والانخراط مع الملوك في سلكه فقد شكرنا لكم منحى هذه المنحه وقابلناها بثناء يعطر النسيم في كل نفحه ووقفنا عليها حمدا جعل الود علينا ايراده وعلى انفاس سرحة الروض شرحه وتحققنا به حسن ودكم الجميل

وكريم

وكريم اخائكم الذي لايعيد طود رسوخه ولا يميل ﴿وأما﴾ ماذكرتموه من أمر المصحفين الكريمين الشريفين اللذين وقفتموهما على الحرمين المنيفين وانكم جهزتم كاتبكم الفقيه الاجل الاسنى الاسمى أبا المجد ابن كاتبكم أبي عبد الله بن أبي مدين أعزه الله لتفقد أحوالهما والنظر في أمر أوقافهما فقد وصل المذكور بمن معه في حرز السلامة وأكرمنا نزلهم وسهلنا بالترحيب سبلهم وجمعنا على بذل الاحسان اليهم شملهم وحضر المذكور بين أيدينا وقربناه وسمعنا كلامه وخاطبناه وأمرنا في أمر المصحفين الشريفين بما أشرتم ورسمنا النواب في توخي أوقافهما بما ذكرتم وهذا الوقف المبرور جار على أحسن عادة ألفها وأثبت قاعدة عرفها مرعي الجوانب محمي المنازل والمضارب آمن من ازالة رسمه أو ازالة حكمه بدره أبدا في مطالعتمه وزهره دائما يرقص في كمه لا يزداد الا تخليدا ولا اطلاق ثبوته الا تقييدا ولا عنق اجتهاده الا تقليدا جريا على قاعدة أوقاف ممالكنا وعادة تصرفاتنا في مسالكنا وله مزيد الرعاية وافادة الحماية ووفادة العناية ﴿وأما﴾ ماوصفتموه من أمر الجزيرة الخضراء وما لاقاه أهلها ومني به من الكفار حزنها وسهلها فانه شق علينا سماعه الذي أنكى أهل الايمان وعذبه نوب الزمان كل قلب بانامل الخفقان وطالما فزتم بالظفر ورزقتم النصر على عدوكم فجر ذيل الهزيمة وفر ولكن الحرب سجال وكل زمان لدوائره دولة ولرجاته رجال ولو أمكنت المساعدة لطارت بنا اليكم عقبان الجياد المسومة وسالت على عدوكم أباطحهم بقسينا المعوجة وسهامنا المقومة وكحلنا عين النجوم بمراود الرماح وجعلنا الليل العجاج مزقا ببروق الصفاح واتخذنا رؤسهم لصوالح القوائم كرات وفرجنا مضايق الحرب بتوالي الكرات وعطفنا عليهم الاعنة وخضنا جداول السيوف ودسنا شوك الاسنة وفلقنا الصخرات بالصرخات وأسلنا العبرات بالزعبات ولكن أين الغاية من هذا المدى المتطاول وأين الثريا من يد المتناول وما نا غير امدادكم بجنود الدعاء الذي نرفعه نحن ورعايانا والتوجه الصادق الذي تعرفه ملائكة القبول من سجايانا ﴿وأما﴾ مافقدتموه من الاجفان التي طرقها طيف الاتلاف وأتم حوم فنائها الفناء وطاف به بعد الالطاف فقد روع هذا الخبر قلب الاسلام ونوع له الحزن على اختلاف الاصباح والاظلام وهذه الدار ما يخلو صفوها من كدر القدر وطالما أنامت بالأمن أول الليل وخاطبت بالخطب في السحر ولكن في بقائكم مايسلي عن خطب العطب ومع سلامة نفسكم الكريمة فالامر هين لان الدر يفدى بالذهب ﴿وأما﴾ ما رأيتموه من الصلح فرأي عقده مبارك وأمر مافيه فارط عزم وان كان فيتدارك والامر يجيء كما يجب لا كما نحب والحروب يزورها نصرها تارة ويغب مع اليوم غدا وقد يرد الله الردا ويعيد الظفر بالعدا ﴿وأما﴾ عودكم الى فاس المحروسة طلبا الاراحة من عندكم من الجنود وتجهيز لمن يصل من عندكم الى الحجاز الشريف من الوفود فهذا أمر ضروري التدبير سروري التثمير لان النفوس تمل وتبر المهاد فكيف ملازمة صهوات الجياد وتسأم من مجالسة الشرب فكيف بممارسة الحرب وتعرض عن دوام اللذة فكيف بمباشرة المنايا الفذة وهذا جبل طارق الذي فتح الله به عليكم وساق هدي هديته اليكم لعله يكون سببا الى ارتجاع ماشرد وحسم لهذا الطاغية الذي مرد وردا لهذا النازل الذي كدر ورد الصبر لما ورد فعادة الالطاف بكم معروفه وعزماتكم الى جهات الجهاد مصروفه وقد تفاءلنا لكم من هذا الجبل بأنه طارق خير من الرحمن يطرق وجبل يعصم من سهم يمر من قسي الكفار ويمرق ﴿وأما﴾ ما بعثتموه من الخيل العتاق والملابس التي تطلع بدور الوجوه من مشارق الاطواق والاموال التي زكت عند الله تعالى ونمت على الانفاق فعلى الله عز وجل خلفها ولكم في منازل الدنيا والآخرة سرفها وشرفها واليكم تساق هدايا أثنيتها وتحفكم تحفها واذا وصل وفدكم الحاج وأنار له بوجه اقبالنا عليهم ليلهم الداج كانوا مقيمين تحت ظل أكرامنا وشمول اسعافنا لهم وانعامنا

يتحولون تحفا أنتم سببها ويتداولون طرفا فى كؤس الاعتناء بهم ينضد حببها واذا كان أوان الرحيل الى الحج فسحنا لهم الطريق وسهلنا لهم الرفيق وبلغناهم بحول الله تعالى مناهم من منى وسؤلهم ممن اذا زاروا حجراته الشريفة حازوا الراحة من العناء وفازوا بالغنى واذا عادوا عاملناهم بكل جميل ينسيهم مشقة ذلك الدرب ويخيل اليهم أن لا مسافة لمسافر بين الشرق والغرب وغمرناهم بالاحسان فى العود اليكم وأمرناهم بما ينهونه شفاها لديكم وعناية الله تعالى تحوط ذاتكم وتوفر لأخذ الثار حماتكم وتخصكم بتأييد تنزلون روضه الانضر وتجنون به ثمر النصر اليانع من ورق الحديد الاخضر وتحفكم بسعد لا يبلى قشيبه وعز لا يحوش بابه مشيبه وتحيته المباركة تغاديكم وتراوحكم وتفاوحكم أنفاسها المعتبرة وتنافحكم عنه وكرمه فى سادس شهر رمضان سنة خمس وأربعين وسبعمائة ﴿قال ابن خلدون﴾ ثم شرع السلطان أبو الحسن بعد استيلائه على افريقية كما ذكره فى كتب نسخة أخرى من المصحف الكريم ليوقفها ببيت المقدس فلم يقدر اتمامها وهلك قبل فراغه من نسخها اه وهو يقتضى ان السلطان المذكور ما كتب سوى مصحفين اثنين ويؤيده ظاهر الكتابين المسرودين آنفا مع انه تقدم النقل عن الشيخ أبى العباس المقرى أنه وقف على النسخة الموقوفة ببيت المقدس والله تعالى أعلم بحقيقة الامر

## ﴿هدية السلطان أبى الحسن الى ملك مالى من السودان المجاورين للمغرب﴾

اعلم ان أرض السودان المجاورة للمغرب تشتمل على ممالك منها مملكة غانة ومنها مملكة مالى ومنها مملكة كاغوا ومنها مملكة برنوا وغير ذلك وكان ملك مالى وهو السلطان منسا موسى بن أبى بكر من أعظم ملوك السودان فى عصره ولما استولى السلطان أبو الحسن على المغرب الاوسط وغلب بنى زيان على ملكهم عظم قدره وطال ذكره وشاعت أخباره فى الآفاق فسما هذا السلطان وهو منسى موسى الى مخاطبة السلطان أبى الحسن وكان مجاور المملكة المغرب على نحو مائة مرحلة فى القفر فاوفد عليه جماعة من أهل مملكته مع ترجمان من الملثمين المجاورين لبلادهم من صنهاجة فوفدوا على السلطان أبى الحسن فى سبيل التهنئة بالظفر فأكرم وفادتهم وأحسن مثواهم ومنقلبهم ونزع الى مذهبه فى الفخر فانتخب طرفا من متاع المغرب وماعونه وشيأ من ذخيرة داره وأسنى الهدية وعين رجالا من أهل دولته كان فيهم كاتب الديوان أبو طالب بن محمد بن أبى مدين ومولاه عنبر الخصى فاوفدهم بها على ملك مالى منسا سليمان لهلاك أخيه موسى قبل مرجع وفده وأوعز الى اعراب الفلاة من بنى معقل بالسير معهم ذاهبين وجائين فشمر لذلك على بن غانم أمير أولاد جرار من معقل وصحبهم فى طريقهم امتثالا لامر السلطان وتوغل ذلك الركب فى القفر الى بلد مالى بعد الجهد وطول الشقة فأحسن منسا سليمان مبرتهم وأعظم موصلهم وأكرم وفادتهم ومنقلبهم وعادوا الى مرسلهم فى وفد من كبار مالى يعظمون السلطان أبا الحسن ويوجبون حقه ويؤدون طاعته ويذكرون من خضوع مرسلهم وقيامه بحق السلطان أبى الحسن واعتماله فى مرضاته ما استوصاهم به ﴿واعلم﴾ ان منسا موسى الذى ذكرناه كان من كبار الملوك كما قلنا وهو الذى صحبه أبو اسحق الساحلى المعروف بالطويجن من شعراء الاندلس كان قد لقيه فى الموسم بعرفة فحلى بعينه وحظيت منزلته عنده فصحبه الى بلاده وأقام عنده مصحوبا بالبر والكرامة وبنى للسلطان المذكور قبة رائعة فازدادت حظوته عنده ﴿قال ابن خلدون﴾ أطرف أبو اسحق الطويجن السلطان منسا موسى ببناء قبة مربعة الشكل استفرغ فيها اجادته وكان مناع اليدين وأضفى عليها من الكلس ووالى عليها بالاصباغ المشبعة فجاءت من أتقن المبانى ووقعت من السلطان منسا موسى موقع الاستغراب لفقدان صنعة البناء بأرضهم ووصله باثنى عشر ألفا من مثاقيل التبر مثوبة عليها اه وكانت وفاة أبى اسحق بتنبكتو يوم الاثنين السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة

سبع وأربعين وسبعمائة

## ﴿مصاهرة السلطان أبي الحسن ثانيا مع السلطان أبي بكر الحفصي رحمهما الله﴾

قد تقدم لنا ما كان من وقعة طريف وانه هلك فيها حرم السلطان أبي الحسن من جلتهن فاطمة بنت السلطان أبي بكر الحفصي فلما افتقدها أبو الحسن بقي في نفسه منها حنين الى ماشغفته به من خلالها ولذاذة العيش في عشرتها فسما أمله الى الاعتياض عنها ببعض أخواتها فأوفد في خطبتها وليه عريف بن يحيي أمير عرب سويد من بني زغبة الهلاليين وكاتب الجباية والعسكر بدولته أبا الفضل بن محمد بن أبي مدين وفقيه الفتوى بمجلسه أبا عبد الله محمد بن سليمان السطي ومولاه عنبر الخصي فوفدوا على السلطان أبي بكر سنة ست وأربعين وسبعمائة فأنزلهم منزل البر والكرامة ثم دس اليه حاجبه أبو محمد عبد الله بن تافراجين عرض وفادتهم وانهم قدموا خاطبين بعض كرائم السلطان فأبى من ذلك صونا لحرمه عن جولة الاقطار وتحكم الرجال مثل ما وقع في ابنته الاولى فلم يزل حاجبه المذكور يخفض عليه الشان ويعظم عليه حق السلطان أبي الحسن في رد خطبته مع ما بينهما من الصهر السابق والمخالصة القديمة والعهود المتأكدة الى ان أجاب وأسعف وجعل ذلك للحاجب المذكور فانعقد الصهر بين السلطانين على ابنته عزونة شقيقة ابنه أبي العباس الفضل بن أبي بكر صاحب بونة وأخذ الحاجب في شوار العروس وتأنق فيه واحتفل واستكثر وطال مقام الرسل بتونس الى ان استكمل الجهاز فارتحلوا منها في ربيع سنة سبع وأربعين وسبعمائة وأوعز السلطان أبو بكر الى ابنه الفضل شقيق العروس المذكورة أن يزفها على السلطان أبي الحسن قياما بحقه وبعث من بابه بجماعة من مشيخة الموحدين فوفدوا جميعا على السلطان أبي الحسن واتصل بهم الخبر في طريقهم بوفاة السلطان أبي بكر فجأة ليلة الاربعاء ثاني رجب من السنة المذكورة فعزاهم السلطان أبو الحسن عنه عندما وصلوا اليه واستبلغ في اكرامهم وأجمل موعد أخيها الفضل بسلطانه ومظاهرته على تراث أبيه فاطمأنت به الدار عند السلطان أبي الحسن الى ان سار في جملته وتحت لوائه الى افريقية كما نذكره ان شاء الله

## ﴿غزو السلطان أبي الحسن افريقية واستيلاؤه على تونس وأعمالها﴾

كان السلطان أبو بكر الحفصي رحمه الله قد عهد بالامر بعده لابنه أبي العباس أحمد وكان أوفد على السلطان أبي الحسن حاجبه أبا القاسم بن عتو في غرض له وأصحبه كتاب العهد الى السلطان المذكور ليوافق عليه فوقف عليه السلطان أبو الحسن وكتب على حاشيته بخطه ووافق عليه رحمه الله وأحكم العقد في ذلك ولما مات السلطان أبو بكر كان ولي العهد غائبا عن الحضرة فبايع أبو محمد بن تافراجين لابنه عمر ﴿ذكر الشيخ أبو العباس الونشريسي في أقضية المعيار﴾ عن الشيخ ابن عرفة ان سلطان افريقية أبا بكر الحفصي كتب العهد لولده أحمد فلما توفي السلطان المذكور أحضر أبو محمد بن تافراجين قاضي تونس قاضي الجماعة أبا عبد الله محمد بن عبد السلام وقاضي الانكحة أبا عبد الله الاجمي وأمرهما أن يبايعا ولد الخليفة عمر فقالا كيف نبايعه ونحن شاهدنا بيعة أخيه أحمد والتزمناها وكان الحاجب ابن تافراجين نبيلا فلما رأى امتناعهما قال ادخلا دار السلطان واشتغلا بغسله وتكفينه فلما دخلا أحضر الحاجب المذكور أهل العقد والحل وأمرهم ان يبايعوا عمر فبايعوه فلما خرج القاضيان وجدا البيعة قد حصلت وكان في انتظار أحمد المشهود له بالعهد وهو غائب بقفصة خوف الفتنة فبايع القاضيان وكان ابن عرفة يستصوب فعل الحاجب وامتناع القاضيين أولا وبيعتهما ثانيا ثم قدم ولي العهد ووقع بينه وبين أخيه قتال وجرت خطوب كان في آخرها قتل ولي العهد وقتل وليه أبي الهول بن حمزة أمير الكعوب من عرب سليم في آخرين منهم وقطع عمر أيضا أخويه عبد العزيز وخالدا من خلاف فهلكا وكان الحاجب أبو محمد

ابن تافراجين قد أحس بالشر من جهة عمر المتغلب وتوقع النكبة من جانبه فتسلل الى قصره وأخذ ماخف من ذخيرته ولحق بالسلطان أبي الحسن وقص عليه الخبر وأغراه بتملك افريقية وأوجب عليه النظر للمسلمين فيها وكان السلطان أبو الحسن يتمنى ذلك لولا مكان صهره أبي بكر فاقام يتحين لها الاوقات ويترقب لها الفرص حتى كانت هذه وانما تنجع المقالة في المرء اذا صادفت هوى في الفؤاد فأظهر أبو الحسن الامتعاض لما فعله عمر باخيه ولي العهد من منعه من حقه أولا ثم اراقة دمه ثانيا لاسيما وقد كان أعطى خط يده بالموافقة على العهد المذكور فاجمع الحركة الى افريقية ولحق به خالد بن حمزة بن عمر أخو أبي الهول المقتول مع ولي العهد فاستعداه على عدوه ففتح السلطان أبو الحسن ديوان العطاء ونادى في الناس بالمسير الى افريقية وأزاح عللهم وعسكر بظاهر تلمسان ثم نهض في صفر من سنة ثمان وأربعين وسبعمائة يجر الدنيا باجلت بعد ان عقد لابنه الامير أبي عنان على المغرب الاوسط وعهد اليه بالنظر في أموره كافة وجعل اليه جبايته وقدمت عليه في طريقه اعراب افريقية وولاة قابس وبلاد الجريد وأطاعته طرابلس والزاب وبجاية وصاحبها يومئذ أبو عبد الله محمد بن أبي زكرياء بن أبي بكر ولما وصل الى قسنطينة خرج اليه أبناء الامير أبي عبد الله بن أبي بكر فبايعوه فاقبل عليهم وصرفهم الى المغرب وأنزلهم بوجدة وأقطعهم جبايتها وأنزل بقسنطينة خلفاءه وعماله وقد كان صرف أبا عبد الله صاحب بجاية الى ندرومة فانزله بها وأقطعه الكفاية من جبايتها ثم وفد عليه بنو حمزة بن عمر أمراء الكعوب من سليم فاخبروه باجفال عمر المتغلب بتونس مع ظاعنة أولاد مهلهل واستحثوه في اعتراضهم قبل لحاقهم بالقفر فسرح معهم العساكر في طلبه لتظرحوا ابن يحيى العسكري وتلوم السلطان أبو الحسن بقسنطينة وعرض جيوشه بسطح الجعاب منها ثم ارتحل على أثرهم وأغذ جوابن يحيى السير مع ناجعة أولاد أبي الليل فلحقوا بعمر صاحب تونس بارض الحامة من ناحية قابس فدافعوا عن أنفسهم بعض الشئ ثم انهزموا وكبا بعمر جواده في نافقاء بعض اليرابيع وانجلى الغبار عنه وعن مولاه ظافر راجلين فتقبض عليهما وأوثقهما قائد العسكر بيده حتى اذا جن الليل ذبحهما خوفا من ان تفتكهما العرب من يده وبعث برؤسهما الى السلطان أبي الحسن فوصلا اليه بباجية وخلص الفل من تلك الوقعة الى قابس فتقبض عبد الملك بن مكي صاحبها على رجالات من أهل الدولة كان فيهم أبو القاسم بن عتو من مشيخة الموحدين وصخر بن موسى من رجالات سدويكش وغيرهما من أعيان الدولة فبعثهم ابن مكي الى السلطان أبي الحسن مقرنين في الاصفاد فأما ابن عتو وصخر بن موسى وعلي بن منصور فقطعهم من خلاف لفتيا الفقهاء بحرابتهم واعتقل الباقي وسرح السلطان عساكره الى تونس وعقد عليهم لصهره على ابنته يحيى بن سليمان من بني عسكر فاحتلوا بتونس ثم جاء السلطان على أثرهم فنزل بظاهرها يوم الاربعاء الثامن من جمادى الآخرة من سنة ثمان وأربعين وسبعمائة وتلقاه وفد تونس وشيوخها من أهل الفتيا وأرباب الشورى فآتوه طاعتهم وانقلبوا مسرورين بولايته مغتبطين بملكته وكانت تونس يومئذ مشحونة بالاعلام الاكابر منهم ابن عبد السلام وابن عرفة وابن عبد الرفيع وابن راشد القفصي وابن هرون وأعلام آخرون ثم عبا السلطان أبو الحسن يوم السبت مواكبه لدخول الحضرة فصف جنوده سماطين من معسكره بسيجوم الى باب البلد نحو أربعة أميال وركبت بنو مرين في مراكزهم من جوعهم وتحت راياتهم وركب السلطان من فسطاطه وعن يمينه وليه عريف بن يحيى كبير سويد ويليه أبو محمد عبد الله بن تافراجين وعن يساره الامير أبو عبد الله محمد بن أبي زكرياء وهو أخو السلطان أبي بكر ويليه الامير أبو عبد الله ابن أخيه خالد كانا معتقلين بقسنطينة فاطلقهما السلطان أبو الحسن وصحبوه الى تونس فكانوا طراز ذلك الموكب فيمن لا يحصى من أعياص بني مرين وكبرائهم وهدرت طبوله وخفقت راياته وكانت يومئذ نحو المائة وجاء السلطان والمواكب تجتمع عليه صفا صفا

الى ان وصل الى البلد وقد ماجت الارض بالجيوش ﴿قال ابن خلدون﴾ وكان يوما لم يرمثله فيما عقلناه ﴿قلت﴾ كان سن ابن خلدون يومئذ ست عشرة سنة لانه ولد غرة رمضان سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة وكان قدم فى جملة السلطان أبى الحسن جماعة كبيرة من أعلام المغرب كان يلزمهم شهود مجلسه ويتجمل بمكانهم فيه ثم دخل القصر الخلافى وخلع على أبى محمد بن تافراجين وقرب اليه فرسا بسرجه ولجامه وطعم الناس بين يديه وانتشروا الى منازلهم ثم دخل السلطان أبو الحسن مع ابن تافراجين الى حجر القصر ومساكن الخلفاء فطاف عليها ودخل منها الى الرياض المتصلة بها المدعوة برأس الطابية فطاف على تلك البساتين وسرح نظره فيها واعتبر بحالها ثم أفضى منها الى معسكره وأنزل يحيى بن سليمان بقصبة تونس فى عسكر لحمايتها ثم ارتحل من الغد الى القيروان فجال فى نواحيها ووقف على آثار الاولين ومصانع الاقدمين والطلول الماثلة لصنهاجة والعبيديين والتمس البركة فى زيارة القبور التى تذكر للصحابة والسلف من التابعين والاولياء فى ساحتها ثم سار الى سوسة ثم الى المهدية ووقف على ساحل البحر منها وتطوف فى معالمها ونظر فى عاقبة الذين كانوا من قبله أشد قوة وآثارا فى الارض واعتبر باحوالهم ومر فى طريقه بقصر الاجم ورباط المنستير وانكفأ راجعا الى تونس فاحتل بها غرة رمضان من السنة وأنزل المسالح على ثغور افريقية وأقطع بنى مرين البلاد والضواحى وأمضى اقطاعات العرب التى كانت لهم من قبل الحفصيين واستعمل على الجهات وخفتت الاصوات وسكنت الدهماء وانقبضت أيدى أهل الفساد وانقرض أمر الحفصيين فى هذه المدة الا انه عقد على بونة لصهره الفضل ابن السلطان أبى بكر اكراما لصهره ووفادته عليه واتصلت ممالك السلطان أبى الحسن ما بين مسراتة الى السوس الاقصى من هذه العدوة والى رندة من عدوة الاندلس ودخل المغرب بأسره فى طاعته وحذر ملوك مصر والشام ماشاع من بسطته وانفساح دولته ونفوذ كلمته والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين وقد كان الشعراء رفعوا اليه قصائد فى سبيل التهنئة بالفتح وكان سابق الحلبة يومئذ أبو القاسم الرحوى فى قصيدة يقول فى مطلعها

أجابك شرق اذ دعوت ومغرب * فمكة هشت للقاء ويثرب

وهى طويلة تخطيناها اختصارا والله تعالى ولى التوفيق عنه

## ﴿انتقاض عرب سليم بافريقية على السلطان أبى الحسن وما نشأ عن ذلك﴾

قد تقدم لنا عند الكلام على العرب الداخلين الى المغرب ان جمهورهم كان من بنى جشم بن معاوية ابن بكر وبنى هلال بن عامر بن صعصعة وبنى سليم بن منصور وان الذين بقوا منهم بافريقية هم بنو سليم وبعض هلال وكان لهم استطالة على الدول واعتزاز عليها فكان ملوك الحفصيين يتألفونهم بالولايات والاقطاعات ونحو ذلك وكان السلطان أبو الحسن المرينى حاله مع عرب المغرب الاقصى غير حال الحفصيين مع عرب افريقية وملكته لاهل باديته غير ملكتهم لاهل باديتهم فلما ورد افريقية واستولى عليها رأى من اعتزاز العرب بها على الدولة وكثرة اقطاعاتهم من الضواحى والامصار ما تجاوز الحد المعتاد عنده فانكر ذلك وضرب على أيديهم وعوضهم عنه باعطيات فرضها لهم فى الديوان من جملة الجند واستكثر جبايتهم فنقصهم الكثير منها ثم شكا اليه الرعية من أولئك العرب وما ينالونهم به من الظلامات وضرب الاتاوة التى يسمونها الخفارة فقبض أيديهم عن ذلك كله وتقدم الى الرعايا بمنعهم منها فارتابت العرب لذلك وفسدت ضمائرهم وثقلت وطأة الدولة المرينية عليهم فتربصوا بها وتحزبوا لها وتعاوت ذئابهم فى بواديهم فاجتمعوا وأغاروا على قياطين بنى مرين ومسالحهم فى ثغور افريقية حتى انهم أغاروا على ضواحى تونس فاستاقوا الظهر الذى كان فى مرعاها والسلطان يومئذ بها فعظم عليه ذلك وحقد على كبرائهم وأظلم الجو بينه وبينهم ثم وفد عليه أيام الفطر من رجالاتهم خالد بن حمزة أمير بنى كعب

وأخوه أحمد وخليفة بن عبد الله من بني مسكين وابن عمه خليفة بن أبي زيد من أولاد القوس فأنزلهم السلطان أبو الحسن وأجمل لقاءهم مغضيا عما صدر من غوغائهم ثم رفع اليه عبد الواحد بن اللحياني من أولاد الملوك الحفصيين انهم بعثوا اليه مع بعض حاشيته يطلبون منه الخروج معهم لينصبوه للامر بافريقية وانه خشي على نفسه بادرة السلطان فتبرأ اليه من ذلك فقامت قيامة السلطان أبي الحسن عند سماعه ذلك فاحضرهم وأحضر الحفصي معهم وقرره بما دار بينه وبينهم فبهتوا وأنكروا فوبخهم وأمر بهم فسحبوا الى السجن ثم فتح ديوان العطاء وعرض الجند لغزوهم وعسكر بسيجوم من ظاهر تونس وذلك بعد قضاء نسك الفطر من سنة ثمان وأربعين وسبعمائة واتصل الخبر باولاد أبي الليل وأولاد القوس باعتقال وفدهم وجمع السلطان لغزوهم فضاقت عليهم الارض بما رحبت وانطلقوا في احيائهم يحزبون الاحزاب ويستثيرون الثوار وعطفوا على أعدائهم من أولاد مهلهل فوصلوهم بعد القطيعة وكانوا بعد مقتل سلطانهم عمر بن أبي بكر قد لحقوا بالقفر خوفا من أبي الحسن لانهم كانوا شيعة لعمر المذكور فلما وقع بين أبي الحسن وبين أولاد أبي الليل ما وقع ركب قتيبة بن حمزة اليهم ومعه أمه ونساء أولاده فتطارحوا عليهم ورغبوا اليهم في الاجتماع معهم على الخروج على السلطان ومنابذته فكان أولاد مهلهل اليها مسرعين فارتحلوا معهم وتوافت أحياء سليم من بني كعب وبني حكيم بتوزر من بلاد الجريد فتذامروا وتصافوا وأهدروا الدماء بينهم وتبايعوا على الموت وصاروا نفسا واحدة على تباين أغراضهم وفساد ذات بينهم والتمسوا من أعياص الملك من ينصبونه للامر فدلهم بعض سماسرة الفتن على رجل من بني عبد المؤمن وهو أحمد بن عثمان بن أبي دبوس آخر ملوك بني عبد المؤمن وكان يحترف بالخياطة في توزر بعد ما طوحت به الطوائح فانطلقوا اليه وجاؤا به ونصبوه للامر وجمعوا له شيأ من الفساطيط والخيل والآلات والكسوة وأقاموا له رسم السلطان وعسكروا عليه بقياطينهم وحللهم وتحالفوا على نصره ولما قضى السلطان أبو الحسن نسك عيد الاضحى من السنة المذكورة ارتحل من ساحة تونس يريد العرب فوافاهم بالموضع المعروف بالثنية بين بسيط تونس وبسيط القيروان فاجفلوا أمامه فاتبعهم وألح عليهم الى ان وصلوا الى القيروان فلما رأوا ان لا ملجأ لهم منه عزموا على الثبات له وتحالفوا على الاستماتة وكان عسكر السلطان أبي الحسن يومئذ مشحونا باعدائه من بني عبد الواد المغاوين على ملكهم ومغراوة وبني توجين وغيرهم فدسوا الى العرب أثناء هذه المناوشة بان يناجزوا السلطان غدا حتى يتحيزوا اليهم ويجروا عليه الهزيمة فاجابوهم الى ذلك وصبحوا معسكر السلطان من الغد فركب اليهم في التعبية ولما تقابلوا تحيز اليهم الكثير ممن كان معه واختل مصافه فانهزم هزيمة شنعاء وبادر الى القيروان فدخلها فيمن معه من الفل مستجيرا بها ودافع عنه أهلها وتسابقت العرب الى معسكره فانتهبوه بما فيه من المضارب والعدد والآلات ودخلوا فسطاط السلطان فاستولوا على ذخيرته والكثير من حرمه وأحاطوا بالقيروان وزحفت اليها حللهم فدارت بها سياجا واحدا وتعاوت ذئابهم باطراف البقاع وأجلب ناعق الفتنة منهم بكل قاع واضطرمت افريقية نارا وكانت الهزيمة يوم الاثنين سابع محرم من سنة تسع وأربعين وسبعمائة وبلغ الخبر الى تونس وكان السلطان قد خلف بها عند رحيله الكثير من أبنائه وحرمه ووجوه قومه وأمناء بيت ماله وبعض الحاشية من جنده فتحصنوا بالقصبة وأحاط بهم الغوغاء كي يستنزلوهم عنها فامتنعوا عليهم وكانوا بها أملك منهم وكان الامير أبو سالم ابراهيم ابن السلطان أبي الحسن قد جاء من المغرب في هذا التاريخ فوافاه الخبر قرب القيروان فانفض معسكره ورجع الى تونس فكان معهم في القصبة ثم نزع أبو محمد بن تافراجين عن السلطان أبي الحسن وكان محصورا معه بالقيروان وكان قد سئم صحبته وملّ خدمته لانه كان أيام حجابته للسلطان الحفصي مستبدا عليه مفوضا اليه في جميع أموره فلما استوزره

السلطان

السلطان أبو الحسن لم يجره على تلك العادة لانه كان قائما على أموره بنفسه وليس التفويض للوزراء من شأنه وكان ابن تافراجين يظن انه سيكل اليه أمر افريقية وينصب معه لملكها الفضل ابن السلطان أبي بكر شقيق زوجته وربما زعموا انه عاهده على ذلك فكان في قلبه من الدولة المرينية مرض وكان العرب أيام عزمهم على الخروج يفاوضونه بذات صدورهم فلما حصلوا على البغية من الظهور على السلطان وحصاره بالقيروان احتالوا في أمر ابن تافراجين فبعثوا الى السلطان يطلبون منه بعثه اليهم ليفاوضوه في الرجوع الى الطاعة والانخراط في سلك الجماعة فاذن له فخرج اليهم ووصل يده بيدهم ولم يرجع الى السلطان أبي الحسن فقلدوه حجابة سلطانهم ابن أبي دبوس ثم سرحوه الى حصار من بالقصبة من بني مرين وطمعوا في الاستيلاء عليها وفض ختامها فسار ابن تافراجين اليها وانضم اليه أشياخ الموحدين في زعانف من الغوغاء وأحاطوا بالقصبة ثم لحق به ابن أبي دبوس فعاودوها القتال ونصبوا عليها المجانيق فامتنعت عليهم ولم يغنوا شيأ وابن تافراجين في أثناء ذلك يحاول الفرار بنفسه لاضطراب الامور واختلال الرسوم الى ان بلغه خلوص السلطان أبي الحسن من القيروان الى سوسة وكان من خبره ان العرب بعد حصارهم اياه بالقيروان اختلفت كلمتهم لديه وكان قد داخل أولاد مهلهل في الافراج عنه واشترط لهم على ذلك أموالا ونذر بنو أبي الليل بذلك فاضطربت كلمتهم ودخل عليه قتيبة بن حمزة منهم بمكانه من القيروان زعيما بالطاعة فتقبله وأطلق أخويه خالدا وأحمد ومع ذلك فلم يطمئن اليهم ثم جاء اليه محمد بن طالب من أولاد مهلهل وخليفة بن أبي زيد وأبو الهول بن يعقوب من أولاد القوس وعاهدوه على الافراج عنه والقيام معه حتى يصل الى مأمنه فخرج معهم ليلا على التعبية وذؤبان العرب تطأ أذياله وضباعها تنوشه الى ان استقر بسوسة وأمن على نفسه وقد أتى النهب على جل ما كان معه ولما سمع ابن تافراجين وهو محاصر للقصبة بوصول السلطان الى سوسة تسلل من أصحابه وركب البحر الى الاسكندرية فاصبحوا وقد فقدوه فاضطرب أمرهم وارتاب سلطانهم ابن أبي دبوس لما علم بخبره فانفض جمعهم عن القصبة وأفرجوا عنها وخرج بنو مرين فاكتسحوا البلد وخربوا منازل الحاشية بها ثم ركب السلطان أبو الحسن من سوسة البحر فاحتل بتونس في ربيع الآخر سنة تسع وأربعين وسبعمائة فاجتمع شمله واستتب أمره وكتب الى صاحب مصر في التقبض على ابن تافراجين فأجاره بعض الامراء وانصرف لقضاء فريضة الحج واعتمل السلطان أبو الحسن في اصلاح أسوار تونس وادارة الخندق عليها وأقام لها من الصيانة والحصانة رسما دفع به في نحر عدوه وبقي له ذكره من بعده ثم أجلب العرب وسلطانهم ابن أبي دبوس على تونس ونازلوا أبا الحسن بها واستبلغوا في حصاره وخلصت ولاية أولاد مهلهل للسلطان فعول عليهم ثم راجع بنو حمزة بصائرهم وصاروا الى مهادنته فعقد لهم السلم ودخل عليه عمر بن حمزة وافدا فحبسه حتى قبض اخوانه على أميرهم ابن أبي دبوس وقادوه اليه استبلاغا في الطاعة وامحاضا للولاية فتقبل فيئتهم وأودع ابن أبي دبوس السجن وعقد الصهر بينه وبين عمر بن حمزة فزوج ابنة عمر بابنه أبي الفضل واختلفت أحوال هؤلاء العرب على السلطان أبي الحسن في الطاعة تارة والانحراف أخرى مدة اقامته بتونس الى ان كان ما نذكره والله غالب على أمره

## (انتقاض الاطراف وثورة أبي عنان ابن السلطان أبي الحسن واستيلاؤه على المغرب)

قد تقدم لنا ان السلطان أبا بكر الحفصي رحمه الله لما زوج ابنته من السلطان أبي الحسن بعث معها في زفافها شقيقها أبا العباس الفضل بن أبي بكر وان خبر وفاة والده أدركه وهو بالطريق ولما وصل الى السلطان أبي الحسن عزاه عن مصاب أبيه ووعده بالمظاهرة على ملكه فبقي عنده بتلمسان الى ان نهض في صحبته الى افريقية فلما غلب السلطان أبو الحسن على بجاية وقسنطينة وارتحل الى تونس عقد له على بونة التي كان يلي عملها أيام أبيه فانقطع أمله وفسد ضميره وطوى على البث حتى اذا كانت نكبة القيروان

سما الى التوثب على ملك سلفه وكان أهل قسنطينة وبجاية قد سئموا ملكة بنى مرين وبرموا ولا بتهم لمخالفتهم بعض العوائد التى كانت لهم مع الملوك الحفصيين ولان الصبغة الحفصية كانت قد رسخت فى نفوسهم جيلا بعد جيل فصعب عليهم نزعها

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى * ما الحب الا للحبيب الاول

كم منزل فى الارض يألفه الفتى * وحنينه أبدا لاول منزل

فاشرأبوا الى الثورة على المرينيين لما سمعوا بنكبة القيروان واتفق أن قدم قسنطينة ركب من أهل المغرب قاصدين الى السلطان أبى الحسن وكان فيهم عمال الجباية قدموا بجبايتهم عند رأس الحول كما جرت به عادتهم فى ذلك ومعهم ابن صغير للسلطان اسمه عبد الله وفيهم وفد من رؤساء الفرنج بعثهم طاغيتهم بقصد التهنئة بفتح افريقية ومعهم تاشفين ابن السلطان الذى أسر يوم طريف أطلقه الطاغية بعد ان أصابه خبال فى عقله وأرسل معه بهدية نفيسة وفيهم أيضا وفد من أهل مالى بعثهم السلطان منسا سليمان بقصد التهنئة أيضا فتوافت هؤلاء الوفود بقسنطينة وقد طم عباب الفتنة على افريقية فأراد غوغاؤها انتهاب ما معهم ثم تخاصوا منهم فى خبر طويل وفى أثناء ذلك ثار الفضل ابن السلطان أبى بكر صاحب بونة فراسله أهل قسنطينة فى القدوم عليهم والقيام بأمرهم فقدمها وجرت خطوب واتصل باهل بجاية ما فعله أهل قسنطينة فتبعوهم على رأيهم من الانتقاض ووثبوا على من كان عندهم من حامية بنى مرين فاستلبوهم وأخرجوهم عراة واستدعوا الفضل بن أبى بكر من قسنطينة فبادر اليهم واستولى على بجاية واستتب أمره بها وأعاد ألقاب الخلافة وبينما هو يحدث نفسه بغزو تونس ثار عليه أبناء أخيه أبى عبد الله بن أبى بكر فانتزعوا منه بجاية وردوه الى عمله الاول وانتقض على السلطان أبى الحسن أيضا سائر زناتة من بنى عبد الواد ومغراوة وبنى توجين وبايع بنو عبد الواد لعثمان بن عبد الرحمن ابن يحيى بن يغمراسن بن زيان وساروا الى تلمسان فاستجدوا بها ملك سلفهم فى أخبار طويلة وجرت هذه الخطوب والسلطان أبو الحسن مقيم بتونس تغاديه العرب بالقتال وتراوحه وتموج عليه تارة وتستقيم أخرى وطال مقامه بها وعميت أنباؤه على أهل المغرب وحدث فى الخلق الوباء العظيم الذى عم المشرق والمغرب فارجف بموته واضطربت الاحوال بالمغارب الثلاثة الادنى والاوسط والاقصى واتصل ذلك بالامير أبى عنان وهو يومئذ بتلمسان كان أبوه قد ولاه عليها عند ذهابه الى افريقية حسبما مر فلما أرجف بهلاك أبيه وتساقط اليه الفل من عسكره عراة زرافات ووحدانا تطاول الى الاستئثار بملك أبيه دون سائر اخوته وكان مرشحا عنده لذلك لمزيد فضله عليهم فى غير وصف واتفق ان كان عنده رجل من بنى عبد الواد اسمه عثمان بن يحيى بن محمد بن جرار وكان ينسب الى علم الحدثان ولما سافر السلطان الى افريقية كان هذا الرجل أول المرجفين به وانه لا يرجع من سفرته وان الامر صائر الى أبى عنان ونجم ذلك فى أبى عنان لموافقته هواه فاشتمل على ابن جرار وخلطه بنفسه فلما ورد الخبر بنكبة السلطان وانحصاره أولا بالقيروان ثم بتونس لم يسترب أبو عنان فى صدق ابن جرار وانه على بصيرة من أمره فتحفز للوثبة وصمم على الثورة ثم أكد عزمه على ذلك ما اتصل به من خبر ابن أخيه منصور بن أبى مالك عبد الواحد بن أبى الحسن بفاس الجديد وانه ثار بها وفتح ديوان العطاء واستلحق واستركب ورام التغلب على المغرب واحتياز الامر لنفسه دون غيره وورى فى ذلك بأنه انما عزم على الذهاب الى افريقية لاستنقاذ السلطان من هوة الحصار ويسر من ذلك حسوا فى ارتغاء وتفطن لشأنه الحسن بن سليمان بن يرزيكن عامل القصبة بفاس وصاحب الشرطة بالضواحى فاستأذنه فى اللحاق بالسلطان فأذن له راحة منه فلحق بأبى عنان على حين أمضى عزيمته على التوثب فأخرج ما كان بقصر السلطان بالمنصورة من المال والذخيرة وجاهر بالدعاء لنفسه وجلس للبيعة بمجلس السلطان من قصره فى ربيع الثانى من سنة تسع

وأربعين وسبعمائة فبايعه الملأ وقرأ كتاب بيعتهم على الاشهاد ثم بايعه العامة وانفض المجلس وقد استتب سلطانه ورست قواعد ملكه وركب في التعبية والآلة حتى نزل بقبة الملعب وطعم الناس وانتشروا وعقد على وزارته للحسن بن سليمان بن يرزيكن القادم عليه ثم لفارس بن ميمون بن وردار وجعله رديفاله ورفع مكان ابن جرار عليهم كلهم واختص لمناجاته كاتبه أبا عبد الله محمد بن محمد بن أبي عمرو ثم فتح الديوان وجعل يستركب كل من تساقط اليه من فل أبيه ويخلع عليهم وارتحل الى المغرب وعقد على تلمسان لابن جرار وأنزله بالقصر القديم منها فاستمر بها واستبد الى أن قدم عليه بنو عبد الواد مجتمعين على سلطانهم عثمان ابن عبد الرحمن فقتلوه غرقا في خبر طويل ولما انتهى الامير أبو عنان الى وادي الزيتون وشي اليه بالوزير الحسن بن سليمان وانه عازم على الفتك به بتازا تقربا الى السلطان أبي الحسن ووفاء بطاعته وانه قد داخل في ذلك حافده منصور بن أبي مالك الثائر بفاس وأطلعه هذا الواشي على كتاب الوزير في ذلك فلما قرأه تقبض عليه ثم قتله خنقا في مساء ذلك اليوم وأغذ السير الى المغرب وانتهى الخبر الى منصور صاحب فاس فزحف للقائه والتقى الجمعان بوادي أبي الاجراف من ناحية تازا فاختل مصاف منصور وانهزمت جموعه ولحق بفاس الجديد فتحصن بها وتبعه أبو عنان فأناخ عليه خارجها وقد تسايل الناس على طبقاتهم اليه وآتوه طاعتهم وكان قد سلك مع الرعية والجند من البذل والاستئلاف طريقا لم يسبق اليه وكانت منازلته لفاس الجديد في ربيع الآخر من السنة المذكورة فأخذ بمخنقها وجمع الايدي والفعلة على الآلات لحصارها ثم أرسل الى مكناسة باطلاق أولاد أبي العلاء المعتقلين بالقصبة منها فأطلقوا ولحقوا به وحاصر وامعه فاسا الجديد وضيقوا عليها الى أن ضاقت أحوال أهلها واختلفت أهواؤهم ونزع الى أبي عنان أهل الشوكة منهم ثم ان ادريس بن عثمان بن أبي العلاء احتال في فتح البلد بان أظهر النزوع عن أبي عنان الى منصور المحصور فدخل البلد وتمكن منه وثار به فيمن معه من حاشيته واقتحمه الامير أبو عنان عليهم ونزل منصور على حكمه فاعتقله الى أن قتله بمحبسه واستولى على دار الملك وتسابقت اليه وفود الامصار للتهنئة بالبيعة وتمسك أهل سبتة بطاعة السلطان أبي الحسن ثم رجعوا عن ذلك وثاروا على عاملهم عبد الله بن علي بن سعيد من طبقة الوزراء فقبضوا عليه وقادوه الى أبي عنان مبايعين له متقربين به اليه وتولى كبر ذلك فيهم زعيمهم الشريف أبو العباس أحمد بن محمد بن رافع الصقلي من آل الحسين السبط رضي الله عنه كان سلفه قد انتقلوا من صقلية الى سبتة فاستوطنوها ثم استوطنوا بعدها حضرة فاس واستوسق للامير أبي عنان ملك المغرب واجتمع اليه قومه من بني مرين الا من أقام مع أبيه بتونس وفاء بحقه وحص جناح أبيه عن الكرة على بني كعب الناكثين لعهده الناكبين عن طاعته فأقام السلطان أبو الحسن رحمه الله بتونس يرجو الايام ويأمل الكرة والاطراف تنتقص والخوارج تتجدد وقنط من كان معه من حاشيته وسئموا المقام بأرض ليست لهم بدار مقام فحسنوا له النهوض الى المغرب فأسعفهم وعزم على الرحلة كما نذكره ان شاء الله وفي هذه المدة كتب اليه السلطان أبو الحجاج يوسف بن الاحمر كتابا من انشاء وزيره لسان الدين ابن الخطيب يسائله عن أحواله ويعزيه عن مصابه ويتأسف له ونص الكتاب المقام الذي أقمار سعده في انتظام واتساق وجياد عزه الى الغاية القصوى ذات استباق والقلوب على حبه ذات اتفاق وعناية الله تعالى عليه مديدة الرواق وأياديه الجمة في الاعناق ألزم من الاطواق وأحاديث مجده سمر النوادي وحديث الرفاق مقام محل أبينا الذي شان قلوبنا الاهتمام بشانه وأعظم مطلوبنا من الله تعالى سعادة سلطانه السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاه الله تعالى والصنائع الالهية تحط ببابه والالطاف الخفية تعرس في جنابه والنصر العزيز يحف بركابه وأسباب التوفيق متصلة بأسبابه والقلوب الشجية لفراقه مسرورة باقترابه معظم سلطانه الذي له الحقوق المحتومه والفواضل المشهورة المعلومه والمكارم المسطورة الموسومه

أصل الاشراف الصقليين

والمفاخر المنسوقة المنظومه الداعى الى الله تعالى فى وقاية ذاته المعصومه وحفظها على هذه الامة المرحومه الامير عبد الله يوسف ابن أمير المسلمين أبى الوليد اسمعيل بن فرج بن نصر سلام كريم طيب عميم كما سطعت فى غيهب الشدة أنوار الفرج وهبت نواسم ألطاف الله عاطرة الارج يخص مقامكم الاعلى ورحمة الله وبركاته (أما بعد) حمد الله جالى الظلم بعد اعتكارها ومقيل الايام من عثارها ومزين سماء الملك بشموسها المحتجبة وأقمارها ومريح القلوب من وحشة أفكارها ومنشى سحاب الرحمة على هذه الامة بعد افتقارها وشدة اضطرابها واضطرارها ومتداركها باللطف الكفيل بتمهيد أوطانها وتيسير أوطارها والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله صفوة النبوة ومختارها ولباب مجدها السامى ونجارها نبى الملاحم وخائض تيارها ومذهب رسوم الفتن ومطفئ نارها الذى لم ترعه الشدائد باضطراب بحارها حتى بلغت كلمة الله ماشاءت من سطوع أنوارها ووضوح آثارها والرضا عن آله وأصحابه الذين تمسكوا بعهده على احلاء الحوادث وامرارها وباعوا نفوسهم فى اعلاء دعوته الحنيفية واظهارها والدعاء لمقامكم الاعلى باتصال السعادة واستمرارها وانسحاب العناية الالهية واسدال أستارها حتى تقف الايام ببابكم موقف اعتذارها وتعرض على مثابتكم ذنوبها راغبة فى اغتفارها فانا كتبناه اليكم كتب الله تعالى لكم أوفى ما كتب لصالحى الملوك من مواهب اسعاده وعرفكم عوارف الآلاء فى اصدار أمركم الرفيع وايراده وأجرى الفلك الدوار بحكم مراده وجعل لكم العاقبة الحسنى كما وعد به فى محكم كتابه المبين الصالحين من عباده من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى وليس بفضل الله الذى عليه فى الشدائد الاعتماد والى كنف فضله الاستناد ثم ببركة جاه نبينا الذى وضح بهدايته سبيل الرشاد الا الصنائع التى تشام بوارق اللطف من خلالها وتخبر سيماها بطلوع السعود واستقبالها وتدل مخايل يمنها على حسن مآلها فلله الحمد على نعمه التى نرغب فى كمالها ونستدر عذب زلالها وعندنا من الاستبشار باتساق أمركم وانتظامه والسرور بسعادة أيامه والدعاء الى الله تعالى فى اظهاره واتمامه مالا تفى العبارة باحكامه ولا تتعاطى حصر أحكامه والى هذا أيد الله تعالى أمركم وعلاه وصان سلطانكم وتولاه فقد علم الحاضر والغائب وخلص الخلوص الذى لا تغيره الشوائب ماعندنا من الحب الذى وضحت منه المذاهب وانه لما اتصل بنا ماجرت به الاحكام من الامور التى صحبت مقامكم فيها العناية من الله والعصمه وجعل على العباد والبلاد الوقاية والنعمه لا يستقر بقلوبنا القرار ولا تتأتى باوطاننا الاوطار تشوفا لما تنتجه لكم الاقدار ويبرزه من سعادتكم الليل والنهار ورجاؤنا فى استئناف سعادتكم يشتد على الاوقات ويقوى علما بان العاقبة للتقوى وفى هذه الايام عميت الانباء وتكالبت فى البر والبحر الاعداء واختلفت الفصول والاهواء وعاقت الوارد الانواء وعلى ذلك من فضل الله الرجاء ولو كنا نجد للاتصال بكم سببا أو نلفى لاعانتكم مذهبا لما شغلنا البعد الذى بيننا اعترض والعدو بساحتنا فى هذه الايام ربض وكان خديمكم الذى رفع من الوفاء راية خافقه واقتنى منه فى سوق الكساد بضاعة نافقه الشيخ الاجل الاوفى الاود الاخلص الاصفى أبو محمد بن آجانا سنى الله مأموله وبلغه من سعادة أمركم سوله وقد ورد على بابنا وتحيز الى اللحاق بجنابنا ليتيسر له من جهتنا القدوم ويتأتى له باعانتنا الغرض المروم فبينما نحن ننظر فى تتميم غرضه واعانته على الوفاء الذى قام بمفترضه اذ اتصل بنا خبر قرقورتين من الاجفان التى استعنتم بها على الحركه والعزمة المقترنة بالبركه حطت احداهما بمرسى المنكب والاخرى بمرسى المريه فى كنف العناية الالهيه فتلقينا من الواصلين فيها الانباء المحققة بعد التباسها والاخبار التى يغنى نصها عن قياسها وتعرفنا ما كان من عزمكم على السفر وحركتكم المقرونة باليمن والظفر وانكم استخرتم الله تعالى فى اللحاق بالاوطان التى يؤمن قدومكم خائفها ويؤلف طوائفها ويسكن راجفها ويصلح أحوالها

ويذهب

ويذهب أهواء الهبا وانكم سبقتم حركتها بعشرة أيام مستظهرين بالعزم المبرور والسعد الموفور واليمن الرائق السفور والاسطول المنصور فلاتسأل واعن انبعاث الآمال بعد سكونها ونهوض طيور الرجاء من وكونها واستبشار الامة المحمدية منكم بقرة عيونها وتحقق ظنونها وارتياح البلاد الى دعوتكم التى ألبستها ملابس العدل والاحسان وقلدتها قلائد السير الحسان ومامنها الا من باح بما يخفيه من وجده وجهر بشكر الله تعالى وحمده وابتهل اليه فى تيسير غرض مقامكم الشهير وتتميم قصده واستئناس نور سعده وكم مطل الانتظار بدون آمالها والمطاولة من اعتلالها وأما نحن فلا تسألوا عمن استشعر دنو حبيبه بعد طول مغيبه انما هو صدر راجعه فؤاده وطرف ألفه رقاده وفكر ساعده مراده فلما بلغناهذا الخبر بادرنا الى انجاز مابذلنا لخديكم المذكور من الوعد واغتنمنا ميقات هذا السعد ليصل سببه بأسبابكم ويسرع لحاقه بجنابكم فعنده خدم نرجو أن ييسر الله تعالى بحوله أسبابها ويفتح بنيتكم الصالحة أبوابها وقد شاهد من امتعاضنا لذلك المقام الذى ندين له بالتشيع الكريم الوداد ونصل له على بعد المزار ونزوح الاقطار سبب الاعتداد ما يغنى عن القلم والمداد وقد ألقينا اليه من ذلك كله ما يلقيه الى مقامكم الرفيع العماد وكتبنا الى من بالسواحل من ولاتنا نحدلهم ما يكون عليه عملهم فى بر من يرد عليهم من جهة أبوتكم الكريمه ذات الحقوق العظيمه والايادى الحديثة والقديمه وهم يعملون فى ذلك بحسب المراد وعلى شاكلة جميل الاعتقاد ويعلم الله تعالى انا لولم تعق العوائق الكبيره والموانع الكثيره والاعداء الذين غصتهم فى الوقت هذه الجزيره ما قدمنا عملا على اللحاق بكم والاتصال بسببكم حتى نوفى لابوتكم الكريمة حقها ونوضح من المسرة طرقها لكن الاعذار واضحة وضوح المثل السائر والى الله تعالى نبتهل فى أن يوضح لكم من التيسير طريقا ويجعل لكم السعد مصباحا ورفيقا ولا يعدمكم عناية منه وتوفيقا ويتم سرورنا عن قريب بتعريف أنبائكم السارّه وسعودكم الدارّه فذلك منه سبحانه غاية آمالنا وفيه أعمال ضراعتنا وابتهالنا هذا ما عندنا بادرنا لاعلامكم به أسرع البدار والله تعالى يوفد علينا أكرم الاخبار بسعادة ملككم السامى المقدار وييسر ماله من الاوطار ويصل سعدكم ويحرس مجدكم والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته اه

## ﴿ركوب السلطان أبى الحسن البحر من تونس الى المغرب وماجرى عليه من المحن﴾

فى ذلك كان الامير أبو العباس الفضل ابن السلطان أبى بكر الحفصى بعد أن لحق بعمله القديم من بونة قد وفد عليه مشيخة العرب من أولاد أبى الليل وأغروه بملك افريقية والنهوض الى تونس ومحاصرة السلطان أبى الحسن بها فأجابهم الى ذلك ونهض اليها بعد عيد الفطر من سنة تسع وأربعين وسبعمائة فحاصرها مدة ثم انفض عنها ثم عاود حصارها ثم انفض عنها ودخل القفر مع أولاد أبى الليل الى ان بايعه أهل بلاد الجريد باشارة أبى القاسم بن عتو المقطوع ودخل فى طاعته توزر وقفصة ونفطة والحامة وقابس وجربة وانتهى الخبر الى السلطان أبى الحسن باستيلاء الفضل على هذه الامصار واستفحال أمره بها وأنه ناهض الى تونس فاهمه شأنه وخشى على الامر وكانت بطانته توسوس اليه بالرحلة الى المغرب لاسترجاع نعمتهم باسترجاع ملكه مع ما أصابهم بتونس من الغلاء والموت الذريع فاجابهم الى ذلك وشحن أساطيله بالاقوات وأزاح علل المسافرين ولما انقضى نسك عيد الفطر من سنة خمسين وسبعمائة ركب البحر فى فصل الشتاء وهيجان البحر وكالب البرد بعد ان عقد لابنه أبى الفضل على تونس ثقة بما بينه وبين عمر بن حمزة من المصاهرة وتفاديا بمكانه من معرة الغوغاء وثورتهم به وكانت مدة محاصرة السلطان أبى الحسن بتونس سنة ونصفا واتصل خبر رحيله بالفضل بن أبى بكر وهو ببلاد الجريد فاغذ السير الى تونس ونزل بها على أبى الفضل المرينى ومن كان معه من حاشيته وأهل دولته

ثم اقتحمها واتصلت يده بيد أهل البلد ثم أحاطوا بالقصبة يوم منى حتى استنزلوا أبا الفضل على الامان فخرج الى دار أصهاره من بنى حمزة فبقى عندهم حتى أنفذوا معه من أوصله الى أبيه فلحق به بثغر الجزائر وأما السلطان أبو الحسن وجيشه الراكب البحر معه فانهم لما لججوا احتاجوا الى الماء فدخلوا مرسى بجاية لخمس ايال من اقلاعهم عن تونس فمنعهم صاحب بجاية الحفصى من الورود وأوعز الى سائر سواحله بمنعهم فزحفوا الى الساحل وقاتلوا من صدهم عن الماء الى ان غلبوهم واستقوا وأقلعوا ثم عصفت بهم الريح فى تلك الليلة وجاءهم الموج من كل مكان وتكسرت الاجفان وغرق الكثير من بطانة السلطان وعامة الناس وقذف الموج بالسلطان فألقاه على حجر قرب الساحل من بلاد زواوة عارى الجسد مباشر الموت وقد هلك من كان معه من الفقهاء والعلماء والكتاب والاشراف والخاصة وهو يشاهد مصارعهم واختطاف الموج لهم من فوق الصخور التى تعلقوا بها فكثر الملتهم على ذلك وصبحهم جفن من بقية الاساطيل كان قد سلم من ذلك العاصف فبادر أهل الجفن اليه حين رأوه فاحتملوه وقد تصايح به البربر من الجبال وتواثبوا اليه حين وضح النهار وأبصروه فتداركه الله بهذا الجفن فاحتملوه وقذفوا به فى مدينة الجزائر ﴿وفى نفح الطيب﴾ ان أساطيل السلطان أبى الحسن كانت نحو السبعمائة فغرقت كلها ونجا هو على لوح وهلك من كان معه من أعلام المغرب وهم نحو أربعمائة عالم منهم أبو عبد الله محمد بن سليمان السطى شارح الحوفى وأبو عبد الله محمد بن الصباغ المكناسى الذى أملى فى مجلس دوسه بمكناسة على حديث يا أبا عمير ما فعل النغير أربعمائة فائدة والاستاذ الزواوى أبو العباس وغير واحد وكان غرق الاسطول على ساحل تدلس ﴿وذكر﴾ الشيخ أبو عبد الله الابى فى شرح مسلم كلامه على أحاديث العين ما معناه أن رجلا كان بتلك الديار معروفا باصابة العين فسأل منه بعض الموتورين للسلطان أبى الحسن أن يصيب أساطيله بالعين وكانت كثيرة نحو السبعمائة فنظر اليها الرجل العائن فكان غرقها بقدرة الله الذى يفعل ما يشاء ونجى السلطان بنفسه وجرت عليه محن اه ولما احتل بالجزائر وقد تمسك أهلها بطاعته استنشق ريح الحياة ولأم الصدع وأقام الرسم وخلع على من وصل اليه من فل الاساطيل واستلحق واستركب ولحق به ابنه الناصر من بسكرة والتف عليه بعض العرب من أحواز الجزائر ووفد عليه أولياؤه من عرب سويد فنهض الى جهة تلمسان وقد استولى عليها بنو زيان وسلطانهم عثمان بن عبد الرحمن فبرز اليه أبو ثابت أخو عثمان المذكور ولما التقى الجمعان اختل مصاف السلطان أبى الحسن واستبيح معسكره وانتهبت فساطيطه وقتل ابنه الناصر وظهر يومئذ من بسالته وصدق دفاعه وشدة حملاته حتى انه أركب ظعائنه وخلص محاميا عنها واحتمل ولده جريحا فتوفى بالطريق فواراه فى التراب وأخفى قبره ثم خلص الى الصحراء مع وليه ونزمار بن عريف بن يحيى السويدى ولحق بحلل قومه قبلة جبل وانشريس وأجمع أمره على قصد المغرب موطن قومه ومنبت عزه ودار ملكه فارتحل معه وليه ونزمار بالناجعة من قومه وخرجوا الى جبل راشد ثم قطعوا المفاوز الى سجلماسة فى القفر فلما أطلوا عليها وعاين أهلها السلطان تهافتوا عليه تهافت الفراش على ضوء السراج حتى خرج اليه العذارى من ستورهن ميلا اليه ورغبة فى ولايته وفر العامل بسجلماسة الى منجاته وكان الامير أبو عنان لما بلغه الخبر بقصد أبيه سجلماسة نهض اليه فى قومه وجموعه بعد ان أزاح عللهم وأفاض عطاءه فيهم وكانت بنو مرين نافرة عن السلطان أبى الحسن حاذرة من عقوبته لجنايتهم بالتخاذل فى المواقف والفرار عنه فى الشدائد ولما كان يبعدهم فى الاسفار ويجشمهم المهالك والاخطار فكانوا لذلك مجمعين على منابذته ومخلصين فى طاعة ابنه ولما اتصل خبر قدومهم بالسلطان أبى الحسن علم من حاله انه لا يطيق دفاعهم وكان ونزمار قد أجفل عنه فى قومه سويد لان أباه عريف بن يحيى كان قد نزع الى أبى عنان قبل قدوم السلطان من تونس فأكرم محله ورفع منزلته فكتب الى ابنه ونزمار ينهاه

عن ولاية السلطان أبي الحسن ومظاهرته له وأقسم له لئن لم يفارق السلطان ليوقعن بابنه عنتر وكان معه في جملة الامير أبي عنان فاستوزر ونزمار رضا أبيه وعلم ان غناءه عن السلطان في وطن المغرب قليل فأجفل عنه ولحق ببسكرة فكان بها الى ان رجع الى أبي عنان بعد هذا ولما قرب أبو عنان من سجلماسة أجفل السلطان عنها الى ناحية مراكش ودخل أبو عنان سجلماسة فثقف أطرافها وسد فروجها وعقد عليها لحيّاتن بن عمر بن عبد المؤمن كبير بني ونكاسن وبلغه ان أباه قد سار الى مراكش فاعتزم على اتباعه اليها فلم تطاوعه بنو مرين فرجع بهم الى فاس الى ان كان ما نذكره

## استيلاء السلطان أبي الحسن على مراكش ثم انهزامه عنها الى هنتانة أهل جبل درن ووفاته هنالك

لما أجفل السلطان أبو الحسن عن سجلماسة سنة احدى وخمسين وسبعمائة قصد مراكش وركب اليها الاوعار من جبال المصامدة ولما اشارفها تسارع اليه أهل جهاتها بالطاعة من كل أوب ونسلوا اليه من كل حدب وفر عامل مراكش الى أبي عنان ونزع الى السلطان أبي الحسن صاحب ديوان الجباية أبو المجد بن محمد بن أبي مدين بما كان في الخزانة من مال الجباية فاختصه واستكتبه وجعل اليه علامته واستركب واستلحق وجبى الاموال وبث العطاء ودخل في طاعته قبائل العرب من جشم وسائر المصامدة وثاب له بمراكش ملك رجى معه أن يستولى على سلطانه ويرتجع فارط أمره وكان أبو عنان لما رجع الى فاس عسكر بساحتها وشرع في العطاء وازاحة العلل ثم ارتحل في جموع بني مرين الى مراكش وبرز السلطان أبو الحسن للقائه وانتهى كل واحد من الفريقين الى وادي أم الربيع وتربص كل واحد بصاحبه عبور الوادي فعبره أبو الحسن وكان اللقاء بتامدغوست في آخر صفر من سنة احدى وخمسين وسبعمائة فاختل مصاف السلطان وانهزم عسكره ولحق به أبطال بني مرين ثم رجعوا عنه حياء وهيبة وكبى به فرسه يومئذ في مفره فسقط الى الارض والفرسان تحوم حوله فاعترضهم دونه أبو دينار سليمان بن علي بن أحمد أمير الذواودة من عرب رياح وهو رديف أخيه يعقوب كان هاجر مع السلطان من الجزائر ولم يزل في جملته الى هذا اليوم فدافع عنه حتى ركب وسار من ورائه ردأ له وأسر حاجبه علال ابن محمد فأودعه أبو عنان السجن ثم امتن عليه بعد وفاة أبيه وخلص السلطان أبو الحسن رحمه الله الى جبل هنتاتة من جبال درن ومعه كبيرهم عبد العزيز بن محمد بن علي الهنتاتي فنزل عليه وأجاره واجتمع اليه الملأ من قومه هنتاتة ومن انضاف اليهم من المصامدة وتآمروا وتعاهدوا على المدافعة عنه وبايعوه على الموت وجاء أبو عنان على أثره حتى احتل بمراكش وأنزل عساكره على جبل هنتاتة ورتب المسالح لحصاره وحربه وطال عليه ثواؤه حتى طلب السلطان من ابنه الابقاء عليه وان يبعث اليه حاجبه أبا عبد الله محمد بن محمد بن أبي عمر فحضر عنده وأحسن العذر عن الامير أبي عنان والتمس له الرضا منه فرضي عنه وكتب له بولاية عهده وأوعز اليه بان يبعث له مالا وكسى فسرح الحاجب ابن أبي عمر باخراجها من المودع بدار ملكهم واعتل السلطان خلال ذلك فمرضه أولياؤه وخاصته واقتصد لاخراج الدم ثم باشر الماء للطهارة فورم محل الفصادة ومات رحمه الله في الثالث والعشرين من ربيع الثاني سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة هكذا عند ابن خلدون وابن الخطيب وغيرهما والذي رأيته مكتوبا بالنقش على رخامة قبره بشالة ان وفاته كانت ليلة الثلاثاء السابع والعشرين من ربيع الاول من السنة المذكورة وبعث أولياء السلطان بالخبر الى ابنه وهو بعسكره من ساحة مراكش ورفعوه على أعواد نعشه اليه فتلقاه حافيا حاسرا وقبل أعواده وبكى واسترجع ورضي عن أوليائه وخاصته وأنزلهم بالمحل الذي رضوه من دولته ثم دفن أباه بمراكش قبلي جامع المنصور من القصبة بالموضع الذي به اليوم قبور الملوك الاشراف السعديين ثم لما نهض أبو عنان الى فاس احتمل شلو أبيه معه حتى دفنه بشالة مقبرة سلفهم ولا زال ضريحه قائم العين والاثر الى الآن رحمه الله تعالى

﴿بقية أخبار السلطان أبي الحسن وسيرته﴾

كان السلطان أبو الحسن رحمه الله أسمر طويل القامة عظيم الهيكل معتدل اللحية حسن الوجه وكان عفا مائلا الى التقوى مولعا بالطيب لم يشرب الخمر قط لا في صغره ولا في كبره محبا للصالحين عدلا في رعيته يحب الفخر ويعني به وقال بعض المشارقة في حقه ما صورته ملك أضاء المغرب بأنوار هلاله وجرت الى المشرق أنواء نواله وطابت نسماته واشتهرت عزماته كان حسن الكتابه كثير الانابه ذا بلاغة وبراعه وشهامة وشجاعه اه وبنى رحمه الله عدة مدارس ﴿منها﴾ المدرسة العظمى بمراكش قبلي جامع ابن يوسف ﴿قال العلامة اليفرني في النزهة﴾ ان الذي بناها هو السلطان أبو الحسن المذكور ﴿قلت﴾ ومن وقف على هذه المدرسة وتأمل تنجيدها وتنميقها أقدر قدر هذا السلطان وعلم عظم همته ومحبته للعلم وأهله ﴿ومنها﴾ المدرسة العظمى بطالعة سلا قبلي المسجد الاعظم منها بناها رحمه الله على هيئة بديعة وصنعة رفيعة وأودع جوانبها من أنواع النقش وضروب التخريم ما يحير البصر ويدهش الفكر ووقف عليها عدة أوقاف رصع أسمائها بالنقش والاصباغ على رخامة عظيمة ثم نصب الرخامة بالحائط الجوفي منها كل ذلك محافظة على تلك الاوقاف أن تغير وأما المسجد الاعظم ومدرسته الجوفية فهما من بناء يعقوب المنصور الموحدي حسبما تقدم ذلك في أخباره وعندي ان السور المحمول عليه الماء الداخل الى سلا المعروف عندهم بسور الاقواس من بناء السلطان أبي الحسن رحمه الله ولي في ذلك مستند غريب وهو اني كنت ذات يوم أفاوض بعض القناقنة بسلا ممن كان يباشر أمر المياه بها ويصلح ما احتاج الى الاصلاح منها فقلت كالمستفهم لنفسي من غير قصد توجيه الخطاب اليه يا ترى من الذي بنى سور الماء الداخل الى البلد فقال على البديهة الذي بنى المدرسة هو الذي بنى سور الماء فقلت له وكنت متشوفا يومئذ لتحقيق ذلك وما علمك بهذا فقال ان بيلة المدرسة بنيت يوم بنيت المدرسة بدليل الزليج المرصوف حولها بالعمل الكبير الموجود نظيره في سائر حيطان المدرسة وسواريها وهذه البيلة لم تتغير عن حالها الى ان باشرت اصلاحها في هذه الايام فحفرت عن قنواتها وتتبعت مادة الماء الواصل اليها فاذا عمل تلك القوادس وصنعة بنائها حتى الكلس المفرغ عليها الجامع بينها مماثل لعمل قنوات مبنية بالسور المذكور داخلة فيه بحيث بني عليها يوم تأسيسه من غير فرق بين هذه وتلك في جميع عملهما قال وليس شيء من القنوات الحادثة بعدهما يشبههما فعلمت ان الذي بناهما واحد فأعجبني كلامه وباحثته في ذلك فصمم على معتقده وحاولت تشكيكه بكل وجه فلم يتشكك فظهر لي صدق دليله وغلب على ظني ما جزم به وعند الله علم حقيقة الامر ﴿واعلم﴾ ان هذا السور من المباني العادية والهياكل العظيمة التي تدل على فخامة الدولة وكمال قوتها مثل ما يقال عن حنايا قرطاجنة ونحوها وهذا السور مسوق من عيون البركة خارج مدينة سلا على أميال كثيرة ممتدا من القبلة الى الجوف على أضخم بناء وأحكمه موزون سطحه بالميزان الهندسي ليتأتى جريان الماء فوقه على استواء ولذلك ينخفض الى الارض متى ارتفعت ويعلو عليها اذا انخفضت ويجري على متنه من الماء مقدار النهر الصغير في ساقية قد اتخذت له ولما شارف البلد عظم ارتفاعه جدا لاجل انخفاض الارض عنه وكان في سيره بطريق مسلوك ففتحت له فيه أقواس فسمي لذلك سور الاقواس (وبالجملة) فهو شاهد لبانيه بضخامة الدولة وعظم الهمة وللسلطان أبي الحسن رحمه الله بفاس ومكناسة وغيرهما من بلاد المغرب آثار كثيرة فمن آثاره بفاس بيلة الرخام الابيض المجلوبة من المرية زنتها مائة قنطار وثلاثة وأربعون قنطارا وسيقت من المرية الى مرسى العرائش ثم طلعت في وادي قصر كتامة ثم حملت منه على عجل الخشب تجرها القبائل الى منزل أولاد محبوب الدين على ضفة وادي سبو فوسقت فيه الى ان وصلت الى ملتقاه مع وادي فاس ثم حملت على عجل الخشب أيضا يجرها الناس الى ان وصلت الى مدرسة الصهريج التي بعدوة الاندلس ثم نقلت

منها بعد ذلك بأعوام الى مدرسة الرخام التى أمر رحمه الله ببنائها جوف جامع القرويين المعروفة اليوم بمدرسة مصباح ومصباح هذا هو أبو الضياء مصباح بن عبد الله اليالصوتى الفقيه المشهور وانما نسب اليه لان السلطان أبا الحسن لما بناها كان أبو الضياء أوّل من تصدّى للدرس بها فنسبت اليه وقد تقدم لنا خبر المدرسة التى بناها غربى جامع الاندلس أيام أبيه وأنفق عليها أكثر من مائة ألف دينار ﴿ومن آثاره بمكناسة الزيتون﴾ الزاويتان القدمى والجديدة وكان بنى القدمى فى زمان أبيه والجديدة حين ولى الخلافة وله فى هذه المدينة عدّة آثار سوى الزاويتين من القناطر والسقايات وغيرها ومن أجل ذلك المدرسة الجديدة بها وكان قدّم للنظر على بنائها قاضيه على المدينة المذكورة ولما تمّ بناؤها جاء اليها من فاس ليقف عليها ويرى عملها وصنعتها فقعد على كرسى من كراسى الوضوء حول صهريجها وجىء بالرسوم المتضمنة للتنفيذات اللازمة فيها فغرقها فى الصهريج قبل أن يطالع ما فيها وأنشد

لا بأس بالغالى اذا قيل حسن * ليس لما قرّت به العين ثمن

وكان له معرفة بالشعر فمن شعره قوله

أرضى الله فى سرّ وجهر * وأحمى العرض عن دنس ارتياب
وأعطى الوفر من مالى اختيارا * وأضرب بالسيوف طلى الرقاب

وأخباره كثيرة ومن أراد الوقوف على تفاصيلها فعليه بكتاب الخطيب ابن مرزوق الذى ألفه فى دولته وسيرته وسماه المسند الصحيح الحسن من أحاديث السلطان أبى الحسن ولما ذكر الوزير ابن الخطيب فى كتابه رقم الحلل هذا السلطان وصفه بقوله

الملك المعدود من خير سلف * ومجمع القول اذا القول اختلف
الدين والعفاف والجلاله * والعز والقدرة والجزاله
والعلم والحلم وفضل الدين * وصفوة الصفوة من مرين
ممهد الملك ومسدى المنن * وواحد الدهر وفخر الزمن
بانى المبانى النخبة الشريفه * بمقتضى همته المنيفه
وتارك المدارس الظريفه * شاهدة بأنه الخليفه
وقاطع الدهر بغير لهو * فى مجلس معظم أو بهو
اما لتدريس وعلم يدرس * أو لبلاد من عدو تحرس
أو لاياد فى عباد تغرس * أو لثواب ورضا يلتمس
أو نسخ قرآن وعرض حزب * أو عدة معدة لحرب

اهـ

﴿ومن أعيان وزرائه﴾ عامر بن فتح الله السدراتى وعبد الله بن ابراهيم الفودودى ﴿ومن أعيان كتابه﴾ أبو محمد عبد المهيمن الحضرمى وأبو المجد محمد بن أبى عبد الله بن أبى مدين العثمانى وأبو الحسن على بن على القبايلى التيملى رحم الله الجميع بمنه ﴿ولنذكر﴾ ما كان من الاحداث فى هذه المدة ﴿ففى سنة سبعمائة﴾ أسس السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق تلمسان الجديدة المسماة بالمنصورة حسبما تقدم الخبر عنها مستوفى ﴿وفى سنة احدى عشرة وسبعمائة﴾ كان القحط بالمغرب فاستسقى الناس وخرج السلطان أبو سعيد ماشيا على قدميه لاقامة سنة الاستسقاء وذلك يوم الاربعاء الرابع والعشرين من شعبان من السنة المذكورة وتقدّمت أمامه الصلحاء والفقهاء والقراء يدعون الله تعالى وقدّم بين يدى نجواه صدقات وفرّق أموالا وفى يوم السبت بعده خرج فى جنده الى قبر الشيخ أبى يعقوب الاشقر بجبل الكندرتين فدعا هنالك ورحم الله تعالى عباده وغاث أرضه وبلاده ﴿وفى سنة تسع عشرة وسبعمائة﴾ توفى الشيخ أبو الحسن على بن محمد بن عبد الحق الزرويلى المعروف

بالصغير بضم الصاد وفتح الغين وكسر الياء المشددة قاله ابن الخطيب في الاحاطة وكان ربعة آدم اللون خفيف العارضين يلبس أحسن زي ويدرس بجامع الاجدع من فاس يقعد على كرسي عال ليسمع القريب والبعيد على انخفاض كان في صوته وكان حسن الاقراء وقورا صبورا ثبتا وكان أحد الاقطاب الذين تدور عليهم الفتيا بالمغرب فيحسن التوقيع عليها على طريق الاختصار وترك فضول القول ولاه السلطان أبو الربيع القضاء بفاس وشد عضده فجرى في العدل على صراط مستقيم ﴿وفي سنة احدى وعشرين وسبعمائة﴾ توفي الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد بن عثمان الازدي المراكشي المعروف بابن البناء الامام المشهور في علم التعاليم والهيئة والنجوم والازياج وغير ذلك وكان رحمه الله عز وجل معروفا باتباع السنة موسوما بطهارة الاعتقاد منعوتا بالصلاح وكان انتفاعه بصحبة الشيخ أبي زيد الهزميري رضي الله عنه ﴿وفي سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة﴾ في ذي القعدة منها هبت ريح شديدة بفاس ومكناسة وأحوازهما واستمر هبوبها يومين وليلتين فعاقت عن الاسفار وهدمت الدور وقلعت الاشجار ﴿وفي سنة ثلاث وعشرين بعدها﴾ في المحرم منها جرت العين الموالية للشرق من عيون صنهاجة باحواز فاس بدم عبيط من وقت العصر الى نصف الليل ثم عادت الى حالها وفيها كان المطر العظيم والثلج الكثير بالمغرب وعدم الفحم والحطب حتى بيع الفحم بفاس بدرهمين للرطل وفي جمادى الاولى منها احترق سوق العطارين الكبرى بفاس فجدده السلطان أبو سعيد من باب مدرسة العطارين الى رأس عقبة الجزارين وعقد عليه هنالك بابا ضخما وأفرده للعطارين دون غيرهم ﴿وفي سنة أربع وعشرين وسبعمائة﴾ كانت المجاعة بالمغرب وارتفعت الاسعار في جميع البلاد فبلغ المد من القمح بفاس خمسة عشر درهما والصحفة منه تسعين دينارا وغلا الادام وعدمت الخضر بأسرها وكسى السلطان أبو سعيد وأطعم في هذه المسغبة شيأ كثيرا ودام ذلك الى قرب منتصف السنة بعدها وفيها في يوم الثلاثاء ثالث عشر رمضان منها نشأ خارج فاس من جهة جوفيها سحاب عظيم وظلمة شديدة ورياح عاصفة أعقب ذلك بردا كثيرا عظيم الجرم تزن الواحدة منه ربع رطل وأقل وأكثر ونزل في خلاله مطر وابل جاءت منه السيول طامية حملت الناس والدواب وأهلكت جميع ما بجبل زالغ من الكروم والزيتون وسائر الشجر ﴿وفي سنة خمس وعشرين بعدها﴾ ليلة الجمعة السادس والعشرين من جمادى منها دخل السيل العظيم مدينة فاس وكاد يأتي عليها بحيث هدم الدور والمساجد والاسواق وأهلك آلافا من الخلق حتى خيف على البلد التلف ﴿وفي سنة ست وعشرين وسبعمائة﴾ انتهى تاريخ ابن أبي زرع المسمى بالانيس المغرب القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ومما هو الغاية في باب الاغراب ماذكره ابن خلدون قال حضر أشياخنا بمجلس السلطان أبي الحسن وقد رفع اليه امرأتان من أهل الجزيرة الخضراء ورندة حبستا أنفسهما عن الاكل جملة منذ سنين وشاع أمرهما ووقع اختبارهما فصح شأنهما واتصل على ذلك حالهما الى ان ماتتا وذكرهما أيضا الشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد المقري في كتابه المسمى بالمحاضرات قال وردت على تلمسان في العشرة الخامسة من المائة الثامنة امرأة من رندة لاتأكل ولاتشرب ولاتبول ولاتتغوط وتحيض فلما اشتهر هذا من أمرها أنكره الفقيه أبو موسى ابن الامام وتلى كانا يأكلان الطعام فأخذ الناس يبثون ثقات نسائهم ودهاتهن اليها فكشفوا عنها بكل وجه يمكنهن فلم يقفن على غير ما ذكر وسئلت هل تشتهين الطعام فقالت هل تشتهون التبن بين يدي الدواب وسئلت هل يأتيها شئ فأخبرت انها صامت ذات يوم فأدركها الجوع والعطش فنامت فأتاها آت في النوم بطعام وشراب فأكلت وشربت فلما أفاقت وجدت نفسها قد استغنت فهي على تلك الحال تؤتى في المنام بالطعام والشراب الى الآن ولقد جعلها السلطان في موضع بقصره وحفظها بالعدول ومن يكشف عما عسى تجيء أمهاته اذا أتت اليها أربعين يوما فلم يوقف لها

على أمر قال بيد أني أردت أن يزاد في عدد العدول ويضم اليهم الاطباء ومن يخوض في المعقولات من علماء الملل المسلمين وغيرهم ويوكل من نساء الفرق من يبالغ في كشف من يدخل اليها ولا يترك أحدا يخلو بها (وبالجملة) يبالغ في ذلك ويستدام رعيها عليه سنة لاحتمال أن يغلب عليها الطبع فتستغني في فصل دون فصل ثم يكتب هذا في العقود ويشاع أمره في العالم وذلك لانه يهدم حكم الطبيعة الذي هو أضر الاحكام على الشريعة ويبين كيفية غذاء أهل الجنة وأن الحيض ليس من فضلات الغذاء ويبطل التأثير والتولد ويوجب ان الاقترانات بالعادات لا باللزوم وعند الاسباب لا بها الى غير ذلك الا اني لما أشرت بهذا التقسم من أشرت عليه بتبليغه الى من لم يفهم ما قلت ومن لم يرفع به رأسا لايثار الدنيا على الدين فانا لله وانا اليه راجعون ﴿قال المقري﴾ وقد ذكر ان امرأة أخرى كانت معها على تلك الحالة وحدثني غير واحد من الثقات ممن أدرك عائشة الجزيرية أنها كانت كذلك وان عائشة بنت أبي بكر يعني زوجة السلطان أبي الحسن التي استشهدت في طريف اختبرتها أربعين يوما أيضا وكم من آية أضيعت وحجة نسيت مما لم يعرف مثله قبل المائة الثامنة وكذلك الوباء العام القريب فروطه يوشك أن يطول أمره فينسى ذكره ويكذب المحدث به اذا انقضى عصره وكم فيه من أدلة على أصول الملة اهـ كلام الشيخ أبي عبد الله المقري رحمه الله ويعني بالوباء القريب فروطه وباء منتصف المائة الثامنة أيام كان السلطان أبو الحسن بتونس فانه كان وباء عظيما لم يعهد مثله قد عم أقطار الارض وتحيف العمران جملة حتى كاد يأتي على الخليقة أجمع والامور كلها بيد الله لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون

## ﴿الخبر عن دولة السلطان المتوكل على الله أبي عنان فارس بن أبي الحسن رحمه الله﴾

كان هذا السلطان محبوبا في قومه وعشيرته أثيرا عند والده متميزا بذلك عن سائر اخوته لفضله وعلمه وصيانته وعفافه واستظهاره القرآن الكريم وغير ذلك من الاوصاف الحسنة أمه أم ولد رومية اسمها شمس الضحى وقبرها بشالة معروف الى الآن رأيت مكتوبا عليه بالنقش انها توفيت ليلة السبت رابع رجب الفرد سنة خمسين وسبعمائة ودفنت اثر صلاة الجمعة في الخامس والعشرين من الشهر المذكور وحضر لدفنها أعيان المشرق والمغرب اهـ وكان مولد السلطان أبي عنان بفاس الجديد في الثاني عشر من شهر ربيع الاول سنة تسع وعشرين وسبعمائة وبويع في حياة والده يوم ثار عليه بتلمسان حسبما قدمنا الخبر عنه وذلك يوم الثلاثاء منسلخ ربيع الاول سنة تسع وأربعين وسبعمائة ولما هلك والده أبو الحسن بجبل هنتاتة وانقضى شأن الحصار ارتحل السلطان أبو عنان الى فاس ونقل شلو أبيه الى شالة فدفنه بها وأغذ السير الى فاس وقد استتب أمره وخلا له الجو فاحتل بدار ملكه وأجمع أمره على غزو بني عبد الواد لارتجاع ما بايديهم من الملك الذي تطاولوا اليه ولما دخلت سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة نادى بالعطاء وأزاح العلل وعسكر بساحة البلد الجديد وعرض جيشه ثم نهض يريد تلمسان واتصل خبره بسلطانها أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمن الزياني فجمع له قومه ومن شايعهم من زناتة والعرب ثم نهض اليه ومعه أخوه ووزيره أبو ثابت فكان اللقاء ببسيط انكاد آخر ربيع الثاني من السنة المذكورة وأجمع بنو عبد الواد على صدمة المرينيين وقت القائلة وعند ضرب الابنية وسقاء الركاب وافتراق أهل المعسكر في حاجاتهم فحملوا عليهم وأعجلوهم عن ترتيب المصاف وركب السلطان أبو عنان لتلافي الامر وخاض بحر القتال وقد أظلم الجو بالغبار حتى اذا خاض اليهم وخالطهم في صفوفهم ولوا الادبار واتبع بنو مرين آثارهم فاستولوا على معسكرهم واستباحوهم قتلا وسبيا وصفدوهم أسرى ولم يزالوا في اتباعهم الى الليل وتقبضوا على سلطانهم أبي سعيد فساقوه الى السلطان أبي عنان فاعتقله وتقدم على التعبية الى تلمسان فدخلها في ربيع المذكور واستوت في ملكها قدمه وأحضر أبا سعيد فوبخه وأراه أعماله حسرات عليه ثم أحضر الفقهاء وأرباب الفتيا فأفتوا بحرابته وقتله فامضى حكم الله

فيه فذبح في محبسه لتاسعة من اعتقاله وفر أخوه الزعيم أبو ثابت الى قاصية الشرق بعد ان احتمل معه حرمه وحرم أخيه ومتخلفهم واحتل بوادي شلف من بلاد مغراوة فعسكر هنالك واجتمع عليه أوشاب من زناتة وحدث نفسه باللقاء ووعدها بالصبر والثبات واتصل خبره بالسلطان أبي عنان فسرح اليه وزيره فارس بن ميمون في عساكر بني مرين والجند فاغذ السير اليهم ثم ارتحل السلطان أبو عنان من تلمسان على أثره ولما ترا آا الجمعان تصادقا الحملة وخاض النهر بعضهم الى بعض ثم صدق بنو مرين الحملة فاجتاز وا النهر وانكشفت بنو عبد الواد واتبع بنو مرين آثارهم فاستلحموهم ثانية واستباحوا معسكرهم واستاقوا نساءهم وأموالهم ودوابهم وكتب الوزير بالفتح الى السلطان أبي عنان وفر أبو ثابت الى قاصية الشرق في نفر من عشير تموبني أبيه فاعترضتهم قبائل زواوة فانتهبوا أسلابهم وأرجلوهم عن خيولهم ومروا على وجوههم حفاة عراة لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا وكتب الوزير الى أمراء الثغور في شأن أبي ثابت وأصحابه فأذكوا العيون عليهم وقعدوا لهم بالمراصد حتى عثر عليهم بعض الحشم فقبضوا على أبي ثابت وابن أخيه أبي زيان بن أبي سعيد المقتول ووزيرهم يحيى بن داود فرفعوهم الى أمير بجاية أبي عبد الله محمد بن أبي زكرياء بن أبي بكر الحفصي وكان خالصة السلطان أبي عنان منذ أيام والده فاعتقلهم عنده حتى وفدبهم عليه بالمدية فأكرم السلطان أبو عنان وفادته وركب للقائه ولما ترجل الحفصي عن فرسه اعظاما للسلطان فنزل السلطان مكافأة له ولقاه مبرة وكرامة وأودع أبا ثابت السجن وتوافت اليه وفود الذواودة بمكانه من المدية فأكرم وفادتهم وأسنى عطاياهم من الخلع والحملان والذهب والفضة وانقلبوا خير منقلب ووافته بمكانه ذلك بيعة ابن مزني عامل بسكرة والزاب مع وفدهم فأكرمهم ووصلهم وفرغ السلطان أبو عنان من شأن المغرب الاوسط وبث عماله في نواحيه وثقف أطرافه وسمى الى تملك افريقية على مانذكره ان شاء الله

## ﴿تملك السلطان أبي عنان بجاية وتولية عمر بن على الوطاسي عليها﴾

لما وفد أبو عبد الله الحفصي على السلطان أبي عنان بالمدية في شعبان من سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة وبالغ في اكرامه ناجاه بذات صدره وشكا اليه ما يلقاه من رعيته من الامتناع من الجباية والسعي في الفساد وما يتبع ذلك من شقاق الحامية واستبداد البطانة وكان السلطان أبو عنان متشوفا لمثلها فاشار عليه بالنزول عنها وان يعوضه عنها ماشاء من بلاده فسارع الى قبول ذلك ودس اليه السلطان مع حاجبه محمد بن أبي عمرو أن يشهد بذلك على رؤس الملا ففعل وعوضه عنها مكناسة الزيتون ونقم بطانة الحفصي عليه ونزع بعضهم عنه الى افريقية وأمره السلطان أبو عنان أن يكتب بخطه الى عامله على بجاية بالنزول عنها وتمكين عمال السلطان منها ففعل وعقد أبو عنان عليها لعمر بن على الوطاسي من بني الوزير الذين قدمنا خبر ثورتهم بحصن تازوطا أيام يوسف بن يعقوب ولما قضى السلطان أبو عنان حاجته من المغرب الاوسط واستولى على بجاية ثغر افريقية انكفأ راجعا الى تلمسان لشهود عيد الفطر بها ودخلها في يوم مشهود وحمل أبا ثابت الزياني ووزيره يحيى بن داود على جملين ودخل بهما تلمسان يخطوان بهما في ذلك المحفل بين السماطين فكانا عبرة لمن حضر ثم جنبا من الغد الى مصارعهما فقتلا قعصا بالرماح والى الله عاقبة الامور

## ﴿ثورة أهل بجاية ومقتل عمر بن على الوطاسي بها﴾

لما قدم عمر بن على الوطاسي بجاية واستقربها ثقل أمره على نفوس أهلها لالفهم ملكة الحفصيين وانصباغهم بالميل اليهم فتربصوا بالوطاسي الدوائر وكان أبو عبد الله الحفصي قد استصحب معه في وفادته على السلطان أبي عنان حاجبه فارحا مولى ابن سيد الناس فلما نزل للسلطان عن بجاية نقم فارح عليه ذلك

وأسرّها في نفسه الى أن بعثه الحفصي المذكور مع الوطاسي لينقل حرمه ومتاعه وماعون داره الى المغرب فانتهى الى بجاية وبينما هو يحاول ما أرسل في شأنه شكا اليه الصنهاجيون سوء ملكة بني مرين فنجع كلامهم فيه ونفث لهم بما عنده من الضغن ودعاهم الى الثورة بالمرينيين والقيام بدعوة الحفصيين فاجابوه الى ذلك وتواعد والفتك بعلي بن عمر الوطاسي بمجلسه من القصبة وتولى كبرها منصور بن ابراهيم ابن الحاج من مشيختهم وباكره في داره على عادة الامراء ولما أكب عليه ليلثم أطرافه طعنه بخنجره ثم ولج عليه الباقون فاستلحموه وذلك في ذي الحجة من سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة وثارت الغوغاء بالبلد وهتف الهاتف بدعوة أبي زيد بن محمد بن أبي بكر الحفصي صاحب قسنطينة وطيروا اليه بالخبر واستدعوه فتثاقل عنهم وبلغ الخبر الى السلطان أبي عنان فاتهم أبا عبد الله الحفصي بمداخلة حاجبه فارح في ذلك فاعتقله بداره واعتقل وفدا من أشراف بجاية كانوا ببابه ثم راجع شيوخ بجاية بصائرهم وتداركوا أمرهم في الرجوع الى طاعة السلطان أبي عنان واتفق رأيهم على أن يرقعوا هذا الخرق ويسدوا هذه الثلمة برأس الحاجب فارح وصنهاجة الثائرين معه وداخلهم في ذلك القائد هلال مولى ابن سيد الناس ولما عزموا على أمرهم دعوا الحاجب فارحا الى المسجد ليفاوضوه فيما نزل بهم فأحس بالشر ولجأ الى دار الشيخ أبي العباس أحمد بن ادريس البجائي امام بجاية ومفتيها فاقتحموا عليه الدار وباشره مولاه محمد ابن سيد الناس بطعنة فانفذه ورمى بشلوه من أعلا الدار فاحتروا رأسه وبعثوا به الى السلطان أبي عنان وفر منصور بن ابراهيم بن الحاج وقومه صنهاجة عن البلد وسرح السلطان أبو عنان اليها حاجبه أبا عبد الله محمد بن أبي عمر وفي الكتائب فدخلها فاتح سنة أربع وخمسين وسبعمائة وذهبت صنهاجة في كل وجه ولحق أصحاب الفعلة منهم بتونس وتقبض الحاجب ابن أبي عمر وعلى جماعة من غوغاء بجاية المتهمين بالخوض في الفتنة يناهزون المائتين فاعتقلهم وأركبهم الاسطول الى المغرب فاطمأن الناس وسكنوا وتوافت لديه وفود الذواودة من كل جهة فاجزل صلاتهم ووفد عليه عامل الزاب يوسف بن مزني فاكرم وفادته ثم ارتحل الى تلمسان غرة جمادى الاولى من السنة ومعه شيوخ الذواودة ووجوه بجاية ﴿قال ابن خلدون﴾ وكنت يومئذ في جلتهم فجلس السلطان للوفد وعرض ما جنب اليه من الجياد والهدايا وكان يوما مشهودا وانصرفوا الى مواطنهم فاتح شعبان من السنة المذكورة قال وانقلبت مع الحاجب بعد اسناء الجائزة والخلع والحملان من السلطان والوعد الجميل بتجديد ما الى قومي ببلدي من الاقطاعات ولما احتل الحاجب ابن أبي عمرو ببجاية ضبط أمرها وأقام أودها وألح على قسنطينة بترديد البعوث وتجهيز الكتائب الى ان أذعنوا للطاعة ومكنوه من تاشفين ابن السلطان أبي الحسن المنصوب هنالك للفتنة وأوفد أبو زيد الحفصي صاحب قسنطينة ابنه على السلطان أبي عنان فقبل وفادته وشكر سعيه وانكفأ الحاجب ابن أبي عمرو الى بجاية وأقام بها الى ان هلك في المحرم سنة ست وخمسين وسبعمائة فذهب حميد السيرة عند أهل البلد وعقد السلطان أبو عنان على بجاية لعبد الله بن علي بن سعيد أحد وزرائه فنهض اليها في ربيع من سنة ست وخمسين المذكورة فاستقر بها وسلك سنن الحاجب قبله وسيرته وجهز العساكر الى حصار قسنطينة الى ان كان من فتحها ما نذكره بعد ان شاء الله

## ﴿خروج أبي الفضل ابن السلطان أبي الحسن ببلاد السوس ثم مقتله عقب ذلك﴾

قد تقدم لنا أن السلطان أبا الحسن لما ركب البحر من تونس الى المغرب عقد على تونس لابنه أبي الفضل هذا وانه لما أقلع عنها ثار أهل البلد وشيعة الحفصيين عليه فأخرجوه عنها ولحق بأبيه فكان معه الى ان هلك وخلص الامر الى السلطان أبي عنان فلحق به هو وأخوه أبو سالم ففكر أبو عنان في أمرهما وخشي عقبة ترشيحهما فأشخصهما الى الاندلس ليكونا مع الغزاة والقرابة في ايالة السلطان أبي الحجاج يوسف ابن الاحمر ثم ندم على ذلك ولما استولى على تلمسان والمغرب الاوسط ورأى ان قد استفحل أمره واعتز

سلطانه أنفذ الرسل الى أبى الحجاج فى أن يشخصهما اليه لان مقامهما عنده أحوط لجمع الكلمة بخلاف
ما اذا غابا عن حضرته وخشى أبو الحجاج غائلته عليهما فأبى من اسلامهما اليه وأجاب الرسل بانه لا يخفر
ذمته ولا يسىء جوار المسلمين المجاهدين لديه فغضب السلطان أبو عنان لذلك وقام وقعد وأمر حاجبه ابن
أبى عمر وأن يكتب اليه ويبالغ فى التوبيخ واللوم ففعل الحاجب المذكور ﴿قال ابن خلدون﴾ وقد
أوقفنى الحاجب على ذلك الكتاب بجاية فقضيت عجبا من فصوله واغراضه ولما قرأه أبو الحجاج ابن الاحمر
دس الى أبى الفضل وكان أكبر الاخوين باللحاق بالطاغية وكانت بينهما ولاية ومخالصة فنزع اليه
أبو الفضل وجهز الطاغية له أسطولا أركبه فيه وأنزله بساحل السوس من أرض المغرب ونذر السلطان
أبو عنان بذلك فأوعز الى قائد اسطوله باعتراض اسطول الطاغية فاعترضه وأوقع به وكتب ابن الاحمر
أثناء ذلك كتابا الى السلطان أبى عنان يعتذر عن أمر أبى الفضل من انشاء وزيره لسان الدين ابن الخطيب
ونصه المقام الذى شهد الليل والنهار بأصالة سعادته وجرى الفلك الدوار بحكم ارادته وتعوّد الظفر بمن
يناويه فاطرد والحمد لله جريان عادته فوليه متحقق لافادته وعدوه مرتقب لابادته وحلل الصنائع
الالهية تضفو على اعطاف مجادته مقام محل أخينا الذى سهم سعده صائب وأمل من كاده خاسر
خائب وسير الفلك المدار فى مرضاته دائب وصنائع الله تعالى له تصحبها الالطاف العجائب فسيان
شاهد منه فى عصمة وغائب السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاه الله تعالى مسدد السهم ماضى
العزم تجل سعوده عن تصوّر الوهم ولا زال مرهوب الحد ممتثل الرسم موفور الحظ من نعمة الله
تعالى عند تعدد القسم فائزا بفلج الخصام عند لداد الخصم معظم قدره وملتزم بره مبتهج بما يسببه الله
تعالى له من اعزاز نصره واظهار أمره فلان سلام كريم طيب برّ عميم يخص مقامكم الاعلى ومثابتكم
الفضلى التى حازت فى الفخر الامد البعيد وفازت من التأييد والنصر بالحظ السعيد ورحمة الله تعالى
وبركاته أما بعد حمد الله الذى فسح لملككم الرفيع فى العز مدى وعرفه عوارف آلائه وعوائد النصر
على أعدائه يوما وغدا وحرس سماء علائه بشهب من قدره وقضائه فمن يستمع الآن يجد له شهابا
رصدا وجعل نجح آماله وحسن مآله قياسا مطردا فرب مريد ضره ضرّ نفسه وهاد اليه الجيش
أهدى وما هدى والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد نبيه ورسوله الذى ملأ الكون نورا وهدى
وأحيا مراسم الحق وقد صارت طرائق قددا أعلى الانام يدا وأشرفهم محتدا الذى بجاهه نلبس
أثواب السعادة جددا ونظفر بالنعيم الذى لا ينقطع أبدا والرضا عن آله وأصحابه الذين رفعوا السماء
سنته عمدا وأوضحوا السبيل اتباعه مقصدا وتقبلوا شيمه الطاهرة ركعا وسجدا سيوفا على من
اعتدى ونجوما لمن اهتدى حتى علت فروع ملته صعدا وأصبح بناؤها مديد المخلدا والدعاء لمقامكم
الاسمى بالنصر الذى يتوالى مثنى وموحدا كما جمع لملككم ما تفرق من الالقاب على توالى الاحقاب
فجعل سيفكم سفاحا وعلمكم منصورا وأبيكم رشيدا وعزمكم مؤيدا فانا كتبناه اليكم كتب الله تعالى
لكم صنعا يشرح للاسلام خلدا ونصرا يقيم للدين الحنيفى أودا وعزما يملأ أفئدة الكفر كمدا وجعلكم
ممن هيأ له من أمره رشدا ويسر لكم العاقبة الحسنى كما وعد به فى كتابه العزيز والله أصدق موعدا
من حمراء غرناطة حرسها الله ولا زائد بفضل الله سبحانه الا استطلاع سعودكم فى آفاق العنايه واعتقاد
جميل صنع الله فى البداية والنهايه والعلم بان ملككم تحدى من الظهور على أعدائه بآيه وأجرى جياد
السعد فى ميدان لا يحد بغايه وخرق حجاب المعتاد بما لم يظهر الا لاصحاب الكرامة والولايه ونحن على
ما علمتم من السرور بما يهز لملككم المنصور عطفا ويسدل عليه من العصمة سجفا فقاسمه الارتياح
لمواقع نعم الله تعالى نصفا ونصفا ونعقد بين أنباء مسرته وبين الشكر لله حلفا ونعد التشيع له مما يقربنا
الى الله زلفى ونؤمل من امداده ونرتقب من جهاده وقتا يكفل به الدين ويكفى وتروى غلل

النفوس وتشفي والى هذا وصل الله سعدكم والى نصركم وعضدكم فانا من لدن صدر عن أخيكم أبي الفضل ما صدر من الانقياد لخدع الآمال والاغترار ببوارد الآل وفال رأيه في اقتحام الاهوال وتورط في هفوة حار فيها حيرة أهل الكلام في الاحوال وناصب من أمركم السعيد جبلا قضى الله له بالاستقرار والاستقلال ومن ذا يزاحم الاطواد ويزحزح الجبال وأخلف الظن منافي وفائه وأضمر عملا استأثر عنا باخفائه واستعان من عدو الدين بعين فلما ورى ان استنصر به زند ولا خفق لمن تولاه بالنصر بند وان الطاغية أعانه وأنجده ورأى أنه سهم على المسلمين سدده وعضب الفتنة جرده فسخر له الفلك وأمل أن يستخدمه بسبب ذلك الملك فأورده الهلك والظلام الحالك علمنا ان طرف سعادته كاب وسحائب آماله غير ذات انسكاب وقدم عزته لم يستقر من السداد في غرز ركاب فان نجاح أعمال النفوس مرتبط بنياتها وغايات الامور تظهر في بداياتها وعوائد الله تعالى فيمن نازع قدرته لا تجهل ومن غالب أمر الله خاب منه المعول فبينما نحن نرتقب خسار تلك الصفقة المعقوده وخمود تلك الشعلة الموقوده وصلنا كتابكم يشرح الصدور ويشرح الاخبار ويهدي طرف المسرات على أكف الاستبشار ويعرب بلسان حال المسارعة والابتدار عن الود الواضح وضوح النهار والتحقق بخلوصنا الذي يعلمه عالم الاسرار فأعاد في الافادة وأبدا وأسدى من الفضائل الجلائل ما أسدى فعلم منه مآل من رام يقدح زند الشتات من بعد الالتئام ويثير عجاجة المنازعة من بعد ركود القتام هيهات تلك قلادة الله تعالى التي ما كان ليتركها بغير نظام ولم يدر أنكم نصبتم له من الحزم حبالة لا يفلتها قنيص وسددتم له من السعد سهما ماله عنه من محيص بما كان من ارسال جوارح الاسطول السعيد في مطاره حائلا بينه وبين أوطاره فما كان الا التسمية والارسال ثم الامساك والقتال ثم الاقتيات والاستعمال فياله من زجر استنطق لسان الوجود بجدله واستنصر البحر بخذله وصارع القدر بجدله لما جدله وان خدامكم استولوا على ما كان فيه من مؤمل غاية بعيده ومنتسب الى نسبة غير سعيده وشانئ غمرته من الكفار خدام الماء وأولياء النار تحكمت فيهم أطراف العوالي وصدور الشفار وتحصل منهم من تخطاه الحمام في قبضة الاسار فعجبنا من تيسير هذا المرام واخماد الله لهذا الضرام وقلنا تكييف لا يحصل في الاوهام وتسديد لا تستطيع اصابته السهام كلما قدح الخلاف زندا أطفأ سعدكم شعلته أو أظهر الشتات ألما أبرأ يمن طائركم علته ماذاك الا النية صدقت معاملتها في جنب الله تعالى وصحت واسترسلت بركتها وسحت وجهاد تدرعوه اذا فرغت شواغلكم وتمت واهتمام بالاسلام يكفيه الخطوب التي أهمت فنحن نهنيكم بمنح الله ومننه ونسأله أن يلبسكم من اعانته أوقى جننه فأملنا ان تطرد آمالكم وتنجح في مرضات الله أعمالكم فمقامكم هو العمدة التي يدافع العدو بسلاحها وتنبلج ظلماته بصفاحها وكيف لا نهنئكم بصنع على جهتنا يعود ويشابا فقنا تطلع منه السعود فتيقنوا ما عندنا من الاعتقاد الذي رسومه قد استقلت واكتفت وديمه بساحة الود قد وكفت والله عز وجل يجعل لكم الفتوح عاده ولا يعدمكم عنايه وسعاده وهو سبحانه يعلي مقامكم وينصر أعلامكم ويهني الاسلام أيامكم والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله وبركته اهـ ولما نزل أبو الفضل بساحل السوس لحق بعبد الله السكسيوي صاحب الجبل المنسوب اليه ودعا لنفسه وكان ذلك اثر مقدم الحاجب ابن أبي عمرو من فتح بجاية سنة أربع وخمسين وسبعمائة فجهز السلطان أبو عنان اليه عسكره من تلمسان وعقد على حرب السكسيوي وأبي الفضل لوزيره فارس بن ميمون بن وردار فسار حتى نزل على جبل السكسيوي وأحاط به وأخذ بمخنقه واختط مدينة لمعسكره وتجمير كتائبه بسفح ذلك الجبل سماها القاهرة ولما اشتد الحصار على السكسيوي بعث الى الوزير يسأله الرجوع الى طاعته المعروفة وأن ينبذ العهد الى أبي الفضل ففارقه وانتقل الى جبال المصامدة ودخل الوزير فارس أرض السوس

فدوّخ أقطارها ومهد أكنافها وسارت الالوية والجيوش فى جهاتها ورتب المسالح فى ثغورها وأمصارها وسار أبو الفضل يتنقل فى جبال المصامدة الى ان انتهى الى صناكة وألقى بنفسه على ابن الحميدى منهم عاملى بلاد درعة فأجاره وقام بامره ونازله عامل درعة يومئذ عبد الله بن مسلم الزردالى من مشيخة بنى عبد الواد كان السلطان أبو الحسن رحمه الله قد اصطنعه أيام فتحه لتلمسان فاستقر فى دولتهم واندرج فى صنائعهم فأخذ بمخنق ابن الحميدى وأرهبه بوصول العساكر والوزراء اليه وداخله فى التقبض على أبى الفضل وأن يبذل له من المال فى ذلك ما أحب فأجاب ولاطف عبد الله بن مسلم الامير أبا الفضل ووعده من نفسه الدخول فى الامر وطلب لقاءه فركب اليه أبو الفضل ولما استمكن منه ابن مسلم تقبض عليه ودفع لابن الحميدى ما اشترط له من المال وأشخصه معتقلا الى أخيه السلطان أبى عنان سنة خمس وخمسين وسبعمائة فأودعه السجن وكتب بالفتح الى القاصية ثم قتله لليال يسيرة من اعتقاله خنقا بمحبسه وانقضى أمر الخوارج وتمهدت الدولة الى ان كان ما نذكره ان شاء الله

﴿وفادة الوزير ابن الخطيب من قبل سلطانه الغنى بالله السلطان أبى عنان رحمهم الله﴾

كان السلطان أبو الحجاج يوسف ابن الاحمر قد أوفد وزيره لسان الدين ابن الخطيب على السلطان أبى عنان اثر مهلك السلطان أبى الحسن معزيا له بمصابه فقدم ابن الخطيب وأدى الرسالة وجلى فى أغراض تلك السفارة وعاد الى غرناطة ثم هلك السلطان أبو الحجاج سنة خمس وخمسين وسبعمائة بمصلى عيد الفطر وهو ساجد طعنه بعض الزعانف فاصماه لوقته وبايع الناس ابنه محمد بن يوسف الغنى بالله وقام بأمر دولته مولاه رضوان الراسخ القدم فى قيادة عساكرهم وكفالة الاصاغر من ملوكهم واستبد بالامر وانفرد ابن الخطيب بوزارته كما كان لابيه من قبل واتخذ لكتابته غيره وجعل ابن الخطيب رديفا لرضوان فى أمره وتشاركا فى الاستبداد معا فجرت الدولة على أحسن حال ثم ان السلطان الغنى بالله بعث وزيره ابن الخطيب سفيرا عنه الى السلطان أبى عنان مستمدا له على عدوه الطاغية على عادة سلفه فى ذلك ﴿قال ابن الخطيب﴾ لما أشرفت على مدينة فاس فى غرض هذه الرسالة خاطبنى الخطيب الرئيس أبو عبد الله محمد بن مرزوق التلمسانى بمنزل الشاطبى على مرحلة منها بما نصه

ياقادما وافى بكل نجاح * ابشر بما تلقاه من أفراح
هذى ذرى ملك الملوك فلذبها * تنل المنى وتفز بكل سماح
مغنى الامام أبى عنان يمن * تظفر ببحر بالندى طفاح
من قاس جود أبى عنان فى الندا * بسواه قاس البحر بالضحضاح
ملك يفيض على العفاة نواله * قبل السؤال وقبل بسطة راح
فلجود كعب وابن سعدى فى الندا * ذكر محاه عن نداه ماح
ما ان سمعت ولا رأيت بمثله * من أريحى للندا مرتاح
بسط الامان على الانام فأصبحوا * قد ألحفوا منه بظل جناح
وهمى على العافين سيب نواله * حتى حكى سح الغمام الساح
فنواله وجلاله وفعاله * فاقت وأعيت ألسن المداح
وبه الدنا أضحت تروق وأصبحت * كل المنى تنقاد بعد جماح
من كان ذا ترح فرؤيته وجهه * متلافة الاحزان والاتراح
فانهض أبا عبد الاله تفز بما * تبغيه من أمل ونيل نجاح
لازلت ترتشف الامانى راحة * من راحة المولى بكل صباح

فالحمد لله ياسيدى وأخى على نعمه التى لاتحصى حمدا يؤم به جميعنا المقصد الاسنى فيبلغ الامد الاقصى

فطالما كان معظم سيدى الدسى فى خبال وللاسف بين اشتغال بال واشتغال بلبال ولقدومكم على هذا المحل المولوى فى ارتقاب ولمواعيدكم بذلك فى تحقق وقوعه من غير شك ولا ارتياب فها أنت تجتنى من هذا المقام العلى بتشيعك وجوه المسرة صباحا وتتلق أحاديث مكارمه ومواهبه مسندة صحاحا بحول الله تعالى ولسيدى الفضل فى قبول مركوبه الواصل اليه بسرجه ولجامه فهو من بعض مالدى المعظم من احسان مولاه وانعامه ولعمرى لقد كان وافد على سيدى فى مستقره مع غيره فالحمد لله الذى يسر فى ايصاله على أفضل أحواله قال ابن الخطيب فراجعته بما نصه

راحت تذكرنى كؤس الراح * والقرب يخفض للجنوح جناح
وسرت تدل على القبول كأنما * دل النسيم على انبلاج صباح
حسناء قد غنيت بحسن صفاتها * عن دملج وقلادة ووشاح
أمست تحض على اللياذ بمن جرت * بسعوده الاقلام فى الالواح
بخليفة الله المؤيد فارس * شمس المعالى الازهر الوضاح
ماشئت من شيم ومن همم غدت * كالزهر أو كالزهر فى الادواح
فضل الملوك فليس يدرك شأوه * أنى يقاس الغمر بالضحضاح
أسنى بنى عباسهم بلوائه الـ * منصور أو بحسامه السفاح
وغدت مغانى الملك لما حلها * تزرى ببدر هدى وبحر سماح
وحياة من أهداك تحفة قادم * فى العرف منها راحة الارواح
مازلت أجعل ذكره وثناءه * روحى وريحانى الاريج وراح
ولقد تمازج حبه بجوارحى * كتمازج الاجسام بالارواح
ولوانني أبصرت رما فى يدى * أمرى لطرت اليه دون جناح
فالآن ساعدنى الزمان وأيقنت * من قربه نفسى بفوز قداح
ايه أبا عبد الاله وانه * لنداء ود فى علاك صراح
اماذا استجدتنى من بعدما * ركدت لما جنت الخطوب رياح
فاليكها مهزولة وأنا امرؤ * قررت عجزى واطرحت سلاح

سيدى أبقاك الله لعهد تحفظه وولاء بعين الوفاء تلحظه وصلتنى رقعتك التى ابتدعت وبالحق من مولى الخليفة صدعت وألفتنى وقد سطت بى الاوحال حتى كادت تتلف الرحال والحاجة الى الغداء قد شمرت عن كشح البطين وثانية الجمادين قد توقع فوات وقتها وان كانت صلاتها صلاة الطين والفكر قد غاض معينه وضعف وعلى الله جزاء المولى الذى يعينه فغزتنى بكتيبة بيان أسدها هصور وعلمها منصور وألفاظها ليس فيها قصور ومعانيها عليها الحسن مقصور واعتراف مثلى بالعجز فى المضائق حول ومنه وقول لاأدرى للعالم فكيف بغيره جنه لكنها بشرتنى بما يقل لمؤديه بذل النفوس وان جلت وأطلعتنى من السراء على وجه تحسده الشمس اذا تجلت بما أعلمتنى به من جميل اعتقاد مولانا أمير المؤمنين أيده الله فى عبده وصدق المخيلة فى كرم مجده وهذا هو الجود المحض والفضل الذى شكره هو الفرض وتلك الخلافة المولوية تتصف بصفات من يبدء بالنوال من قبل الضراعة والسؤال من غير اعتبار للاسباب ولا مجازات للاعمال نسأل الله تعالى ان يبقى منها على الاسلام أوفى الظلال ويبلغها من فضله أقصى الآمال ووصل ما بعثه سيدى صحبتها من الهديه والتحفة الوديه وقبلتها امتثالا واستجليت منها عتقا وجمالا وسيدى فى الوقت انسب باتخاذ ذلك الجنس وأقدر على الاستكثار من اناث البهم والانس وأنا ضعيف القدرة غير مستطيع لذلك الا فى الندره فلورأى

سيدى ورأيه سداد وقصده فضل ووداد أن ينقل القضية الى باب العارية من باب الهبة مع وجود الحقوق المترتبة لبسط خاطرى وجبره وحمل فى رفع المؤنة على شاكلة حالى معه وقد استصعب مركوبا يشق على هجره ويناسب مقامى شكله ونجره وسيدى فى الاسعاف على الله أجره وهذا أمر عرض وفرض فرض وعلى نظره المعول واعتماد اغضائه هو المعقول الاول والسلام على سيدى من معظم قدره وملتزم بره ابن الخطيب فى ليلة الاحد السابع والعشرين لذى القعدة سنة خمس وخمسين وسبعمائة والسماء قد جادت بمطر سهرت منه الاجفان وظن أنه طوفان والتحاق فى غدها بالباب المولوى مؤمل بحول الله اه ولما قدم الوزير المذكور على السلطان المذكور تقدم الوفد الذين من وزراء الاندلس وفقهائها ومثل بين يديه واستأذنه فى انشاد شئ من الشعر يقدمه بين يدى نجواه فاذن له وأنشد وهو قائم

خليفة الله ساعد القدر * علاك مالاح فى الدجا قمر
ودافعت عنك كف قدرته * ماليس يستطيع دفعه البشر
وجهك فى النائبات بدر دجا * لنا وفى المحل كفك المطر
والناس طرا بارض اندلس * لولاك ما أوطنوا ولا عمروا
ومن به مذ وصلت حبلهم * ما جحدوا نعمة ولا كفروا
وجملة الامر انه وطن * فى غير عليائك ماله وطر
وقد أهمتهم نفوسهم * فوجهونى اليك وانتظروا

فاهتز السلطان أبو عنان لهذه الابيات وأذن له فى الجلوس وقال له قبل ان يجلس ما ترجع اليهم الا بجميع طلباتهم ثم أدى الرسالة ودفع الكتاب ولما عزموا على الانصراف أثقل كاهلهم بالاحسان وردهم بجميع ما طلبوه *قال ابن خلدون* قال شيخنا القاضى أبو القاسم الشريف وكان معه فى ذلك الوفد لم نسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلم على السلطان الا هذا ونص الكتاب الذى قدم به ابن الخطيب المقام الذى يغنى عن كل مفقود بوجوده ويهز الى جميل العوائد أعطاف بأسه وجوده ونستضئ عند اظلام الخطوب بنور سعوده ونرث من الاعتماد عليه أسنى ذخر ورثه الولد عن آبائه وجدوده مقام محل أبينا الذى يرعى الاذمة شانه وصلة الراعى سجية انفرد بها سلطانه ومواعد النصر ينجزها زمانه والقول والفعل فى ذات الله تعالى تكفلت بهما يده الكريمة ولسانه وتطابق فيهما اسراره واعلانه السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاه الله تعالى محروسا من غير الايام جنابه موصولة بالوقاية الالهية أسبابه مسدولا على ذاته الكريمة ستر الله تعالى وحجابه مصروفا عنه من صروف القدر ما يعجز عن رده بوابه ولا زال ملجأ تنفق لديه الوسائل التى تدخرها لاولادها أولياؤه وأحبابه ويسطر فى صحف الفخر ثوابه وتشتمل على مكارم الدين والدنيا أثوابه وتتكفل بنصر الاسلام وجبر القلوب عند طوارق الايام كتائبه وكتابه معظم ما عظم من حقه السائر من اجلاله وشكر خلاله على لاحب طرقه المستضئ فى ظلمة الخطب بنور أفقه الامير عبد الله محمد ابن أمير المسلمين أبى الحجاج ابن أمير المسلمين أبى الوليد بن فرج بن نصر سلام كريم طيب برّ عميم يخص مقامكم الاعلى ورحمة الله تعالى وبركاته أما بعد حمد الله الذى لا راد لامره ولا معارض لفعله مصرّف الامر بقدرته وحكمته وعدله الملك الحق الذى بيده ملاك الامر كله مقدّر الآجال والاعمار فلا يتأخر شئ عن ميقاته ولا يبرح عن محله جاعل الدنيا مناخ نقلة لا يغتبط العاقل بعائه ولا بظله وسبيل رحلة فما أكثب ظعنه من حله والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد صفوة خلقه وخيرة أنبيائه وسيد رسله الذى نعتصم بسببه الاقوى ونتمسك بحبله ونغذ بالافتقار الى فضله

ونجاهد

ونجاهد في سبيله من كذب به أو حاد عن سبله ونصل اليه ابتغاء مرضاته ومن أجله والرضا عن آله وأحزابه وأنصاره وأهله المستولين من ميدان الكمال على خصله والدعاء لمقامكم الاعلى بعز نصره ومضاء فضله فانا كتبناه اليكم كتب الله تعالى لكم وقاية لا تطرق الخطوب حماها وعصمة ترجع عنها سهام النوائب كلما فوقها الدهر ورماها وعناية لا تغير الحوادث اسمها ولا مسماها وعزا يزاحم أجرام الكواكب منتماها من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى ونعم الله سبحانه تتوالى لدينا دفعا ونفعا والطافه تتعرفها ونراها وشفعا ومقامكم الابوى هو المستند الاقوى والمورد الذى ترده آمال الاسلام فتروى وتهوى اليه أفئدتهم فتجد ما تهوى ومثابتكم العدة التي تأسست مبانيها على البر والتقوى والى هذا وصل الله تعالى سعدكم وأبقى مجدكم فانا لما نعلم من مساهمة مجدكم التي يقتضيها كرم الطباع وطباع الكرم وتدعو اليها ذمم الرعى ورعى الذمم نعرفكم بعد الدعاء لملككم بدفاع الله تعالى عن ارتقائه وامتاع المسلمين ببقائه بما كان من وفاة مولانا الوالد نفعه الله تعالى بالسعادة التى أبسمحلتها والشهادة التى فى أعماله الزكية كتبها والدرجة العالية التى حتمها له وأوجبها وعبا تصيرلنا من أمره وضم بنا من نشره وسدل على من خلفه من ستره وانه العبرة لمن ألقى السمع وموعظة تهز الجمع وترسل الدمع وحادثة أجل الله تعالى فيها الدفع وشرح مجملها وان أخرس اللسان هولها وأسلم العبارة قوتها وحولها انه رضى الله تعالى عنه لما برز لاقامة سنة هذا العيد مستشعرا شعار كلمة التوحيد مظهرا سمة الخضوع للولى الذى تضرع بين يديه رقاب العبيد آمنا بين قومه وأهله متسربلا فى حلل نعم الله تعالى وفضله قرير العين باكتمال عزه واجتماع شمله قد احترس باقصى استطاعته واستظهر بخلصان طاعته والاجل المكتوب قد حضر والارادة الالاهية قد أنفذت القضاء والقدر وسجد بعد الركعة الثانية من صلاته أتاه أمر الله لميقاته على حين الشباب غض جلبابه والسلاح زاخر عبابه والدين بهذا القطر قد أينع بالامن جنابه وأمر من يقول للشئ كن فيكون قد بلغ كتابه ولم يرعه وقد اطمأنت بذكر الله تعالى القلوب وخلصت الرغبات الى فضله المطلوب الاشقى قيضه الله تعالى لسعادته غير معروف ولا منسوب وخبيث لم يكن معتبر ولا محسوب تخلل الصفوف المعقوده وتجاوز الابواب المسدوده وخاض الجموع المشهوده والامم المحشورة الى طاعة الله المحشوده لا تدل العين عليه شارة ولا بزه ولا تحمل على الحذر من مثله أنفة ولا عزه وانما هو خبيث ممرور وكلب عقور وحية سمها وحى محذور وآلة مصرفة لينفذ بها قدر مقدور فلما طعنه وأثبته وأعلق به شرك الحين فأقلته قبض عليه من الخلصان الاولياء من خبر ضميره وأحكم تقريره فلم يجب عند الاستفهام جوابا يعقل ولا عثر على شئ عنه ينقل لطفا من الله أفاد براءة الذمم وتعاورته للحين أيدى التمزيق وأتبع شلوه بالتحريق واحتمل مولانا الوالد رحمه الله الى القصر وبه ذماء لم يلبث بعد الفتكة العمرية الا أيسر من اليسير وتخلف الملك ينظر من الطرف الحسير وينهض بالجناح الكسير وقد عاد جمع السلامة الى جمع التكسير الا ان الله تعالى تدارك هذا القطر الغريب بان أقامنا مقامه لوقته وحينه ورفع عماد بناء ملكه ولم تشعث دينه وكان جميع من حضر المشهد من شريف الناس ومشروفهم وأعلامهم ولفيفهم قد جمعه ذلك الميقات وحضر الاولياء الثقات فلم تختلف علينا كلمة ولا شذت منهم عن بيعتنا نفس مسلمة ولا أخيف برى ولا حذر جرى ولا فرى فرى ولا وقع لبس ولا استوحشت نفس ولا نبض للفتنة عرق ولا أغفل للدين حق فاستند النقل الى نصه ولم يعدم من فقيد نا غير شخصه وبادرنا الى مخاطبة البلاد نعهدها ونسكنها ونقرر الطاعة فى النفوس ونمكنها وأمرنا الناس بها بكف الايدى ورفع التعدى والعمل من حفظ شروط المسالمة المعقودة بما يجدى ومن شره منهم للغرار عاجلناه بالانكار وصرفنا على النصارى ما أوصاه مصحبا بالاعتذار وخاطبنا صاحب قشتالة نرى ما عنده فى صلة

السلم الى أمدها من الاخبار واتصلت بنا البيعات من جميع الاقطار وعفى على حزن المسلمين والدنا ما ظهر عليهم ولا يقنا من الاستبشار واستبقوا اتطير بهم أجنحة الابتدار جعلنا الله تعالى ممن قابل الحوادث بالاعتبار وكان على حذر من تصاريف الاقدار واختلاف الليل والنهار وأعاننا على اقامة دينه فى هذا الوطن الغريب المنقطع بين العدوّ الطاغى والبحر الزخار وألهمنا من شكره ما يتكفل بالمزيد من نعمه ولا قطع عنا عوائد كرمه وان فقدنا والدنا فانتم لنا من بعده الوالد والذخر الذى تكرم منه العوائد والحب يتوارث كما ورد فى الاخبار التى صحت منها الشواهد ومن أعدّ مثلكم لابنيه فقد تيسرت من بعد الممات أمانيه وتأسست قواعد ملكه وتشيدت مبانيه فالاعتقاد الجميل موصول وانفروع لها فى التشيع اليكم أصول وفى تقرير فخركم محصول وأنتم ردء المسلمين بهذه البلاد المسلمة الذى يعينهم بارفاده وينصرهم بانجاده ويعامل الله تعالى فيها بصدق جهاده وعندما استقر هذا الامر الذى تبعت المحنة فيه المنحه ورافقت من فضل الله تعالى ولطفه فيه الصفحه وأخذنا البيعة من أهل حضرتنا بعد استدعاء خواصهم وأعيانهم وتزاحمت على رقها المنشور خطوط أيمانهم وتأصلت قواعد ألفاظها ومعانيها فى قلوبهم وآذانهم وضمنوا الوفاء بما عاهدوا الله عليه وقد خبر سلفنا والحمد لله وفاء ضمانهم بادرنا تعريف مقامكم الذى نعلم مساهمته فيما ساء وسرّ وأحلى وأمرّ عملا بمقتضى الخلوص الذى ثبت واستقرّ والحب الذى ما مال يوما ولا ازورّ وما أحق تعريف مقامكم بوقوع هذا الامر المحذور وانجلاء ليله عن صبح الصنع البادى السفور وان كنا قد خاطبنا من خدامكم من يبادر اعلامكم بالامور الا أنه أمر له ما بعده وحادث يأخذ حدّه ونبعث الى بابكم من شاهد الحال ما بين وقوعها الى استقرارها رأى العيان وتولى تسديد الامور باعماله الكريمة ومقاصده الحسان ليكون أبلغ فى البر وأشرح للصدر وأوعب للبيان فوجهنا اليكم وزير أمرنا وكاتب سرنا الفقيه الاجل أبا عبد الله محمد بن الخطيب وألقينا اليه من تقرير تعويلنا على ذلك المقام الاسنى واستنادنا من التشيع اليه الى الركن الوثيق المبنى ما نرجو أن يكون له فيه المقام الاغنى والثمرة العذبة المجنى فلاهتمامه بهذا الغرض الاكيد الذى هو أساس بنائنا وقامع أعدائنا وآثرنا توجيهه على توفر الاحتياج اليه ومدار الحال عليه والمرغوب من أبوتكم المؤملة أن يتلقاه قبولها بما يليق بالملك العالى والخلافة السامية المعالى والله عز وجل يديم أيامكم لصلة الفضل المتوالى ويحفظ مجدكم من غير الايام والليالى وهو سبحانه يصل سعدكم ويحرس مجدكم ويوالى نصركم وعضدكم والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله وبركاته اهـ وللسلطان الغنى بالله هذا مع السلطان أبى عنان رحمهما الله مراسلات عديدة ومكاتبات مديدة قد ذكر صاحب نفح الطيب منها جملة وافرة مع التنبيه على أسبابها فانظرها فيه ان شئت وأكرم السلطان أبو عنان الوزير ابن الخطيب فى هذه الوفادة وغيرها اكراما بليغا ولما انصرف عنه مدحه بقصيدة طويلة طنانة يقول فى أولها

أبدى لداعى الفوز وجه منيب * وأفاق من عذل ومن تأنيب

ويقول فى أثنائها

يا ناصر الدين الحنيف وأهله * انضاء مسغبة وفل خطوب
حقق ظنون بنيه فيك فانهم * يتهمون بوعدك المرقوب
ضاقت مذاهب نصرهم فتعلقوا * بجناب عزم من علاك رحيب
ودجا ظلام الكفر فى آفاقهم * أوليس صبحك منهم بقريب
فانظر بعين العزم من ثغر غدا * حذر العدا يرنو بطرف مريب
نادتك أندلس ومجدك ضامن * ألا يخيب لديك ذو مطلوب

وهى طويلة

﴿وفى سنة ست وخمسين وسبعمائة﴾ انتقض على السلطان أبى عنان وزيره وصاحب شوراه عيسى بن

الحسين بن علي بن أبي الطلاق من شيوخ بني مرين ووجوهها وكان السلطان أبو عنان قد استعمله على جبل طارق فتمكنت رياسته به وانتقض على السلطان لاسباب يطول شرحها ثم التاث حاله وضاقت مذاهبه فقبض عليه وأحضر بين يدي السلطان أبي عنان هو وابنه يوم منى من سنة ست وخمسين المذكورة فتنصلا واعتذرا فلم يقبل منهما وأودعهما السجن وضيق عليهما ولما كان آخر السنة أمر بهما فجنبا الى مصارعهما وقتل عيسى قعصا بالرماح وقطع ابنه أبو يحيى من خلاف وأبى من مداواة قطعه فلم يزل يتخبط في دمه الى ان هلك بعد ثلاثة أيام من قطعه وعقد السلطان على جبل طارق وسائر ثغور الاندلس لسليمان بن داوود ثم عقد بعده لولده أبي بكر السعيد وهو الذي تولى الملك بعده والله أعلم

## ﴿رحلة السلطان أبي عنان الى سلا وتطارحه على وليها الاكبر أبي العباس ابن عاشر رضي الله عنه﴾

كان لبني مرين عموما وللسلطان أبي عنان خصوصا جنوح الى الخير ومحبة في أهله وتعرض لمن يشار اليه بالصلاح واستمطار لطله ووبله وكان الشيخ الاشهر أبو العباس أحمد بن عاشر الاندلسي رضي الله عنه قد استوطن في هذا التاريخ مدينة سلا وكان من الافراد الجامعين بين العلم والعمل المتمسكين بالكتاب والسنة الناهجين سنن السلف الصالح في الزهد والورع والانقطاع عن الخلق جملة بحيث طار ذكره وعظم لدى الخاص والعام قدره فتحركت همة السلطان أبي عنان لزيارته والاقتباس مما يفتح الله به من وعظه واشارته فارتحل سنة سبع وخمسين وسبعمائة الى سلا فقدمها وحرص على الاجتماع بالشيخ المذكور ووقف ببابه مرارا فلم يأذن له وترصده يوم الجمعة بعد الصلاة ولما انفض الناس تبعه على قدميه والناس ينظرون اليه وهو لا يراه فقال السلطان عند ذلك لقد منعنا من هذا الولي ثم أرسل اليه ولده راغبا ومستعطفا فأجابه بما قطع رجاءه من لقائه غير أنه كتب اليه كتابا وعظه فيه وذكره فسر السلطان أبو عنان بذلك الكتاب وحزن لما فاته من الاجتماع بالشيخ وقد ذكر الفقيه العلامة البركة أبو العباس أحمد بن عاشر بن عبد الرحمن السلاوي المدعو بالحافي في كتابه تحفة الزائر في مناقب الشيخ ابن عاشر نص هذا الكتاب ولم يحضرني الآن فانظره فيه وبالله تعالى التوفيق

## ﴿غزوة السلطان أبي عنان افريقية وفتح قسنطينة ثم فتح تونس بعدها﴾

لما كانت أيام التشريق من سنة سبع وخمسين وسبعمائة اعتزم السلطان أبو عنان على النهوض الى افريقية واضطرب معسكره بساحة فاس الجديد وبعث في الحشد الى مراكش وأوعز الى بني مرين باتخاذ الاهبة للسفر وجلس للعطاء وعرض الجنود من لدن عزمه على النهوض الى شهر ربيع الاول من سنة ثمان وخمسين بعدها ثم ارتحل من فاس وسرح في مقدمته وزيره فارس بن ميمون في العساكر وسار هو في ساقته على التعبية الى ان احتل بجاية وتلوم لازاحة العلل ثم نازل الوزير قسنطينة وجاء السلطان على أثره ولما أطلت راياته وماجت الارض بجنوده ذعر أهل البلد وألقوا بأيديهم الى الاذعان وانفضوا من حول سلطانهم أبي العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر الحفصي وجاؤا مهطعين الى السلطان أبي عنان وتحيز الحفصي في خاصته الى القصبة ثم طلبوا الامان من السلطان أبي عنان فبذله لهم وخرجوا وأنزلهم بعسكره أياما ثم بعث بأبي العباس في الاسطول الى سبتة فاعتقله بها وعقد على قسنطينة لمنصور ابن الحاج خاوف الباباني من شيوخ بني مرين وأهل الشورى منهم وأنزله بالقصبة في شعبان من السنة المذكورة ووصلت اليه بيعات أمراء الاطراف من توزر ونفطة وقابس وغيرها ووفد عليه أولاد مهلهل أمراء بني كعب من سليم وأقيال بني أبي الليل منهم يستحثونه لملك تونس فسرح معهم العساكر وعقد عليها ليحيى بن عبد الرحمن بن تاشفين وبعث اسطوله في البحر مددا لهم وعقد عليه للرئيس محمد بن يوسف المعروف بالابكم من أمراء بني الاحمر وكان سلطان تونس يومئذ أبا اسحق ابراهيم بن أبي بكر

الحفصى ولما اتصل به خبر بنى مرين أخرج حاجبه أبا محمد بن تافراجين لقتالهم فزحفت الجيوش الى تونس ووصل الاسطول الى مرساها فقاتلهم ابن تافراجين يوما أو بعض يوم ثم ركب الليل الى المهدية فتحصن بها ودخل أولياء السلطان الى تونس فى رمضان من سنة ثمان وخمسين وسبعمائة وأقاموا بها الدعوة المرينية واحتل يحيى بن عبد الرحمن بالقصبة وأنفذ الاوامر وكتب الى السلطان أبى عنان بالفتح فعظم سروره ونظر بعد ذلك فى أحوال ذلك القطر وقبض أيدى العرب من رياح عن الاتاوة التى يسمونها الخفارة فارتابوا وطالبهم بالرهن على الطاعة فأجمعوا الخلاف واتفقوا على أميرهم يعقوب بن على ولحقوا بالزاب وارتحل السلطان فى أثرهم فاجفلوا أمامه الى القفر فخرب حصونهم التى بالزاب ورجع عنهم وحمل له ابن مزنى عامل بسكرة الزاب وجبايته وأطلق المؤن للعسكر من الادام والحنطة والجملان والعلوفة ثلاثة أيام وكافأه السلطان على صنيعه فخلع عليه وعلى أهله وولده وأسنى جوائزهم ورجع الى قسنطينة واعتزم على الرحلة الى تونس وضاقت العساكر ذرعا بشأن النفقات والابعاد فى الرحلة وارتكاب الخطر فى دخول افريقية فتمشت رجالاتهم فى الانفضاض عن السلطان وداخلوا الوزير فارس بن ميمون فى ذلك فوافقهم ثم أذن شيوخ العسكر ونقباؤه لمن تحت أيديهم من القبائل فى اللحاق بالمغرب حتى بقوا منفردين وأنمى الى السلطان أبى عنان أن شيوخ العسكر قد عزموا على قتله ونصب ادريس بن عثمان ابن أبى العلاء للامر فأسرها فى نفسه ولم يبدها لهم ورأى قلة من معه من الجند فارتاب وكر راجعا الى المغرب بعد ان كان ارتحل عن قسنطينة الى جهة تونس مرحلتين فانكفأ وأغذ السير الى فاس فاحتل بها غرة ذى الحجة من سنة ثمان وخمسين المذكورة وتقبض يوم دخوله على وزيره فارس بن ميمون لانه اتهمه بمداخلة بنى مرين فى شأنه وقتله رابع أيام التشريق قعصا بالرماح وتقبض على مشيخة بنى مرين فاستلحمهم وأودع طائفة منهم السجن ولما رجع السلطان أبو عنان من افريقية بلغ خبره الى الجهات فارتحل أبو محمد بن تافراجين من المهدية الى تونس ولما أطل عليها ثارت شيعة الحفصيين على من كان بها من جيش بنى مرين فلجؤا الى السفن وركبوا البحر الى المغرب وجاء على أثرهم يحيى بن عبد الرحمن فيمن كان معه من العساكر وأولاد مهلهل وكان يوم الهيعة بناحية الجريد لاقتضاء جبايته فصوب الى المغرب واجتمعوا كلهم بباب السلطان أبى عنان فارجأ حركته الى العام القابل وكان مانذكره ان شاء الله

## ﴿وزارة سليمان بن داود ونهوضه بالعساكر الى افريقية﴾

لما رجع السلطان أبو عنان من افريقية ولم يستتم فتحها بقى فى نفسه منها شئ وخشى على ضواحى قسنطينة من يعقوب بن على ومن معه من الذواودة المخالفين فأهمه شأنهم واستدعى سليمان بن داود من مكانه بجبل طارق وعقد له على وزارته وسرحه فى العساكر الى افريقية فنهض اليها فى ربيع من سنة تسع وخمسين وسبعمائة وكان السلطان أبو عنان لما خالف عليه يعقوب بن على وفر الى القفر أقام مكانه أخاه المنازع له فى رياسة رياح ميمون بن على وقدمه على أولاد محمد من الذواودة وأحله بمكانه من رياسة البدو فنزع اليه عن أخيه يعقوب الكثير من قومه وتمسك بطاعة السلطان أيضا طوائف من أولاد سباع بن يحيى فانحاشوا جميعا للوزير ونزلوا بحللهم على معسكره ثم ارتحل السلطان أبو عنان من فاس حتى احتل بتلمسان فأقام بها مشارفة أحوال الوزير المذكور واحتل الوزير بوطن قسنطينة وبعث الى عامل بسكرة والزاب يوسف بن مزنى بان تكون يده معه وان يفاوضه فى أحوال الذواودة لرسوخه فى معرفتها فارتحل اليه من بسكرة ونازلوا جبل أوراس واقتضوا جبايته ومغارمه وشردوا المخالفين من الذواودة عن العيث فى الوطن فتم غرضهم من ذلك وانتهى الوزير وعساكر السلطان الى أول أوطان افريقية من آخر مجالات رياح وانكفأ راجعا الى المغرب فوافى السلطان أبا عنان بتلمسان ووصلت معه وفود العرب الذين أبلوا فى الخدمة فوصلهم السلطان وخلع عليهم وحملهم وفرض لهم فى العطاء بالزاب

وكتب لهم بذلك وانقلبوا الى أهليهم فرحين مغتبطين ووفد على أثرهم أحمد بن يوسف بن مزنى أوفده أبوه بهدية الى السلطان من الخيل والرقيق والدرق فتقبلها السلطان وأكرم وفادته ثم استصحبه الى فاس ليريه أحوال كرامته وليستبلغ فى الاحتفاء به واحتل بدار ملكه منتصف ذى القعدة من سنة تسع وخمسين وسبعمائة

﴿وفاة السلطان أبى عنان رحمه الله﴾

لما وصل السلطان أبو عنان الى دار ملكه بفاس احتل بها بين يدى العيد الاكبر حتى اذا قضى الصلاة من يوم الاضحى أدركه المرض بالمصلى وأعجله طائف الوجع عن الجلوس للناس يوم العيد على العادة فدخل قصره ولزم فراشه ﴿وذكر ابن خلدون﴾ ما حاصله انه كانت بين الوزير حسن بن عمر الفودودى وبين ولى العهد أبى زيان محمد ابن السلطان أبى عنان نفرة مستحكمة لسوء طويته وشره ملكته فاتفق الوزير المذكور ومع من كان على رأيه من أهل مجلس السلطان على تحويل الامر عنه الى غيره من أبناء السلطان فأجمعوا الفتك به والبيعة لاخيه أبى بكر السعيد طفل لاخماسيا ثم أغروا الوزير مسعود بن عبد الرحمن بن ماساى بتطلب أبى زيان ولى العهد فى نواحى القصر والتقبض عليه فدخل اليه وتلطف فى اخراجه من بين الحرم وقاده الى أخيه السعيد فبايع وثل الى بعض حجر القصر فأتلفت فيها مهجته واستقل الحسن ابن عمر بالامر يوم الاربعاء الرابع والعشرين من ذى الحجة والسلطان أبو عنان أثناء ذلك يجود بنفسه وارتقب الناس دفنه يوم الاربعاء والخميس بعده فلم يدفن فارتابوا وفشى الكلام فدخل الوزير زعموا اليه بمكانه من قصره ثم غطه حتى أتلفه ودفن يوم السبت وحجب الحسن بن عمر الولد المنصوب للامر وأغلق عليه بابه وتفرد بالامر والنهى دونه انتهى وهذا أول مرض نزل بالدولة المرينية ﴿وقال فى الجذوة﴾ توفى السلطان أبو عنان قتيلا خنقه وزيره الحسن بن عمر الفودودى يوم السبت الثامن والعشرين من ذى الحجة متم سنة تسع وخمسين وسبعمائة وسنه يوم توفى ثلاثون سنة

﴿بقيـة أخبار السلطان أبى عنان وسيرته﴾

كان السلطان أبو عنان رحمه الله أبيض اللون تعلوه صفرة طويل القامة يشرف على الناس بطوله نحيف البدن عالى الانف حسنه أعين أدعج جهورى الصوت فى كلامه عجلة حتى لا يكاد السامع يفهم ما يقول عظيم اللحية تملأ صدره أسودها واذا مرت بها الريح تفرقت نصفين حتى يستبين موضع الذقن وكان فارسا شجاعا يقوم فى الحرب مقام جنده وكان فقيها يناظر العلماء الجلة عارفا بالمنطق وأصول الدين وله حظ صالح من علمى العربية والحساب وكان حافظا للقرآن عارفا بناسخه ومنسوخه حافظا للحديث عارفا برجاله فصيح القلم كاتبا بليغا حسن التوقيع شاعرا أنشد له صاحب الجذوة أشعارا حسنة من ذلك فى الحكمة قوله

واذا تصدر للرياسة خامل ✽ جرت الامور على الطريق الاعوج

﴿وقال ابن الاحمر﴾ كنت يوما جالسا معه بمقعد ملكه من المدينة البيضاء بفاس فدخل عليه رجل يتصلح فلما نظر اليه قال بديهة

تراهم فى ظواهرهم كراما ✽ ويخفون المكيدة والخداعا

وللسلطان أبى عنان رحمه الله آثار دينية من بناء المدارس والزوايا وغير ذلك ومدرسته العنانية بفاس مشهورة الى الآن ومن مدارسه المدرسة العجيبة بحومة باب حسين من سلا وقد صارت اليوم فندقا يعرف بفندق اسكور ✽ ومما قاله أبو بكر بن جزى فى بعض ما أنشأه السلطان المذكور من الزوايا قوله

هذا محل الفضل والايثار ✽ والرفق بالسكان والزوار

دار على الاحسان شيدت والتقى * فجزاؤها الحسنى وعقبى الدار
هي ملجأ للواردين ومورد * لابن السبيل وكل ركب سارى
آثار مولانا الخليفة فارس * أكرم بها في المجد من آثار
لازال منصور اللواء مظفرا * ماضي العزائم سامى المقدار
بنيت على يد عبدهم وخديمهم * بهم العلى محمد بن حدار
في عام أربعة وخمسين انقضت * من بعد سبعمئين في الاعصار

﴿وقال صاحب الجذوة﴾ حدثني شيخنا أبو راشد اليدري أن السلطان أبا عنان هو الذي أحدث بفاس العلم الازرق في الصومعة يوم الجمعة ﴿وقال في موضع آخر منها﴾ حكى أن السلطان أبا عنان المريني صعد الصومعة يعني بالقرويين ليعتبر المدينة وترتيبها ووقف على المنجانة وما اتصل بها فاستحسن ذلك وأنعم على الناظر فيها بمرتب وسع عليه فيه ليستعين به على القيام بشعائر الاسلام وذلك في سنة تسع وأربعين وسبعمائة قال وأمر باثر ذلك بل ينصب بأعلى الصومعة صارى من خشب وينشر فيه علم في الاوقات التي يصلى فيها وفنار فيه سراج مزهر في أوقات صلاة الليل ليستدل بذلك من بعد ومن لم يسمع النداء وفي ذلك اعتناء بأمور الاوقات ومايتعلق بها من وجوب الصلوات ويترتب عليها من وجوه الحقوق في العادات والعبادات ومما قيل في ذلك

نور به علم الايمان مرتفع * للمهتدين به للحق ارشاد
يأتون من كل صوب نحوه فلهم * لديه للرشد اصدار وايراد

وقد لخص ابن الخطيب رحمه الله في رقم الحلل سيرة السلطان أبي عنان فقال

وخلص الامر لكف فارس * باني الزوايا الكثر والمدارس
الاسد المفترس المصنوع له * من نال من كل المساعى أمله
واحد آحاد الملوك العظما * ومطلع النصر اذا ما أقدما
ومخجل الغيث اذا الغيث هما * وعالم الملك وملك العلما
أوجب حق الشعر والكتابه * فأملت أعلامها جنابه
واستجلب الاماثل الكبارا * والنبهاء العلية الاخيارا
يجبرهم على حضور الدوله * فهم بدور وشموس حوله
وكان جبارا على خدامه * يناله بالقسر في أحكامه
مذهبه ألا يقيل عثره * حتى لارباب التقى والاثره
فطرة السيف تناغى الدره * اذ غلبت على المزاج المره
ومات فيما قيل شر ميته * بغيلة لنفسه مفيته
لم يغن عنه الباس والبساله * وأصبحت مهجته مساله
والقيت أزمة التدبير * من بعده في راحة الوزير

﴿ومن أعيان كتابه﴾ أبو القاسم بن رضوان وأبو القاسم البرجي ﴿ومن أعيان قضاته﴾ أبو عبد الله محمد ابن محمد بن أحمد المقري وهو جد أبي العباس المقري صاحب نفح الطيب وغيره من التآليف الحسان وأبو عبد الله محمد بن أحمد الفشتالي وغيرهما رحم الله الجميع

## ﴿الخبر عن دولة السلطان السعيد بالله أبي بكر بن أبي عنان بن أبي الحسن المريني﴾

هذا السلطان أول من استبد عليه من ملوك بني مرين أمه أم ولد اسمها الياسمين كنيته أبو يحيى وهي كنية كل من اسمه أبو بكر لقبه السعيد بالله صفته درى اللون مستدير الوجه حسن الانف ألعس الشفتين

الشفتين برّاق الثنايا جعد الشعر بو يع وأبوه مريض فى التاريخ المتقدم وكان محجو بالوزيره حسن ابن عمر الفودودى لايملك معه ضرا ولا نفعا ولما بويع لحق أخوه عبد الرحمن بن أبى عنان بجبل الكاى وكان أسنّ منه وانما آثروه لمكان ابن عمه مسعود بن عبد الرحمن بن ماساى من وزارته فبعثوا اليه من لاطفه واستنزله على الامان وجاء به الى أخيه فاعتقله الحسن بن عمر بقصبته من فاس وبعث على أبناء السلطان الاصاغر الامراء بالثغور فجاء المعتصم من سجلماسة وامتنع المعتمد بمراكش وكان بها فى كفالة عامر بن محمد الهنتاتى وكان عامر هذا من بيوتات هنتاتة وأهل الرياسة والشرف فيهم وكان السلطان أبو عنان قد أوصى اليه بولده المذكور وجعله هنالك لنظره فلما بعثوا عليه منعه من الوصول اليهم وخرج به من مراكش الى حصنه من جبل هنتاتة فجهز اليه الوزير حسن بن عمر الجيوش لنظر الوزير سليمان بن داود مشاركه فى الاستبداد وسرّحه فى المحرم سنة ستين وسبعمائة فسار الى مراكش فاستولى عليها ثم تخطى الى الجبل فأحاط به وضيق على عامر حتى أشرف على اقتحام الحصن الى ان بلغه خبر افتراق بنى مرين بفاس وظهور منصور بن سليمان بها على ما نذكره فانفض العسكر من حوله وتسابقوا الى منصور فلحقوا به ولحق به سليمان بن داود أيضا وتنفس الحصار عن عامر ومكفوله والله غالب على أمره

## ﴿ظهور أبى حمو موسى بن يوسف الزيانى واستيلاؤه على تلمسان ونهوض مسعود ابن عبد الرحمن اليه وطرده عنها﴾

كان بنو عامر بن زغبة من عرب هلال خارجين على السلطان أبى عنان منذ استيلائه على تلمسان وكانت رياستهم الى صغير بن عامر بن ابراهيم ولما رجع أبو عنان الى فاس اعتزم صغير على الرحلة بقومه الى وطنهم من صحراء المغرب لانهم كانوا منتبذين عنها باطراف افريقية فدعوا أبا حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان الى الرحلة معهم لينصبوه للامر ويجلبوا به على تلمسان فأجابهم الى ذلك وأغذوا السير الى المغرب للعيث فى نواحيه فجمع لهم أعداؤهم من سويد وكانوا خالصة لبنى مرين فالتقوا بقبلة تلمسان فانهزمت سويد وهلك كبيرهم عثمان بن ونزمار واتصل بهم فى أثناء ذلك خبر وفاة السلطان أبى عنان بفاس فاغذوا السير الى تلمسان وقاتلوا عليها حامية بنى مرين ثم اقتحموها عليهم لليال خلون من ربيع الاول سنة ستين وسبعمائة واستباحوا من كان بها منهم وامتلأت أيديهم من أسلابهم واستولى أبو حمو على ملك تلمسان واستأثر بما ألفاه بها من متاع بنى مرين ومن جملته هدية كان السلطان أبو عنان أعدها هنالك ليبعث بها الى طاغية برشلونة وفيها فرس أدهم من مقرباته بمركب ولجام مذهبين ثقيلين فاتخذ أبو حمو ذلك الفرس لركوبه وصرف باقى الهدية فى وجوه مقاصده ولما انتهى الى الوزير حسن بن عمر خبر تلمسان واستيلاء أبى حمو عليها جمع شيوخ بنى مرين وأخبرهم بالنهوض اليها فأبوا عليه من النهوض بنفسه وأشاروا بتجهيز العساكر ووعدوه من أنفسهم المسير كافة ففتح ديوان العطاء وفرّق الاموال وأسنى الصلات وأزاح العلل وعسكر بساحة البلد الجديد ثم عقد عليهم لمسعود بن عبد الرحمن بن ماساى وحمل معه المال وأعطاه الآلة وسار فى العساكر والالوية ولما اتصل خبر مسيره بابى حمو أفرج له عن تلمسان ودخلها مسعود فى ربيع الثانى من السنة المذكورة فاستولى عليها وخرج أبو حمو الى الصحراء الى ان كان ما نذكره

## ﴿ظهور منصور بن سليمان وبيعة مسعود بن عبد الرحمن له وما نشأ عن ذلك﴾

منصور هذا هو منصور بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق وكان الناس يرجفون بان ملك المغرب سائر اليه بعد وفاة أبى عنان وشاع ذلك على ألسنة الناس حتى تحدث به السمر

والندمان وخشي منصور على نفسه من ذلك فجاء الى الوزير حسن بن عمر وشكا اليه ذلك فنهاه أن يختلج بفكره هذا الوسواس وانتهره انتهارا خلاعن وجه السياسة فانزجر واستكان ﴿قال ابن خلدون﴾ ولقد شهدت هذا الموطن فرحمت ذلة انكساره وخضوعه في موقفه ثم لما انهض مسعود بن عبد الرحمن الى تلمسان واستولى عليها كان منصور هذا في جملته ولما فر أبو حمو الى الصحراء اجتمعت عليه جموع العرب من بني زغبة وبني معقل ثم خالفوا بني مرين الى المغرب واحتملوا بانكاد بحللهم وظواعنهم فجهز اليهم مسعود بن عبد الرحمن عسكرا من جنوده انتقى فيه مشيخة بني مرين وأمراءهم وعقد عليهم لابن عمه عامر بن عبد الله بن ماساي وسرحه فزحف الى العرب بساحة وجدة فصدقه العرب القتال فانكشفت بنو مرين واستبيح معسكرهم واستلبت مشيختهم وأرجلوا عن خيولهم ودخلوا الى وجدة عراة وبلغ الخبر الى بني مرين الذين بتلمسان وكان في قلوبهم مرض من استبداد حسن بن عمر عليهم وحجره لسلطانهم فكانوا يتربصون بالدولة الدوائر فلما بلغهم هذا الخبر حاصوا حيصة حمر الوحش وخلصوا نجيا بساحة البلد فاتفقوا على البيعة ليعيش بن علي بن أبي زيان بن يوسف بن يعقوب فبايعوه وانتهى الخبر الى مسعود ابن عبد الرحمن وكان في جملته منصور بن سليمان كما قلناه فأكرهه على البيعة وبايعه معه الرئيس الابكم من بني الاحمر وقائد النصارى القهردور وتسايل اليه الناس من كل جانب وتسامع الملا من بني مرين بالخبر فتهاوروا اليه وذهب يعيش بن علي لوجهه فركب البحر الى الاندلس واستتب أمر منصور بن سليمان واجتمع بنو مرين على كلمته فارتحل بهم من تلمسان يريد المغرب واعترضتهم جموع العرب في طريقهم فأوقعت بهم بنو مرين وامتلأت أيديهم من أسلابهم وظعنهم ثم أغذوا السير الى المغرب فاحتلوا بوادي سبو في منتصف جمادى الآخرة من سنة ستين وسبعمائة وبلغ الخبر الى الحسن بن عمر فبرز واضطرب معسكره بساحة البلد وأخرج السلطان السعيد في الآلة والتعبية الى أن أنزله بفسطاطه ولما غشيهم الليل انفض عنه الملا الى منصور وفاوقد الوزير الشموع وأذكى النيران وجمع الموالي والجند حول الفسطاط حتى أركب السلطان وعاد به الى قصره وتحصن بالبلد الجديد وأصبح منصور بن سليمان فارتحل في التعبية حتى نزل بكدية العرائس في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة وغدا على فاس الجديد بالقتال وجمع الايدي على اتخاذ الآلات للحصار وانثالت عليه وفود الامصار بالمغرب بالبيعة ولحقت به كتائب بني مرين التي كانت مجمرة على حصن عامر بن محمد الهنتاتي ولحق به أيضا قائدها سليمان بن داود وكاد أمره يتم وأقام على فاس الجديد يغاديها القتال ويراوحها ثم بدا الخلل في عسكره ونزع عنه الى الوزير حسن بن عمر طائفة من بني مرين ولحق آخرون ببلادهم ووقفوا ينتظرون مآل أمره واستمر هذا الحال الى غرة شعبان فبينما الناس في ذلك اذ ظهر السلطان أبو سالم بجبال غمارة فانصرفت اليه وجوه أهل المغرب وبطل أمر السلطانين أبي بكر السعيد ومنصور بن سليمان معا وذابا كما يذوب الملح فأما منصور بن سليمان فانه فر الى بادس فقبض عليه وجيء به الى السلطان أبي سالم فقتله وأما السعيد فان وزيره الحسن بن عمر لما سمع بظهور السلطان أبي سالم واستفحال أمره نبذ دعوة سلطانه المذكور وبعث بطاعته الى أبي سالم ووعده بالتمكين من دار الملك ان قدم عليه فكان الامر كذلك وخلع السعيد يوم الثلاثاء الثاني عشر من شعبان سنة ستين وسبعمائة ثم قتل بعد ذلك غرقا في البحر فان السلطان أبا سالم بعثه في جملة الابناء المرشحين من بني أبي الحسن الى الاندلس ووكل بهم من يحرسهم ثم بعد ذلك بعث الى الموكل بهم فحملهم في سفينة كأنه يريد بهم المشرق ثم غرقهم في البحر والامر لله وحده

## ﴿الخبر عن دولة السلطان المستعين بالله أبي سالم ابراهيم بن أبي الحسن المريني﴾

كان هذا السلطان جوادا جم العطاء معروفا بالوفاء كثير الحياء كنيته أبو سالم لقبه المستعين بالله أمه أم ولد رومية اسمها قمر صفته آدم اللون معتدل القامة رحب الوجه واسع الجبين بادن

الجسم

الجسم أعين أدعج معتدل اللحية أسودها وكان بعد مهلك والده السلطان أبى الحسن رحمه الله قد استقر بالاندلس بعثه اليها أخوه أبو عنان كما مر ولما مات أبو عنان المذكور وولى ابنه الصبى طمع أبو سالم هذا فى الملك فاستأذن الحاجب رضوان مدبر دولة ابن الاحمر بالاندلس فى اللحاق ببلاده فأبى عليه فغاظه ذلك ونزع عنه الى طاغية قشتالة وتطارح عليه فى أن يحمله الى بر العدوة يطالب ملك أبيه فأسعفه وأمر به فحمل فى مركب وألقى به ملاحه فى ساحل بلاد غمارة بعد ان تردد فى أى السواحل يلقيه ووافق ذلك اختلاف الكلمة بفاس ومحاصرة منصور بن سليمان للمدينة البيضاء فتسامع الناس بخروجه ببلاد غمارة أحوج ما كانوا اليه فتسايلوا اليه من كل وجه وانفض الناس من حول منصور ومشى أهل معسكره بأجمعهم على التعبية فلحقوا بالسلطان أبى سالم واستعدوه على دار ملكه فأغذ السير اليها وخلع الحسن بن عمر سلطانه السعيد من الامر لتسعة أشهر من خلافته وأسلمه الى عمه فخرج اليه وبايعه ودخل السلطان أبو سالم البلد الجديد يوم الجمعة منتصف شعبان من سنة ستين وسبعمائة واستولى على ملك المغرب وتوافت وفود النواحى بالبيعات وعقد للحسن بن عمر على مراكش وجهزه اليها بالعساكر تخففا منه وريبة بمكانه من الدولة واستوزر مسعود بن عبد الرحمن بن ماساى والحسن بن يوسف الورتاجنى واصطفى من خواصه خطيب أبيه الفقيه أبا عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق وجعل الى أبى زيد عبد الرحمن بن خلدون صاحب التاريخ توقيعه وكتابة سره قال وكنت نزعت اليه من معسكر منصور بن سليمان بكدية العرائس لما رأيت من اختلال أحواله ومصير الامر الى السلطان أبى سالم فاقبل علىّ وأنزلنى بمحل التنويه واستخلصنى لكتابته اهـ

## ﴿قدوم الغنى بالله ابن الاحمر ووزيره ابن الخطيب مخلوعين على السلطان أبى سالم والسبب فى ذلك﴾

قد قدمنا أن السلطان أبا الحجاج قتل يوم عيد الفطر بالمصلى سنة خمس وخمسين وسبعمائة وولى الامر من بعده ابنه الغنى بالله محمد بن يوسف وكان له أخ اسمه اسمعيل فجعله الغنى بالله فى بعض القصور من حمراء غرناطة احتفاظا به الى ان كان رمضان من سنة ستين وسبعمائة فخرج الغنى بالله الى بعض منتزهاته خارج القصبة ولما كانت ليلة سبع وعشرين من رمضان المذكور أو ثمان وعشرين منه تسور جماعة من شيعة اسمعيل المحبوس عليه القصبة ليلا وأخرجوه من محبسه وأعلنوا بدعوته ثم اقتحموا على حاجبه رضوان داره فقتلوه على فراشه وبين نسائه وضبطوا القصبة وأعلنوا بالدعوة ولم يرع الغنى بالله الا قرع الطبول بالقصبة فى جوف الليل فاستكشف الخبر وتسمع فعلم بما تم عليه من خلعه وتولية أخيه فركب فرسه وخاض الليل الى وادى آش فاستولى عليها وضبطها وبايعه أهلها على الموت ثم عمد شيعة اسمعيل الثائر الى الوزير ابن الخطيب فاودعوه السجن بعد ان أغروا به ثائرهم واكتسحوا داره واصطلموا نعمته وأتلفوا موجوده وكان شيأ يجل عن الحصر واتصل ذلك كله بالسلطان أبى سالم وكانت له مصافاة مع ابن الاحمر من لدن كان عنده بالاندلس فكتب الى اسمعيل الثائر وشيعته يأمرهم بتخلية طريق الغنى بالله للقدوم عليه ويشفع فى تسريح ابن الخطيب وتخلية سبيله فاجابوا الى ذلك وقدم الغنى بالله ابن الاحمر ووزيره ابن الخطيب على السلطان أبى سالم فى السادس من محرّم فاتح سنة احدى وستين وسبعمائة فاجل السلطان أبو سالم قدومه وركب للقائه ودخل به الى مجلس ملكه وقد احتفل فى ترتيبه وقد غص بالمشيخة والعلية ووقف وزيره ابن الخطيب على قدميه فانشد السلطان أبا سالم قصيدته الرائية الرائقة يستصرخه لسلطانه ويستحثه لمظاهرته على أمره واستعطف واسترحم بما أبكى الناس شفقة له ورحمة ونص القصيدة

سلا هل لديها من مخبرة ذكر * وهل أعشب الوادى ونم به الزهر

وهل باكر الوسمى دارا على اللوا * عفت آيها الا التوهم والذكر

بلادى التى عاطيت مشمولة الهوى * بأكنافها والعيش فينان مخضر
وجوّى الذى ربى جناحى وكره * فها أنا ذا مالى جناح ولا وكر
نبت بى لا عن جفوة وملالة * ولا نسخ الوصل الهنى بها هجر
ولكنها الدنيا قليل متاعها * ولذاتها دأبا تزور وتزور
فمن لى بقرب العهد منها ودوننا * مدى طال حتى يومه عندنا شهر
ولله عينا من رآنا وللاسى * ضرام له فى كل جانحة جمر
وقد بددت در الدموع يد النوى * وللشوق أشجان يضيق لها الصدر
بكينا على النهر الشروب عشية * فعاد أجاجا بعدنا ذلك النهر
أقول لاظعانى وقد غالها السرى * وآنسها الحادى وأوحشها الزجر
رويدك بعد العسر يسران ابشرى * بانجاز وعد الله قد ذهب العسر
ولله فينا علم غيب وربما * أتى النفع من حال أريد بها الضر
وان تحن الايام لم تحن النهى * وان يخذل الاقوام لم يخذل الصبر
وان عركت منى الخطوب مجربا * نقابا تساوى عنده الحلو والمر
فقد عجمت عودا صليبا على الردا * وعزما كما تمضى المهندة البتر
اذا أنت بالبيضاء قررت منزلى * فلا اللحم حل ما حييت ولا الظهر
زجرنا بابراهيم برء همومنا * فلما رأينا وجهه صدق الزجر
بمنتخب من آل يعقوب كلما * دجا الخطب لم يكذب لعزمته فجر
تناقلت الركبان طيب حديثه * فلما رأته صدق الخبر الخبر
ندى لو حواه البحر لذ مذاقه * ولم يتعقب مده أبدا جزر
وبأس غدا يرتاع من خوفه الردى * وترفل فى أذياله الفتكة البكر
أطاعته حتى العصم فى قنن الربا * وهشت الى تأميله الانجم الزهر
قصدناك ياخير الملوك على النوى * لتنصفنا مما جنى عبدك الدهر
كففنا بك الايام عن غلوائها * وقد رابنا منها التعسف والكبر
وعذنا بذاك المجد فانصرم الردا * ولذنا بذاك العزم فانهزم الذعر
ولما أتينا البحر يرهب موجه * ذكرنا نداك الغمر فاحتقر البحر
خلافتك العظمى ومن لم يدن بها * فايمانه لغو وعرفانه نكر
ووصفك يهدى المدح قصد صوابه * اذا ضل فى أوصاف من دونك الشعر
دعتك قلوب المؤمنين وأخلصت * وقد طاب منها السر لله والجهر
وصدت الى الله الاكف ضراعة * فقال لها حق الله قد قضى الامر
وألبسها النعمى ببيعتك التى * لها الطائر الميمون والمحتد الحر
فأصبح ثغر الثغر يبسم ضاحكا * وقد كان مما نابه ليس يفتر
وأمنت بالسلم البلاد وأهلها * فلا ظبية تعرى ولا روعة تعروا
وقد كان مولانا أبوك مصرحا * بأنك فى أولاده الولد البر
وكنت حقيقا بالخلافة بعده * على الفور لكن كل شئ له قدر
فأوحشت من دار الخلافة هالة * أقامت زمانا لا يلوح بها البدر
فرد عليك الله حقك اذ قضى * بأن تشمل النعمى وينسدل الستر

وقاد اليك الملك رفقا بخلقه * وقد عدموا ركن الامامة واضطروا
وزادك بالتمحيص عزا ورفعة * وأجوا ولولا السبك ماعرف التبر
وأنت الذي يدعى اذا دهم الردا * وأنت الذي يرجى اذا أخلف القطر
وأنت اذا جار الزمان محكم * لك النقض والابرام والنهي والامر
وهذا ابن نصر قد أتى وجناحه * مهيض ومن عليائك يلتمس الجبر
غريب يرجى منك ما أنت أهله * فان كنت تبغي الفخر قد جاءك الفخر
ففز يا أمير المؤمنين ببيعة * موثقة قد حل عروتها الغدر
ومثلك من يرعى الدخيل ومن دعا * بيا لمرين جاءه العز والنصر
وخذ يا امام الحق بالحق ثاره * ففي ضمن ما تأتي به العز والاجر
وأنت لها يا ناصر الحق فلتقم * بحق فما زيد يرجى ولا عمرو
فان قيل مال مالك الدثر وافر * وان قيل جيش عندك العسكر المجر
يكف بك العادي ويحيا بك الهدى * ويبنى بك الاسلام ما هدم الكفر
أعده الى أوطانه عنك راضيا * وطوقه نعماك التي مالها حصر
وعاجل قلوب الناس فيه بجبرها * فقد صدهم عنه التغلب والقهر
وهم يرقبون الفعل منك وصفقة * تحاولها يمناك ما بعدها خسر
مرامك سهل لا يؤدك كلفة * سوى عرض ما ان له في العلى خطر
وما العمر الا زينة مستعارة * ترد ولكن الثناء هو العمر
ومن باع ما يفنى بباق مخلد * فقد أنجح المسعى وقد ربح التجر
ومن دون ما تبغيه يا ملك الهدى * جياد المذاكى والمحجلة الغر
ورادو شقر واضحات شياتها * فأجسامها تبر وأرجلها در
وشهب اذا ما ضمرت يوم غارة * مصممة غارت بها الانجم الزهر
وأسد رجال من مرين أعزة * عمائمها بيض وأسالها سمر
عليها من الماذى كل مفاضة * تدافع في أعطافها اللجج الخضر
هم القوم ان هبوا الكشف ملمة * فلا الملتقى صعب ولا المرتقى وعر
اذا سئلوا أعطوا وان نوزعوا سطوا * وان واعدوا وفوا وان عاهدوا بروا
وان مدحوا اهتزوا ارتياحا كأنهم * نشاوى تمشت في معاطفهم خمر
وان سمعوا العوراء فروا بأنفس * حرام على هاماتها في الوغى الفر
وتبسم ما بين الوشيج ثغورهم * وما بين قضب الدوح يبتسم الزهر
أمولاي غاضت فكرتي وتبلدت * طباعي فلا طبع يعين ولا فكر
ولولا حنان منك داركتني به * وأحييتني لم يبق عين ولا أثر
فأوجدت مني فائتا أي فائت * وأنشرت ميتا ضم أشلاءه قبر
بدأت بفضل لم أكن لعظيمه * بأهل فجل اللطف وانشرح الصدر
وطوقتني النعمى المضاعفة التي * يقل عليها مني الحمد والشكر
وأنت بتتميم الصنائع كافل * الى أن يعود الجاه والعز والوفر
جزاك الذي أسنى مقامك رحمة * يفك بها عان وينعش مضطر
اذا نحن أثنينا عليك بمدحة * فهيهات يحصي الرمل أو يحصر القطر

ولكننا نأتى بما نستطيعه * ومن بذل المجهود حق له العذر

ثم انفض المجلس وانصرف ابن الاحمر الى منزله المعدّ له وقد فرشت له القصور وقربت له الجياد بالمراكب المذهبة وبعث اليه بالكسا الفاخرة ورتبت الجرايات له ولمواليه من المعلوجى وبطانته من الصنائع واحتفظ عليه رسم سلطانه فى الراكب والراجل ولم يفقد من ألقاب ملكه الا الاداة أدبا مع السلطان واستقر فى جملته الى ان لحق بعد بالاندلس وعاد له ملكه سنة ثلاث وستين وسبعمائة وأرغد السلطان أبو سالم عيش ابن الخطيب وأفاض عليه الجرايات ورتب له الاقطاعات غير أنه كان مضمر المفارقة السلطان والتخلى عن خدمته والانفراد بنفسه لاغتنام ما بقى من عمره فى طاعة الله تعالى فكان من أمره فى ذلك ما نذكره

## ﴿سفر ابن الخطيب الى مراكش وأعمالها وزيارته لاوليائها ورجالها والسبب فى ذلك﴾

كان ابن الخطيب رحمه الله عندما حصلت له هذه النكبة وخلصه الله منها بانتقاله الى بلاد العدوة قد عن له رأى فى الترهد والانقطاع الى الله تعالى واغتنام بقية العمر فيما يعود عليه نفعه فى العاجل والآجل ورفض السلطان وأسبابه وترك ما يلجئه للوقوف ببابه فتلطف فى استئذان السلطان أبى سالم رحمه الله وطلب منه الاذن فى الذهاب الى جهات مراكش والوقوف على آثار الاقدمين بها والتطارح على أوليائها والمثول بأعتابها والتعلق بأذيالها والتمسك بأسبابها جاعلا ذلك مفتاح العزلة والتخلى عن الدولة فأذن له وكتب الى العمال بإتحافه والاعتناء به فتبار وافى ذلك كما يفصح عنه بعض شعره الآتى وجعل طريقه على مدينة سلا فتأمل أحوالها ورآها أوفق لمراده فى العزلة فأضمر الاستيطان بها عند عوده من وجهته ولما دخل مدينة آنفى وهى الدار البيضاء مر بها على دار عظيمة تنسب الى والى جبايتها عبو من بنى الترجمان قارون قومه وغنى صنفه وكان قد هلك قبل ذلك فقال ابن الخطيب

قد مررنا بدار عبو الوالى * وهى ثكلى تشكو صروف الليالى
أقصدت ربها الحوادث لما * رشقته بصائبات النبال
كان بالامس واليا مستطيلا * وهو اليوم ماله من والى

وأظنه فى هذه الوجهة خاطب شيخ العرب مبارك بن ابراهيم بن عطية بن مهلهل الخلطى ونص ما خاطبه به

ساحات دارك للضياف مبارك * وبضوء نارقراك يهدى السالك
ونوالك المبذول قد شمل الورى * طرّا وفضلك ليس فيه مشارك
قل للذى قال الوجود قد انطوى * والباس ليس له حسام فاتك
والجود ليس له غمام هاطل * والمجد ليس له همام باتك
جمع الشجاعة والرجاحة والندى * والباس والرأى الاصيل مبارك
للدين والدنيا وللشيم العلى * والجود ان شح الغمام السافك
عند الهياج ربيعة بن مكدّم * والفضل والتقوى الفضيل ومالك
ورث الجلالة عن أبيه وجدّه * فكأنهم ما غاب منهم هالك
لجياده للآملين مراكب * وخيامه للقاصدين أرائك
فاذا المعالى أصبحت مملوكة * أعناقها بالحق فهو المالك
يا فارس العرب الذى من بيته * حرم لهاج به ومناسك
يا من يبشر باسمه قصاده * فلهم اليه مسارب ومسالك
أنت الذى استأثرت فيك بغبطتى * وسواك فيه مآخذ ومتارك
لازلت نورا يهتدى بضيائه * من جنة الروع ليل حالك

ويخص مجدك من سلامي عاطر * كالمسك صالت به الغوالي صائك

الحمد لله تعالى الذي جعل بيتك شهيرا وجعلك للعرب أميرا وجعل اسمك فالا ووجهك جمالا وقربك جاها ومالا وآل رسول الله صلى الله عليه وسلم لك آلا أسلم عليك يا أمير العرب وابن أمرائها وقطب سادتها وكبرائها وأهنيك بما منحك الله تعالى من شهرة تبقى ومكرمة لا يضل المتصف بها ولا يشقى اذ جعل خيمتك في هذا المغرب على اتساعه واختلاف أشياعه مأمنا للخائف على كثرة المذاهب والطوائف وصرف الالسنة الى مدحك والخلود الى حبك وما ذلك الا لسريرة لك عند ربك ولقد كنت أيام تجمعني واياك المجالس السلطانية على معرفتك متهالكا وطوع الامل سالكا لما يلوح لي على وجهك من سيما المجد والحياء والشيم الدالة على العلياء وزكاء الاصول وكرم الآباء وكان والدي رحمه الله قد عين للقاء خال السلطان قريبكم لما توجه في الرسالة الى الاندلس نائبا في تانيسه عن مخدومه ومنوها حيث حل بقدومه واتصلت بعد ذلك بينهما المهاداة والمعرفه والوسائل المختلفه فعظم لاجل هذه الوسائل شوقي الى التشرف بزيارة ذلك الجناب الذي حلوله شرف وفخر ومعرفته كنز وذخر فلما ظهر الآن لمحل الاخ القائد فلان اللحاق بك والتعلق بسببك رأيت انه قد اتصل بهذا الغرض المؤمل بعضي والله تعالى ييسر في البعض عند تقرير الامر وهدنة الارض وهذا الفاضل بركة حيث حل لكونه من بيت اصالة وجهاد وماجدا وابن أمجاد ومثلك لا يوصى بحسن جواره ولا ينبه على ايثاره وقبيلك من العرب في الحديث والقديم وهو الذي أوجب لها مزية التقديم لم تفتخر قط بذهب يجمع ولا ذخر يرفع ولا قصر يبني ولا غرس يجنى انما فخرها عدو يغلب وثناء يجلب وجزر تنحر وحديث يذكر وجود على الفاقه وسماحة بحسب الطاقه فلقد ذهب الذهب وفني النشب وتمزقت الاثواب وهلكت الخيل العراب وكل الذي فوق التراب تراب وبقيت المحاسن تروى وتنقل والاعراض تجلى وتصقل ولله در الشاعر اذ يقول

واغا المرء حديث بعده * فكن حديثا حسنا لمن وعى

هذه مقدمة ان يسر الله بعدها لقاء الامير فيجلى اللسان عما في الضمير

ومدحي على الاملاك وقف وانما * رأيتك منها فامتدحت على وسمي

وما كنت بالمهدي لغيرك مدحتي * ولو انه قد حل في مفرق النجم

وقال في الشيخ ابن بطان الصنهاجي صنهاجة آزمور

لله درك يا ابن بطان فما * لشهير جودك في البسيطة جاحد

ان كان في الدنيا كريم واحد * يزن الجميع فانت ذلك الواحد

أجريت فضلك جعفرا يحيى به * ما كان من مجد فذكرك خالد

فالقوم منك تجمعوا في مفرد * ولدك ماشاء العلاء ووالد

وهي الليالي لا تزال صروفها * يشقى بموقعها الكريم الماجد

وبستعين الله يصلح منك ما * قد كان أفسده الزمان الفاسد

وقال رحمه الله عندما توسط بسيط تامسنا

كأنا بتامسنا نجوس خلالها * وممدودها في سيرنا ليس يقصر

مراكب في البحر المحيط تخبطت * ولا جهة تدرى ولا البر يبصر

وقال رحمه الله يخاطب أبا العباس أحمد بن يوسف حفيد المولى الصالح سيدي أبي محمد صالح النائم في ظل صيته رضي الله عنه يا حفيد الولي يا وارث الفخر * الذي نال في مقام وحال

لك يا أحمد بن يوسف جبنا * كل قطر يعيي أكف الرحال

وقال فى نقاضة الجراب لما خرجت من آسفى سرت الى منزل ينسب الى أبى حدو وفيه رجل من بنى المنسوب اليه اسمه يعقوب فألطف وأجزل وآنس فى الليل وطلبنى بتذكرة تثبت عندى معرفته فكتبت له

نزلنا على يعقوب نجل أبى حدوا * فعرفنا الفضل الذى ماله حد
وقابلنا بالبشر واحتفل القرا * فلم يبق لحم لم تنله ولا زبد
يحق علينا أن نقوم بحقه * ويلقاه منا البر والشكر والحمد

وقال رحمه الله وقد انتابه البرغوث

زحفت الى ركائب البرغوث * تم الظلام بركبها المحثوث
بالجبة السوداء قابل مقدمى * لله أى قرى أعد خبيث
كسحت بهن ذباب سرح تجادى * ليل لخيل الصبر جد ترثيث
ان صابرت نفسى أذاه تعبدت * أو صحت منه أنفت من تحنيثى
جيشان من ليل و برغوث فهل * جيش الصباح لصرختى يغيث

وقال رحمه الله وقد أشرف على الحضرة المراكشية حاطها الله تعالى

ماذا أحدث عن بحر سبحت به * من البحار فلا اثم ولا حرج
دعاه مبتدع الاشياء مستويا * ما ان به درك كلا ولا درج
حتى اذا ما المنار الفرد لاح لنا * صحت ابشرى يا مطايا جاءك الفرج
قربت من عامر دارا و منزلة * والشاهد العدل هذا الطيب والارج

ولما وقف على مصانع مراكش وقصورها وقصبتها واعتبر ماصار اليه حالها بعد الموحدين قال

بلد قد غزاه صرف الليالى * وأباح المصون منه مبيح
فالذى خر من بناه قتيل * والذى خر منه بعض جريح
وكأن الذى يزور طبيب * قد تأتى له بها التشريح
أعجمت منه أربع ورسوم * كان قدما بها اللسان الفصيح
كم معان غابت بتلك المغانى * وجمال أخفاه ذاك الضريح
وملوك تعبدوا الدهر لما * أصبح الدهر وهو عبد صريح
دوخوا ما زح البسيطة حتى * نال ما شاء ذابل وصفيح
حين شبت لهم من الباس نار * ثم هبت لهم من النصر ريح
أثر ينـدب المؤثر لما * طال بعد الدنو منه النزوح
ساكن الدار روحها كيف يبقى * جسد بعد ما تولى الروح

وعما قاله فى الشيخ أبى العباس السبتى رضى الله عنه على لسان سلطانه الغنى بالله وهو يومئذ بفاس

ياولى الاله أنت جواد * وقصدنا الى حماك المنيع
راعنا الدهر بالخطوب فجئنا * نرتجى من علاك حسن الصنيع
قد دنا لك الا كف نرجى * عودة العز تحت شمل جميع
فاجعلنا وسيلة تربك الزا * كى وزلفى الى العليم السميع
كم غريب أسرى اليك فوافى * برضى عاجل وخير سريع

وقال يخاطب عميد البلاد المراكشية المتميز بالرأى والسياسة والهمة وافاضة العدل وكف اليد والتجافى عن مال الجباية عامر بن محمد بن على الهنتاتى

تقول لى الاظعان والشوق فى الحشا * له الحكم يمضى بين ناه وآمر

اذا جبل التوحيد أصبحت فارعا * نخيم قرير العين فى دار عامر
وزر تربة المعلوم ان مزارها * هو الحج يسعى نحوه كل ضامر
ستلقى بمثوى عامر بن محمد * ثغور الامانى من ثنايا البشائر
ولله ما تبلوه من سعد وجهه * ولله ما تلقاه من يمن طائر
وتستعمل الامثال فى الدهر منكما * بخير مزور أو بأغبط زائر

لم يكن همى أبقاك الله تعالى مع فراغ البال واسعاف الآمال ومساعدة الايام والليال اذ الشمل جميع والزمان كله ربيع والدهر سميع مطيع الا زيارتك فى جبلك الذى يعصم من الطوفان ويواصل أمنه بين النوم والاجفان وان أرى الافق الذى طلعت منه الهدايه وكانت اليه العودة ومنه البدايه فلما حم الواقع وعجز عن خرق الدولة الاندلسية الراقع وأصبحت ديار الاندلس وهى البلاقع وحسنت من استدعائك اياى المواقع وقوى العزم وان لم يكن ضعيفا وعرضت على نفسى السفر بسبيلك فالفيته خفيفا والتمست الاذن حتى لا نرى فى قبلة السداد تحريفا واستقبلتك بصدر مشروح وزند العزم مقدوح والله سبحانه يحقق السول ويسهل بمثوى الاماثل المثول ويهيئ من قبيل هنتاتة القبول بفضله انتهى ولما ذهب الى عامر بن محمد المذكور ورقى الجبل زار الموضع الذى توفى به السلطان أبو الحسن رحمه الله وقد ألم بذكر ذلك فى نفاضة الجراب اذ قال وشاهدت بجبل هنتاتة محل وفاة السلطان المقدس أمير المسلمين أبى الحسن رحمه الله حيث أصابه طارق الاجل الذى فصل الخطة وأصمت الدعوة ورفع المنازعة وعاينته مرفعا عن الابتذال بالسكنى مفروشا بالحصباء مقصودا بالابتهال والدعاء فلم أبرح يوم زيارته ان قلت

ياحسنها من أربع وديار * أضحت لباغى الأمن دار قرار
وجبال عز لا تذل أنوفها * الا لعز الواحد القهار
ومقر توحيد وأس خلافة * آثارها تنبى عن الاخبار
ما كنت أحسب أن أنهار الندى * تجرى بها فى جملة الانهار
ما كنت أحسب أن أنوار الحجا * تلتاح فى قنن وفى أحجار
مجت جوانبها البرود وان تكن * شبت بها الاعداء جذوة نار
هدت بناها فى سبيل وفائها * فكأنها صرعى بغير عقار
لما توعدها على المجد العدا * رضيت بعيث النار لا بالعار
عمرت بحلة عامر وأعزها * عبد العزيز بمرهف بتار
فرسانها أحرز قصب الندى * والباس فى طلق وفى مضمار
ورثا عن الندب الكبير أبيهما * محض الوفاء ورفعة المقدار
وكذا الفروع تطول وهى شبيهة * بالاصل فى ورق وفى أثمار
أزرت وجوه الصيد من هنتاتة * فى جوها بطالع الاقمار
لله أى قبيلة تركت لها النـ * ـظراء دعوى الفخر يوم فخار
نصرت أمير المسلمين وملكه * قد أسلمته عزائم الانصار
وارت عليا عندما عظم الردا * والروع بالاسماع والابصار
وتخاذل الجيش اللهام وأصبح الا * بطال بين تقاعد وفرار
كفرت صنائعه فيمم دارها * مستظهرا منها بعز جوار
وأقام بين ظهورها لا يتقى * وقع الردى وقد ارتمى بشرار

فكأنها الانصار لما ان سمت * فيما تقدم غربة المختار
لما غدا لحظا وهم أجفانه * نابت شفارهم عن الاشفار
حتى دعاه الله بين بيوتهم * فاجاب ممتثلا لامر البارى
لو كان يمنع من قضاء الله ما * خلصت اليه نوافذ الاقدار
قد كان يأمل ان يكافئ بعض ما * أولوه لولا قاطع الاعمار
ما كان يقنعه لو امتد المدى * الا القيام بحقها من دار
فيعيد ذاك الماء ذائب فضة * ويعيد ذاك الترب ذوب نضار
حتى تفوز على النوى أوطانها * من ملكه بجلائل الاوطار
حتى يلوح على وجوه وجوههم * أثر العناية ساطع الانوار
ويسوغ الامل القصى كرامها * من غير ما ثنيا ولا استعصار
ما كان يرضا الشمس أو بدر الدجا * عن درهم فيهم ولا دينار
أوان يتوج أو يقلد هامها * ونحورها باهلة ودرارى
حق على المولى ابنه ايثار ما * بذلوه من نصر ومن ايثار
فلمثلها ذخر الجزاء ومثله * من لا يضيع صنائع الاحرار
وهو الذى يقضى الديون وبره * يرضيه فى علن وفى اسرار
حتى تحج محله رفعوا بها * علم الوفاء لاعين النظار
فيصير منها البيت بيتا ثانيا * للطائفين اليه أى بدار
تغنى قلوب القوم عن هدى به * ودموعهم تكفى لرمى جمار
حييت من دار تكفل سعيها الـ * محمود بالزلفى وعقبى الدار
وضفت عليك من الاله عناية * ما كر ليل فيك اثر نهار

ويعنى بالمولى ابنه السلطان أبا سالم بن أبى الحسن ثم سار ابن الخطيب الى اغمات فزار مشاهدها وشاهد معاهدها فحكى عن نفسه رحمه الله قال وقفت على قبر المعتمد بن عباد فى مدينة اغمات فى حركة اعملتها الى الجهات المراكشية باعثها لقاء الصالحين ومشاهدة الآثار سنة احدى وستين وسبعمائة وهو بمقبرة اغمات فى نشز من الارض وقد حفت به سدرة والى جنبه قبر اعتماد حظيته مولاة رميك وعليهما أثر التغرب ومعاناة الخمول من بعد الملك فلم تملك العين دمعها عند رؤيتهما فانشدت فى الحال

قد زرت قبرك عن طوع باغمات * رأيت ذلك من أولى المهمات
لم لا أزورك يا أندى الملوك يدا * ويا سراج الليالى المدلهمات
وأنت من لو تخطى الدهر مصرعه * الى حياتى لجادت فيه أبيات
أناف قبرك فى هضب يميزه * فتنتحيه حفيات التحيات
كرمت حيا وميتا واشتهرت علا * فأنت سلطان أحياء وأموات
ما رى مثلك فى ماض ومعتقدى * ألا يرى الدهر فى حال ولا آت

ولما انكفأ ابن الخطيب رحمه الله راجعا من سفرته هذه وانتهى الى سلا أقام بها منتبذا عن سلطانه رافضا الملك وأسباب طول مقامه بالمغرب على ما نذكره ان شاء الله

﴿بقية أخبار ابن الخطيب بسلا حرسها الله﴾

قد قدمنا ان ابن الخطيب كان قد عزم على التخلى عن الدنيا والانقطاع الى الله تعالى وانه اختار أن يكون مقامه بسلا لكونها يومئذ أعون له على مراده من غيرها حسبما يؤخذ ذلك من مواضع من كلامه

من ذلك انه لما وصف أمصار الاندلس والمغرب فى مقاماته المشهورة وصف مدينة سلا بقوله العقيلة المفضله والبطيحة المخضله والقاعدة المؤصله والسورة المفصله ذات الوسامة والنظاره والجامعة بين البداوة والحضاره معدن القطن والكتان والمدرسة والمارستان والزاوية كأنها البستان والوادى المتعدد الاجفان والقطر الامين عند الرجفان والعصير العظيم الشان والاسواق السارة حتى برقيق الحبشان اكتنفها المسرح والخصب الذى لا يبرح والبحر الذى يأسو ويجرح وشقها الوادى الذى يتمم محاسنها ويشرح وقابلها الرباط الذى ظهر به من المنصور الاغتباط حيث القصبة والساباط ثم يقع الانحطاط الى شالة مرعى الذمم ونتيجة الهمم ومشمخ الانوف ذوات الشمم وعنوان الرمم حيث الحسنات المكتتبه والاوقاف المرتبه والقباب كالازهار مجودة بذكر الله آناء الليل وأطراف النهار وطلل حسان المثل فى الاشتهار وهى على الجملة من غيرها أوفق ومغارمها لاحترام الملوك الكرام أرفق ومقبرتها المنضدة عجب فى الانتظام معدودة فى المواقف العظام ويتأتى بها للعباد الخلوه وتوجد عندها للهموم السلوه كما قال ابن الخطيب

وصلت حثيث السير فيمن فلى الفلا * فلا خاطرى لما أتى وانجلا انجلا
ولا نسخت كربى بقلبى سلوة * فلما سرى فيه نسيم سلا سلا

وكفى بالشابل رزقا طريا وسمكا بالتفضيل حريا يبرز عدد قطر الديم ويباع ببخس القيم ويم الجماشر النائية والخيم اه ﴿وما قاله﴾ فى حق سلا من كونها تتأتى بها للعباد الخلوة هو كذلك معروف عند صلحاء المغرب وعباده من لدن قديم ولذا لما قدم أبو العباس ابن عاشر رضى الله عنه من الاندلس وتنقل فى بلاد المغرب مثل فاس ومكناسة لم يطب له القرار الا بسلا وقد صرح رضى الله عنه بذلك حيث قال

سلا كل قلب غير قلبى ما سلا * أيسلو بفاس والاحبة فى سلا
بها خيموا فالقلب خيم عندهم * فاجر وادموعى مرسلا ومسلسلا

ولما ذكر أبو العباس الصومعى رحمه الله فى كتابه الموضوع فى مناقب الشيخ أبى يعزى رضى الله عنه استحباب زيارة الاولياء قال ما نصه ولا سيما فى مشاهد الاخيار اذا اجتمعوا فى مكان من الامكنة المشرفة كما كانوا يجتمعون قبل هذا برباط شاكر وبساحل دكالة وبسلا وبجبل العلم وعند الشيخ أبى يعزى فى أيام الربيع وغير ذلك اه ﴿وأقول﴾ على ذكر سلا فقد كتب الى وأنا بمراكش حرسها الله الاخ فى الله الفقيه الاديب المحاضر أبو عبد الله محمد بن عزوز الرباطى أصلا المراكشى دارا بطاقة يقول فيها ما نصه الحمد لله وحده السيد الاخ الذى ثوب اخائه ما أنسخ الفقيه العلامه اللابس من أسلحة العلوم الدرع واللامه أبا العباس السيد أحمد الناصرى سلام عليك سلا ماذكى العرف رائح الصرف وبعد فقد اشتقنا الى لذيذ مذاكرتكم وحلو فكاهتكم والآن نحب من السيادة أن تشرفونا بنقل قدمكم وتكرمونا بطلعتكم السعيده بكرة غد ان شاء الله وعلى المحبة والسلام فى فاتح رجب الفرد سنه أربع وتسعين ومائتين وألف وألحق بأسفلها ما نصه

سلا البحر ما بحر بنيت بشطه * كبحر علوم فيك أنشئ صالحا
فهذا هو الفياض بالعلم والتقى * وذلك هو الفياض بالماء مالحا

ولم ندر هل البيتان له أو تمثل بهما وعلى كل حال فما قاله حفظه الله انما حمله عليه حسن نيته وصفاء طويته وأما المكتوب اليه بهما فلا والله لا علم ولا تقى الا ان يتغمدنا الله برحمته ثم انى أجبته بنثر تركته للاختصار ووصلته بأبيات أقول فيها ما نصه

بعثت أبا عبد الاله مدائحا * هو الدر حسنا او الشذور لوائحا
فنبهت فكرا طالما بات نائما * وروضت ذهنا طالما ظل جامحا

وشيدت من ذكرى وقد كان خاملا * وهيجت من قلبى الشجى القرائحا
وطوقتنى النعمى بتقريضك الذى * به ظل مجدى للنجوم مصافحا
والاتفاق درى وان جد جده * وما قيمتى لولم تكن لى مادحا
فانت أديب العصر حقا ومن غدا * لعمرى لابواب المعارف فاتحا
فخذ من أخيك العى واستر عيوبه * وسامح فظنى أن تكون مسامحا
فوصفك يعيى كل أشدق بارع * ولو ظل فى بحر البلاغة سابحا
فلقيت من ذى العرش كل كرامة * ووقيت من هذا الزمان الطوائحا
ولازال هذا الدهر طوع علاك خادما * وطرف السعد نحوك طامحا

ومما مدح به سلا وأهلها قول الامام العلامة الهمام أبى على الحسن بن مسعود اليوسى رضى الله عنه

مرسى سلا مأوى الشمم * والمجد عن طول الامم *
بلد بحسبك منظره منه ومخبره أتم * مسرى الهموم ومسرح الابصار مسلاة الغمم
مترفلا فى حلة من حسنه جنب العلم * كالحرة الحسناء فى كنف الهمام المحترم
وتراه من جناته متلالئا بين الاجم * كالدر بين زمرذ فى قرط مارية انتظم
وكوجه خود حفه شعر السوالف فى دلم * وكغرة فى أدهم والصبح فى جنح الاحم
والثغر من زنجية ترنو اليه وقد بسم * والبدر ما بين الدجى والشيب فى سود اللمم
يعلو فويق جبينه علم تدلى من أمم * فكأنه تاج اللجين على جبينى ذى عظم
أو كالكبير مرتة لأودى بنهضته الهرم * فى رأسه صلع وفيما تحت جبهته غمم
أو كالجواد بأنفه من ذلك القصر الرثم * يكفيك منه هواؤه لاخبث فيه ولاوخم
عجبا صحيح والهوى أبدا عليل ذو سقم * وزلاله العذب الذى يشفى الفؤاد من الضرم
حاكى العقار وفاقها بصفاء لون والشيم * أبناء مجد فى الالى كانوا براعون الذمم
من نبلهم دون العويص ونبلهم خلف الحرم * ونفيسهم نقع الفلا ونفوسهم بيض الرخم
من كل أبيض وجهه تجلى به سدف الظلم * فى الخطب بدر لامع ولدى الندى بحر خضم
وأحبة كانوا لنا كالماء بالراح التأم * لم يعد بين بيننا ولو الفراق بنا ألم
البين بين جسومنا الابين أنفسنا يحم * والعهد حبل ما انفصاعنه الوداد ولا انفصم
والصدق نهج قد علا فى كل أوجهه علم * والبر مرعاه قرى من فيه للحسنى قرم
والنفس أرض قد كرى منها المعين ذو الكرم * والدين روض قد رعى فيه من العقبى رعم
والعلم ورد ما حلا الالمن نزع الحلم * والسر برق ما أضا الالمن غسل الاضم
والدهر دولاب شما فيه سوى أهل الشمم * من ذاق مورده الصرى يوما فللدنيا صرم

ولنرجع الى بقية أخبار ابن الخطيب ولما استقر بسلا واطمأن جنبه بها قال

أيا أهل هذا القطر ساعده القطر * بليت فدلونى لمن يرفع الامر
تشاغلت بالدنيا وغت مفرطا * وفى شغلى أونومتى سرق العمر

ثم حرص على لقاء الشيخ ابن عاشر رضى الله عنه حتى ظفر به فعظم سروره بذلك وتبجح به اذقال فى نفاضة الجراب ولقيت من أولياء الله تعالى بسلا الولى الزاهد الكبير المنقطع القرين فرارا عن زهرة الدنيا وعزوفا عنها واغرا قافى الورع وشهرة بالكشف واجابة الدعوة وظهور الكرامات أبا العباس ابن عاشر رحمه الله تعالى لقاؤه على تعذره لصعوبة تأتيه وكثافة هيبته قاعدا بين القبور فى الخلاء رث الهيئة مطرق اللحظ كثير الصمت مفرط الانقباض والعزلة قد ضرسه أهل الدنيا وتطارحهم فهو شديد الاشمئزاز من

قاصده مجرمن الوثبة من طارقه نفع الله تعالى به اه كلامه فى النفاضة وقال رحمه الله تعالى من قصيدته العينية السلاوية التى وجهها الى سلا أيام خاف بها أهله وولده

بولى الله فابدا وابتدر * واحد الآحاد فى باب الورع

ومراده بولى الله ابن عاشر المذكور ثم ان ابن الخطيب بعد رجوعه من مراكش جعل ينتاب رباط شالة مدفن الملوك من بنى مرين ومنهم السلطان أبو الحسن رحمه الله للدعاء وقراءة القرآن بها وتعاهدها وقد كتب بذلك الى السلطان أبى سالم وطلب منه أن يشفع له عند أهل الاندلس فى رد متاعه الذى أتلفوه عليه أيام النكبة ونص الكتاب مولاى المرجو لاتمام الصنيعة وصلة النعمة واحراز الفخر أبقاكم الله تعالى تضرب بكم الامثال فى البر والرضا وعلو الهمة ورعى الوسيلة مقبل موطئ قدمكم المنقطع الى تربة المولى والدكم ابن الخطيب من الضريح المقدس بشالة وقد حط رحل الرجاء فى القبة المقدسة وتيمم بالتربة الزكية وقعد بازاء لحد المولى أبيكم ساعة ايابه من الوجهة المباركة وزيارة الربط المقصودة والترب المعظمة وقد عزم أن لا يبرح طوعا من هذا الجوار الكريم والدخيل المرعى حتى يصله من مقامكم ما يناسب هذا التطارح على قبر هذا المولى العزيز على أهل الارض ثم عليكم والتماس شفاعته فى أمر سهل عليكم لا يجتز انفاد مال ولا اقتحام خطر اناهو اعمال لسان وخط بنان وصرف عزم واحراز فخر واطابة ذكر وأجر وذلك أن العبد عرفكم يوم وداعكم أنه ينقل عنكم الى المولى المقدس بلسان المقال ما يحضر مما يفتح الله تعالى فيه ثم ينقل عنه لكم بلسان الحال ما يتلقى عنه من الجواب وقال لى صدر دولتكم وخالصتكم وخالصة المولى والدكم سيدى الخطيب يعنى ابن مرزوق سنى الله تعالى أمله من سعادة مقامكم وطول عمركم أنت يا فلان والحمد لله ممن لا ينكر عليه الوفاء بهذين الفرضين وصدر عنكم من البشر والقبول والانعام ما صدر جزاكم الله تعالى جزاء المحسنين وقد تقدم تعريف مولاى بما كان من قيام العبد بما نقله الى التربة الزكية عنكم حسبما أداه من حضر ذلك المشهد من خدامكم والعبد الآن يعرض عليكم الجواب وهو أنى لما فرغت من مخاطبته بمرءى من الملا الكبير والجم الغفير أكببت على اللحد الكريم داعيا ومخاطبا وأصغيت باذنى نحو قبره وجعل فؤادى يتلقى ما يوحيه اليه لسان حاله فكأنى به يقول لى قل لمولاك يا ولدى وقرة عينى المخصوص برضاى وبرى وستر حرمى ورد ملكى وصان أهلى وأكرم صنائعى ووصل عملى أسلم عليك وأسأل الله تعالى أن يرضى عنك ويقبل عليك الدنيا دار غرور والآخرة خير لمن اتقى وما الناس الا هالك وابن هالك ولا تجد الا ما قدمت من عمل يقتضى العفو والمغفرة أو ثناء يجلب الدعاء بالرحمة ومثلك من ذكر فتذكر وعرف فما أنكر وهذا ابن الخطيب قد وقف على قبرى وتهمم بى وسبق الناس الى رثائى وأنشدنى ومجدنى وبكانى ودعالى وهنأنى بمصير أمرى اليك وعفر وجهه فى تربتى وأملنى لما انقطعت منى آمال الناس فلو كنت يا ولدى حيا لما وسعنى أن أعمل معه الا ما يليق بى وأن أستقل فيه الكثير وأحتقر العظيم لكن لما عجزت عن جزائه وكلته اليك وأحلته يا حبيب قلبى عليك وقد أخبرنى أنه سليب المال كثير العيال ضعيف الجسم قد ظهر فى عدم نشاطه أثر السن وأمل أن ينقطع بجوارى ويستتر بدخيلى وخدمتى ويرد عليه حقه بخدمتى ووجهى ووجوه من ضاجعنى من سلفى ويعبد الله تعالى تحت حرمتك وحرمتى وقد كنت تشوقت الى استخدامه فى الحياة حسبما يعلمه حبيبنا الخالص المحبة وخطيبنا العظيم المزية القديم القربة أبو عبد الله بن مرزوق فاسأله يذكرك واستخبره يخبرك فأنا اليوم أريد أن يكون هذا الرجل خديمى بعد الممات الى أن نلحق جميعا برضوان الله تعالى ورحمته التى وسعت كل شئ وله يا ولدى ولد نجيب يخدم ببابك وينوب عنه فى ملازمة بيت كتابك وقد استقر ببابك قراره وتعين بأمرك مرتبه ودثاره فيكون الشيخ خديم الشيخ والشاب خديم الشاب هذه رغبتى منك وحاجتى اليك واعلم أن هذا الحديث لا بد له أن يذكر ويتحدث به فى الدنيا وبين أيدى

الملوك والكبراء فاعمل ما يبقى لك فخره ويخلد ذكره وقد أقام مجاور اضريحى تاليا كتاب الله تعالى على منتظر ا ما يصله منك ويقرؤه على من السعى فى خلاص ماله والاحتجاج بهذه الوسيلة فى جبره واجراء ما يليق بك من الحرمة والكرامة والنعمة فالله الله يا ابراهيم اعمل ما يسمع عنى وعنك فيه ولسان الحال أبلغ من لسان المقال اهـ والعبد يا مولاى مقيم تحت حرمته وحرمة سلفه منتظر منكم قضاء حاجته ولتعلموا وتحققوا أننى لو ارتكبت الجرائم ورزأت الاموال وسفكت الدماء وأخذت خسائف الملوك الاعزة ممن وراء النهر من التتار وخلف البحر من الروم ووراء الصحراء من الحبشة وأمكنهم الله تعالى منى من غير عهد بعد ان بلغهم تذممى بهذا الدخيل ومقامى بين هذه القبور الكريمة ما وسع أحدا منهم من حيث الحياء والحشمة من الاحياء والاموات وايجاب الحقوق التى لا يغفلها الكبار للكبار الا الجود الذى لا يتعقبه البخل والعفو الذى لا تفسده المؤاخذة فضلا عن سلطان الاندلس أسعده الله تعالى وعلا بعو الا نكم فهو فاضل وابن ملوك أفاضل وحوله أكياس ما فيهم من يجهل قدركم وقد رسلفكم لا سيما مولاى والدكم الذى أتوسل به اليكم واليهم فقد كان يتبنى مولاى أبا الحجاج ويشمله بنظره وصارخه بنفسه وأمده بأمواله ثم صيرالله تعالى ملكه اليكم وأنتم من أنتم ذاتا وقبيلا فقد قرت يا مولاى عين العبد عارأت فى هذا الوطن المراكشى من وفور حشودكم وكثرة جنودكم وترادف أموالكم وعددكم زادكم الله تعالى من فضله ولا شك عند عاقل انكم ان انحلت عروة تأميلكم وأعرضتم عن ذلك الوطن الاندلسى استولت عليه يد عدوه وقد علم تطارحى بين الملوك الكرام الذين خضعت لهم التيجان وتعلقى بثوب الملك الصالح والد الملوك الكرام مولاى والدكم وشهرة حرمة شالة معروفة حاش لله أن يضيعها أهل الاندلس وما توسل اليهم قط بها الا الآن وما يجهلون اغتنام هذه الفضيلة الغريبة وأملى منكم أن يتعين من بين يديكم خديم بكتاب كريم يتضمن الشفاعة فى رد ما أخذ لى ويخبر بمثواى متراميا على قبر والدكم ويقرر ما ألزمتكم بسبب هذا الترامى من الضرورة المهمة والوظيفة الكبيرة عليكم وعلى قبيلكم حيث كانوا وتطلبون منه عادة المكارمة بحل هذه العقدة ومن المعلوم أنى لو طلبت بهذه الوسائل من صلب ماوسعهم بالنظر العقلى الا حفظ الوجه مع هذا القبيل وهذا الوطن فالحياء والحشمة بأيان العذر عن هذا فى كل ملة ونحلة واذا تم هذا الغرض ولا شك فى اتمامه بالله تعالى تقع صدقتكم على القبر الكريم بى وتعينونى لخدمة هذا المولى وزيارته وتفقده ومدح النبى صلى الله عليه وسلم ليلة المولد فى جواره وبين يديه وهو غريب مناسب لبركم به الى أن أحج بيت الله بعناية مقامكم وأعود داعيا مثنيا مستدعيا للشكر والثناء من أهل المشرق والمغرب وأتعوض من ذمتى بالاندلس ذمة بهذا الرباط المبارك يرثها ذريتى وقد ساومت فى شئ من ذلك منتظرا اثمنه مما يباع بالاندلس بشفاعتكم ولو ظننت أنهم يتوقفون لكم فى مثل هذا أو يتوقع فيه وحشة أو جفاء والله ما طلبته لكنهم أسرى وأفضل وانقطاعى أيضا لوالدكم مما لا يسع مجدكم الا حمل ما يليق بكم فيه وها أنا أرتقب جوابكم بما لى عندكم من القبول ويسعنى مجدكم فى الطلب خروج الرسول لاقتضاء هذا الغرض والله سبحانه يطلع من مولاى على ما يليق به والسلام وكتب فى الحادى عشر من رجب سنة احدى وستين وسبعمائة وفى مدرج الكتاب بعد تره هذه القصيدة

مولاى ها أنا فى جوار أبيكا * فابذل من البر المقدر فيكا
اسمعه ما يرضيه من تحت الثرى * والله يسمعك الذى يرضيكا
واجعل رضاه اذا نهدت كتيبة * تهدى اليك النصر أو تهديكا
واجبر بجبرى قلبه تنل المنا * وتطالع الفتح المبين وشيكا
فهو الذى سن المبرور بأمه * وأبيه فاشرع شرعه لبنيكا
وابعث رسولك منذرا ومحذرا * وعسا تؤمل نيله يأتيكا

قد هز عزمك كل قطر نازح * وأخاف عاملو كابه ومليكا
فاذا سموت الى مرام شاسع * فغصونه غر المنا تجنيكا
ضمنت رجال الله منك مطالبي * لما جعلتك في الثواب شريكا
فلئن كفيت وجوهها في مقصدي * ورعيتها بركاتها تكفيكا
واذا قضيت حوائجي وأريتني * أملا فربك ما أردت يريكا
واشدد على قولي يدا فهو الذي * برهانه لا يقبل التشكيكا
مولاي ما استأثرت عنك بمهجتي * اني ومهجتي التي تفديكا
لكن رأيت جناب شالة مغنما * يضفي على العزفي ناديكا
وفروض حقك لا تفوت فوقتها * باق اذا استجزيته يجزيكا
ووعدتني وتكرر الوعد الذي * أبت المكارم أن يكون أفيكا
أضفى عليك الله ستر عناية * من كل محذور الطريق يقيكا
ببقائك الدنيا تحاط وأهلها * فالله جل جلاله يبقيكا اهـ

﴿وقال أيضا في الغرض المذكور﴾

عن باب والدك الرضى لا أبرح * يأسو الزمان لاجل ذا أو يجرح
ضربت خيامي في حماه فصبيتي * تجني النعيم به وبهمي تسرح
حتى يراعي وجهه في وجهتي * بعناية تشفي الصدور وتشرح
أيسوغ عن مثواه سيري خائبا * ومنابر الدنيا بذكرك تصدح
أنا في حماه وأنت أبصر بالذي * يرضيه منك فوزن عقلك أرجح
في مثلها سيف الحمية ينتضي * في مثلها زند الحفيظة يقدح
وعسى الذي بدأ الجميل يعيده * وعسى الذي سد المذاهب يفتح اهـ

فأجابه السلطان أبو سالم رحمه الله بما صورته من عبد الله المستعين بالله ابراهيم أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي الحسن ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي سعيد ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين يوسف بن يعقوب بن عبد الحق أيد الله أمره وأعز نصره الى الشيخ الفقيه الاجل الاسنى الاعز الاحظى الاوجه الانوه الصدر الاحفل المصنف البليغ الاعرف الاكمل أبي عبد الله ابن الشيخ الاجل الاعز الاسنى الوزير الارفع الانجد الاصيل الاكمل المرحوم المبرور أبي محمد ابن الخطيب وصل الله عزته ووالى رفعته سلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد حمد الله تعالى والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله المصطفى الكريم والرضا عن آله وصحبه أعلام الاسلام وأئمة الرشد والهدى وصلة الدعاء لهذا الامر العلي العزيز المنصور المستعيني بالنصر الاعز والفتح الاسنى فانا كتبناه اليكم كتب الله تعالى لكم بلوغ الامل ونجح القول والعمل من منزلنا الاسعد بضفة وادي ملوية عنه الله وصنع الله جميل ومنه جزيل والحمد لله ولكم عندنا المكانة الواضحة الدلائل والعناية المتكفلة برعي الوسائل ذلكم بما تميزتم به من التمسك بالجناب العلي المولوي العلوي جدد الله تعالى عليه ملابس غفرانه وسقاه غيوث رحمته وحنانه وبما أهديتم الينا من التقرب لدينا بخدمة ثراه الطاهر والاشتمال بطارف حرمته السامية المظاهر والى هذا وصل الله حظوتكم ووالى رفعتكم فانه ورد علينا خطابكم الحسن عندنا قصده المقابل بالاسعاف المستعذب ورده فوقفنا على ما نصه واستوفينا ما شرحه وقصه فأثرنا حسن تلطفكم في التوسل بأكبر الوسائل الينا ورعينا أكمل الرعاية حق ذلكم الجناب العزيز علينا وفي الحين

عينا لكمال مطلبكم وتمام مأربكم والتوجه بخطابنا فى حقكم والاعتمال بوفقكم خديمينا أبا البقاء بن تاشكورت وأبا زكرياء بن فرقاجة أنجدهما الله وتولاهما وأمس تاريخه انفصلا مودعين الى الغرض المعلوم بعد التأكيد عليهما فيه وشرح العمل الذى يوفيه فكونوا على علم من ذلكم وابسطوا له جملة آمالكم وانا لنرجو ثواب الله فى جبر أحوالكم وبرء اعتلالكم والله سبحانه يصل مبرتكم ويتولى تكرمتكم والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته كتب فى الرابع والعشرين من رجب سنة احدى وستين ❁ وراجعه ابن الخطيب بما نصه ❁ مولاى خليفة الله بحق وكبير ملوك الارض عن حجة ومعدن الشفقة والحكمة ببرهان وحكمه أبقاكم الله تعالى على الدرجة فى المنعمين وافرى الحظ عند جزاء المحسنين وأراكم ثمرة برأيكم فى البنين وصنع لكم فى عدوكم الصنع الذى لا يقف عند معتاد وأذاق العذاب الاليم من أراد فى مثابتكم بالحاد عبدكم الذى ملكتم رقه وآويتم غربته وسترتم أهله وولده وأسنيتم رزقه وجبرتم قلبه يقبل موطئ الاخمص الكريم من رجلكم الطاهرة المستوجبة بفضل الله تعالى لموقف النصر الفارعة هضبة العز المعملة الخطو فى مجال السعد ومسير الحظ ابن الخطيب من شالة التى تأكد عليكم الرضى احترامها وتجدد برعيكم عهدها واستبشر عليكم دفينها وأشرق بحسناتكم نورها وقد ورد على العبد الجواب المولوى البر الرحيم المنعم المحسن بما يليق بالملك الاصيل والقدر الرفيع والهمة السامية والعزة القعساء من رعى الدخيل والنصرة للذمام والاهتزاز لبر الاب الكريم فثاب الرجاء وانبعث الامل وقوى العضد وزار اللطف فالحمد لله الذى أجرى الخير على يدكم الكريمة وأعانكم على رعى ذمام الصالحين المتوسل اليكم أولا بقبورهم ومتعبداتهم وتراب أجداثهم ثم بقبر مولاى ومولاكم ومولى الخلق أجمعين الذى تسبب فى وجودكم واختصكم بحبه وغمركم بلطفه وحنانه وعلمكم آداب الشريعة وأورثكم ملك الدنيا وهيأتكم دعواته بالاستقامة الى ملك الآخرة بعد طول المدى وانفساح البقاء وفى علومكم المقدسة ما تضمنت الحكايات عن العرب من النصرة عن طائر داست أفراخه ناقة فى جوار رئيس منهم وما انتهى اليه الامتعاض لذلك مما أهينت فيه الانفس وهلكت الاموال وقصارى من امتعض لذلك أن يكون كبعض خدامكم من عرب تامسنا فما الظن بكم وأنتم الكريم ابن الكريم ابن الكريم فيمن لجأ أولا الى حماكم بالاهل والولد عن حسنة تبرعتم بها وصدقة حملتكم الحرية على بذلها ثم فيمن حط رحل الاستجارة بضريح أكرم الخلق عليكم دامع العين خافق القلب واهى الفزعة يتغطى بردائه ويستجير بعليائه كأننى ترامیت عليهم فى الحياة امام الذعر الذى يذهل العقل ويحجب عن التمييز بقصر داره ومضجع رقاده مامن يوم الا وأجهر بعد التلاوة باليعقوب بالمرين نسأل الله تعالى أن لا يقطع عنى معروفكم ولا يسلبنى عنايتكم ويستعملنى مابقيت فى خدمتكم ويتقبل دعائى فيكم ولحين وصول الجواب الكريم نهضت الى القبر المقدس ووضعته بازائه وقلت يا مولاى يا كبير الملوك وخليفة الله وبركة بنى مرين صاحب الشهرة والذكر فى المشرق والمغرب عبدك المنقطع اليك المترامى بين يدى قبرك المتوسل الى الله ثم الى ولدك بك ابن الخطيب وصله من مولاه ولدك ما يليق بمقامه من رعى وجهك والتقرب الى الله تعالى برعيك والاشتهار فى مشرق الدنيا ومغربها ببرك وأنتم من أنتم من اذا صنع صنيعة كملها واذا من منة تممها واذا أسدى يدا أبرزها طاهرة بيضاء غير معيبة ولا ممنونة ولا منتقصة وأنا بعد تحت ذيل حرمتك وظل دخيلك حتى يتم أملى ويخلص قصدى وتحف نعمتك بى ويطمئن الى مأمنك قلبى ثم قلت للطلبة أيها السادة بينى وبينكم تلاوة كتاب الله تعالى منذ أيام ومناسبة النحلة وأخوة التألف بهذا الرباط المقدس والسكنى بين أطهركم فأمنوا على دعائى باخلاص من قلوبكم واندفعت فى الدعاء والتوسل الذى أرجو أن يتقبله الله تعالى ولا يضيعه وخاطب العبد مولاه شاكرا لنعمته مشيدا بصنيعته مسرورا بقبوله

وشأنه

وشانه من التعلق والتطارح شانه حتى يكمل القصد ويتم الغرض معمور الوقت بخدمة برفعها ودعاء برده والله المستعان اهـ ولما وصل كتاب السلطان أبي سالم الى أهل الاندلس أعظموا وسيلته وقبلوا شفاعته وردوا على ابن الخطيب ما تأتى رده مما كان ضاع له وتألف عليه واستقر مقيما بسلا سنتين وزيادة ثم استدعاه سلطانه الغني بالله الى الاندلس بعد رجوعه اليها واحتوائه على ملكها فاجاب حياء لا رغبة ومكرها لا بطلا الى ان كان ما نذكره من شأنه بعد ذلك ان شاء الله ونوادره بسلا وماجرياته كثيرة وفيما ذكرناه كفاية

## ﴿ انتقاض الحسن بن عمر الفودودي وخروجه بتادلا ثم مقتله عقب ذلك ﴾

قد قدمنا أن السلطان أبا سالم لما استولى على ملك فاس والمغرب عقد للحسن بن عمر على مراكش ووجهه اليها تخففا منه وريبة بمكانه من الدولة فاستقر بها وتأثلت له بها رياسة نفسها عليه أهل مجلس السلطان وسعوا فيه عنده حتى تنكر له وأظلم الجو بينهما وأحس الحسن بن عمر بذلك فخشي على نفسه وخرج من مراكش في صفر سنة احدى وستين وسبعمائة فلحق بتادلا منحرفا عن السلطان ومرتكبا للخلاف فتلقاه بنو جابر من عرب جشم وأجاروه واعصوصبوا عليه فسرح اليه السلطان أبو سالم وزيره الحسن ابن يوسف الورتاجني فاحتل بتادلا وانشمر الحسن بن عمر الى الجبل بها فاعتصم به ومعه كبير بني جابر الحسن بن علي الورديغي فاحاطت بهم العساكر وأخذوا بمخنقهم وداخل الوزير بعض أهل الجبل من برابرة صناكة في الثورة بهم وسرب اليهم المال فثاروا بهم وانفض جمعهم وتقبضوا على الحسن بن عمر وقادوه برمته الى الحسن بن يوسف فاعتقله وانكفأ راجعا به الى الحضرة فدخلها في يوم مشهود استركب السلطان فيه الجند وجلس ببرج الذهب مقعده من ساحة البلد وحمل الحسن بن عمر على جمل فطيف به بين تلك الجموع ولما قرب من مجلس السلطان أومأ الى تقبيل الارض من فوق جمله ثم ركب السلطان الى قصره وانفض الجمع وقد شهر الحسن بن عمر وأصحابه فصار واعبرة لمن اعتبر ولما دخل السلطان قصره جلس على كرسيه واستدعى خاصته وجلساءه وأحضر ابن عمر فوبخه وقرر عليه ذنوبه فتلوى بالمعاذير ونزع الى الانكار ﴿قال ابن خلدون﴾ وحضرت هذا المجلس يومئذ فيمن حضره من الخاصة فكان مقاما تسيل فيه العيون رحمة وعبرة ثم أمر به السلطان فسحب على وجهه ونتفت لحيته وضرب بالعصي وتل الى محبسه ثم قتل بعد ليال قعصا بالرماح خارج البلد ونصب شلوه بباب المحروق رحمه الله تعالى

## ﴿ نهوض السلطان أبي سالم الى تلمسان واستيلاؤه عليها ﴾

لما استوسق للسلطان أبي سالم ملك المغرب ومحى أثر الخوارج منه سمت همته الى تملك تلمسان كما كان لابيه وأخيه من قبل وأكد عزمه على ذلك ما كان من فرار عبد الله بن مسلم الزردالي عاملهم على درعة اليها فأجمع السلطان أبو سالم النهوض اليها وعسكر بظاهر فاس الجديد منتصف سنة احدى وستين وسبعمائة ولما توافت لديه الحشود وتكاملت بسدته الجنود ارتحل الى تلمسان واتصل خبرهم وضه بسلطانها أبي حمو ابن يوسف الزياني ووزيره عبد الله بن مسلم الزردالي فنادوا في العرب من بني عامر بن زغبة وبني معقل فاجابوهم كافة الاشرذمة قليلة من الاحلاف ثم خرج أبو حمو وشيعته عن تلمسان الى الصحراء والتفت عليه العرب بحللها ولما دخل السلطان أبو سالم تلمسان واستولى عليها خالفه أبو حمو في عربه الى المغرب فنزلوا آكرسيف وطاط وبلاد ملوية وحطموا زروعها وانتسفوا بركتها وخربوا عمرانها وبلغ السلطان أبا سالم ما كان من افسادهم فاهمه أمر المغرب وكان في جملته من بني زيان محمد بن عثمان ابن السلطان أبي تاشفين ويكنى أبا زيان فعقد له على تلمسان وأعطاه الآلة وجمع له جيشا من مغراوة وبني توجين ودفع لهم أعطياتهم وانكفأ راجعا الى فاس فاجفل أبو حمو والعرب أمامه ثم خالفوه الى

تلمسان فطردوا عنها أبا زيان واستولوا عليها وثبت قدم أبي حمو بها وعاد أبو زيان الى المغرب لاحقا بالسلطان أبي سالم فتقبله وعقد المهادنة مع أبي حمو واستقر الامر على ذلك وقد كان ابن الخطيب عند ما بلغه استيلاء السلطان أبي سالم على تلمسان هنأه بقصيدة طويلة يقول في مطلعها

أطاع لساني في مديحك احساني * وقد لهجت نفسي بفتح تلمسان

ويقول في أثنائها وقد ألم بشيء من علم الاحكام النجومية لميل السلطان اليه

ولله من ملك سعيد ونصبة * قضى المشترى فيها بعزلة كيوان

وسجل حكم العدل بين بيوتها * وقوفا مع المشهور من رأى يونان

فلم تخش سهم القوس صفحة بدرها * ولم تشك فيها الشمس من بخس ميزان

ولم يعترض مبتزها قطع قاطع * ولا نازعت نوبهرها كف عدوان

تولى اختيارالله حسن اختيارها * فلم يحتج الفرغان فيها الفرغان

ولا صرفت فيها دقائق نسبة * ولا حققت فيها طوالع بلدان

## ﴿وفادة السودان من أهل مالى على السلطان أبي سالم واغرابهم في هديتهم بالزرافة الحيوان المعروف﴾

قد تقدم لنا ما جرى من المواصلة بين السلطان أبي الحسن والسلطان منسا موسى وأخيه أو ابنه من بعده منسا سليمان وتردد الوفود واسناء الهدايا بينهم وقد كان السلطان منسا سليمان قد هيأ هدية نفيسة بقصد أن يبعثها الى السلطان أبي الحسن مكافأة له على هديته فهلك السلطان أبو الحسن خلال ذلك ثم هلك السلطان منسا سليمان بعده واختلف أهل مالى وافترق أمرهم وتقاتلوا على الملك الى ان جمع الله كلمتهم على السلطان منسا زاطة واستوسق له الامر ثم نظر في أعطاف ملكه وأخبر بشأن الهدية التي كان منسا سليمان قد هيأها للملك المغرب فأمر بانفاذها اليه وضم اليها الزرافة الحيوان الغريب الشكل العظيم الهيكل المختلف الشبه بالحيوانات وفصلوا بها من بلادهم فوصلوا الى حضرة فاس في صفر من سنة اثنتين وستين وسبعمائة ﴿قال ابن خلدون﴾ وكان يوم وفادتهم يوما مشهودا جلس لهم السلطان ببرج الذهب بمجلسه المعد لعرض الجنود ونودي في الناس بالبروز الى الصحراء فبرزوا وينسلون من كل حدب حتى غص بهم الفضاء وركب بعضهم بعضا في الازدحام على الزرافة اعجابا بخلقتها وحضر الوفد بين يدى السلطان وأدوا رسالتهم بتأكيد الود والمخالصة والعذر عن ابطاء الهدية بما كان من اختلاف أهل مالى وتواثبهم على الامر وتعظيم سلطانهم وما صار اليه والترجمان يترجم عنهم وهم يصدقونه بالنزع في أوتار قسيهم عادة معروفة لهم وحيوا السلطان بان جعلوا يحثون التراب على رؤسهم على سنة ملوك العجم وأنشد الشعراء في معرض المدح والتهنئة ووصف الحال ثم ركب السلطان الى قصره وانفض ذلك الجمع وقد طار بمطائر الاشتهار واستقر الوفد تحت جراية السلطان أبي سالم الى ان هلك قبل انصرافهم فوصلهم القائم بالامر من بعده وانصرفوا الى مراكش ثم منها الى ذوى حسان عرب السوس الاقصى من بني معقل المتصلين ببلادهم ومن هنالك لحقوا بسلطانهم والامر كله لله وكان مما قيل في الشعر في ذلك اليوم قول ابن خلدون من قصيدة يقول في مطلعها

قدحت يد الاشواق من زند * وهفت بقلبي زفرة الوجد

الى ان قال في وصف الزرافة

ورقيمة الاعطاف حالية * موشية بوشائع البرد

وحشية الانساب ما أنست * في موحش البيداء بالقرد

تسمو بجيد بالغ صعدا * شرف الصروح بغير ما جهد

طالت رؤس الشامخات به * ولربما قصرت عن الوهد
قطعت اليك تنائفا وصلت * اسئادها بالنص والوخد
تخدى على استصعابها ذللا * وتبيت طوع القن والقد
بسعودك اللائى ضمن لنا * طول الحياة بعيشة رغد
جاءتك فى وفد الاحابش لا * يرجون غيرك مكرم الوفد
وافوك أنضاء تقلبهم * أيدى السرى بالغور والنجد
كالطيف يستقرى مضاجعه * أو كالحسام يسل من غمد
يثنون بالحسنى التى سبقت * من غير انكار ولاجحد
ويرون لحظك من وفادتهم * فخرا على الاتراك والهند
يامستعينا جل فى شرف * عن رتبة المنصور والمهدى
جازاك ربك عن خليقته * خير الجزاء فنعم ماتسدى
وبقيت للدنيا وساكنها * فى عزة أبدا وفى سعد

وقول الكاتب البارع أبى عبد الله بن زمرك الاندلسى من قصيدة يقول فى مطلعها

لولا تألق بارق التذكار * ماصاب واكف دمعى المدرار
لكنه مهما تعرض خافقا * قدحت يد الاشواق زند اوارى

الى ان قال فى الغرض المذكور

وغريبة قطعت اليك على الونى * بيدا تبيد بها هوم السارى
تنسيه طيته التى قد أمها * والركب فيها ميت الاخبار
يقتادها من كل مشتمل الدجا * فكأنما عيناه جذوة نار
تشدو بحمد المستعين حداتها * يتعللون به على الاكوار
ان مسهم لفح الهجير أبلهم * منه نسيم ثنائك المعطار
خاضوا بها لجج الفلا فتخلصت * منها خلوص البدر بعد سرار
سلمت بسعدك من غوائل مثلها * وكفى بسعدك حامى الذمار
وأتتك يامالك الزمان غريبة * قيد النواظر نزهة الابصار
موشية الاعطاف رائقة الحلى * رقمت بدائعها يد الاقدار
راق العيون أديمها فكأنه * روض تفتح عن شقيق بهار
ما بين مبيض وأصفر فاقع * سال اللجين به خلال نضار
يحكى حدائق نرجس فى شاهق * تنساب فيه أراقم الانهار
تحدو قوائم كالجذوع وفوقها * جبل أشم بنوره متوارى
وسمت بجيد مثل جذع مائل * سهل التعطف لين خوار
تستشرف الجدرات منه ترائبا * فكأنما هو قائم بمنار
تاهت بكلكلها وأتلع جيدها * ومشى بها الاعجاب مشى وقار
خرجوا لها الجم الغفير وكلهم * متعجب من لطف صنع البارى
كل يقول لصحبه قوموا انظروا * كيف الجبال تقاد بالاسيار
ألقت ببابك رحلها ولطالما * ألقى الغريب به عصا التسيار
علمت ملوك الارض أنك فخرها * فتسابقت لرضاك فى مضمار

يتبوؤن به وان بعد المدى * من جاهك الاعلى أعز جوار
فارفع لواء الفخر غير مدافع * واسحب ذيول العسكر الجرّار
واهنأ بأعياد الفتوح مخوّلا * ماشئت من نصر ومن أنصار
واليك هامن روض فكرى نفحة * شف الثناء بها على الازهار
فى فصل منطقها وراثق رسمها * مستمتع الاسماع والابصار
وتميل من أصغى لها فكأننى * عاطيته منها كؤس عقار

﴿مقتل السلطان أبى سالم رحمه الله والسبب فى ذلك﴾

كان السلطان أبو سالم رحمه الله قد غلب على هواه الخطيب أبو عبد الله بن مرزوق وألقى زمام الدولة بيده فنقم خاصة السلطان وحاشيته ذلك عليه وسخطوا الدولة من أجله ومرضت قلوب أهل الحل والعقد من تقدمه فتربصوا بالدولة الدوائر الى ان كانت أواخر سنة اثنتين وستين وسبعمائة فتحوّل السلطان أبو سالم عن دار الملك من فاس الجديد الى القصبة من فاس القديم واختط بها ايوانا فخما اجلوسه فلما استولى عمر بن عبد الله بن على بن سعيد الفودودى أحد كبراء الدولة ووزرائها على دار الملك اذ كان السلطان أبو سالم قد خلفه أمينا عليها حدثته نفسه بالتوثب وسهل ذلك عليه ما كان قد عرفه من مرض القلوب على السلطان لمكان ابن مرزوق فداخل قائد جند النصارى غرسية بن أنطول واتعدوا لذلك ليلة الثلاثاء السابع عشر من ذى القعدة من السنة المذكورة فعمدوا الى تاشفين الموسوس ابن أبى الحسن فخلعوا عليه وألبسوه شارة الملك وقربوا له مركبا وأجلسوه مجلس السلطان وأكرهوا شيخ الحامية والناشبة محمد بن الزرقاء على البيعة له وجاهروا بالخلعان وقرعوا الطبول ودخلوا الى بيت المال ففرضوا العطاء من غير تقدير ولا حساب وماج الجند بفاس الجديد بعضهم فى بعض واختطفوا ما وصلوا اليه من العطاء ثم انتهبوا ما كان بالمخازن الخارجة من السلاح والعدة وأضرموا النيران فى بيوتها استرا على ماضاع منها وأصبح السلطان أبو سالم بمكانه من قصبة فاس القديم وكان قد تحوّل اليها فرارا من قاطع فلكى خوّفه اياه بعض منجميه فكان البلاء فيه موكلا بالمنطق فلما علم بالكائنة ركب واجتمع اليه من حضر من أوليائه وغدا على فاس الجديد وطاف بها يروم اقتحامها فامتنعت عليه ثم اضطرب معسكره بكدية العرائس لحصارها ونادى فى الناس بالاجتماع اليه ولما كان وقت الهاجرة دخل فسطاطه للقيلولة فتسايل الناس عنه الى فاس الجديد فوجا بعد فوج بمرءى منه الى ان انفض عنه خاصته وأهل مجلسه فطلب النجاء بنفسه وركب فى ثلة من الفرسان وفيهم وزيراه سليمان بن داود ومسعود بن عبد الرحمن بن ماساى ومقدم الموالى والجند ببابه سليمان بن ونصار وأذن لابن مرزوق فى الدخول الى داره ومضى هو على وجهه فمن معه ولما غشيهم الليل انفضوا عنه حتى بقى وحده ورجع الوزيران الى دار الملك فتقبض عليهما رئيس الثورة عمر بن عبد الله الفودودى ومشاركه فيها غرسية بن انطول النصرانى واعتقلاهما متفرقين وبعث عمر بن عبد الله الطلب فى أثر السلطان أبى سالم فعثروا عليه نائما من الغد فى بعض المجاشر بوادى ورغة وقد غير لباسه اختفاء بشخصه وتواريا عن العيون بمكانه فتقبضوا عليه وحملوه على بغل وطيروا بالخبر الى عمر بن عبد الله فأزعج لتلقيه شعيب بن ميمون بن وردار وفتح الله ابن عامر بن فتح الله السدراتى وأمرهما بقتله وانفاذ رأسه فلقياه بخندق القصب ازاء كدية العرائس فأمرا بعض جند النصارى أن يتولى ذبحه ففعل وحملوا رأسه فى مخلاة ووضعوه بين يدى الوزير الثائر ومشيخته وكان ذلك يوم الخميس الحادى والعشرين من ذى القعدة سنة اثنتين وستين وسبعمائة ودفن بالقلة خارج باب الجيسة باعلى جبل العرض المعروف بجبل الزعفران ﴿قال ابن الخطيب فى الاحاطة﴾ كان السلطان أبو سالم رحمه الله بقية البيت وآخر القوم دماثة وحياء وبعدا عن الشرور وركونا للعافية

قال وأنشدت على قبره الذى ووريت به جثته قصيدة أديت فيها بعض حقه

بنى الدنيا بنى لمع السراب * لدوا للموت وابنوا للخراب اهـ

ومن أعيان وزرائه أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق العجيسى الخطيب المشهور الذى مر ذكره آنفا ومن قضاة عسكره أبو القاسم محمد بن يحيى الاندلسى البرجى ومن أعيان كتابه الرئيس أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون صاحب التاريخ وأبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان النجارى من أهل مالقة صاحب كتاب السياسة وغيره * ومما نظمه هذا الفاضل عن اذن السلطان أبى سالم رحمه الله ليكتب فى طرة قبة رياض الغزلان من حضرته قوله

هذا المحل المنى بالامن معمور * من حله فهو بالامان محبور
مأوى النعيم به ماشئت من ترف * تهوى محاسنه الولدان والحور
ويطلع الروض منه مصنعا عجبا * يضاحك النور من لألائه النور
ويسطع الزهر من أرجائه أرجا * بنافح الند نشر منه منشور
مغنى السرور سقاه الله ما جلبت * غر الغمام وحلته الازاهير
أنظر الى الروض تنظر كل معجبة * مما ارتضاه لرأى العين تحبير
مر النسيم به يبغى القرا فقرا * دراهم النور تبديد وتنثير
وهامت الشمس فى حسن الظلال به * ففرقت فوقه منها دنانير
والدوح ناعمة تهتز من طرب * مما وصوت غناء الطير مجهور
كأنما الطير فى أفنانها صدحت * بشكر مالكها والفضل مشكور
والنهر شق بساط الارض تحسبه * سيفا ولكنه فى السلم مشهور
ينساب للجنة الخضراء أزرقه * كالايم جد انسياب وهو مذعور
هذى مصانع مولانا التى جمعت * شمل السرور وأمر السعد مأمور
وهذه القبة الغراء ما نظرت * لشكلها العين الا عز تنظير
ولا يصورها فى الفهم ذو فكر * الا ومنه لكل الحسن تصوير
ولا يرام بحصر وصف ما جمعت * من المحاسن الا صد تقصير
فيها المقاصير تحميها مهابته * لله ما جمعت تلك المقاصير
كأنها الافق تبدو النيرات به * ويستقيم بها فى السعد تسيير
وينشأ المزن فى أرجائه وله * من عنبر الشحر انشاء وتسخير
وينهمى القطر منه وهو منسكب * ماء من الورد يذكو منه تعطير
وتخفق الريح منه وهى ناسمة * مما أهب به مسك وكافور
ويشرق الصبح منه وهو من غرر * غر تلالا منهن الاسارير
وتطلع الشمس فيه من سنا ملك * تبسم الدهر منه وهو مسرور

ومضى فى مدح السلطان والله تعالى يتغمد الجميع برحمته وكرمه

## ﴿الخبر عن دولة السلطان أبى عمر تاشفين الموسوس ابن أبى الحسن المرينى﴾

هذا السلطان كان محجورا بالوزير عمر بن عبد الله الفودودى لا يملك معه ضرا ولا نفعا أمه أم ولد اسمها ميمونة صفته طويل القامة عظيم الهيكل بعيد ما بين المنكبين أعين أدعج وكان فارسا بطلا قوى الساعد الا أنه كان ناقص العقل ولما ثار عمر بن عبد الله بالسلطان أبى سالم وسعى فى هلاكه الى أن قتل كما مر استبد بامر الدولة ونصب هذا الموسوس يموه به على الناس فبويع ليلة الثلاثاء التاسع

عشر من ذى القعدة سنة اثنتين وستين وسبعمائة حسبما سبق وكان نقصان عقل تاشفين من أجل الاسر الذى أصابه بوقعة طريف أيام والده السلطان أبى الحسن الى ان اقتدى وبقى ناقص العقل مختل المزاج الى أن كان من أمره ما كان

## ﴿الفتك بغرسية بن انطول قائد النصارى ومقتل جنده معه والسبب فى ذلك﴾

لما قبض عمر بن عبد الله على الوزير بن مسعود بن عبد الرحمن بن ماساى وسليمان بن داود وسجنهما متفرقين فاخذ اليه ابن ماساى لمكان صهره منه ودفع لغرسية سليمان بن داود وكان سليمان بن ونصار قد قرّ مع السلطان أبى سالم كامر ولما رجع عنه فيمن رجع نزل على غرسية فقبله وأكرمه وكان يعاقره الخمر ففاوضه ذات ليلة فى الثورة بعمر بن عبد الله واعتقاله واقامة سليمان بن داود المسجون بداره مقامه لما هو عليه من السن ورسوخ القدم فى الامر ونمى الخبر بذلك الى عمر بن عبد الله فارتاب وكان خلوا من العصبية ففزع الى قائد المركب السلطانى من ناشبة الاندلس ورماتها وهو يومئذ ابراهيم البطروجى فعاقده على أمره وبايعه على الاستماتة دونه ثم رأى أن ذلك لا يكفيه ففزع ثانيا الى يحيى ابن عبد الرحمن شيخ بنى مرين وصاحب شوراهم فشكى اليه فاشكاه ووعده الفتك بابن أنطول وأصحابه وانبرم عقد ابن انطول وسليمان بن ونصار أيضا على عمر بن عبد الله وغدوا الى القصر وداخل ابن انطول طائفة من النصارى استظهارا بهم وتوافت بنو مرين بمجلس السلطان على عادتهم وحضر ابن أنطول والبطروجى ويحيى بن عبد الرحمن وغير هؤلاء من الوجوه فسأل عمر بن عبد الله من ابن انطول تحويل سليمان بن داود من داره الى السجن فأبى وضن به عن الاهانة حتى سأل مثلها من ابن ماساى صاحبه فامر عمر بالتقبض عليه فكشر فى وجوه الرجال واخترط سكينه للمدافعة فتواثبت بنو مرين عليه وقتلوه لحينه واستلحموا من وجدوا بالدار من جند النصارى عند دخولهم مع قائدهم وفرّ بعضهم الى معسكرهم ويعرف بالملاح جوار فاس الجديد وأرجف الغوغاء بالمدينة أن ابن أنطول قد غدر بالوزير فقتلوا جند النصارى حيث وجدوهم من سكك المدينة وتزاحفوا الى الملاح لاستلحام من بقى به منهم وركبت بنو مرين لحماية جندهم من معرة الغوغاء وانتهب يومئذ الكثير من أموالهم وآنيتهم وأمتعتهم وقتل النصارى أيضا كثيرا من مجان المسلمين كانوا يعاقرون الخمر بالملاح ثم سكنت الهيعة وما كادت واستبدّ عمر بن عبد الله بدار الملك واعتقل سليمان بن ونصار الى الليل ثم بعث من قتله بمحبسه وحوّل سليمان ابن داود الى بعض الدور من دار الملك فاعتقله بها واستولى على أمره ثم خاطب عامر بن محمد الهنتاتى فى اتصال اليد به واقتسام ملك المغرب بينه وبينه وبعث اليه بابى الفضل ابن السلطان أبى سالم اعتده عنده ليوم ما ثم فسد ما بينه وبين مشيخة بنى مرين فاجتمعوا على كبيرهم يحيى بن عبد الرحمن وعسكروا بباب الفتوح واستدعوا عبد الحليم بن أبى على ابن السلطان أبى سعيد من تلمسان على ما نذكره

## ﴿ظهور عبد الحليم بن أبى على بن أبى سعيد ومحاصرته لفاس الجديد ثم فراره عنها﴾

قد قدمنا فى أخبار السلطان أبى الحسن أن أخاه أبا على صاحب سجلماسة كان قد انتقض عليه فامكنه الله منه فقتله وكفل أولاده فلم يميز بينهم وبين أولاده فى شئ من الاشياء ولما أفضى الامر الى أبى عنان بعث جماعة من اخوته وقرابته الى الاندلس تحت حياطة ابن الاحمر وكان فيهم أولاد أبى على هؤلاء ثم بعد حين سرحوا وقدموا تلمسان على سلطانها أبى حمو بن يوسف فكانوا عنده الى هذا التاريخ فلما فسد ما بين عمر بن عبد الله وشيوخ بنى مرين بعثوا الى تلمسان جماعة منهم لاستقدام عبد الحليم المذكور فسرّحه أبو حمو وأعانه بشئ من الآلة وجمع عليه من رغب فى طاعته وزحف الى فاس فتلقته جماعة بنى مرين بسبو ونزلوا على فاس الجديد يوم السبت سابع محرم سنة ثلاث وستين

وسبعمائة

وسبعمائة واضطر بوامعسكرهم بكدية العرائس وحاصروا دار الملك سبعة أيام وتتابعت وفودهم وحشودهم ثم ان عمر بن عبد الله برز يوم السبت القابل فى مقدمة السلطان تاشفين بمن معه من جند المسلمين والنصارى براحجة وناشبة ووكل بالسلطان من جاء به فى الساقة على التعبية المحكمة وناوشهم الحرب فزحفوا اليه فاستطردلهم ليتمكن الناشبة من عقرهم من الاسوار حتى فشت فيهم الجراحات ثم صمم نحوهم فانفرج القلب وانفضت الجموع ثم زحف السلطان تاشفين فى الساقة فابذعرّ وافى الجهات وافترق بنو مرين الى مواطنهم ولحق يحيى بن عبد الرحمن بمراكش مع مبارك بن ابراهيم شيخ الخلط ولحق عبد الحليم واخوته بتازا بعد ان شهدلهم رجال الدولة بصدق الجلاد وحسن البلاء فى ذلك المقام ثم ان الوزير عمر بن عبد الله راجع بصيرته فى تقديم المعتوه للامر وعلم ان الامر لا يستقيم له بذلك فبادر باستقدام أبى زيان محمد بن أبى عبد الرحمن يعقوب ابن السلطان أبى الحسن وكان عند الطاغية بدار الحرب فقدم وخلع الوزير المذكور سلطانه الموسوس يوم الاثنين الحادى والعشرين من صفر سنة ثلاث وستين وسبعمائة فكانت دولته ثلاثة أشهر ويومين ومات وسنه ستون سنة والله تعالى أعلم

﴿الخبر عن دولة السلطان المتوكل على الله أبى زيان محمد بن أبى عبد الرحمن يعقوب بن أبى الحسن المرينى﴾

هذا السلطان كان محجوبا بالوزير عمر بن عبد الله أيضا كنيته أبو زيان لقبه المتوكل على الله أمه أم ولد اسمها فضة صفته آدم اللون شديد الادمة معتدل القامة منفرج الانف دقيق العينين ﴿وقال ابن الخطيب فى الاحاطة﴾ حاله فاضل سكون منقاد مشتغل بخاصة نفسه قليل الكلام حسن الشكل درب بركض الخيل مفوض للوزراء عظيم التأنى لاغراضهم وكان قبل ولايته عند الطاغية بالاندلس فرّ اليه خوفا على نفسه ولما التبست الامور على عمر بن عبد الله طلبه الى الطاغية فسمح به بعد اشتراط واشتطاط وفصل من اشبيلية فى المحرم فاتح سنة ثلاث وستين وسبعمائة ونزل بسبتة وبها سعيد بن عثمان من قرابة الوزير عمر بن عبد الله أرصده لقدومه فطير اليه بالخبر فحينئذ خلع عمر تاشفين الموسوس وبعث الى السلطان أبى زيان بالبيعة والآلة والفساطيط ثم جهز عسكر اللقائه فتلقوه بطنجة وأغذ السير الى الحضرة فنزل منتصف صفر بكدية العرائس واضطرب معسكره بها وتلقاه يومئذ الوزير عمر بن عبد الله اليابانى وبايعه وأخرج فسطاطه فاضطرب بمعسكره وتلوم السلطان أبو زيان هنالك ثلاثا ثم دخل فى اليوم الرابع الى قصره واقتعد أريكته وتودع ملكه ﴿وقال ابن الخطيب فى الاحاطة﴾ كان دخوله داره مغرب ليلة الجمعة بطالع الثامن من السرطان وبه السعد الاعظم كوكب المشترى من السيارة السبعة اهـ ولما تم له الامر خاطبه ابن الخطيب من سلا مهنئاله بقوله

يا ابن الخلائف يا سمى محمد * يامن علاه ليس يحصر حاصر
ابشر فأنت مجدد الملك الذى * لولاك أصبح وهو رسم داثر
من ذا يعاند منك وارثه الذى * بسعوده فلك المشيئة دائر
ألقت اليك يد الخلافة أمرها * اذ كنت أنت لها الولى الناصر
هذا وبينك للصريخ وبينها * حرب مضرسة وبحر زاخر
من كان هذا الصنع أول أمره * حسنت له العقبى وعز الآخر
مولاى عندى فى علاك محبة * والله يعلم ماتكن ضمائر
قلبى يحدثنى بانك جابر * كسرى وحظى منك حظ وافر
بشرى بجدودك قد حططت حقيبتى * فوسيلتى لعلاك نور باهر
وبذلت وسعى واجتهادى مثل ما * يلقى للملك سيف أمرك عامر
فهو الولى لك الذى اقتحم الردى * وقضى العزيمة وهو سيف باتر

وولى جدك فى الشدائد عندما * خذلت علاه قبائل وعشائر
فاستهد منه النصح واعلم انه * فى كل معضلة طبيب ماهر
ان كنت قد عجلت بعض مدائحى * فهى الرياض وللرياض بواكر

ثم أتبعها بنثر أضربنا عنه اختصارا والله تعالى الموفق

## ﴿وفادة ابن الخطيب من سلا على السلطان أبى زيان بن أبى عبد الرحمن رحمهما الله﴾

﴿قال فى الاحاطة﴾ وفدت على السلطان أبى زيان بن أبى عبد الرحمن بن أبى الحسن من محل الانقطاع بسلا وأنشدته قولى

لمن علم فى هضبة الملك خفاق * أفاقت به من غشية الهرج آفاق
تقل رياح النصر عنه غمامة * تمد لها أيد وتخضع أعناق
وبيعة شورى أحكم السعد عقدها * واحمل اجماع عليها واصفاق
قضى عمر فيها بحق محمد * فصل عهد للوفاء وميثاق
أحلما ترى عيناى أم هى فترة * أعند كافى مشكل الامر مصداق
وفاض لفضل الله فى الارض تبتغى * ومجتمعات لاتريب وأسواق
وسرح تهنيه الكلاءة بالكلا * وفلح لسقى الغيث قام له ساق
وقد كان طيف الحلم لايدمل الخطا * وللفتنة العمياء فى الارض اطباق
وللغيث امساك وفى الارض رجة * وللدين والدنيا وجوم واطراق
فكل فريق فيه للبغى راية * وكل طريق فيه للعيث طراق
أجل انه من آل يعقوب وارث * يحن له البيت العتيق ويشتاق
له من جناح الروح ظل مسجف * ومن رفرف العز الالهى رستاق
أطل على الدنيا وقد عاد ضوءها * دجى وعلى الاحداق للدعر احداق
فأشرقت الارجاء من نور ربها * وساح بها لله لطف واشفاق
فمن ألسن بالشكر لله أعلنت * وكان لها من قبل همس واطباق
وليس لامر أبرم الله ناقض * وليس لمسعى النجح فى الله اخفاق
محمد قد أحييت دين محمد * وللخلق ادماء تفيض وارماق
ولولم تنب غطى على شفق الضحا * دم لسيوف البغى فى الارض مهراق
فأعين يخشون من الفلك سابح * له باختيار الله حط وايساق
افلك والدأماء تظهر طاعة * اليك وصفح الماء أزرق رقراق
الى هدف السعد انبرى منه والدجا * تضل الحجى سهم من السعد رشاق
خططت لتقويم القوام جداول * وصحت من التوفيق واليمن أوفاق
تبارك من أهداك للخلق رحمة * ومستبعد أن يهمل الخلق خلاق
هو الله يبلو الناس بالخير فتنة * وبالشر والايام سم وترياق
سمت منك أعناق الورى لخليفة * له فى مجال السعد عدو واعناق
وقالوا بنان ما استقل بكفه * تفيض على العافين أم هى أرزاق
وأطنب فيك المادحون وأغرقوا * فلم يجد الطناب ولم يغن اغراق
ألست من القوم الذين أكفهم * غمام ندى ان أخلف الغيث غيداق
ألست من القوم الذين وجوههم * بدور لها فى ظلمة الروع اشراق

رياض اذا العافى استظل ظلالها * ففيها جنى ملء الاكف واراق
أبوك ولى العهد لوسالم الردى * وجدك قد فاق الملوك وان فاقوا
فمن ذا له جد كجدك أو أب * لآلئ والمجد المؤثل نساق
وحسب العلى فى آل يعقوب انهم * هم الاصل فى العلياء والناس الحاق
أسود سروج أو بدور أسرة * فان حاربوا راعوا وان سالموا راقوا
يطول لتحصيل الكمال سهادهم * فهم للمعالى والمكارم عشاق

ومنها

لقد نسيت احسان جدك فرقة * تزر على أعناقهم منه أطواق
أجازت خروج ابن ابنه عن تراثه * ولم تدر ما ضمت من الذكر أوراق
ومن دون ما راموه لله قدرة * ومن دون ما أموه للفتح اغلاق
خذ العفو وابذل فيهم العرف ولتسع * جريرة من أبدى لك الغدر أخلاق
فربتما تنبو مهندة الظبى * وتهفو حلوم القوم والقوم حذاق
وما الناس الا مذنب وابن مذنب * ولله ارفاد عليهم وارفاق
ولا ترج فى كل الامور سوى الذى * خزائنه ما ضرها قط انفاق
اذا هو أعطى لم يضر منع مانع * وان حشدت طسم وعاد وعملاق
عرفت الردى واستأثرت بك العدا * تخوم لمختط الصليب واعماق
فيسر لليسرى واحيا بك الورى * وللروع ارعاد عليك وابراق
فجاز صنيع الله وازدد بشكره * مواهب جود غيثها الدهر دفاق
وأوف لمن أوفى وكاف الذى كفى * فانت كريم طهرت منك اعراق
وتهنيك يا مولى الملوك خلافة * شجتها تباريح اليك وأشواق
فقد بلغت أقصى المنى بك نفسها * وكم فاز بالوصل المهنا مشتاق
فلا راع منها السرب للدهر رائع * ولا نال منها جدة السعد اخلاق
أمولاى براع الدهر سربى وغالنى * فطرفى مذعور وقلبى خفاق
وليس لكسرى غيرك اليوم جابر * ولا ليدى الا بجدك اعلاق
ولى فيك ود واعتداد غرسته * فراقت به من يانع الحمد أوراق
وقد عيل صبرى فى ارتقابى خليفة * تحل به للضر عنى أوهاق
وأنت حسام الله والله ناصر * وأنت أمين الله والله رزاق
وأنت الامان المستجار من الردى * اذا راع خطب أو توقع املاق
وأهون ما يرجى لديك شفاعة * اذا لم يكن عزم حثيث وارهاق
ودونكها من ذائع الحمد خالص * له فيك تقييد بروق واطلاق
اذا قال اما كل سمع لقوله * فصغو وأما كل أنف فنشاق
ودم خافق الاعلام بالنصر كلما * ذهبت لسعى لم يكن فيه اخفاق

قال وعدت منه ببر كثير واحترام شهير يشير بذلك الى ما أكرمه به وكتب له من الظهير الذى يتضمن كمال الاحترام والتوقير ونصه هذا ظهير كريم من أمير المسلمين فلان أيده الله ونصره وسنى له الفتح المبين ويسره للشيخ الفقيه الاجل الاسنى الاعز الاحظى الارفع الامجد الاسمى الاوحد الانوه الارقى العالم العلم الرئيس الاعرف المتفنن الابرع المصنف المفيد الصدر الاحفل الافضل الاكمل أبى عبد الله ابن الشيخ

الفقيه الوزير الاجل الاسنى الاعز الارفع الامجد الوجيه الانوه الاحفل الافضل الحسيب الاصيل الاكمل المبرور المرحوم أبي محمد ابن الخطيب قابله أيده الله بوجه القبول والاقبال وأضفى عليه ملابس الانعام والافضال ورعى له خدمة السلف الرفيع الجلال وما تقرر من مقاصده الحسنة في خدمة أمرنا العال وأمر في جملة ما سوغه من الآلاء الوارفة الظلال الفسيحة المجال بان يجدد له حكم ما بيده من الاوامر المتقدم تاريخها المتضمنة تمشية خمسمائة دينار من الفضة العشرية في كل شهر عن مرتب له ولولده الذي لنظره من محبى مدينة سلا حرسها الله ومن حيث جرت العادة ان تمشى له ورفع الاعتراض بابها فيما يجلب له من الادم والاقوات على اختلافها من حيوان وسواه وفيما يستفيده خدامه بخارجها وأحوازها من عنب وقطن وكتان وفاكهة وخضر وغير ذلك فلا يطلب في شئ من ذلك بغرم ولا وظيف ولا يتوجه فيه اليه بتكليف يتصل له حكم جميع ما ذكر في كل عام تجديدا تاما واحتراما عاما اعلن بتجديد الحظوة واتصالها واتمام النعمة واكمالها من تواريخ الاوامر المذكورة الى الآن ومن الآن الى ما يأتي على الدوام واتصال الايام وان يحمل جانبه فيمن يشركه أو يخدمه محمل الرعى والمحاشاة في السخر مهما عرضت والوظائف اذا افترضت حتى يتصل له تالد العناية بالطارف وتتضاعف أسباب المنن والعوارف بفضل الله وتحرر له الازواج التي يحرثها بتامامغت من كل وجيبة وتحاشى من كل مغرم أو ضريبة بالتحرير التام بحول الله وعونه ومن وقف على هذا الظهير الكريم فليعمل بمقتضاه وليمض ما أمضاه ان شاء الله وكتب في العاشر من شهر ربيع الآخر من سنة ثلاث وستين وسبعمائة وكتب في التاريخ اه وقوله وكتب في التاريخ هو العلامة السلطانية في ذلك الزمان يكتب بقلم غليظ وبعض ملوك المغرب يكتب عند العلامة صح في التاريخ

## وفادة عامر بن محمد الهنتاتي على السلطان أبي زيان بن أبي عبد الرحمن رحمهما الله

كان للوزير عمر بن عبد الله اليابانى مودة ومصافاة مع الرئيس الشهير أبي ثابت عامر بن محمد الهنتاتي كبير جبل درن والبلاد المراكشية وكان الوزير عمر المذكور قد بعث اليه بصهره وظهيره على الملك مسعود بن عبد الرحمن بن ماساى يكون عنده عدة وعتاد اليوم ما فلما بويع السلطان أبو زيان استقدم عمر بن عبد الله صهره المذكور لوزارته وكان عامر بن محمد مجمعا القدوم على السلطان المذكور فقدم في صحبته مسعود ونزلا من الدولة بخير منزل وعقد السلطان أبو زيان لمسعود المذكور على وزارته باشارة الوزير عمر بن عبد الله فاضطلع بها ودفعه عمر اليها استمالة اليه وثقة بمكانه واستظهارا بعصبيته وعقد مع عامر بن محمد الحلف على مقاسمة المغرب شق الابلة وجعل امارة مراكش لابي الفضل ابن السلطان أبي سالم اسعافا لغرض عامر بن محمد في ذلك وخطب اليهم عامر بنت السلطان أبي بكر الحفصي التي توفى عنها السلطان أبو عنان فاجابوه وجاوا أولياءها على العقد عليها وانكفأ راجعا الى مكان عمله بمراكش يجر الدنيا وراءه عزا وثروة وتابعا وذلك في جمادى الاولى من سنة ثلاث وستين وسبعمائة فاستقل بامر الناحية الغربية من مراكش وجبال المصامدة وما اليها من الاعمال واستبد بها ونصب أبا الفضل ابن السلطان أبي سالم صورة واستوزر له وتمكن سلطانه وعلا ذكره وصارت كأنها دولة مستقلة فصرف اليه النازعون من بني مرين عن الدولة وجوه مفرهم ولجؤا اليه فاجارهم على السلطان واجتمع اليه منهم ملأ واتسع الخرق على الراقع واضطربت الاحوال بالمغرب وخرج على السلطان أبي زيان الامير عبد الحليم بن أبي على بن أبي سعيد وتغلب على سجلماسة وأعمالها ثم غلب عليه أخوه عبد المؤمن بن أبي على فخرج عبد الحليم الى المشرق لقضاء فريضة الحج واستمر عبد المؤمن بسجلماسة وأقام بها دولة كما كان لوالده من قبل الى ان فتحها الوزير مسعود بن عبد الرحمن بن ماساى وأضافها الى ممالكه فاس ثم انتقض الوزير مسعود أيضا وبايع الامير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن بن أبي على ونصبه للامر وصار يشوش به

على الدولة وشرق عمر بن عبد الله بدائه فى أخبار طويلة ولم يتم له أمر عبرهو وسلطانه البحر من مرسى غساسة الى الاندلس فاتح سنة سبع وستين وسبعمائة وأقبلا على الجهاد واستراح الوزير عمر وسلطانه أبو زيان من شغبهما والله غالب على أمره

﴿مقتل السلطان أبى زيان بن أبى عبد الرحمن رحمه الله﴾

لما طال استبداد الوزير عمر بن عبد الله على السلطان أبى زيان وحجره اياه اذ كان وضع عليه الرقباء والعيون حتى من حرمه وأهل قصره عزم على الفتك بالوزير المذكور وتناجى بذلك مع بعض ندمائه وأعد له طائفة من العبيد كانوا يختصون به فنمى ذلك الى الوزير بواسطة بعض الحرم كانت عينا له عليه فعاجله وكان قد بلغ من الاستبداد عليه ان كان الحجاب مرفوعا له عن خلوات السلطان وحرمه فدخل عليه وهو فى وسط حشمه فطردهم عنه ثم غطه حتى فاظ وأمر به فالقى فى بئر بروض الغزلان واستدعى الخاصة فأراهم مكانه بها وأنه سقط عن دابته وهو سكران وذلك فى محرم فاتح سنة ثمان وستين وسبعمائة كذا عند ابن خلدون ﴿وقال فى الجذوة﴾ توفى يوم الاحد الثانى والعشرين من ذى الحجة سنة سبع وستين وسبعمائة وله ثمان وعشرون سنة ودفن بجامع قصره فكانت دولته أربع سنين وعشرة أشهر ويوما واحدا والله أعلم

﴿الخبر عن دولة السلطان أبى فارس عبد العزيز بن أبى الحسن رحمه الله﴾

هذا السلطان هو الذى أنعش دولة بنى مرين بعد تلاشيها وأعاد اليها شبابها بعد هرمها وتقاضيها وأزال عنها وصمة الحجر والاستبداد وأعادها من العز الى حالها المعتاد وهو الذى ذكره ابن خلدون فى أول تاريخه الكبير وألفه برسمه وحلى ديباجته باسمه أمه مولدة اسمها مريم صفته آدم اللون شديد الادمة طويل القامة يشرف على الناس بطوله نحيف الجسم أعين أدعج أخنس فى وجهه أثر جدرى وكان عفا متمسكا بالدين محبا فى الخير وأهله لم يشرب خمرا ولا وقع فى فاحشة قط وبالجملة فقد كان من صالحى الملوك رحمه الله ﴿بيعته﴾ كان من الوزير عمر بن عبد الله البابانى الى السلطان أبى زيان رحمه الله ما كان من الخنق والالقاء فى البئر استدعى عبد العزيز بن أبى الحسن هذا وكان فى بعض الدور من القصبة بفاس محتاطا عليه من قبل الوزير المذكور فأحضره بالقصر وأجلسه على سرير الملك وبايعه وفتحت الابواب لبنى مرين وسائر الخاصة والعامة فازدحموا على تقبيل يده معطين الصفقة بطاعته فتم أمره وثبت ملكه وذلك يوم الاحد الثانى والعشرين من ذى الحجة سنة سبع وستين وسبعمائة ثم ان الوزير عمر جرى معه على عادته من الاستبداد ومنع التصرف فى شئ من أمور الملك فأنف السلطان عبد العزيز من ذلك وتأفف منه ودارت بينه وبين الوزير أمور والى ان عمل السلطان على الفتك به فأعد له جماعة من الخصيان بزوايا داره ثم أحضره ووبخه وثاربه أولئك الخصيان فتناولوه هبرا بالسيوف وصاح الوزير المذكور صيحة أسمع بها بطانته خارج الدار فوثبوا على الابواب فكسروها واقتحموا الدار فاذا صاحبهم مدرج بدمائه قد فرغ منه فولوا الادبار هاربين ثم تتبع السلطان عبد العزيز حاشية الوزير بالاعتقال والقتل حتى أتى على الجميع فى خبر طويل واستبد بملكه واضطلع به وأدار الامور فيه على ما ينبغى والله تعالى أعلم

﴿انتقاض أبى الفضل بن أبى سالم ثم مقتله بعد ذلك﴾

وقد قدمنا ان أبا الفضل بن أبى سالم كان قد عقد له الوزير عمر بن عبد الله على مراكش اسعافا لكافله عامر ابن محمد الهنتاتى فلما اقتلك السلطان عبد العزيز بالوزير المذكور سولت لابى الفضل نفسه مثلها فى عامر بن محمد لاستبداده عليه وأغراه بذلك بطانته فأحس عامر بالشر فمارض بداره من مراكش

ثم استأذنه فى الصعود الى معتصمه من الجبل ليمرضه هنالك حرمه وأقاربه فارتحل بجملته واحتمل بحصنه وكان أعزمن الابلق الفرد فيئس أبو الفضل من الاستمكان منه ثم أغرته بطانته اذفاتهم عامر بالفتك بعبد المؤمن بن أبى على وكان قد انضاف اليه بعد اجفاله عن سجلماسة فسكر أبو الفضل ذات ليلة وبعث عن قائد الجند من النصارى فأمره بقتل عبد المؤمن بمكان معتقله من قصبة مراكش فجاء برأسه اليه وطار الخبر بذلك الى عامر فارتاع وجدالله اذخلصه من غائلته وبعث ببيعته الى السلطان عبد العزيز وأغراه بأبى الفضل ورغبه فى ملك مراكش ووعده بالمظاهرة فأجمع السلطان أمره على النهوض اليها ونادى فى الناس بالعطاء وقضى أسباب حركته وارتحل من فاس سنة تسع وستين وسبعمائة وقد استبد أبو الفضل بمراكش وأعمالها وأقام بها رسم الملك واستوزر واستلحق وجعل شوراه لمبارك بن ابراهيم بن عطية الخلطى ولما نهض السلطان عبد العزيز من فاس اتصل خبره بأبى الفضل وهو منازل لعامر بن محمد فانفض معسكره ولحق بتادلا ليعتصم بجبل بنى جابر منها فاتبعه السلطان عبد العزيز اليها ونازله وأخذ بمخنقه وقاتله ففل عسكره ثم داخل بعض بنى جابر فى جر الهزيمة عليه على مال يعطيه لهم ففعلوا وانهزمت جيوشه وتقبض على أشياعه وسيق مبارك بن ابراهيم الى السلطان عبد العزيز فاعتقله الى ان قتله مع عامر بن محمد كما نذكر ولحق أبو الفضل بقبائل صناكة وراء بنى جابر فداخل بنو جابر صناكة فى شأنه وبذلوا لهم عن السلطان مالا دثرا فى اسلامه فأسلموه وبعث السلطان اليهم وزيره يحيى بن ميمون فجاء به أسيرا وأحضره أمام السلطان فوبخه ثم اعتقله بفسطاط مجاور له ثم غط من الليل فكان مهلكه فى رمضان سنة تسع وستين وسبعمائة لمضى ثمان سنين من امارته على مراكش وبعث السلطان عبد العزيز الى عامر بن محمد يختبر طاعته فأبى عليه وجاهر بالخلاف الى ان كان من شأنه ما نذكره

## ﴿انتقاض عامر بن محمد الهنتاتى وحصار السلطان عبد العزيز اياه وظفره به﴾

كان عامر بن محمد الهنتاتى مجير السلطان أبى الحسن من ابنه أبى عنان على ما وصفناه من بلوغ الغاية فى الرياسة والاعتزاز على الدولة وطول الاستبداد بمراكش وأحوازها وكان قد حصل فى مدة رياسته على ثروة عظيمة وجاه كبير وكان له معتصم بجبل درن أعز من بيض الانوق قد حصن فيه ماله وسلاحه وذخيرته وكان كلما هاجه هيج صعد اليه وأمن على نفسه فلما صفا الامر للسلطان عبد العزيز جعل عامرا هذا من أهم أمره فنصب له واستعد لقتاله وعقد على وزارته لابى بكر بن غازى بن يحيى بن الكاس ونهض اليه من فاس سنة سبعين وسبعمائة فحاصره فى جبله سنة كاملة ولما طال الحصار على عامر وشيعته اختلفت كلمتهم عليه وفسد ما بينه وبين ابن أخيه فارس بن عبد العزيز بن محمد فبعث الى السلطان وسهل له الطريق لاقتحام الجبل فزحفت العساكر والجنود وشارفت المعتصم ولما استيقن عامر ان قد أحيط به بعث الى ابنه أبى بكر أن يلحق بالسلطان مختاراله ومشيرا عليه بالتى هى أحسن وأسلم فالقى الولد بنفسه الى السلطان فقبله وبذل له الامان وألحقه بجملته وانتبذ عامر عن الناس وذهب لوجهه ليخاص الى السوس فرده الثلج وقد كانت السماء أرسلت به منذ أيام حتى تراكم بالجبل بعضه على بعض وسد المسالك فاقتحمه عامر حتى هلك فيه بعض حرمه ونفق مركوبه وعاين الهلكة العاجلة فرجع أدراجه مختفيا حتى أوى الى غار مع أدلاء كان قد استخلصهم وبذل لهم مالا على أن يسلكوا به ظهر الجبل الى صحراء السوس فأقام ينتظرون امساك الثلج وقد شدد السلطان عبد العزيز فى التنقير عنه والبحث فعثر عليه بعض البربر بالغار المذكور فسيق الى السلطان فأحضره بين يديه ووبخه فاعتذر واعترف بالذنب ورغب فى الاقالة فحمل الى مضرب بنى له بازاء فسطاط السلطان واعتقل هنالك واطلقت الايدى على معاقل عامر ودياره فانتهب من الاموال والسلاح والذخيرة والزرع والاقوات ما لاعين

رأت

رأت ولا أذن سمعت واستولى السلطان على الجبل ومعاقله في رمضان من سنة احدى وسبعين وسبعمائة لحول من يوم حصاره وعقد على هنتاتة لابن أخي عامر وهو فارس بن عبد العزيز بن محمد بن على الهنتاتي وارتحل الى فاس فاحتل بها آخر رمضان المذكور ودخلها في يوم مشهود بر زفيه الناس وحمل عامر وسلطانه تاشفين من بني عبد الحق كان نصبه للامر مموها به على عادته فحملا معا على جملين وقد فرغ عليهما الباس وعبثت بهما أيدي الاهانة فكان ذلك عبرة لمن رآه ولما قضى السلطان عبد العزيز نسك عيد الفطر أحضر عامرا فقرعه بذنوبه وأتي بكتاب بخطه يخاطب فيه أبا حمو ابن يوسف الزياني ويستنجده على السلطان فشهد عليه به وأمر السلطان بامتحانه فلم يزل يجلد حتى أثخن لحمه وضرب بالعصي حتى ورمت أعضاؤه وهلك بين يدي الوزعة وجنب تاشفين سلطانه الى مصرعه فقتل قعصا بالرماح وجنب مبارك بن ابراهيم الخلطي من محبسه بعد الاعتقال فالحق بهم ولكل أجل كتاب وصفا الجو للسلطان عبد العزيز من المنازعين وتفرغ لغزو تلمسان على ما نذكره ان شاء الله

## ﴿ارتجاع الجزيرة الخضراء من يد الاصبنيول﴾

قد قدمنا ما كان من استيلاء الطاغية على الجزيرة الخضراء أيام السلطان أبي الحسن رحمه الله فاستمرت في ملكتهم الى هذا التاريخ فنشأت بينهم فتنة وتقاتلوا على الملك وأعروا ثغورهم الموالية للمسلمين من الحامية والجند فبقيت عورة وتشوف المسلمون الى ارتجاع الجزيرة الخضراء التي قرب عهدهم بانتظامها في ملكة المسلمين وكان السلطان عبد العزيز في شغل عن ذلك بفتنة أبي الفضل بن أبي سالم وعامر بن محمد وانتقاضهما فبعث الى ابن الاحمر صاحب الاندلس أن يزحف اليها بعساكره وعليه عطاؤهم وامدادهم بالمال والاساطيل على أن تكون مثوبة جهاده خالصة له فأجاب ابن الاحمر الى ذلك وبعث اليه السلطان عبد العزيز باحمال المال وأوعز الى أساطيله بسبتة فانعمرت وأقلعت حتى احتلت بمرسى الجزيرة الخضراء لحصارها وزحف ابن الاحمر بعساكر المسلمين على أثرها بعد ان قسم فيهم العطاء وأزاح العلل وأعد الآلات للحصار فنازلها أياما قلائل ثم أيقن النصارى بالهلكة لبعدهم عن الصريخ ويأسهم من مدد ملوكهم فألقوا باليد وسألوا النزول على الصلح فأجابهم ابن الاحمر اليه ونزلوا عن البلد وأقيمت فيه شعائر الاسلام ومحيت منه كلمة الكفر وكتب الله أجرها لمن أخلص في معاملته وكان ذلك سنة سبعين وسبعمائة وولى ابن الاحمر عليها من قبله ولم تزل الى نظره الى ان وقع الاختيار على هدمها خشية استيلاء النصرانية عليها مرة أخرى فهدمت أعوام الثمانين وسبعمائة وأصبحت خاوية كأن لم تغن بالامس

## ﴿نهوض السلطان عبد العزيز الى تلمسان واستيلاؤه عليها وفرار سلطانها أبي حمو ابن يوسف عنها﴾

كان أبو حمو ابن يوسف الزياني قد فسد ما بينه وبين عرب سويد وقبض على بعض رؤسائهم محمد بن عريف فاستصرخوا عليه السلطان عبد العزيز وكانت القوارص لا تزال تسرى اليه من أبي حمو المذكور فصادفوا منه صاغية الى ما التمسوا منه واعتزم على النهوض الى تلمسان وبعث الحاشرين الى الجهات المراكشية فتوافى الناس اليه على طبقاتهم واجتمعوا عنده أيام منى سنة احدى وسبعين وسبعمائة فافاض العطاء وأزاح العلل ولما قضى نسك عيد الاضحى عرض الجند ونهض الى تلمسان فاحتل بتازا واتصل خبره بأبي حمو فجمع الجموع وهم باللقاء ثم اختلفت كلمة أصحابه وتفرق عنه العرب من بني معقل فاجفل هو وأشياعه من بني عامر بن زغبة فدخلوا القفر وتقدم السلطان عبد العزيز فاحتل بتلمسان يوم عاشوراء من سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة فدخلها في يوم مشهود واستولى عليها وعقد لوزيره أبي بكر بن غازي بن الكاس على عساكر من بني مرين والعرب وسرحه في اتباع أبي حمو فادركه

ببعض بلاد زناتة الشرق فاجهضوه عن ماله ومعسكره فانتهب باسره واكتسحت أموال العرب الذين معه ونجا بذمائه الى مصاب وتلاحق به ولده وقومه متفرقين على كل مفازة ثم دخلوا القفر بعد ذلك ودوّخ الوزير المذكور بلاد المغرب الاوسط وشرد عصاته واستنزل ثواره فى أخبار طويلة واستولى السلطان عبد العزيز على سائر الوطن من الامصار والاعمال وعقد عليها للولاة والعمال واستوسق له ملك المغرب الاوسط كما كان لسلفه واستمر مقيما بتلمسان الى ان كان ما نذكره

## ﴿نزوع الوزير ابن الخطيب عن سلطانه الغنى بالله الى السلطان عبد العزيز بتلمسان﴾

قد قدمنا ما كان من رجوع الغنى بالله ابن الاحمر الى ملكه بالاندلس سنة ثلاث وستين وسبعمائة ولما استولى على غرناطة وثبت قدمه بها بعث عن مخلفه بفاس من الاهل والولد والقائم بالدولة يومئذ عمر بن عبد الله فاستقدم عمر بن الخطيب من سلا وبعثهم الى نظره فسر السلطان ابن الاحمر بمقدمه ورده الى منزلته ودفع اليه تدبير المملكة وخلط بنيه بندمائه وأهل خلوته وانفرد ابن الخطيب بالحل والعقد وانصرفت اليه الوجوه وعلقت به الآمال وغشى بابه الخاصة والكافة وغصت به بطانة السلطان وحاشيته فتوافقوا على السعاية فيه وقد صم السلطان عن قبولها ونمى الخبر بذلك الى ابن الخطيب فشمر عن ساعده للرحلة عن الاندلس واللحاق بالمغرب وكان له حنين اليه ورغبة فى الايالة المرينية من قبل ذلك فقدم الوسائل الى السلطان عبد العزيز وأوعز اليه بما عزم عليه من اللحاق بحضرته فوعده السلطان بالجميل وبسط أمله فحينئذ استأذن السلطان الغنى بالله فى تفقد الثغور الغربية من أرض الاندلس فاذن له وسار اليها فى جماعة من فرسانه ومعه ابنه على فلما حاذى جبل طارق مال اليه فخرج قائد الجبل لتلقيه وقد كان السلطان عبد العزيز قد أوعز اليه بذلك وجهز اليه الاسطول من حينه فاحتمل بسبتة ثم سار منها فقدم على السلطان عبد العزيز بتلمسان سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة فاهتزت له الدولة وأركب السلطان خاصته لتلقيه وأحله بمجلسه محل الامن والغبطة ومن دولته بمكان الشرف والعزة وأخرج لوقته كاتبه أبا يحيى بن أبى مدين سفيرا الى الاندلس فى طلب أهله وولده فجاء بهم على أكمل الحالات من الامن والتكرمة ثم نزل بعد ذلك مدينة فاس القديمة فاستكثر بها من شراء الضياع وتأنق فى بناء المساكن واغتراس الجنات وحفظت عليه رسومه السلطانية وتوقيراته وأقام مطمئنا بخير دار عند أعز جار

## ﴿وفاة السلطان عبد العزيز بن أبى الحسن رحمه الله﴾

كان السلطان عبد العزيز قد أصابه مرض النحول فى صغره ولاجل ذلك تجافى السلطان أبو سالم عن بعثه مع الابناء الى الاندلس فاقام بالمغرب ولما شب أفاق من مرضه وصلح بدنه ثم عاوده وجعه فى مثواه بتلمسان وتزايد نحوله ولما كمل الفتح واستفحل الملك اشتد به الوجع فصابره وكتمه عن الناس خشية الارجاف ثم عسكر خارج تلمسان للّحاق بالمغرب ولما كانت ليلة الخميس الثانى والعشرين من ربيع الآخر سنة أربع وسبعين وسبعمائة قضى نحبه رحمه الله بظاهر تلمسان بين أهله وولده وسيق الى فاس فدفن بجامع قصره وسنه يومئذ أربع وعشرون سنة وكانت دولته ست سنين وأربعة أشهر ومن نظمه ما ذكره ابن الاحمر فى نثير الجمان مذيلا لبيتى والده السلطان أبى الحسن اللذين هما قوله

أرضى الله فى سر وجهر * وأحمى العرض من دنس ارتياب
وأعطى الوفر من مالى اختيارا * وأضرب بالسيوف طلى الرقاب

فقال هو وأحسن

وأرغب خالقى فى العفو عنى * واطلب حلمه يوم الحساب

وأرجو عونه في عز نصر * على الأعداء محروس الجناب
وعبدك واقف بالباب فارحم * عبيدا خائفا ألم العقاب

## ﴿الخبر عن دولة السلطان السعيد بالله أبي زيان محمد بن عبد العزيز بن أبي الحسن﴾

هذا السلطان ممن ولى الامر وهو صبي وفيه ألف ابن الخطيب كتابه المسمى باعلام الاعلام بمن بويع من ملوك الاسلام قبل الاحتلام كنيته أبو زيان أمه عائشة بنت القائد فارح العلج صفته آدم اللون شديد الادمة ولما مات السلطان عبد العزيز رحمه الله بظاهر تلمسان خرج الوزير أبو بكر بن غازي بن الكاس على الناس وقد احتمل أبا زيان ابن السلطان عبد العزيز فعزاهم عن سلطانهم ثم طرح ابنه بين أيديهم فازدحموا عليه باكين متفجعين يعطونه الصفقة ويقبلون يديه للبيعة ثم أخرجوه للعسكر وأنزلوه بفساطيط أبيه وتم أمره وكفله الوزير المذكور فكان اليه الابرام والنقض والصبي كالعدم اذ لم يكن في سن التصرف ثم ان الوزير ارتحل بالناس وجد السير فدخل حضرة فاس وأجلس الصبي لبيعة العامة فبايعوا ثم توافدت لديه وفود الامصار على العادة واستبد الوزير أبو بكر واستعمل على الجهات وجلس بمجلس الفصل واشتغل بامر المغرب ابراما ونقضا ولما فصل بنو مرين عن تلمسان عاد اليها سلطانها أبو حمو ابن يوسف الزياني والتفت عليه بنو عبد الواد من كل جانب ومحى دعوة بني مرين من ضواحي المغرب الاوسط وأمصاره واتصل الخبر بالوزير أبي بكر بن غازي فهم بالنهوض اليه ثم ثنى عزمه ما كان من خروج الامير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن بن أبي علي بن أبي سعيد بناحية بطوية فان السلطان ابن الاحمر كان قد سرحه من الاندلس صحبة وزيره مسعود بن عبد الرحمن بن ماساي لطلب ملك المغرب تشغيبا على الوزير أبي بكر بن غازي ثم أتبعه بالامير أبي العباس أحمد ابن السلطان أبي سالم الذي كان محتاطا عليه بطنجة فزحف الامير أبو العباس المذكور الى فاس وظاهره ابن عمه الامير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن فحاصروا الوزير أبا بكر بن غازي وسلطانه أبا زيان بن عبد العزيز وضربوا على فاس الجديد سياجا بالبناء للحصار وأنزلوا به أنواع القتال بعد ان بعث ابن الاحمر رسله الى الامير عبد الرحمن باتصال اليد بابن عمه الامير أبي العباس ومظاهرته على ملك سلفه بفاس واجتماعهما لمنازلتها وعقد بينهما الاتفاق والمواصلة وأن يختص عبد الرحمن بملك سلفه من سجلماسة وأعمالها فتراضيا وزحفا الى فاس كما قلنا وأمدهم ابن الاحمر بجمع من جنده فاستمر الحال على حصار فاس الى أن أذعن الوزير أبو بكر لخلع سلطانه أبي زيان ومبايعة الامير أبي العباس فخلعه يوم الاحد السادس من محرم فاتح سنة ست وسبعين وسبعمائة وغرب الى الاندلس فكانت دولته سنة وثمانية أشهر وأربعة عشر يوما والله غالب على أمره

## ﴿الخبر عن الدولة الاولى للسلطان المستنصر بالله أبي العباس أحمد بن أبي سالم بن أبي الحسن﴾

هذا السلطان يقال له ذو الدولتين لانه ولى الملك مرتين كما سيأتي أمه حرة بنت أبي محمد السبائي كنيته أبو العباس لقبه المستنصر بالله صفته أبيض اللون ربعة تعلوه صفرة رقيقة أدعج أسود الشعر أكحل الحاجبين ضيق البلج أسيل الخدين براق الثنايا جميل الوجه مليح الصورة ظريف المنزع لطيف الشمائل حسن الشكل اذا ركب بويع أولا بطنجة في شهر ربيع الآخر سنة خمس وسبعين وسبعمائة ثم بويع البيعة العامة بالمدينة البيضاء بعد استيلائه عليها يوم الاحد السادس من محرم سنة ست وسبعين وسبعمائة وكان الامير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن عندما أشرفوا على فتح فاس شرط عليهم ولاية مراكش عوضا عن سجلماسة فعقدوا له على كره مخافة ان تفترق كلمتهم ولا يتم أمرهم ففعلوا وطووا له على البت فارتحل الى مراكش واستولى عليها ثم فارقه وزيره مسعود بن عبد الرحمن وأجاز البحر الى الاندلس فاستقر بها في ايالة ابن الاحمر واستقل السلطان أبو العباس بن أبي سالم بملك فاس وأعمالها

واستوزر محمد بن عثمان بن الكاس وفوض اليه أموره فغلب على هواه وجعل أمر الشورى الى سليمان ابن داود فاستقل بها وحاز رياسة المشيخة واستحكمت المودة بينه وبين ابن الاحمر وجعلوا اليه المرجع في نقضهم وابرامهم فصار له بذلك تحكم في الدولة المرينية وأصبح المغرب كأنه من بعض أعمال الاندلس وذلك بما كان لابن الاحمر من اعانة السلطان أبي العباس على ملك المغرب حتى تم له وبما كان تحت يده من أبناء الملوك المرشحين للامر فكان أبو العباس وحاشيته يصانعونه لاجل ذلك والله تعالى أعلم

## ﴿محنة الوزير ابن الخطيب ومقتله رحمه الله﴾

لما لجأ ابن الخطيب الى بني مرين وأصاب عندهم دارا وقرارا عز ذلك على ابن الاحمر وسعى بطانته عنده في ابن الخطيب لعداوتهم له ثم بلغه انه يغري السلطان عبد العزيز بتملك أرض الاندلس وقطع دعوة بني الاحمر منها فعظم عليه ذلك ودبر الحيلة في قتل ابن الخطيب وتتبع أعداؤه كلمات زعموا أنها صدرت منه في بعض تآليفه فاحصوها عليه ورفعوها الى قاضي غرناطة أبي الحسن النباهي فاسترعاها وسجل عليه بالزندقة وبعث ابن الاحمر برسم الشهادة مع هدية لم يسمع بمثلها الى السلطان عبد العزيز وطلب منه اقامة الحد على ابن الخطيب أو اسلامه اليه فصم السلطان عبد العزيز عن ذلك وأنف لذمته أن تخفر ولجوار ان يؤذى وقال للوفد هلا انتقمتم منه وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه وأما أنا فلا يخلص اليه بذلك أحد ما كان في جواري ثم وفر الجراية والاقطاع له ولبنيه ولمن جاء من فرسان الاندلس في جملته ثم لما مات السلطان عبد العزيز رحمه الله وولي ابنه أبو زيان وقام بامره الوزير أبو بكر بن غازي عاود ابن الاحمر الكلام في شأن ابن الخطيب وبعث بهدية أخرى الى الوزير المذكور وطلب منه اسلامه اليه فأبى الوزير وأساء الرد وعادت رسل ابن الاحمر اليه مخفقين وقد هبوا سطوته فعند ذلك عمد ابن الاحمر الى الامير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن وكان عنده بالاندلس فاطمعه في ملك المغرب وأركبه البحر فقذف به بساحل بطوية من بلاد الريف تشغيبا على الوزير أبي بكر بن غازي كما مر ثم ثاب له رأي آخر فأغرى محمد بن عثمان بن الكاس وهو ابن عم أبي بكر بن غازي المذكور وكان يومئذ بسبتة قائما على ثغرها فداخله في البيعة لابي العباس بن أبي سالم وكان يومئذ بسبتة محتاطا عليه في جملة من القرابة والتزم أن يمده بالمال والرجال حتى يتم أمره لكن بشرط أن ينزل له عن جبل طارق ويبعث له بالقرابة الذين بطنجة ليكونوا تحت يده ويسلم اليه ابن الخطيب متى قدر عليه فكان الامر كذلك فان السلطان أبا العباس لما استولى على الامر نزل لابن الاحمر عن جبل طارق فمحى دعوة بني مرين من وراء البحر ثم ملك بعد ذلك سبتة فاستولى عليها وبعث اليه بالقرابة المذكورين فاوسع لهم جنابه بغرناطة ثم قبض السلطان أبو العباس ووزيره محمد بن عثمان على ابن الخطيب وطيروا بالاعلام لابن الاحمر فحينئذ بعث وزيره أبا عبد الله بن زمرك وكان من تلامذة ابن الخطيب وبه تخرج فقدم على السلطان أبي العباس وأحضروا ابن الخطيب بالمشور في مجلس الخاصة وأهل الشورى من الفقهاء وعرضوا عليه بعض كلمات وقعت له في بعض كتبه فعظم عليه النكير فيها فوبخ ونكل وامتحن بالعذاب بمشهد ذلك الملا ثم تل الى محبسه وتفاوضوا في قتله بمقتضى تلك المقالات المسجلة عليه فافتى بعض الفقهاء بقتله فدس سليمان ابن داود اليه بعض الاوغاد من حاشيته فطرقوا السجن ليلا ومعهم زعانفة من أهل الاندلس جاؤا في ضيف ذلك الوفد فقتلوه خنقا في محبسه وأخرجوا شلوه من الغد فدفن في مقبرة باب المحروق ثم أصبح من الغد طريحا على شافة قبره وقد جمعوا له أعوادا فاضرموها عليه نارا فاحترق شعره واسود بشره وأعيد الى حفرته وكان في ذلك انتهاء محنته وعجب الناس من هذه السفاهة التي جاء بها سليمان بن داود واعتدوها من هناته وعظم النكير فيها عليه وعلى قومه وأهل دولته وكان ابن الخطيب رحمه الله أيام مقامه بالسجن يتوقع مصيبة الموت فتجيش هواتفه بالشعر يبكي نفسه فمما قال في ذلك

بعدنا

بعدنا وان جاورتنا البيوت * وجئنا بوعظ ونحن صموت
وأنفاسنا سكنت دفعة * كجهر الصلاة تلاه القنوت
وكنا عظاما فصرنا عظاما * وكنا نقوت فها نحن قوت
وكنا شموس سماء العلى * غربنا فناحت عليها السموت
فكم جدلت ذا الحسام الظبى * وذو البخت كم جدلته البخوت
وكم سيق للقبر فى خرقة * فتى ملئت من كساه التخوت
فقل للعدا ذهب ابن الخطيب * وفات ومن ذا الذى لا يفوت
فمن كان يفرح منكم له * فقل يفرح اليوم من لا يموت

وكانت نكبته رحمه الله أوائل سنة ست وسبعين وسبعمائة وعند الله تجتمع الخصوم

## ﴿بقية أخبار أمير مراكش عبد الرحمن بن أبى يفلوسن رحمه الله﴾

قد تقدم لنا ما كان من معاقدة السلطان أبى العباس والامير عبد الرحمن بن أبى يفلوسن على ولاية سجلماسة أولا ثم التعويض عنها بمراكش ثانيا فلما فتح السلطان أبو العباس فاسا وفى للامير عبد الرحمن بعقده فسار الى مراكش واستولى عليها وعلى أعمالها واقتسمت مملكة المغرب الاقصى يومئذ بنصفين وكان الحد بين الدولتين ثغر آزمور فكانت فى ايالة صاحب فاس وما وراءها الى مراكش فى ايالة صاحب مراكش ثم كانت بينهما بعد ذلك مواصلات ومناقضات ومسالمات ومحاربات يطول جلبها واتصل ذلك الى منتصف سنة أربع وثمانين وسبعمائة فظفر السلطان أبو العباس بعبد الرحمن بعد محاصرته بقصبة مراكش تسعة أشهر ولما أشرف السلطان أبو العباس على فتحها وانفض الناس من حول الامير عبد الرحمن ونزلوا من الاسوار ناجين الى السلطان وبقى هو فى قصبته منفردا بات ليلته يراود ولديه على الاستماتة وهما سليم وأبو عامر وركب السلطان أبو العباس من الغد فى التعبية الى القصبة فاقتحمها فاقتحمها بعقدمته ولقيه الامير عبد الرحمن وولداه مسابقين الى الميدان ومباشرين القتال بين أبواب دورهم فجالوا معهم جولة قتل فيها الولدان قتلهم على بن ادريس وزيان بن عمر الوطاسى ﴿قال ابن خلدون﴾ وطالما كان زيان يمترى ثدى نعمتهم ويجرّ ذيله خيلاء فى جاههم فذهب مثلا فى كفران النعمة وسوء الجزاء والله لا يظلم مثقال ذرة وكان ذلك خاتم جمادى الآخرة سنة أربع وثمانين المذكورة لمضى عشر سنين من امارة عبد الرحمن على مراكش ثم رحل السلطان أبو العباس منقلبا الى فاس وقد استولى على سائر أعمال المغرب وظفر بعدوّه ودفع النازعين عن ملكه والله غالب على أمره

## ﴿ذكر الشاوية وبيان نسبهم وأوليتهم وشرح لقبهم وتسميتهم﴾

﴿ذكر ابن خلدون﴾ ان الشاوية من ولد حسان بن أبى سعيد الصبيحى نسبة الى صبيح بالتصغير بطن من سويد وسويد احدى قبائل بنى مالك بن زغبة الهلاليين وكان دخول حسان وأخيه موسى ابنى أبى سعيد الى المغرب الاقصى أيام السلطان يعقوب بن عبد الحق رحمه الله قدموا فى صحبة عبد الله بن كندوز العبد الوادى ثم الكمى وكان عبد الله هذا قد نزع عن يغمراسن بن زيان الى السلطان يعقوب المذكور فقدم عليه قبل فتح مراكش فاهتز السلطان يعقوب لقدومه وأحله بالمكان الرفيع من دولته وأنزل قومه بجهات مراكش وأقطعهم البلاد التى كفتهم مهماتهم وجعل انتجاع ابله وورواحله وسائر ظهره فى احيائهم فقدم عبد الله بن كندوز على رعايتها حسان وأخاه موسى الصبيحيين وكانا عارفين برعاية الابل والقيام عليها فاقاموا ينقلبون فى تلك البلاد ويتعدون فى نجعتها الى أرض السوس وكانت ماشية السلطان يعقوب متفرقة فى سائر المغرب فجمعها العبد الله بن كندوز وجمعها عبد الله لحسان الصبيحى

المذكور فكان حسان يباشر أمور السلطان في شأن تلك الماشية ويطالعه بمهماته فحصلت له مداخلة معه جلبت اليه الحظ حتى ارتفع قدره ونشأ بنوه في ظل الدولة وعزها وتصرفوا في الولايات منها وانفردوا بخطة الشاوية فلم تزل ولايتها متوارثة فيهم منقسمة بينهم لهذا العهد الى ما كانوا يتصرفون فيه من غير ذلك من الولايات وكان لحسان من الولد علي ويعقوب وطلحة وغيرهم ومن حسان هذا تفرعت شعوبهم في ولده ﴿قال ابن خلدون﴾ وهم لهذا العهد يتصرفون في الدولة على ما كان لسلفهم من ولاية الشاوية والنظر في رواحل السلطان والظهر الذي يحمل من الابل ولهم عدد وكثرة ونباهة في الدولة اهـ ﴿قلت﴾ ولفظ الشاوية نسبة الى الشاء التي هي جماعة الغنم مثلا قال في الصحاح والنسبة الى الشاء شاوي قال الراجز لا ينفع الشاوي فيها شاته * ولا حماراه ولا علاته

وان سميت به رجلا قلت شاء وان شئت شاوي اهـ واعلم ان الشاوية اليوم يطلقون على سكان تامسنا من قبائل شتى بعضها عرب وبعضها زناتة وبربر غير ان لسان الجميع عربي وكان أصل جمهورهم من هؤلاء الذين ذكر ابن خلدون ثم انضافت اليهم قبائل أخر واختلطوا بهم فاطلق على الجميع شاوية تغليبا وهكذا وقع في سائر عرب المغرب الاقصى الموطنين بتلوله فانهم وقع فيهم اختلاط كبير حتى نسوا أنسابهم وأصولهم الاولى الا في النادر وذلك بسبب تعاقب الاعصار وتناسخ الاجيال وتوالي المجاعات والانتجاعات ووقعات الملوك بهم في كثير من الاحيان وتفريق بعضهم من بعض ونقل بعضهم الى بلاد بعض ومع ذلك فاسماؤهم الاولى لازالت قائمة فيهم لم تتغير الى الآن فمنها يهتدي الفطن الى التنقير عن أنسابهم والحاق فروعهم باصولهم متى احتاج الى ذلك والله تعالى أعلم

## ﴿نهوض السلطان أبي العباس الى تلمسان وفتحها وتخريبها﴾

لما تم غزو السلطان أبو العباس الى مراكش وحاصر بها عبد الرحمن بن أبي يفلوسن خالفه الى المغرب أبو حمو ابن يوسف الزياني في جمع من أولاد حسين عرب معقل وذلك باغراء عبد الرحمن المذكور فدخلوا الى أحواز مكناسة وعاثوا فيها ثم عمدوا الى مدينة تازا فحاصروها اسبوعا وخربوا قصر الملك هنالك ومسجده المعروف بقصر تازروت وبينما هم على ذلك بلغهم الخبر اليقين بفتح مراكش وقتل الامير عبد الرحمن فاجفلوا من كل ناحية ومر أبو حمو في طريقه الى تلمسان بقصر وترمار بن عريف السويدي في نواحي بطوية المسمى مرادة فهدمه ووصل السلطان أبو العباس الى فاس فاراح بها أياما ثم أجمع النهوض الى تلمسان فانتهى الى تاوريرت وبلغ الخبر الى أبي حمو فاضطرب رأيه واعتزم على الحصار وجمع أهل البلد عليه فاستعدوا له ثم بدا له فخرج في بعض تلك الليالي بولده وأهله وخاصته وأصبح مخيما بالصفيصيف فاهرع أهل البلد اليه بعيالهم وأولادهم متعلقين به تفاديا من معرة هجوم العسكر عليهم فلم يزعه ذلك عن قصده وارتحل ذاهبا الى البطحاء ثم قصد بلاد مغراوة فنزل في بني أبي سعيد قريبا من شلف وأنزل أولاده الاصاغر وأهله بحصن تاجموت وجاء السلطان أبو العباس الى تلمسان فملكها واستقر بها أياما ثم هدم أسوارها وقصور الملك بها باغراء وليه ونزمار جزاء بما فعله أبو حمو في تخريب قصر تازروت وحصن مرادة ثم خرج من تلمسان في اتباع أبي حمو ونزل على مرحلة منها وهنالك بلغه الخبر باجازة موسى بن أبي عنان من الاندلس الى المغرب وانه خالفه الى دار الملك فانكفأ راجعا عوده على بدئه ورجع أبو حمو الى تلمسان فاستقر ملكه بها الى ان كان ما نذكره ان شاء الله

## ﴿خلع السلطان أبي العباس بن أبي سالم وتغريبه الى الاندلس والسبب في ذلك﴾

قد قدمنا ما كان من تحكم ابن الاحمر في مملكة المغرب ودالته على السلطان أبي العباس بما أنه كان السبب في ولايته وبما تحت يده من القرابة المرشحين الذين أرصدهم للتشغيب على دار الملك بالمغرب متى رأى من

أحدهم مالا يوافق هواه وكان مع كثرة تحكمه فيهم يتجنى عليهم فى بعض الاوقات بما يأتونه من تقصير فى شفاعة أو مخالفة فى أمر لا يجدون عنها محيصا فيضطغن ذلك عليهم وكان يعتد على السلطان أبى العباس بشئ من هذه الهنات فلما نهض الى تلمسان واستولى عليها سنة خمس وثمانين وسبعمائة اتصل بابن الاحمر أن دار الملك بفاس قد بقيت عورة من الجند والحامية فانتهز الفرصة وبادر بتسريح موسى ابن السلطان أبى عنان الى المغرب واستوزر له مسعود بن عبد الرحمن بن ماساى رئيس الفتنة وقطب رحاها وكان عنده بالاندلس بعد مفارقة عبد الرحمن بن أبى يفلوسن فنزل موسى بن أبى عنان سبتة فاستولى عليها وسلمها لابن الاحمر قد خلت فى طاعته ثم تقدم الى فاس فدخلها من يومه واستقر قدمه بها واتصل الخبر بالسلطان أبى العباس وهو بتلمسان فجاء مبادرا ونزل بتازا فاقام بها أياما ثم تقدم الى الموضع المعروف بالركن فانتقض عليه رؤساء جيشه وتسللوا عنه الى موسى طوائف وأفرادا ولما رأى ما نزل به رجع الى تازا بعد ان انتهب معسكره وأضرمت النار فى خيامه وذلك يوم الاحد الموفى ثلاثين من ربيع الاول سنة ست وثمانين وسبعمائة ثم بعث موسى بن أبى عنان من أتاه بالسلطان أبى العباس فى الامان فقدم عليه وقيده وبعث به الى ابن الاحمر فبقى عنده محتاطا عليه الى ان كان من أمره ما نذكره ان شاء الله وكانت دولته هذه عشر سنين وشهرين وأربعة وعشرين يوما ومن وزرائه فى هذه الدولة محمد بن عثمان بن الكاس الجذولى ومن كتابه عبد المهيمن بن أبى سعيد بن عبد المهيمن الحضرمى تغمد الله الجميع برحمته

## ﴿الخبر عن دولة السلطان المتوكل على الله أبى فارس موسى بن أبى عنان بن أبى الحسن﴾

أمه مولدة اسمها تاملالت صفته أسمر مائل الى السواد قصير القامة جاحظ العينين عظيم اللحية تملأ صدره قائم الانف واذا تكلم ملأ لسانه فمه فيخرج من بين شفتيه ويتحرك فيقبح كلامه بويع يوم الخميس الموفى عشرين من شهر ربيع الاول سنة ست وثمانين وسبعمائة وقام بامر دولته وزيره مسعود بن ماساى مستبدا عليه ولما استقر أمره بالحضرة وجه اليه ابن الاحمر أمه وعياله وكانوا عنده وهناه وزيره أبو عبد الله بن زمرك بتوشيح يقول فى مطلعه

قد نظم الشمل أتم انتظام * ولاحت الاقمار بعد المغيب
وضاحك الروض ثغور الغمام * عن مبسم الزهر البرود الشنيب

الى ان قال فى آخره

مولاى يهنيك وحق الهنا * قد نظم الشمل كنظم السعود
قد فزت بالفخر ونيل المنى * وأنجز السعد جميع الوعود
وقرت العين وزال العنا * وكلما مر صنيع يعود
ولم يزل ملكك حلف الدوام * يحوز فى التخليد أوفى نصيب
يتلو عليك الدهر بعد السلام * نصر من الله وفتح قريب

## ﴿خروج الحسن بن الناصر بغمارة ونهوض الوزير ابن ماساى اليه﴾

كان الحسن بن الناصر بن أبى على بن أبى سعيد قد لحق من مقره بالاندلس بحضرة تونس فى سبيل طلب الملك وكان الوزير مسعود بن ماساى قد قتل محمد بن عثمان بن الكاس وافترقت حاشيته فى الجهات فطلبوا بطن الارض دون ظهرها ولحق منهم ابن أخيه العباس بن المقداد بتونس فعثر على الحسن بن الناصر بها فثاب له رأى فى الرجوع به الى المغرب لطلب الامر فخرج به من تونس وقطع المفاوز الى ان انتهى الى جبال غمارة ونزل على أهل الصفيحة منهم فأكرموا مثواه ومنقلبه وأعلنوا بالقيام بدعوته واستوزر العباس بن المقداد وبلغ الخبر الى مسعود الوزير فجهز العساكر مع أخيه مهدى بن عبد الرحمن

ابن ماساى فحاصره بجبل الصفيحة أياما فامتنع عليه فنهض اليه مسعود بنفسه على ماذكره

## ﴿وفاة السلطان موسى بن أبى عنان رحمه الله﴾

لما كان من استبداد ابن ماساى على السلطان موسى ماقدمناه استنكف من ذلك وداخل بطانته فى الفتك به فنمى ذلك اليه وحصلت له نفرة من السلطان طلب لاجلها البعد عنه وبادر الى الخروج لمدافعة الحسن بن الناصر القائم بغمارة واستخلف على دار الملك أخاه يعيش بن عبد الرحمن بن ماساى فلما انتهى الى قصر كتامة بلغه الخبر بوفاة السلطان موسى وكانت وفاته فى جمادى الآخرة طرقه المرض فهلك ليوم وليلة من مرضه وكان الناس يرمون يعيش أخا الوزير بانه سمه قاله ابن خلدون ﴿وقال ابن القاضى فى الجذوة﴾ توفى السلطان موسى بن أبى عنان مسموما يوم الجمعة الثالث من شهر رمضان سنة ثمان وثمانين وسبعمائة وله احدى وثلاثون سنة فكانت دولته سنتين وأربعة أشهر وولى بعده محمد بن أحمد بن أبى سالم اهـ ومن كتابه أبو الفضل محمد بن محمد بن أبى عمرو التميمى وأبو القاسم محمد بن سودة المرى ومن قضاته أبو عبد الله محمد بن محمد المغيلى والله تعالى أعلم

## ﴿الخبر عن دولة المنتصر بالله السلطان أبى زيان محمد بن أبى العباس بن أبى سالم بن أبى الحسن﴾

أمه حرة وهى رقية بنت السلطان أبى عنان صفته أبيض اللون قائم الانف أسيل الخدين بويع بعد خاله موسى بن أبى عنان يوم الجمعة الثالث من شهر رمضان سنة ثمان وثمانين وسبعمائة وسنه يوم بويع خمس سنين وخلع يوم الجمعة الخامس عشر من شوال من السنة المذكورة وغرب الى الاندلس مع أبيه فكانت دولته ثلاثة وأربعين يوما تحت استبداد الوزير مسعود عفا الله عنه

## ﴿الخبر عن دولة السلطان الواثق بالله أبى زيان محمد بن أبى الفضل بن أبى الحسن﴾

أمه أم ولد اسمها عسيلة صفته أسود اللون عظيم الخلق رحب الوجه طويل القامة والساقين ممتلئ الانف عظيم الساعدين وكان قبل ولايته عند ابن الاحمر بالاندلس فى جملة القرابة ولما استوحش الوزير مسعود من السلطان موسى بن أبى عنان بعث ابنه يحيى الى ابن الاحمر يسأل منه اعادة السلطان أبى العباس الى ملكه فأخرجه ابن الاحمر من الاعتقال وجاء به الى جبل الفتح يروم اجازته الى العدوة فلما توفى السلطان موسى بدا للوزير مسعود فى أمره ودس لابن الاحمر فى رده وأن يبعث اليه بالواثق هذا ورآه أليق بالاستبداد والحجر فأسعفه ابن الاحمر فى ذلك ورد السلطان أحمد الى مكانه بالحمراء وجىء بالواثق فحضر بجبل الفتح عنده فاجازه الى سبتة واتفق أن جماعة من الحاشية انتقضوا على الوزير مسعود ولحقوا بسبتة فقدم عليهم الواثق بها ورجعوا به الى المغرب وتقلبوا فى نواحيه الى ان وصلوا الى جبل مغيلة قرب فاس فبرز الوزير مسعود فى العساكر ونزل قبالتهم وقاتلهم هنالك أياما ثم وقع الاتفاق على ان يبايع مسعود للواثق بشرط الاستبداد فتم العقد على ذلك ﴿وقال فى الجذوة﴾ بويع السلطان الواثق بالله أبو زيان محمد بن أبى الفضل يوم الجمعة الخامس عشر من شوال سنة ثمان وثمانين وسبعمائة وقام بأمره الوزير مسعود بن ماساى ثم حدثت الفتنة بين الوزير المذكور وابن الاحمر بسبب ان الوزير طلب منه اعادة سبتة الى الايالة المرينية وكان موسى بن أبى عنان قد نزل له عنها كما مر وكان طلبه على سبيل الملاطفة فاستشاط ابن الاحمر غضبا وأساء الرد فجهز ابن ماساى العساكر لحصار سبتة مع العباس بن عمر بن عثمان الوسنافى ويحيى بن علال بن آمصمود والرئيس محمد بن أحمد الابكم من بنى الاحمر فاستولى عليها ثم سرح ابن الاحمر السلطان أبا العباس من اعتقاله وبعثه الى المغرب لطلب ملكه والتشغيب على ابن ماساى الجاحد لاحسانه بزعمه فعبر السلطان أبو العباس البحر الى المغرب

فاحتل بسبتة واستولى عليها ثم تقدم الى فاس فحاصرها وضيق على ابن ماساى وسلطانه الواثق بالله وأهرع الناس الى الدخول فى طاعته حتى من مراكش فاستمر الحصار على فاس الجديد ثلاثة أشهر ثم أذعن الوزير مسعود للطاعة على شرط أن يبقى وزيرا ويقرب سلطانه الى الاندلس فاجيب وخلع الواثق بالله ثم خرج الى السلطان أبى العباس فبايعه وتقدم أمامه فدخل دار ملكه يوم الخميس خامس رمضان سنة تسع وثمانين وسبعمائة ولحين دخوله قبض على الواثق بالله فقيده وبعث به الى طنجة فقتل بها بعد ذلك وسنه يوم قتل ثمان وثلاثون سنة وبها قبر ومن وزرائه يعيش بن على بن فارس اليابانى ومسعود ابن رحو ابن ماساى ومن كتابه منصور بن أحمد بن محمد التميمى وأبو يحيى محمد بن محمد بن أبى القاسم بن أبى مدين ومن قضاته أبو يحيى محمد بن محمد السكاك رحمهم الله تعالى عنه

## ﴿الخبر عن الدولة الثانية للسلطان أبى العباس بن أبى سالم بن أبى الحسن﴾

لما دخل السلطان أبو العباس حضرة فاس الجديد فى التاريخ المتقدم بويع البيعة العامة فى اليوم الثالث من دخوله وهو يوم السبت السابع من رمضان سنة تسع وثمانين وسبعمائة لمضى ثلاث سنين وخمسة أشهر وستة أيام من خلعه ولما ملك أمر نفسه قبض على الوزير ابن ماساى وعلى اخوته وحاشيته وامتحنهم امتحانا بليغا فهلكوا من العذاب ثم سلط على مسعود من العذاب والانتقام مالا يعبر عنه واعتمد عليه بما كان يفعله فى دور بنى مرين النازعين عنه اليه فانه كان متى هرب منهم أحد عمد الى بيوته فنهبها فامر السلطان أبو العباس بعقابه فى اطلالها فكان يؤتى به الى كل بيت منها فيضرب عشرين سوطا الى أن برح به العذاب وتجاوز الحد ثم أمر به فقطعت أربعته فهلك عند قطع الثانية وذهب مثلا للآخرين

## ﴿ظهور محمد بن عبد الحليم بن أبى على بسجلماسة ثم اضمحلاله بعد ذلك﴾

قد قدمنا أن الامير عبد الحليم بن أبى على بن أبى سعيد كان تغلب على سجلماسة ثم غلبه عليها أخوه عبد المؤمن وسافر عبد الحليم الى المشرق فهلك فى سفرته تلك وكان قد ترك ابنه محمدا هذا رضيعا فشب متقلبا بين الدول من ملك الى آخر على ان أكثر مقامه انما كان عند أبى حمو صاحب تلمسان ولما حاصر السلطان أبو العباس فاس الجديد كان محمد هذا عند العرب الاحلاف فلما اشتد الحصار على مسعود بن ماساى دس الى الاحلاف أن ينصبوا محمد بن عبد الحليم للامر ويجلبوا به على المغرب ليأخذ بحجزة السلطان أبى العباس عنه ففعلوا ودخل محمد بن عبد الحليم سجلماسة فملكها حتى اذا استولى السلطان أبو العباس على فاس الجديد وأوقع بمسعود بن ماساى واخوته خرج محمد بن عبد الحليم عن سجلماسة ولحق باحياء العرب فسارت طائفة منهم معه الى أن أبلغوه مأمنه ونزل على أبى حمو بتلمسان الى أن هلك فسار الى تونس ونزل على صاحبها أبى العباس الحفصى ثم ارتحل بعد وفاته الى المشرق لحج الفريضة والله تعالى أعلم

## ﴿نكبة الكاتب ابن أبى عمرو وحركات بن حسون ومقتلهما﴾

كان محمد بن محمد بن أبى عمرو التميمى وقد تقدم ذكر والده فى دولة السلطان أبى عنان كاتبا عند السلطان أبى العباس فى دولته الاولى فلما خلع وولى موسى بن أبى عنان تقرب اليه بسالف المخالصة لابيه من أبى عنان فقد كان أعز بطانته كما مر فاستخلصه السلطان موسى للشورى ورفع منزلته على منازل أهل الدولة وجعل اليه كتابة علامته على المراسم السلطانية كما كان لابيه وكان يفاوضه فى مهماته ويرجع اليه فى أموره حتى غص به أهل الدولة وسعى هو عند السلطان موسى فى جماعة من بطانة السلطان أبى العباس فاتى عليهم النكال والقتل لكلمات كانت تجرى بينهم وبينه فى مجالس المنادمة عند السلطان أبى العباس حقدها عليهم فلما ظفر بالحظ من السلطان موسى سعى بهم عنده فقتلهم وكان القاضى

أبو اسحق ابراهيم اليزناسني من بطانة السلطان أبي العباس وكان يحضر مع ندمائه فحقد عليه ابن أبي عمرو وأغرى به السلطان موسى فضربه وأطافه وجاء بها شنعاء غريبة في القبح ثم سفر ابن أبي عمرو عن سلطانه موسى الى الاندلس فكان عثر بمجلس السلطان أبي العباس من محل اعتقاله فلا يلم به وربما يلقاه فلا يحييه ولا يوجب له حقا فأحفظ ذلك السلطان أبا العباس فلما رد الله عليه ملكه وفرغ من ابن ماساى قبض على ابن أبي عمرو هذا وأودعه السجن ثم امتحنه بعد ذلك الى أن هلك تحت السياط وحمل الى داره وبينما أهله يحضرونه الى قبره اذا بالسلطان قد أمر بان يسحب في نواحي المدينة ابلاغا في النكال فحمل من نعشه وقد ربط في رجله حبل وسحب في سكك المدينة ثم ألقي على بعض المزابل ثم قبض السلطان على حركات بن حسون شيخ العرب وكان مجلبا في الفتنة وكان العرب المخالفون من معقل لما أجاز السلطان أبو العباس الى سبتة وحركات هذا بناد لا راودوه على طاعة السلطان فامتنع أولا ثم أكرهوه وجاؤا به الى السلطان فطوى على ذلك حتى اذا استقام أمره وملك حضرة فاس الجديد قبض عليه وامتحنه الى أن هلك والى الله عاقبة الامور

﴿أخبار تلمسان واستيلاء السلطان أبي العباس عليها﴾

كان السلطان أبو حمو ابن يوسف الزياني قد عاد الى تلمسان وثبت قدمه بها كما قلنا الى أن خرج عليه ابنه أبو تاشفين آخر سنة ثمان وثمانين وسبعمائة فوقعت بينهما حروب وشرق أبوه بدائه ثم عادت له الكرة عليه في أخبار طويلة فاستمد أبو تاشفين السلطان أبا العباس فامده بابنه الامير أبي فارس ووزيره محمد بن يوسف بن علال عقد لهما على جيش كثيف من بني مرين وغيرهم فانتصر أبو تاشفين على أبيه فقتله وبعث برأسه الى السلطان أبي العباس ثم تقدم فدخل تلمسان آخر سنة احدى وتسعين وسبعمائة واستمر بها مقيما الدعوة السلطان أبي العباس فكان يخطب له على منابر تلمسان ويبعث اليه بالضريبة كل سنة كما شرط على نفسه عند توجيه العساكر معه واستمر على ذلك الى أن مات سنة خمس وتسعين وسبعمائة فتغلب على تلمسان أخوه الامير يوسف بن أبي حمو ولما اتصل الخبر بالسلطان أبي العباس خرج من الحضرة الى تازا ومن هنالك بعث ابنه الامير أبا فارس في العساكر الى تلمسان فاستولى عليها وأقام فيها دعوة والده وفر يوسف بن أبي حمو الى بعض الحصون فاعتصم به الى ان كان ما نذكره

﴿وصول هدية صاحب مصر السلطان الظاهر برقوق الى السلطان أبي العباس بتازا والسبب في ذلك﴾

كان العلامة الرئيس ولي الدين ابن خلدون قد استوطن في آخر عمره مصر القاهرة ونزل من سلطانها بالمنزلة الرفيعة قال رحمه الله وكان يوسف بن علي بن غانم أمير أولاد حسين من معقل ثم من أولاد جرار منهم قد حج سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة واتصل بصاحب مصر الملك الظاهر برقوق أول الملوك الجراكسة من الترك قال فتقدمت الى السلطان المذكور فيه وأخبرته بمحله من قومه فاكرم تلقيه وحمله بعد قضاء حجه هدية الى صاحب المغرب يطرفه فيها بتحف من بضائع بلده على عادة الملوك فلما قدم يوسف بها على السلطان أبي العباس أعظم موقعها وجلس في مجلس حفل لعرضها والمباهاة بها وشرع في المكافأة عليها بتخير الجياد والبضائع والثياب حتى اذا استكمل من ذلك ما رضيه وعزم على بعثها مع يوسف بن علي حاملها الاول وانه يبعثه بها من موضع مقامه بتازا اخترمته المنية دون ذلك

﴿وفاة السلطان أبي العباس بن أبي سالم رحمه الله﴾

كانت وفاة السلطان أبي العباس بمحل مقامه من تازا وهو يشارف أحوال ابنه أبي فارس ووزيره صالح ابن حمو اليابانى وكان قد قدمهما لفتح تلمسان والبلاد الشرقية فاصابه حمامه هنالك ليلة الخميس السابع

من محرم فاتح سنة ست وتسعين وسبعمائة وحمل الى فاس فدفن بالقلة وسنه يومئذ تسع وثلاثون سنة فكانت دولته الثانية ست سنين وأربعة أشهر ومن وزرائه فى هذه الدولة صالح بن حمو اليابانى ومحمد ابن يوسف بن علال الصنهاجى ومن حجابه أبو العباس أحمد بن على القبائلى ومن كتابه الشريف أبو القاسم محمد بن عبد الله الحسنى السبتى والقائد محمد بن موسى بن محمود الكردى ويحيى بن الحسن بن أبى دلامة التسولى ومن قضاته القاضى أبو اسحق ابراهيم بن محمد بن ابراهيم اليزناسنى ﴿قال فى الجذوة﴾ وكان السلطان أبو العباس شاعرا مفلقا بديع التشبيه فمن نظمه قوله

أما الهوى ياصاحبى فألفته * وعهدته من عهد أيام الصبا
ورأيته قوت النفوس وحليها * فتخذته دينا الى ومذهبا
ولبست دون الناس منه حلة * كان الوفاء لها الطراز امذهبا
لكن رأيت له الفراق منغصا * لامرحبا بفراقنا لامرحبا

﴿ومن أخبار السلطان أبى العباس ماحكاه فى نفح الطيب﴾ أن الاديب الكاتب أبا الحسن على ابن الوزير لسان الدين ابن الخطيب كان مصاحبا للسلطان أبى العباس هذا فحضر معه ذات يوم فى بستان سح فيه ماء المذاكرة الهتان وقد أبدى الاصيل شواهد الاصفرار وأزمع النهار لما اقدم الليل على الفرار فقال السلطان أبو العباس لما لان جانبه وسالت بين سرحات البستان جداوله ومذانبه

يافاس انى وأيم الله ذو شغف * بكل ربع به مغناه يسبينى
وقد أنست بقرب منك ياأملى * ونظرة فيكم بالانس تحيينى

فاجابه أبو الحسن ابن الخطيب بقوله المصيب

لاأوحش الله ربعا أنت زائره * يابهجة الملك والدنيا مع الدين
ياأحمد الحمد أبقاك الاله لنا * فخر الملوك وسلطان السلاطين

﴿ومن أخباره أيضا﴾ ان كاتبه أبازكرياء يحيى بن أحمد بن عبد المنان دخل عليه عشاء فقال له أنعم الله صباح مولانا فانكر السلطان ذلك وظن انه ثمل فتفطن أبو زكرياء لما صدر منه وتدارك ذلك فانشد مرتجلا

صبحته عند المساء فقال لى * ماذا الكلام وظن ذاك مزاحا
فأجبته اشراق وجهك غرنى * حتى توهمت المساء صباحا

## ﴿الخبر عن دولة السلطان المستنصر بالله أبى فارس عبد العزيز ابن أبى العباس بن أبى سالم رحمه الله﴾

﴿ومن الاتفاق الغريب﴾ أن سلطان فاس والمغرب فى هذا التاريخ كان اسمه عبد العزيز بن أحمد وسلطان تونس وافريقية كان اسمه أيضا عبد العزيز بن أحمد وكانت ولايتهما فى سنة واحدة الا ان مدة الحفصى طالت جدا أم هذا السلطان أم ولد اسمها الجوهر صفته شاب السن ربعة من القوم أدعج العينين جميل الوجه (لما توفى) السلطان أبو العباس بن أبى سالم رحمه الله بتازا كان ابنه أبو فارس هذا بتلمسان فاستدعاه رجال الدولة منها فقدم عليهم بتازا وبايعوه بها يوم السبت التاسع من محرم سنة ست وتسعين وسبعمائة ولما تم أمره أطلق أبازيان بن أبى حمو الزيانى وكان معتقلا عنده بفاس لالتجائه الى أبيه من قبل فى خبر ليس تفصيله من غرضنا وبعثه الى تلمسان أميرا عليها من قبله فسار اليها أبو زيان وملكها وأقام فيها دعوة السلطان أبى فارس ثم خرج عليه أخوه يوسف بن أبى حمو واتصل باحياء بنى عامر بن زغبة وعزم على الاجلاب عليه بهم فسرب أبو زيان فيهم الاموال فقتلوه وبعثوا اليه برأسه فسكنت أحوال تلمسان وذهبت الفتنة بذهاب يوسف واستقامت أمور دولة السلطان أبى فارس قاله ابن خلدون وهو آخر ماورخه من دولة المغرب ﴿واعلم﴾ ان مانسوقه بعد هذا من الاخبار عن هذه الدولة المرينية لم يسمح لنا الوقت بالوقوف عليه فى تأليف يخصها أو موضوع يقص أخبارها نسقا

وينصها وانما تتبعنا ما أثبتناه من ذلك فى مواضع ذكرت فيها بحسب التتبع لا بالقصد الاول وعلى الله تعالى فى الهداية الى الصواب المعوّل

## ﴿بقيــة أخبار السلطان عبد العزيز ووفاته﴾

قالوا كان السلطان عبد العزيز بن أبى العباس رحمه الله كثير الشفقة رقيق القلب منقبضا عن الغدر متوقفا فى سفك الدماء وكان فارسا عارفا بركض الخيل ويحسن قرض الشعر ويحب سماعه فمن نظمه وقد نزل المطر دشكر الله تعالى عليه قوله

الله يلطف بالعباد فواجب * أن يشكروا فى كل حال نعمته
فهو الذى فيهم ينزل غيثه * من بعد ما قنطوا وينشر رحمته

توفى رحمه الله يوم السبت ثامن صفر سنة تسع وتسعين وسبعمائة ودفن مع أبيه بالقبلة فكانت دولته ثلاث سنين وشهرا ومن وزرائه صالح بن حموا اليابانى ويحيى بن علال بن آمصمود الهسكورى ومن كتابه يحيى بن الحسن بن أبى دلامة ومن قضاته عبد الرحيم بن أبى اسحق اليزناسنى رحمهم الله تعالى بمنه

## ﴿الخبر عن دولة السلطان المستنصر بالله أبى عامر عبد الله بن أبى العباس بن أبى سالم رحمه الله تعالى﴾

هذا السلطان شقيق الذى قبله أمه الجوهر المتقدمة صفته أدعج العينين حسن الانف لامى العذار بويع بعد أخيه عبد العزيز يوم السبت الثامن من صفر سنة تسع وتسعين وسبعمائة وكان التصرف والنقض والابرام فى هذه المدة كلها للوزراء وتوفى السلطان المذكور بعد صلاة العصر من يوم الثلاثاء الموفى ثلاثين من جمادى الآخرة سنة ثمانمائة فكانت دولته سنة وخمسة أشهر سوى أيام ومن وزرائه صالح بن حموا ويحيى بن علال ومن قضاته عبد الرحيم اليزناسنى ومن حجابه أبو العباس أحمد بن على القبائلى وفارح بن مهدى العلج والله تعالى أعلم ﴿وأما﴾ أخبار الغنى بالله ابن الاحمر بالاندلس فانه كان أسقط رياسة الجهاد من بنى مرين بها ومحا رسمها من مملكته أيام أجاز عبد الرحمن بن أبى يفلوسن للتشغيب على أبى بكر بن غازى بن الكاس حسبما تقدم وصار أمر الغزاة والمجاهدين اليه وباشر أحوالهم بنفسه واستمر الحال على ذلك الى ان هلك سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة فولى مكانه ابنه أبو الحجاج يوسف وبايعه الناس وقام بامره خالد مولى أبيه وتقبض على اخوته سعد ومحمد ونصر فكان آخر العهد بهم ولم يوقف لهم بعد على خبر ثم سعى عنده فى خالد القائم بدولته وانه أعد السم لقتله وان يحيى بن الصائغ اليهودى طبيب دارهم قد داخله فى ذلك فقتلت بخالد وتناوشته السيوف بين يديه لسنة أو نحوها من ملكه ثم حبس الطبيب المذكور فذبح فى محبسه ثم هلك سنة أربع وتسعين وسبعمائة لسنتين أو نحوها من ولايته وقد وقفت لبعض الاصبنيوليين واسمه منويل باولو القشتيلى على كتاب موضوع فى أخبار المغرب الاقصى فنقلت منه بعض أخبار لم أجدها الا عنده وهو وان كان ينقل الغث والسمين والرخيص والثمين الا ان الناقد البصير يميز حصباءه من درّه ويفرق بين حشفه وتمره فمن ذلك انه حكى عن السلطان أبى الحجاج المذكور ماصورته قال كانت مراسلات السلطان المرينى يعنى السلطان أبا العباس مع السلطان يوسف بن الغنى بالله صاحب غرناطة حسنة فى الظاهر تدل على الموافقة والمحبة وكان المرينى فى الباطن يحب الاستيلاء على مملكة غرناطة ولما لم يمكنه ذلك بالسيف عدل الى اعمال الحيلة فاهدى الى السلطان أبى الحجاج كسى رفيعة احداها مسمومة فلبسها فهلك لحينه ومع ذلك فلم يدرك المرينى غرضه فانه لم يلبث الا يسيرا حتى توفى أيضا اه ولما توفى أبو الحجاج بويع ابنه محمد بن يوسف وقام بامره القائد أبو عبد الله محمد الخصاصى من صنائع أبيه ﴿قال ابن خلدون﴾ والحال على ذلك لهذا العهد ولنذكر ما كان فى هذه المدة من الاحداث *فى سنة خمسين وسبعمائة كان الوباء الذى عم المسكونة شرقا وغربا على ما نبهنا عليه

فيما مضى ﴿وفى سنة خمس وستين وسبعمائة﴾ توفى الولى الزاهد أبو العباس أحمد بن عمر بن محمد بن عاشر
الاندلسى نزيل سلا العارف المشهور قال أبو عبد الله بن صعد التلمسانى فى كتابه النجم الثاقب
فيما الاولياء الله من المناقب كان ابن عاشر أحد الاولياء الابدال معدودا فى كبار العلماء مشهورا
باجابة الدعاء معروفا بالكرامات مقدما فى صدور الزهاد منقطعا عن الدنيا وأهلها ولو كانوا من
صالحى العباد ملازما للقبور فى الخلاء المتصل بحر مدينة سلا منفردا عن الخلق لا يفكر فى أمر
الرزق وله أخبار جليلة وكرامات عجيبة مشهورة ممن جمع الله له العلم والعمل وألقى عليه القبول من
الخلق شديد الهيبة عظيم الوقار كثير الخشية طويل التفكر والاعتبار قصده أمير المؤمنين أبو عنان
وارتحل اليه سنة سبع وخمسين وسبعمائة فوقف ببابه طويلا فلم يأذن له وانصرف وقد امتلأ قلبه من
حبه واجلاله ثم عاود الوقوف ببابه مرارا فلم يصل اليه فبعث اليه بعض أولاده بكتاب كتبه اليه
يستعطفه لزيارته ورؤيته فاجابه بما قطع رجاءه منه وأيأسه من لقائه فاشتد حزنه وقال هذا ولى من
أولياء الله تعالى حجبه الله عنا اهـ ومناقب الشيخ ابن عاشر وكراماته كثيرة وقد ألف فيها أبو العباس
ابن عاشر الحافى من علماء سلا كتابه المسمى بتحفة الزائر فى مناقب الشيخ ابن عاشر فانظره
﴿وفى سنة ست وسبعين وسبعمائة﴾ وهى السنة التى قتل فيها ابن الخطيب كان الجوع بالمغرب
قال أبو العباس ابن الخطيب القسنطينى المعروف بابن قنفذ فى كتابه أنس الفقير ما حاصله انه رجع من
هجرته بالمغرب الاقصى فى السنة المذكورة الى بلده قسنطينة فاجتاز فى طريقه بتلمسان قال وفى
هذه السنة كانت المجاعة العظيمة وعم الخراب المغرب فأقمت بتلمسان نحو شهر أنتظر تيسر سلوك
الطريق فالتجأت الى قبر الشيخ أبى مدين ودعوت الله عنده فوقع ما أملته وارتحلت بعد أيام يسيرة
فرأيت فى الطريق من الخير ما كان يتعجب منه من شاهده وكان أمر الطريق فى الخوف والجوع
بحيث ان كل من تقدم علينا يتعجب من وصولنا سالمين ثم عند ارتحالنا من عنده يتأسف علينا حتى ان
منهم من يسمعنا ضرب الاكف خلفنا تحسرا علينا حتى انتهى سفرنا على وفق اختيارنا والحمد لله ﴿وفى
سنة ثمان وسبعين وسبعمائة﴾ توفى الشيخ الفقيه المحدث أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن عمران الفنزارى
السلاوى المعروف بابن الجراد صاحب لامية الجمل وشرح الدرر وغيرهما من التآليف الحسان قال
صاحب بلغة الامنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة فى الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب فى
حق الشيخ المذكور كان محدثا حافظا راوية له معرفة بالرجال والمغازى والسير وكان رجلا صالحا حسن
السيرة صادق اللهجة انتفع به الناس وظهرت بركته على كل من عرفه أو لازم مجالسه أو قرأ عليه من صغير
أو كبير قال وذلك عندنا معروف بسبتة مشهور بين أهلها وانتقل الى بلده سلا وتوفى بها فى السنة
المذكورة ﴿قلت﴾ وقبره مشهور بها الى الآن وعليه قبة صغيرة وهو من مزارات سلا خارج باب
المعلقة منها عن يمين الخارج على نحو غلوة وأهل سلا يسمونه سيدى الامام السلاوى رحمه الله ورضى عنه
﴿وفى سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة﴾ توفى الشيخ الامام العارف المحقق الربانى أبو عبد الله محمد بن ابراهيم
النفزى المعروف بابن عباد شارح الحكم العطائية وأحد تلامذة الشيخ ابن عاشر المذكور آنفا قال
صاحبه وأخوه فى الله الشيخ أبو زكرياء السراج فى حقه ما نصه كان حسن السمت طويل الصمت كثير
الوقار والحياء جميل اللقاء حسن الخلق والخلق عالى الهمة متواضعا معظما عند الخاصة والعامة
نشأ ببلده رندة على أكمل طهارة وعفاف وصيانة وحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ثم اشتغل بعد بطلب
العلوم النحوية والادبية والاصولية والفروعية حتى رأس فيها وحصل معانيها ثم أخذ فى طريق
الصوفية والمباحثة عن الاسرار الالهية حتى أشير اليه وتكلم فى علوم الاحوال والمقامات والعلل
والآفات وألف فيها تآليف عجيبة وتصانيف بديعة غريبة وله أجوبة كثيرة فى مسائل العلوم

نحو مجلدين ودرس كتبا وحفظها كلها أو جلها الى ان قال ولقى ببلا الشيخ الحاج الصالح السنى الزاهد الورع أحمد بن عاشر وأقام معه ومع أصحابه سنين عديدة قال رحمه الله قصدتهم لوجدان السلامة معهم وتوفى رحمه الله بفاس بعد صلاة العصر من يوم الجمعة ثالث رجب من السنة المذكورة وحضر جنازته السلطان أبو العباس بن أبى سالم فمن دونه وهمت العامة بكسر نعشه تبركا به رحمه الله ورضى عنه ومن فوائده التى نقلها عن شيخه ابن عاشر ما ذكره فى رسائله قال كنت قد ما خرجت فى يوم مولد النبى صلى الله عليه وسلم صائما الى ساحل البحر فوجدت هنالك سيدى الحاج أحمد بن عاشر رحمه الله ورضى عنه وجماعة من أصحابه ومعهم طعام يأكلونه فأرادوا منى الاكل فقلت انى صائم فنظر الى سيدى الحاج نظرة منكرة وقال لى هذا يوم فرح وسرور يستقبح فى مثله الصوم كالعيد فتأملت قوله فوجدته حقا وكأنه أيقظنى من النوم اه ﴿واعلم﴾ انه فى آخر هذا القرن الثامن تبدلت أحوال المغرب بل وأحوال المشرق ونسخ الكثير من عوائد الناس ومألوفاتهم وأزيائهم ﴿قال ابن خلدون فى مقدمة تاريخه﴾ بعد ان ذكر ان الاحوال العامة للآفاق والاجيال والاعصار هى أس المؤرخ الذى تنبنى عليه أكثر مقاصده ما نصه وأما لهذا العهد وهو آخر المائة الثامنة فقد انقلبت أحوال المغرب الذى نحن شاهدوه وتبدلت بالجملة واعتاض من أجيال البربر أهله على القدم عن طرأ فيه من لدن المائة الخامسة من أجيال العرب بما كثروهم وغلبوهم وانتزعوا منهم عامة الاوطان وشاركوهم فيما بقى من البلدان بملكهم وبأسهم هذا الى ما نزل بالعمران شرقا وغربا فى منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذى تحيف الامم وذهب باهل الجيل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها وجاء الدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها فقلص من ظلالها وفل من حدها وأوهن من سلطانها وتداعت الى التلاشى والاضمحلال أحوالها وانتقص عمران الارض بانتقاص البشر فخربت الامصار والمصانع ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن وكأنى بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب لكن على نسبته ومقدار عمرانه وكأنما نادى لسان الكون فى العالم بالخمول والانقباض فبادر بالاجابة والله وارث الارض ومن عليها واذا تبدلت الاحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله وتحول العالم باسره وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث الى آخر كلامه رحمه الله فافهم هذه الجملة وتفطن لاحوال الدول التى سردنا أخبارها فيما مضى وأحوال التى نسرد أخبارها فيما بعد وتأمل الفرق بين ذلك والسبب فيه والله تعالى الموفق للصواب بمنه

## ﴿الخبر عن دولة السلطان أبى سعيد عثمان بن أبى العباس بن أبى سالم﴾

هذا السلطان هو ثالث الاخوة الاشقاء من بنى أبى العباس الذين ولوا الامر من بعده ولاء أمه الجوهر أم أخويه قبله بويع بعد صلاة العصر له من يوم الثلاثاء الموفى ثلاثين من جمادى الآخرة سنة ثمانمائة وسنه يومئذ ست عشرة سنة وكان النقض والابرام وسائر التصرفات فى دولته للوزراء والحجاب والسلطان متفرغ لاستيفاء لذاته ومن أكبر حجابه أبو العباس القبائلى الذى نذكر خبره الآن

## ﴿حجابة أبى العباس القبائلى ونكبته ومقتله والسبب فى ذلك﴾

بيت بنى القبائلى بيت مشهور فى الوزارة والحجابة والكتابة من لدن الدولة الموحدية بمراكش الى هذا التاريخ وكان الرئيس الفقيه أبو العباس أحمد بن على القبائلى كاتبا مشهورا وحاجبا مذكورا وكان قد بذ الاقران وتصدر على الاعيان وبلغ من الجاه ونفوذ الكلمة مبلغا عظيما وكان يحابى بالخطط السلطانية الاقارب والارحام لا يعدل بها عمن سواهم فاضطغنت عليه القلوب وكثرت فيه السعايات الى ان نفذ أمر الله فأوقع به السلطان أبو سعيد وقعة شنعاء كان من خبرها انه كان للحاجب المذكور ولد اسمه

عبد الرحمن وكان من فضلاء وقته وكان لعبد الرحمن هذا ولد اسمه علي وكان من نجباء الابناء فكان لجده أبي العباس لذلك ميل اليه ومحبة وافتتان به فاتفق ان مرض هذا الحافد ذات يوم فنزل جده أبو العباس من الحضرة بفاس الجديد لعيادته بدار ولده عبد الرحمن من عدوة القرويين من فاس القديم وكانت الدار بزنقة الجيلة من الطالعة فبات الشيخ عند حافده تلك الليلة وكان منذ ولي خطة الحجابة لم يغب عن دار الملك ليلة واحدة بل كان يأخذ في ذلك بالحزم بحيث يسد أبواب الحضرة ويفتحها ويباشر سائر الامور السلطانية بنفسه فلما أراد الله انفاذ قدره غطى على عقله وبصره فتساهل في تلك الليلة وبعث ولده أبا القاسم ليقوم مقامه في غلق الابواب وفتحها مع صاحب السقيف ومساهمه في القيام بالامور السلطانية أبي محمد عبد الله الطريفي الآتي ذكره فغلقا الابواب على العادة ولما كان الصباح من الغد تقدم الولد أبو القاسم لاخذ المفاتيح من دار الخلافة فانوجهت اليه وتولى فتح الابواب وحده دون أن يحضر الطريفي المشارك له في ولاية السقيف فلما جاء أبو محمد المذكور ورأى الابواب مفتحة بدون حضوره أخذه من ذلك ما قدم وما حدث وأسرّها في نفسه حتى اذا كان المساء وحضر الوقت المعهود لغلق الابواب طلع للحضرة ولد آخر من ولد الحاجب القبائلي يعرف بأبي سعيد فبادر أبو محمد فسد الابواب في وجهه قبل أن يصل اليه وأمسك المفاتيح عنده واستبد بها فطلب منه أبو سعيد أن يفتح له الباب فتجهمه وامتنع وكأنه أمر دبر بليل ثم تقدم القائد أبو محمد المذكور الى السلطان أبي سعيد فاعلمه بما اتفق له مع أولاد الحاجب فأوعز اليه السلطان أن لا يفتح الباب بعد غلقه الاوقت فتحه المعتاد وزاد في الوصية بان لا يفتح ولا يغلق الا بمحضر السعيد ابن السلطان أبي عامر رحمه الله ولما رجع أبو سعيد الى والده بعدوة القرويين من فاس أعلمه بما اتفق له مع القائد الطريفي فامتلأ غيظا وقامت قيامته وكانت فيه دالة على السلطان فتخلف عن الحضور ولم يذكر ما قالته الحكماء اذا عاديت من علمك فلا تأمله انه يهلكك ثم استعطفه السلطان فأبى أن يعطف ثم بعث اليه ببراءة بخطه ليزيل ما بصدره من الموجدة فكتب الحاجب جوابها وأقسم أن لا يطأ بساطا فيه فارح بن مهدي العلج وكان فارح هذا بعين التجلة من السلطان فلما وقف السلطان أبو سعيد على جواب الحاجب حمى أنفه وأظلمت الدنيا في عينيه وأمر بالايقاع بالحاجب في الحين فذبح هو وولده عبد الرحمن يوم الخميس الموفي ثلاثين من شوال سنة اثنتين وثمانمائة وكان عبد الرحمن هذا فاضلا شاعرا فمن شعره في الغزل قوله

أتسمع في الهوى قول اللواحي * وقد أبصرت خشف بني رياح
غزال خلف الصب المعنى * من الوجد المبرّح غير صاح
وقد قتلت ولا اثم عليها * مراض جفونه كل الصحاح
يقول ولحظه بالعقل يزري * علام تطيل وصفي وامتداحي
فقلت فنون سحر فيك راقت * قضت للقلب بالعشق الصراح
جبينك والمقلد والثنايا * صباح في صباح في صباح

وبقي الحافد أبو الحسن علي بن عبد الرحمن المذكور مرتبا في جملة الكتاب وكان فاضلا شاعرا أيضا ولما مرض السلطان أبو سعيد في شعبان سنة سبع وثمانمائة وصح من مرضه وهنأته الشعراء بقصائد كثيرة فكان من جملتهم أبو الحسن المذكور فقال

هنيئا لنا ولكل الانام * براحة فخر الملوك الهمام
امام أقام رسوم العلى * وحل من المجد أعلى السنام
به قرت العين لما بدا * صحيحا وما أن به من سقام
وهل هو الا كبدر الدجا * يواري قليلا وراء الغمام

ويظهر طورا فيجلو به * عن الناس ياصاح ساجى الظلام
أو الليث يعكف فى غيله * فتحذر منه السباع اهتجام
أمولاى عثمان بحر الندى * ومردى العداة ونجل الكرام
لقد رفع الله مقداركم * فنفسى الفداء لكم من امام
أمولاى عبدك قد ضره * أفول رضاكم وبعد المرام
وأضحى كئيبا لابعادكم * مشوقا لتقبيل ذاك المقام
فكن راحما ياامام الورى * عطوفا بعملوكك المستهام
لعل الذى ناله ينقضى * وتشمل منك هبات جسام
فأيدك الله بالنصر ما * ترنم فوق الغصون حمام

## ﴿حجابة فارح بن مهدى وأوليته وسيرته﴾

﴿قال ابن خلدون﴾ فارح بن مهدى من معلوجى السلطان يعنى أبا العباس وأصله من موالى بنى زيان ملوك تلمسان اه ﴿وقال فى الجذوة﴾ هو من موالى السلطان أبى سعيد بن أبى العباس ولا منافاة بين الكلامين والله أعلم ولما قتل أبو العباس القبائلى ولى الحجابة من بعده فارح بن مهدى هذا ﴿قال فى الجذوة﴾ ولم يكن من أهل العلم لكنه كان شيخا مجربا للامور عارفا مجيدا فى التدبير قد أعطى الرياسة حقها والخطط مستحقها وكان ممسكا عنانه فلا يميل مع نفسه ولا يسحب أردانه ولا يوحش سلطانه موسوما عند الخلافة بالامانة ملحوظا لديها بعين المروءة والصيانة وكان السلطان أبو سعيد يعتنى به لاجل كبر سنه وتربيته الحرة آمنة بنت السلطان أبى العباس كانت تبدى له وجهها فى حالى صغرها وكبرها فكانت له بذلك مزية لم تكن لغيره بهذا ذكره التاورتى ولعل فيه تعريضا بالحاجب قبله ولما تكلم أبو عبد الله محمد العربى الفاسى فى كتابه مرآة المحاسن على مدينة تيجساس وصفها بقوله انها فى شرقى تطاوين على مسيرة يوم منها فى موضع كثير الحجارة والصخر فى سفح جبل من غربيها وتحتها من شمالها جرف كثير الصخر عظيمه على مكسر موج البحر ولها نهر نفاع يجلب اليها منه جدول ولها بسيط تركبه الجداول من كل جهة فتسقى الزرع والكتان والثمار فأهلها فى أمن من القحط الى ان قال ولم تزل عامرة الى حدود ثمانمائة فجلا عنها أهلها بسبب جور فارح بن مهدى الوالى عليها من قبل بنى مرين فخلت من سكانها وانتقلوا الى القبائل وغيرها ولم يزل سورها ماثلا الى الآن اه ﴿قلت﴾ وفى هذه المدة خربت تطاوين القديمة أيضا فزعم منويل فى تاريخه أن قراصين المسلمين من أهل تطاوين وغيرهم كانت تغير على سواحل اصبانيا وتغنم مراكبها ولما كانت سنة ألف وأربعمائة مسيحية الموافقة لسنة ثلاث وثمانمائة هجرية بعث الطاغية الريكى الثالث كوادرة لغزو تطاوين ومراكبها فانتهت الى وادى مرتيل وأفسدت قراصين المسلمين التى به ثم نزلت عساكر الاصبنيول للبر فاقتحمت مدينة تطاوين بعد ان جلا أهلها عنها وخربتها وعاثت فيها وبقيت خربة نحو تسعين سنة ثم جدد بناؤها على يد الرئيس أبى الحسن على المنظرى الغرناطى كما سيأتى وكانت وفاة فارح بن مهدى فى الثانى والعشرين من ربيع الاول سنة ست وثمانمائة والله تعالى أعلم

آمنة المربية التى ينسب اليها البستان

## ﴿حجابة أبى محمد الطريفى وسيرته﴾

لما توفى الحاجب فارح بن مهدى ولى الحجابة من بعده أبو محمد عبد الله الطريفى وكان من فضلاء الحجاب وهو الذى بنى مسجد السوق الكبير بفاس الجديد وحبس عليه كتبا كثيرة فكان ذلك من حسناته الباقية نفعه الله بقصده

## ﴿حدوث الفتنة بين السلطان أبي سعيد والسلطان أبي فارس الحفصي والسبب في ذلك﴾

لما توفي السلطان أبو العباس الحفصي صاحب تونس ولي الامر من بعده ابنه أبو فارس المذكور فوزع الوظائف من الامارة والوزارة وولاية الاعمال على اخوته فاعتضد بهم وكان من جلتهم أخوه أبو بكر بن أبي العباس بقسنطينة فنازعه بها ابن عمه الامير أبو عبد الله محمد بن أبي زكرياء الحفصي صاحب بونة وألح عليه في الحصار فصمد اليه السلطان أبو فارس الحفصي وأوقع به على سيبوس وقعة شنعاء انتهت به هزيمتها الى فاس مستصرخا صاحبها وهو يومئذ أبو فارس المريني فأقام أبو عبد الله بفاس الى سنة عشر وثمانمائة في دولة السلطان أبي سعيد فاتفق ان فسد ما بين السلطان أبي فارس الحفصي وبين اعراب افريقية من سليم فقدمت طائفة منهم حضرة فاس مستنجدين السلطان أبا سعيد على صاحبهم أبي فارس فالفوا عنده الامير أبا عبد الله المنهزم بسيبوس كامر فعقد له السلطان أبو سعيد على جيش من بني مرين وغيرهم وبعثه مع العرب فلما انتهى الى بجاية تلقته اعراب افريقية طائعة وهون عليه المرابط شيخ حكيم منها أمر تونس فرد الجيش المريني وقصدها بمن انضم اليه من الحشود فأخذ بجاية من أبي يحيى وفر في البحر وعقد أبو عبد الله عليها لابنه المنصور ثم زحف الى السلطان أبي فارس فخالفه الى بجاية فافتكها من يد ابنه المنصور ووجه به مع جماعة من كبار أهلها معتقلين الى الحضرة وعقد عليها لاحد ابن أخيه ونهض لقتال ابن عمه أبي عبد الله المذكور وفنزع المرابط عنه الى السلطان أبي فارس لعهد كان بينهما فانفض جمع أبي عبد الله وقتل واحتز رأسه ووجهه السلطان أبو فارس مع من علقه بباب المحروق أحد أبواب فاس اغاظة للسلطان أبي سعيد وذلك سنة اثنتي عشرة وثمانمائة ثم تحرك السلطان أبو فارس الى جهة المغرب قاصدا أخذ الثار من السلطان أبي سعيد فاستولى على تلمسان ثم قصد حضرة فاس فلما اشارفها جنح السلطان أبو سعيد الى السلم فوجه اليه بهدايا جليلة فقبل ذلك أبو فارس وكافأ عليه وانكفأ راجعا الى حضرته ولحقته في طريقه بيعة أهل فاس وانتظم له ملك المغرب وبايعه صاحب الاندلس أيضا قاله صاحب الخلاصة النقية وهو الاديب أبو عبد الله محمد الباجي أحد كتاب الدولة التركية بتونس

## ﴿استيلاء البرتقال على مدينة سبتة أعادها الله﴾

كان جنس البرتقال وهو البردقيز في هذه السنين قد كثر بعد القلة واعتز بعد الذلة وظهر بعد الخمول وانتعش بعد الذبول فانتشر في الاقطار وسما الى تملك الامصار فانتهى الى أطراف السودان بل وأطراف الصين على ما قيل وألح على سواحل المغرب الاقصى فاستولى في سنة ثمان عشرة وثمانمائة على مدينة سبتة أعادها الله بعد محاصرته لها حصارا طويلا وسلطان المغرب يومئذ أبو سعيد بن أحمد صاحب الترجمة وسلطان البرتقال يومئذ خوان الاول (وذكر منويل في تاريخه) أن سلطان المغرب يومئذ عبد الله ابن أحمد أخو أبي سعيد المذكور وسيأتي كلامه بتمامه (وذكر صاحب نشر المثاني) في كيفية استيلاء البرتقال على سبتة قصة تشبه قصة قصير مع الزباء قال رأيت بخط من يظن به التثبت والصدق ان النصارى جاؤا بصناديق مقفلة يوهمون ان بها سلعا وأنزلوها بالمرسى كعادة المعاهدين وذلك صبيحة يوم الجمعة من بعض شهور سنة ثمان عشرة وثمانمائة وكانت تلك الصناديق مملوءة رجالا عددهم أربعة آلاف من الشباب المقاتلة فخرجوا على حين غفلة من المسلمين واستولوا على البلد وجاء أهله الى سلطان فاس مستصرخين له وعليهم المسوح والشمر والوبر والنعال السود رجالا ونساء وولدانا فانزلهم بعلاج المسلمين ثم ردهم الى الفحص قرب بلادهم لعجزه عن نصرتهم حتى تفرقوا في البلاد والامر لله وحده قال وسمعت من بعضهم ان الذي جرأ النصارى على ارتكاب تلك المكيدة هو أنهم كانوا قد قاطعوا أمير سبتة على أن يفوض اليهم التصرف في المرسى والاستبداد بغلتها ويبذلوا له خراجا معلوما في كل سنة فكان حكم

المرسى حينئذ لهم دون المسلمين ولو كان المسلمون هم الذين يلون حكم المرسى ما تركوهم ينزلون ذلك العدد من الصناديق مقفلة لا يعلمون ما فيها والله أعلم بحقيقة الامر ولما استولى البرتقال على سبتة اعتنى بها وحصنها واستمرت في ملكتهم مدة تزيد على مائتين وخمسين سنة ثم ملكها منهم طاغية الاصبنيول في سبيل مهادنة وشروط انعقدت بينهم بمدينة اشبونة في حدود الثمانين وألف وأخبار السلطان أبي سعيد كثيرة وقد أرخ دولته وسيرته الكاتب أبو اسحق ابراهيم بن أحمد التاورتي رحمه الله وتوفي السلطان المذكور سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة وولي الامر من بعده ابنه عبد الحق الاخير كذا ذكره في جذوة الاقتباس وقد ذكر منويل في أمر أبي سعيد ووفاته ما يخالف هذا قال لما كانت دولة السلطان أبي سعيد المريني كان المسلمون أهل جبل طارق قد سئموا ملكة ابن الاحمر صاحب غرناطة وتحققوا بان المريني أقوى منه شوكة وأقدر على تخليصهم مما عسى ان ينالهم به الاصبنيول من حصار ونحوه فبعثوا اليه يخطبون ولايته ويعرضون عليه الدخول في طاعته ان هو أمدهم بما يدفعون به في نحر ابن الاحمر فاعجب أباسعيد ذلك ولحين بعث اليهم أخاه عبد الله بن أحمد المعروف بسيدي عبو ومعه طائفة من الجيش امدادا لهم وكان قصد أبي سعيد ببعث أخيه عبد الله الحصول على احدى الفائدتين اما فتح جبل طارق ان كان الظهور له أو الاستراحة منه ان كان عليه لانه كان يشوش عليه فجاء الاخ المذكور حتى نزل بازاء جبل طارق ففتح أهل البلد الباب وأدخلوه وأدخلوا جنده وتحصن قائد الغرناطي وعسكره بقلعة الجبل وطير الاعلام بذلك الى صاحبه فبعث اليه جيشا قويت به نفسه فنزل من القلعة وانضم اليه مدده وقاتلوا جيش المريني فهزموه وقبضوا على عبد الله باليد وعلى جماعة من أصحابه وبعثوا بهم أسرى الى صاحب غرناطة فعمد صاحب غرناطة الى عبد الله وأنزله في محل معتبر وأحسن اليه فتخلف ظن السلطان أبي سعيد فيما كان يحب لاخيه من التلف وغاظه فعل ابن الاحمر معه من الاحسان والابقاء عليه ثم ان أباسعيد دبر حيلة بان بعث من قبله رجلا الى أخيه ليسقيه السم ويستريح منه مع ان غوغاء أهل المغرب وقبائله المنحرفة عن السلطان كانوا قد تشوفوا لقدومه عليهم وقيامهم معه فبطلت حيلة أبي سعيد في السم ولم يحصل على طائل ثم ان ابن الاحمر اتفق مع عبد الله على ان يمده بالعسكر والمال ويسرحه الى المغرب ليستولي على ملكه ويأخذ له بالثار من أخيه فقبل عبد الله ذلك وأمده ابن الاحمر وسرحه الى المغرب فلما احتل به تبعه عدد وافر من قبائله الذين كانوا مستثقلين لوطأة أبي سعيد فنهض اليه أبو سعيد فكانت الكرة عليه ورجع مفلولا في يسير من الجند الى فاس فتقبض عليه أهلها وسجنوه وأعلنوا بنصر أخيه عبد الله وفتحوا الباب فدخل الحضرة واستولى عليها وتم أمره وسجن أخاه أباسعيد الى ان مات قال ولما استقل عبد الله بامر المغرب كله هدأت ارعية واستقامت الاحوال الا انه تكدر عيشه بذهاب سبتة التي استولى عليها طاغية البرتقال خوان الاول بعدما حاصرها أشد الحصار وكان ذلك على السلطان من أعظم النحوس وتكدر المسلمون غاية لفوات هذه المدينة العظيمة منهم ثم ثاروا على السلطان عبد الله واعتوروه برماحهم حتى فاظ ولما قتل تنازع الملك بعده اثنان من اخوته وبعد قتال شديد ولم ينتصف أحدهما من صاحبه اتفق أهل الحل والعقد على أن يولوا عبد الحق بن أبي سعيد اه كلام منويل وهذا السلطان عبد الله الذي زاده منويل بين أبي سعيد وعبد الحق لم يذكره صاحب جذوة الاقتباس ويبعد أن يكون هذا الخبر الذي ساقه منويل لا أصل له والله تعالى أعلم بحقيقة الامر ومن جملة حجاب السلطان أبي سعيد الرئيس أبو فارس عبد العزيز بن أحمد الملياني ﴿قال في الجذوة﴾ أصله من زرهون وتولى حجابة السلطان المذكور قال فغدر مولاه ومخدومه وهتك ستره وخرب داره وعبث بحريمه وقتل أولاده واخوانه ورفع الاذناب وحط الرؤساء وكان فساد المغرب على يده وقد ذكره التاورتي فاثنى عليه ﴿قال في الجذوة﴾ ووجدت في طرة ذمه وتنقيصه والله أعلم ومن وزراء السلطان أبي سعيد

صالح بن حمو اليابانى ويحيى بن علال بن آمصمود الهسكورى وقد تقدم ذكرهما ومن كتابه الفقيه الاديب أبو زكرياء يحيى بن الحسن بن أبى دلامة وكان صاحب العلامة عند السلطان المذكور وممن شهد له أهل عصره بالتبريز فى النظم الفائق ثم ابنه محمد من بعده ومن قضاته الفقيه أبو محمد عبد الرحيم ابن ابراهيم اليزناسنى وقد تقدم ذكره والله تعالى أعلم

## ﴿الخبر عن دولة السلطان عبد الحق بن أبى سعيد بن أبى العباس بن أبى سالم المرينى رحمه الله﴾

هذا السلطان هو آخر ملوك بنى عبد الحق من بنى مرين وهو أطولهم مدة وأعظمهم محنة وشدة وهو أبو محمد عبد الحق بن أبى سعيد عثمان بن أبى العباس أحمد بن أبى سالم ابراهيم بن أبى الحسن على بن أبى سعيد عثمان بن أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق الزناتى المرينى أمه علجة اصبنيولية على ماذكره منويل وفى أيامه ضعف أمر بنى مرين جدا وتداعى الى الانحلال وكان التصرف للوزراء والحجاب شأن دولة أبيه من قبله على ما نذكره

## ﴿زحف البرتقال الى طنجة ورجوعهم عنها بالخيبة﴾

(قال منويل) كان لطاغية البرتقال خمسة اخوة شجعان فأرادوا أن يدركوا الفخر باستيلائهم على ثغر من ثغور المغرب يضيفونه الى سبتة ويوسعون به ماملكوه من أعمالها فركبوا قراصينهم فى ستة آلاف عسكرى ونزلوا بسبتة ثم زحفوا الى طنجة سنة احدى وأربعين وثمانمائة وحاصروها وضيقوا على أهلها ثم عاجلهم سلطان فاس وسلطان مراكش وأرهقوهم عن فتحها وأوقعوا بهم وقبضوا على كبير عسكرهم فرناندو وجماعة من أصحابه وعادوا بهم أسرى الى فاس فلما صارت عظماء البرتقال فى يد المسلمين وأسرهم جنحوا الى السلم فسألهم المسلمون على ان يردوا لهم سبتة ويسرحوا لهم كبيرهم وأصحابه الذين معه فرضى البرتقال بذلك وانعقد الصلح عليه ثم كان من قدر الله ان هلك كبير البرتقال الذى وقع الشرط عليه فى سجن فاس واستمرت سبتة فى يد العدو وعد ذلك من سوء بخت المسلمين والامر لله وحده ﴿وقد ذكر صاحب المرآة﴾ أن البرتقال استولى على طنجة سنة احدى وأربعين وثمانمائة وهو غير صواب وانما كان الحصار فقط والله تعالى أعلم

## ﴿أخبار الوزراء والحجاب وتصرفاتهم﴾

كان من جملة وزراء السلطان عبد الحق الوزير صالح بن صالح بن حمو اليابانى قالوا وهو الذى أوقع بالفقيه القاضى أبى محمد عبد الرحيم بن ابراهيم اليزناسنى فقتله ذبحا سنة أربع وثلاثين وثمانمائة ومن وزراء السلطان المذكور الوزير أبو زكرياء يحيى بن زيان الوطاسى قالوا وفى سنة ست وأربعين وثمانمائة غزا الوزير المذكور الشاوية وكانوا قد تمردوا على الدولة وأعضل داؤهم فقتل الوزير المذكور جمعهم وخرب منازلهم ثم كانت وفاته سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة قتله عرب انقاد على سبيل الغدر قعصا بالرماح وحمل قتيلا الى فاس فدفن بالقلة خارج باب الجيسة وولى الوزارة بعده على بن يوسف الوطاسى قالوا فكانت أيامه مواسم لديانته وصيانته وحفظه أمور الملك ورفقه بالرعية مع العدل وحسن الادارة ثم توفى بتامسنا خامس رمضان سنة ثلاث وستين وثمانمائة وحمل الى فاس فدفن بالقلة أيضا وفى هذه السنة أو التى قبلها استولى البرتقال على قصر المجاز وهو المعروف بقصر مصمودة والقصر الصغير وهو الآن خراب والله أعلم

## ﴿وزارة يحيى بن يحيى الوطاسى ومقتله ومقتل الوطاسيين معه والسبب فى ذلك﴾

لما توفى الوزير على بن يوسف رحمه الله قدم للوزارة بعده أبو زكرياء يحيى بن يحيى بن زيان الوطاسى قالوا

تغيير العوائد مضر بالدولة

فكانت ولاية هذا الوزير هي مبدأ الشر ومنشأ الفتنة وذلك أنه لما استقل بالحجابة أخذ في تغيير رسم الملك وعوائد الدولة وزاد ونقص في الجند ونقض جل ما أبرمه قبله الوزراء وعامل الرعية بالعسف ومن جملة ما نقم عليه أنه عزل قاضي فاس الفقيه أبا عبد الله محمد بن محمد بن عيسى بن علال المصمودي وقدم مكانه الفقيه يعقوب التسولي وكان المصمودي من الدين وتحري العدل بمكان فلما رأى السلطان عبد الحق فعل الوزير واستحواذه على أمور الدولة وتبين له ان الوطاسيين قد التحفوا معه رداء الملك وشاركوه في بساط العز وكادوا يغلبونه على أمره سطا بهم سطوة استأصلت جمهورهم الا من جاء الاجل منهم فتقبض على الوزير يحيى وعلى أخويه أبي بكر وأبي شامة وعلى عمهم فارس بن زيان وقريبهم محمد بن علي ابن يوسف وأتى الذبح على جميعهم واستمر البحث عن محمد الشيخ ومحمد الحلو أخوي الوزير المذكور فلم يوجدا لذهاب الشيخ في ذلك اليوم للصيد واختفاء الحلو عند قيام الهيعة فكان ذلك من لطف الله بهما واتصل بهما ما جرى على عشيرتهم وبني أبيهم فذهبا الى منجاتهما وكان من أمرهما ما نذكره وكانت هذه الحادثة الصماء بعد مضي سبعين يوما من وزارة يحيى بن يحيى المذكور وصفا للسلطان عبد الحق أمره ورأى ان قد شفا نفسه من الوطاسيين ونقى بساط حضرته من قضضهم وأبرأ جسم ملكه من مرضهم والله غالب على أمره

## ﴿رياسة اليهوديين هرون وشاويل وما نشأ عن استبدادهما من المحنة والفتنة﴾

قالوا كان السلطان عبد الحق منذ أوقع ببني وطاس لم تسمح نفسه باعطاء منصب الوزارة لاحد ثم نمى اليه أن العامة وكثيرا من الخاصة قد نقموا عليه ابقاءه بالوطاسيين وان أذنهم صاغية الى محمد الشيخ صاحب آصيلا وكان قد استولى عليها بعد فراره حسبما نذكره وبما شافهه البعض منهم بذلك فولى عليهم اليهوديين المذكورين تأديبا لهم وتشفيا منهم زعموا فشرع اليهوديان في أخذ أهل فاس بالضرب والمصادرة على الاموال واعتز اليهود بالمدينة وتحكموا في الاشراف والفقهاء فمن دونهم وكان اليهودي هرون قد ولى على شرطته رجلا يقال له الحسين لا يألو جهدا في العسف واستلاب الاموال واستمر الحال على ذلك والناس في شدة ﴿وفي سنة سبع وستين وثمانمائة﴾ انتزع الاصبنيول جبل طارق من يد ابن الاحمر

## ﴿استيلاء البرتقال على طنجة﴾

ثم في سنة تسع وستين وثمانمائة استولى البرتقال على طنجة زحفوا اليها من سبتة في ألوف من العساكر واستولوا عليها واستمرت بأيديهم أكثر من مائتين وخمسين سنة ثم بذلوها للطاغية الانجليز سنة أربع وسبعين وألف في سبيل المهادنة والصهر الذي انعقد بينهما كما سيأتي

## ﴿مقتل السلطان عبد الحق بن أبي سعيد والسبب في ذلك﴾

ثم ان اليهودي عمد الى امرأة شريفة من أهل حومة البليدة فقبض عليها والبليدة حومة بفاس قالوا وكانت بدار الكومي قرب درب جنيارة فألحى عليها بالضرب ولما ألهبتها السياط جعلت تتوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم فحمي اليهودي وكاد يتميز غيظا من سماع ذكر الرسول وأمر بالابلاغ في عقابها وسمع الناس ذلك فأعظموه وتمشت رجالات فاس بعضهم الى بعض فاجتمعوا عند خطيب القرويين الفقيه أبي فارس عبد العزيز بن موسى الورياكلي وكانت له صلابة في الحق وجلادة عليه بحيث يلقي نفسه في العظائم ولا يبالي وقالوا له ألا ترى الى ما نحن فيه من الذلة والصغار وتحكم اليهود في المسلمين والعبث بهم حتى بلغ حالهم الى ما سمعت فحجع كلامهم فيه والحين أغراهم بالفتك باليهود وخلع طاعة السلطان عبد الحق وبيعة الشريف أبي عبد الله الحفيد فأجابوه الى ذلك واستدعوا الشريف

المذكور فبايعوه والتفت عليه خاصتهم وعامتهم وتولى كبر ذلك أهل حومة القلقليين منهم ثم تقدم الوريا كلي بهم الى فاس الجديد فصمدوا الى حارة اليهود فقتلوهم واستلبوهم واصطلموا نعمتهم واقتسموا أموالهم وكان السلطان عبد الحق يومئذ غائبا في حركة له ببعض النواحي ﴿وقال في نشر المثاني﴾ خرج السلطان عبد الحق بجيشه الى جهة القبائل الهبطية وترك اليهودي يقبض من أهل فاس المغارم فشدد عليهم حتى قبض على امرأة شريفة وأوجعها ضربا وحكى ما تقدم فاتصل بعبد الحق الخبر وانفض مسرعا الى فاس واضطرب عليه أمر الجند ففسدت نياتهم وتنكرت وجوههم وصار وافي كل منزلة تنفض عنه طائفة منهم فأيقن عبد الحق بالنكبة وعاين أسباب المنية ولما اقترب من فاس استشار هرون اليهودي فيما نزل به فقال اليهودي له لا تقدم على فاس لغليان قدر الفتنة بها وانما يكون قدومنا على مكناسة الزيتون لانها بلدنا وبها قوادنا وشيعتنا وحينئذ يظهر لنا ما يكون فما استتم اليهودي كلامه حتى انتظمه بالرمح رجل من بني مرين يقال له تبان وعبد الحق ينظر وقال أومازلنا في تحكم اليهود واتباع رأيهم والعمل باشارتهم ثم تعاورته الرماح من كل جانب وخر صريعا لليدين والفم ثم قالوا للسلطان عبد الحق تقدم أمامنا الى فاس فليس لك اليوم اختيار في نفسك فأسلم نفسه وانتهبت محلته وفشت أمواله وحلت به الاهانة وجاؤا به الى ان بلغوا عين القوادس خارج فاس الجديد فاتصل الخبر بأهل فاس وسلطانهم الحفيد فخرج الى عبد الحق وأركبه على بغل بالبردعة وانتزع منه خاتم الملك وأدخله البلد في يوم مشهود حضره جمع كبير من أهل المغرب وأجمعوا على ذبحه وشكروا الله على أخذه ثم جنب الى مصرعه فضربت عنقه صبيحة يوم الجمعة السابع والعشرين من رمضان سنة تسع وستين وثمانمائة ودفن ببعض مساجد البلد الجديد ثم أخرج بعد سنة ونقل الى القلة فدفن بها وانقرضت بهلكه دولة بني عبد الحق من المغرب والبقاء لله وحده ﴿ونقل الثقات﴾ أن الشيخ أبا العباس أحمد زروق رحمه الله كان قد ترك الصلاة خلف الفقيه أبي فارس الورياكلي لما صدر منه في حق السلطان عبد الحق وكان يقول لا آمن الغندور على صلاتي يعيبه بذلك والغندور في لسان المغاربة ذو النخوة والابابة وما أشبه ذلك والله يتغمدنا والمسلمين برحمته آمين ولنذكر ما كان في هذه المدة من الاحداث فنقول ﴿في سنة سبع وثمانمائة﴾ توفي الشيخ أبو زيد عبد الرحمن بن علي بن صالح المكودي عالم فاس وأديبها ونحويها صاحب المقصورة وشرح الخلاصة وغير ذلك من التآليف قيل هو آخر من درس كتاب سيبويه في النحو بفاس ﴿وفي سنة ثمان عشرة وثمانمائة﴾ توفي الشيخ أبو عبد الله محمد بن عمر بن الفتوح التلمساني ثم المكناسي يقال أن سبب انتقاله من تلمسان أنه كان شابا حسن الصورة جميل الشارة فقربت به امرأة جميلة فجعل ينظر اليها من طرف خفي فقالت اتق الله يا ابن الفتوح يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور فتأثر لقولها واتعظ وتاب الى الله تعالى وجعل من تمام توبته أن يهاجر من الارض التي قارف الذنب فيها فارتحل الى فاس فاقام بها مدة وانتفع الناس به ثم انتقل بعدها الى مكناسة فتوفي بها في السنة المذكورة قالوا وهو أول من أدخل مختصر الشيخ خليل مدينة فاس والمغرب ﴿وفي سنة ست وأربعين وثمانمائة﴾ كان الوباء العظيم بالمغرب هلك فيه جمع من كبار العلماء والاعيان ويسمى هذا الوباء عند أهل فاس وباء عزونة ﴿وفي سنة تسع وأربعين وثمانمائة﴾ في ذي القعدة منها توفي الشيخ أبو محمد عبد الله العبدوسي مفتي فاس وعالمها الكبير ومحدثها الشهير وكان من أهل الصلاح والخير والايثار ﴿وفي سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة﴾ في أواخر ذي القعدة منها توفي امام الجماعة بفاس الشيخ أبو عبد الله محمد بن قاسم الاندلسي الاصل المعروف بالقوري ودفن بباب الحمراء منها ﴿وفي سنة تسع وتسعين وثمانمائة﴾ في أواخر صفر منها توفي الشيخ العارف بالله المحقق أبو العباس أحمد البرنسي الشهير بزروق وكانت وفاته بمسراتة من أعمال طرابلس والله أعلم

كانت دولة بني الاحمر في هذه المدة متماسكة والفتنة بين أعياصها متشابكة والعدوّ فيما بين ذلك يخادعهم عما بايديهم ويراوغهم ويسالمهم تارة ويحاربهم الى ان كانت دولة السلطان أبي الحسن علي ابن السلطان سعد ابن الامير علي ابن السلطان يوسف ابن السلطان محمد الغني بالله فنازعه أخوه أبو عبد الله محمد بن سعد المدعو بالزغل قدم من بلاد النصارى وبويع بمالقة وبقي بها مدة وعظم الخطب واشتدت الفتن وشرق المسلمون بداء الخلاف الواقع بين هذين الاخوين وتكالب العدوّ عليهم ووجد السبيل الى تفريق كلمتهم والتمكن من فسخ عهدهم وذمتهم وذلك أعوام الثمانين وثمانمائة ثم انقاد أبو عبد الله لابي الحسن فسكنت أحوال الاندلس بعض الشئ ثم خرج عليه ولده أبو عبد الله محمد بن أبي الحسن وأسره النصارى في بعض الوقعات فراجع الناس طاعة أبي الحسن ثم نزل لاخيه أبي عبد الله الزغل عن الامر لآفة أصابته في بصره ثم ان العدوّ عمد لاسيره أبي عبد الله بن أبي الحسن فوعده ومناه وأظهر له من أكاذيبه وخدعه غاية مناه وبعثه للتشغيب على عمه طلبا للتفريق كلمة المسلمين وعكس مرادهم وتوصلا الى ما بقي عليه من حصون المسلمين وبلادهم وطالت الفتنة بين العم وابن الاخ وكل عقد كان بين العدوّ وبينه انحل وانفسخ وخبث العامة الذين هم أتباع كل ناعق في ذلك ووضعت وكان ذلك من أعظم الاسباب المعينة للعدوّ على التمكن من أرض الاندلس والتهامها واستئصال كلمة الاسلام منها ثم ان ابن الاخ استولى على غرناطة بعد خروج العم عنها الى الجهاد ففت ذلك في عضده وعطف الى وادي آش فاعتصم بها وحاصر العدوّ مالقة فقاتله أهلها بكل ما أمكنهم حتى اذا لم يجدوا للقتال مساغا نزلوا على الامان فاستولى العدوّ عليها أواخر شعبان سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة ثم استولى بعد ذلك على وادي آش وأعمالها صلحا ودخل في طاعته صاحبها أبو عبد الله العم بعد ان استهوى العدوّ قواده بالاموال الجزيلة ثم ان العدوّ خذله الله راسل أبا عبد الله بن أبي الحسن صاحب غرناطة وعرض عليه الدخول في الخطة التي دخل فيها عمه من النزول له عن البلاد على أموال جزيلة يبذلها له ويكون تحت حكمه مخيرا في أي بلاد الاندلس شاء فشاور رعيته فاتفق الناس على الامتناع والقتال فعند ذلك أرهف العدوّ حده وجعل غرناطة وأهلها من شأنه بعد ان استولى أثناء هذه الفتن والتضريبات على حصون كثيرة لم نتعرض لذكرها حتى لم يبق له الا غرناطة وأعمالها وقد اختصرنا معظم هذه الاخبار اذ لم تكن من موضوع الكتاب وانما ألممنا بهذه النبذة تتميما للفائدة وزيادة في الامتاع ولما كان اليوم الثاني والعشرون من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين وثمانمائة خرج العدوّ بمحلاته الى مرج غرناطه وأفسد الزرع ودوّخ الارض وهدم القرى وأمر ببناء موضع بالسور والحفير فاحكمه وكان الناس يظنون أنه عازم على الانصراف فاذا به قد صرف عزمه الى الحصار والاقامة وصار يضيق على غرناطة كل يوم ودام القتال سبعة أشهر واشتد الحصار بالمسلمين غير أن النصارى على بعد والطريق بين غرناطة والبشرات متصلة بالمرافق والطعام يأتي من ناحية جبل شلير الى أن تمكن فصل الشتاء وكلب البرد ونزل الثلج فانسد باب المرافق وانقطع الجالب وقل الطعام واشتد الغلاء وعظم البلاء واستولى العدوّ على أكثر الاماكن خارج البلد ومنع المسلمين من الحرث والسبب وضاق الحال وبان الاختلال وعظم الخطب وذلك أول سنة سبع وتسعين وثمانمائة وطمع العدوّ في الاستيلاء على غرناطة بسبب الجوع والغلاء دون الحرب والقتال ففر ناس كثيرون من الجوع الى البشرات ثم اشتد الامر في شهر صفر من السنة وقل الطعام وتفاقم الخطب فاجتمع ناس مع من يشار اليه من أهل العلم كأبي عبد الله المواق شارح المختصر وغيره وقالوا انظروا لانفسكم وتكلموا مع سلطانكم فاحضر السلطان أبو عبد الله بن أبي الحسن أهل دولته وأرباب مشورته وتكلموا في هذا الامر وأن العدوّ يزداد مدده كل يوم ونحن لا مدد لنا وكنا نظن أنه يقلع عنا في فصل

الشتاء

الشتاء فخاب الظن و بنى وأسس وأقام وقرب منا فانظروا لانفسكم وأولادكم فاتفق الرأى على ارتكاب أخف الضررين وشاع ان الكلام وقع بين النصارى ورؤساء الاجناد قبل ذلك فى اسلام البلد خوفا على نفوسهم وعلى الناس ثم عددوا مطالب وشروطا أداروها وزادوا أشياء على ما كان فى صلح وادى آش منها أن صاحب رومة يوافق على الالتزام والوفاء بالشرط اذا مكنوه من حمراء غرناطة والمعاقل والحصون و يحلف على عادة النصارى فى العهود وتكلم الناس فى ذلك وذكروا ان رؤساء أجناد المسلمين لما خرجوا للكلام فى ذلك امتن عليهم النصارى بمال جزيل وذخائر ثم عقدت بينهم الوثائق على شروط قرئت على أهل غرناطة فانقادوا اليها ووافقوا عليها وكتبوا البيعة لصاحب قشتالة فقبلها منهم ونزل سلطان غرناطة أبو عبد الله عن الحمراء ولا حول ولا قوة الا بالله ﴿وفى﴾ ثانى ربيع الاول من السنة أعنى سنة سبع وتسعين وثمانمائة استولى النصارى على الحمراء ودخلوها بعد ان استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمائة من الاعيان رهنا خوف الغدر وكانت الشروط سبعة وستين شرطا منها تأمين الصغير والكبير فى النفس والاهل والمال وابقاء الناس فى أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم ومنها اقامة شريعتهم على ما كانت ولا يحكم على أحد منهم الا بشريعته وأن تبقى المساجد كما كانت والاوقاف كذلك وأن لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوا أحدا وأن لا يولى على المسلمين نصرانى أو يهودى ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم وأن يفتك جميع من أسر فى غرناطة حيث كانوا وخصوصا أعيانا نص عليهم ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه لمالكه ولا لغيره والسلطان يدفع ثمنه لمالكه ومن أراد الجواز الى العدوة لا يمنع و يجوزون فى مدة عينت فى مراكب السلطان لا يلزمهم الا الكراء ثم بعد تلك المدة يعطون عشر مالهم والكراء وأن لا يؤخذ أحد بذنب غيره وأن لا يجبر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم وان من تنصر من المسلمين يوقف أياما حتى يظهر حاله و يحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى فان أبى الرجوع الى الاسلام تمادى على ما أراد ولا يعاتب على من قتل نصرانيا أيام الحرب ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام العداوة ولا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى ولا يسفر لجهة من الجهات ولا يزيدون على المغارم المعتادة وترفع عنهم جميع المظالم والمغارم المحدثة ولا يطلع نصرانى للسور ولا يتطلع على دور المسلمين ولا يدخل مسجدا من مساجدهم ويسير المسلم فى بلاد النصارى آمنا فى نفسه وماله ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود وأهل الدجن ولا يمنع مؤذن ولا مصل ولا صائم ولا غيره من أمور دينه ومن ضحك منهم يعاقب و يتركون من المغارم سنين معلومة وان يوافق على كل الشروط صاحب رومة و يضع خط يده وأمثال هذا مما يطول ذكره وبعد ابرام ذلك ودخول النصارى للحمراء والمدينة جعلوا قائدا بالحمراء وحكاما ومقدمين بالبلد ولما علم بذلك أهل البشرات دخلوا فى هذا الصلح وشملهم حكمه على هذا الوجه ثم أمر العدو ببناء ما يحتاج اليه فى الحمراء وتحصينها وتجديد بناء قصورها واصلاح سورها وصار الطاغية يختلف الى الحمراء نهارا و يبيت بمحلته ليلا الى ان اطمأن من خوف الغدر فدخل المدينة وتطوف بها وأحاط خبرا بما يرومه منها ثم أمر سلطان المسلمين ان ينتقل لسكنى البشرات وانها تكون له فى سكناه بأندرش فانصرف اليها وأخرج الاجناد منها ثم احتال عدو الله فى نفيه لبر العدوة وأظهر أن السلطان المذكور طلب منه ذلك ثم كتب لصاحب المرية انه ساعة وصول كتابى هذا لا سبيل لاحد أن يمنع مولاى أبا عبد الله من السفر حيث أراد من بر العدوة ومن وقف على هذا الكتاب فليصرفه وليقف معه وفاء بما عهد له فانصرف السلطان أبو عبد الله فى الحين بنص هذا الكتاب وركب البحر فنزل بمليلة واستوطن فاسا وكان قبل ذلك قد طلب الجواز لناحية مراكش فلم يسعف بذلك وحين جوازه لبر العدوة لقى شدة وغلاء ووباء ثم ان النصارى نكثوا العهود ونقضوا الشروط عروة عروة الى أن آل الحال لحملهم المسلمين على التنصر سنة أربع وتسعمائة بعد أمور وأسباب أعظمها

عليهم انهم قالوا ان القسيسين كتبوا على جميع من أسلم من النصارى أن يرجع قهرا الدينه ففعلوا ذلك وتكلم الناس ولا جهد لهم ولا قوة ثم تعدّوا ذلك الى أمر آخر وهو أن يقولوا للرجل المسلم ان جدك كان نصرانيا فأسلم فترجع أنت نصرانيا ولما تفاحش هذا الامر قام أهل البيازين على الحكام فقتلوهم وهذا كان السبب الاعظم فى التنصر قالوا لان الحكم خرج من عند السلطان ان من قام على الحاكم فليس الا الموت الا أن يتنصر فينجو من الموت وبالجملة فانهم تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة وامتنع قوم من التنصر واعتزلوا النصارى فلم ينفعهم ذلك وامتنعت قرى وأماكن كذلك منها بلفيق واندرش وغيرهما فجمع لهم العدوّ الجموع واستأصلهم عن آخرهم قتلا وسبيا الا ما كان من جبل بالنقة فان الله تعالى أعانهم على عدوهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة مات فيها صاحب قرطبة وأخرجوا على الامان الى فاس بعيالهم وما خف من أموالهم دون الذخائر ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصر من المسلمين يعبد الله فى خفية ويصلى فشدد النصارى فى البحث عنهم حتى انهم أحرقوا كثيرا منهم بسبب ذلك ومنعوهم من حمل السكين الصغيرة فضلا عن غيرها من الحديد وقاموا فى بعض الجبال على النصارى مرارا فلم يقيض الله تعالى لهم ناصرا الى ان كان اخراج النصارى اياهم جملة أعوام سبعة عشر وألف بعد ان ساكنوهم بغرناطة وأعمالها نحوا من مائة وعشرين سنة كانوا فيها تحت ذمة النصارى كما رأيت والامر لله وحده ولما أجلاهم العدو عن جزيرة الاندلس خرجت ألوف منهم بفاس وألوف أخر بتلمسان ووهران وخرج جمهورهم بتونس فتسلط عليهم فى الطرقات الاعراب ومن لا يخشى الله تعالى من الاوباش ونهبوا أموالهم وهذا ببلاد تلمسان وفاس ونجا القليل من هذه المضرة وأما الذين خرجوا بنواحى تونس فسلم أكثرهم وكذلك بتطاوين وسلا وبجة الجزائر ولما استخدم سلطان المغرب الاقصى وهو المنصور السعدى منهم عسكرا جرارا وسكنوا سلا كان منهم من الجهاد فى البحر ما هو مشهور وحصنوا قلعة سلا وهى رباط الفتح وبنوا بها القصور والحمامات والدور ﴿قال أبو عبد الله المقرى فى نفح الطيب﴾ وهم الآن يعنى فى حدود الثلاثين وألف بهذا الحال ووصل جماعة منهم الى القسطنطينية العظمى والى مصر والشام وغيرها من بلاد الاسلام وانقضى أمر الاندلس وعادت نصرانية كما كانت أول مرة والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين ﴿وفى﴾ السنة التى استولى الاصبنيول على غرناطة انكشفت لهم أرض الماركان التى كانت مجهولة قبل هذا التاريخ لسائر الامم وذلك أن الحكماء الاقدمين من اليونان وغيرهم أجمعوا على أن شكل الارض كرة وأن الماء قد غمر أحد جانبيها كله بحيث صارت الارض فيه كأنها بيضة مغرقة فى طست ماء قد رسب فيه أكثرها وبرز أقلها وأجمعوا على أن هذا البارز منها هو المسكون ببنى آدم وغيرهم من الحيوانات وهو المقسم الى سبعة أقسام تسمى الاقاليم ولم يهتدوا الى أن الجانب الآخر منكشف عنه الماء ولا انه مسكون كهذا الجانب بل جزموا بانه ماء صرف يسمى البحر المحيط واستمر هذا الاعتقاد عندهم ونقله الخلف عن السلف ووضعوا فيه التآليف العديدة الى أن كانت سنة سبع وتسعين وثمانمائة وهى السنة التى استولى فيها الاصبنيول على غرناطة وسائر الاندلس فاتفق ان ظهر فى تلك المدة رجل من فرنج جنوة اسمه كلنب بضم الكاف واللام كانت حرفته الملاحة والسفر فى البحر وكان بعيد الهمة مولعا بالشهرة مغرى بالذكر وحسن الصيت فخطر بباله أن جانب الارض الذى أغفل الحكماء الاولون ذكره وزعموا انه بحر صرف ربما يكون مسكونا كهذا الجانب وكان جنس البرتقال فى هذه المدة قد كثرت أسفارهم فى البحر وملكوا عدة محال من جزائره الخالدات فحصل لكلنب الجنويزى بعض غيرة ونفاسة منهم وأراد أن يأتى باعظم مما فعلوا فعزم على التلجيج فى البحر المحيط والابعاد فيه عسى أن يظفر بمراده فطارح على ملك البرتقال واسمه يومئذ يوحنا الثانى فى أن يعينه على ما هو بصدده وعده بما يكون سببا فى نيل مقصده فلم يلتفت الى قوله ولا عرج على رأيه ومن قبل ما كان أهل جنوة

يحققونه وينسبونه الى التهوّر بمثل هذه الآراء فلما لم يجد عند ملك البرتقال مراده تطارح على ملكة الاصبنيول وهي يومئذ ايسابيلا الشهيرة الذكر عندهم فأسعفته وهيأت له ثلاث سفائن وشحنتها بالرجال والسلاح والزاد والمال ودفعت ذلك اليه فسافر بها كلنب في البحر المحيط على سمت المغرب حتى أرسى ببعض الجزائر الخالدات فأراح بها أياما ثم سافر على السمت المذكور مع الجماعة مدة من شهر ولما طال السفر على أصحابه الذين معه أرادوا قتله وبينما هم في ذلك ظهرت له أرض الماركان فسار حتى أرسى بأجفانه على ساحلها في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة سنة سبع وتسعين وثمانمائة المذكورة فعثر منها على أرض واسعة ذات أقطار ونواحي وجبال وأنهار تفوت الحصر حتى قيل أنها تساوي نصف هذا المسكون من الارض أو تزيد واذا فيها خلق كثير من بني آدم كهذه الأمم لم يفقهوا قوله ولا فقه قولهم فعاد كلنب الى ملكة الاصبنيول بعد ان بنى هنالك حصنا وترك به بعض الجند وساق من تلك الارض بعض الغرائب من حيوان وغيره اثباتا للمدعاه فلما قدم على الملكة بعد مغيبه سبعة أشهر واحد عشر يوما أعظمت قدره ونوهت باسمه وسرّت بما أتى به من ذلك كله وعدّت ذلك من سعادتها الى ما تسنى لها من الظفر بجزيرة الاندلس والاستيلاء عليها وتبين للفرنج حينئذ ان الارض معمورة من كلا الجانبين لا من جانب واحد كما اعتقده الاقدمون فحينئذ تسارعت أجناسهم الى أرض الماركان واقتسموها واعتنوا بعمرانها وسموها الدنيا الجديدة فكانت من أعظم الاسباب في انتعاشهم وتقويتهم وضخامة دولهم واتساع خطط ممالكهم والامور كلها بيد الله ﴿ومن جملة﴾ ما كان مفقودا بأرض الماركان نوع الخيل وكذا غيرها من الحيوانات الاهلية ولما رأوا الآدمي راكبا على الفرس مسرجا ظنوه قطعة واحدة وان الفارس وفرسه حيوان واحد خلق على تلك الكيفية الى غير ذلك وأخبار أرض الماركان وكيفية العثور عليها ثم التردد اليها واعمارها بعد ذلك طويلة وملخصها ما ذكرناه والله تعالى الموفق بمنه

## ﴿أخبار البرتقال بالمغرب الاقصى على الجملة﴾

﴿اعلم﴾ ان هذا المغرب الاقصى حرسه الله وكلأه بعين حفظه لم يزل بجميع ثغوره وسواحله وأقطاره منذ الفتح الاسلامي الى المائة التاسعة محفوظ الجوانب من طروق أمم الفرنج وغيرهم من أعداء الدين محفوف الاكناف بالحامية من جنود المسلمين مرهوب الشوكة ملوكه عند أمم النصرانية جيلا بعد جيل وأمة بعد أمة ودولة بعد دولة لم تكن الفرنج تحدث نفسها بغزو شئ من بلاده أو طروق ثغر من ثغوره أو الاستيلاء على شئ من سواحله ولم يكن أهله أيضا يتوقعون ذلك منهم ولا يخشونه بل هم الذين كانوا يغزون الفرنج في عقر ديارهم وأعز بلادهم ويحامون عن بلاد الاندلس وسواحل افريقية وغيرها متى هاج أهلها هيج من ذلك حسبما تقدمت الاخبار المفصحة عن ذلك ولم يبلغنا أن جنسا من أجناس الفرنج فيما قبل المائة التاسعة غزا شيأ من أطراف المغرب الاقصى أو ثغرا من ثغوره بقصد الاستيلاء والتملك الا ما كان من مدينة سلا التي دخلها الاصبنيول غدرا أيام الفتنة بين اليعقوبين ثم خرجوا عنها لمدة يسيرة حسبما مرّ والا ما كان من محاصرة أهل جنوة لسبتة ثم الاقلاع عنها كذلك ونحو هذا مما لا يعتبر فلما دخلت المائة التاسعة ومضى صدرها وتداعت دول المغرب من بني أبي حفص بافريقية وبني زيان بالمغرب الاوسط وبني مرين بالمغرب الاقصى وبني الاحمر بالاندلس وأشرفت على الهرم وحدثت الفتن بين المسلمين ودامت فيهم واشتغلوا بانفسهم دون الالتفات الى جهاد العدو ومطالبته في أرضه وبلاده على ما كان لهم من العادة قبل ذلك وافق ذلك ابتداء ظهور الجلالقة وهم الاصبنيول والبرتقال وهم البرطقير بجزيرة الاندلس واستفحال أمرهم فكثرت أسفار البرتقال في البحر المحيط ودام تغلبهم فيه ومرنوا عليه حتى حصلوا على عدة جزائر منه وكشفوا بعض الرؤس الساحلية من أرض السودان وغيرها

ثم شمر هوا الى الشمال سواحل المغرب الاقصى فهجموا عليها وجالدوا أهلها دونها حتى تمكنوا منها ونشبوا فيها فقويت شوكتهم وعظم ضررهم على الاسلام وطمحت نفوسهم للاستيلاء على ما وراء ذلك حسبما تقف عليه مبينا فى مواضعه ان شاء الله فاستولوا فى سنة ثمان عشرة وثمانمائة على مدينة سبتة بعد محاصرتهم لها ست سنين على ما فى بعض تواريخ الافرنج ثم فى سنة اثنتين وستين وثمانمائة استولوا على قصر المجاز ثم استولوا فى سنة تسع وستين وثمانمائة على طنجة ثم فى حدود سنة ست وسبعين وثمانمائة ملكوا آصيلا وفى هذا التاريخ نفسه أو قبله بيسير استولوا على مدينة آنفى وبعض سواحل السوس ثم فى حدود سنة سبع وتسعمائة نزلوا بأرض الجديدة فيما بين آزمور وتيط وبنوا بها حصن البريجة وطال مقامهم بها ثم فى سنة عشر وتسعمائة استولوا على مدينة العرائش ثم بعد ذلك بيسير فى حدود العشر وتسعمائة على ما تقتضيه تواريخ الفرنج ملكوا حصن آكادير وما اتصل به من سواحل السوس الاقصى ثم ملكوا فى حدود اثنتى عشرة وتسعمائة رباط آسفى ثم عطفوا على ثغر آزمور فاستولوا عليه فى سنة أربع عشرة وتسعمائة ثم المعمورة وهى المهدية ملكوها أيضا فى حدود سنة عشرين وتسعمائة وفى هذا التاريخ نفسه رجعوا الى مدينة آنفى بعد هدمها فبنوها وسكنوها (وبالجملة) فلم يبق من ثغور المغرب الاقصى بيد المسلمين الا القليل مثل سلا ورباط الفتح وفجئ المسلمون من هذا البرتقال بالامر العظيم ودهوا منه بالخطب الجسيم واستحوذ عدو الله على بلاد الهبط وضايقهم بها حتى انحاز والى الامصار المتزوية عن الاطراف والقرى النائية عن السواحل وكان ذلك كله فيما بين انقراض دولة بنى وطاس وظهور دولة الشرفاء السعديين ولقد ذكر فى مرآة المحاسن ان قصر كتامة كان فى صدر المائة العاشرة مقصد التجار وسوقا تجلب اليه بضائع العدوتين وسلعها قال اذ كان القصر المذكور ثغرا بين بلاد المسلمين وبين بلاد النصارى تحط به رحال تجار المسلمين من آفاق المغرب وتجار الحربيين من آصيلا وطنجة وقصر المجاز وسبتة ولانه كان محل عناية سلطان المغرب اذ ذاك محمد الشيخ بن أبى زكرياء الوطاسى فان القصر قاعدة بلاد الهبط التى كانت موقد شرارة السلطان المذكور ومشب ناره وموشج عصبيته مع مجاورته لبلاد الحرب فكان نظره مصروفا اليه واختصاصه موقوفا عليه وتقبيل بنوه من بعده مذهبه فيه اهـ كلامه فهذا يدلك على ما كان عليه العدو خذله الله من المضايقة للمسلمين فى ثغورهم وبلادهم ولله الامر من قبل ومن بعد ولما نزل باهل المغرب الاقصى ما نزل من غلبة عدو الدين واستيلائه على ثغور المسلمين تباروا فى جهاده وقتاله واعملوا الخيل والرجل فى مقارعته ونزاله وتوفرت دواعى الخاصة منهم والعامة على ذلك وصرفوا وجوه العزم لتحصيل الثواب فيما هنالك فكم من رئيس قوم قام لنصرة الدين غيرة واحتسابا وكم من ولى عصر أو عالم مصر باع نفسه من الله ورأى ذلك صوابا حتى لقد استشهد منهم أقوام وأسر آخرون وبلغ الله تعالى جميعهم من الثواب ما يرجون فممن استشهد منهم فى سبيل الله سيدى عيسى بن الحسن المصباحى دفين الدعداعة بارض البروزى من بلاد طليق وأبو الحسن على بن عثمان الشاوى من أصحاب الشيخ أبى محمد الغزوانى وأبو الفضل فرج الاندلسى ثم المكناسى وأبو عبد الله محمد القصرى المعروف بسقين قتله النصارى عند ضريح الشيخ أبى سلهام وكان قد قصده للزيارة ففتكوا به هنالك وكل هؤلاء معدود فى أولياء الله تعالى وممن أسر منهم ثم خلصه الله الشيخ أبو محمد عبد الله بن ساسى دفين تانسيفت من أحواز مراكش والشيخ أبو محمد عبد الله الكوش دفين جبل العرض من أحواز فاس ووالد صاحب دوحة الناشر وهو أبو الحسن على بن مصباح الحسنى عرف بابن عسكر والشيخ العلامة أبو العباس أحمد ابن القاضى المكناسى أحد قضاة سلا وهو صاحب جذوة الاقتباس والمنتقى المقصور وغيرهما من التآليف الحسان أسر وهو ذاهب الى الحج وأبو عبد الله محمد بن أبى الفضل التونسى المعروف بخروف نزيل فاس

وشيخ الجماعة بها هؤلاء كلهم أصابه الاسر ثم خلصه الله بعد حين وغير هؤلاء ممن لم يحضرنا ذكرهم أجزل الله ثوابهم ويسر بمنه حسابهم ولقد ألف الناس في ذلك العصر التآليف في الحض على الجهاد والترغيب فيه وقال الخطباء والوعاظ في ذلك فأكثروا ونظم الشعراء والادباء فيه ونثروا فممن ألف في ذلك الباب فأفاد الشيخ المتفنن البارع الصوفي أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم بن يجبش التازي ﴿قال في الدوحة﴾ وقفت له على تأليف ألفه في الحض على الجهاد في سبيل الله فكان مما ينبغي أن يتناول باليدين ويكتب دون المداد باللجين أودعه نظما ونثرا وممن نظم في ذلك فأجاد الشيخ الصالح المتصوف المجاهد أبو عبد الله محمد بن يحيى البهلولي ﴿قال في الدوحة﴾ كان هذا الشيخ ممن لازم باب الجهاد وفتح له فيه وله في ذلك أشعار وقصائد زجليات وغيرها وكان عاصر السلطان أبي عبد الله محمد بن محمد الشيخ الوطاسي المعروف بالبرتقالي فكان اذا جاءه زائرا حضه على الغزو فيساعده على ما أراد من ذلك ولما توفي السلطان المذكور دالت الدولة لولده السلطان أحمد وغص بالشرفاء القائمين عليه ببلاد السوس عقد الهدنة مع النصارى المجاورين له ببلاد الهبط وصاحبهم سلطان البرتقال فبلغ ذلك الشيخ أبا عبد الله المذكور فآلى على نفسه أن لا يلقى السلطان المذكور ولا يمشي اليه ولا يقبل منه ما كان عينه له والده من جزية أهل الذمة بفاس لقوته وضروريا ته فمكث على ذلك الى ان حضرته الوفاة وكان في النزع وأصحابه دائرون به فقال له بعضهم ياسيدي أخبرك ان السلطان أمر بالغزو ونادى به وحض الناس عليه والمسلمون في شره لذلك وفرح ففتح الشيخ عينيه وتهلل وجهه فرحا وحمد الله وأثنى عليه ففاضت نفسه وهو مسرور بذلك ولهذا الشيخ زجليات ومقطعات حسان في الحض على الجهاد منها اللامية المشهورة التي خاطب بها السلطان أبا عبد الله المذكور ومطلعها

قل للامير محمد * ياطلعة الهلال لو ليلة في السواحل * من أفضل الليال

﴿ومنها القصيدة التي مطلعها﴾

ظهر الرمل مرادي * والعسكر يا كرام نفسي على الجهاد * سبلت والسلام

﴿ومنها القصيدة التي أولها﴾

قسم الجهاد رعاك الله منتهجا * نهج الرشاد الى الاقوام لو فهموا

من بعد اندلس مازلت محتدما * لو كان يمكنني في الليل احتزم

الى غير ذلك مما يطول ذكره ﴿قال صاحب الدوحة﴾ حدثني الفقيه العدل أبو العباس أحمد الدغموري القصري قال كان الشيخ أبو عبد الله يقول ماغزوت غزوة قط الا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها ويخبرني بجميع ما يتفق لي ولاصحابي في تلك الغزوة وله رضي الله عنه في شأن الجهاد والرجولية حكاية ظريفة وهي انه غزا مرة غزوة الى الثغور الهبطية ثم قدم منها مع أصحابه فوجد وجته فلانة بنت الشيخ أبي زكرياء يحيى بن بكار قد توفيت وصلى الناس عليها بجامع القرويين وامامهم الشيخ غازي ابن الشيخ أبي عبد الله محمد بن غازي الامام المشهور فوصل الشيخ أبو عبد الله ووجد جنازتها على شفير القبر والناس يحاولون دفنها فقال لهم مهلا ثم تقدم وأعاد الصلاة عليها مع أصحابه الذين قدموا معه فبادر الناس اليه بالانكار في تكرير الصلاة على الجنازة بالجماعة مرتين فقال لهم على البديهة صلاتكم التي صليتم عليها فاسدة لكونها بغير امام فقالوا له كيف ذلك ياسيدي قال لان من شرط الامام الذكورية وهي مفقودة في صاحبكم لان الذي لم يتقلد سيفا في سبيل الله قط ولم يضرب به ولا عرف الحرب كما كان نبينا صلى الله عليه وسلم ولم يتعبد بالسيرة النبوية فكيف يعد اماما ذكرا بل امامكم والله من جملة النساء اهـ ﴿وحكي﴾ أيضا في ترجمة الشيخ أبي محمد عبد الله الورياكلي الذي قال له العلامة ابن مرزوق وقد عزم على الرحلة الى بلاد المشرق في طلب العلم ليس أمامك أحد أعلم منك قال فرجع من هنالك فوجد النصارى

قد تغلبوا على طنجة وآصيلا فلازم الثغور الهبطية لاجل الرباط والجهاد فى سبيل الله وبث العلم ونشره قال وكان من عادته أن يشتغل بالتدريس فى فصلى الشتاء والربيع ويخرج فى الصيف والخريف فيربط فى ثغور القبائل الهبطية الى آخر كلامه وأمثال هذا كثير ذكرنا منه هذه النبذة اليسيرة لتقف بها على أحوال القوم وما كانوا عليه من الرغبة فى الجهاد والمثابرة عليه قدس الله أرواحهم وجعل فى دار النعيم غدوهم ورواحهم * وقد آن أن نشرع فى الاخبار عن دولة بنى وطاس بعد أن نذكر دولة الشريف العمرانى الذى بايعه أهل فاس يوم مقتل السلطان عبد الحق بن أبى سعيد رحمه الله

## ﴿الخبر عن دولة الشريف أبى عبد الله الحفيد وأوليته﴾

هذا الشريف هو أبو عبد الله محمد بن على الادريسى الجوطى العمرانى من بيت بنى عمران فرقة من أدارسة فاس وهم واسطة عقد البيت الادريسى وأوضحهم نسبا وأعلاهم حسبا ﴿قال ابن خلدون﴾ ليس فى المغرب فيما نعلمه من أهل هذا البيت الكريم من يبلغ فى صراحة نسبه ووضوحه مبلغ أعقاب ادريس رضى الله عنه قال وكبراؤهم لهذا العهد بنو عمران بفاس من ولد يحيى الجوطى بن محمد بن يحيى العدّام بن القاسم بن ادريس بن ادريس وهم نقباء أهل البيت هنالك والساكنون ببيت جدهم ادريس ولهم السيادة على أهل المغرب كافة اه (والجوطى) قال فى المرآة نسبة الى جوطة بجيم مضمومة وواو ممطوطاء مفتوحة وهاء تأنيث وهى قرية عظيمة على نهر سبو فى العدوة الجنوبية خربت ولم يبق منها الا آثار ولها مسيل شتوى يعرف بخرط جوطة نزلها السيد يحيى فنسب اليها وقبره هنالك معروف اه

## ﴿بيعة السلطان أبى عبد الله الحفيد والسبب فيها﴾

كان بنو مرين أيام ولايتهم على المغرب يعظمون هؤلاء الاشراف الادارسة ويوجبون حقهم ويتقربون الى الله تعالى برفع منزلتهم وجبر خواطرهم لما فاتهم من رتبة الخلافة التى كانت تكون لهم بطريق الاستحقاق الشرعى فكان بنو مرين لما جبلوا عليه من الجنوح الى مراسم الدين وانتحالها يرون فى أنفسهم كأنهم متغلبون مع وجود هؤلاء الاشراف فلذا كانوا يخضعون لهم ويتأدبون معهم ما أمكن ولقد حكى أبو عبد الله بن الازرق ان الشيخ الكبير أبا عبد الله المقرى كان يحضر مجلس السلطان أبى عنان لبث العلم وكان نقيب الشرفاء بفاس اذا دخل مجلس السلطان يقوم له السلطان وجميع من فى المجلس اجلالا له الا الشيخ المقرى فانه كان لا يقوم له فجرت بين الشريف والفقيه المذكور معاتبة ومراجعة فى حكاية مشهورة تركناها لعدم تعلق الغرض بها اذ الغرض هو الوقوف على ما كان عليه القوم من التجلة والتعظيم لاهل هذا البيت الكريم فلما اضطربت أحوال الدولة المرينية بفاس واجتمع رؤساء فاس الى الفقيه أبى فارس الورياكلى فى شأن اليهوديين اللذين كانا يحتكمان فى المدينة ويعتسفان أهلها أجمع رأيهم على مبايعة هذا الشريف الحفيد وكان يومئذ يلى نقابة الاشراف بفاس فاستدعوه فحضر وبايعوه فى العشر الاواخر من رمضان سنة تسع وستين وثمانمائة وتم أمره وكان من قتله السلطان عبد الحق ما تقدم ذكره والله أعلم

## ﴿فتنة الشاوية ووصولهم الى بلاد المغرب﴾

قد قدمنا ما كان من أمر الشاوية وفتنتهم فى أيام السلطان عبد الحق ولما كانت أيام الحفيد هذا تزايد ضررهم واستطار شررهم فزحفوا الى بلاد المغرب من أحواز مكناسة وفاس وعاثوا وأفسدوا ولما تكلم أبو عبد الله محمد العربى الفاسى فى مرآة المحاسن على الشيخ عبد الوارث اليالصوتى وانه أخذ عن

جماعة

جماعة منهم أبو النجاء سالم الروداني الشاوى والشيخ أبو عبد الله الصغير السهلى والشيخ أبو محمد الغزوانى قال وكان الشيخ أبو النجاء أولا يقرأ بالمدرسة العنانية فلما نزل الشاوية الغرب خرج من فاس خائفا يترقب وذلك فى أيام الحفيد اه وبلاد الغرب تطلق فى عرف أهله على خصوص بسيط ازغار وما اتصل به الى ساحل البحر والله أعلم

## ﴿استيلاء البرتقال على مدينة آنفى وآصيلا﴾

رأيت فى بعض تواريخ الفرنج ان استيلاء البرتقال على آنفى كان فى حدود أربع وسبعين وثمانمائة وانهم هدموها وبقيت كذلك مدة تزيد على أربعين سنة ثم شرعوا فى تحصينها والبناء بها ولم يزالوا مقيمين بها الى حدود أربع وخمسين ومائة وألف وفى سنة ست وسبعين وثمانمائة استولوا على آصيلا وظفروا فيها ببيت مال الوطاسى وأسروا اولاده محمد المدعو بالبرتقالى وابنته وزوجتيه وجماعة من الاعيان وكان الخطب عظيما وبقى ولد الوطاسى عند البرتقال سبع سنين ثم افتكه والده بعد وكان يوم أسر صبيا صغيرا وأما مدينة فضالة فلم يقع عليها استيلاء وانما كانت بها كبانية خمسة نفر من تجار مدريد قاعدة قشتالة نزلوها بقصد التجارة باذن سلطان الوقت وكانت سلعهم توسق وتوضع من مرساها وبنوا بها البناء الموجود اليوم والله تعالى أعلم

## ﴿خلع السلطان أبى عبد الله الحفيد وانقراض أمره﴾

﴿قال فى الجذوة﴾ لما قامت عامة فاس على السلطان عبد الحق وأقاموا هذا النقيب من أهل مدينة فاس اماما استمر بها وابنه وزيرله الى سنة خمس وسبعين وثمانمائة فعزل عن الامامة وكان الذى خلعه أبا الحجاج يوسف بن منصور بن زيان الوطاسى وكان ذلك سبب ذهاب الشريف المذكور الى تونس لمدة يسيرة من خلعه وبقيت حضرة فاس الجديد فى يد أخت أبى الحجاج المذكور وهى الزهراء المدعوة بزهور مع قائده السعيرى الى ان تولى الامر أبو عبد الله محمد الشيخ الوطاسى والله غالب على أمره

# ﴿الخبر عن دولة بنى وطاس وذكر نسبهم وأوليتهم﴾

﴿اعلم﴾ ان بنى وطاس فرقة من بنى مرين غير انهم ليسوا من بنى عبد الحق ولما دخل بنو مرين المغرب واقتسموا أعماله حسبما تقدم كان لبنى وطاس هؤلاء بلاد الريف فكانت ضواحيها لنزولهم وأمصارها ورعاياها لجبايتهم وكان بنو الوزير منهم يسمون الى الرياسة ويرومون الخروج على بنى عبد الحق وقد تكرر ذلك منهم حسبما مر ثم أذعنوا الى الطاعة وراضوا أنفسهم على الخدمة فاستعملهم بنو عبد الحق فى وجوه الولايات والاعمال واستظهروا بهم على أمور دولتهم فحسن أثرهم لديهم وتعدد الوزراء منهم فيها ﴿وذكر ابن خلدون﴾ ان بنى الوزير هؤلاء يرون ان نسبهم دخيل فى بنى مرين وانهم من أعقاب يوسف بن تاشفين اللمتونى لحقوا بالبدو ونزلوا على بنى وطاس وشجت فيه عروقهم حتى لبسوا اجلدتهم ولم يزل السر ومتربعا بين أعينهم لذلك والرياسة شامخة بانوفهم اه ولما كانت دولة السلطان أبى عنان واستولى على بجاية عقد عليها لعمر بن على الوطاسى من بنى الوزير هؤلاء فثار عليه أهلها واستلحموه فى خبر مر التنبيه عليه ثم لما كانت الدولة الاولى للسلطان أبى العباس بن أبى سالم وخاص ملك مراكش وأعمالها الى ابن عمه الامير عبد الرحمن بن أبى يفلوسن كان من جملة من تحيز اليه وصار فى جملته زيان بن عمر بن على المذكور فكانت له فى دولته الوجاهة الكبيرة والمنزلة الرفيعة

ثم لما فسد ما بين السلطان أبي العباس والامير عبد الرحمن كان زيان بن عمر في جملة النازعين الى السلطان أبي العباس فاتصل به وصار في جملته الى ان حاصر السلطان أبو العباس قصبة مراكش وبها يومئذ الامير عبد الرحمن فابلى زيان بن عمر في ذلك الحصار وكان أحد الذين باشروا قتل ولدي الامير عبد الرحمن ﴿قال ابن خلدون﴾ وطالما كان زيان هذا ابتري نذى نعمتهم ويجرذيله خيلاء في جاههم فذهب مثلا في كفران النعمة وسوء الجزاء والله لا يظلم مثقال ذرة ثم جاء بعده ابنه أبو زكرياء يحيى بن زيان فولي الوزارة للسلطان عبد الحق كما مر ثم بعده ابنه يحيى أيضا وهو الذي قتله السلطان عبد الحق في جماعة من عشيرته وفر أخوه أبو عبد الله محمد الشيخ الى الصحراء وبقي متنقلا في البلاد الى ان كان من أمره ما نذكره

## ﴿الخبر عن دولة السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ بن أبي زكرياء الوطاسي رحمه الله﴾

قد تقدم انا ما كان من ايقاع السلطان عبد الحق ببني وطاس وافلات محمد الشيخ ومحمد الحلو من النكبة وان الشيخ كان قد خرج للصيد فاتصل به الخبر فذهب على وجهه لا يلوي على شيء وان الحلو اختفى حتى اذا سكنت الهيعة تسلل ولحق بالشيخ فسارا الى جهة الصحراء وجعلا يترددان فيما بينها وبين البلاد الهبطية حتى ملكا آصيلا وذلك قبل استيلاء البرتقال عليها ولما ملك الشيخ آصيلا واستفحل أمره بها تشوفت اليه الاعيان من أهل فاس والرؤساء من أهل دولة السلطان عبد الحق وصاروا يكاتبونه ويقدمون اليه الوسائل سرا ويعادعوه الى القدوم على أن يبذلوا له من الطاعة والنصرة ما شاء فاستمر الحال على ذلك الى ان قتل عبد الحق وبويع الحفيد فحينئذ أرهف الشيخ حده واستفرغ في المطالبة جهده الى ان استولى على الحضرة وصفا له ملك المغرب ﴿قال في المرآة﴾ لما بايع أهل فاس أبا عبد الله الحفيد قام محمد الشيخ الوطاسي في آصيلا واستتبع القبائل واستفحل أمره وحاصر فاسا وقتا بعد وقت الى ان دخلت في طاعته في رمضان سنة ست وسبعين وثمانمائة وخرج عنها الحفيد ودخلها محمد الشيخ المذكور في أوائل شوال من السنة المذكورة وهو مورث الملك لبنيه بها اهـ وقد تقدم لنا ان الذي خلع الشريف من الملك هو أبو الحجاج يوسف بن منصور الوطاسي وان حضرة فاس الجديد قد بقيت بعد ذهاب الشريف الى تونس في يد زهور الوطاسية والقائد السحيري الى ان قدم السلطان محمد الشيخ والله تعالى أعلم ﴿وقال منويل﴾ في أخبار محمد الشيخ هذا ما صورته كانت مملكة المغرب الاقصى في غاية الاضطراب والانتكاس حتى طمع في ملكها كل من كانت توسوسه نفسه بذلك واستولى ابن الاحمر على جميع الثغور التي كانت لبني مرين بارض الاندلس ولم يترك لهم قيد شبر واشرأبت أجناس الفرنج للتغلب على المغرب وفي تلك المدة كان بآصيلا محمد الشيخ الوطاسي وكان شجاعا مقداما وأحس من نفسه بالقدرة على الاستيلاء على كرسي فاس وتنحية الشريف عنه لا سيما مع ما كان الناس فيه من افتراق الكلمة فجمع جندا صالحا وزحف الى فاس فبرز اليه الشريف والتقوا باحواز مكناسة فوقعت بينهم حروب عظيمة كانت الكرة فيها على الوطاسي ثم جمع عسكرا آخر وزحف به الى فاس وحاصرها نحو سنتين والشريف فيها مع أرباب دولته وفي أثناء الحصار ورد عليه الخبر باستيلاء البرتقال على آصيلا وعلى بيت ماله الذي كان بها وعلى حظاياه وأولاده فافرج عن فاس ورجع مبادرا الى آصيلا فحاصرها ولما امتنعت عليه عقد مع البرتقال هدنة وعاد سريعا الى فاس فحاصرها وضيق على الشريف بها حتى خرج فارا بنفسه وأسلمها اليه فدخلها محمد الشيخ وتمت بيعته وتفرغ لتدويخ القبائل التي باحواز فاس وغيرها فدخلوا في طاعته واغتبطوا به اهـ كلامه

﴿رياسة بني راشد من شرفاء العلم بغمارة وبناؤهم مدينة شفشاون وما يتبع ذلك﴾

﴿قال في نشر المثاني﴾ اختط بعض شرفاء العلم مدينة شفشاون بقصد تحصين المسلمين من نصارى سبتة اذ كانوا بعد استيلائهم عليها يتطاولون على أهل تلك المداشر في أواخر دولة بني وطاس ﴿وقال في المرآة﴾ كان ابتداء اختطاط مدينة شفشاون في الجهة المعروفة عندهم بالعدوة وهي عدوة وادي شفشاون في حدود سنة ست وسبعين وثمانمائة على يد الشريف الفقيه الصالح الناصح المجاهد أبو الحسن بن أبي محمد المعروف بأبي جمعة العلمي واسمه الحسن بن محمد بن الحسن بن عثمان بن سعيد بن عبد الوهاب بن علال ابن القطب أبي محمد عبد السلام بن مشيش ومات شهيدا قبل اتمام ما شرع فيه بتدبير النصارى دمرهم الله مع أهل النفاق اذ ذاك من أهل الخروب وقد جاءهم في سبيل الجهاد وبينما هو يتهجد من الليل في مسجد هنالك اذ أضرموه عليه نارا فمات رضوان الله عليه وقام مقامه فيما كان بسبيله من الجهاد والاستنفار له وتجييش الجيوش ابن عمه الامير الجليل الفاضل الاصيل أبو الحسن علي بن موسى بن راشد بن علي بن سعيد بن عبد الوهاب الى آخر النسب المتقدم فشرع في اختطاط مدينة شفشاون في العدوة الاخرى فبنى قصبتها وشيدها وأوطنها باهله وعشيرته ونزل الناس بها فبنوا وصارت في عداد المدن الى ان توفي سنة سبع عشرة وتسعمائة وورثها بنوه من بعده ولم يزالوا فيها بين سلم وحرب الى ان أخرجهم منها الشرفاء السعديون عند استيلائهم على بلاد المغرب والله تعالى أعلم

﴿ثورة عمرو بن سليمان السياف ببلاد السوس وشيء من أخباره﴾

هذا الرجل هو عمرو بن سليمان الشيظمي المغيطي المعروف بالسياف ويقال له المريدي بضم الميم وكان ابتداء أمره انه كان من تلامذة الشيخ أبي عبد الله محمد بن سليمان الجزولي صاحب دلائل الخيرات نقل الثقات أنه كان يتردد الى الشيخ المذكور أيام حياته ويأتيه بألواح فيها كلام كثير منسوب الى الخضر عليه السلام فلا يقول له في ذلك شيأ غير انه أثنى عليه مرات كثيرة ثم لما مات الشيخ المذكور رحمه الله سنة سبعين وثمانمائة ثار عمرو المذكور مظهرا الطلب بثار الشيخ والانتقام من الذين سموه اذ كان سمه بعض فقهاء عصره فتتبعهم حتى قتلهم ثم صار يدعو الناس الى اقامة الصلاة ويقاتلهم عليها فانتصر عليهم وشاع ذكره وتمكن ناموسه ثم تجاوز ذلك الى ان صار يدعو الناس الى نفسه ويقتل المنكرين عليه وعلى شيخه وأصحابه وسمى أصحابه المريدين بضم الميم قال زروق وما أحقها بالفتح وسمى المخالفين له الجاحدين ثم جعل ينفوه بالمغيبات ويزعم انه مأذون وربما ادعى النبوة وكان قد أخرج شلو الشيخ الجزولي من قبره وجعله في تابوت وصار يقدمه بين يديه في حروبه كتابوت بني اسرائيل فينتصر على من خالفه وقيل انه لم يدفنه وانما أخذه بعد موته فكفنه وجعله في التابوت وجمع الجموع وقاد الجيوش وسفك الدماء واستمرت فتنته في الناس عشرين سنة ﴿قال الشيخ زروق رحمه الله﴾ بلغني أن شيخنا الفقيه أبا عبد الله القوري ورد اليه سؤال في شأن عمرو بن سليمان السياف فبادرت اليه كي أراه فقال لي قد خرج من يدي فقلت له فما مقتضاه قال مقتضاه انه يقول ان أحكام الكتاب والسنة ارتفعت ولم يبق الا ما يقول له قلبه قال زروق وشاع من أمره انه يقول انه وارث النبوة وان له أحكاما تخصه كما في قصة الخضر مع موسى عليهما السلام وان الخضر حي وهو نبي مرسل وانه يلقاه ويأخذ عنه بل يدعي ذلك من هو دونه من تلامذته (وحكى بعضهم) أن عمرا المذكور لما جعل شلو الشيخ في التابوت كان اذا رجع به من حربه وضعه في روضة عنده يسميها الرباط فاذا أجنه الليل أطاف الحرس بالروضة يحرسون التابوت من السراق ويوقد عليه كل ليلة فتيلة عظيمة في مقدار الثوب مغموسة في نحو مدى من الزيت ليقوى الضوء وينتشر ويبلغ من كل الجهات الى مسافة بعيدة فتنكشف الطرق عمن يأتي اليها كل ذلك مخافة ان يؤخذ منه شلو الشيخ

هو مذكور في الصبارق الدماء والمعبود

فيتصر به عليه ويقال ان ثورة عمرو المذكور وفتنته كانت أثرا من آثار دعوات الشيخ الجزولى رحمه الله فقد ذكر تلامذته كالشيخ التباع وغيره ان الشيخ الجزولى خرج عليهم من آخر الليلة التى قتل فى صبيحتها فقالوا له ياسيدى الناس يزعمون أنك الفاطمى المنتظر فقال مايحدثون الاعمن يقطع رقابهم الله يسلط عليهم من يقطع رقابهم وكرر ذلك مرارا فكانوا يرون أن أثر دعوته ظهر فى عمرو السياف والله أعلم وقتل عمرو المذكور سنة تسعين وثمانمائة واختلف فيمن قتله فقيل كان عمرو قد تزوج زوجة الشيخ الجزولى وبنته فلما رأتاما هو عليه من الزندقة والفساد فى الارض قتلتاه امتعاضا للدين ترصدتاه حتى اذا نام عدتا عليه فقتلتاه ثم رمت احداهما وهى بنت الشيخ بنفسها من كوة هنالك فى البيت الذى كانوا به فوصلت الى الارض سالمة ونجت وبقيت الاخرى وهى الزوجة بالبيت فدخلوا عليها فقتلوها وقيل انما قتلته زوجته وربيبته وقيل غير ذلك والله أعلم ولما هلك عمرو السياف دفن الناس الشيخ الجزولى وقيل هو دفنه بموضع يعرف بتاصروت ثم نقل بعد الى مراكش على مانذكر ان شاء الله ولما ذكر الشيخ أبو العباس الصومعى فى كتابه الموضوع فى مناقب الشيخ أبى يعزى قصة نقل الشيخ الجزولى الى مراكش وانه وجد طريا لم يتغير بعد وفاته بنحو سبعين سنة قال وأعجب من هذا ان عمرا المغيطى السياف زعموا انه وجد كذلك ولعله أدركته بركة هذا الشيخ مع ما كان عليه والفضل بيد الله اه ﴿وفى سنة احدى وتسعين وثمانمائة﴾ استدعى السلطان محمد الشيخ الامام أبا عبد الله بن غازى من مكناسة الى فاس فولى الخطابة أولا بالمسجد الجامع من فاس الجديد ثم ولى الامامة والخطابة ثانيا بجامع القرويين من فاس وصار شيخ الجماعة بها واستوطنها الى ان مات رحمه الله ﴿وفى سنة خمس وتسعين وثمانمائة﴾ تحرك السلطان محمد الشيخ الى دبدو ثم عاد الى حضرته (وفيها أيضا) فى يوم الخميس السابع من ذى القعدة توفى الوزير أبو عبد الله محمد الحلو الوطاسى ودفن بالقبلة خارج باب الجيسة ﴿وفى سنة سبع وتسعين وثمانمائة﴾ استولت الرينة ايسابيلا صاحبة مادريد قاعدة بلاد قشتالة على حمراء غرناطة ومحت دولة بنى الاحمر من جزيرة الاندلس ولم يبق للمسلمين بها سلطان وتفرق أهلها فى بلاد المغرب وغيرها أيادى سبا وقد تقدم الخبر عن ذلك مستوفى

## ﴿بناء مدينة تطاوين﴾

(قال منويل) لما استولى الاصبنيول على غرناطة خرج جماعة كبيرة من أهلها الى المغرب فنزلوا فى مرتيل قرب تطاوين ولما نزلوا به لم يقدموا شيأ على الوفادة على سلطان فاس محمد الشيخ الوطاسى فأجل مقدمهم ورحب بهم فقالوا ان ضيافتنا عندك أن تعين لنا موضعا نبنى فيه بلدا يكننا ونحفظ فيه عيالنا من أهل الريف فاجابهم الى مرادهم وعين لهم مدينة تطاوين الخربة منذ تسعين سنة وولى عليهم كبيرهم أبا الحسن عليا المنظرى وكان رجلا شجاعا من كبار جند ابن الاحمر وكان قد أبلى معه فى حرب غرناطة البلاء الحسن ثم انتقل الى المغرب كما قلنا ولما عقد له الشيخ الوطاسى على أصحابه رجع بهم الى تطاوين وشرع فى بناء أسوار البلد القديم فجدده وبنى المسجد الجامع به واستوطنه هو وجماعته ثم أخذ فى جهاد البرتقال بسبتة وبلاد الهبط الى ان أسر منهم ثلاثة آلاف فاستخدمهم فى اتمام مابقى عليه من بناء تطاوين واتصلت الحرب بينهم وبين برتقال سبتة كاتصالها بين أهل آزمور وبرتقال الجديدة اه وقوله ان بناء تطاوين كان عقب أخذ غرناطة مخالف لما يقوله أهل تطاوين من أن تاريخ بنائها رمز (تفاحة) وان ذلك كان باعانة الشريف أبى الحسن على بن راشد فيظهر والله أعلم ان أبا الحسن المنظرى كان قد قدم من الاندلس قبل أخذ غرناطة بسنين يسيرة موافق الرمز المذكور والله أعلم

﴿قدوم أبي عبد الله ابن الاحمر مخلوعا على السلطان محمد الشيخ الوطاسي رحمهما الله﴾

لما استولى طاغية الاصبنيول على حضرة غرناطة وسائر الاندلس انتقل سلطانها أبو عبد الله ابن الاحمر الى حضرة فاس فاستوطنها تحت كنف السلطان محمد الشيخ بعد ان خاطبه من انشاء وزيره أبي عبد الله محمد العربي العقيلي بقصيدة بارعة يقول في صدرها

مولى الملوك ملوك العرب والعجم * رعيا لما مثله يرعى من الذمم
بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن * جار الزمان عليه جور منتقم
حتى غدا ملكه بالرغم مستلبا * وأقطع الخطب ما يأتي على الرغم
حكم من الله حتم لا مرد له * وهل مرد لحكم منه منحتم

وهي طويلة ثم وصلها برسالة يقول فيها بعد الحمد لله والصلاة على نبيه ما نصه أما بعد فيا مولانا الذي أولانا من النعم ما أولانا لاحط الله لكم من العزة ارواقا ولا أذوى لدوحة دولتكم أغصانا ولا أوراقا ولا زالت مخضرة العود مبتسمة عن زهرات البشائر مختفة بثمرات السعود ممطورة بسحائب البركات المتداركات دون بروق ولا رعود هذا مقام العائذ بمقامكم المتعلق بأسباب ذمامكم المترجي لعواطف قلوبكم وعوارف انعامكم المقبل الارض تحت أقدامكم المتلجلج اللسان عند محاولة مفاتحة كلامكم وماذا الذي يقول من وجهه خجل وفؤاده وجل وقضيته المقضية عن التنصل والاعتذار تجل بيد أني أقول لكم ما أقوله لربي واجترائي عليه أكثر واجترامي اليه أكبر اللهم لا بريء فاعتذر ولا قوي فانتصر لكني مستقيل مستعتب مستغفر وما أبرئ نفسي ان النفس لامارة بالسوء هذا على طريق التنزل والاتصاف بما تقتضيه الحال ممن يتحيز الى حيز الانصاف وأما على جهة التحقيق فاقول ما قالته الام ابنة الصديق والله اني لاعلم أني ان أقررت بما يقوله الناس والله يعلم أني منه بريئة لاقول ما لم يكن ولئن أنكرت ما تقولون لا تصدقوني فاقول ما قاله أبو يوسف فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون على اني لا أنكر عيوبي فانا معدن العيوب ولا أجحد ذنوبي فانا جبل الذنوب الى الله أشكو عجري وبجري وسقطاتي وغلطاتي نعم كل شيء ولا ما يقوله المتقول المشنع المهول الناطق بفم الشيطان المسول ومن أمثالهم سبني وأصدق ولا تفتر ولا تخلق أفمثلي كان يفعل أمثالها ويحتمل من الاوزار المضاعفة أحمالها ويهلك نفسه ويحبط أعمالها عياذا بالله من خسران الدين وايثار الجاحدين والمعتدين قد ضللت اذا وما أنا من المهتدين وايم الله لو علمت شعرة في فودي تميل الى تلك الجهة لقطعتها بل لقطفت ما تحت عمامتي من هامتي وقطفتها غير أن الرعاع في كل أوان أعداء للملك وعليه أحزاب وأعوان كان أحمق أو أجهل من أبي تروان أو أعقل أو أعلم من أشج بني مروان رب متهم بري ومسربل بسربال وهو منه عري وفي الاحاديث صحيح وسقيم ومن التراكيب المنطقية منتج وعقيم ولكن ثم ميزان عقل تعتبر به أوزان النقل وعلى الراجح الاعتماد ثم اساغة الاحاد المتصل التمادى والمرجوح الاطراح ثم التزام الصراح بعد النفض من الراح وأكثر ما تسمعه الكذب وطبع جمهور الخلق الا من عصمه الله تعالى اليه منجذب ولقد قذفنا من الاباطيل باحجار ورمينا بما لا يرمى به الكفار فضلا عن الفجار وجرى من الامر المنقول على لسان زيد وعمرو مالديكم منه حفظ الجار واذا عظم الالكاء فعلى تكأة التجلد الاتكاء أكثر المكثرون وجهد في تعثيرنا المتعثرون ورمونا عن قوس واحده وتظمونا في سلك الملاحده أكفرا أيضا كفرا غفرا اللهم غفرا أعد نظرا يا عبد قيس فليس الامر على ما خيل لك ليس وهل زدنا على ان طلبنا حقنا ممن رام محقه ومحقنا فطاردنا في سبيله عداة كانوا الناغائطين فانفتق علينا فتق لم يمكنا له رتق

وما كنا للغيب حافظين وبعد فاسأل أهل الحل والعقد والتمييز والنقد فعند جهينتهم تلقى الخبر يقينا وقد رضينا بحكمهم برغمنا فيو بقنا أو يبرئنا فيقينا ايه يامن انه رأب الى ملامنا وقدح حتى فى اسلامنا رويدا رويدا فقد وجدت قوة وايدا ويحك اغطال لسانك علينا وامتد بالسوء الينا لان الزمان لنا مصغر ولك مكبر ولامر عليك مقبل وعنا مدبر كما قاله كاتب الحجاج المتبر وعلى الجملة فهنا صرنا الى تسليم مقالك جدلا وذهبنا فاقررنا بالخطا فى كل ورود وصدر فلله در القائل

ان كنت أخطأت فما أخطأ القدر * وكم أبا عنسف اداوصل الى هنا وعدم انصافا يعمه الهنا قد ازور متجانفا ثم افتر متهانفا وجعل يتمثل بقولهم * اذ عبر واة لواه قادر فقترب * وبقولهم المرء يعجزه المحال فيعارض الحق بالباطل والحالى بالعاطل ويترنم بقول القائل رب سمع هائل وليس تحته طائل وقد فرغنا أول أمس من جوابه وركنا الضغن يلصق حرارة الجوى به وسنلم الآن عليا بوسعه تبكيتا ويقطعه تسكيتا فنقول له نشدناك الله تعالى هل اتفق لك قط وعرض خروج أمر ما عن القصد منك فيه والغرض مع اجتهادك أثنائه فى اصدارك وايرادك فى وقوعه على وفق اقتراحك ومرادك أو جميع ما تزاوله بادارتك لا يقع الا مطابقا لارادتك أو كل ما تقصده وتنويه تحرزه كما تشاء وتحويه فلا بد أن يقر اضطرارا بان مطلوبه يشذ عنه مرارا بل كثيرا ما يفلت صيده من أشراكه ويطلبه فيعجز عن ادراكه فنقول ومستأمن هذا القبيل أيها النبيه النبيل ثم نسرد له من الاحاديث النبوية ما شينا مما يساير نافى غرضنا منه ويماشينا كقوله صلى الله عليه وسلم كل شئ بقضاء وقدر حتى العجز والكيس وقوله أيضا لو اجتمع أهل السموات والارض على أن ينفعوك بشئ لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه ولو اجتمعوا على أن يضروك بشئ لم يقضه الله عليك لم يقدروا عليه أو كما قال صلى الله عليه وسلم فاخلق به ان يلوذ باكناف الاحجام ويزم على نفث فيه كانما ألجم بلجام حينئذ نقول له والحق قد أبان وجهه وجلاه وقهره بحجته وعلاه ليس لك من الامر شئ قل ان الامر كله لله وفى محاجة آدم وموسى ما يقطع لسان الخصم ويرحض عن أثواب أعراضنا ما عسى ان يعلق بها من درن الوصم وكيفما كانت الحال وان ساء الرأى والانتحال ووقعنا فى أوجال وأوحال فثل عرشنا وطويت فرشنا ونكس لوانا وملك مثوانا فنحن أمثل من سوانا وما فى التسر خيار ويد الالطاف تكسر من صولة الاغيار فحتى الآن لم نفقد من اللطيف تعالى لطفا ولا عدمنا أدوات أدعية تعطف بلا مهلة على جملتنا المقطوعة جمل النعم الموصولة عطفا والا فتلك بغداد دار السلام ومتبوأ الاسلام المحفوف بفرسان السيوف والاقلام مثابة الخلافة العباسية ومقر العلماء والفضلاء أولى السير الاويسية والعقول الاياسية قد نوزلت بالجيوش ونزلت وزوولت بالزحوف وزلزلت وتحيف جوانبها الحيف ودخلها كفار التتار عنوة بالسيف ولا تسل اذ ذاك عن كيف أيام تجلت عروس المنية كاشفة عن ساقها مبديه وجرت الدماء فى الشوارع والطرق كالانهار والاوديه رقيد الائمة والقضاة تحت ظلال السيوف المنتضاة بالعمائم فى رقابهم والارديه وللنجيع سيول تخوضها الخيول فتخضبها الى ارساغها وتهم ظماؤها بورودها فتنكل عن تجرعها ومساغها فطح عصيها ومستعصمها وراح ولم يغد ظالمها ومتظلمها وخربت مساجدها وديارها واصطلم بالحسام أشرارها وخيارها فلم يبق من جمهور أهلها عين تطرف حسبما عرفت أو حسبما تعرف فلا تك متشككا متوقفا فحديث تلك الواقعة الشنعاء أشهر عند المؤرخين من قفا فأين تلك المحافل والآراء المدارة فى المحافل حين أراد الله تعالى بادالة الكفر لم تجد ولا فلا مظفر اذن من سلمت له نفسه التى هى رأس ماله وعياله وأطفاله اللذان هما من أعظم آماله وكل أوجل أوقل رياشه وأسباب معاشه الكفيلة بانتهاضه وانتعاشه ثم وجد مع ذلك سبيلا الى الخلاص فى حال مياسرة ومساهلة دون تعصب واعتياص بعد ما ظن كل الظن أن لا محيد

ولا مناص فما أحقه حينئذ وأولاه أن يحمد خالقه ورازقه ومولاه على ما أسداه اليه من رفده وخيره ومعافاته مما ابتلى به كثيرا من غيره ويرضى بكل ايراد واصدار تتصرف فيهما الاحكام الالهية والاقدار فالدهر غدار والدنيا دار مشحونة بالاكدار والقضاء لا يرد ولا يصد ولا يغالب ولا يطالب والدائرات تدور ولا بد من نقص وكمال للبدور والعبد مطيع لا مطاع وايس يطاع الا المستطاع وللخالق القدير جلت قدرته في خليقته علم غيب للاذهان عن مداه انقطاع ومالي والتكلف لما لا أحتاج اليه من هذا القول بين يدي ذي الجلالة والمجادة والفضل والطول فله من العقل الارجح ومن الخلق الاسجح ما لا تناط معه تهمتي بصفره ولا تنفق عنده وشاية الواشي لا عدم من نفره ولا فاز قدحه بظفره والمولى يعلم أن الدنيا تلعب بالالاعب وتجر براحتها الى المتاعب وقديما الاكياس من الناس خدعت وانحرفت عن وصالهم أعقل ما كانوا وقطعت وفعلت بهم ما فعلت بيسار الكواعب الذي جبت وجدعت ولئن رهصت وهصرت فقد نبهت وبصرت ولئن قرعت ومعضت لقد أرشدت ووعظت ويا ويلنا من تنكرها النابره ورميها الناي غمرة أبي عمره أيام قلبت لنا ظهر المجن وغيم أفقها المصمي وأدجن فسرينا ما عاينا حبالها تبته ورأينا منها ما لم نحتسب كما تقوم الساعة بغتة فمن استعاذ من شيء فليستعذ مما صرنا اليه من الحور بعد الكور والانحطاط من النجد الى الغور

فبينا نسوس الناس والامر أمرنا ٭ اذا نحن فيهم سوقة نتنصف

فتبا لدنيا لا يدوم نعيمها ٭ تقلب تارات بنا وتصرف

وأبيها القد أرهقتنا ارهاقا وجرعتنا من صاب الاوصاب كأسا دهاقا ولم نفزع الى غير بابكم المنيع الجناب المنفتح حين سدت الابواب ولم نلبس غير لباس نعمائكم حين خلعنا ما ألبسنا الملك من الاثواب والى أمه يلجأ الطفل لجأ اللهفان وعند الشدائد تمتاز السيوف من الاجفان ووجه الله تعالى يبقى وكل من عليها فان والى هنا ينتهي القائل ثم يقول حسبي هذا وكفان ولا ريب في اشتمال العلم الكريم على ما تعارفته الملوك بينها في الحديث والقديم من الاخذ باليد عند زلة القدم وقرع الانسان وعض البنان من الندم دينا تدينته مع اختلاف الاديان وعادة اطردت على تعاقب الازمان والاحيان ولقد عرض علينا صاحب قشتالة مواضع معتبرة خيرنا فيها وأعطى من أمانه المؤكد فيه خطه بأيمانه ما يقنع النفوس ويكفيها فلم نر ونحن من سلالة الاحمر مجاورة الصفر ولا سوغ لنا الايمان الاقامة بين ظهراني الكفر ما وجدنا عن ذلك مندوحة ولو شاسعة وأملنا من المطالب الشاغبة حمة شرلنا لاسعة وادكرنا أي ادكار قول الله تعالى المنكر لذلك غاية الانكار ألم تكن أرض الله واسعة وقول الرسول عليه الصلاة والسلام المبالغ في ذلك بابلغ الكلام أنا بريء من مؤمن مع كافر تتراآ ناراهما وقول الشاعر الحاث على حث المطيه المتثاقلة عن السير في طريق منجاتها البطيه

وما أنا والتلدد نحو نجد ٭ وقد غصت تهامة بالرجال

ووصلت أيضا من الشرق الينا كتب كريمة المقاصد لدينا تستدعي الانحياز الى تلك الجنبات وتتضمن ما لا مزيد عليه من الرغبات فلم نختر الا دارنا التي كانت دار آبائنا من قبلنا ولم نرتض الانضواء الا لمن بحبله وصل حبلنا وبريش نبله ريش نبلنا ادلالا على محل اخاء متوارث لا عن كلاله واستنادا الى أوصاف أمجاد لانظارهم وأقدارهم اصالة وجلاله اذ قدرونا عن سلف من أسلافنا في الايصاء لمن تخلف بعدهم من أخلافنا أن لا يبتغوا اذا دهمهم أمر بالحضرة المرينية بدلا ولا يجدوا عن طريقها في التوجه الى فريقها معدلا فاخترقنا الى الرياض الاريضة الفجاج وركبنا الى الحجر الفرات ظهر البحر الاجاج فلا غرو ان نرد منه على ما يقر العين ويشفي النفس الشاكية من ألم البين ومن توصل هذا التوصل وتوسل بمثل ذلك التوسل نظار حاعلى سيدنا امير المومنين المحارب والمؤمّل

للمستأمنين فهو الخليق الحقيق بأن يسوغ اصفاء مشاربه ويبلغ أوفى ما آربه على توالى الايام والشهور والسنين ويخلص من الثبور الى الحبور ويخرج من الظلمات الى النور خروج الجنين ولعل شعاع سعادته يفيض علينا ونفحة قبول اقباله تسرى الينا فخامرنا أريحية تحملنا على أن نبادر لانشاد قول الشريف الرضى فى الخليفة القادر

عطفا أمير المؤمنين فاننا * فى دوحة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت * أبدا كلانا فى المعالى معرق
الا الخلافة ميزتك فاننى * أنا عاطل منها وأنت مطوق

لا بل الاحرى بنا والاحجى والانجح لسعينا والارجى أن نعدل عن هذا المنهاج ويقوم وافدنا بين يدى علاه مقام الخاضع المتواضع الضعيف المحتاج وينشد ما قال فى الشيرازى ابن حجاج

الناس يفدونك اضطرارا * منهم وأفديك باختيارى
وبعضهم فى جوار بعض * وأنت حتى أموت جارى
فعش لخبزى وعش لمائى * وعش لدارى وأهل دارى

ونستوهب من الوهاب تعالى جلت أسماؤه وتعاظمت نعماؤه رحمة تجعل فى يد الهداية أعنتنا وعصمة تكون فى مواقف المخاوف جنتنا وقبولا يعطف علينا نوافر القلوب وصنعا يسنى لنا كل مرغوب ومطلوب ونسأله وطالما بلغ السائل سؤلا ومأمولا متابا صادقا على موضوع الندم محمولا ثم عزاء حسنا وصبرا جميلا عن أرض أورثها من شاء من عباده معقبا لهم ومديلا وسادلا عليهم من ستور الاملاء الطويلة سدولا سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا فليطر طائر الوسواس المرفرف مطيرا كل ذلك كان فى الكتاب مسطورا لم نستطع عن مورده صدورا وكان أمر الله قدرا مقدورا ألا وان لله سبحانه فى مقامكم العالى الذى أيده وأعانه سرا من النصر يترجم عنه لسان من النصل وترجع فروع البشائر الصادقة بالفتوحات المتلاحقة من قاعدته المتأصلة الى أصل فبمثله يجب اللياذ والعياذ ولشبهه يحق الالتجاء والارتجاء ولا مر ما آثرناه واخترناه بعد ان استرشدنا الله سبحانه واستخرناه ومنه جل جلاله نرغب أن يخير لنا ولجميع المسلمين ويؤوب بنا من حمايته ووقايته الى معقل منيع وجناب رفيع آمين آمين آمين ونرجو أن يكون ربنا الذى هو فى جميع الامور حسبنا قد خار لنا حيث أرشدنا وهدانا وساقنا توفيقه وحدانا الى الاستجارة بملك حفى كريم وفى أعز جارا من أبى دواد وأحمى أنفا من الحرث بن عباد يشهد بذلك الدانى والقاصى والحاضر والباد ان أغاث ملهوفا فالاسود بن قنان يذكر وان أنعش حشاشة هالك فكعب بن مامة على فعله وحده يشكر جليسه كجليس القعقاع بن شور ومذاكره كمذاكر سفيان المنتسب من الرباب الى ثور الى التحلى بأمهات الفضائل التى أضدادها أمهات الرذائل وهى الثلاث الحكمة والعدل والعفة التى تشملها الثلاثة الاقوال والافعال والشمائل وينشؤ عنها ما شئت من عزم وحزم وعلم وحلم وتيقظ وتحفظ واتقاء وارتقاء وصول وطول وتبحح تأمل فبنور حلاه المشرق يفتخر المغرب على المشرق وبجده السامى خطره فى الاخطار وبيته الذى ذكره فى النباهة والنجابة قد طار يباهى جميع ملوك الجهات والاقطار وكيف لا وهو الرفيع المنتمى والنجار الراضع من الطهارة صفو اللبان الناشئ من السراوة وسط أحجار فى ضئضئ المجد وبحبوح الكرم وسراوة أسرة المملكة التى أكنافها حرم وذؤابة الشرف التى مجادتها لم ترم من معشر أى معشر بخلوا ان وهبوا ما دون أعمارهم وجبنوا ان لم يحموا سوى ذمارهم بنو مرين وما أدراك ما بنو مرين سم العداة وآفة الجزر النازلون بكل معترك والطيبون معاقد الازر لهم عن الهفوات انتفاء وعندهم من السير النبوية اكتفاء انتسبوا الى بر

ابن قيس نخر جوا فى البرعن القيس مالهم القديم المعروف قدنفد فى سبيل المعروف وحديثهم
الذى نقلته رجال الزحوف من طريق القنى والسيوف على الحسن من المقاصد موقوف تحمد
من صغيرهم وكبيرهم ذا بلهم ولدنهم فلله آباء أنجبوهم وأمهات ولدنهم شم الانوف من الطراز
الاول اليهم فى الشدائد الاستناد وعليهم فى الازمات المعول ولهم فى الوفاء والصفاء والاحتفاء
والعناية والحماية والرعاية الخطو الوساع والباع الاطول كأنما عناهم بقوله جرول

أولئك قوم ان بنوا أحسنوا البنا * وان عاهدوا وفوا وان عقدوا اشدّوا
وان كانت النعماء فيهم جزوا بها * وان أنعموا لا كدّروها ولا كدّوا
وتعذلنى أبناء سعد عليهم * وما قلت الا بالذى علمت سعد

وبقول الوثيق مبناه البليغ معناه

قوم اذا عقدوا عقدا لجارهم * شدّوا العناج وشدّوا فوقه الكربا

يزيحون عن التنزيل كل نازح قاصم وليس له منهم عائب ولا واصم فهو أحق بما قاله فى منقر قيس بن عاصم

لا يفطنون لعيب جارهم * وهم لحفظ جوارهم فطن

حلاهم هذه الغريزة التى ليست باستكراه ولا جعل وأمير المؤمنين دام نصره قسيمهم فيها حذو
النعل بالنعل ثم هو عليهم وعلى من سواهم بالاوصاف الملوكية مستعل ارفض منهم منه عن غيث
مات يمحوا آثار اللزبه وانشق عليهم منه عن ليث ضار منقبض على براثنه للوثبه فقل لسكان الفلا
لا تغرنكم أعدادكم وأمدادكم فلا يبالى السرحان المواشى سواء مشى اليها النقرا أو الجفلا بل يصدمهم
صدمة تحطم منهم كل عرنين ثم يبتلع بعد أشلاءهم المعفرة ابتلاع التنين فهو هو كما عرفوه وعهدوه
وألفوه أخو المنايا وابن جلا وطلاع الثنايا مجتمع أشدّه قد احتنكت سنه وبان رشده جادّ مجدّ
محتزم بحزام الحزم مشمر عن ساعد الجدّ

لا يشرب الماء الا من قليب دم * ولا يبيت له جار على وجل

أسدىّ القلب آدمىّ الروا لابس جلد النمر يزنىّ العناد والنوى

وليس بشارىّ عليه دمامة * اذا ما سعى يسعى بقوس وأسهم
ولكنه يسعى عليه مفاضة * دلاص كأعيان الجراد المنظم

فالنجاء النجاء سامعين له طائعين والوجل الوجل لاحقين به خاضعين قبل أن تساقوا اليه مقرنين فى
الاصفاد ويعى الفداء بنفائس النفوس والاموال على الفاد حينئذ يعض ذو الجهل والقدامه على
يديه حسرة وندامه اذا رأى أبطال الجنود تحت خوافق الرايات والبنود قد لفحتهم نار ليست بذات
خمود وأخذتهم صاعقة مثل صاعقة الذين من قبلهم عاد وثمود زعقات تؤز الكتائب أزا وهمز المحققا
الخيل بعد المد المشبع للأعنة همزا وسلا للهندية سلا وهز للخطية هزا حتى يقول النسر للذئب هل
تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ثق خليفة الله بذلك فى كل من رام أذى رعيتك أو أذاك فتلك
عادة الله سبحانه فى ذوى الشقاق والنفاق الذين يشقون عصا المسلمين ويقطعون طريق الرفاق وينصبون
حبائل البغى والفساد فى جميع النواحى والآفاق فلن يجعلهم الله عز وجل من الآمنين أنى وكيف
وقد أفسدوا وخانوا وهو سبحانه لا يصلح عمل المفسدين ولا يهدى كيد الخائنين وها نحن قد وجهنا الى
كعبة مجدكم وجوه صلوات التقديس والتعظيم بعد ما أزينا معاطفها باستعطافكم بدر ثناء أبهى من
در العقد النظيم منتظمين فى سلك أوليائكم متشرفين بخدمة عليائكم ولا فقد عزة ولا عدمها من
قصد مثابتكم العزيزة وخدمها وان المترامى على سنائكم لجدير بحرمتكم واعتنائكم وكل ما هو ف
تبوأ من كنفكم حصنا حصينا عاش بقية عمره محروسا من الضيم مصونا وقد قيل فى بعض الكلام من

فعدت به نكاية الايام أقامته اغاثة الكرام ومولانا أيده الله تعالى ولى ما يزفه الينا من مكرمة بكر
ويصنعه لنا من صنيع حافل يخلد فى صحائف حسن الذكر ويروى معنعن حديث حمده وشكره
طرس عن قلم عن بنان عن لسان عن فكر وغيره من ينام عن ذلك فيوقظ ويسترسل مع الغفلة حتى
يذكر ويوعظ وما عهد منذ وجد الا مسرعا الى داعى الندى والتكرم بريئا من الضجر بالمطالبة
والتبرم حافظ للجوار الذى أوصى النبى صلى الله عليه وسلم بحفظه مستفرغا وسعه فى رعيه المستمر ولحظه
آخذا من حسن الثناء فى جميع الاوقات والآناء بحظه

قد ومن دوحة السناقرع عز * ليس يحتاج مجتنيه لهز
كفه فى الامحال أغزر وبل * رذراه فى الخوف أمنع حرز
حلمه يسفر اسمه لك عنه * فتفهم يا مدّعى الفهم لغزى
لا تسلنه شيأ ولا تستلنه * تطر منه فيك تغنى وتجزى
فنداه هو الفرات الذى قد * عام فيه الانام عوم الاوز
وحماه هو المنيع الذى تر * جع عنه الخطوب مرجع عجز
فدعوا ذهنه يزاول قولى * فهو أدرى بما تضمن رمزى
دام يحيى بكل صنع ومنّ * ويعافى من كل بوس ورجز

وكأنا به قد عمل على شاكلة جلاله من مد ظلاله وتمهيد خلاله وتلقى ورودنا بتهلله واستهلاله وتأنيسنا
بجميل قبوله واقباله ويردنا على حوض كوثره المترع بزلاله والله سبحانه يسعد مقامه العلى ويسعدنا
به فى حله وارتحاله وما آنه وحاله ويؤيد جند المظفر ويؤيدنا بتأييده على نزال عدوه واستنزاله وهز
الذوابل لاطفاء ذباله وهو سبحانه تعالى المسؤل أن يريه قرة العين فى نفسه وأهله وخدامه وأمواله
وأنظاره وأعماله وكافة شؤنه وأحواله ويحق متصل بالسلام وأولى على المقام الجليل مقام الخليفة
المولى وأزكى الصلاة والسلام على خاتمة أنبيائه ورسله سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى
جميع أصحابه وآله صلاة وسلاما ما داما غب أبد موصولين بدوام الابد واتصاله ضامنين لمجددهما
ومرددهما صلاح فساد أعماله وبلوغ غاية آماله وذلك بمشيئة الله تعالى واذنه وفضله وافضاله
(انتهت الرسالة وما كادت) ووصل السلطان ابن الاحمر المخلوع بعد نزوله بمليلة الى مدينة فاس باهله وأولاده
معتذرا عما أسلفه متلهفا على ما خلفه وبنى بفاس بعض قصور على طريق بناء الاندلس وتوفى بها سنة
أربعين وتسعمائة ودفن بازاء المصلى خارج باب الشريعة وخلف ذرية من بعده ﴿قال فى نشر المثانى﴾
انقرضوا ولم يبق منهم أحد وزعم منويل أنه هلك فى وقعة أبى عقبة فى حرب الوطاسيين مع السعديين قال
ولم يحسن هذا الرجل يدفع على ملكه فدفع عن ملك غيره

﴿استيلاء البرتغال على ساحل البريجة وبناؤهم مدينة الجديدة صانها الله سبحانه وتعالى عنه﴾

(قال مؤلفه عفا الله عنه) قد وقفت لبعض البرتغاليين ومعه لو برمارية على تأليف فى أخبار الجديدة من
لدن بنوها الى أن انتزعها المسلمون منهم وقد نقلت منه ما أثبته فى هذه الترجمة ﴿قال هذا المؤلف﴾ لما
كانت سنة ألف وخمسمائة وثنتين مسيحية (قلت) ويوافقها من تاريخ الهجرة سنة سبع وتسعمائة
تقريبا بعث سلطان البرتغال واسمه منويل من دار ملكه اشبونة عمارة فى البحر للاستيلاء على بعض
ثغور المغرب فالجأهم هيجان البحر وموجه الى الساحل البريجة فيما بين آزمور وتيط وكانت البريجة
على ما يفهم من كلامه بنية صغيرة اتخذها أهل تلك الناحية لحراسه وبحوها كانت تسمى برج الشيخ ولا زال مسمى بهذا
الاسم الى الآن فارسى البرتغاليون على الساحل المذكور وطلعت طائفة منهم الى البرج وفوا بالبريجة

وما حولها وأعجبهم المكان فعزموا على المقام به واتفق رأيهم أن يتركوا جماعة هنالك يحفظون المحل ويرجع باقيهم الى ملكهم ليستأذنوه فيما عزموا عليه فتركوا اثني عشر رجلا بالبريجة بعد ان حصنوها وشحنوها بما يحتاجون اليه من عدة وقوت ونحوهما ورجع الباقون الى الملك فاخبروه بشأنهم فاذن لهم وبعث معهم جماعة من البنائين والعملة ليبنوا لهم ما يتحصنون به فقدموا على اخوانهم وشرعوا في ادارة السور على قطعة من الارض فنذر بهم أهل تلك البلاد من المسلمين وتسابقوا اليهم على الصعب والذلول ففر النصارى الى البريجة وتحصنوا بها وأفسد المسلمون كل ما كانوا عملوه في تلك الايام وأحجروهم بحصنهم ووضعوا عليهم الرصد الى أن فترعزمهم وأيسوا من نجاح سعيهم فعاد جلهم أو كلهم الى أشبونة وأعادوا الكلام على ملكهم منويل في شأن البريجة ووصفوا له حسن البقعة وصحة هوائها ومنزلتها من البحر ومن قبائل أهل المغرب من أهل تامسنا ودكالة وغيرهم وأنها عسى أن تكون سلما للاستيلاء على غيرها من بلاد المغرب لاسيما ودولة المسلمين به يومئذ قد تلاشت وملكهم قد ضعف فوقر ذلك في نفس الملك واستأنف العزم وبعث معهم حصة من العسكر تحصل بها الكفاية وتتأتى بها المدافعة والممانعة مع جماعة وافرة من البنائين والمهندسين وحملهم ما يحتاجون اليه من آلة وغيرها فانتهوا الى الموضع المذكور بعد سبع سنين من مقدمهم الاول وتحينوا غفلة أهل البلاد وشرعوا في بناء حصن مربع على كل ربع منه برج وثيق ودأبوا في العمل ليلا ونهارا فلم تمض الامدة يسيرة حتى فرغوا منه وامتنعوا على المسلمين به وكان انشاؤهم لهذا الحصن على البريجة القديمة بان جعلوها أحد أرباعه وأضافوا اليها ثلاثة أرباع أخر وأداروا السور على الجميع واتخذوا في داخل هذا الحصن ماجلا عظيما لخزن الماء وهو النطفية في لسان الجيل بنوه مربعا بتربيع الحصن مساحة كل ربع منه مائة وثلاثون شبرا وجوانبه وقبوه من حجر النصف العجيب النحت المحكم الوضع والالتئام محمولا ذلك القبو على ستة أقواس في كل ربع ﴿قال هذا المؤلف﴾ وامتلأ نحو بلكاطة من هذا الماجل يسع عشرين بوطة من الماء ثم شيدوا على أحد أرباع هذا الحصن طرباعظيما مرتفعا جدا ليس صادق التربيع ولا الاستدارة غير مهندس الشكل ثم بنوا في أعلاه على أحد جوانبه بناء آخر لطيفا مستديرا صاعدا في الجو يرقى اليه على مدارج لطيفة وجعلوا في أعلاه صاريا خارجا من جوفه وناقوسا للحراسة يشرف الحارس منه على نحو خمسة وعشرين ميلا من سائر جهاته وجميع هذه البناآت التي ذكرها هذا المؤلف من الحصن وما معه لازالت قائمة العين والاثر الى الآن الا الطرى فانه قد اتخذ في هذه الايام التي هي سنة سبع وتسعين ومائتين وألف منار المسجد الجامع وذلك أن عامل الجديدة في هذا العصر وهو الرئيس الفاضل أبو عبد الله محمد بن ادريس الجرارى حفظه الله استأذن الخليفة وهو السلطان الاعظم المولى الشريف أبو على الحسن بن محمد العلوى نصره الله في جعله منار الكون المنار القديم قصيرا لا يسمع الناس الاذان فأذن أعزه الله في ذلك وهذا العامل اليوم جاد في اصلاحه والزيادة فيه وقد أشرف على التمام وكذلك استأذن هذا العامل حضرة السلطان المذكور في ادارة جدار من داخل سور المدينة يكون سترة على منازل أهلها وبيوتهم لان السور المذكور كان مرتفعا على البلد بحيث يكون الصاعد عليه متكشفا على البيوت واستأذنه في اصلاح القبة المشرفة على الصر المعروفة بقبة الخياطين وكانت قد تلاشت وباتخاذ سجن متسع محكم عن يمين الداخل من باب المدينة المذكورة لانه لم يكن بها سجن معتبر فاجابه الخليفة المذكور الى ذلك كله أدام الله علاه وقد تم جل ذلك وعادت القبة الى أحسن حالاتها التي كانت عليها أيام البرتقال والله لا يضيع أجر من أحسن عملا * ولنرجع الى موضوعنا الذى كنا فيه فنقول ثم شرع نصارى البرتقال بعد الفراغ من الحصن المذكور في ادارة سور المدينة على أوثق وجه وأحكمه وذلك أنهم عمدوا الى بقعة مربعة من الارض مساحة كل ربع منها ثلاثمائة وخمس وسبعون خطوة وجعلوا مركزها

الحصن المذكور ثم أداروا بها سورين عادبين نحن الخارج منهما نحو خمسة عشر شبرا والداخل على نحو الثلثين منه وبينهما فضاء مردوم بالتراب والحجارة الصغيرة فصار السوران بذلك سورا واحدا سعته خمسون شبرا وهذا في غير الربع الموالي للبحر أما هو فليس فيه ردم وإنما هو سور واحد مصمت أضيق مما عداه بيسير وارتفاع هذه الاسوار من داخل البلد نحو ستين شبرا ومن خارجه نحو السبعين ثم أداروا خارج السور خندقا فسيحا وجعلوا عمقه أربعة عشر شبرا بحيث بلغوا به الماء وإذا فاض البحر ملأ ما بين جوانبه واتخذوا للمدينة ثلاثة أبواب أحدها البحر وهو باب المرسى وقد سدّ بالبناء في هذه السنين واثنان للبر وجعلوا أمامهما قنطرتين بالعمل الهندسي بحيث ترفعان وتوضعان وقت الحاجة الى ذلك فصارت المدينة بهذا كله في غاية المناعة وكان بنو وطاس في هذه المدة أشغل من ذات النحيين مع برتقال سبتة وطنجة وسائر بلاد الهبط فلذا تأتى لهؤلاء النصارى أن يفعلوا ما فعلوه في هذه المدة اليسيرة وجعلوا داخل المدينة خمس حارات يسموا كل حارة باسم كبير من قدمائهم على عادتهم في ذلك واتخذوا بها أربع كنائس واتخذوا المخازن والاهراء للاختزان وسائر المرافق ومن جملتها اهرى كان يسع سبعمائة فنيكة من الحب وأوطنوها بأباهم وعيالهم وكان فيها جماعة من أشرافهم وذوي بيوتاتهم من أهل أشبونة وغيرها وكانوا يعدون فيها أربعة آلاف نفس ما بين المقاتلة والعيال والذرية وكانوا يأملون الاستيلاء منها على مراكش خيب الله رجاءهم ثم ذكر هذا المؤلف ما كان يقع بين المسلمين ونصارى الجديدة من الحروب والغارات مما لعلنا نشير الى بعضه في محله ان شاء الله

## ﴿استيلاء البرتقال على سواحل السوس وبناؤهم حصن فونتي قرب آكادير وما قيل في ذلك﴾

﴿ذكر بعض المؤرخين من الفرنج﴾ أن استيلاء البرتقال على آكادير كان في مدة ملكهم منويل المذكور آنفا وان ذلك كان على حين غفلة من أهل تلك البلاد ﴿قال منويل﴾ لما علم طاغية البرتقال منويل أن مرسى آكادير جيدة لمناعتها وكثرة تجارتها بسبب مجاورتها القبائل السوس أراد الاستيلاء عليها وكان يظن أن ذلك لا يتأتى له لحصانتها وكثرة القبائل المجاورين لها ثم خاطر وبعث اليها جيشا فاستولوا عليها على حين غفلة من أهلها وحصنوها وبنوا بها دورا وبرجا جيدا وأخذوا في التجارة بها مع أهل السوس وكثرت أرباحهم ثم لما ضعفت شوكتهم خرجوا عنها وعن آسفي وآزمور ﴿قلت﴾ مراده بآكادير حصن فونتي القريب منه والافآكادير انما بني بعد هذا التاريخ بكثير كما سيأتي ثم مقتضى ما ذكره أن يكون زمان استيلائهم عليه موافقا أو قريبا لزمان استيلائهم على البريجة ومقتضى ما نقله في النزهة عن ابن القاضي أن يكون استيلاؤهم عليه في حدود سنة خمس وسبعين وثمانمائة فانه لما وصف حال السلطان محمد الشيخ السعدي الآتي ذكره ان شاء الله قال وكان له بخت عظيم في الجهاد فتح حصن النصارى بسوس بعد ان أقاموا به اثنتين وسبعين سنة اه وكان فتحه اياه في حدود سبع وأربعين وتسعمائة والظاهر أنهم استولوا على بعض حصون السوس في التاريخ الاول وعلى بعضها في الثاني والله أعلم

## ﴿وفاة السلطان محمد الشيخ الوطاسي رحمه الله﴾

﴿ذكر ابن القاضي في الجذوة﴾ أن وفاة السلطان المذكور كانت سنة عشر وتسعمائة قال ومن جملة وزرائه أخوه الناصر بن أبي زكرياء والله أعلم وولي الامر من بعده ابنه محمد البرتقالي على ما نذكره

## ﴿الخبر عن دولة السلطان محمد بن محمد الشيخ الوطاسي المعروف بالبرتقالي رحمه الله﴾

لما توفي السلطان محمد الشيخ بويع ابنه محمد البرتقالي في التاريخ المتقدم وكان نصارى سبتة وطنجة وأصيلا قد استحوذوا على بلاد الهبط وضايقوا المسلمين بها حتى ألجؤهم الى قصر كتامة فكان هو الثغر

يومئذ بين بلاد المسلمين وبلاد النصارى كما مر وكان السلطان محمد هذا قد عني بجهادهم وترديد الغزو اليهم والاجلاب عليهم حتى شغل بذلك عن البلاد المراكشية وسواحلها فكان ذلك سبب الظهور الدولة السعدية بها سنة خمس عشرة وتسعمائة على مانذكره ان شاء الله

## ﴿استيلاء البرتقال على ثغر آسفي حرسه الله﴾

﴿قال منويل﴾ كان البرتقال قد تشوفوا للاستيلاء على آسفي وكان أهلها فيهم شجاعة أكثر من غيرهم من أهل الثغور فزحفوا اليها وجرى بينهم وبين أهلها قتال شديد هلك فيه عدد كبير من البرتقال وعظم عليهم أن تمتنع منهم بلدة صغيرة ليس لها حامية سوى أهلها ثم طاولوها بالحصار حتى قل القوت عند أهل آسفي وأشرفوا على الهلاك فحينئذ شارطوا البرتقال وأسلموها اليهم على الامان فاستولوا عليها وحصنوها غاية لتوقعهم كرة المسلمين عليهم فكان كذلك فانهم زحفوا اليهم بعد ثلاث سنين من أخذها ووقع بينهم وبين البرتقال حرب شديدة كانت صفوف المسلمين تترادف فيها كأمواج البحر وقتل قواد عسكر البرتقال وكبارهم ثم قدمت عليهم شكوادره من مادرة بالعسكر والزاد فقويت نفوس البرتقال وارتحل المسلمون عنها بعد ان أشرفوا على الفتح وتبعهم البرتقال لينتهزوا فيهم الفرصة فكر المسلمون عليهم واستلبوهم وهذا أول حصار كان على آسفي ثم بعد سنين قلائل زحف المسلمون اليها أيضا ومعهم عدد من المدافع وقاتلوا قتالا صعبا وزحفوا الى السور فهدموا منه ثلمة كبيرة واشتد القتال عليها بما خرج عن العادة ثم رحل المسلمون من غير فتح وأعرضوا عنها مدة لم يحدثوا أنفسهم بقتال وعمرت آسفي بالنصارى وانتقل اليها التجار وبنوا بها الدور وكانوا يسوقون منها الحب ويحملونه في السفن الى بلادهم ولعل ذلك لهدنة كانت لهم مع المسلمين ثم عادت للمسلمين بعد نحو ثلاث وعشرين سنة ﴿وقال﴾ الشيخ أبو عبد الله محمد العربي الفاسي في مرآة المحاسن مانصه قرأت بخط شيخنا أبي عبد الله القصار أن صاحب آسفي أخرج الشيخ أبا عبد الله محمد بن سليمان الجزولي عنها فدعا عليهم فسئل منه العفو فقال أربعين سنة فأخذها النصارى بعدها اهـ وهذا يقتضي أن استيلاءهم عليها كان في حدود عشر وتسعمائة لان وفاة الشيخ الجزولي رحمه الله كانت في سنة سبعين وثمانمائة كما مر وعند الفرنج مايقتضي ان استيلاءهم عليها كان بعد ذلك بسنتين أو ثلاث والله أعلم

## ﴿زحف السلطان أبي عبد الله البرتقالي الى آصيلا﴾

﴿قال منويل﴾ لما أفضى الامر الى السلطان محمد بن محمد الشيخ الوطاسي أراد أن يأخذ بثاره من البرتقال الذين أسروه لسبع سنين فزحف الى آصيلا في حدود أربع عشرة وتسعمائة وحاصرها وطال قتاله عليها ثم اقتحمها المسلمون عليهم اقتحاما واقتتلوا في وسط الازقة والاسواق يومين ثم جاء المدد الى البرتقال من طنجة وجبل طارق فقويت نفوسهم وخرج المسلمون عنهم لكن ماخرجوا حتى هدموها وأحرقوها ولم يتركوا لهم بها الا الخرابات ثم جد البرتقال في اصلاحها وأقاموا بها برهة من الدهر الى ان رجعت للمسلمين

## ﴿استيلاء البرتقال على ثغر آزمور حرسه الله﴾

﴿قال منويل﴾ بعث طاغية البرتقال سنة أربع عشرة وتسعمائة الى ثغر آزمور شكوادره فيها ألفان من العسكر وأربعمائة خيالة فدافعهم زيان الوطاسي ابن عم السلطان ونشبت مراكب البرتقال في الساحل وتكسر جلها وعاث فيها المسلمون ورجع الباقي مفلولا ثم بعد أربع سنين بعث اليها الطاغية منويل شكوادره فيها عشرون ألفا من العسكر وألفان وسبعمائة خيالة فانتهوا الى آزمور

وحاصروها بحرا وزحفوا اليها من الجديدة برا ووقع حرب شديدة بينهم وبين أهل آزمور وأهل البادية ثم انهزم المسلمون وخرجوا من باب تركه لهم البرتقال قصدا قال لانه يقال فى المثل الفار منك فى الحرب اجعل له قنطرة من فضة يعبر عليها ﴿وقال فى النزهة﴾ كان نزول النصارى بآزمور سنة أربع عشرة وتسعمائة قال وفى هذه السنة بنى النصارى حجر باديس وفى أواخر المحرم منها أخذ النصارى يعنى الاصبنيول مدينة وهران ونكبوا أهلها فامنهم الا أسير أو قتيل الى ان أعادها الله للاسلام على يد الاترالك فى حدود العشرين ومائة وألف اه ﴿قلت﴾ أهل آزمور يزعمون أن استيلاء البرتقال على مدينتهم كان متكررا وسيأتى ما يفهم منه ذلك والله أعلم ﴿ومن﴾ أخبار السلطان أبى عبد الله ما وقفت عليه فى تاريخ البرتقاليين من ان السلطان المذكور كتب لطاغيتهم منويل يطلب منه ان يتقدم بالوصاة لاصحاب قراصينه البحرية أن لا يتعرضوا لمركبين له كان قد عزم على بعثهما الى الجزائر ثم منها الى تونس وكان الطاغية لم يجبه أو أبطأ بالجواب فكرر اليه الكتاب ثانيا فى القضية المذكورة وسرد هذا المؤرخ نص الكتابين معا مترجمين بلغته وذكر ان تاريخ الاول منهما الثالث والعشرون من جمادى سنة عشرين وتسعمائة وتاريخ الثانى الثامن والعشرون من ذى القعدة من السنة اه

## ﴿استيلاء البرتقال على ثغر المعمورة حرسه الله﴾

﴿قال فى نشر المثانى﴾ ان الذى اختط حصن المعمورة هو المهدى الشيعى على يد بعض عماله وزعم بعض الفرنج أن المعمورة من بناء يعقوب المنصور الموحدى قال ولما كان زمان منويل البرتقالى بلغه أن مينا المعمورة جيدة وبلادها نفاعة فبعث اليها طائفة من جنده فوصلوا الى ساحلها ونزلوا فى البر المقابل لها وبنوا هنالك برجا لحصارها ثم أردفهم ملكهم المذكور بعمارة تشتمل على مائتى مركب مشحونة بثمانية آلاف من المقاتلة قال وكان خروج هذه العمارة من مدينة اشبونة فى اليوم الثالث عشر من يونيه العجمى سنة ألف وخمسمائة وخمس عشرة مسيحية ﴿قلت﴾ ويوافقها من تاريخ الهجرة تقريبا سنة احدى وعشرين وتسعمائة فوافت مينا المعمورة فى الثالث والعشرين من يونيه المذكور وحاصروها وألحوا عليها بالقتال أياما وبلغ الخبر بذلك الى السلطان أبى عبد الله البرتقالى فبعث أخاه الناصر صريحا فى جيش كثيف فوصل سادس اغشت من السنة المذكورة وقاتل البرتقال قتالا شديدا وهزمهم هزيمة قبيحة ثم كانت لهم الكرة على المسلمين فهزموهم واستولوا على المعمورة وثبت قدمهم بها وحصنوها بالسور الموجود بها الآن واستمروا بها نحو خمس سنين ثم استرجعها المسلمون منهم فى دولة السلطان المذكور والله تعالى أعلم وفى السنة التى استولوا على المعمورة رجعوا الى موضع مدينة آنفى فشرعوا فى بنائها ومن يومئذ سميت الدار البيضاء وبقوا بها مدة طويلة الى زمن السلطان المولى عبد الله بن اسمعيل على ما زعم منويل

## ﴿أخبار السلطان أبى عبد الله البرتقالى مع الشيخ أبى محمد الغزوانى رضى الله عنه﴾

أصل الشيخ أبى محمد عبد الله الغزوانى دفين حومة القصور من مراكش من غزوان قبيلة من عرب تامسنا وكان فى ابتداء أمره يقرأ العلم بمدرسة الوادى من عدوة الاندلس بفاس فحصلت له ارادة فسافر الى مراكش ولازم الشيخ التباع وتخرج به ثم انتقل الى بلاد الهبط فنزل بها على قبيلة يقال لهم بنو فرنكار واجتمع عليه الناس واشتهر أمره وعظم صيته فبلغ ذلك السلطان أبا عبد الله وكان يومئذ ببلاد الهبط قد خرج اليها بقصد الغارة على نصارى آصيلا وكان معه فى هذه الحركة الشيخ أبو عبد الله محمد بن غازى الامام المشهور فتوهم السلطان المذكور من أمر الشيخ الغزوانى وخشى على الدولة عاقبة أمره وأغراه به مع ذلك الفقيه ابن عبد الكبير البادسى السفيانى الاصل وكان هذا الفقيه يصحب الولاة والعمال

ويخرج في بعوثهم قاضيا فكثرت سعايته بالشيخ حتى وقر ذلك في نفس السلطان فبعث اليه فحضر وأمر بالقبض عليه بالموضع المعروف بتاجناوت وجعله في سلسلة وبعث به الى فاس وتقدم في شأنه الى ابن شقرون صاحب شرطته بقصبة فاس القديم وكان الشيخ ابن غازي قد مرض في هذه الغزوة وأمر السلطان بحمله الى منزله من فاس فلما وصل الى قرب عقبة المساجين اشتد به الحال وأمر أصحابه أن يريحوا به هنالك فبينما هو كذلك اذ مر به الشيخ الغزواني في سلسلته فسأل الموكلين به أن يعوجوا به على الشيخ ابن غازي كي يعوده ويؤدي حقه فلما وقف عليه طلب ابن غازي منه الدعاء فدعا له بخير وانصرف فلما غاب عنه قال ابن غازي لاصحابه احفظوا وصيتي فاني راحل عنكم الى الله تعالى بلا شك قالوا له ياسيدي ماعندك باس فقال ان الله وعدني أن لا يقبض روحي حتى يريني وليا من أوليائه وقد أرانيه الساعة فدلني ذلك على انقضاء الاجل فحملوه من حينه الى منزله فكان آخر العهد به هكذا ساق هذا الخبر صاحب الدوحة في ترجمتي الشيخين المذكورين وكانت وفاة ابن غازي أواخر جمادى الاولى سنة تسع عشرة وتسعمائة ﴿وقال صاحب المرآة﴾ عن بعض شيوخه بعد ان ذكر سعاية ابن عبد الكبير بالشيخ الغزواني مانصه فتحرك الشيخ الغزواني لزيارة ضريح الشيخ أبي سلهام فعرض له العروسي قائد القصر الكبير وناوله كتاب السلطان يأمر فيه بقدوم الشيخ الى فاس دار الملك اذ ذاك فقال له الشيخ طاعة السلطان واجبة وقال للزائرين معه بلغت النية فتوجه الشيخ الى فاس من ذلك المكان وكلما بات في منزل ذهبت جماعة من الذين معه فلم يصل معه الا القليل وكان الشيخ أبو البقاء عبد الوارث اليالصوتي اذ ذاك ساكنا بفاس ولم يكن صحب الشيخ قبل ذلك فلما دخل الشيخ حضرة فاس لقيه أبو البقاء المذكور فسلم عليه فشد الشيخ يده على يده فلم يرسلها حتى عاهده على الرجوع فلما انفصل عنه اشترى خبزا وعنبا وحمل ذلك الى الشيخ وأصحابه فوجدهم عند القاضي أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله اليفرني المكاسي وهو مؤلف المجالس المكاسية فوجدهم في المسجد القريب من دار القاضي المذكور بدرب السعود فناولهم مامعه ووجد الشيخ موكلا به وأصحابه يدخلون ويخرجون ثم دخل القاضي على الشيخ بالمسجد فقال له ماهذا الذي يذكر عنك قال أبو البقاء فتكلمت أنا وقلت ان هذا الرجل قد نزل بلدا عظيمة المناكر وأخذت أعدد منا كرها وصار هذا السيد ينهاهم عن ذلك فهدى الله على يده من هدى وشنئه من أبى فقام القاضي وركب الى دار السلطان ثم رجع الى منزله فبات ومن الغد ركب الى دار السلطان أيضا ومعه الشيخ الغزواني فلما اطمأن بهم مجلس السلطان وكان فيه صاحب تازا وهو أبو العباس أحمد ابن الشيخ أخو السلطان المذكور سكت الجميع وتكلم كاتب السلطان وامام صلاته ﴿قال صاحب المرآة﴾ ولم يسم لنا فقال للشيخ ماهذا الذي يذكر عنك فقال له الشيخ أنت لا تتكلم حتى تغتسل من جنابتك فاستشاط الكاتب غضبا فقال له أخو السلطان هؤلاء القوم يعنون بالجنابة غير ماتعنيه العامة يشير الى مافي الحكم فقال له السلطان من أين تعرف هذا فقال له من سيدي محمد بن عبد الرحيم بن يجيش ففرح السلطان بمعرفة أخيه ذلك وقال للشيخ نحن نريد قربك وأن تكون معنا في هذه المدينة فقال له على بركة الله فانتقل الى فاس القديم وبنى خارج باب القليعة داخل باب الفتوح وأقام هنالك ماشاء الله قيل سبع سنين الى ان كانت سنة تعذر فيها المطر وأخذ الناس في استخراج السواقي للحرث فاخرج الشيخ من وادي اللبن ساقية لم يكن في سواقي السلطان وغيره مثلها فبعث اليه أخو السلطان وهو الناصر الملقب بالكديد بالكاف المعقودة والدال المشددة على لغة العامة وقال له نحن أحق بتلك الساقية فقال له الشيخ خذها وأخذ في الرحيل الى مراكش ولما توجه تلقاءها أخذ خنيفه في يده وجعل يشير به من جهة فاس الى جهة مراكش ويقول أيايا سلطنة الى مراكش ﴿قال صاحب المرآة﴾ هذا حديث شيخنا أبي عبد الله النيجي قال والخنيف معروف وهو نوع من البرانس السود ومعنى أيايا بلغة عامة المغرب سيري معي

وموضع بني فرنكار أظنه تاصروت فان بها رسما منسوبا اليه الى الآن وانه منزله الذي كان يأوي اليه وما زالت آثاره هنالك والدار التي بها باب القلبة هي المتصيرة الى تلميذه الشيخ أبي عبد الله محمد بن علي الهروي المعروف بالطالب ولعل سنة اخراج السواقي هي سنة ست وعشرين وتسعمائة فانه قد تعذر فيها المطر وحدث عنها الغلاء الكبير المؤرخ بسنة سبع وعشرين وتسعمائة وكأنه أشار الى انتقال السلطنة عن بني وطاس ملوك فاس الى الشرفاء السعديين ملوك مراكش يومئذ والله أعلم

## نهوض السلطان أبي عبد الله البرتقالي الى مراكش ومحاصرته أبا العباس الاعرج السعدي بها

قد تقدم لنا أن ظهور الدولة السعدية ببلاد السوس كان في سنة خمس عشرة وتسعمائة وما زال أمرهم في الزيادة الى ان كانت دولة أبي العباس الاعرج منهم فاستفحل أمره وبعد صيته وفتك بنصارى السوس فكاتبه أمراء هنتاتة أصحاب مراكش ودخلوا في طاعته فانتقل اليها وملكها في حدود الثلاثين وتسعمائة ولما اتصل خبره بالسلطان أبي عبد الله وهو يومئذ بفاس قامت قيامته وأقبل في جموع عديدة ومعه وزيره ابن عمه المسعود بن الناصر كذا في النزهة والذي عند غيره ان الوزير الذي جاء معه هو الناصر أخو السلطان المذكور ولما رأى أبو العباس السعدي مالا قبل له به تحصن بمراكش وشحن أسوارها بالرماة فتقدم السلطان أبو عبد الله ونصب الانفاض على مراكش ودام الحصار عليها أياما فيحكى انه قيل للشيخ أبي محمد الغزواني وكان قد استوطن مراكش يومئذ ان أهل مراكش سئموا الحصار فركب الشيخ في جماعة من أصحابه وخرج من باب فاس المعروف اليوم بباب الخميس فوجد رماة السلطان أبي عبد الله يرمون من على الاسوار من أهل البلد فوقف الشيخ ينظر فجاءت رصاصة ضربت صدره وخرقت الجبة التي عليه والتصقت بلحمه كأنها وقعت في صخرة صماء فقبض عليها بيده وقال هذه خاتمة حربهم ثم رجع الى منزله فوردت الانباء على السلطان أبي عبد الله في تلك الليلة بان بني عمه قد قاموا عليه بفاس ونبذوا دعوته فأصبح من الغد راحلا الى فاس وظهر مصداق ما قال الشيخ الغزواني ولم يعد لبني وطاس وصول بعدها الى مراكش ولا الى أعمالها والله تعالى أعلم

## ذكر وزراء السلطان أبي عبد الله وما قيل فيهم

كان من جملة وزرائه ابن عمه المسعود بن الناصر وهو الذي زحف معه الى مراكش على ما في النزهة وكان من جملة وزرائه القائمين بأمره أخوه الناصر بن محمد الشيخ المعروف عند عامة فاس بابي علاقة وبالكديد على ما ﴿قال في الجذوة﴾ لقب بذلك لكثرة سفكه الدماء واقدامه عليه فكان يقتل الناس ويجزرهم كثيرا وكذا عكاسة أيام وزارته بها كذا حدثت غير واحد ممن أدركه ورآه وتوفي الوزير المذكور سنة ثلاثين وتسعمائة

## وفاة السلطان أبي عبد الله رحمه الله

كانت وفاة السلطان أبي عبد الله البرتقالي سنة احدى وثلاثين وتسعمائة على ما في الجذوة ويؤخذ من النزهة أنها كانت سنة اثنتين وثلاثين بعدها والله أعلم وولي الامر من بعده أخوه أبو حسون بولاية عهده اليه

## الخبر عن الدولة الاولى للسلطان أبي حسون بن محمد الشيخ الوطاسي

هو أبو الحسن علي بن محمد الشيخ ابن أبي زكرياء يحيى بن زيان الوطاسي ويعرف بابي حسون البادسي ﴿قال في النزهة﴾ بويع بفاس سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة ثم قبض عليه ولد أخيه أبو العباس أحمد ابن محمد البرتقالي وخلعه وأشهد عليه بالخلع آخر ذي الحجة من السنة المذكورة انتهى

الخبر

## ﴿الخبر عن دولة السلطان أبي العباس أحمد بن محمد الوطاسي رحمه الله تعالى﴾

هو أبو العباس أحمد بن أبي عبد الله محمد البرتقالي ابن أبي عبد الله محمد الشيخ ابن أبي زكرياء يحيى بن زيان الوطاسي بويع يوم خلع عمه أبي حسون آخر ذي الحجة متم سنة اثنين وثلاثين وتسعمائة ﴿قال ابن القاضي﴾ وقد رأيت البيعة التي كتبت له بخط الامام أبي محمد عبد الواحد بن أحمد الوانشريسي من انشائه وعليها خطوط جماعة من فقهاء فاس كأبي العباس الحباك والفقيه أبي العباس أحمد الماواسي وغيرهما اه ﴿قال أبو عبد الله اليفرني في النزهة﴾ وانظر ما وجه كتب البيعة لاحمد مع ان خلع أبي حسون لم يكن لموجب والوانشريسي من أهل الورع ولعله لامر لم يظهر لنا والله أعلم اه ﴿وقال ابن عسكر في الدوحة﴾ لما توفي السلطان أبو عبد الله البرتقالي ودالت الدولة لولده السلطان أبي العباس أحمد وغص بالشرفاء القائمين عليه ببلاد السوس وزوحمهم بهم عقد الهدنة مع النصارى المجاورين له ببلاد الهبط وصاحبهم سلطان البرتقال فبلغ ذلك الشيخ أبا عبد الله محمد بن يحيى البهلولي وكان له رغبة في الجهاد وممن له وصلة بالسلطان أبي عبد الله فكان اذا جاءه زائرا حضه على الغزو فيساعده على ما أراد من ذلك فلما بلغ الشيخ المذكور ما عقده السلطان أبو العباس من الصلح آلى على نفسه أن لا يلقى السلطان المذكور ولا يمشي اليه ولا يقبل منه ما كان عينه له والده من جزية أهل الذمة بفاس لقوته وقوت عياله فمكث على ذلك الى ان حضرته الوفاة وكان في النزع وأصحابه دائرون به فقال له بعضهم ياسيدي أخبرك ان السلطان أمر بالغزو وأمر بالنداء به وحض الناس عليه والمسلمون في شره لذلك وفرح ففتح الشيخ عينيه وتهلل وجهه فرحا وحمد الله وأثنى عليه ففاضت نفسه وهو مسرور بذلك اه

## ﴿وقعة آنماي بين الوطاسيين والسعديين﴾

قد تقدم لنا في خبر السلطان أبي عبد الله أنه لما حاصر مراكش وأصابت الرصاصة الشيخ الغزواني قال هذه خاتمة حربهم ولم يعد لبني وطاس وصول الى مراكش ولا الى أحوازها ﴿قال في النزهة﴾ فكان أبو العباس الاعرج يتلاقى مع أبي العباس الوطاسي بتادلا وأحوازها قال وكانت بينهما معركة بموضع يقال له آنماي وذلك في ذي القعدة سنة خمس وثلاثين وتسعمائة فافترقا على اصطلاح اه وآنماي موضع قرب مراكش بهزاوية الشيخ أبي العزم رحال الكوش

## ﴿عقد الصلح بين السلطانين أبي العباس الوطاسي وأبي العباس السعدي رحمهما الله تعالى﴾

لما رأى أهل المغرب ما وقع بين السلطان أبي العباس أحمد الوطاسي صاحب فاس وأبي العباس أحمد السعدي المعروف بالاعرج صاحب مراكش من التقاتل على الملك والتهالك عليه وفناء الخلق بينهم دخلوا في الصلح بينهم والتراضي على قسمة البلاد وحضر لذلك جماعة من العلماء والصلحاء منهم أبو حفص عمر الخطاب دفين جبل زرهون وأبو الرواين المحجوب دفين مكناسة الزيتون وكان صاحب حال وجذب فجعل الناس يوصونه بالسكوت مخافة أن يفسد عليهم أمرهم فلما دخلوا على أبي العباس الاعرج وأخيه وزيره محمد الشيخ وتكلموا فيما جاؤا لاجله وجدوا فيهما شدة وغلظة وامتناعا من مساعدتهم على ما أرادوا فحلف أبو حفص الخطاب لا دخلوها يعني فاسا ما دمت على وجه الارض فدخلوها حتى مات بعد مدة فكان بعضهم يقول لو كان بنو وطاس يعرفون شيأ ما دفنوا أبا حفص الخطاب يعني لتركوه في تابوت على وجه الارض لانه حلف لا دخلوها ما دام على وجه الارض حكاه صاحب ممتع الاسماع ﴿وذكر في شرح زهرة الشماريخ﴾ أن الصلح انبرم بين الطائفتين على أن للاشراف من تادلا الى السوس ولبني وطاس من تادلا الى المغرب الاوسط وان ممن حضر الصلح المذكور قاضي الجماعة بفاس

أبا الحسن علي بن هرون المطغري بالطاء المهملة مطغرة تلمسان والامام الشهير أبا مالك عبد الواحد بن أحمد الوانشريسي وغيرهما من مشايخ فاس ويذكر أنه لما تواطأت كلمة الحاضرين على الصلح وعقدوا شروطه وهدأت الاصوات وسكن اللجاج أتي بدواة وقرطاس ليكتب الصلح فلما وضعت الدواة بين يدي أحد من الفقهاء الحاضرين الاوجم وانقبض ودفعها عن نفسه استحياء في ذلك المحفل أن يكتب مالا يناسب الجهتين فقام قاضي الجماعة المذكور وأخذ الدواة وأساودها ووضعها بين يدي أبي مالك المذكور فانشأ أبو مالك في الحين خطبة بليغة ونسج الصلح على منوال عجيب واخترع اسلوبا غريبا تحير فيه الحاضرون وعجبوا من ثبات جاشه وجموم قريحته في مثل ذلك المشهد العظيم الذي تخرس فيه ألسن الفصحاء هيبة واكبارا فقام قاضي الجماعة وقبله بين عينيه وقال جزاك الله عن المسلمين خيرا وماهي بأول بركتكم يا آل أبي بكر وكان ذلك كله في حدود أربعين وتسعمائة اه

## ﴿غزوة الجرقرب آصيلا حرسها الله﴾

ذكر صاحب الدوحة في ترجمة الشيخ أبي الحسن علي بن عثمان الشاوي رحمه الله أنه استشهد في وقعة الجر التي كانت في حدود أربعين وتسعمائة بين النصارى والقائد عبد الواحد بن طلحة العروسي على مقربة من آصيلا قال حدثني غير واحد ممن يوثق به ممن حضر الوقعة وبعضهم يصدق بعضا قالوا لما انهزم الناس استقبل الشيخ أبو الحسن النصارى وسيفه في يده وهو يتلو بردة البوصيري فكان ذلك آخر العهد به ولما رجع الناس من الغد ليحملوا قتلاهم لم يوقف له على عين ولا أثر والغا وجد غبار من لباسه عند النصارى وفيه أثر طعنة في صدره اه كلام الدوحة ﴿وفي المرآة﴾ أن الشيخ المذكور مات في حياة شيخه الغزواني شهيدا في الجهاد سنة خمس وعشرين وتسعمائة اه ولعله الصواب والعروسي المذكور هو من أمراء بني عبد الحميد العروسيين أصحاب قصر كتامة وكانت لهم رياسة وسياسة وجهاد في العدو الى ان انقرض أمرهم أعوام الخمسين وتسعمائة ﴿قال في الدوحة﴾ أخبرني غير واحد من فقهاء قصر كتامة أن الشيخ أبا الرواين جاء الى القصر وصاحبه يومئذ القائد عبد الواحد العروسي في عصبة من أقاربه أولاد عبد الحميد فصعد أبو الرواين صومعة المسجد ثم نادى بأعلى صوته يا بني عبد الحميد اشتروا مني القصر والا خرجتم منه في هذه السنة فسمع القائد عبد الواحد ذلك فقال ان كان القصر له أو بيده فلينتزعه منا مابقي لنا الا الكلام الحمق نلتفت اليه ومن الغد خرج الشيخ أبو الرواين من البلد وهو يقول القائد عبد الواحد وأهله يخرجون من القصر ولا يعودون اليه أبدا فكان كذلك بقدرة الله تعالى

## ﴿وقعة أبي عقبة بوادي العبيد وما كان فيها بين الوطاسيين والسعديين من القتال الشديد﴾

هذه الوقعة من أعظم الوقعات التي كانت تكون بين الوطاسيين والسعديين ومازالت العامة تتحدث بها في أنديتها الى الآن ويبالغون في وصفها والاخبار عنها وقد ذكرها شعراؤهم في أزجالهم الملحونة وهي محفوظة فيما بينهم وذلك انه لما طمى عباب السعديين على بلاد الحوز وكادوا يلحون على الوطاسيين دار ملكهم من فاس نهض اليهم السلطان أبو العباس الوطاسي أواخر سنة اثنتين وأربعين وتسعمائة يجر الشوك والمدر في جمع كثيف من الجند وقبائل العرب في حللها وظعنها وجاء أبو العباس السعدي في قبائل الحوز بحللها وظعنها كذلك فكان اللقاء بمشرع أبي عقبة أحد مشاوع وادي العبيد من تادلا فنشبت الحرب وتقاتل الناس وبرز أهل الحفائظ منهم والترات وقاتل الناس على حرمهم وأحسابهم وعزهم فافنى بعضهم بعضا الا قليلا ودامت الحرب أياما على ماقيل الى ان كانت الهزيمة على الوطاسيين عشية يوم الجمعة ثامن صفر سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة ﴿قال في الجذوة﴾ فرجع السلطان أبو العباس الوطاسي الى فاس وبقيت محلته وقصبة تادلا بيد الشريف السعدي قال وتسمى هذه السنة سنة أبي عقبة

وقال

﴿وقال في المرآة﴾ ومما اشتهر من كرامات الشيخ أبي طلحة الزبير بن محمد المصباحي الشاوي الزناتي أنه لما التقى مقاتلة فاس وسلطانهم أبو العباس أحمد الوطاسي ومقاتلة مراكش وسلطانهم أبو العباس أحمد الاعرج ومعه أخوه المتولي بعده أبو عبد الله محمد الشيخ سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة على مشرع أبي عقبة من وادي العبيد انهزم السلطان أبو العباس الوطاسي وتفرقت جموعه وتبعته الخيل فكادوا يقبضون عليه فحضر هنالك رجل على فرس أنثى فجعل يحول بينه وبينهم ويقول له سر يا أحمد ولا تخف ولم يزل معه الى ان رجعوا عنه وأمن الطلب وقد عرف السلطان صفته وتحققها ولم يزل يسأل عن صاحب تلك الصفة حتى قيل له هذه صفة أبي طلحة المصباحي وتحقق ذلك ولما كان خروج السلطان المذكور الذي وصل فيه تطاوين وتزوج بها الحرة بنت الامير السيد أبي الحسن علي بن موسى بن راشد الشريف وذلك في ربيع الاول سنة ثمان وأربعين وتسعمائة وبتطاوين بنى بها قصد أبا طلحة المذكور ونزل عليه فلما رآه عرفه وأيقن انه الرجل الذي أغاثه فاكب عليه السلطان وذكر ما وقع له معه فقال الشيخ يا رب كيف العيش مع هذه الشهرة فاقبضني اليك فمات عقب ذلك من سنته ﴿قال في المرآة﴾ سمعت هذه الحكاية من غير واحد وسألت شيخنا أبا القاسم بن أبي طلحة المذكور فقال لي أعقل مجيء السلطان وأنا صغير جدا أقعد في حجر أبي وعند ركبته اهـ ﴿قلت﴾ والامير أبو الحسن بن راشد المذكور هو الذي اختط مدينة شفشاون كما مر ﴿وذكر في المرآة﴾ ان وفاته كانت سنة سبع عشرة وتسعمائة فيكون السلطان المذكور انما تزوج ابنته بعد وفاته ولعله خطبها من أخيها الامير أبي عبد الله محمد بن أبي الحسن والله أعلم ﴿واعلم﴾ ان ما سلكناه هنا من تقديم قضية الصلح على وقعة أبي عقبة هو ما يقتضيه التاريخ الذي صرحوا به وسيأتي بعد هذا ما ربما يفهم منه أن الامر بالعكس والجواب ان قضية الصلح تكررت حسبما يؤخذ مما مر والله أعلم ﴿وفي هذه السنة أيضا﴾ عقد السلطان أبو العباس الوطاسي مع برتقال آسفي صلحا على ثلاث سنين ودخل في هذا العقد آسفي والجديدة وآزمور وكتب البرتقال بذلك الى ملكهم ووقعت المحادة في البلاد وتفرغ الوطاسي لقتال السعديين

## ﴿بناء السلطان أبي العباس الوطاسي قنطرة الرصيف بفاس حرسها الله﴾

كان السلطان أبو العباس أحمد بن محمد الوطاسي قد جدد بناء قنطرة الرصيف بحضرة فاس وذلك منتصف سنة احدى وخمسين وتسعمائة وفي ذلك يقول الفقيه أبو مالك عبد الواحد بن أحمد الونشريسي مشيرا الى التاريخ المذكور

جسر الرصيف أبو العباس جدده * فخر السلاطين من أبناء وطاس
فجاء في غاية الاتقان مرتفقا * لمن يمر به من عدوتي فاس
وكان تجديده في نصف عام غنا * من هجرة المصطفى المبعوث للناس

﴿وقال الفقيه أبو مالك أيضا﴾

أيا اهل فاس سدد الله سدكم * برأي أبي العباس حامي حمى فاس
وأحيا به أشجاركم وثماركم * على رغم قوم منكرين من الناس
فدام ودام السعد يخدم مجده * وفاز من الشكر الجميل باجناس

﴿وقال الشيخ أبو زكرياء يحيى السراج﴾

ألا سدد الله رأي الذي * بتسديده سد سدا حصينا
وخلد في عزه ملكه * وأولاه فتحا ونصرا مبينا
امام الهدى أحمد المرتضى * مبيد العداة عداة المسلمينا

﴿وقال الامام أبو الحسن علي بن هرون﴾

لقد سدّد الله رأى العماد * وأبطل في الستر أى الجهول
وقرّب ما رامه من بعاد * لمولاي أحمد حتى يطول
فطرداو عكسا السنّي بماد * عقول الملوك ملوك العقول

﴿وقعة وادي درنة تادلا وأسر الامير أبي زكرياء الوطاسي ومهلكه رحمه الله﴾

ذكر في المرآة عند الكلام على أبي عبد الله محمد بن يوسف الفاسي وهو والد الشيخ أبي المحاسن رضي الله عنه أن أبا عبد الله المذكور كانت له وجاهة كبيرة عند أمير القصر أبي زكرياء يحيى بن أبي عبد الله البرتقالي وهو يومئذ أخو السلطان أبي العباس الوطاسي قال فانتفع بوجاهة أبي عبد الله الفاسي خلق كثير ولم يسامح هو نفسه في نيل شيء من الدنيا بسبب ذلك الجاه الى ان أسر الامير أبو زكرياء المذكور في وقعة وادي درنة من تادلا للشرفاء على بني وطاس في رجب سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة ومات في تلك الليالي القريبة غما وأسفا رحمه الله ﴿قلت﴾ وكان سلطان السعديين يومئذ محمد الشيخ الملقب بالمهدي فانه تغلب على أخيه الاعرج وانتزع منه الملك وسجنه كما يأتي ان شاء الله تعالى

﴿استيلاء السلطان محمد الشيخ السعدي على فاس وقبضه على بني وطاس ومهلك سلطانهم أبي العباس رحمه الله تعالى بفضله﴾

لما غلب السلطان محمد الشيخ السعدي على أخيه أبي العباس الاعرج واستولى على مراكش طمحت نفسه للتوغل في بلاد الغرب وقرّه فتفرغ لحرب بني وطاس ونكث ما كان بينه وبينهم من الصلح وره وامنه بحجر الارض وردّد اليهم البعوث والسرايا وأكثر فيهم من شن الغارات وصار يستلبهم البلاد شيأ فشيأ الى ان استولى عليها وكان أوّل ما ملك من أمصار الغرب مكناسة الزيتون افتتحها عقب سنة خمس وخمسين وتسعمائة بعد حصار ومقاتلة ثم تقدم الى فاس فألح عليها بالقتال وضايقها بالحصار مدّة قريبة من السنة ثم استولى عليها بعد ان أسر سلطانها أبا العباس الوطاسي وصار في قبضته وكان دخوله اياها أوائل سنة ست وخمسين وتسعمائة ولما دخلها تقبض على الوطاسيين أجمع وبعثهم مصفدين الى مراكش عدا أبا حسون المخلوع فانه فرّ الى الجزائر الى ان كان من أمره ما نذكره ثم ان الشيخ السعدي غدر ببني وطاس فيما قيل بعد ان أظهر العفو عنهم وسرح سلطانهم أبا العباس من نقافه والله أعلم ﴿وفي الجذوة﴾ كانت وفاة السلطان أبي العباس الوطاسي بمراكش قرب الستين وتسعمائة اه وزعم منويل انه قتل مذبوحا بدرعة قال زحف أبو عبد الله محمد الشيخ السعدي الى فاس فبرز اليه أبو حسون الوطاسي وكان قائد جيش ابن أخيه ووقع بينهما قتال عظيم انهزم فيه أبو حسون الى فاس وحاصره السعدي بها سنتين ولما قلت الاقوات وعجز الوطاسيون عن الدفاع نزلوا على حكم السعدي فقبض على أبي العباس الوطاسي وفرّ أبو حسون الى الجزائر واستقل محمد الشيخ السعدي بأمر المغرب وغرّب الوطاسيين الى درعة فقتل أبا العباس الوطاسي الذي كان تلميذه الله ذبحا اه كلامه

﴿بقية أخبار السلطان أبي العباس الوطاسي وسيرته﴾

كان من جملة وزراء السلطان أبي العباس المذكور ابنه محمد ومن أخباره ما ذكره في الدوحة في ترجمة الشيخ أبي عثمان سعيد بن أبي بكر المشترائي دفين مكناسة الزيتون قال من كراماته الشائعة ما اتفق له مع الوزير أبي عبد الله محمد ابن السلطان أبي العباس أحمد الوطاسي لما استوزره أبوه وولاه على مكناسة فكان بها فغضب ذات يوم على أحد المشاورية فهرب المشاوري الى زاوية الشيخ أبي عثمان فبعث الوزير

الى

الى الشيخ بان عليه الامان و يبعثه اليه فقال له الشيخ ان شئت أن تذهب الى سيدك فافعل فقال المشاور ياسيدى أخاف أن يقتلنى فقال الشيخ ان قتلك فالله يقتله فذهب المشاورى الى الوزير و بقى عنده ليلتين وفى الثالثة قتله ولم يظهر له أثر فجاءت أمه الى الشيخ وقالت له ياسيدى ان ولدى قد قتله الوزير فقال لها سبق ذلك فى علم الله وان الآخر سيلحقه الآن يعنى الوزير فوعك الوزير تلك الليلة وسلط عليه اكال فى جسمه فتمزق لحمه وتقطع شيأ فشيأ الى ان هلك لليال قلائل من مرضه فاعتبر الناس والسلطان بذلك ومن ذلك الوقت زاد الامراء وغيرهم فى احترام حرم زاوية الشيخ المذكور اه وكان السلطان أبى العباس اعتقاد فى المتصلحين وأرباب الاحوال فمن فوقهم من أهل العلم والدين من ذلك ما حكاه فى الدوحة أيضا فى ترجمة أبى الحسن على الصنهاجى المعروف بالدوار قال كان أبو الحسن المذكور من الملامتية وكان يدخل دور الملوك من بنى وطاس فيتلقاه النساء والصبيان يقبلون يديه وقدميه فلا يلتفت الى أحد ويعطونه الثياب الرفيعة والذخائر النفيسة ويلبسه السلطان يعنى أبا العباس من أشرف لباسه فاذا خرج تصدق بجميع ذلك ويمر على حوانيت الزياتين فيغمس اكمام الحلة التى تكون عليه و يبرقعها بالزيت أو بالسمن ولا يزال يدور فى الاماكن و يصرخ باسم الجلالة اه قالوا وكان السلطان أبو العباس المذكور واقفا عند اشارة الفقيه أبى مالك عبد الواحد بن أحمد الوانشريسى وهو ابن صاحب المعيار لا يتعدى أمره ولا يخالف رأيه كما وقع له معه فى مسئلة رجل اسلامى يعرف بعبد الرحمن المنجور وكان تاجرا جامعا للمال فشهد عليه فى حكاية طويلة أربعون رجلا من العدول باستغراق ذمته فاخذه السلطان أبو العباس الوطاسى وقتله وصير أملاكه لبيت مال المسلمين فرغب أولاد المنجور من السلطان أن يؤدوا له عشرين ألف دينار و يرد اليهم أملاكهم و يسقط عنهم بينة الاستغراق فقال السلطان لحاجبه اذهب الى الشيخ عبد الواحد الوانشريسى وشاوره فى ذلك وعرفه بانى فى الحاجة الى هذا المال لاجل هذه الحركة التى عرضت لى فذهب الحاجب اليه وأخبره بمقالة السلطان و رغبته فى قبول ذلك فقال له الشيخ والله لا ألقى الله بشهادة أربعين رجلا من عدول المسلمين لاجل سلطانك اذهب وقل له انى لا أوافق على ذلك ولا أرضاه فرجع الحاجب الى السلطان وأخبره بما قال الشيخ فرجع السلطان عما عزم عليه ونظير هذا ما اتفق له معه أيضا وهو ان الناس خرجوا يوم العيد للصلاة فانتظروا السلطان فأبطأ عليهم ولم يأت الى خروج وقت الصلاة وحينئذ أقبل السلطان أبو العباس فى أبهته فلما انتهى الى المصلى نظر الشيخ أبو مالك فرأى ان الوقت قد فات فرقى المنبر وقال معشر المسلمين أعظم الله أجركم فى صلاة العيد فقد عادت ظهرا ثم أمر المؤذن فأذن وأقام الصلاة فتقدم الشيخ أبو مالك وصلى بالناس الظهر فخجل السلطان أبو العباس واعترف بخطيئته رحم الله الجميع

## الخبر عن الدولة الثانية للسلطان أبى حسون الوطاسى رحمه الله

لما دخل السلطان أبو عبد الله محمد الشيخ السعدى الى فاس سنة ست وخمسين وتسعمائة وقبض على بنى وطاس بما حسبما تقدم فر أبو حسون هذا الى ثغر الجزائر حقنا لدمه ومستجيشا الترك على السعدى وكانت الترك قد استولوا على المغرب الاوسط وانتزعوه من يد بنى زيان كما سيأتى فلم يزل أبو حسون عندهم يفتل لهم فى الغارب والسنام و يحسن لهم بلاد المغرب الاقصى و يعظمها فى أعينهم ويقول ان المتغلب عليها قد سلبنى ملكى وملك آبائى وغلبنى على تراث أجدادى فلو ذهبتم معى لقتاله لكنا نرجوا الله تعالى أن يتيح لنا النصر عليه و يرزقنا الظفر به ولا تعدمون أنتم مع ذلك منفعة من ملء أيديكم غنائم وذخائر ووعدهم بمال جزيل فأجابوه الى ما طلب وأقبلوا معه فى جيش كثيف تحت راية باشاهم صالح التركمانى المعروف بصالح رئيس الى ان اقتحموا حضرة فاس بعد حروب عظيمة ومعارك

شديدة وفرّ عنها محمد الشيخ السعدي الى منجاته وكان دخول السلطان أبي حسون الى فاس ثالث صفر سنة احدى وستين وتسعمائة ولما دخلها فرح به أهلها فرحا شديدا وترجل هو عن فرسه وصار يعانق الناس كبيرا وصغيرا وشريفا ووضيعا ويبكي على ما دهمه وأهل بيته من أمر السعديين واستبشر الناس بقدمه وتيمنوا بطلعته وقبض على كبير فاس يومئذ القائد أبي عبد الله محمد بن راشد الشريف الادريسي واطمأنت به الدار ثم لم يلبث السلطان أبو حسون الا يسيرا حتى كثرت شكاية الناس اليه بالترك وأنهم مدّوا أيديهم الى الحريم وعاثوا في البلاد فبادر بدفع ما اتفق معهم عليه من المال وأخرجهم عن فاس وتخلف بها منهم نفر يسير

## ﴿مجيء السلطان محمد الشيخ السعدي الى فاس واستيلاؤه عليها ومقتل السلطان أبي حسون رحمه الله﴾

لما فرّ السلطان محمد الشيخ السعدي من وقعة الاتراك بفاس وصل الى مراكش فاستقر بها وصرف عزمه لقتال أبي حسون فاخذ في استنفار القبائل وانتخاب الابطال وتعبية العساكر والاجناد فاجتمع له من ذلك ما اشتدّ به أزره وقوي به عضده ثم نهض بهم الى فاس فخرج اليه السلطان أبو حسون في رماة فاس وما انضاف اليهم من جيش العرب فكانت الهزيمة على أبي حسون فرجع الى فاس وتحصن بها فتقدم الشيخ السعدي وحاصره الى ان ظفر به في وقعة كانت بينهما بالموضع المعروف بمسلة فقتله واستولى على حضرة فاس وصفا له أمرها وكان استيلاؤه عليها يوم السبت الرابع والعشرين من شوال سنة احدى وستين وتسعمائة على الصواب خلاف ما وقع في الدوحة والله أعلم وبمقتل السلطان أبي حسون رحمه الله انقرضت الدولة المرينية بالمغرب والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين (وبقي علينا الالماع) باواخر دولة بني زيان ملوك تلمسان وكيف كان انقراض أمرهم فلنشر الى ذلك فنقول كانت دولة بني زيان على ما علمت من الاضطراب سائر أيام بني مرين وكان منهم في صدر المائة التاسعة السلطان الواثق بالله من أمثل ملوكهم وغلبهم على تلمسان في تلك المدة السلطان أبو فارس عبد العزيز ابن أحمد الحفصي فاخذوا بطاعته ثم بعد موته سنة سبع وثلاثين وثمانمائة اعتروا بعض الشيء الى ان كانت دولة السلطان أبي عمرو عثمان بن محمد الحفصي فغزا تلمسان أعوام السبعين وثمانمائة مرتين وفي الثانية هدم أسوارها وعزم على استئصال أهلها الى ان تشفع اليه علماؤها وصلحاؤها فعفا عنهم وكان الباعث له على غزوها أولا ما بلغه من ان الامير محمد بن محمد بن أبي ثابت استولى عليها ففعل ما فعل وصاهرهم ببعض حفدته ﴿وقال صاحب بدائع السلك﴾ شاهدت بتلمسان وبعض أعمالها تصريح الخطيب باسم السلطان أبي عمرو عثمان صاحب تونس مقدما في الذكر على اسم صاحب تلمسان أبي عبد الله من أعقاب بني زيان لما بينهما من الشرط في ذلك وبقيت حال بني زيان متماسكة الى ان ظهر جنس الاصبنيول في صدر المائة العاشرة بعد ما تم له ملك الاندلس وعظمت شوكته فطمح للتغلب على ثغور المغربين الادنى والاوسط فاستولى على بجاية سنة عشر وتسعمائة ثم على وهران سنة أربع عشرة وتسعمائة وفعل باهلها الافاعيل ثم سما لتملك الجزائر وشره لالتهامها وضايق المسلمين في ثغورهم وضعف بنو زيان عن مقاومته وكان الشيخ الفقيه الصالح أبو العباس أحمد بن القاضي الزواوي ممن له الشهرة والوجاهة الكبيرة في بسائط المغرب الاوسط وجباله وكانت دولة العثمانية من الترك في هذه المدة قد زخر عبابها وملكت أكثر المسكونة وظهر من قوّاد عساكرها البحرية قائدان عظيمان وهما خير الدين باشا وأخوه عروج باشا وكانا قد تابعا الغزو على بلاد الكفر برا وبحرا وأوقعا باهل دول الاوربا وقائع شهيرة وطار لهم ذكر في أقطار البلاد وتمكن ناموسهم من قلوب العباد فكاتبهم الفقيه أبو العباس المذكور وعرّفهم بما المسلمون فيه من مضايقة العدو الكافر وقال ان بلادنا بقيت لك أولأخيك

أو للذئب فأقبل الترك نحوه مسرعين واستولى عروج باشا على ثغر الجزائر بعدما كاد العدو يملكه فتخلصه منه ثم استولى على تلمسان وغلب بني زيان على أمرهم وذلك سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة على ما في النزهة ثم ان أهل تلمسان أنكروا سيرة الترك وسئموا ملكتهم ويقال أن الترك عسفوهم وصادروهم على أموالهم وكان عروج قد أغرى بالفقيه أبي العباس المستدعي له فقتل شهيدا بعد الثلاثين وتسعمائة ورأى عروج ان أمر المغرب الاوسط لا يصفو له مع وجود الفقيه المذكور فدس عليه من قتله ثم نهض عروج الى بني يزناسن فكانت الكرة عليه وقتل هنالك مع جماعة من وجوه عسكره وتفرقت جموعه وعادت تلمسان الى بني زيان فجددوا بها رياستهم وأحيوا رمق دولتهم الى ان عاود الترك غزوها بعد حين وانتزعوها من يد صاحبها أبي العباس أحمد بن عبد الله من أعقاب يغمراسن بن زيان ﴿قال في المرآة ما نصه﴾ قال الشيخ الامام قاضي الجماعة أبو محمد عبد الواحد بن أحمد الونشريسي رحمه الله ومن خطه نقلت قدم حسن بن خير الدين التركي فاستولى على تلمسان في أواسط شعبان سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة وأخرج منها الامير أحمد ابن الامير عبد الله ووزيره منصور بن أبي غانم ولحقا ببدو ا مع من انضاف اليهما من أمراء تلمسان وكبرائها فغدر بهم عمر بن يحيى الوطاسي صاحب دبدو وأخذ أموالهم واعتقلهم وسرح منصورا في محرم سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة اهـ واستمرت تلمسان في يد الترك الى أواسط المائة الثالثة عشرة فاستولى عليها الفرنسيس على ما نذكره ان شاء الله ﴿واعلم﴾ انه كان في صدر هذه المائة العاشرة أمور عظام منها ظهور الفرنج بالديار المغربية واستيلاؤهم على ثغورها بما لم يعهد مثله قبل ذلك لا سيما البرتقال والاصبنيول حسبما تقدمت الاشارة اليه ومنها ظهور دولة آل عثمان ملوك التركمان بالديار المشرقية وما أضيف اليها الظهور الذي لا كفاء له وابتداء هذه الدولة وان كان قبل هذا التاريخ بنحو مائتي سنة لكن انما كان عنفوان شبابها وفيضان عبابها في هذه المدة لا سيما في دولة سلطانهم الاعظم وخاقانهم الافخم سليمان بن سليم خان فانه ملك أكثر المعمور وقام بدعوته من الامم الجمهور وهجمت عساكره على ديار الارباق فقاتلوهم في أعز بلادهم واستلبوهم من طارفهم وتلادهم وخضعت ملوكها لعزته واستكانوا لصولته وأعطوه يد المقادة وآتوه من الطاعة والخضوع ما خالف العادة ثم أوطأ عساكره المغربين الادنى والاوسط فاستولى عليهما وكاد يتناول الاقصى ويضيفه اليهما على ما نقف عليه في أخبار السعديين ان شاء الله ومنها ظهور الاولياء وأهل الصلاح من الملامتية وأرباب الاحوال والجذب في بلاد الشرق والغرب لكنه انفتح به للمتسورين على النسبة وأهل الدعوى باب متسع الخرق متعسر الرتق فاختلط المرعي بالهمل وادعى الخصوصية من لا ناقة له فيها ولا جمل وصعب على جل الناس التمييز حتى بين البهرج والابريز لا سيما العامي الغمر الذي لا يفرق بين الحصباء والدر ويرحم الله الشيخ اليوسي اذ قال في محاضرته ما نصه وقد طرق أسماع العوام من قبل اليوم كلام أهل الصولة كفحول القادرية والشاذلية رضي الله عنهم وكلام أرباب الاحوال في كل زمان فتعشقت النفوس ذلك وأذعن له الجمهور وخاضوا في التشبه بهم فاشتت أن تلقى جاهلا مسرفا على نفسه لم يعرف بعد ظاهر الشريعة فضلا عن أن يعمل فضلا عن ان يخلص الى الباطن فضلا عن أن يكون صاحب مقام الاوجدته يصول ويقول وينابذ المنقول والمعقول وأكثر ذلك في أبناء الفقراء يريد الواحد منهم أن يتحلى بحلية أبيه ويستتبع أتباعه بغير حق ولا حقيقة بل لمجرد حطام الدنيا فيقول خدام أبي وزريبة أبي ويضرب عليهم المغرم كمغرم السلطان ولا يقبل ان يحبوا أحدا في الله أو يعرفوه أو يقتدوا به غيره واذا رأى من خرج يطلب دينه أو من يدله على الله تعالى يغضب عليه ويتوعده بالهلاك في نفسه وماله وقد يقع شيء من المصائب بحكم القضاء والابتلاء فيضيفه الى نفسه فيزداد بذلك هو وأتباعه ضلالا ثم يخترق لهم من الخرافات والامور المعتادة ما يدعيه سيرة ودينا

يدستم ويهيم به ثم يضمن لهم الجنة على مساوي أعمالهم والشفاعة يوم الحشر ويقبض على لحة من ذراعه فيقول للجاهل مثله أنت من هذه اللحمة فيكتفي جهال العوام بذلك ويبقون في خدمته ولداعن والد قائلين نحن خدام الدار الفلانية وفي زريبة فلان فلا نخرج عنها وكذا وجدنا آباءنا وهذا هو الضلال المبين وهؤلاء قطاع العباد عن الله الى آخر كلامه فقف عليه في الفصل الخامس والعشرين منها فانه نفيس وبالله تعالى التوفيق ﴿وفي سنة احدى عشرة وتسعمائة﴾ توفي الفقيه أبو العباس أحمد بن عيسى الماواسي البطيوي الموقت المشهور ﴿وفي سنة اثنتي عشرة بعدها﴾ توفي الشيخ الفقيه أبو الحسن علي بن قاسم التجيبي المعروف بالزقاق فقيه فاس وهو صاحب المنظومة اللامية في علم القضاء وغيرها ﴿وفي سنة أربع عشرة وتسعمائة﴾ في يوم الثلاثاء العشرين من صفر منها توفي الشيخ الامام أبو العباس أحمد بن يحيي الونشريسي مؤلف المعيار وغيره من التآليف الحسان أصله من تلمسان واستوطن مدينة فاس الى ان توفي بها في التاريخ المذكور ﴿وفيها أيضا﴾ توفي الشيخ الكبير أبو فارس عبد العزيز بن عبد الحق الحرار المعروف بالتباع دفين حومة القصور من مراكش من أصحاب الشيخ الجزولي رضي الله عنهما وصفه شيخه المذكور بالكيمياء وكان يقال النظرة فيه تغني أفاض الله علينا من مدده ﴿وفي سنة تسع عشرة وتسعمائة﴾ توفي الشيخ الامام العلامة النظار أبو عبد الله محمد بن أحمد بن غازي العثماني المكناسي ثم الفاسي وقد تقدم خبره مع الشيخ أبي محمد الغزواني رحمهما الله ﴿وفي سنة ست وعشرين وتسعمائة﴾ انحبس المطر بفاس والمغرب واضطر الناس الى استخراج السواقي من الاودية والانهار لسقي زروعهم وثمارهم ﴿وفي سنة سبع وعشرين بعدها﴾ كان الغلاء والجوع الكبير الذي صار تاريخا في الناس مدة ﴿وفي سنة ثمان وعشرين بعدها﴾ كان الوباء بالمغرب سنة الله في خلقه وفي هذه المدة أعني أعوام الثلاثين وتسعمائة على ما في الدوحة توفي الشيخ أبو عبد الله محمد بن منصور السفياني دفين جزيرة البسابس من بلاد أولاد جلون على مسيرة نصف يوم من مصب نهر سبو في البحر من جهة الشرق وكان من أصحاب الشيخ التباع والروضة التي عليه بناها الشيخ أبو زيد عبد الرحمن المجذوب يقال انه لما أكملها رآه في المنام وألبسه حلة خضراء ﴿وفي سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة﴾ في ثاني يوم من ربيع الاول منها توفي الشيخ أبو محمد عبد الكريم بن عمر الحاحي المعروف بالفلاح ضجيع القاضي عياض في روضته بحومة باب ايلان من مراكش وهو من أصحاب الشيخ التباع أيضا وفي هذه المدة على ما في الدوحة توفي الشيخ أبو يشو امالك بن خدة الصبيحي من عرب صبيح كان من أهل العلم والفضل والدين ودفن على صفة نهر سبو اعلى نحو مرحلة من فاس وقبره مزارة الى الآن ﴿وفي سنة خمس وثلاثين وتسعمائة﴾ توفي الشيخ أبو محمد الغزواني رضي الله عنه دفين حومة القصور من مراكش وقد تقدم شيء من خبره ﴿وفي أعوام أربعين وتسعمائة﴾ توفي الشيخ الكامل أبو عبد الله محمد بن عيسى السفياني المختاري ثم الفهدي دفين مكناسة الزيتون وهو شيخ جليل القدر شهير الذكر رضي الله عنه ونفعنا به

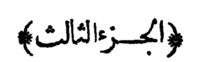
آمين

تم الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث أوله ابتداء دولة الاشراف السعديين من آل زيدان وذكر أوليتهم وتحقيق نسبهم رحمهم الله


الجزء الثالث

## فهرست الجزء الثالث من كتاب الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى

﴿ تمت ﴾



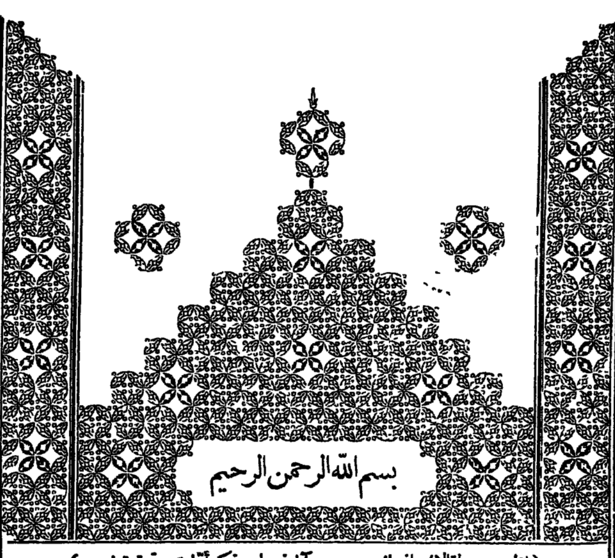
# الجزء الثالث

## من كتاب الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى

تأليف العالم العلامة المحقق الفهامة وحيد
الاوان وفريد الزمان بحر العلوم الراوى
الشيخ أحمد بن خالد الناصرى
السلاوى حفظه الله
وأدام علاه
آمين








﴿الخبر عن دولة الاشراف السعديين من آل زيدان وذكر أوليتهم وتحقيق نسبهم﴾

اعلم أن هؤلاء السعديين كانوا يقولون أن أصل سلفهم من ينبع النخل من أرض الحجاز وأنهم أشراف من ولد محمد النفس الزكية رضي الله عنه واليه كانوا يرفعون نسبهم و يقولون في أول ملوكهم القائم بامر الله مثلا هو محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن علي بن مخلوف بن زيدان بن أحمد بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن أبي محمد بن عرفة بن الحسن بن أبي بكر بن علي بن حسن بن أحمد بن اسمعيل بن قاسم ابن محمد النفس الزكية ابن عبد الله الكامل ابن حسن المثنى ابن الحسن السبط ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم فهم بنو عم السادة العلويين أشراف سجلماسة يجتمعون معهم في محمد بن أبي القاسم المذكور في النسب قالوا والسبب في قدوم سلفهم من الحجاز الى المغرب أن أهل درعة كانت لا تصلح ثمارهم وتعتريها العاهات كثيرا فقيل لهم لو أتيتم بشريف الى بلادكم كما أتى به أهل سجلماسة لصلحت ثماركم كما صلحت ثمارهم وقد كان أهل سجلماسة جاؤا بالمولى الحسن بن قاسم بن محمد بن أبي القاسم من أرض ينبع في قصة ظريفة تأتي في محلها ان شاء الله قالوا فأتى أهل درعة بالمولى زيدان بن أحمد مضاهاة لاهل سجلماسة فعادت عليهم بركته ﴿واعلم﴾ أن هذا النسب الشريف المسرود آنفا فيه كما قال اليفرني بتر بين قاسم ومحمد النفس الزكية فانه لا يعرف في أولاد النفس الزكية من اسمه قاسم وانما هو قاسم بن محمد بن عبد الله الاشتر ابن محمد النفس الزكية ولعله سقط عن ذهول من الناسخ وقيل الصواب أنه قاسم بن حسن بن محمد بن عبد الله الاشتر ابن محمد النفس الزكية ﴿واعلم أيضا﴾ أن ما زعمه هؤلاء السعديون من انتسابهم لهذا البيت الكريم هو المعروف عند الكافة وتلقاه فضلاء عصرهم بالقبول وأثبتوه في تقريضاتهم ومؤلفاتهم الموضوعة في أخبارهم ومن الناس من يطعن في ذلك ونقله بعضهم عن الشيخ أبي العباس المقري صاحب نفح الطيب وانه صحح أنهم من بني سعد بن بكر بن هوازن الذين منهم حليمة السعدية ظئر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا النقل ضعيف لان الشيخ المقري صرح في نفح الطيب

بشرف

بشرف هؤلاء السادة في غير موضع وهو من آخر ما ألف ومن طعن في نسبهم المولى محمد ابن الشريف
السجلماسي أول ملوك السادة العلويين صرح بذلك في بعض الرسائل التي كانت تدور بينه وبين
الشيخ ابن زيدان منهم قال فيها وقد اعتمدنا في ذلك يعني في عدم شرفهم على ما نقله الثقات المؤرخون
لأخبار الناس من علماء مراكش وتلمسان وفاس ولقد أمعن الكل التأمل بالذكر والفكر فما
وجدوكم إلا من بني سعد بن بكر اهـ ﴿ويحكى﴾ شائعا عن الفقيه الورع المولى أبي محمد عبد الله بن علي بن
طاهر السجلماسي وكان من أهل الصلاح والدين أنه كان ذات يوم جالسا مع المنصور السعدي في بعض
قصوره من حضرة مراكش وهما مجتمعان على خوان طعام فقال المنصور للشيخ أبي محمد أين اجتمعنا
يا فقيه يعني في النسب فقال أبو محمد على هذا الخوان ويروى في هذا المشور فأسرها المنصور في نفسه ولم
يبدها إلى أن احتال عليه بما كان السبب في اتلاف مهجته فكان المنصور بعد ذلك يدعو الشيخ أبا
محمد فيجلسه على الرخام في زمان كلب البرد ويجانه من غير حائل وقد اتخذ المنصور فيما زعموا لبدة
صوف داخل سراويله لا يحس معها بالبرد فإذا رآه أبو محمد جالسا معه تجلد واستحيا أن يقوم عن
السلطان ويتركه ويستمران على المذاكرة في مسائل العلم فعل ذلك به أياما حتى سكنته علة البرد فلم يزل أبو
محمد يشتكي من ذلك إلى أن قضت عليه وأنكر هذا صاحب نشر المثاني ورده بتأخر وفاة ابن طاهر عن
وفاة المنصور بأكثر من ثلاثين سنة وجواب أبي محمد هذا من النوع البياني المسمى بتلقي المخاطب بغير
ما يترقب على ما هو معروف في كتب الفن وإنما سأله المنصور لما اشتهر من أن السعديين يزعمون أن
جدهم قدم من ينبع أيضا كما قدم جد العلويين والعلويون ينكرون ذلك كل الانكار ويقولون
إنهم لم يجتمعوا معهم في قبيل ولا دبير ﴿قال اليفرني﴾ لكن صح لنا خبر واحد من أشياخنا أن الشيخ ابن
طاهر رجع عن ذلك الانكار وأن المنصور أطلعه بعد ذلك على ظهير فيه خط الإمام ابن عرفة وشيخه ابن
عبد السلام بثبوت نسبهم فاطمأنت نفس ابن طاهر لذلك فكان يصرح بصحة نسبهم بعد ذلك ويزجر من
يطعن فيه اهـ ﴿قلت﴾ وهذا هو الصواب إذ مستند من يطعن في نسبهم عدم وضوحه ولا يلزم من
عدم وضوحه عدم ثبوته في نفس الأمر وإلا فيبعد أن يكون هؤلاء المنكرون قد اطلعوا على أحوال
عمود نسبهم وما اشتمل عليه من الآباء والأجداد من لدن مبدئه إلى منتهاه مع طول المدة وتناسخ الأجيال
فالتنقير عن ذلك عسير جدا وإذا وكل الشارع أمر الأنساب إلى أهلها وجعلهم مصدقين فيها إذ لا تعرف
غالبا إلا من قبلهم فهؤلاء السادة الزيدانيون لو فرضنا أنهم ما كانوا ملوكا ولا بلغوا من الشهرة إلى
حيث بلغوا ثم ادعوا هذا النسب الكريم فلا سبيل لأحد أن يدفعهم عنه بقاطع ولا قاطع كما علمت نعم
الحكاية المسوقة في سبب دخولهم إلى المغرب يظهر عليها أثر الصنعة والله أعلم بحقائق الأمور ﴿وأما
تسميتهم بالسعديين﴾ فقد قال اليفرني إن هذه النسبة لم تكن لهم في القديم ولا وقعت بها تحليتهم في
ظهائرهم ولا في سجلاتهم وصدور رسائلهم بل كانوا لا يقبلون ذلك ولا يجترئ أحد على مواجهتهم به لأنه
إنما وصفهم بذلك من يقدح في نسبهم ويطعن في شرفهم ويزعم أنهم من بني سعد بن بكر كما قلنا وكثير من
العامة وإخوانهم من الطلبة يعتقدون أنهم إنما سموا بذلك لأن الناس سعدوا بهم ونحو ذلك مما لا معنى
له اهـ ﴿قلت﴾ وإنما نصفهم نحن بذلك لأنهم اشتهروا عند الخاصة والعامة به فصار كالعلم الصرف
المرتجل مع أنه لا محذور بعد تحقيق النسب وثبوت الشرف والله تعالى يلهمنا الصواب بمنه وفضله

## ﴿الخبر عن دولة الأمير أبي عبد الله محمد القائم بأمر الله وبيعته والسبب فيها﴾

﴿قال ابن القاضي في درة السلوك﴾ لم يزل أسلاف السعديين مقيمين بدرعة إلى أن نشأ منهم أبو عبد الله
محمد القائم بأمر الله فنشأ على عفاف وصلاح وحج البيت الحرام وكان مجاب الدعوة ولقي جماعة من العلماء

الاعلام والعلماء العظام في وفادته على الحرمين الشريفين أخبرني بعض الفضلاء أنه لقي رجلا صالحا
بالمدينة الشريفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام فأشار له بما يكون منه ومن ولديه وكان قد رأى رؤيا
وهي أن أسدين خرجا من احليله فتبعهما الناس الى ان دخلا صومعة ووقف هو ببابها فعبرت له رؤياه بانه
سيكون لولديه شأن وانهما يملكان الناس ثم رجع الى المغرب وهو معلن بالدعوة فيقول في كل محفل ان
ولديه سيملكان المغرب وسيكون لهما شأن من غير تردد منه ثقة بخبر الرجل الصالح وبرؤياه المذكورة فما
زال الى أن قام سنة خمس عشرة وتسعمائة اه ﴿وقال صاحب زهرة الشماريخ ما صورته﴾ ان سبب
قيام أبي عبد الله القائم ان أهل السوس أحاط بهم العدو الكافر ونزل بجوانبهم من كل جهة حتى أظلم
الجو واستحكمت شوكة البرتقال وبقي المسلمون في أمر مريج لعدم أمير تجتمع عليه كلمة الاسلام لان بني
وطاس فشلت ريحهم يومئذ في بلاد السوس وانما كان لهم الملك في حواضر المغرب ولم يكن لهم منه
بالسوس الا الاسم مع ما كانوا فيه من قتال العدو بطنجة وآصيلا وحجر بادس وغيرها من ثغور بلاد الهبط
فلما رأى قبائل السوس ما دهمهم من تفاقم الاحوال وكثرة الاهوال وطمع العدو في بلادهم ذهبوا الى
الشيخ الصالح أبي عبد الله محمد بن مبارك الاقاوي نسبة الى آقة من بلاد السوس فذكروا له ما هم فيه من
افتراق الكلمة وانتشار الجماعة وكلب العدو على مباكرتهم بالقتال ومراوحتهم وطلبوا منه أن يعقدوا
له البيعة وتجتمع كلمتهم عليه فامتنع من ذلك وقال ان رجلا من الاشراف بتاجدارت من درعة يقول أنه
سيكون له ولولديه شأن فلو بعثتم اليه وبايعتموه كان أنسب بكم وأليق بمقصودكم فبعثوا اليه وكان من
أمره ما كان ﴿وقال اليفرني﴾ رأيت بخط الفقيه العلامة أبي زيد عبد الرحمن ابن شيخ الجماعة أبي محمد عبد
القادر الفاسي ما صورته ذكر لنا الوالد عن سيدي أحمد بن علي السوسي البوسعيدي أن ابتداء دولة
الشرفاء بالسوس ان بعض السادة وهو سيدي بركات توسط في فداء بعض الاسارى وأراد أن يكون مع
النصارى اتفاق على ان لا يحبسوا أسيرا فكلمهم في ذلك فقالوا له حتى يكون لكم أمير فان ملككم قد
ذهب واضمحل قال ثم ان بعض أهل السوس ساروا الى قبيلة جسيمة يكتالون الطعام فاخذتهم جسيمة
وأكلوا امتاعهم وبضاعتهم فذهبوا الى شيخهم وكان ذا حزم وتدبير فرد عليهم كل ما ضاع لهم حتى لم يبق
لهم شيء فلما رجعوا الى بلادهم قالوا ان هذا الشيخ الرئيس هو الذي يليق أن نبايعه فاجتمعوا وأتوه
وطلبوا منه أن يرأسهم فامتنع واحتاط لدينه واعتذر بتشويش هذا الامر للدين ودلهم على رجل
شريف كان مؤذنا بدرعة فقال لهم ان كان ولا بد فاقصدوا الشريف الفلاني فانه يذكر أن ولديه يملكان
المغرب فقصدوه وجاءوه الى بلادهم وبايعوه وفرضوا له من المؤنة ما يكفيه وأولاده وبقي هنالك في نحر
العدو اه (ويروى) أنه لما بايعه أهل السوس ورأى قلة ما بيده مع أن الملك لا يقوم الا بالمال احتال بان
أمر أهل السوس أن يأتوه ببيضة لكل كانون فاجتمع له من ذلك آلاف من البيض لا تحصى لان الناس
استهونوا أمر البيضة فلما اجتمع عنده البيض أمر أن كل من أتى ببيضة يأتي بدلها بدرهم ففعلوا فاجتمع
له من ذلك مال وافر فأصلح به شأنه وقوي به جيشه وكانت تلك أول نائبة فرضت في دولة السعديين والله أعلم
﴿وقال ابن القاضي﴾ أن الامير أبا عبد الله القائم لما اجتمع بالشيخ ابن مبارك ببلده آقة وذلك سنة خمس
عشرة وتسعمائة على ما مر فاوضه في شأنه ثم عاد الى مقره من درعة ثم في سنة ست عشرة بعدها بعث اليه
فقهاء المصامدة وشيوخ القبائل ودعوه الى توليته عليهم وتسليم الامر اليه فلبى دعوتهم وجاء الى قرية
يقال لها تيدسي قرب تارودانت فبايعه الناس بها وأصبحوا معه بقلوب متفقة وأهواء على الجهاد
مجتمعة اه وقد ساق منويل أولية هذه الدولة مساقا غريبا ولا يخلو عن فائدة فلنذكر منه ما يقرب
الى الصحة ويكون كالشرح لما مضى أو يأتي من أخبار هذه الدولة قال لما كان السلطان أبو عبد الله
الوطاسي يعني البرتقالي أميرا بفاس ظهر في درعة رجل شريف يعني أبا عبد الله محمدا القائم بامر الله قال

وكان

وكان هذا الشريف من قراء القرآن ومن أهل العلم والدين والفقر والخمول ولم يكن من بيت الرياسة وكان له اطلاع على تواريخ قطره وعوائد جيله وأخلاقهم وطبائعهم ورأى ما وصل اليه ملك المغرب من الانحطاط والضعف وتيقن أنه لا يصعب عليه تناوله فأعمل في ذلك فكره ومكره وصار يحض الناس على القيام بأمور دينهم والامتعاض لها وكان قد بعث ثلاثة من أولاده وهم عبد الكبير وأحمد ومحمد الى الحجاز بقصد الحج وكانت لهم فصاحة ورجاحة ومعرفة بادارة الكلام فظهر لهم ناموس في تلك البلاد وأحبهم الناس لا سيما أحمد ومحمد ولما رجعا من مكة أقاما بفاس وهي يومئذ دار الملك وترتب أحمد في مجلس بالقرويين لتدريس العلم فاكتسب بذلك جاها وتقرب محمد الى السلطان حتى صار مؤدبا الاولاده وبقيا على ذلك مدة وهما في ذلك كله يتحببان الى الناس ويسعيان في مذاهب الشهرة والبرتقال في أثناء ذلك ملح على الثغور وواستولى عليها من أهلها ولم تكن تقوم للمسلمين معه راية فدعا ذلك الاخوين أحمد ومحمدا الى أن ندبا السلطان وهو أبو عبد الله البرتقالي الى المناداة في الناس بالجهاد اظهارا للنصح وهما يسران حسوا في ارتغاء وقصدهما تفرقة الكلمة على السلطان لا غير فاغتر السلطان بنصحهما وقال لهما لا أحد أولى منكما بالقيام بهذه الوظيفة فأجاباه الى ذلك عن توفر داعية وكمال رغبة فأرسلهما يناديان ويستنفران الناس في نواحي المغرب الى الجهاد ويحضان الناس عليه ويخطبان بذلك في المحافل ويعظان وتتبعا الحواضر والبوادي وتقريا الاحياء والمداشر والقرى الى ان وصلا الى درعة حيث أبوهما وأخوهما عبد الكبير فاجتمعا بهما وذاكراهما في أمرهما وانهما قد أشرفا على المراد وكادا يلجان الملك من بابه لان أهل تلك البلاد كانوا سامعين لهم من قبل اليوم فكيف بهم اليوم فحينئذ أخذ الاب وأولاده في نشر معائب الدولة للعامة ويقررون ذلك بفصاحتهم وجاههم وما أوتوه من القبول وعضدهم على ذلك شيوخ البلد وتبعهم الناس واجتمعوا عليهم من كل جهة وصار حالهم ينمو شيأ فشيأ الى ان استبدوا على السلطان ولم يرجعوا اليه بعد ﴿وقال في نشر المثاني﴾ كان السبب في قيام الشرفاء الزيدانيين واستبدادهم بملك المغرب أن الحرب نشبت بين النصارى وأهل السوس ودامت وكان بنو وطاس يمدون أهل السوس بالمال والعدد فاتفق ان خرج الشريفان محمد الشيخ وأخوه أحمد الاعرج للجهاد مع أهل السوس فظهر مكانهما في الجهاد فلما وفدا على الوطاسي تلقاهما بالرحب وأقبل عليهما لاجل قيامهما بالجهاد وأعطاهما عدة وخيولا كثيرة فرجعا الى جهادهما ثم عادا اليه مرة أخرى فأعطاهما مثل ذلك وكانت لهما وقائع في النصارى ونكاية وظهور وصارا يكتبان الى القبائل فيساعدونهما على ذلك حتى اجتمعت عليهم جموع عديدة فحينئذ خلعا طاعة الوطاسي ودعوا الانفسهما اه ﴿قال منويل﴾ وكان أكثر شهرة أمرهم بالسوس الاقصى ودرعة وأعمالها وصاروا يرفعون اليهم زكواتهم وأعشارهم ثم بايعوهم ونهض هؤلاء الاشراف الى تارودانت فاستولوا عليها وحصنوها ثم زحفوا الى آكادير لحرب البرتقال فقاتلوه مدة ولم يفتح لهم وكانوا يشيعون أنهم لا قصد لهم الا في الجهاد ومحاربة عدو الدين ومن هو سلم له من المسلمين اذلم يتأت لهم اذ ذاك التصريح بخلع السلطان ﴿وفي سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة﴾ تجاوزوا جبل درن الى بلاد حاحة والشياظمة ثم دخلوا بسيط عبدة وكان باسفي رجل متنصر اسمه يحيى بن تافوت احتمى بالبرتقال من السلطان وكان معروفا بالشجاعة واتصل خبره بطاغية البرتقال منويل فولاه على النصارى وعلى أتباعه من المسلمين تأليفا له ولما زحف الاشراف الى بلاد عبدة كان بينهم وبين يحيى المذكور ونصاراه معركتان شديدتان وكان الظهور فيهما ليحيى لكن أبو العباس أحمد الاعرج تدارك أمره فورا وجمع عسكرا آخر وخطبهم ووعظهم وزحف الى يحيى المذكور ففضه وفض نصاراه الى ان انحجروا باسفي وأغلقوه عليهم وأتيح لاحد عليهم مالم يتقدم لغيره فيهم فبذلك تأتى له أن يتناول ملك المغرب ولما اتصل خبر هذا الظهور له بالسلطان الوطاسي لم يعجبه ذلك وظهر له ان ما كان أحمد وأخوه يحاولانه من أمر

الجهاد لم يكن ظاهره كباطنه وحقق له ذلك ما فعلوه من تحصين تارودانت مع ما كان لابيهم من نفوذ الكلمة بالسوس وكان فى هذا التاريخ بمراكش وأعمالها عامل اسمه ناصر بوشنتوف وكان مستبدا على الوطاسي و يبذل له شيأ تافها يتقيه به ولما امر به هؤلاء الاشراف فى أول أمرهم داعين الى الجهاد أحسن اليهم غاية ولما أوقعوا وقعة آسفي أبرموا أمرهم مع ناصر أبي شنتوف وأظهروا له المحبة والموالاة وطلبوا منه أن يظاهرهم على جهاد العدو وأن يكونوا يدا واحدة وجندا واحدا عليه فأسعفهم وقدموا مراكش فدخلوها مرة ثانية وأحسن اليهم وبعد أيام خرجوا به للصيد فسموه فى خبز صغير يسمى القريشلات فهلك للحين وصفا للاشراف مراكش وأعمالها اذ كان أهلها قد أحبوهم وشرهوا اليهم ولما تم لهم أمر درعة والسوس ومراكش تسمى أحمد باسم الامير واستخلف أخاه محمد الشيخ ولما اتصل الخبر بالوطاسي وانهم استولوا على مراكش أقلقه ذلك ومن مكر أحمد انه بعث اليه يقول ما أنا الا واحد من عمالك وما كان يعطيه أهل هذه البلاد أبذله لك مضاعفا ومع ذلك لم يطمئن اليه ثم هلك الوطاسي وولى مكانه ابنه أبو العباس أحمد وانقسمت مملكة المغرب فصارت فاس للوطاسي ومراكش وأعمالها لابي العباس الاعرج وتارودانت والسوس ودرعة لمحمد الشيخ وأما عبد الكبير فانه كان استشهد قبل هذا فى حرب البرتقال قرب آسفي ولما رأى أبو العباس الوطاسي استفحال أمر الاشراف وانهم أمسكوا عنه ما وعدوا بأدائه لابيه عزم على حربهم فجمع عسكرا عظيما وزحف الى مراكش فتحصن أحمد الاعرج بها وقدم عليه أخوه فظاهره على عدوه وفى أثناء حصار الوطاسي لمراكش اتصل به الخبر بان أهل فاس قد قاموا عليه وبايعوا بعض اخوته فرجع الى فاس وقبض على أخيه الثائر عليه ثم كر الى مراكش بعسكر أعظم من الاول وفى هذه المرة برز اليه الاشراف خارج البلد ثم تقدموا اليه فكان اللقاء على أبي عقبة من تادلا ووقعت بينهم حرب هائلة لان الوطاسيين كانوا يرون ان هذه الحرب هى الفيصل بينهم وبين عدوهم والاشراف كذلك وحضر هذا الحرب أبو عبد الله ابن الاحمر سلطان الاندلس المخلوع وأبلى بلاء حسنا حتى قتل وكان الظهور للاشراف ورجع الوطاسي مفلولا الى فاس وترك محلته بما فيها من مدافع وغيرها بيد عدوه وبعد هذه الوقعة استولى الاشراف على تافيلالت وملكوا آكادير وآسفي وآزمور لان البرتقال كانوا قد تخلوا عنها ثم عن قريب حدث بين الاخوين النفرة وحاول رجال دولتهما الوفاق بينهما فلم يتفقا وكانت الكرة على أحمد وقتل ابنه زيدان الذى كان عضد أبيه فى الحروب الى تافيلالت فاستولى عليها واقتطعها عن عمه محمد الشيخ ثم زحف الشيخ الى فاس فحاصرها الى ان قبض على الوطاسيين وغربهم الى درعة اه كلام منويل * ثم نرجع الى سياقة الخبر عن هذه الدولة حسبما عند اليفرني وغيره

## ﴿أخبار الامير أبي عبد الله القائم فى الجهاد وما هيأ الله له من النصر فيه﴾

لما استتب أمر الامير أبي عبد الله القائم واجتمعت كلمة القبائل السوسية عليه ندب الناس الى مقارعة البرتقال وجهاده ونفيه عن ثغور المغرب وبلاده وكانت معه بومئذ جموع حافلة من المسلمين فقدم بها على النصارى وناوشوهم الحرب فاتاح الله للامير أبي عبد الله الفتح والنصر ونثر أشلاء الكفار بمخالب الظفر وأخرج حية البغي من جحرها وأعاد كلمة الاسلام الى مقرها فلما رأى المسلمون ذلك تيمنوا بطلعته وتفاءلوا بطائره الميمون ونقيبته وزادهم ذلك محبة فى جانبه وتعظيما لمكانته ولما فصل من جهاده عاد الى محله المذكور من تيدسي فوقع بينه وبين بعض الرؤساء هنالك منافرة أدت الى ارتحاله عنها وعوده الى درعة فلم يزل مقيما بها الى سنة ثمان عشرة وتسعمائة فرجع الى مكانه من تيدسي واطمأنت به دارها وأزال الله عنه ما كان أزعجه عنها والله غالب على أمره

## ﴿عقد الامير أبي عبد الله القائم ولاية العهد لابنه أبي العباس الاعرج رحمهما الله تعالى﴾

قد تقدم لنا ما كان من أمر الرؤيا التي رآها الامير أبو عبد الله القائم في شأن ولديه وانهما علكان المغرب ﴿وفي معنى ذلك أيضا﴾ ما يحكى شأنها ان ولدي أبي عبد الله المذكور وهما أبو العباس الاعرج وأبو عبد الله الشيخ كانا يقرآن في مكتب وهما صبيان فدخل ديك فوثب على رأس كل منهما وصرخ فأول ذلك مؤدبهما بانهما سيكون لهما شأن فمن أجل هذا ونحوه كان والدهما يعلن بان أمر المغرب صائر اليهما فلما قضى الله ببيعته واجتماع الناس عليه واطمأنت به في البلاد السوسية الدار وطاب له بها المقام والقرار ندب الناس الى بيعة أكبر ولديه وهو الامير أبو العباس أحمد المعروف بالاعرج فبايعوه وكان ذلك مبدأ ظهور أمره على ما نذكره ان شاء الله تعالى

## ﴿انتقال الامير أبي عبد الله القائم الى آفغال من بلاد حاحة ووفاته بها رحمه الله﴾

ثم ان أبا عبد الله القائم وفد عليه أشياخ حاحة والشياظمة لما بلغهم من حسن سيرته ونصرة لوائه فشكوا اليه أمر البرتغال ببلادهم وشدة شوكته واستطالته عليهم وطلبوا منه أن ينتقل اليهم هو وولده ولي العهد المذكور فأجابهم الى ذلك ونهض معهم هو وابنه أبو العباس الى الموضع المعروف بآفغال من بلاد حاحة وترك ولده الاصغر أبا عبد الله الشيخ بالسوس يرتب الامور ويعهد الممالك ويباكر العدو بالقتال ويراوحه واستمر الامير أبو عبد الله القائم بمكانه من آفغال مسموع الكلمة متبوع العقب الى ان توفي به سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ودفن هنالك بازاء ضريح الشيخ أبي عبد الله محمد بن سليمان الجزولي رضي الله عنه الى ان نقل الى مراكش بنقل الشيخ المذكور على ما يأتي ان شاء الله

## ﴿الخبر عن دولة السلطان أبي العباس أحمد الاعرج ابن الامير أبي عبد الله القائم رحمه الله﴾

كانت ولادة السلطان أبي العباس الاعرج فيما حققه ابن القاضي سنة احدى وتسعين وثمانمائة وبويع بولاية العهد من أبيه سنة ثمان عشرة وتسعمائة كما مر ولما توفي أبوه في التاريخ المتقدم اجتمع الناس على بيعته من سائر الآفاق وآتوه طاعتهم عن رضا منهم واصفاق فاستقام أمره وصرف عزمه الى تمهيد البلاد واقتناء الاجناد وتعبية الجيوش الى الثغور وشن الغارات على العدو في الآصال والبكور في أحواز تيلمست وآسفي وغيرهما وكان النصارى قد خيموا بشاطئ البحر وعاثوا في تلك السواحل فأجلاهم عنها وطهر تلك البقاع من رجسهم وأراح أهلها من شؤمهم ونحسهم وفي ذلك يقول الفقيه مخلوف بن صالح يمدحه

فلله هذا الهاشمي وفضله ✱ فلولاه صال الكفر أعظم صولة

## ﴿دخول السلطان أبي العباس الاعرج مراكش واستيلاؤه عليها﴾

لما كان من ايقاع السلطان أبي العباس بنصارى السوس وانتصاره عليهم ما ذكرناه بعد صيته وانتشر في البلاد ذكره وأهرع الناس اليه من كل جانب ودخلت في طاعته سائر البلاد السوسية فعند ذلك كاتبه أمراء هنتاتة ملوك مراكش يخطبون أمره ويرومون الدخول في طاعته فأجاب داعيهم وانتقل الى مراكش فدخلها في حدود الثلاثين وتسعمائة واستولى عليها وكان من أمره ما نذكره

## ﴿نقل الشيخ الجزولي رضي الله عنه من مدفنه بآفغال الى مراكش والسبب في ذلك﴾

قد تقدم لنا في أخبار عمرو السياف أنه كان في ابتداء أمره من أصحاب الشيخ الجزولي هذا وانه لما توفي الشيخ المذكور جعل جثته في تابوت وصار يستنصر به في حروبه مدة من عشرين سنة أو نحوها ثم دفن

الشيخ بعد ذلك بأتي فقال وتقدم لنا ان الامير أبا عبد الله القائم لما توفى دفنه ابنه أبو العباس بازاء هذا الشيخ ثم لما ملك أبو العباس المذكور مراكش نقل الشيخ الجزولى اليها ونقل أباه معه فدفنه بقربه أيضا واختلف فى سبب ذلك فقيل ان السلطان المذكور خاف أن يثور عليه أحد بتلك البلاد فيستخرج الشيخ من ملحده و ينتصر عليه به فنقله الى مراكش ليأمن من ذلك وقيل ان الحامل له على نقله انه ذكر له ان تحته كنزا فتعلل للنبش عنه بأنه قصد نقله الى الحضرة تبركا به والله أعلم وكان ذلك كله فى حدود الثلاثين وتسعمائة

## مجىء السلطان أبى عبد الله الوطاسى الى مراكش وحصاره للسلطان الاعرج بها ثم اقلاعه عنها

لما استولى السلطان أبو العباس الاعرج على مراكش وصفا له أمرها اتصل خبره بصاحب فاس أبى عبد الله الوطاسى المعروف بالبرتقالى فاقبل فى جموع عديدة مع وزيره ابن عمه المسعود ابن الناصر و يقال مع أخيه الناصر فلما رأى السلطان أبو العباس ما لا قبل له به تحصن بمراكش وشحن أسوارها بالرماة والمقاتلة وزحف الوطاسى الى الحضرة فنصب الانفاض عليها والى الرمى عليها أياما واشتد الامر على الناس فكان من ذهابهم الى الشيخ الغزوانى وخروجه الى باب الخميس وقوله عند اصابة الرصاصة له انما هى خاتمة حربهم ما قدمناه فى أخبار الوطاسيين مستوفى ثم كان اللقاء بعد ذلك بين الفريقين انما يكون فى تادلا وأعمالها على ما مر والله أعلم

## خبر آسفى والثغور

رأيت فى تواريخ الفرنج أن البرتقال خرجوا من آسفى سنة ألف وخمسمائة وثلاثين مسيحية وهذا التاريخ يوافقه من سنى الهجرة سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة وهى وسط دولة السلطان أبى العباس وزعم هذا المؤرخ انهم خرجوا منها من قبل أنفسهم ونقلوا جميع ما كان فيها من عدة وأثاث الى الجديدة بعد ما خربوها وأفسدوها وأوقدوا فيها النار قال وبقيت اثنتى عشرة سنة وهى مخربة الى ان أصلحها السلطان محمد الشيخ يعنى السعدى الآتى ذكره وفى النزهة ما يقرب من هذا فانه قال بعد ذكر ايقاع السلطان أبى العباس بنصارى السواحل مانصه ويقال ان النصارى لما رأوا ما فعل بمن كان منهم بالسوس من القتل والسبى أخلوا ثغر آزمور ورباط آسفى وآصيلا من غير قتال ثم نقل هذا الخبر فى محل آخر عن ابن القاضى منسوبا الى أبى عبد الله الشيخ وسيأتى ذكره فى محله وأظن ان الاخلاء كان متكررا والله أعلم وعلى كل حال فذكر آصيلا هنا غير مناسب اذ هى يومئذ فى جهة الوطاسيين وتخومهم فبالنصارى انما يخرجون فرارا منها خوفا من السعديين وليسوا مجاورين لهم ولا متوقعين هجومهم عليهم ثم كان بعد هذا بين أبى العباس السعدى وأبى العباس الوطاسى من الحرب والسلم ما تقدم بيانه كوقعة أنماى ووقعة أبى عقبة وغيرهما مما لا فائدة فى اعادته

## حدوث النفرة بين الاخوين السلطان أبى العباس الاعرج ووزيره أبى عبد الله الشيخ وما نشأ عن ذلك

كان السلطان أبو العباس رحمه الله من الشهامة والصرامة واستعمال الامر بالمحل الذى وصفناه قبل وكان أخوه أبو عبد الله الشيخ أصغر سنا منه وكان تحت طاعته واقفا عند اشارته وكان السلطان أبو العباس يستشيره فى أموره و يفاوضه فى مهماته و يستعين بنجدته فى الزحوف والمعارك و يستضىء برأيه فى الحوادث الحوالك وكان الشيخ ثاقب الذهن نافذ البصيرة مصيب الرأى حازما شهما فكانت كلمتهما واحدة وأمرهما جميعا الى ان دخل الوشاة بينهما فأفسدوا قلوبهم وأفضى الحال الى المصافة والمقاتلة وانقسم الجند حزبين وانصرفت كل طائفة الى متبوعها وصاحب أمرها وتقاتلا مدة وكانت

جل القبائل السوسية صاغية الى الشيخ لما كان نشأ بين أظهرهم وسبروه من نجابته وكفايته منذ تركه أبوه عندهم عند انتقاله الى آفغال حسبما مر فاستفحل أمره وغلب على أخيه أبي العباس فقبض عليه واستولى على ما بيده واجتمعت كلمة أهل السوس عليه ثم أودع أخاه وأولاده السجن ووسع عليهم في الجرايات والنفقات وأصبح ملكا مستقلا بعد ان كان وزيرا وكان ذلك سنة ست وأربعين وتسعمائة ﴿وفي نشر المثاني﴾ أن قبض الشيخ على أخيه أبي العباس الاعرج كان سنة احدى وخمسين وتسعمائة والاول أصح ولم يزل السلطان أبو العباس وأولاده في حكم الثقاف الى ان قتل يوم مقتل أخيه الشيخ بعد ثمان عشرة سنة أو نحوها حسبما يأتي ان شاء الله وكانت دولته من يوم بويع الى ان قبض عليه أخوه ثلاثا وعشرين سنة وكان من حجابه محمد بن علي الانكراطي اليملالي ومحمد بن أبي زيد المنزاري ومن كتابه سعيد بن علي الحامدي رحمهم الله

## ﴿أمر زيدان ابن السلطان أبي العباس وما كان منه﴾

﴿قال صاحب درة الحجال﴾ اختلف الناس هل بويع لزيدان بن الاعرج بعد وفاة أبيه أم لا ﴿وقال شارح زهرة الشماريخ﴾ كان زيدان بن أبي العباس بسجلماسة وبويع له بها فلم يتم أمره وبقي الى ان توفي سنة ستين وتسعمائة

## ﴿الخبر عن دولة السلطان أبي عبد الله محمد المهدي المعروف بالشيخ ابن الامير أبي عبد الله القائم بامر الله﴾

كانت ولادة السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ سنة ست وتسعين وثمانمائة ويلقب بالشيخ وبامغار وهو الشيخ بالبربرية ويلقب من الالقاب السلطانية بالمهدي لقبه به غير واحد من أئمة عصره ونشأ في عفاف وصيانة وعني بالعلم في صغره وتعلق بأهدابه فاخذ عن جماعة من الشيوخ وبلغ فيه الى درجة الرسوخ

## ﴿فتح حصن فونتي وآسفي وآزمور وما قيل في ذلك﴾

لما استقل السلطان أبو عبد الله الشيخ بامر السوس واجتمعت كلمته عليه صرف عزمه الى جهاد العدو الذي بثغوره وحصونه وأرهف حده لتطهيرها من بقايا شغبه وزبونه فانتصر عليهم واستأصل شأفتهم وقطع من تلك النواحي دابرهم وحسم آفتهم ﴿قال ابن القاضي﴾ كان الشيخ رحمه الله ماضي العزيمة قوي الشكيمة عظيم الهيبة كثير الغزوات ذا همة عالية وشهامة غالية فعدّ قواعد الملك وأسس مبانيه وأحيى مراسم الخلافة الدارسة ومعالمها الطامسة وكان له سعد وبخت عظيم في الجهاد ويد بيضاء في الاسلام فتح حصن النصارى بالسوس يعني حصن فونتي بعد ان أقاموا فيه اثنتين وسبعين سنة وكان منصورا بالرعب حتى تركوا آسفي وآزمور وآصيلا من غير قتال ولا ايجاف عليهم اه ونحوه في تاريخ البرتقاليين زاد مؤرخهم أن ذلك كان باذن طاغيتهم صاحب أشبونة وقد تقدم نحو هذا في أخبار الاعرج والجواب عنه وكان فتح فونتي سنة سبع وأربعين وتسعمائة كما في النزهة وفتح آسفي سنة ثمان وأربعين بعدها كما في المرآة وعند البرتقاليين أن ذلك كان سنة ألف وخمسمائة واثنتين وأربعين مسيحية وهو موافق لهذا التاريخ الهجري ﴿وفي الدوحة﴾ لما أخلى النصارى آزمور تسارع اليها جماعة من الفقراء منهم الشيخ أبو محمد عبد الله الكوش دفين جبل العرض من فاس والشيخ أبو محمد عبد الله ابن ساسي دفين تانسيفت قرب مراكش فقعدوا بها يحرسونها حتى يأتي مدد المسلمين ومن يعمرها منهم مخافة أن يرجع اليها العدو فاذا به قد رجع واقتحمها عليهم وأسرهم الى ان افتكهم المسلمون ﴿قال منويل﴾ كان فداؤهما ألفي ريال ومائتي ريال بالتثنية فيهما ولما افتدى الشيخ الكوش وعزم على الخروج وكان أسيرا عند امرأة نصرانية ناولته كتبا للمسلمين وقالت له هذه كتب كانت عندي ولا حاجة لي

بها نخذها اليك فأخذها وخرج بها فى قفة على رأسه فكان من جملتها كتاب تنبيه الانام الموضوع فى الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فكان ذلك أول دخوله لهذه البلاد على يد الشيخ المذكور اه

## ﴿بناء حصن آكادير﴾

﴿قال الشيخ أبو العباس ابن القاضى﴾ فى كتابه المنتقى المقصور وكانت للامير السلطان أبى عبد الله الشيخ مآثر حسنة منها أنه أول من اختط مرسى آكادير بالسوس الاقصى سنة سبع وأربعين وتسعمائة لما أجلى النصارى من الموضع المعروف بفونتى على مقربة من آكادير المذكور وكان له فى اختطاطه رأى مصيب وفراسة تامة اه

## ﴿استيلاء السلطان أبى عبد الله محمد الشيخ على مراكش وتجديد البيعة له بها﴾

كان السلطان أبو عبد الله الشيخ بعد القبض على أخيه واستقلاله بالامر قد أقام بالبلاد السوسية مثابرا على جهاد العدو الى ان قلع عروق مفسدته منها وكانت مراكش فى هذه المدة قد توقفت عن بيعته وتربصت عن الدخول فى دعوته اتقاء للوطاسيين وارتيابا فى أمره الى ماذا يؤول واستمر الحال الى سنة احدى وخمسين وتسعمائة فانقادت له حينئذ وبايعه أهلها فقدمها واستولى عليها وخلص له جميع ما كان بيد أخيه المخلوع من تادلا الى وادى نول والله غالب على أمره

## ﴿نهوض السلطان أبى عبد الله محمد الشيخ لحرب بنى وطاس واستيلاؤه على مكناسة وما اتفق له فى ذلك﴾

لما استولى السلطان أبو عبد الله محمد الشيخ على مراكش وصفت له أعمالها طمحت نفسه للاستيلاء على بقية بلاد المغرب وأمصاره وقطع جرثومة الوطاسيين من سائر أقطاره فجمع الجموع وتقدم بها الى أعمال فاس فلم يزل يستفتحها بلدا بلدا ومصرا مصرا الى ان أتى عليها أجمع وكان أول ما ملك منها مكناسة الزيتون فانه افتتحها عقب سنة خمس وخمسين وتسعمائة بعد حصار وقتال كبير

## ﴿حصار السلطان أبى عبد الله الشيخ حضرة فاس ومقتل الشيخ عبد الواحد الوانشريسى رحمه الله﴾

كان السلطان أبو عبد الله الشيخ قد ألح على فاس بالقتال وحاصرها حصارا طويلا ولما عسر عليه أمرها بحث عن ذلك فقيل له لا سبيل لك اليها ولا يبايعك أهلها الا اذا بايعك ابن الوانشريسى يعنون الشيخ الفقيه أبا محمد عبد الواحد بن أحمد الوانشريسى رحمه الله فبعث اليه السلطان المذكور سرا ووعده ومناه فقال له الشيخ عبد الواحد بيعة هذا السلطان يعنى أبا العباس الوطاسى فى رقبتى ولا يحل لى خلعها الا لموجب شرعى وهو غير موجود وزعم بعضهم ان السلطان المذكور كتب الى أهل فاس يقول لهم انى ان دخلت فاسا صلحا ملأتها عدلا وان دخلتها عنوة ملأتها قتلا فأجابه ابن الوانشريسى بأبيات أغلظ له فيها نحو قوله

كذبت وبيت الله ما تحسن العدل * ولا خصك المولى بفضل ولا أولى كذا فى النزهة

﴿قلت﴾ وهذا البيت من أبيات قديمة والوانشريسى انما تمثل به لا غير فقد ذكر العلامة ابن خلدون فى أخبار بنى صالح بن منصور الحميرى أصحاب قلعة نكور لاول الفتح أن عبيد الله المهدى العبيدى صاحب افريقية لما تغلب على المغرب خاطب سعيد بن صالح منهم يدعوه الى أمره وكتب له فى أسفل كتابه

فان تستقيموا أستقم لصلاحكم * وان تعدلوا عنى أرى قتلكم عدلا

وأعلو بسيفى قاهرا لسيوفكم * وأدخلها عنوا وأملؤها قتلا

فأجابه سعيد بن صالح بأبيات من نظم شاعره الطليطلى نصها

كذبت وبيت الله ماتحسن العدلا * ولاعلم الرحمن من قولك الفصلا
وما أنت الا جاهـــل ومنافق * تمثـل للجهال فى السنة المثلى
وهمتنا العليا بدين محمـــد * وقدجعل الرحمن همتك السفلى

فلعل الشيخ كتب لاهل فاس بالبيتين الاولين والونشريسى كان مطلعا على القضية فأجابه بجوابهما ولما بلغ ذلك السلطان الشيخ حقد على الونشريسى ودس الى جماعة من المتلصصة بان يأخذوه و يأتوا به الى محلته محبوسا من غير قتل وكان الشيخ عبد الواحد يقرأ صحيح البخارى بجامع القرويين بين العشاءين و ينقـل عليه كلام ابن حجر فى فتح البارى و يستوفيه لانه شرط المجلس فقال له ابنه يا أبت انى قد سمعت أن اللصوص أرادوا الفتك بك فى هـذه الليـلة فلو تأخرت عن القراءة فقال له الشيخ أين وقفنا البارحة قال على كتاب القدر قال فكيف نفر من القـدر اذا ذهب بنا الى المجلس فلما افترق المجلس خرج الشيخ عبد الواحد من باب الشماعين أحد أبواب المسجد المذكور فثار به اللصوص وأرادوا حمله فأخذ باحدى عضادتى الباب فضرب أحدهم يده فقطعها واجهز عليه الباقون فقتلوه بباب المسجد المذكور فى السابع والعشرين من ذى الحجة سنة خمس وخمسين وتسعمائة ﴿وقال الشيخ المنجور فى فهرسته﴾ واشتهر عن الفقيه الصالح أبى عبد الله محمد بن ابراهيم المدعو ببى شامة أنه رأى الشيخ عبد الواحد فى المنام بعد مقتـله فسأله عن حاله فانشأ يقول

لقد عمنى رضوان ربى وفضله * ولم أر الا الخير فى وحشة القبر
وانى أسأل الاله بفضـــله * ليحفظنى يوم الخروج الى الحشر
وما بعد ذلك من أمور عسيرة * كنشر الكتاب والمرور على الجسر

## ﴿استيلاء السلطان أبى عبد الله الشيخ على فاس وقبضه على الوطاسيين وتغريبهم الى مراكش﴾

ثم ان السلطان أبا عبد الله الشيخ جد فى حصار فاس وألح عليها بالقتال الى ان ملكها واحتوى عليها ﴿قال فى الدوحة﴾ لما ألح السلطان الشيخ بالحصار على فاس جاءه الشيخ أبو الرواين المحجوب وقال له اشترمنى فاسا بخمسمائة دينار فقال له السـلطان ما أنزل الله بهذا من سلطان هـذا شئ لم تأت به الشريعـة فقال والله لادخلتها هذه السـنة فبقى أشهرا والامر لا يزداد الا شـدة فقال ابن السـلطان وهو الامير أبو محمـد عبد القادر ابن الشيخ لابيه يا أبت افعـل ما قال لك الشـيخ أبو الرواين فانه رجل مبارك من أولياء الله تعالى ولم يزل به حتى أذن له فى الكلام معـه فكلمه الامير عبـد القادر فقال له ادفع المال فدفعه اليـه فقال له عند تمام السـنة يقضى الله الحاجة وأمرى بامره سبحانه ثم ان الشيخ أبا الرواين فرق المال من يومه ولم يمسك منه لنفسه حبة ومن ذلك اليوم والسلطان المذكور فى الظهور الى ان انقضت السـنة فدخل فاسا كما قال اه ﴿وقال صاحب الممتع﴾ والشـيخ أبو الرواين هو كان أحد الاسباب فى تمكن السـلطان المذكور من الملك واخراج بنى وطاس عنـه فانه لما رأى اضطراب أمر الناس وهيجان النصارى على المسلمين جعـل ينادى يا حران جئ فانى قد أعطيتك الغرب وذلك قبل ظهور السـعديين ولم يكن النـاس يدرون ما يقول حتى ظهـر الحران وهو أحـد أولاد السلطان أبى عبـد الله الشيخ وهو الذى كان يتقدم للحرب ولم يفتح والده من البـلاد الا ما فتح له على يده وكان دخول السـلطان الشيخ الى فاس سـنة ست وخمسين وتسـعمائة ولما دخلها تقبض على الوطاسـيين أجمع و بعثهم مصـفدين الى مراكش عدا أبا حسون منهم فانه فر الى الجزائر مستجيرا بترکها مستصرخا بهم ﴿وقال اليفرنى﴾ لما دخل الشـيخ حضرة فاس دخلها وعليـه وعلى أصحابه الدراعات الصفر وسمة البداوة لائحة عليهم فحملوا أنفسهم على التأدب بآداب الحاضرة والتخلق بأخلاقهم يعنى حتى رسخ فيهم ذلك والله أعلم

## ﴿نهوض السلطان أبي عبد الله الشيخ الى تلمسان واستيلاؤه عليها﴾

قد قدمنا ما كان من استيلاء حسن بن خير الدين التركي على تلمسان وانقراض دولة بني زيان منها سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة فلما افتتح أبو عبد الله الشيخ حضرة فاس في التاريخ المتقدم تاقت نفسه الى الاستيلاء على المغرب الاوسط وكان يعز عليه استيلاء الترك عليه مع انهم أجانب من هذا الاقليم ودخلاء فيه فيقبح بأهله وملوكه أن يتركوهم يغلبون على بلادهم لاسيما وقد قرّ اليهم عدوّ من أعدائه وعيص من أعياص أقتابه وهو أبو حسون الوطاسي فرأى الشيخ من الرأي واظهار القوّة في الحرب أن يبدأهم قبل أن يبدؤه فنهض من فاس قاصدا تلمسان في جموعه الى ان نزل عليها وحاصرها تسعة أشهر وقتل في محاصرتها ولده الحران وكان نابا من أنيابه وسيفا من سيوفه ثم استولى الشيخ على تلمسان ودخلها يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى الاولى سنة سبع وخمسين وتسعمائة ونفى الترك عنها وانتشر حكمه في أعمالها الى وادي شلف واتسعت خطة مملكته بالمغرب ودانت له البلاد ثم كرت عليه الاتراك وأخرجوه من تلمسان فعاد الى مقرّه من فاس ثم عاود غزو تلمسان حين بلغه قيام رعاياها على الترك وانحصار الترك بقصبتها فاقام مرابطا عليها أياما فامتنعت عليه وأقلع عنها ولم يعاود غزوها بعد ذلك وخلص أمرها الى الترك على ما نذكره

## ﴿امتحان السلطان أبي عبد الله الشيخ أرباب الزوايا والمنتسبين والسبب في ذلك﴾

لما كانت سنة ثمان وخمسين وتسعمائة أمر السلطان أبو عبد الله الشيخ بامتحان أرباب الزوايا والمتصدّرين للمشيخة خوفا على ملكه منهم لما كان للعامة فيهم من الاعتقاد والمحبة والوقوف عند اشاراتهم والتعبد بما يتأولونه من عباراتهم ألا ترى أن بيعة والده أبي عبد الله القائم لم تنعقد الا بهم ولا ولج بيت الملك الا من بابهم فامتحن جماعة منهم كالشيخ أبي محمد الكوش فاخلى زاويته بمراكش وأمر برحيله الى فاس ﴿وفي الدوحة﴾ لما امتحن السلطان أبو عبد الله الشيخ زوايا المغرب قيل لابي علي الحسن بن عيسى المصباحي دفين الدعادع التي على وادي مضى من عمل القصر ألا تخشى من هذا السلطان فقال انما الخشية من الله ومع هذا فالماء والقبلة لا يقدر أحد على نزعهما والباقي متروك لمن طلبه وكان السلطان المذكور يطالب أرباب الزوايا بودائع أمراء بني مرين ويتهمهم بها وبعث خديمه يوما الى الشيخ أبي عثمان سعيد بن أبي بكر المشنتراني دفين مكناسة يطالبه بشئ من ذلك فوجده جالسا بناحية زاويته يضفر الدوم واذا بطائر له اللقلاق سلح أمامه فارفع أبو عثمان بصره حتى سقط الطائر ميتا متطاير الريش فلما رأى الخديم ذلك فزع وولى هاربا قاله في الممتع والله تعالى أعلم

## ﴿وفادة الامام أبي عبد الله الخروبي من جانب دولة الترك في شأن قسم البلاد وتحديدها﴾

لما كان من السلطان أبي عبد الله الشيخ ما كان من غزوه تلمسان مرتين وكان يحدث نفسه بمعاودة غزو تلك البلاد عينت دولة الترك من جانبها الفقيه الصالح أبا عبد الله محمد بن علي الخروبي الطرابلسي نزيل الجزائر ودفينها للوفادة على السلطان المذكور في شأن عقد المهادنة وتحديد البلاد فقدم عليه الفقيه المذكور وهو بمراكش سنة احدى وستين وتسعمائة في هذا الغرض فأكرم السلطان أبو عبد الله وفادته الا انه لم تظهر ثمرة لقدمه ﴿وفي المرآة﴾ أن أبا عبد الله الخروبي قدم المغرب الاقصى مرتين في سبيل السفارة بين ملوك المغرب الاوسط والمغرب الاقصى فاخذ عنه كثير من أهل المغرب الاقصى وأخذ هو عن الشيخ زروق رحمه الله وفي قدمة الخروبي هذه الى مراكش أنكر على الشيخ أبي عمرو القسطلي دفين رياض العروس من مراكش حلق شعر التائب الذي يريد الدخول في طريق القوم وقال انه بدعة

فقالوا

فقالوا له ان الشيخ الجزولى كان يفعله فقال لهم اعمله باذن والاذن له لا يعمكم فان الاذن للنبى يعم أتباعه والاذن للولى لا يعم أتباعه وأنكر عليه مسائل كثيرة وبعث اليه برسالة أقذع له فيها وقد وقفت عليها رحم الله الجميع بمنه وتوفى الخروبى هذا سنة ثلاث وستين وتسعمائة ودفن خارج الجزائر والله أعلم

## ﴿قدوم أبى حسون الوطاسى بجيش الترك واستيلاؤه على فاس ونفيه الشيخ عنها﴾

قد قدمنا ما كان من استيلاء السلطان أبى عبد الله الشيخ على فاس سنة ست وخمسين وتسعمائة وقبضه على بنى وطاس وفرار أبى حسون الى الجزائر فلم يزل أبو حسون عند تركها الى ان قدم بهم مع باشاهم صالح التركمانى فاستولى على فاس ثالث صفر سنة احدى وستين وتسعمائة ونفى أبا عبد الله الشيخ عنها حسبما مر الخبر عنه مستوفى

## ﴿عود السلطان أبى عبد الله الشيخ الى فاس واستيلاؤه عليها﴾

لما فر السلطان أبو عبد الله الشيخ من وقعة الترك بفاس ووصل الى مراكش صرف عزمه لقتال أبى حسون فاستنفر قبائل السوس وجمع الجموع وزحف الى فاس فدارت بينه وبين سلطانها أبى حسون حروب شديدة كان فى آخرها الظفر للشيخ فقتل أبا حسون واستولى على فاس وصفا له أمر المغرب وقد تقدمت هذه الاخبار مستوفاة فى محلها وكان استيلاء السلطان الشيخ على فاس يوم السبت الرابع والعشرين من شوال سنة احدى وستين وتسعمائة ﴿وفى الدوحة﴾ أن دخول أبى حسون لفاس كان سنة ستين وتسعمائة وعود السلطان الشيخ اليها واستيلاؤه عليها كان فى ذى القعدة سنة ستين أيضا والله تعالى أعلم

## ﴿مقتل الفقيهين أبى محمد الزقاق وأبى على حرزوز والسبب فى ذلك﴾

لما استولى السلطان أبو عبد الله الشيخ على فاس فى هذه المرة أمر بقتل الفقيه الصالح قاضى الجماعة بفاس أبى محمد عبد الوهاب بن محمد بن على الزقاق لانه اتهمه بالميل الى أبى حسون ﴿ويحكى﴾ أنه لما مثل بين يديه قال له اختر بأى شئ تموت فقال له الفقيه اختر أنت لنفسك فان المرء مقتول بما قتل به فقال لهم السلطان اقطعوا رأسه بشاقور فكان من حكمة الله وعدله فى خلقه أن السلطان المذكور قتل به أيضا كما سيأتى ﴿وفى كتاب خلاصة الاثر﴾ أن الشيخ الزقاق كان يقول من قتل سوسيا كان كمن قتل مجوسيا فلما قبض عليه الشيخ قال له أنت زق الضلال فقال له لا والله بل أنا زق العلم والهداية ثم قتله وأمر أيضا بقتل خطيب مكناسة الزيتون الشيخ أبى على حرزوز المكناسى لكلام بلغه عنه وانه كان يذكره فى خطبه ويحذر الناس من اتباعه والانقياد اليه ويقول فى خطبته جاءكم أهل السوس الاقصى البعاد ثم يذكر الشيخ ويقول واذا تولى سعى فى الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد فى كلام غير هذا وكان مقتل الفقيهين المذكورين فى ذى القعدة سنة احدى وستين وتسعمائة

## ﴿ترتيب السلطان أبى عبد الله الشيخ أمر دولته وما قيل فى ذلك﴾

قال اليفرنى كان السلطان أبو عبد الله الشيخ مولعا بتدبير أمر الرعية مستيقظا فى أمره حازما غير متوقف فى سفك الدماء قال ويحكى أنه لما دخل فاسا دخلها وعليه وعلى أصحابه سمة البداوة فحملوا أنفسهم على التأدب بآداب أهل الحاضرة والتخلق باخلاقهم وذكر ان ملك السعديين انما تأنق على يد رجل وامرأة فأما الرجل فقاسم الزرهونى فانه رتب للسلطان أبى عبد الله الشيخ هيئة السلاطين فى ملابسهم ودخولهم

وخروجهم وآداب أصحابهم وكيفية مثولهم بين أيديهم وأما المرأة فالعريفة بنت خجو فانها اعلمته سيرة الملوك في منازلهم وحالاتهم في الطعام واللباس وعاداتهم مع النساء وغير ذلك فاكتسى ملك الشيخ بذلك طلاوة وازداد في عيون العامة رونقا وحلاوة بسبب جريانه على العوائد الحضرية لان أهل البادية مسترذلون في عيون أهل الحاضرة قالوا ولم يزل السلطان أبو عبد الله الشيخ يدور على مدن المغرب وأمصاره ويطيل الاقامة بفاس ﴿قال في المنتقى﴾ ومن مآثره أنه بنى جسر وادي سبو وجسر وادي أم الربيع وتقدم بناؤه حصن آكادير والله تعالى أعلم

## ﴿وضع الوظيف المسمى في لسان العامة بالنائبة﴾

قد تقدم لنا في صدر هذا الكتاب اختلاف العلماء في أرض المغرب هل فتحت عنوة أو صلحا أو غير ذلك وعلى القول بانها افتتحت عنوة فهي خراجية كما هو مقرر في كتب الفقه وتقدم لنا أيضا ان أول من وظف الخراج على أرض المغرب عبد المؤمن بن علي وتبعه بنوه على ذلك وقفا اثرهم بنو مرين وفي الظهير الذي كتبه السلطان أبو زيان المريني لابن الخطيب أيام مقامه بسلا شاهد بذلك ولما جاء السعديون من بعدهم سلكوا هذا السبيل أيضا وقول اليفرني ان أبا عبد الله الشيخ أول من أحدث النائبة بالمغرب يحمل على انه أول من أحدثها على الوجه الآتي بيانه وذلك انه لما صفا للسلطان أبي عبد الله الشيخ أمر المغرب واستأصل جرثومة بني وطاس منه التفت الى ترتيب ملكه وتهذيب أعطافه وتأسيس أمور دولته كما قلنا فمن ذلك أنه فرض على قبائل المغرب الضريبة المسماة في لسان العامة بالنائبة ولم ينزه عنها شريفا ولا مشروفا حتى أرباب الزوايا والمنتسبين ومنهم أولاد الشيخ أبي البقاء خالد المصمودي مع ما كان لابيهم من الشهرة بالولاية والصيت في بلاده وكان قدر هذه النائبة صحفة من الشعير وعشرين مدا من القمح لكل نائبة وصاعا من السمن وكبشا لكل أربع نوائب وكانت تفرض في زمان الشيخ على الكوانين وتوظف على حسب السكان وتدفع باعيانها وجرى على ذلك ولده الغالب بالله وأخوه المعتصم ولما جاء المنصور ومن بعدهم قوم تلك الاعيان بسعر الوقت وصارت تدفع دراهم ثم ازداد ذلك الى ان خرج الامر عن القياس واتسع الخرق على الراقع والله لا يظلم مثقال ذرة

## ﴿مراسلة السلطان سليمان العثماني للسلطان أبي عبد الله الشيخ وما نشأ عن ذلك﴾

قد قدمنا ما كان من غض السلطان أبي عبد الله الشيخ بمكان الترك من تلمسان والمغرب الاوسط وانه غزاهم مرتين وقدم الامام أبو عبد الله الخروبي ساعيا في الهدنة فلم يرجع بطائل وكان السلطان الشيخ يقول فيما زعموا لابد لي ان أغزو مصر وأخرج الترك من أحجارها وكان يطلق لسانه في السلطان سليمان العثماني ويسميه بسلطان الحوّاتة يعني لان الترك كانوا أصحاب أساطيل وسفر في البحر فانتهى ذلك الى السلطان سليمان فبعث اليه رسله فهذا سبب المراسلة على ما في النزهة وأشبه منه بالصواب ما حكاه بعضهم قال لما بلغ خبر انقراض الدولة الوطاسية الى السلطان سليمان العثماني واستيلاء السعديين على ملك المغرب الاقصى كتب الى الشيخ يهنئه بالملك ويلتمس منه الدعاء له على منابر المغرب وبعث اليه بذلك رسولا في البحر فانتهى الى الجزائر ومنها قدم الى مراكش في البر ولما وصل الى السلطان أبي عبد الله الشيخ أنزله على كبير الاتراك في محلته صالح باي المعروف بالكاهية وكان هؤلاء الاتراك قد انحاشوا الى الشيخ من بقايا القادمين مع بني حسون فضمهم اليه وجعلهم جندا على حدة وسماهم اليكشارية بالياء ثم الكاف ثم الشين وهو لفظ تركي معناه العسكر الجديد ولما قرأ السلطان أبو عبد الله الشيخ كتاب السلطان سليمان وجد فيه أنه يدعو له على منابر المغرب ويكتب اسمه على سكته كما كان بنو وطاس حي

وأبرق وأرعد وأحضر الرسول وأزعجه فطلب منه الجواب فقال لا جواب لك عندي حتى أكون بمصر ان شاء الله وحينئذ أكتب لسلطان القوارب فخرج الرسول من عنده مذعورا يلتفت وراءه الى ان وصل الى سلطانه وكان من أمره ما نذكره

## ﴿قدوم طائفة الترك من عند السلطان سليمان العثماني واغتيالهم للسلطان أبي عبد الله الشيخ رحمه الله﴾

لما خرج رسول السلطان سليمان العثماني من عند السلطان أبي عبد الله الشيخ ووصل الى الجزائر ركب البحر الى القسطنطينية فانتهى اليها واجتمع بالوزير المعروف عندهم بالصدر الاعظم وأخبره بما لقي من سلطان المغرب فانهى الوزير ذلك الى السلطان سليمان فامره ان يهيئ العمارة والعساكر لغزو المغرب فاجتمع أهل الديوان وكرهوا توجيهها واتفق رأيهم على ان عينوا اثني عشر رجلا من فتاك الترك وبذلوا لهم اثني عشر ألف دينار وكتبوا لهم كتابا الى صالح الكاهية كبير عسكر الشيخ ووعدوه بالمال والمنصب ان هو نصح في اغتيال الشيخ وتوجيه رأسه مع القادمين عليه ﴿وفي النزهة﴾ أن صالحا هذا كان من ترك الجزائر جاء في جملة الطائفة الموجهين لاغتيال الشيخ والله أعلم ثم دخل الوزير على السلطان سليمان واعتذر اليه عن توجيه العمارة وقال هذا أمر سهل لا يحتاج فيه الى تقويم عمارة وهذا المغربي الذي أساء الادب على السلطان يأتي رأسه الى بين يديك فاستصوب رأيهم وشكر سعيهم وأمر بتوجيه الجماعة المعينة في البحر الى الجزائر ومنها يتوجهون الى مراكش في البر ففعلوا ولما وصلوا الى الجزائر هيئوا أسبابا واشتروا بغالا وساروا الى فاس في هيئة التجار فباعوا بها أسبابهم وتوجهوا الى مراكش ولما اجتمعوا بصالح الكاهية أنزلهم عنده ودبر الحيلة في أمرهم الى أن توجهت له ﴿وفي النزهة﴾ أن هؤلاء الاتراك خرجوا من الجزائر الى مراكش مظهرين أنهم فروا من سلطانهم ورغبوا في خدمة الشيخ والاستيجار به ثم ان صالحا الكاهية دخل على السلطان أبي عبد الله الشيخ وقال يا مولاي ان جماعة من أعيان جند الجزائر سمعوا بمقامنا عندك ومنزلتنا منك فرغبوا في جوارك والتشرف بخدمتك وليس فوقهم من جند الجزائر أحد وهم ان شاء الله السبب في تملكها فامره بادخالهم عليه ولما مثلوا بين يديه رأى وجوها حسانا وأجساما عظاما فأكبرهم ثم ترجم له صالح كلامهم فأفرغه في قالب المحبة والنصح والاجتهاد في الطاعة والخدمة حتى خيل الى الشيخ أنه قد حصل على ملك الجزائر فامره باكرامهم وان يعطيهم الخيل والسلاح ويكونوا يدخلون عليه مع الكاهية كلما دخل فكانوا يدخلون عليه كل صباح لتقبيل يده على عادة الترك في ذلك وصار الشيخ يبعثهم الى أشياخ السوس مناوبة في الامور المهمة ليتبصروا في البلاد ويعرفوا الناس وكان يوصي الاشياخ باكرام من قدم عليهم منهم واستمر الحال الى أن أمكنتهم فيه الفرصة وهو في بعض حركاته بجبل درن بموضع يقال له آكلكال بظاهر تارودانت فولجوا عليه خباءه ليلا على حين غفلة من العسس فضربوا عنقه بشاقور ضربة أبانوا بها رأسه واحتملوه في مخلاة ملؤها نخالة وملحا وخاضوا به أحشاء الظلمات وسلكوا طريق درعة وسجلماسة كأنهم ارسال تلمسان لئلا يفطن بهم أحد من أهل تلك البلاد ثم أدركوا ببعض الطريق فقاتلت طائفة منهم حتى قتلوا ونجا الباقون بالرأس وقتل مع الشيخ تلك الليلة الفقيه مفتي مراكش أبو الحسن علي بن أبي بكر السكتاني والكاتب أبو عمران الوجاني ولما شاع الخبر بان الترك قتلوا السلطان واستراب الناس بجميع من بقي منهم بالمغرب أغلق اخوانهم الذين كانوا بتارودانت أبوابها واقتسموا الاموال واستعدوا للحصار ولما بويع ابنه الغالب بالله وقدم من فاس نهض في العساكر الى تارودانت للاخذ بثار أبيه من الترك الذين بها فحاصرهم مدة ولما لم يقدر منهم على شيء أعمل الحيلة بان أظهر الرحلة عنهم وأشاع أنه راجع الى فاس لثائر قام بها ولما أبعد عنهم مسيرة يوم خرجوا في اتباعه ليلا والعيون موضوعة عليهم بكل جهة الى

أن شارفوا محلة السلطان الغالب بالله نعطف عليهم ولما لم يمكنهم الرجوع الى تارودانت تحيزوا الى الجبل وبنوابه قياطينهم وجعلوا عليها المتارزات من الاحجار وتحصنوا بها وأحاطت بهم العساكر من كل جهة فقاتلوا الى أن فنوا عن آخرهم ولم يؤخذ منهم أسير وقتلوا من محلة الغالب بالله ألفا ومائتين وأما الذين نجوا بالرأس فانتهوا الى الجزائر وركبوا البحر منها الى القسطنطينية فاوصلوا الرأس الى الصدر الاعظم وأدخله على السلطان سليمان فأمر به أن يجعل فى شبكة نحاس ويعلق على باب القلعة فبقى هنالك الى أن شفع فى انزاله ودفنه ابناه عبد الملك المعتصم وأحمد المنصور حين قدما القسطنطينية على السلطان سليم بن سليمان مستعدين له على ابن أخيهما المسلوخ كما يأتى وكان مقتل الشيخ رحمه الله يوم الاربعاء التاسع والعشرين من ذى الحجة سنة أربع وستين وتسعمائة ولما بلغ خبر مقتله الى خليفته بمراكش القائد أبى الحسن على بن أبى بكر آزناك بادر بقتل أبى العباس الاعرج المخلوع وأولاده ذكورا وانا ثا كبارا وصغارا خشية أن يخرجه أهل مراكش فيبايعوه ولما قتلوا لم يتجرأ أحد على دفنهم فبقوا مصرعين حتى دفنهم الشيخ أبو عمرو القسطلى الولى الشهير بقربة من ضريح الشيخ الجزولى وهى القبة التى قرب الضريح المذكور تسمى قبور الاشراف وأما السلطان أبو عبد الله الشيخ فانهم حملوا جثته الى مراكش فدفنت بها قبلى جامع المنصور بروضة السعديين وقبره شهير بها الى الآن ومما نقش على رخامة قبره هذه الابيات

حى ضريحا تعمدته رحمات * وظللت لحده منها غمامات

واستنشقن نفحة التقديس منه فقد * هبت من الخلد لى منها نسيمات

بحربه كورت شمس الهدى فكست * من أجلها السبعة الارضين ظلمات

يا مهجة غالها غول الردى قنصا * وأثبتت سهمها فيها المنيات

دكت لموتك أطواد العلى صعقا * وارتج من بعدك السبع السموات

وشيعت نعشك المزجى الى عدن * من الملائك ألحان وأصوات

يا رحمة الله عاطيه سلاف رضا * تدور منها عليه الدهر كاسات

قضى فوافق فى التاريخ منه حلى * دار امام الهدى المهدى جنات

---

## ﴿بقية أخبار السلطان أبى عبد الله الشيخ وسيرته﴾

كان السلطان أبو عبد الله محمد الشيخ يلقب من الالقاب السلطانية بالمهدى ونشأ فى عفاف وصيانة وعنى بالعلم فى صغره وتعلق بأهدابه فأخذ عن جماعة من الشيوخ وبلغ فيه درجة الرسوخ حتى كان يخالف القضاة فى الاحكام ويرد عليهم فتاويهم فيجدون الصواب معه ووقع ذلك منه مرارا وله حواش على التفسير وذلك مما يدل على غزارة علمه ﴿وقال فى المنتقى﴾ كان السلطان أبو عبد الله الشيخ رحمه الله أديبا متفننا حافظا حدثنى شيخنا أبو راشد أنه كان ممتع المجالسة والمذاكرة نقى الشيبة عظيم الهيبة ما رأيت بعد شيخى أبى الحسن على بن هرون أحفظ منه للقطعات الشعرية وكثيرا ما ينشد

الناس كالناس والايام واحدة * والدهر كالدهر والدنيا لمن غلبا

وكان حافظا للقرآن فهما ماجدا حافظا لصحيح البخارى ويستحضر ما للناس عليه ويقول فى شرح ابن حجر ما صنف فى الاسلام مثله عارفا بالتفسير وغيره وكان يحفظ ديوان المتنبى عن ظهر قلب وكان يحض على المشاورة ويقول لا سيما فى حق الملوك وينشد قول المتنبى

ومن جهلت نفسه قدره * رأى غيره منه ما لا يرى

(وكان يقول) ينبغى للملك أن يكون طويل الامل فان طول الامل وان كان لا يحسن من غيره فهو منه

صالح لان الرعية تصلح بطول أمله (وكان يقول) من طول أمله أخذ تلمسان وسبتة وغيرهما انتهى وقوله أنه كان يحفظ ديوان المتنبي سببه ماذكره في الدوحة قال أخبرني الوزير المعظم أبو عبد الله محمد ابن الامير أبي محمد عبد القادر ابن السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ الشريف قال لما غدرت قبيلة المناهبة بجدي السلطان المذكور وأنجاه الله من غدرتهم عرف الشيخ أبا محمد عبد الله بن عمر بذلك فكتب اليه يقول أين أنت من قول أبي الطيب المتنبي

غاض الوفاء فما تلقاه في عدة * وأعوز الصدق في الاخبار والقسم

قال فعكف السلطان المذكور على ديوان المتنبي حتى حفظه كله ولم يعزب عنه بيت واحد اهـ وابن عمر المذكور هو أحد أشياخ السلطان المذكور وهو أبو محمد عبد الله بن عمر المضغري الفقيه الفرضي الحاسب فقيه درعة وعالمها وكان قد وفد على السلطان المذكور أيام كونه بالسوس ولما عاد الى درعة سأله فقهاؤها كيف وجدت أهل السوس فقال وجدت فقهاءهم على ضعيف الفتاوى وفقراءهم على عظيم الدعاوى وعامتهم على كثير المساوى ومن أشياخ السلطان المذكور الامام الشهير شيخ الجماعة بالصقع السوسي أبو الحسن علي بن عثمان التاملي ذكره في المنتقى وأثنى عليه ومن أشياخه علامة فاس ومحققها أبو عبد الله محمد بن أحمد اليستني أخذ عنه علوما منها التفسير قال المنجور وكنت أنا قارئه بين يدي أمير المؤمنين أبي عبد الله الشيخ المذكور وكان شديد المحبة له قال ولما توفي الفقيه المذكور وذهبت مع ولده صبيحة تلك الليلة التي توفي بها نخبر السلطان بوفاته وجدناه يقرأ ورده بحمام المريني لخروج السلطان اليه فلما أخبرناه بكى بصوت عال يفزع من سمعه حتى رأينا منه العجب وماسكت الا بعد مدة لما كان يعلم منه من صحة الدين والنصح لخاصة المسلمين وعامتهم وحضر جنازته وكانت وفاته رحمه الله سنة تسع وخمسين وتسعمائة وللسلطان المذكور عدة أشياخ غير هؤلاء ومن وزرائه الرئيس أبو الحسن علي بن أبي بكر آصناك الحاحي وأبو عمران موسى بن أبي جدي العمري وغيرهم ومن قضاته بفاس أبو الحسن علي بن أحمد الخصاصي وبمراكش أبو الحسن علي بن أبي بكر السكتاني رحم الله الجميع وكان للسلطان أبي عبد الله الشيخ عدة أولاد نجباء ومن أنجبهم أبو عبد الله محمد المعروف بالحران القتيل على تلمسان ومنهم أبو محمد عبد الله الغالب بالله وأبو مروان عبد الملك الغازي وأبو العباس أحمد المنصور وهؤلاء الثلاثة ولوا الامر بعد أبيهم ومنهم الوزير أبو محمد عبد القادر وتوفي في حياة أبيه سنة تسع وخمسين وتسعمائة ﴿وفي نشر المثاني﴾ أنه قتل مخنوقا بامر أخيه عبد الله الغالب بالله سنة خمس وسبعين وتسعمائة فالله أعلم ومنهم عثمان وعبد المؤمن وعمرو وغيرهم ﴿قال المنجور في فهرسته﴾ حضرت يوما مجلس أمير المؤمنين أبي عبد الله الشيخ وقد حضر عنده أولاده الصناديد الامراء المولى محمد الحران والمولى عبد القادر والمولى عبد الله فدخل شيخنا الامام أبو عبد الله اليستني فلما نظر اليهم حول أبيهم أنشد بيت تلخيص المفتاح

فقلت عسى أن تبصريني كانما * بني حوالي الاسود الحوارد

فاعجب ذلك السلطان وأولاده رحمة الله عليهم

## ﴿الخبر عن دولة السلطان أبي محمد عبد الله الغالب بالله ابن السلطان محمد الشيخ رحمه الله﴾

كانت ولادة السلطان أبي محمد عبد الله الغالب بالله كما رأيته مرقوما على الرخامة التي على قبره في رمضان سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة وكان رحمه الله أدعج العينين مستدير الوجه عريضه أسيل الخدين مشرف الوجنتين ربعة للقصر ونشأ في عفاف وصيانة وحفظ القرآن وأخذ بطرف صالح من العلم وكان ولي عهد أبيه وكان يلقب من الالقاب السلطانية بالغالب بالله لقبه به غير واحد من الائمة ولما وافته الانباء بقتل أبيه وهو بفاس بايعه أهلها ولم يتخلف عن بيعته منهم أحد ﴿وذكر صاحب زهرة الشماريخ﴾

أن الفقيه المقاني المعدل بمنار القرويين أبا عبد الله المزوار وكان بصيرا بعلم الاحكام والحدثان بينما هو ذات ليلة يرقب الطالع والغارب وقد انهار الليل واسود ديجوره رأى طالع السلطان الشيخ قد سقط وكانت بينه وبين ابنه أبي محمد عبد الله وصلة فأسرع في الذهاب اليه ليخبره بما رأى فلما بلغ باب فاس الجديد وجده مغلقا فاستأذن الموكلين به في فتحه فأبوا فقال لهم انى جئت الى الخليفة يعني خليفة السلطان في أمر مهم عنده وان لم تعلموه بمكانى الساعة لحقكم منه غدا ما تكرهون فانذر والخليفة المذكور به فحمل اليه وسأله عن قضيته فاخبره بما رأى ونعى اليه أباه فلم يكذب في ذلك وتهيأ واستعد فلم تمض الا أيام قلائل حتى وافته الانباء بقتل أبيه في تلك الساعة التي قال له المعدل المذكور فصادفه الحال على أهبة واستعداد ولما بلغ أهل مراكش مبايعة أهل فاس له وافقوا عليها فاستوسق له الامر وتمهد له ملك أبيه وكان ذلك كله في المحرم سنة خمس وستين وتسعمائة

## ﴿مجيء حسن بن خير الدين التركي الى فاس ورجوعه منهزما عنها﴾

﴿قال ابن القاضي﴾ لما ولى السلطان أبو محمد عبد الله الغالب بالله الخلافة اشتغل بتأسيس ما بيده وتحصينه بالعدد والعدة ولم تطمح نفسه الى الزيادة على ما ملك أبوه من قبله ﴿وفي سنة خمس وستين وتسعمائة﴾ في جمادى الاولى منها غزاه حسن بن خير الدين باشا التركي صاحب تلمسان في جيش كثيف من الاتراك فخرج اليه السلطان الغالب بالله فالتقيا بقربة من وادي اللبن من عمالة فاس فكانت الدبرة على حسن فرجع منهزما طلب صياصي الجبال الى أن بلغ الى باديس وكانت يومئذ للترك ورجع الغالب بالله الى فاس لكنه لم يدخلها للوباء كان بها يومئذ ولما رجع من حركته هذه أمر بقتل أخيه عثمان لامر نقمه عليه فقتل في السنة المذكورة والله تعالى أعلم

## ﴿بناء جامع المواسين بحضرة مراكش والبركة المتصلة به والمارستان وغير ذلك﴾

﴿قال اليفرني﴾ وفي عشرة السبعين وتسعمائة أنشأ السلطان الغالب بالله جامع الاشراف بحومة المواسين من مراكش والسقاية المتصلة به التي عليها مدار المدينة المذكورة والمارستان الذي ظهر نفعه ووقف عليه أوقافا عظيمة ﴿قلت﴾ وهذا المارستان هو الذي بحومة الطالعة قرب السجن وقد اتخذ اليوم سجنا للنساء قال وهذا السلطان هو الذي جدد أيضا بناء المدرسة التي بجوار جامع ابن يوسف اللمتوني وليس هو الذي أنشأها كما يعتقده كثير من الناس بل الذي أنشأها أولا هو السلطان أبو الحسن المريني رحمه الله حسبما ذكره ابن بطوطة في رحلته وشاع على الالسنة أن السلطان الغالب بالله توصل الى بنائها بصناعة الكيمياء وأن الشيخ أبا العباس أحمد بن موسى السملالي علمه اياها حين تلمذ له كما سيأتي قال اليفرني وهو كذب فان المنقول عن الشيخ المذكور انكارها وما كان ليفتح على مسلم بابا عظيما من أبواب الفتنة وسببا بليغا من أسباب المحنة لان هذه الحرفة من أعظم أبواب الفتن وقد أجمع أرباب البصائر على التحذير من تعاطيها والوجوه ثلاثة أولها انها من المستحيلات كما ذكره ابن سيناء مستدلا عليه بقوله تعالى لا تبديل لخلق الله وكما انه ليس في قدرة المخلوق أن يحول القرد انسانا والذئب غزالا كذلك ليس في قدرته أن يصير الرصاص فضة والنحاس ذهبا يعني لان ذلك من باب قلب الحقائق وهو محال ولقد تناظر رجلان فيها فقال مجوزها أتنكر ما تشاهده في الصبغ وتصيير الجسد الاحمر أصفر والابيض أسود فقال مانعها لا أنكر ذلك لان الصبغ ليس تغيير أصل وانما أنكر أن ثوب الصوف الابيض ترده صناعة الصبغ قطنا أو حريرا أحمر أو أخضر وأما الصبغ فلا شك ان النحاس يصير أبيض ولا يخرجه ذلك عن أصله ولا يسلب عنه اسم النحاس بل يقال فيه نحاس أبيض كما لا يسلب صبغ الصوف عنه اسم الصوف ثانيها سلمنا أنها جائزة الوجود لكنها معدومة في الخارج كما ذهب اليه أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله اذ قال ثلاث

متفق على وجودها في الغالب وقد اتفق على عدم رؤيتها أهل المشارق والمغارب الكيمياء والعنقاء والغول وأخبارها كلها على وجه السماع والاسناد وحكاياتها كالموضوعات عن العجماوات والجمادات ثالثها سلمنا أنها موجودة في الخارج لكنه يحرم تناولها والبيع والشراء بها ﴿وقد سئل﴾ عنها الشيخ أبو اسحق التونسي رحمه الله فقيل له أحلال هي اذا كانت خالصة فقال لو دبر النحاس أو غيره من الاجساد حتى صار ذهبا خالصا لا شك فيه فتى لم يقل بائعه لمبتاعه هذا كان نحاسا أو جسدا من الاجساد فدبرته حتى صار ذهبا كما ترى لكان غاشا مدلسا قال ومتى ذكره لم يشتر أحد منه ذلك بفلس ويقول فكاد يدبره حتى صار ذهبا فكذلك يدبره غيرك حتى يرجع الى أصله فمن لم يبين فيها فهو داخل في قوله عليه الصلاة والسلام من غشنا فليس منا فتكون صناعتها حراما وقيل لبعض الفضلاء لم تتعاطى بهذه الصناعة فانها تسلي الخاطر فقال قيل للحمار لم لم تجتر فقال أكره مضغ الباطل وأنشد

فقلت لاصحابي هي الشمس ضوءها * قريب ولكن في تناولها بعد

اهـ مانقله اليفرني ملخصا مهذبا وهو الحق الذي لا عوج فيه ولا أمت ثم قال وبالجملة فما شاع عن السلطان الغالب بالله من ذلك لا أصل له ولقد كان أهل الورع يجتنبون الصلاة في جامع الاشراف بعد ما بنى مدة ويقال أن موضع ذلك الجامع كان مقبرة لليهود والله تعالى أعلم

## ﴿فتح مدينة شفشاون وانقراض أمر بني راشد منها﴾

تقدم أن مدينة شفشاون حرسها الله بناها بنو راشد من شرفاء العلم وكانوا أهل جهاد ومرابطة على العدو بلاد غمارة والهبط ولما توفي مختطها الامير أبو الحسن علي بن موسى بن راشد بقيت بيد أولاده يتولون رياستها (قال في المرآة) ولم يزالوا فيها بين سلم وحرب الى أن حاصرهم بها الوزير أبو عبد الله محمد بن عبد القادر ابن السلطان محمد الشيخ السعدي بجيوش عمه السلطان أبي محمد عبد الله الغالب بالله وصاحب شفشاون يومئذ الامير الفاضل أبو عبد الله محمد ابن الامير أبي الحسن بن موسى بن راشد فلما اشتد عليه الحصار خرج فيمن اليه من أهله وولده وقرابته وصعدوا الجبل المطل على شفشاون في مسالك وعرة صحبتهم فيه السلامة وذلك ليلة الجمعة الثاني من صفر سنة تسع وستين وتسعمائة وساروا الى ترغة فركبوا منها البحر يوم الجمعة تاسع الشهر المذكور واستقر الامير أبو عبد الله بالمدينة المنورة الى أن مات بها رحمه الله

## ﴿حصار البريجة المسماة اليوم بالجديدة﴾

قد قدمنا ما كان من بناء البرتقال لمدينة الجديدة وتحصينهم لها بما فيه كفاية وكانت غارات المسلمين المجاورين لهم لا تنقطع عنهم وكذلك هم سائر مقامهم بها ولما كانت سنة تسع وستين وتسعمائة جهز اليها السلطان الغالب بالله جيشا كثيفا واستنفر لها قبائل الحوز وعقد عليهم لابنه محمد المعروف بالمسلوخ قتيل وادي المخازن وكان يومئذ ابن عشرين سنة على ما قيل واستوزر له القائد المجاهد الشاعر الفاضل أبا زيد عبد الرحمن بن تودة العمراني وجعل اليه أمر الحرب وابن السلطان صورة فزحف اليها وحاصرها أربعة وستين يوما وملك بعض أسوارها ولم يقض الله بفتحها ﴿وفي النزهة﴾ ذكر أن القائد ابن تودة دخل البريجة التي قرب آزمور وأخذ أسوارها وعزم على أن يستأصل في الغد بقيتها ولا يبقي للكفر بها أثرا فكتب اليه السلطان الغالب بالله ينهاه عنها فتراجع النصارى اليها بعد ان ركبوا البحر عازمين على الجلاء عنها اهـ وقد وقفت في التاريخ البرتقالي الموضوع في أخبار الجديدة واسم مؤلفه لويز مارية على أخبار هذا الحصار وقد استوعبها وبسطها وتتبع الوقائع فصلا فصلا ويوما يوما وأتى من ذلك بما يزيد على الكراسة فكان من جملة ما قال انه لما عزم السلطان الغالب بالله على غزوهم وأخذ في تجهيز الجيوش اليهم أتاهم بعض المتنصرة قال وهو عبد أسود فأخبرهم بأن السلطان مستعد لحربهم وكانوا عازمين على

التوثق من هذا الجاسوس فافلت منهم فعلموا ان اظهاره للتنصر كان مكيدة ثم أخذوا فى الاستعداد واشتروا من عند قائد آزمور ألفى سيف هكذا زعم قال وفى اليوم الرابع من مارس سنة ألف وخمسمائة واثنتين وستين مسيحية وصلت جموع المسلمين الى حوز الجديدة وهذا التاريخ موافق للتاريخ العربى الذى قدمناه قال فكانت خيل المسلمين نحو ثلاثين ألفا والرماة ضعف ذلك وكان فيهم عسكر الترك المعروف بالباردروس وكانوا يومئذ جند السعديين وكان معهم عشرون مدفعا عشرة كبيرة وعشرة صغيرة وفيها واحد أعظم من الجميع يسمى ميمونا وكان معهم العلم الكبير الابيض ورايات أخر ملونة وتقدموا الى الجديدة فحاصروها حصارا شديدا وحاربوها حربا هائلة ووصف هذا المؤرخ ذلك كله وصفا كاشفا وكانت الجديدة يومئذ فى غاية الحصانة والمناعة فلم يتمكن المسلمون من النصارى على ما ينبغى وأرسل الترك عليهم أنواع الحراقيات وملكوا المتارزات التى كانت حول السور بعد ان هلكت عليها نفوس من الفريقين ثم صنع النصارى للمسلمين عند هامينا البارود مرتين ففى الاولى كانت المينا تسعة براميل نفط منها سبعة فاهلكت خلقا من المسلمين والنصارى وفى الثانية كانت تسعة عشر برميلا أمام السور فنفطت بالمسلمين وأتلفت منهم عددا فبعضهم طار فى الهواء وبعضهم ارتطم تحت التراب وكان رماة المسلمين ينالون منهم نيلا عظيما واعترف النصارى لهم بجودة الرمى بحيث كانوا كلما ظهر منهم عسكرى على السور اختطفته رصاصة فى أخيره وضع من بدنه من الرأس أو الصدر ﴿قال لويز المؤرخ﴾ ولقد قدم فى بعض الايام من أشبونة كبير من كبراء جندهم فقال لهم أرونى كيف قتالكم لهؤلاء المسلمين وكيف مصافتكم لهم قال فما ظهر برأسه على السور ليرى محلة المسلمين حتى أصابته رصاصة نثرت دماغه كأن صاحبها كان ينتظره وكان ذلك بنفس نزوله من البحر قبل أن يذهب الى منزله فعوضه منه المسلمون القبر قال فما كان النصارى بعدها يقدرون أن يظهروا على السور الا فى النادر ولما طال عليهم الحصار ندب كبيرهم جماعة منهم للخروج الى السواحل البعيدة عن محلة المسلمين لعلهم يظفرون بأسير منهم يستكشفونه عن خبر الجيش المحاصر لهم هل هو مرتحل أو مقيم وما مدة الاقامة قال فخرجوا فى فلك لهم ليلا وساروا حتى بلغوا ساحل طيط وهى يومئذ خالية وكان بقربها محلة لقائد آسفى فلما طلع الفجر تقدموا الى البر وأرسوا فلكهم الى جانب بعض الاحجار هنالك بحيث يخفى على المارين بالساحل ثم كمنوا هنالك فلما كان وقت الاسفار اذا برجل من محلة آسفى أتى على فرسه الى شاطئ البحر لبعض حاجاته فلم يرعه الا النصارى قد أحدقوا به وأخذوا بلجام فرسه وجعل بعضهم فم مكحلته فى صدره فلم يملك المسلم من نفسه شيأ ثم أنزلوه عن الفرس وساقوه الى الفلك أسيرا ولججوا به فى البحر ولما بعدوا عن البر شيأ مارمى أحدهم الفرس برصاصة فقتله ثم أسرعوا الى الجديدة فدخلوها واجتمع النصارى على المسلم وهو كالمبهوت بينهم ثم سألوه عن خبر الجيش المحاصر لهم فاخبرهم بانهم يناجزونهم بعد هذا مرة أخرى أو مرتين فان لم يظفروا بهم ارتحلوا عنهم فكان كذلك قال وكان ارتحال المسلمين من الجديدة فى سابع مايه العجمى من السنة المذكورة فعمل النصارى لذلك عيدا وأحدثوا فى كنائسهم صلوات لم تكن قبل وذلك باشارة باباهم صاحب رومة * ومما حكاه هذا البرتقالى فيما كان يجرى بين أهل آزمور وبينهم من الحرب وذلك بعد هذا الحصار بمدة يسيرة أنه كان بآزمور امرأة حسناء وخطبها رجل من أهل البلد سماه لويز الا أنه لم يحسن النطق به لعجمته وأظنه اسمه الميلودى لان الحروف التى ذكر تقرب منه قال فامتنعت عليه فراودها أياما واشتد كلفه بها فلم تزده عليه الا تمنعا فبعث اليها ذات يوم يرغبها فى نفسه ويدلى عليها بمآثره التى من جملتها الشجاعة حتى قال لها ان شئت أن آتيك برأس أعظم نصرانى بالجديدة وأشجعه فعلت ولعلها كانت موتورة لهم فقالت له ان آتيتنى به تزوجتك فذهب الرجل المذكور الى قائد آزمور ولم يسمه لويز وعرض عليه أن يكتب الى كبير نصارى الجديدة وصاحب رأيهم بان يعين من جانبه رجلا من

شجعانهم

شجعانهم ليبارزه ان شاء فاجابه القائد الى مراده وذهب الرسول بالكتاب حتى وقف على نحو غلوة من المدينة وهذا الموضع هو الذى كانت تقف فيه رسل آزمور اذا قدمت لغرض فخرج اليه البريد من عند صاحب الجديدة وحاز الكتاب ورجع به الى صاحبه فلما قرأه أحضر جماعة من وجوه جنده وعرض عليهم مافيه فقام رجل منهم وقال أنا صاحبه وهذا الرجل سماه لويز وقال كان ابن ثلاثين سنة كامل القامة ممتلئ الاعضاء أسمر اللون كثير شعر البدن أسود اللحية وكان برأسه جرح لم يندمل من وقعة كانت بينهم وبين أهل آزمور وقبل ذلك فكتب صاحب الجديدة الى قائد آزمور انا قد أجبناك الى مادعوت وقد أعجبنا ذلك وها نحن قد عينا لصاحبك قرنه فلتعينوا لنا اليوم والساعة التى تكون فيها الملاقاة فاتفقا على يوم معلوم وفى ذلك اليوم سار قائد آزمور فى أصحابه ووجوه أهل بلده ومعهم الرجل المذكور الى الجديدة فانتهوا الى الموضع الذى جرت العادة أن يقف فيه المسلمون وخرج قائد النصارى فى جماعته وشرطوا المبارزة وكيفيتها شروطا منها أن تبعد كل جماعة من صاحبها بخمسين خطوة ولا يلتقى الا المتبارزان وحدهما بمرأى من الفريقين ومنها أن مساحة الموضع الذى يكون فيه مجالهما خمسون شبرا وسطا من الفريقين وان من خرج عن هذا المحل منهما ولو قيد شبر كان رقا للآخر واعطوا خطوطهم بذلك ولما حان وقت البراز خرج عدلان من جانب المسلمين حتى انتهيا الى النصرانى ففتشاه لينظرا ماعليه من السلاح وما معه لان من جملة الشروط أن لا يتبارزا الا بالسيف والرمح فقط فلم يجدا مع النصرانى سواهما ﴿قال لويز﴾ وكان صاحبهم المذكور يحسن الضرب بكلتا يديه فشرط عليه العدلان أن لا يقاتل الا باليمين فرضى ثم خرج شاهدان من جانب النصارى حتى انتهيا الى المسلم ففتشاه فلم يجدا عنده سوى السيف والرمح أيضا غير أنه قد علق على ذراعه تمائم كثيرة مخروزة فى الجلد فقال له الشاهدان لابد أن تنزع هذه التمائم لان صاحبنا ليس عنده شئ من هذا وأيضا فيمكن أن تقيك هذه التمائم بعض الوقاية فقال لهم لا أنزعها الان مثل هذا لا يتقى به فى الحرب ولا يغنى فى الظاهر من السيف والرمح شيأ وانما فيها أسماء الله ولا يحسن بى أن أطرحها فى هذه الحالة التى أنا مشرف فيها على الموت فيكون ذلك سوء أدب منى مع اسم الله تعالى وربما يكون سببا فى خذلانى فرجع النصرانيان الى قائدهما وأخبراه بالقضية فقال لا بد من نزعها فعادا اليه وزعم لويز أن المسلمين وافقوا على نزعها وقال له العدلان ان الحق مع النصارى لانا كشفنا صاحبهم كشفا تاما وراوده القائد أيضا فاصر على الامتناع معتذرا بما سلف ولما لم يحصلوا على طائل رجع المسلمون الى بلدهم ولم يكن براز ﴿قال لويز﴾ وعد النصارى ذلك غلبا وجعلوا يصيحون ويخرجون البارود قال وكان سور الجديدة مكسوا بالنساء والصبيان واغتاظ قائد آزمور فسجن المسلم المذكور لكونه جر هذه المذلة على المسلمين ﴿قلت﴾ من تأمل وأنصف علم أن الفشل انما هو من جانب النصارى لان تلك التمائم من حيث الظاهر لا تغنى شيأ وكون بركتها تقيه من ضربات السيف وطعنات الرمح فهذا لا يعتقده النصارى بل ولا يسلمونه فلم يبق الا الفشل والتعلل بما لا اعتبار به عند العقلاء ﴿ثم قال لويز﴾ وقد كانت بين المسلمين والنصارى بعد ذلك وقائع فابلى فيها ذلك المسلم البلاء الحسن وعرف محله من الشجاعة اه ❊ والحق ماشهدت به الاعداء ❊ وانما أثبت هذه الحكاية بطولها لغرابتها ولما اشتملت عليه من خلال الفتوة ومنازع النخوة الايمانية فنسأله سبحانه وتعالى أن يعلى منار الدين ويكبت كيد الجاحدين والمعتدين آمين ﴿وفى سنة سبعين وتسعمائة﴾ ولى السلطان الغالب بالله الفقيه أبا مالك عبد الواحد بن أحمد الحميدى قضاء فاس فطالت مدته

---

﴿وفادة السلطان الغالب بالله على الشيخ أبى العباس أحمد بن موسى السملالى رضى الله عنه﴾

---

﴿حكى صاحب الممتع﴾ أن السلطان أبا محمد عبد الله الغالب بالله قال للاستاذ أبى عبد الله الترغى انى أجد

فى نفسى ارادة وطلبا للشيخ فامض فاطلب لى شيخا فذهب يطوف على مشايخ المغرب وكانوا اذ ذاك متوافرين حتى أتى على الشيخ أبى العباس أحمد بن موسى الجزولى ثم السملالى فوجده شيخا جليلا سنيا متواضعا زاهدا ظاهر الورع حسن الاخلاق باهر الكرامات واضح الطريقة جامعا المحاسن الخلال والاوصاف فرجع اليه وجعل يصف له كل من رأى من المشايخ بما ظهر له فيه حتى أتى على الشيخ المذكور فقال وهو ولى ثم ولى ثم ولى ثم ولى سبعا فقال له كأنك تدلنى عليه وانه مطلوبى وانه لمقدم على غيره فقال له لا أدلك عليه ولا عندى ما أعرف به تقديمه غير ان هذا الذى ظهر لى فازمع السلطان الغالب بالله الرحلة اليه فلما بلغ الشيخ المذكور مجىء السلطان اليه خرج يتلقاه وقد هيأ له النزل وما يصلحه وأعد له ما يناسبه من الاطعمة الرفيعة النفيسة وقدم اليه التمر الجيد واللبن الحليب ولما خرج لقائه أتاه بعضهم بفرس وكان من عادته أن لا يركب واذا أتاه أحد بمركوب لا يرده عليه بل يستصحبه معه ويعلفه له حتى يرجع ففعل ذلك والتقى السلطان ورجع به معه وأنزله عنده فمكث فى ضيافته ثلاثة أيام ثم طلب منه أن يتخذه وسيلة الى الله تعالى وسأله مع ذلك تمهيد الملك واعتذر اليه بانه لا يمكنه العيش بدونه ولا يأمن على نفسه ولا تؤويه أرض اذا هو تخلى عنه فقال الشيخ يا عرب يا بربر يا سهل يا جبل أطيعوا السلطان مولاى عبد الله ولا تختلفوا عليه ثم بعد الثلاث انصرف السلطان الى محله فبقى مدة وهو مسكن ممهد الملك فى عافية ثم أتى الترك الى بوغاز طنجة وسبتة فخافهم وتشوش منهم كثيرا ولم يهنأ له عيش فجعلت حاشيته يهونون عليه أمرهم فقال دعونى منكم حتى أستقى من رأس العين ثم أبرد بريدا الى الشيخ فلما انتهى اليه سمعه يقول يا ترك ارجعوا الى بلادكم ويا مولاى عبد الله هناك الله فى بلادك بالعافية فتقدم الرسول وسلم على الشيخ وبلغه سلام السلطان ثم انقلب من فوره بعد ما ارخ وقت سماع مقالته فلما بلغ الى السلطان أخبره بما كان من الشيخ من تلك المقالة وما كان منه من التاريخ وأقاموا ينتظرون ما يكون فاذا الخبر قد ورد على السلطان بان الترك قد ارتحلوا وانصرفوا الى بلادهم واذا ارتحالهم كان وقت مقالة الشيخ المذكورة ثم ان الشيخ قدم مراكش فى بعض الايام زائرا من كان بها من أهل الله تعالى فرغب اليه السلطان الغالب بالله أن يدخل داره هو وأصحابه ويصنع لهم طعاما وشرط على نفسه أن لا يطعمهم الا الحلال ولا يطعمهم ما فيه شبهة وحلف للشيخ على ذلك فأسعفه ولما حضر الطعام وضع الشيخ يده عليه ولم يصب منه فلما خرج قيل له مالك لا تتناول من طعام السلطان وقد حلف أن لا يطعمكم الا الحلال فقال له من أكل طعام السلطان وهو حلال أظلم قلبه أربعين يوما ومن أكله وفيه شبهة مات قلبه أربعين سنة اهـ ﴿ومما ينخرط فى هذا السلك﴾ أن السلطان المذكور كان له اعتقاد فى الشيخ أبى عمرو القسطلى وكان يعظمه غاية وكانت عنده مظلة له من سعف النخل يتقى بها الحر تبركا بها ولما توفى الشيخ أبو عمرو المذكور وذلك يوم الجمعة منتصف شوال سنة أربع وسبعين وتسعمائة حضر السلطان المذكور جنازته وحثى التراب على قبره بيده ومن أخبار السلطان المذكور أن الشيخ أبا محمد عبد الله بن حسين المغارى كان ظهر بمراكش وكثرت الجموع عليه وقصده الناس من كل جهة فارسل اليه السلطان المذكور اما أن تخرج عنى أو أخرج عنك فقال الشيخ ابن حسين بل أنا أخرج وخرج من فوره الى تامصلوحت فكان من أمره ما كان

## ﴿استيلاء النصارى على حجر باديس والسبب فى ذلك﴾

قد تقدم لنا فى أخبار الوطاسيين أن النصارى بنوا حجر باديس واستولوا على وهران سنة أربع عشرة وتسعمائة واستمر ذلك بايديهم الى ان انتزعهما الترك من أيديهم ولما كانت دولة السلطان الغالب بالله وطمع الترك فى الاستيلاء على المغرب الاقصى أغرى السلطان المذكور النصارى بالاستيلاء على الثغور

المنظمة وسد أنقاب ادونه ﴿وقال في النزهة﴾ ذكر بعضهم أن السلطان الغالب بالله لما رأى عمارة ترك الجزائر وأساطيلهم لا ينقطع ترددها عن حجر باديس ومرسى طنجة يعني البوغاز وتخوف منهم اتفق مع الطاغية أن يعطيه حجر باديس ويخليه لهم من المسلمين فتنقطع بذلك مادة الترك عن المغرب ولا يجدوا سبيلا اليه فنزل النصارى على حجر باديس وأخرجوا المسلمين منها ونبشوا قبور الاموات وحرقوها وأهانوا المسلمين كل الاهانة ولما بلغ خبره لهم عليها الولده محمد وكان خليفته على فاس خرج بجيوشه لاغاثة المسلمين فلما كان بوادي اللبن بلغه استيلاؤهم عليها فرجع وتركها لهم اه وذكر اليفرني انه وجد هذه الاخبار في أوراق مجهولة والله تعالى أعلم

## ﴿فتنة الفقيه أبي عبد الله الاندلسي ومقتله﴾

كان الفقيه أبو عبد الله محمد الاندلسي نزيل مراكش متظاهرا بالزهد والصلاح حتى استهوى كثيرا من العامة فتبعوه وكانت تصدر عنه مقالات قبيحة من الطعن على أئمة المذاهب رضي الله عنهم ينحو فيها منحى ابن حزم الظاهري ويتفوه بمقالات شنيعة في الدين فامر السلطان الغالب بالله بقتله فاستغاث بالعامة من أتباعه واعصوصبوا عليه ووقعت فتنة عظيمة بمراكش بسببه الى ان قتل وصلب على باب داره برياض الزيتون من المدينة المذكورة وكان ذلك أواسط ذي الحجة من سنة ثمانين وتسعمائة

## ﴿ظهور بدعة الشراقة من الطائفة اليوسفية وما قيل فيهم﴾

﴿قال في الدوحة﴾ كان الشيخ أبو العباس أحمد بن يوسف الراشدي نزيل مليانة تظهر على يده الكرامات وأنواع الانفعالات فبعد صيته وكثرت أتباعه فغلوا في محبته وأفرطوا فيها حتى نسبه بعضهم الى النبوة قال وفشا ذلك الغلو على يد رجل ممن صحب أصحابه يقال له ابن عبد الله فانه تزندق وذهب مذهب الاباضية على ما حكي عنه واعتقد هذا المذهب الخسيس كثير من الغوغاء وأجلاف العرب وأهل الاهواء من الحواضر وتعرف هذه الطائفة باليوسفية قال ولم يكن اليوم بالمغرب من طوائف المبتدعة سوى هذه الطائفة وسمعت بعض الفضلاء يقول انه قد ظهر ذلك في حياة الشيخ أبي العباس المذكور فلما بلغه ذلك قال من قال عنا ما لم نقله يبتليه الله بالعلة والقلة والموت على غير ملة ﴿قال صاحب الدوحة﴾ ولقد أشار الفقهاء على السلطان الغالب بالله بالاعتناء بحسم مادة فسادهذه الطائفة فسجن جماعة منهم وقتل آخرين وهؤلاء المبتدعة ليسوا من أحوال الشيخ في شيء وانما فعلوا كفعل الروافض والشيعة في أئمتهم وانما أصحاب الشيخ كأبي محمد الخياط والشيخ الشطيبي وأبي الحسن علي بن عبد الله دفين تافلالت وأنظارهم من أهل الفضل والدين والافاضل المقتدى بهم كلهم يعظم الشيخ ويعترف له بالولاية والعلم والمعرفة اه ﴿وقال في المرآة ما نصه﴾ والشيخ أبو العباس أحمد بن يوسف الراشدي الملياني من كبار المشايخ أهل العلم والولاية وعموم البركات والهداية وكان كثير التلقين فقال له الشيخ أبو عبد الله الخروبي أهنت الحكمة في تلقينك الاسماء العامة حتى النساء فقال له قد دعونا الخلق الى الله فأبوا فاقنعنا منهم بان نشغل جارحة من جوارحهم بالذكر قال الشيخ الخروبي فوجدته أوسع مني دائرة ﴿قال صاحب المرآة﴾ وانتسبت اليه الطائفة المعروفة بالشراقة بتشديد الراء وهو بريء من بدعتهم فما كان الا امام سنة وهدى يقتدى به في العلم والدين قد نزهه الله وطهر جانبه وقد أظهر واشيا من ذلك في حياته فتبرأ منهم وقاتلهم وبلغ المجهود في تشريدهم قال وحدثني شيخنا أبو عبد الله النيجي أن الشيخ أبا البقاء عبد الوارث اليالصوتي لما ظهرت بدعة الشراقة وانتسابهم اليه وقع في نفسه من ذلك شيء فقيل له ان الشيخ أبا محمد الخياط من أصحابه فقال أنا تائب الى الله كفى في طهارة جانبه أن يكون الخياط من أصحابه وكانت وفاة الشيخ الملياني سنة سبع وعشرين وتسعمائة لكن ما كان ينفو ان تلك البدعة المدسوسة عليه

الا في دولة السلطان الغالب بالله كما مر والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء

## ﴿احتيال النصارى بمكيدة البارود بجامع المنصور من مراكش ووقى الله تعالى من شرها﴾

كان بقصبة مراكش جماعة من أسارى النصارى من لدن أيام أبي العباس الاعرج وأخيه أبي عبد الله الشيخ فرأوا الجم الغفير من أعيان المسلمين وأهل الدولة يحضرون كل جمعة للصلاة مع السلطان بجامع المنصور من القصبة المذكورة فحدثتهم نفسهم الشيطانية بان يصنعوا مكيدة يهلكون بها السلطان ومن معه فحفروا في خفية تحت الجامع المذكور حفرة ملؤوها من البارود ووضعوا فيها فتيلا تسري فيه النار على مهل كي ينقلب الجامع باهله وقت الصلاة فتقطعت المينا وانهدت بها القبة الواسعة من الجامع المذكور وانشق مناره شقا كبيرا ولا زال ماثلا به الى الآن وكان ذلك مبلغ ضررهم وكفى الله المسلمين شر تلك المكيدة ولم يتمكن لهم الحال على وفق ما أرادوا وكان ذلك سنة احدى وثمانين وتسعمائة

## ﴿وفاة السلطان أبي محمد عبد الله الغالب بالله رحمه الله﴾

﴿قال الشيخ أبو العباس ابن القاضي في شرح درة السلوك﴾ توفي السلطان أبو محمد عبد الله الغالب بالله يوم الجمعة الثامن والعشرين من رمضان سنة احدى وثمانين وتسعمائة بسبب غم كان يعتريه اهـ وهذا الغم هو الداء المسمى عند العامة بالضيقة أعاذنا الله منه وذكر غيره أنه توفي في شوال بسبب تكلفه للصيام فحدثت عليه العلة المذكورة وشاع على ألسنة الناس أنه بات يصلي ليلة سبع وعشرين من رمضان فوافته منيته وهو ساجد وذلك كذب ودفن رحمه الله عند ضريح أبيه بقبور الاشراف وقبره معروف ومما كتب بالنقش على رخامة قبره هذه الابيات

أيا زائري هب لي الدعاء ترحما * فاني الى فضل الدعاء فقير

وقد كان أمر المؤمنين وملكهم * الي وصيتي في البلاد شهير

فها أنا ذا قد صرت ملقى بحفرة * ولم يغن عني قائد ووزير

تزودت حسن الظن بالله راجيا * وزادي بحسن الظن فيه كثير

ومن كان مثلي عالما بحنانه * فهو بنيل العفو منه جدير

وقد جاء ان الله قال ترحما * الى ما ظن العبد بي سيصير

وحكي أن ابنه أبا عبد الله المعروف بالمسلوخ لما قرأ هذه الابيات عاقب ناظمها وقال له ان في قولك ملقى بحفرة دسيسة وتلويحا الى الحديث القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار فهلا قلت ببلقع أو نحوه

## ﴿بقية أخبار السلطان الغالب بالله وسيرته﴾

كان السلطان أبو محمد عبد الله الغالب بالله ذا سياسة وخبرة باحوال الملك وتأن في الامور ولما ولي الخلافة ألان الجانب وخفض الجناح وسار بسيرة حسنة حتى صلحت الرعية وازدانت الدنيا وانتعش الناس حتى كان يقال ثلاث عينات هم عيون الزمان السلطان المولى عبد الله والشيخ أبو محمد عبد الله بن حسين المغاري والشيخ أبو السمر ورعيادا السوسي ﴿قال اليفرني﴾ ورأيت من جملة سؤال كتب به الفقيه الصالح خطيب الجامع الاعظم بتارودانت أبو زيد عبد الرحمن التلمساني الى قاضي الجماعة أبي مهدي عيسى بن عبد الرحمن السكتاني يقول فيه ولا شك أن مولاي عبد الله مجمع على عدالته وبيعته وقد أخبرني الثقة من أصحاب الشيخ الجامع أبي العباس أحمد بن موسى السملالي أنه قال مولاي عبد الله ياقوتة الاشراف هو صالح لا سلطان وقد اشتهر بين الانام وعلى ألسنة الخاص والعام أن السلطان الغالب الله كان عدلا صالحا

ووقع فى الرسالة التى كتبها ابن أخيه السلطان أبو المعالى زيدان بن منصور الى الفقيه أبى زكرياء يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحى ماظاهره يخالف ذلك و يؤذن بانه كان كغيره من الملوك ﴿ونص﴾ المحتاج اليه من تلك الرسالة مخاطبا للفقيه المذكور يقول وقد تحققت وعلمت أن ولاية أحمد ابن موسى السملالى كادت تكون قطعية واشتهر أمره عند الخاص والعام حتى أطبق أهل المغرب على ولايته وقد كان على عهده ولاناعبد الله برد الله ضريحه وكان المولى المذكور على ما كان عليه واشتهر عنه ومابرح الشيخ المذكور يدعو له ولدولته بالبقاء و يظهر حبه وكان المولى المذكور يعزل و يولى و يقتل وكان شرد منه الى زاويته المرابط الاندلسي و ولد آصنالك وأمثالهم وكان الشيخ يقدم للشفاعة فيشفع ولا يتعقب ولا يبحث عما وراء ذلك باق على عهده ومودته وكان المولى المذكور بعث لابن حسين بسد داره فافتحها حتى أمره ولا استعظم أحد ذلك ولا أكثر فيه ولاجعله سببا لفتح الفتنة وكان قواد المذكور مثل وزيره ابن شقراء وعبد الكريم ابن الشيخ وعبد الكريم بن مؤمن العلج والهبطى والزرهونى وعبد الصادق بن ملوك وغيرهم ممن لايحضرنى ذكرهم لبعد عصرهم قد انغمسوا فى شرب الخمور واتخاذ القيان وبسط الحرير وغير ذلك من آلات الفضة والذهب وكان فى عصره أحمد بن موسى المذكور وابن حسين والشرقى وأبو عمرو القسطلى وأبو محمد بن ابراهيم التامنارتى والشيظمى وغير هؤلاء من المشايخ وأهل الدين الذين لا يسع من يدعى هذه الطريقة التقدم عليهم ولا اكتساب الفضيلة دونهم فأحسنوا السيرة ولا تعرضوا للسلطنة ولا سمع منهم ما يقدح فى ولاة الامر وقادة الاجناد ممن ذكر الذين كان الملك يدور عليهم و يرجع اليهم فى تدبيره اهـ القدر المحتاج اليه من الرسالة المذكورة ﴿قال اليفرنى﴾ ومثل هذا ماذكر بعضهم أن السلطان الغالب بالله أعطى بجر باديس للطاغية لتنقطع بذلك مادة الترك عنه ومثله ماذكر عنه أيضا أن قائده ابن تودة أخذ بعض أسوار الجديدة وعزم على فتحها من الغد فكتب اليه السلطان المذكور ينهاه عن ذلك ونظيره أيضا قضيته مع أهل غرناطة وأطال فيها هذا البعض المنقول عنه بما استنكفت من ذكره هنا قال وهذه أمور شنيعة ان صح أنه فعلها ولست أدخل فى عهدتها لانى انما رأيتها فى أوراق مجهولة المؤلف اشتملت على ذم هذه الدولة السعدية وظنى انها من وضع بعض أعدائهم لحطه من قدرهم واخراجه اياهم من النسب الشريف ووصفه دولتهم بالدولة الخبيثة فلذا تجنبت منها كثيرا من الاخبار التى لا تظن بأولئك السادة رحمهم الله فقد قال الشيخ تاج الدين السبكى رحمه الله فى طبقاته أن المؤرخين على شفا جرف هار لانهم يتسلطون على أعراض الناس وربما وضعوا من الناس تعصبا أو جهلا أو اعتمادا على نقل من لا يوثق به قال فعلى المؤرخ أن يتقى الله تعالى اهـ الا أن الملوك لا يستغرب فى حقهم أن يهدموا أساس الشريعة ليبنوا امنار رياستهم و يستهونوا عظائم الامور لتطيعهم الرعية ساعة كيف لا وشراع أفئدتهم تلعب به رياح الشهوات فتلقى سفينة فلوبهم على ساحل بحر القنوط من رحمة الله تعالى والله يسامح الجميع و يتجاوز عن كافة عصاة هذه الامة بمنه وفضله اهـ كلام اليفرنى رحمه الله ﴿ومن وزراء السلطان الغالب بالله﴾ ابن أخيه الامير الاجل الاديب الاحفل أبو عبد الله محمد بن عبد القادر بن محمد الشيخ كان من أنبل الوزراء وألطفهم مسلكا وأخفهم روحا وله عارضة فى النظم والنثر ﴿ذكر﴾ الاديب أبو محمد عبد الله بن محمد الفاسى فى كتابه الاعلام بمن مضى وغبر من أهل القرن الحادى عشر ما صورته قدم الوزير أبو عبد الله محمد بن عبد القادر السعدى من مراكش الى فاس ومعه الفقيه قاضى الجماعة أبو مالك عبد الواحد بن أحمد الحميدى والفقيه الامام أبو العباس أحمد المنجور فلما تبدت لهم معالم فاس الجديد وتاظى للشوق فى جوانحهم أوار وأبرح ما يكون الشوق يوما اذا دنت الديار من الديار أنشد الوزير المذكور لنفسه ارتجالا

أخلائى هذا المستقى وربوعه * وهذى نواعير البلاد تنوح

وذاك المصلى مطرح الشوق والاسى * وتلك منازل الديار تلوح

فقال القاضي الحميدي ارتجالا

وتلك القباب الخضر شبه زبرجد * بهن غوان طرفهن جموح
يمسن كأملود من الروض يانع * شذاهن من حول الديار يفوح

فقال الفقيه أبو العباس المنجور ارتجالا أيضا

ويرفلن في الحلات يختلن في الحلى * وفيهن أنواع الجمال وضوح
يبادرن ترقيع الكوى بمحاجر * لاقبال حب طال منه نزوح

ولما بلغت الابيات الى الاستاذ أبي العباس أحمد الزموري قال مذيلا

تأمل سنا الحسناء تحت قبابها * كشمس غدت تحت السحاب تلوح
تحلت ربوع المستقى بجمالها * وأنت الى تلك القباب تروح

وبعضهم جعل البيتين الاولين للمولى الاديب أبي محمد عبد الواحد بن أحمد الشريف السجلماسي وكان كاتبا للوزير المذكور ويجعل موضع أخلائي أمولاي والبيتين بعدهما للوزير والله تعالى أعلم والمستقى بصيغة اسم المفعول اسم بستان معروف ونظير هذا ما ذكره الاديب المذكور في اعلامه المذكور قال كان الوزير المذكور مع كاتبه المولى عبد الواحد الشريف في بعض الاسفار وأرسلت السماء بغيثها المدرار فقال الوزير المذكور

لله أشكو غداة السفح اذ ركضت * أيدي المطايا وحادي الريح يحدونا

فأجابه الكاتب المذكور

والغيم في الافق قد أرخى ذوائبه * بأسهم الودق لا ينفك يرمينا

فقال الوزير

حتى استوى الماء والآكام واستترت * معالم الرشد لا خريت يهدينا
فظلت الخيل في الامواج سابحة * سبح السلاحف نحو الدار يهوينا

فقال الكاتب

والنفس في قلق لبين مألفها * والشوق يحدو بنا والحال يقصينا

فقال الوزير

كأننا لم نبت والوصل ثالثنا * حتى غدا الطير فوق السرح يغشينا

وأخباره هذا الوزير ونوادره كثيرة وهو الذي أخرج بني راشد من مدينة شفشاون حسبما مر وكانت وفاته في العشرين من جمادى الثانية سنة خمس وسبعين وتسعمائة ﴿ومن وزراء السلطان الغالب بالله أيضا﴾ القائد عبد الكريم بن مؤمن بن يحيى العلج الجنوي وعبد الرحمن بن تودة وقاسم الزرهوني وأحمد الهبطي ومن ولاة مظالمه أبو عمران موسى بن مخلوف الكنسوسي وهو والي الشرطة وكان فقيهما مشاركا ﴿وذكر بعضهم﴾ أن الشيخ الصالح أبا العباس أحمد بن موسى السملالي كان في بعض قدماته على السلطان الغالب بالله قد انحشر الناس لزيارته بزاويته فوقف أبو عمران المذكور يذود الناس عنه ويقول رحمكم الله من زار خرج فسمعه الشيخ فقال له لا تقل ذلك وقل من جار خرج ومن كتاب السلطان المذكور محمد بن عبد الرحمن السجلماسي ومحمد بن أحمد بن عيسى وغيرهما ﴿ومن قضاته بمراكش﴾ الفقيه قاضي الجماعة أبو القاسم بن علي الشاطبي وبفاس أبو عبد الله العوفي وأبو مالك عبد الواحد الحميدي رحمهم الله

## ﴿الخبر عن دولة السلطان أبي عبد الله محمد المتوكل على الله ابن السلطان عبد الله الغالب بالله رحمه الله﴾

لما توفى السلطان الغالب بالله بحضرة مراكش كان ابنه محمد هذا بفاس وكان ولى عهد أبيه فاجتمع أهل العقد والحل بمراكش واستأنفوا له البيعة وكتبوا بها اليه فوصلت اليه وهو بفاس أوائل شوال سنة احدى وثمانين وتسعمائة فبايعه أهل فاس وتم أمره ﴿قال ابن القاضى﴾ أمه أم ولد وكنيته أبو عبد الله ولقبه المتوكل على الله ويعرف عند العامة بالمسلوخ لانه سلخ جلده وحشى تبنا كما سيأتى * وكان مما وقع فى أيامه أنه كانت بين المسلمين وبين نصارى طنجة وقعة بالرملة المسماة بأبى غاص من فحص طنجة قرب قنطرة عصماء وذلك يوم الاربعاء منتصف جمادى الاولى سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة وفى هذه الوقعة استشهد الشيخ أبو مهدى عيسى بن الحسن المصباحى دفين الدعادع على وادى مضى من عمل القصر فانه حمل بعد استشهاده الى الموضع المذكور فدفن بازاء قبر أبيه فى الروضة التى هنالك واستمر أمر أبى عبد الله المتوكل منتظما الى أواخر سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة فقدم عليه عمه عبد الملك بن الشيخ بجيش الترك فانتزع ملكه وبدد ملكه على مانذكره ويقال انه كان أضمر الفتك بعميه أحمد وعبد الملك ففرا منه الى ناحية الترك على ماسيأتى قالوا وكان السلطان المذكور فقيها أديبا مشاركا مجيدا قوى العارضة فى النظم والنثر وكان مع ذلك متكبرا تياها غير مبال باحد ولا متوقفا فى الدماء عسوفا على الرعية ومن شعره قوله

فقم بنا نصطبح صهباء صافية * فى وجهها عسجد فى وجهه نقط
وانهض اليها على رغم العدا وانقا * فان تأخير أوقات الصبا غلط

﴿ومن شعره أيضا قوله﴾

ساروا فسار فؤادى اثر ظعنهم * وخلفونى نحيل الجسم حيرانا
لا افترثغر الثرى من بعد بينهم * ولا سقى هاطل وردا ورىحانا

كان خليفته بمراكش القائد ابن شقراء وحاجبه أحمد بن حمو الدرعى وكتابه يونس بن سليمان الشاملى وعلى بن أبى بكر وغيرهما رحمهم الله تعالى

## ﴿الخبر عن دولة السلطان أبى مروان عبد الملك المعتصم بالله ابن محمد الشيخ وأولية أمره ومآله﴾

كان أبو مروان عبد الملك بن أبى عبد الله الشيخ السعدى وأخوه أبو العباس أحمد المدعو بعد بالمنصور مقيمين بسجلماسة سائر أيام أبيهما فلما توفى وولى الامر بعده ابنه الغالب بالله فر عبد الملك وأحمد الى تلمسان خوفا على أنفسهما منه فاقاما عند صاحبها حسن بن خير الدين مدة ولحق بهما أخوهما عبد المؤمن فصار ثالثة الاثافى ثم انتقلوا بعد ذلك الى الجزائر ومنها ركب عبد الملك البحر الى القسطنطينية متطارحا على صاحبها السلطان سليم بن سليمان العثمانى رحمه الله فامده بالجند حتى ملك المغرب كما سيأتى ﴿ولنذكر هنا كيفية استيلاء العساكر العثمانية على تونس وانقراض أمر الحفصيين منها ثم نرجع الى بقية أخبار السلطان أبى مروان المعتصم بالله لانها تنبنى على ذلك فنقول﴾ اعلم ان أمر بنى أبى حفص أصحاب تونس كان قد مرج فى هذه المدة وتداعى الى الاختلال وكان خير الدين باشا التركى المتقدم ذكره فى أخبار تلمسان قد استولى على تونس فى حدود الاربعين وتسعمائة وغلب عليها صاحبها الحسن بن محمد الحفصى ففر الحسن المذكور الى طاغية الاصبنيول صاحب قشتالة فأعطاه العساكر وجاء بها الى تونس فنزل عسكر النصارى ببرج العيون قرب حلق الوادى وتقدموا الى تونس فملكوها وانهزم خير الدين الى الجزائر وشارك النصارى الحسن بن محمد فى امرة تونس واستباحوا أهلها قتلا وأسرا ونهبا يقال أنهم قتلوا من أهل تونس الثلث وأسروا الثلث وأبقوا الثلث وكل ثلث ستون ألفا هكذا عند صاحب الخلاصة النقية ثم ملكوا الموضع المسمى بحلق الوادى وليس هنالك واد عذب وانما هو جون دخل من البحر فى

البر وعليه مرسى تونس ثم بنى النصارى فى الحلق المذكور حصناعاديا أقاموا فى بنائه نحو ثلاث وأربعين سنة بحيث عجز الترك عن هدمه لما ملكوه بعد ثم ثار على الحسن ابنه أحمد المدعو حميدة وملك الحضرة مدة وقاتل نصارى حلق الوادى فامتنعوا عليه ثم غزاه علي باشا صاحب الجزائر واستولى على تونس سنة سبع وسبعين وتسعمائة وطرد أحمد عنها فذهب أحمد الى طاغية قشتالة مستغيثا به شأن أبيه من قبله هذا كله ونصارى الحلق لازالوا متمكنين منه أى تمكن فأمد الطاغية أحمد المذكور باسطول عظيم واشترط عليه أداء مال فالتزمه ولما وصل الاسطول الى ظاهر تونس اطلع قائده السلطان أحمد على كتاب من الطاغية مضمنه المشاركة فى الحكم فأنكر أحمد ذلك وأنف منه وذهب الى صقلية فبقى بها الى ان مات وحمل الى تونس وكان هنالك أخوه محمد بن الحسن فرضى بالمقاسمة ودخل النصارى الى تونس فاستولى عليها وملك قصبتها وجالسه شريكه النصرانى بها وانتهبت المدينة وأهين الدين وعم الخراب وتكدر المشرب وتفرق الجمع وارتبطت خيل العدا بالجامع الاعظم وألقيت مافيه من نفائس الكتب بالطرق ونبش قبر الشيخ أبى محفوظ محرز بن خلف فلم يوجد فيه الا الرمل حماية من الله له وحاشى أن تعدو الارض على جسد مثله وأرسل محمد بن الحسن الى الناس بالامان واستمالهم النصرانى بعد بكاذب الرفق فاقاموا ابدا رمذلة وهوان واتصل ذلك كله بالسلطان سليم بن سليمان العثمانى فأعظمه وجهز العمارة للحين مع الوزير سنان باشا يقال كانت أربعمائة وخمسين قطعة فخرج بها الوزير المذكور من القسطنطينية وهى اصطنبول غرة ربيع الاول سنة احدى وثمانين وتسعمائة ووصلوا الى حلق الوادى فى الرابع والعشرين منه وكان حيدر باشا صاحب القيروان ومصطفى باشا صاحب طرابلس محاصرين لتونس قبل ذلك حتى فتر عزمهم فلما قدم عليهم سنان باشا قويت نفوسهم واعصوصبوا عليه وتقدموا الى الحصن الذى بحلق الوادى فحاصروه حتى اقتحموه عنوة سادس جمادى الاولى من السنة المذكورة أعنى سنة احدى وثمانين وتسعمائة واستلموا من به وغنموا مافيه والتجأ محمد بن الحسن الحفصى وأنصاره من النصارى الى البستيون وهو حصن آخر كانوا قد بنوه خارج باب تونس فحاصرهم سنان باشا به حتى اقتحمه عنوة وقتلوا من به وامتلأت أيديهم من المغانم وطهر الله بهم البلاد وكانت احدى الوقائع الجليلة القدر الباقية الذكر وظفر الوزير بمحمد بن الحسن فاحتمله معه الى السلطان سليم فاعتقله فى يدقلة أحد حصونه حتى هلك وانقرضت بهلكه دولة بنى أبى حفص التى هى بقية الموحدين ﴿واذا علمت هذا﴾ فاعلم ان استيلاء العساكر العثمانية على تونس كان قبل وفاة السلطان الغالب بالله بنحو خمسة أشهر لان وفاته كانت فى آخر رمضان سنة احدى وثمانين وتسعمائة كامر وفتح تونس كان فى جمادى الاولى من السنة المذكورة ﴿ووقع فى النزهة﴾ أن فتح تونس كان سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة وهو غير صواب والله تعالى أعلم

## ﴿مجيء السلطان أبى مروان عبد الملك بن الشيخ السعدى بعسكر الترك واستيلاؤه على المغرب﴾

(اعلم) انه وقع فى النزهة وغيرها أن عبد الملك بن الشيخ وأخاه أحمد كانا فى ابتداء أمرهما بسجلماسة فلما توفى أبوهما وولى أخوهما الغالب بالله لحقا بتلمسان فاقاما بها مدة ثم انتقلا الى الجزائر فلما اتصل بهما خبر وفاة أخيهما الغالب وولاية ابنه محمد المتوكل من بعده ركب عبد الملك البحر الى القسطنطينية وتطارح على ملكها العثمانى فى أن يمده بجيش لملك المغرب فتثاقل عنه العثمانى الى ان بعث بالعمارة لفتح تونس فشهد عبد الملك الفتح وعاد اليه بالبشارة فاسعفه وهذا غير صواب من جهة أن فتح تونس كان متقدما على وفاة الغالب بالله كامر اللهم الا اذا كان عبد الملك وفد على العثمانى مستعديا على أخيه الغالب بالله وفى أثناء ذلك توفى وولى ابنه المتوكل فيكون الكلام صحيحا وأما ما فى النزهة مما يقتضى تأخر فتح تونس عن وفاة

الغالب بالله فغير صواب كما مر ﴿ولنذكر ما حكوه من ذلك فنقول﴾ لما بويع السلطان أبو عبد الله محمد المتوكل على الله كان عبد الملك بن الشيخ وأخوه أحمد المدعو بعد بالمنصور بالجزائر فركبا البحر الى القسطنطينية العظمى قاصدين السلطان سليم بن سليمان العثماني رحمه الله ومع عبد الملك أمه سحابة الرحمانية وزعم بعضهم أن التي كانت معهما مسعودة الوزكيتية وهي أم أحمد منهما فانتهيا الى القسطنطينية وتعلقا بكبراء الدولة حتى أدخلوهما على السلطان سليم ودخلت أمهما داره وطلبوا منه أن يبعث معهم العساكر لتملك المغرب ويقوموا فيه بدعوته فتثاقل عنهم مدة الى ان كان الغزو الى تونس فكتب السلطان سليم الى أهل الجزائر وأهل طرابلس أن يوجهوا قراصينهم لحصار تونس مع العمارة الموجهة من قبله فطلب عبد الملك وأخوه أحمد من الدولاتي "وهو صاحب الجزائر" أن يجعل لهما رياسة قرصان منها يتوجهان فيه للجهاد معه فأعطاهما غليوطة فيها ستة وثلاثون رجلا فركباها ولحقا بعمارة السلطان سليم في جملة مراكب الجزائر هكذا وقع في سياقة هذا الخبر وهو يقتضي أنهما كانا يومئذ بالجزائر لا بالقسطنطينية فلعلهما عادا اليها من عند السلطان سليم الى ان سافرا في جملة عسكر الجزائر والله تعالى أعلم ولما فتحوا تونس واستأصلوا من بها من الكفار حسبما مر عين رئيس العمارة العثمانية مركبين يتوجهان بكتاب الفتح الى السلطان سليم فطلب منه عبد الملك وأحمد أن يأذن لهما في الذهاب معهما بالغليوطة ليأتيا بأمهما التي تركاها هنالك فلم يزل بالرئيس المذكور حتى أسعفهما فكان من قدر الله تعالى ان هاج البحر عليهم ذات ليلة ففرق مراكبهم ولما أصبح عبد الملك وأحمد لم يجدا المركبين أثرا فوافقهم السعد وساعدتهم الريح فوصلوا الى القسطنطينية قبل المركبين بثلاث واتصل خبرهما بالصدر الاعظم فأحضرهما وسألهما عن العمارة وما كان منها فأخبراه بفتح تونس وقصا عليه الحديث من البدء الى التمام فأعلم السلطان سليما بهما فأدخلهما عليه وسألهما كذلك فأخبراه وسألهما عن كتاب الفتح فقالا ان أمير العمارة قد بعث به مع مركبين صحبناهما الى ان فرق بيننا البحر ولم ندر ما كان منهما بعد ذلك ولما رأيا من السلطان سليم تنزلا واهتزازا لكلامهما طلبا منه في بشارتهما أن يبعث معهم العساكر الى المغرب وشفعا في انزال رأس والدهما ودفنه فقبل شفاعتهما ثم أمر بهما الى بعض المنازل فأنزلهما به وأكرمهما وبعث اليهما بالام التي كانت هنالك وأرجأ أمرهما الى قدوم الخبر اليقين وبعد ثلاث قدم المركبان ومعهما كتاب الفتح وظهر صدق عبد الملك وأحمد فحينئذ أقبل عليهما السلطان سليم وأعطاهما مالا وسلاحا وزادا وكتب لهما فرمانا للدولاتي صاحب الجزائر ليبعث معهما خمسة آلاف من عسكر الترك تطأ معهما أرض المغرب الاقصى ولما قدما على الدولاتي بالفرمان وقرأه على أهل الديوان قالوا اعلمنا الرجال وعليهما المال وهذه عادتنا مع السلطان ولما لم يكن عندهما مال يومئذ تطارحا على الخزندار وعلى الاغا والوكيل وأهديا اليهم ورغبا منهم أن يسلفوهما ما ينفقانه في وجهتهما تلك الى ان يبعثا به اليهم من المغرب فسهلوا لهما وقوموا العسكر بما يحتاج اليه وفرضوا له المؤنة كل يوم بيومه الى ان يرجع وأشهدوا عليهما بذلك في دفتر فقبلا وأعطوا خطوطهما به ثم نهض عبد الملك وأخوه الى المغرب يجران عساكر الترك خلفهما وكتب عبد الملك الى شيعته بالمغرب يعرفهم قدومه ويعدهم ويمنيهم الى ان كان من أمره ما كان وساق اليفرني هذا الخبر وفيه بعض مخالفة لما تقدم قال لما فتحت تونس كان عبد الملك أول من أرسل البشارة مع أصحابه الى السلطان العثماني فبلغت الرسالة أمه سحابة الرحمانية فأعطتها السلطان المذكور والتمست منه أن يعطيها في بشارتها أمر أهل الجزائر بالذهاب معها الى المغرب فأعطاها ذلك فجاء عبد الملك مع أمه بكتاب السلطان الى أهل الجزائر يأمرهم بالمسير معه لتملك ما كان بيد آبائه فطالبه أهل الجزائر بالراتب فقال لهم أسلفوني وعلي "القضاء فاتفق معهم أن يعطيهم عشرة آلاف لكل مرحلة وكان عدد جيش الترك أربعة آلاف ﴿وقال في شرح الدرة﴾ ان عبد الملك طلب من رئيس الترك أن

يعينه بحصة منهم توصله الى تخم بلاده ليدخلها اذ الجند كله جند أبيه لا يمكن ان يقاتلوه و يضربوا في وجهه لتعظيمهم اياه فاسعفه على مراده وأرسل معه عصابة وحصة قليلة فاقبل بهم حتى انتهى الى الموضع المعروف بالركن من أحواز فاس فلما سمع بذلك ابن أخيه محمد المتوكل خرج للقائه بنفسه ولما التقى الجمعان نزع رئيس جند الاندلس سعيد الزغالى الى عبد الملك وكان عبد الملك يكاتب حاشية المتوكل و بطانته ورؤس أجناده ويعدطائعهم و يوعد عاصيهم فلما سمع المتوكل بما فعله جند الاندلس فت ذلك في عضده وفشلت ريحه وأيقن بالنكبة ظنا منه أن جنده كله سيفعل فعل الزغالى فكان ذلك سبب جزعه وفراره من المعركة وسبب خراب ملكه واقامة ملك عمه ويقال ان بعض الجند لما سمع بان القائد جرمون وأولاد عمران نزعوا الى عبد الملك أيضا جاء الى المتوكل وقال له ان القائد ابن شقراء قد غدر وفر الى عبد الملك وكان ابن شقراء هذا من أكبر قواده وأصدقهم لديه فارتاع المتوكل لذلك وانقلب منهزما وانتهبت خزائنه وأوقد فيها النار ونفط ما كان بها من البارود حتى رىء من رؤس الجبال ولما انهزم المتوكل بالركن عطف على فاس الجديد فاخذ منها ما يعز عليه من الذخيرة ثم خرج على وجهه الى مراكش لا يلوى على شئ فلحق به القائد ابن شقراء بوادى النجاة على مقربة من فاس وأغلظ له في القول ولامه على عدم التأني والتثبت وكان أمر الله قدرا مقدورا

## ﴿استيلاء السلطان أبي مروان عبد الملك المعتصم بالله على حضرة فاس وما يتبع ذلك﴾

لما انهزم المتوكل بالركن وأجفل الى مراكش تقدم عمه أبو مروان الى فاس فدخلها واستولى عليها يوم الاحد سابع ذي الحجة سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة من باب الفتوح وبعد ان دخلها وبايعه أهلها أقام بها أياما ثم طمحت نفسه الى اتباع ابن أخيه الى مراكش ولما عزم على النهوض اليه طالبه الترك بان يردهم الى بلادهم وأن يعطيهم المال الذى اتفق معهم عليه وهم يسمونه بلغتهم البقشيش فبذل لكل واحد منهما أربعمائة أوقية واستسلف المال من تجار أهل فاس حتى يتسع حاله فكان جملة ما أعطى الترك خمسمائة ألف وأعطاهم عشرة من الانفاض منها النفض الكبير الذى له عشرة أفواه وزادهم من تحف المغرب وطرفه ما سلى به نفوسهم وركب لوداعهم بنفسه الى نهر سبو ثم رجع الى فاس وفي هذه المدة قبض على قاضيها الفقيه أبي مالك عبد الواحد بن أحمد الحميدى لامر نقمه عليه وأودعه السجن فبعث الفقيه المذكور أولاده الى الشيخ الصالح أبي النعيم رضوان بن عبد الله الجنوي يطلب منه أن يشفع له عند السلطان المعتصم بالله فكتب اليه الشيخ أبو النعيم يحضه على الاستشفاع بالنبي صلى الله عليه وسلم والاستمساك بحبله لانه باب الله الاعظم فقبل القاضي اشارته وتوجه الى ربه بكليته فاتاه الفرج من حينه رحم الله الجميع عنه

## ﴿نهوض السلطان أبي مروان الى مراكش واستيلاؤه عليها وفرار ابن أخيه الى السوس وما نشأ عن ذلك﴾

ثم ان السلطان أبا مروان انهض من فاس في جنده الذى أقامه وكان غرس يده وفيما انضاف اليه من جند ابن أخيه وتقدم الى البلاد المراكشية قاصدا حربه وتشريده عنها ولما سمع ابن أخيه بخروجه اليه وقصده اياه تهيأ لملاقاته وسار الى منازلته فالتقى الجمعان بموضع يسمى خندق الريحان على مقربة من وادى شراط من أحواز سلا فكانت الهزيمة أيضا على المتوكل وفر برأس طمرة ولجام وأجفل كعادته اجفال النعام وتبعه أحمد المنصور خليفة أخيه أبي مروان يومئذ فلما سمع المتوكل باتباعه بعد بلوغه الى مراكش فر عنها الى جبل درن وأسلم له مراكش فدخلها أحمد نائبا عن أخيه وأخذ له البيعة على أهلها ثم لحق به السلطان أبو مروان فدخلها يوم الاثنين تاسع عشر ربيع الثاني سنة أربع وثمانين

وتسعمائة وأقام بها أياما ثم خرج فى طلب ابن أخيه فعميت عليه أنباؤه وسقط بين سمع الارض و بصرها فعاد أبو مروان الى مراكش فاقام بها الى ان كان من أمره ما نذكره

﴿استخلاف السلطان أبى مروان لاخيه أبى العباس أحمد على فاس وأعمالها﴾

لما استقر السلطان أبو مروان بمراكش وانقطع خبر المتوكل عنه بالسوس تقدم اليه أخوه أحمد وسأله أن يستخلفه على فاس ليكفيه أمرها فاجابه الى ذلك و ولاه عليها ظنا منه ان أمر المغرب قد صفا له وان المتوكل لايعود اليه وكان الوزير أبو فارس عبد العزيز بن سعيد الوزكيتى حاضر الطالبة والعطية فانكر ذلك ولم يره صوابا وقال لا ينبغى لكما أن تقعدا حتى يحكم الله بينكما وبين ابن أخيكما فغاظ ذلك أحمد وظن انه من سوء رأى عبد العزيز فيه وبغضه لجانبه فاعرض عن مقالة الوزير المذكور وذهب الى فاس خليفة عليها وبقى السلطان أبو مروان بمراكش وفى هذه المدة كتب السلطان أبو مروان لاخيه أحمد برسالة يقول فيها ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما من عبد الله المعتصم بالله المجاهد فى سبيل الله أمير المؤمنين أبى مروان عبد الملك ابن أمير المؤمنين أبى عبد الله محمد الشيخ الشريف الحسنى أيده الله وأعز نصره وأسعد زمانه المبارك وعصره وأبقى بمنه فخره من املائه أيده الله ونصره الى أخينا الاعز الاحظى بابا أحمد حفظه الله السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد فاعلم انى لا أحب أحدا بعد نفسى كمحبتى لك ورغبتى فى انتقال هذا الامر بعدى اليك لالغيرك غير انى أعتاد منك التراخى فى الامور حتى انك لاتبالى بعظيم الامر ولا تعتبره الى ان يتطرق الى مالا بد لافى جبره من الامور التى تكاد لولا لطف الله تذهب بهذا الملك وتهد أركانه ويبلغ العدو معها مناه ومراده من ذلك التراخى اهمالك أمر الجند الذى بالعرائش واغفالك له مع ما يترادف عليك فى كل ساعة من تلقائه من استدعاء ما دعت الحاجة اليه من المؤنة والبارود والرصاص الذى لا يستقيم لهم أمر فى مقاومة العدو دون ذلك وجعلت تقابل خطابهم بالاهمال وعدم المبالاة والآن ساعة يرد عليك كتابنا هذا قبل وضعه من يدك ابعث اليهم مؤنة عشرة أيام بينما نصل ان شاء الله فيقع التدبير فيما يحتاجون اليه زائدا على ذلك مع ما عندكم هنالك من البارود والرصاص من غير عطلة ولا تراخ بحيث لانقبل منك عذرا فى هذه المسئلة التى لاتحتاج الى الاهمال ولا بد ولا بد فقد بلغنا أن صاحب النصارى بقرب آصيلا فى خمس عشرة مائة من النصارى وتمنيت أن لو حركتك الهمة للاقحام عليه فى مكانه بجيش يكسوه أردية الصغار ويرجع ساعة رؤيته الى عادته من الذل والفرار فانتبه من الغفلة وافتح عين الانتباه واليقظة فان الساعة لاتقتضى الا الحزم والتشمير عن ساعد الاجتهاد والعزم والسلام اهـ

﴿ظهور أبى عبد الله المتوكل بالسوس ومجيئه الى مراكش واستيلاؤه عليها﴾

كان أبو عبد الله المتوكل بعد فراره عن مراكش يجول فى جبال السوس ويتنقل فى قبائلها وأحيائها الى ان اجتمعت عليه طائفة من الصعاليك وتأشب عليه ما يشبه أن يكون جيشا فاستهوتهم منه الاضاليل وقادهم قود الملك الضليل وجاء بهم الى مراكش فسمع به السلطان أبو مروان فخرج للقائه فخالفه المتوكل وسلك طريقا غير طريقه وجاء غير بخفه وقصد مراكش فدخلها باتفاق أهلها ونصروه وكتبوا له البيعة الا انه لم يتمكن من القصبة لان السلطان أبا مروان كان قد ترك بها أخته الست مريم فى نحو ثلاثة آلاف من الرماة فتحصنوا بها وبلغ الخبر أبا مروان باستيلاء المتوكل على مراكش فرجع عوده على بدئه الى ان وافى الحضرة فحاصره بها وكتب الى أخيه أحمد الخليفة على فاس أن يأتيه بجيش منها فأتاه به أحمد مسرعا ولما انتهى الى مراكش اجتمع بالوزير أبى فارس الوزكيتى فقال له أوقفت على الرأى أول الفكرة آخر العمل فبانت لاحمد نصيحته وزال ما كان يختلج بصدره عليه ولما جاء أحمد بجيش فاس أسلم

المتوكل شيعته من أهل مراكش وفرّ الى السوس فبقي أهل مراكش متمادين على الحصار الى ان اتفق السلطان أبو مروان مع أعيان جراوة فادخلوه من بعض الاسوار والانقاب ولما فرّ المتوكل الى السوس تبعه أحمد المنصور فكانت بينهما هنالك حروب عظيمة أتاح الله فيها النصر للمنصور ومنها وقعة تيترزت التي أنشده فيها وزيره الكاتب أبو الحسن علي بن منصور الشيظمي البيتين اللذين قالهما فيه الكاتب أبو عبد الله بن عيسى وهما

هو الغيث والبحر الغطمطم في الندى * وليث اذا احتدم الطعان هصور
يفوق السهام عزمه وانبعاثه * ويقصر عنه في الثبات ثبير

فاجابه أحمد المنصور ببيتي أبي فراس الحمداني وهما

ونحن أناس لا توسط عندنا * لنا الصدر دون العالمين أو القبر
تهون علينا في المعالي نفوسنا * ومن خاطب الحسناء لم يغلها المهر

ومنها الوقعة التي بعدها بابساطين المنصور وهو في نحو ثلاثة آلاف والمتوكل في نحو ستين ألفا ومع ذلك هزمه المنصور ﴿قلت﴾ كان أحمد المنصور هذا مجدودا محظوظا مسعودا بحيث أربت سعادته على شجاعته وما كان أخوه عبد الملك يسري الا في ضوء طلعته وعن نقيبته فلذا كان يقدمه في الحروب ويستكفي به في نوازل الخطوب ومن سعادته ما اتفق له في ذهابه الى العثماني بخبر الفتح وتقدمه قبل الكتاب بثلاث حتى تسنى له من جانب السلطان المذكور ما كان سببا في استيلائهما على المغرب وستسمع في أخبار دولته من أنباء سعاداته ما تقف به على حقيقة الحال ان شاء الله وأما أمر المتوكل فانه بعد توالي الهزائم عليه فرّ الى جبل درن وتوغل في قننه ثم فرّ منه الى باديس فاقام بها مدة ثم ذهب الى سبتة ثم دخل طنجة مستصرخا بعظيم البرتقال والله تعالى لا يهمل من حقوق عباده وزن المثقال

## ﴿الغزوة الكبرى بوادي المخازن من بلاد الهبط والسبب فيها﴾

كان من خبر هذه الغزوة أن السلطان المخلوع أبا عبد الله محمد بن عبد الله السعدي لما دخل طنجة قصد طاغية البرتقال واسمه سبستيان بكسر السين وفتح الباء والسين وسكون التاء القريبة من الطاء وهو طاغيتهم الاعظم وليس قائد الجيش فقط على ما هو المحقق في تواريخهم وتطارح عليه وشكا اليه ما ناله من عمه أبي مروان المعتصم بالله وطلب منه الاعانة عليه كي يسترجع ملكه وينتزع منه حقه فاشكاه الطاغية واجاب دعوته وصادف منه شرها الى تملك سواحل المغرب وأمصاره فشرط عليه أن يكون للنصارى سائر السواحل وله هو ما وراء ذلك فقبل أبو عبد الله ذلك والتزمه وحينئذ جمع الطاغية جموعه واستوعب كبراء جيشه ووجوه دولته وعزم على الخروج الى بلاد الاسلام ﴿ومن المتواتر في تواريخ الافرنج﴾ ان كبار دولته حذروه عاقبة هذا الخروج ونهوه عن التغرير ببيضة البرتقال وتوريطها في بلاد المغرب وقبائله فصم عن سماع قولهم ولج في رأيه وملك الطمع قلبه وأبى الا الخروج فأسعفوه وخرج من طنجة في جيش ﴿قال ابن القاضي في المنتقى المقصور﴾ عدده مائة ألف وخمسة وعشرون ألفا ﴿وقال أبو عبد الله محمد العربي الفاسي في مرآة المحاسن﴾ يقال أن مجموعهم كان مائة ألف وعشرين ألفا وأقل ما قيل في عددهم ثمانون ألف مقاتل وكان مع محمد بن عبد الله نحو الثلاثمائة من أصحابه قال بعضهم وكان عدد الانفاض التي يجرونها مائتين وقصدوا اهلاك المغرب وحصد المسلمين وادارة رحى الهوان على الدين فعظم ذلك على الناس وامتلأت صدورهم رعبا وقلوبهم كربا وبلغت القلوب الحناجر واتقدت بها نيران الهواجر وكان محمد بن عبد الله المذكور قد كتب عند خروجه بجيش البرتقال الى بلاد الاسلام رسالة بعث بها الى أعيان المغرب من علمائه وأشرافه وذوي رأيه يغمص عليهم بها في

نكث بيعته ونقضها ومبايعة عمه من غيره وجب شرعي وقال لهم ما استصرخت بالنصارى حتى عدمت
النصرة من المسلمين وقد قال العلماء أنه يجوز للانسان أن يستعين على من غصبه حقه بكل ما أمكنه
وتهددهم فيها وأبرق وأرعد وقال فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وسمى النصارى أهل العدوة
واستنكف من تسميتهم نصارى فأجابه علماء الاسلام رضوان الله عليهم عن رسالته تلك برسالة دامغة
لجيش أباطيله وفاضحة لركيك تاويله ﴿وهذا نص جواب تلك الرسالة حرفا حرفا﴾ الحمد لله كما يجب
لجلاله والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير أنبيائه وارساله والرضا عن آله وأصحابه الذين هجروا
دين الكفر فانصروه ولا استنصروا به حتى أسس الله دين الاسلام بشروط صحته وكماله (وبعد) فهذا
جواب من كافة الشرفاء والعلماء والصلحاء والاجناد من أهل المغرب وفقهم الله لمولانا محمد ابن مولانا عبد
الله السعدي عن كتابه الذي استدعاهم فيه لحكم الكتاب والسنة واستدل بحججه الواهية المنكبة عن
الصواب قائلين له عن أول حجة صدر بها الخطاب لو رجعت على نفسك اللوم والعتاب لعلمت أنك
المحجوج والمصاب فقولك خلعنا بيعتك التي التزمناها وطوقناها أعناقنا وعقدناها فلا والله ما كان
ذلك منا عن هوى متبع ولا على سبيل خارج عن طريق الشرع مبتدع وانما ذلك منا على منهج
الشرع وطريقه وعلى سبيل الحق وتحقيقه وسنشرح لك ذلك ونبينه ونسطره لك بالادلة الشرعية
التي ترقيه وتزينه نعم كنت سلطانا باجماعة ذلك والدك من البيعة وترك لك من الاموال والعدد والحصون
مما لم يتهيأ مثله لاحد من أسلافكم الكرام رضوان الله عليهم فجاهدوا بما حصل لهم من ذلك في الله حق
جهاده حتى استخلصوا من أيدي الكفار رقاب عباد الله وحصون بلاده وأسسوا الدين الله قواعد وأركانا
وملكوا من المغرب بلادا معتبرة وأوطانا فلما وصل ذلك اليك ألقت اليك العباد أعنتها وملكتك
أزمتها غير مبدلين ولا مغيرين ولا باغين ولا منكرين الى أن قام عليك عمك بحجته التي لا يمكنك
جحدها حسبما ثبت كما يجب عقدها فخرجت مبادرا له بدفعها ولقيته بها وأنت واسطة عقدها وحامل
راية عهدها وعمك في قشة لا يخطر على بال عاقل أن يقابل جندا من جنودك أو يدافع ما تحت لواء من
ألويتك وبنودك فما هو الا أن جرى القتال وحضر النزال رجعت على عقبك هاربا وهروب مطرود
بقصاص وجنودك تناديك ولات حين مناص فتركت عددك ومحلتك بكل ما فيها وخلفتها العدوك
ينهبها ويسبيها وهربت عن مدينة فاس المحروسة وسكانها بنادونك ان تركتنا والى من تكلنا فلم تلتفت
اليهم وأسلمت بلادهم على ما فيها من خزائن الاموال والعدد الوافرة والرجال والاسوار المرتفعة
المانعة والمدينة المشهورة الجامعة فاصبح أهلها واليد العادية من المفسدين تريد أن تمتد الى الحريم
والاولاد والطارف والتلاد ولا دافع عن الضعفاء والمساكين الا الله تعالى الذي قال في مثلهم ومن
أصدق من الله قيلا لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا فأمكهم بعدهم وبك عنهم وأسلمك
لهم فوضى مهملين الا النظر في أمرهم واعمال الفكر في التدبير على أنفسهم فبينما هم على ذلك اذا
بعمك بجنوده على باب مدينتهم قائما بحجته سالكا ذلك سبيل أبيه رحمه الله وحجته حسبما تقرر ذلك
عندكم وظهر ولم يخف عنكم منه عين ولا أثر اذ كان مولانا محمد الجد الاكبر عهد لاولاده مولانا أحمد
ومولانا محمد الشيخ واخوانهم لا يتولى الخلافة منهم ولا من أولادهم الا الاكبر فالاكبر فالتزموا ذلك
الى أن كبر أولادهم فطلب جدك من عمك الوفاء بذلك فامتنع فقاتله على ذلك حتى تم له الامر وانتظم
فعهد لوالدك الذي كان أكبر أولاده فلم ينازعه أحد في ذلك الى أن ألقى والدك رحمه الله ذلك وعهد اليك
فلم ينازعكم أحد فأبى الله الا الحق فاعطى ملكه لعمك الذي هو أكبركم بعد أبيك فان سلمت هذا فأي حجة
تدلي بها وأي طريق تعتمد عليها وان أنكرت هذا فلا أثر لخلافة أبيك من قبلك ولا لجدك من قبله
لثبوتها لعمكم مولانا أحمد اذ لا حجة حينئذ لجدك في القيام على عمك فخلافته صحيحة لبيعة جدك له فلم يبق

الا التغلب الذى تدلى به فى مسئلة عمك وفى قيامه عليك فان كنت تريد أن تسقط حجته بالتغلب عليك فحجتك أبين فى السقوط لعدم ثبوت الخلافة لمن عقدها لك اذ المعدوم شرعا كالمعدوم حسا فلم يبق بينكم الا والملك بعد أبى ليلى لمن غلبا فيلزمك على هذا أن تثبت ما عقده مولانا الجد رحمه الله وعليه فالخلافة لعمك القائم عليك اذ هو أكبركم فى هذا التاريخ ﴿فان قلت﴾ ان ما عقده الجد غير صحيح ﴿قلنا﴾ فقد ذكر الامام الماوردى رحمه الله ورضى عنه فى كتاب الاحكام السلطانية له فى باب عقد الخلافة ان عبد الملك ابن مروان رتبها فى الاكبر فالاكبر من بنيه فلم ينازعه أحد فى ذلك ﴿فان قلت﴾ فعل عبد الملك ليس بحجة ﴿قلنا﴾ سكوت العلماء على ذلك وهم ماهم فى زمانه هو الحجة اذ لا يمكن أن يسكتوا على باطل واقرار أهل العصر الواحد على مسئلة من المسائل واتفاقهم عليها يقوم مقام الاجماع الذى هو حجة الله فى أرضه * وكان أيضا من محفوظات علماء فاس المحروسة ما خرجه مسلم رضى الله عنه فى صحيحه فى كتاب الامارة ما نصه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع لكل غادر لواء يوم القيامة عند رأسه يقال هذه غدرة فلان بن فلان ألا ولا غادر أعظم غدرا من أمير عامة ﴿قال القاضى﴾ أبو الفضل عياض رحمه الله فى كتاب اكمال المعلم على شرح فوائد مسلم يعنى لم يحطهم ولم ينصح لهم ولم يف بالعقد الذى تقلده من أمرهم وفى الباب نفسه عنه عليه الصلاة والسلام ما نصه ما من أمير استرعاه الله رعية ثم لم ينصح لهم ألا يرح رائحة الجنة وان ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام وفى الاكمال نفسه قال القاضى والذى عليه الناس ان القوم اذا بقوا فوضى مهملين لا امام لهم فلهم أن يتفقوا على امام يبايعونه ويستخلفونه عليهم ينصف بعضهم من بعض ويقيم لهم الحدود فلما أسلمتهم وأضحوا بغير امام وعمك يدلى بحجته التى ذكرنا لك مع ما حفظوه من كلام النبى صلى الله عليه وسلم وكلام السلف الصالح وأيسوا من رجوعك اليهم وبقوا فوضى مهملين لم يسعهم الا الرجوع الى ما عليه الناس رضوان الله عليهم فاتفقوا على أن بايعوا عمك لما ذكرنا لك من الحجج التى لا يسعك جحدها الا على وجه المكابرة فاطمأن الناس وسكنوا وانفتحت السبل وأقيمت الحدود وارتفعت اليد العادية ﴿فان قلت﴾ كان يجب على أهل فاس أن يقاتلوا على البيعة التى التزموها لك ﴿قلنا﴾ انما يلزمهم القتال ان لو أقمت بين أظهرهم فيكون قتالهم على وجه شرعى لان القتال على الحدود الشرعية انما يكون بعد نصب امام يصدر الناس عن رأيه ولا يمكنك أيضا جحدها ايه ثم وصلت الى مراكش الغراء التى تجبى اليها الاموال من البوادى والامصار وتشد اليها الرحال من سائر الاقطار فلقيك أهلها بالترحاب والسرور وأنواع الفرح والحبور فوجدت خزائنها تتدرج ملئا من كل شئ فاما أسوارها ورحابها فهى كما قيل تربة الولى ومدرج الحلى وحضرة الملك الاولى والبرج النير الجلى فخلتها وتمكنت من أموالها وخزائنها ووافقك أهلها فانكثوا ولا غدروا ولا نحرجوا عليك فى سلطانك ولا أنكروا فطلبت أيضا قتال عمك وجندت جنود الا يجمعها ديوان حافظ ولا يعهدها لسان لافظ فخرجت اليه تجر أعنة الخيل وراءك كالسيول والرماة قد ملأت الهضاب والتلول فما كان من حديثك الا أن وقع القتال وحضر النزال بادرت هاربا محكما للعاده تاركا للرؤساء من أجنادك والقاده فخالت بهم الخطوب والرزايا واختطفتهم أيدى المنايا فتركت أيضا محلتك بما فيها من حريمك وأموالك وعدتك ثم أسرعت هاربا الى مراكش فما صدك عنها أحد من أهلها ولا قاتلك أحد لست بعلها فعملوا على القتال معك والتمنع باسوارها الحصينة والحصار داخل المدينة فلما كان الليل غدرتهم وغادرت بناتك وأخواتك وعماتك ونساءك وخرجت عنهم من القصبة وتركتهم لا بواب عليهم ولا حارس ولا راجل ولا فارس فيالها من مصيبة ما أعظمها ومن داهية ما أعضلها ولولا فضل الله ولطفه ووعده بتطهير أهل البيت لامتدت اليهم أيدى السفلة من الفسقة فاى حجة تبقى لك بعد هذا وأى كلام لك بين الرجال بأهذا ثم جاءك عمك أيضا بما سلف من الحجج فوجد أهلها فى لطف الله سبحانه وهم

يحرسون

يحرسون أولادهم وديارهم من اليد العادية فانقذهم الله به أيضا فبايعوا أعمك بما سلف من الحجج واطمأنوا وسكنوا ثم هربت للجبل عند صاحبه فصر تماني نهب أموال الرعية وسفك دمائهم وأكثر ماصفا لك من ذلك أهل الذمة المصغرون بحكم القرآن الداخلون تحت عهد سيد الثقلين في الامن والامان فانت وهم في استيلائك عليهم وظلمك اياهم كما قيل

ان هو مستوليا على أحد * الا على أضعف المجانين

ولم تبال بقول النبي صلى الله عليه وسلم أنا خصيم من ظلم ذميا يوم القيامة ثم خربت العاصر وأفسدت ماشيدت الاسلاف للاسلام من المآثر فلما رأى أهل السوس الاقصى ذلك أيقنوا انك انما قصدت خراب الاسلام وأهله فنكب عنك أهل الدين والعلم منهم وبقيت كما قيل في خلف كجلد الاجرب ﴿فان قلت﴾ ان أولئك الخلف لم يبايعوا أعمك فتنتقض بهم ماقررناه ﴿قلنا﴾ لم يطعن في خلافة أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه من تخلف عنها من أهل الشام وفيهم من قد علمت من الناس والاجماع على صحة بيعته وسمى من تخلف عنها باغيا لقول النبي صلى الله عليه وسلم لعمار تقتلك الفئة الباغية فقتله أصحاب معاوية رضي الله عنه والحديث من اعلام نبوته عليه الصلاة والسلام والقاعدة أن ما اجتمع عليه من يعتبر من أهل العصر الواحد هو المعول عليه ولا يعد خلاف من خالفه خلافا وهذا كله بالنظر الى ما كان من حديثك قبل التحزب مع عدو الدين والاخذ في التخليط العظيم على المسلمين فانك اتفقت معهم على دخول آصيلا وأعطيتهم بلاد الاسلام فبالله وبالرسوله لهذه المصيبة التي أحدثتها وعلى المسلمين فتقتها ولكن الله تعالى لك ولهم بالمرصاد ثم لم تمالك ان ألقيت بنفسك اليهم ورضيت بجوارهم وموالاتهم كأنك ما طرق سمعك قول الله سبحانه يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم ﴿قال أبو حيان رحمه الله﴾ أي لا تنتصروهم ولا تستنصروا بهم ﴿وفي كتاب القضاء من نوازل الامام البرزلي رحمه الله﴾ أن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتوني رحمه الله استفتى علماء زمانه رضي الله عنهم وهم ماهم في استنصار ابن عباد الاندلسي بالكتابة الى الافرنج على أن يعينوه على المسلمين فاجابه جلهم رضي الله عنهم بردته وكفره فتأمل هذا مع قضيتك تجدها أحروية مناسبة لقضية ابن عباد في عقدها ابتداء وانه متى طرأ الكفر وجب العزل وناهيك بقول النبي صلى الله عليه وسلم عليكم بالسمع والطاعة وبما أفتى العلماء رضوان الله عليهم بردة من استنصر بالنصارى على المسلمين فهو نص جلي في وجوب خلعك وسقوط بيعتك فلم يبق لك الا منازعة الحق سبحانه في حكمه ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب ﴿وأما قولك﴾ في النصارى فانك رجعت الى أهل العدوة واستعظمت أن تسميهم بالنصارى ففيه المقت الذي لا يخفى ﴿وقولك﴾ رجعت اليهم حين عدمت النصرة من المسلمين ففيه محظوران يحضر عندهما غضب الرب جل جلاله أحدهما كونك اعتقدت ان المسلمين كلهم على ضلال وان الحق لم يبق من يقوم به الا النصارى والعياذ بالله والثاني انك استعنت بالكفار على المسلمين ﴿وفي الحديث﴾ أن رجلا من المشركين ممن عرف بالنجدة والشجاعة جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فوجده بحرة الوبرة موضع على نحو أربعة أميال من المدينة فقال له يا محمد جئت لأنصرك فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ان كنت تؤمن بالله ورسوله فقال لا أفعل فقال له عليه الصلاة والسلام اني لا أستعين بمشرك ﴿وما سمعته﴾ من قول العلماء رضي الله عنهم في الاستعانة بهم انما هو على المشركين بان تجعلهم خدمة لا زبال الدواب لا مقاتلة فاما الاستعانة بهم على المسلمين فلا يخطر الا على بال من قلبه وراء لسانه وقد قيل قديما لسان العاقل من وراء قلبه ﴿وفي قولك﴾ يجوز للانسان أن يستعين على من غصبه حقه بكل ما أمكنه وجعلت قولك هذا قضية أنتجت لك دليلا على جواز الاستعانة بالكفار على المسلمين وفي ذلك مصادمة للقرآن والحديث وهو عين الكفر أيضا والعياذ بالله

﴿وقولك﴾ فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ايه أنت مع الله ورسوله أو مع حزبه فتأمل ماقلت
ففي الحديث يتكلم أحدكم بالكلمة تهوى به في النار سبعين خريفا ﴿ولما سمعت﴾ جنود الله وأنصاره
وحماة دينه من العرب والعجم قولك هذا حملتهم الغيرة الاسلامية والحمية الايمانية وتجدد لهم نور
الايمان وأشرق عليهم شعاع الايقان فمن قائل يقول لادين الادين محمد صلى الله عليه وسلم ومن قائل
يقول سترون ماأصنع عند اللقاء ومن قائل يقول وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين ومن
قائل يقول انما قصد التشفي بالمسلمين اذلو كان يطلب الصلاح لما صدرت منه هذه الافعال القبيحة
الى غير ذلك فجزاهم الله عن الاسلام خيرا ورضى عنهم وبارك فيهم فلله درهم من رجال وفرسان
وأبطال وشجعان فلو لم يكن منهم الا ماغيرقلوبهم عن الدين لكان كافيا في صحة ايمانهم وعظيم ايقانهم
فقد بلغ نور غضبهم لله سبحانه ساق العرش والحب في الله والبغض في الله من قواعد الايمان ﴿وقولك
أيضا﴾ متبرئا من حول الله وقوته فان لم تفعلوا فالسيف فهو كلام هذيان يدل على حماقة قائله فقط
أنباء سيفك هذا وأنت مع المسلمين في أربع وعشرين معركة لم تثبت لك فيها راية ثم زال نبوه الآن
بالكفار فهذه أضحوكة فتأملها ﴿وأما مانسبته﴾ لامام دار الهجرة فكفاك عجزا أن لم تعين لنا نصا جليا
نعتمد عليه فيما تحتج به الا انك كثرت به سواد القرطاس مغربا بذكره لا معربا بنصه ﴿ومانسبته﴾
للحنفية من أكل الميتة عند الضرورة وتسويغ الغصة بخمر فهو مما نص عليه المالكية في
مختصراتهم التي ألفوها للصبيان فعدولك عن ذلك الى الحنفية اماقصور واما الغاء لمذهب مالك رضى
الله عنه وهو النجم الثاقب ﴿وأما قولك﴾ أنتم أهل بغي وعناد فلا نسلم لك ذلك الا لو أقمت دين
أظهرناو قاتلت معنا حتى ترى أنسلمك أم لا فاما اذهربت عنا وتركتنا فالحجة عليك لا علينا على انك في
كتابك تفسق الكل بذلك وتكفره وقد قال العلماء رضى الله عنهم من يقول بتكفير العامة فهو أولى
بالتكفير وذلك معزو لزعيم العلماء القاضي أبي الوليد ابن رشد والقاضي أبي الفضل عياض وكيف لا تنظر
لقضايا تلمسان وتونس وغيرهما من سائر البلدان كيف وقع لامرائهم المستنصرين بالكفار على
المسلمين هل حصلوا على شئ مما قصدوه أو بلغوا شيأ مما أملوه على ان أكثر العلماء حكموا بردتهم ففاتتهم
الدنيا والآخرة والعياذ بالله ﴿وقد افتخرت﴾ في كتابك بجموع الروم وقيامهم معك وعولت على بلوغ
الملك بحشودهم وأنى لك هذا مع قول الله تعالى اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت
لكم الاسلام دينا ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴿وفي الحديث﴾ عن النبي صلى الله عليه
وسلم لن تغلب هذه الامة ولو اجتمع عليها من الكفار مابين لابات الدنيا ﴿وعنه﴾ صلى الله عليه وسلم أنه
قال سيقاتل آخر هذه الامة الدجال ﴿وعنه﴾ صلى الله عليه وسلم أنه قال سألت ربي ثلاثا فاعطاني اثنتين
ومنعني واحدة سألته ألا يهلكهم بسنة عامة فاعطانيها وسألته ألا يغلبهم عدوهم الكافر فاعطانيها
وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها والكل عليك واياك نعني ﴿وماذكرته عن عمك﴾ فاعلم أنه لما بلغه
خبرك واستنصارك بالكفار عقد ألويته المنصورة بالله في وسط جامع المنصور وبعد ان ختم عليها أهل
الله من حملة القرآن مائة ختمة وصحيح البخاري وضجوا عند ذلك بالتهليل والتكبير والصلاة والسلام
على البشير النذير والدعاء له والاسلام بالنصر والتمكين والفتح الشامخ المبين فلو سمعت ذلك لعلمت
وتحققت أن أبواب السماء انفتحت لذلك وقضى ماهنالك وبلغه كتابك الذي كان هذا جوابا عنه
وهو بوسط تامسنا معه من جنود الله وأنصاره وحماة دينه ما يجعل الله فيه البركة ولولا ان الشرع
العزيز أمر بتعظيم جنود الاسلام والمباهاة بها والافتخار بكثرتها لما قررنا لكم أمرها اذلا اعتماد له أيده
الله عليها وكذلك هم لا اعتماد لهم الا على حول الله وقوته ونصره وتأييده والناس على دين الملك وقد قاتلت
وأنت في وسط المسلمين في بضع عشرة معركة لم تنتصر لك فيها راية فأي نحس وشؤم حل ابديار الروم فان

جلبتهم فالله لك ولهم بالمرصاد ارجع الى الله أيها المسكين وتب اليه فانه يقبل التوبة عن عباده فى كل وقت وحين ودع عنك كلام من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله وهذه نصيحة ان قبلتها وموعظة ان وفقت اليها والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم وهو نعم المولى ونعم النصير وهو حسبنا ونعم الوكيل والسلام انتهت الرسالة ﴿وكان خروج﴾ محمد بن عبد الله بجيش البرتغال وفصوله به من طنجة فى ربيع الثانى سنة ست وثمانين وتسعمائة ﴿قال فى المرآة﴾ انهم لما خرجوا الى بلاد الاسلام ضربوا محلاتهم بالفحص على أقل من مسيرة يوم من مدينة القصر وكانت أصيلا قد تصيرت اليهم قبل ذلك باشهر يعنى بعد فرارهم عنها أيام السلطان محمد الشيخ كما تقدم فعاين أهل القصر المهلكة لقرب العدو منهم وقوته التى لا طاقة لهم بها وفشا النفاق لاجل السلطان محمد بن عبد الله الذى معهم ولاجل بعد صريخ المسلمين فان السلطان أبا مروان المعتصم بالله كان اذ ذاك بمراكش فاستبطؤا وصول الخبر اليه ثم مجيئه بعد ذلك فلم يبق لهم تدبير الا الفرار والتحصن بالجبال وغيرها فقال الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسى رحمه الله وكان اذ ذاك بالقصر لرجل من أصحابه ناد فى الناس ان ألزموا بلادكم ودوركم فان عظيم النصارى مسجون حيث هو حتى يجىء السلطان من مراكش وان النصارى غنيمة للمسلمين ومن شاء فليعط خمسين أوقية فى النصرانى يشير الى مبلغ قيمة النصرانى فى الغنيمة فما انتقل النصارى من مكانهم ذلك أكثر من شهر حتى قدم السلطان أبو مروان وكان مريضا اه ﴿وقال فى النزهة﴾ ان النصارى لما برزوا من طنجة شنوا الغارة على السواحل فأعلم أهلها السلطان أبا مروان وكان بمراكش وشكوا اليه كلب العدو عليهم فكتب السلطان أبو مروان من مراكش الى الطاغية ان سطوتك قد ظهرت فى خروجك من أرضك وجوازك العدوة فان ثبت الى أن نقدم عليك فانت نصرانى حقيقى شجاع والا فانت كلب ابن كلب فلما بلغه الكتاب غضب واستشار أصحابه هل نقيم هنا حتى يلحق بنا من خلفنا من أصحابنا فقال له محمد بن عبد الله الرأى ان نتقدم ونملك تطاوين والعرايش والقصر ونجمع ما فيها من العدة ونتقوى بما فيها من الذخائر فاعجب ذلك الرأى أهل الديوان ولم يعجب الطاغية وكتب السلطان أبو مروان لاخيه أبى العباس أحمد وكان نائبه على فاس وأعمالها أن يخرج بجيوش فاس وأحوازها ويتهيأ للقتال ثم كتب اليه أيضا فى شأن مؤنة الجيش كتابا يقول فيه من عبد الله المعتصم بالله المجاهد فى سبيل الله أمير المؤمنين أبى مروان عبد الملك ابن أمير المؤمنين أبى عبد الله محمد الشيخ الشريف الحسنى أيد الله أمره وأعز نصره الى أخينا الاعز الانجب بابا أحمد ابن مولانا الوالد قدس الله كريم اخائه سلام كريم ورحمة الله وبركاته أما بعد فانا كتبناه اليكم من محلتنا السعيدة بتامسنا ولا زائد بحمد الله الا الخير والعافية والنعم الضافية هذا وانه ساعة وصوله اليكم تخرجون من الخدام لعمالة مكناسة وقبيلة زمور وأولاد جاول من يفرض عليهم علف محلتنا المنصورة ومؤنتها ويأمرهم برفعه وابلاغه الى مدينة سلا وقدر ذلك صحفة شعير وعشرون مدا من القمح لكل نائبة وصاع من سمن وكبش لكل أربع نوائب ووكد عليهم رعاك الله أن يعتنوا بذلك وبايصاله الى المكان المذكور من غير عطلة وهذا ما وجب به الاعلام اليكم والله يرعاكم بمنه والسلام اه ثم كتب السلطان أبو مروان للطاغية ثانية وذلك بعد ما وصل الى القصر انى رحلت اليك ست عشرة مرحلة أما ترحل الىّ واحدة فرحل الطاغية من موضع يقال له تاهدارت ونزل على وادى المخازن بمقربة من قصر كتامة وكان ذلك من السلطان أبى مروان مكيدة ثم ان الطاغية تقدم بجيوشه وعبر جسر الوادى ونزل من هذه العدوة فامر السلطان بالقنطرة أن تهدم ووجه اليها كتيبة من الخيل فهدموها وكان الوادى لا مشرع له سوى القنطرة ثم زحف السلطان أبو مروان الى العدو بجيوش المسلمين وخيل الله المسومة وانضاف اليه من المتطوعة كل من رغب فى الاجر وطمع فى الشهادة وأقبل الناس سراعا من الآفاق وابتدروا حضور هذا المشهد

الجليل فكان ممن حضره من الاعيان الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسي وغيره ﴿وقال في المرآة﴾ كان الشيخ أبو المحاسن في ذلك اليوم في أحد الجناحين وأظنه الميسرة من عسكر المسلمين في مقابلة النصارى دمرهم الله قال فوقع في ذلك الجناح انكسار تزحزح به المسلمون عن مصافهم وحملت عليهم النصارى فثبت الشيخ وثبت من كان معه الى ان منح الله المسلمين النصر وركبوا أكتاف العدو يقتلون ويأسرون والشيخ لم يتزلزل ولم يلتفت منذ توجه الى قتالهم حتى فتح الله عليهم اه ولما التقت الفئتان وزحف الناس بعضهم الى بعض وحمى الوطيس واسود الجو بنقع الجياد ودخان المدافع وقامت الحرب على ساق توفي السلطان أبو مروان رحمه الله عند الصدمة الاولى وكان مريضا يقاد به في محفة فكان من قضاء الله السابق ولطفه السابغ انه لم يطلع على وفاته أحد الا حاجبه مولاه رضوان العلج فانه كتم موته وصار يختلف الى الاجناد ويقول السلطان يأمر فلانا أن يذهب الى موضع كذا وفلانا أن يلزم الراية وفلانا يتقدم وفلانا يتأخر ﴿وقال شارح الزهرة﴾ لما توفي السلطان أبو مروان لم يظهر الذي كان سائس المحفة موته فصار يقدم دواب المحفة نحو العدو ويقول للجند السلطان يأمركم بالتقدم اليهم وعلم أيضا بموته أخوه وخليفته أبو العباس أحمد بن الشيخ فكتمها ولم يزل الحال على ذلك والناس في المناضلة والمقاتلة ومعانقة القواضب والاصطلاء بنار الطعان واحتساء كؤس الحمام الى ان هبت على المسلمين ريح النصر وساعدهم القدر وأثمرت أغصان رماحهم زهر الظفر فولى المشركون الادبار ودارت عليهم دائرة البوار وحكمت السيوف في رقاب الكفار ففروا ولات حين فرار وقتل الطاغية سبستيان عظيم البرتقال غريقا في الوادي وقصد النصارى القنطرة فلم يجدوا الا آثارها فخشعت نفوسهم وتهافتوا في النهر تهافت الفراش على النار فكان ذلك من أكبر الاسباب في استئصالهم وأعظم الحبائل في اقتناصهم ولم ينج منهم الاعدد نزر وشرذمة قليلة ﴿وقال في المنتقى المقصور﴾ كانت هذه الغزوة من الغزوات العظيمة والوقائع الشهيرة حضرها جم غفير من أهل الله تعالى حتى انها أشبه شئ بغزوة بدر ﴿حدثنا﴾ شيخنا أبو راشد يعقوب البدري ممن يتق به ان الرجل من حاضري ذلك المعترك كان يستبق الى النصراني لينتهز فيه الفرصة فيدصله حتى يجده ميتا اه وبحث في القتلى عن محمد بن عبد الله المستصرخ بهم والقائد لهم الى مصارعهم فوجد غريقا في وادي المخازن وذلك انه لما رأى الهزيمة فر ناجيا بنفسه واضطر الى عبور النهر فتورط في غدير منه وغرق فمات فاستخرجه الغواصون وسلخ وحشي جلده تبنا وطيف به في مراكش وغيرها من البلاد وممن وجد صريعا في القتلى يومئذ الفقيه أبو عبد الله محمد بن عسكر الشريف الشفشاوني صاحب الدوحة فانه كان قد هرب مع المسلوخ وكان من بطانته فدخل معه بلاد العدو فوجد بين جيف النصارى قتيلا وتكلم الناس في أمره حتى قيل أنه وجد على شماله مستدبرا القبلة وفيه يقول الفقيه العلامة أبو عبد الله محمد ابن الامام الشهير أبي محمد عبد الله الهبطي رحمه الله في منظومته التي نظم فيها أصحاب أبيه معتذرا عن ابن عسكر المذكور ومشيرا الى توهين ما قيل فيه

ومنهم الشيخ الذي لا ينكر * محمد أخو الدهاء عسكر
وان يكن أتى بذنب ظاهر * فعرضه من الشكوك طاهر
رأيته في النوم ذا بشاره * وهيئة حسنة وشاره

وكان التقاء الجمعين يوم الاثنين منسلخ جمادى الاولى سنة ست وثمانين وتسعمائة ويوافقه من التاريخ المسيحي اليوم الرابع من أغشت سنة ثمان وسبعين وخمس عشرة مائة ﴿قال في المنتقى﴾ وكان مقدار زمان المقاتلة خمسا وأربعين درجة وقيل اثنتين وخمسين على ما حدثني به بعض الميقاتيين ﴿وقال في المرآة﴾ وحصل المسلمون على غنيمة لم يكن قط مثلها بالمغرب اذلم يتقدم للنصارى خروج به على هذه الصورة الا ان الغنيمة لم تقسم وانما انتهبها الناس كما اتفق لهم بحسب القوة والبخت الدنيوي وكان

الناس يتوقعون مغبتها لاختلاط الاموال بالحرام فظهر ذلك من غلاء وغيره وكنا نسمع ان البركة رفعت من الاموال من يومئذ وقد حضر الشيخ أبو المحاسن هذه الغزوة وأبلى فيها بلاء حسنا وتورّع عن الغنيمة فلم يتلبس منها بشئ وبلغت قيمة النصراني ماذكره الشيخ وكان سبب عدم ضبط الغنيمة وقسمها على الوجه المشروع موت السلطان أبي مروان قبل هزيمة النصارى وكان مريضا فاشتغل أخوه أبو العباس أحمد بجمع الكلمة ولم يهتبل بامر الغنيمة فتم له ماقصد ﴿وقد ساق﴾ منويل فى تاريخه خبر هذه الوقعة مساقا حسنا فقال لما استولى عبد الملك السعدى المدعو عند أهل المغرب بمولاى ملوك على ملك المغرب وطرد ابن أخيه مولاى محمد المعروف بالا كحل يعنى المسلوخ ذهب أولا الى اصبانيا وتطارح على طاغية الاصبنيول فيليب الثانى فى أن يعينه على استرجاع ملكه فامتنع ثم دخل اشبونة وتطارح على طاغية البرتقال سبستيان فاجابه وذهب الى خاله طاغية الاصبنيول فيليب المذكور آنفا وطلب منه الاعانة على ماهو بصدده فوعده بان يعطيه من المراكب والعساكر ماعلك به العرائش لانه كان يرى انها تعدل سائر مراسى المغرب ثم أمده بعشرين ألفا من عسكر الاصبنيول وكان سبستيان قد ساق معه اثنى عشر ألفا من البرتقال وثلاثة آلاف من الطاليان ومثلها من الالمان ومن متطوعة الاصبنيول وغيرهم عددا كثيرا وبعث اليه البابا صاحب رومة باربعة آلاف أخرى وبالف وخمسمائة من الخيل واثنى عشر مدفعا وجمع سبستيان نحو ألف مركب وجاء الى قادس ولما عزم على اقتحام بلاد المغرب تشفعت اليه جدته وأرباب دولته وشيوخ دينه فى الرجوع فصم عنهم وكذلك خاله فيليب حذره عاقبة التوغل فى أرض المغرب فصم عن ذلك كله وجاء الى قادس ومنها خرج الى طنجة وكان محمد بن عبد الله المسلوخ ينتظره هنالك فاجتمع به وزحفوا الى بلاد المغرب وزحف اليهم السلطان عبد الملك فى عساكر المسلمين وكانوا أربعين ألفا وزيادة ومدافعهم أربعة وثلاثين مدفعا وقواد الجيش أبو على القنورى والحسين العلج الجنوى ومحمد أبو طيبة وعلى بن موسى وأخوه أحمد بن موسى الذى كان عاملا على العرائش فجاء فى جمعه الى السلطان عبد الملك وانضم اليه ولما تقارب الجيشان جمع السلطان عبد الملك الناس وخطبهم ثم استدعى النصارى الى القتال ونصب لهم علامته فاجمعوا وكان قصدهم المطاولة وقصد السلطان عبد الملك المناجزة وذلك لان محمدا المسلوخ قد دس اليه من سمه ﴿قال منويل﴾ ولما أحس عبد الملك بذلك وانه لامحالة هالك بذل نفسه للقتال ليموت فى الجهاد وكان المسلوخ يتربص كى يهلك حمه قبل اللقاء فتقع الفتنة فى عسكر المسلمين لكن جيش النصارى لم تكن لهم مؤنة يطاولون بها فالجأهم ذلك الى المناجزة ولما انتشبت الحرب هلك عبد الملك لحينه ﴿قال منويل﴾ وكان أمر هذا الرجل عجبا فى الحزم والشجاعة حتى انه لما مات مات وهو واضع سبابته على فيه كأنه يشير الى جيشه أن يسكتوا عن الخوض فى وفاته حتى يتم أمرهم ولا يضطربوا وكذلك كان فانهم كتموا موته فانتصروا وظفروا بالنصارى ظفرا لا كفاء له فكانوا يذبحونهم مثل الكباش ودهش النصارى وتكبكبت جموعهم وتراكمت أمتعتهم وصناديقهم وخيلهم وسلاحهم بلا ترتيب وزادهم دهشا أن بعض طوابيرهم كان ينادى صاحب صفارته وراءكم وراءكم قطعكم العدو ووقدت النار فى بارود النصارى فنفط وانهزموا الى وادى المخازن فتهافت جلهم فيه فهلكوا والباقى أسره المسلمون وزعم ان سبستيان هلك تحته فى ذلك اليوم أربعة أفراس وكان شابا حدثا وقال لاصحابه ان ترونى ترونى أمامكم وان لم ترونى فانافى وسط العدو أقاتل عنكم قال وأبدأ وأعاد فى ذلك اليوم الى ان خر قتيلا وبقى مذكورا عند البرتقال يسمرون باخباره وذكره شعراء الاورباء فى أشعارهم ولا زالوا يذكرونه الى الآن وخلفه فى ملكه الطاغية الريكى البرتقالى فهو الذى ولى بعده وافتدى جنازته من المسلمين ونقلها الى سبتة فبقيت هنالك الى ان هلك الطاغية الريكى وتولى على البرتقال طاغية الاصبنيول فيليب الثانى فصار ملك

الدولتين معا وهو خال سبستيان أخو أمه فنقل جنازته من سبتة الى اشبونة ثم أرخ منويل الوقعة بالتاريخ العربي والعجمي موافقا لما مر فهذا ماذكره في هذه الوقعة ﴿قال في النزهة﴾ توفي السلطان أبو مروان عبد الملك بن الشيخ في زوال اليوم المذكور وبايع الناس أخاه أبا العباس أحمد المنصور بالله كما سيأتي ان شاء الله ﴿قال في درة الحجال﴾ فانظر لحكمة الله الواحد القهار أهلك ثلاثة ملوك في يوم واحد وهم أبو مروان بن الشيخ وولد أخيه محمد بن عبد الله المسلوخ والطاغية سبستيان وأقام واحدا وهو أبو العباس المنصور اه ﴿قلت﴾ وفي اهلاك الثلاثة واقامة الواحد اشارة واضحة لاهلاك دين التثليث ونصر دين التوحيد في ذلك اليوم والله تعالى أعلم ولما بلغت الهزيعة الى الطاغية الاعظم أعني القائم بالامر بعد سبستيان لان التحقيق انه كان الاعظم يومئذ لما مر بعث الى المنصور بعد استقلاله بالملك وعوده الى فاس كما سيأتي يلتمس منه الفداء فيمن بقي بيده من الاسارى فاجابه الى ذلك وحصل له بسببه أموال طائلة ﴿وذكر بعضهم﴾ ان الاسارى لما ذهبوا الى بلادهم قال لهم الطاغية لم تأخذوا تطاوين والعرائش والقصر قبل أن يصل ملككم فقالوا له امتنع من ذلك الامير الذي كان علينا فامر بهم فاحرقوا جميعا مضحكة ﴿قال في النزهة﴾ ذكر بعضهم أن النصارى لما وقعت عليهم الكائنة المذكورة وفني من فني منهم ورأى أساقفتهم قلة عددهم وخلاء بلادهم لكثرة من مات منهم أباحوا للعامة فاحشة الزنا ليكثر التناسل ويخلف ما هلك منهم ورأوا ذلك من نصرة دينهم وتقويم أود ملتهم أخزاهم الله اه ﴿وقد وقفت﴾ على تاريخ لبعض مؤرخي الفرنج النجليزيين من أهل جزيرة مالطة فرأيته قد ألم بخبر هذه الوقعة وصرح بانها كانت سبب هلاك البرتقال وتلاشي دولتهم وبطلان كرسي سلطنتهم حتى استضافهم اليه طاغية الاصبنيول بعد نحو سنتين وصيرهم من جملة رعيته ومن فصول كلامه بعد ان ذكر ان أكثر البرتقال قتلوا في ذلك اليوم ما نصه وكانت يعني الوقعة المذكورة وقعة هائلة ويوما مشؤما (وبالجملة) فقد قتل في ذلك اليوم سائر أشراف البرتكيسيين ولم يتخلف منهم أحد فلما بطل كرسي سلطنتهم قام وقتئذ فيليبس الثاني ملك اصبانيا وتزوج ملكتهم وحكم على البلاد كلها اه كلامه الا انه ذكر أن السبب في استغاثة السلطان محمد بن عبد الله بالبرتقال هو تغلب الاصبنيوليين على مملكته وانتزاعها من يده وهو كذب أو غلط ولعله تصحف عليه لفظ الاصطنبوليين بالاصبنيوليين اذ قد تقدم أن السلطان أبا مروان انما استولى على المغرب بجيش الترك المنفذ من قبل السلطان سليم العثماني والله أعلم وقد ألم بهذه الوقعة أيضا لويزمارية في كتابه الموضوع في أخبار الجديدة لكنه لم يبسطها على عادته في السكوت عن ما يكون من الظهور في جانب المسلمين واشاعة ما يكون من ذلك في جانب النصارى بل والزيادة فيه ومع ذلك فقد قال في وصفها كلاما هذه ترجمته وقد كان مخبوأ للنافي مستقبل الاعصار العصر الذي لو وصفته كما وصفه غيري من المؤرخين لقلت هو العصر النحس البالغ في النحوسة الذي انتهت فيه مدة الصولة والظفر والنجاح وانقضت فيه أيام العناية من البرتقال وانطفأ مصباحهم بين الاجناس وزال رونقهم وذهبت النخوة والقوة منهم وخلفها الفشل وانقطع الرجاء واضمحل ابان الغنى والربح وذلك هو العصر الذي هلك فيه سبستيان في القصر الكبير من بلاد المغرب اه فهذا كلام هذا البرتقالي قد تحفظت عليه وأديت ترجمته كما هي ليعتبر به من يقف عليه * والحق ما شهدت به الاعداء * ولما تمت للسلطان أبي العباس المنصور البيعة بوادي المخازن طالبه الجيش بارزاقهم واستنجزوا اعطياتهم حسبما جرت به عادة من قبله معهم فطالبهم هو بخمس الغنيمة لانهم جعلوها نهبى ولم يقتسموها على الوجه الشرعي كما سبق فصعب استخراجها منهم لعدم التعيين وجرأة الناس على الغلول فسامحهم فيها وسامحوه في عطائهم ثم أمر المنصور بتوجيه كتب البشارات الى الآفاق بهذا الفتح المبين فكتب الى صاحب القسطنطينية العظمى والى سائر ممالك الاسلام المجاورين للمغرب يعرفهم بما أنعم الله به عليه من اظهار الدين وهلاك

عبدة الصليب واستئصال شوكتهم ورد كيدهم في نحرهم فوردت عليه الارسال من سائر الاقطار مهنئين له بما فتح الله على يده حسبما نذكره بعد ان شاء الله

## ﴿بقيـــة أخبار السلطان أبي مروان وسيرته﴾

﴿قال ابن القاضي﴾ كان سبب وفاة السلطان أبي مروان رحمه الله أنه سقى سما وذلك ان قائد الترك الذين كانوا معه واسمه رمضان العلج بعث الى بعض قواده أن يتلقاهم بكعك مسموم هدية للسلطان المذكور وقت مروره عليه وقصد بذلك قتله وذلك بعد أخذه بمدينة فاس ليثبت لهم الملك بها فلم يكمل الله مرادهم لما شهدوه من عظيم جيش المغرب فهذا كان سبب موته رحمه الله اه ولما توفى حمل الى مراكش فقبر بها وكانت مدة خلافته أربع سنين ومن حجابه القائد رضوان العلج وكتابه محمد بن عيسى ومحمد بن عمر الشاوى وقضاته قضاة والد أخيه وكان يتزيا بزي الترك ويجرى مجراهم في كثير من شؤنه وكان يتهم بالميل الى الاحداث وربما كان يظهر ذلك وكان أخوه أبو العباس المنصور خليفته على فاس كامر وكانت له فيه محبة تامة وكان يظهر أنه ولى عهده ويرشحه لذلك كثيرا حسبما أفصحت عنه رسائله التي كان يبعث بها اليه ﴿ولنذكر﴾ ما كان في هذه المدة من الاحداث ﴿ففي سنة ثمان وعشرين وتسعمائة﴾ كان الوباء بالمغرب كما قدمنا ﴿وفي سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة﴾ نزل مطر غزير بمراكش حتى امتلأت منه الآبار وتهدمت الدور وصار الناس يؤرخون بعام الآبار ﴿وفي سنة احدى وستين وتسعمائة﴾ توفي الشيخ أبو محمد عبد الله بن ساسي من أولاد أبي السباع ودفن بزاويته على ضفة وادى تانسيفت من أعمال مراكش وقبره مزارة مشهورة وعليه بناء حفيل ﴿وفي سنة ثلاث وستين وتسعمائة﴾ توفي الشيخ الامام أبو محمد عبد الله بن محمد الصنهاجي الطنجي المعروف بالهبطي وكانت وفاته في ذي القعدة من السنة المذكورة وكان رحمه الله من أهل الورع والدين والاتباع للسنة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ومن فوائده ما حكاه عنه في الدوحة قال سألت شيخنا الامام أبا محمد عبد الله الهبطي عن الشيخ أبي محمد الغزواني وكان من أصحابه فقلت له يا سيدى ما لسائر المشايخ من أصحاب الشيخ الغزواني كأبي الحجاج التليدى وأبي البقاء اليالصوتي وأبي الحسن على بن عثمان وغيرهم يصرحون بقطبانية الشيخ وينسبونك أنت الى التقصير في حقه حيث لم تقل بما يقولونه فقال لي رضي الله عنه قد علمت معنى الشهادة في الشرع ماهي فقلت نعم فقال لي كيف لي أن أشهد لاحد بمقام معين وأنا لم أسلكه ولم أتحققه ولم يكشف لي عنه فان فعلت فقد شهدت شهادة الزور فقلت له وأى شهادة تشهد في الشيخ فقال لي أشهد أنه من العارفين بالله تعالى وانه كان يجيب بالحال أكثر مما يجيب بالمقال انتهى ﴿قلت﴾ وهذا شأن أهل الدين والورع المحتاطين لدينهم لا يقدمون على أمر ولا يتفوهون به حتى يكونوا منه على بصيرة وتجد كثيرا ممن عقله وراء لسانه يتقولون على الله في غيبه ويخبطون خبط العشواء وينسبون المقامات والاحوال لمن ليس منها في قبيل ولا دبير نسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا بمنه ﴿وفي سنة أربع وستين وتسعمائة﴾ في يوم الاربعاء الثامن والعشرين من رمضان منها كسفت الشمس الكسوف الكلى العظيم ﴿وفي سنة خمس وستين وتسعمائة﴾ كان بالمغرب وباء عظيم كساسهله وجباله وأفنى كماته وأبطاله واتصل أمره الى سنة ست وستين بعدها ﴿وفي سنة احدى وسبعين وتسعمائة﴾ توفي الشيخ أبو العباس أحمد بن موسى الجزولى ثم السملالى الشهير ببلاد السوس أخذ عن الشيخ أبي فارس عبد العزيز التباع والشيخ أبي العباس أحمد بن يوسف الراشدى ثم المليانى ﴿وفي سنة ست وسبعين وتسعمائة﴾ ليلة عيد الاضحى منها توفي الشيخ أبو زيد عبد الرحمن بن عياد الصنهاجي ثم الفرجي الدكالي المعروف بالمجذوب الولى المشهور

دفين مكناسة الزيتون كان مأوى سلفه بمدينة تيط قرب آزمور ثم رحل هو ووالده الى مكناسة فمات بها ﴿وفي سنة سبع وسبعين وتسعمائة﴾ بعد صلاة الجمعة من أول يوم من المحرم منها زلزلت الارض زلزالا شديدا وفزع الناس لذلك ﴿ وفي هذه السنة في الحادي والعشرين من ربيع الاول منها توفي الشيخ أبو محمد عبد الله بن حسين من شرفاء بني آمغار دفين تامصلوحت وقد تقدم ما جرى بينه وبين السلطان الغالب بالله ﴿وفي سنة ثمان وسبعين وتسعمائة﴾ وذلك أواخر شوال منها الموافق لاواسط مارس العجمي حدث بالمغرب جراد كثير وفي أيام السلطان الغالب بالله ظهر نجم لم يكن معهودا ثم ظهرت في أيام ابنه محمد بن عبد الله أعلام حمر في الجو من الناحية الشرقية تبعتها في الارض أجناد الترك التي جاء بها السلطان أبو مروان من الجزائر كما مر وفي أيام السلطان أبي مروان المذكور ظهر الكوكب ذو الذنب الكبير في برج العقرب وطلع أياما ثم غاب وظهر بعده كوكب آخر ذو ذنب أصغر منه وعلى أثره كان خروج البرتقال من طنجة ووقعة وادي المخازن كما مر والله تعالى أعلم بغيبه

﴿الخبر عن دولة السلطان أبي العباس أحمد المنصور بالله السعدي المعروف بالذهبي وأوليته ونشأته﴾

كانت ولادة السلطان أبي العباس أحمد المنصور بالله ابن السلطان أبي عبد الله الشيخ بفاس سنة ست وخمسين وتسعمائة وأمه الحرة مسعودة بنت الشيخ الاجل أبي العباس أحمد بن عبد الله الوزكيتي الوارززاتي وكانت من الصالحات الخيرات وسيأتي بقية أخبارها ﴿وذكر في المنتقى﴾ قال مرض المنصور في صغره مرضا شديدا حتى أيس منه فرأت أمه في النوم شخصا يقول لها أزيريه الشيخ أبا ميمونة فالغالب أصابته عين فأزارته اياه فعوفي وكان أبوه المهدي ينبه على أنه واسطة عقد أولاده ﴿وقال في مناهل الصفا﴾ حدثني الشيخ المسن القائد أبو محمد مؤمن بن الغازي العمري أن المنصور أقبل يوما في حياة أبيه وهو صبي والمجلس غاص بالاكابر فاندفع يخترق الصفوف قال فصاح بي المهدي اذ ذاك وأنا أصغر القوم فقال يا مؤمن ارفعه فسينفعك أو ينفع عقبك فابتدرت حمله وكان كذلك فان المنصور لما أفضت اليه الخلافة كان القائد مؤمن بن الغازي عنده بالحظوة الرفيعة والمنزلة العالية ونشأ المنصور رحمه الله في عفاف وصيانة وتعاط للعلم ومثاقفة لاهله عليه وكانت مخايل الخلافة لائحة عليه من لدن عقدت عليه التمائم الى ان تم أمره ﴿حدثنا﴾ الفقيه العالم سفير الخلفاء أبو محمد عبد الله بن محمد بن علي الجزولي الدرعي أنه اجتمع ببعض أهل المكاشفة بمصر فسأله عن السلطان أبي عبد الله الشيخ وأولاده قال فسميتهم له واقتصرت على الكبار منهم فلم أذكر المنصور لانه كان أصغرهم سنا يومئذ فقال لي بقي منهم من لم تذكره فقلت له أحمد فقال ذاك واسطة عقدهم ووجه صفقتهم فكان كذلك ﴿وقال الشيخ أبو فارس عبد العزيز الفشتالي﴾ لما أخذ المهدي البيعة لولده السلطان الغالب بالله كما تقدم استقدمه من فاس وأوصاه بالمنصور جدا وقال له ان الفائدة فيه أو كما قال وهكذا كان ينبه على انه واسطة عقد أولاده وكان المنصور رحمه الله يحدث أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في النوم وأنواره تشرق قال فوقع في نفسي أن أسأله عن نصيبي من الخلافة فكاشفني عليه الصلاة والسلام بما في خاطري وأجابني بما حقق لي نيلها ثم أشار لي بأصابعه الثلاث الشريفة ضاما الابهام منها الى السبابة والوسطى وقال أمير المؤمنين اهـ ﴿وقال﴾ الامام أبو زيد عبد الرحمن بن محمد التامنارتي في كتابه الفوائد الجمة باسناد علوم الائمة أخبرني الفقيه أبو العباس أحمد بن عبد الله الدغوغي صاحب الحسبة بتارودانت أنه رأى في منامه كأنه في حلقة درس يسرد فيها صحيح البخاري بموضع من دار الخلافة بها وأبو العباس المنصور يومئذ بها وذلك قبل ولايته قال فرأيت في طرة الكتاب هذا اللفظ وري الزند فكنت أتأمل معناه فالتفت فاذا برجل انعزل ناحية على طنفسة فوقع في نفسي أن أسأله فأتيته بالكتاب وقلت له يا سيدي ما معنى هذه الكلمة التي في طرة هذا الكتاب

فقال لي قل لمولاك أحمد أنا الذي أوريت زندك مادمت على الحق فان عدلت عنه فانا بريء منك فقلت له ومن أنت ياسيدي فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لم يمض الا قليل حتى ولي الخلافة وحمدت سيرته قال أبو زيد ونا هيك بزند أوراه النبي صلى الله عليه وسلم وهذا يدل على ان ولاية الاسلام لا تنعقد الا بأمر النبي صلى الله عليه وسلم وقد اشتهرت المرائي بذلك ويقرب من هذا ما ذكره صاحب ابتهاج القلوب في مناقب الشيخ المجذوب أن الشيخ الصالح أبا عبدالله محمدا الملقب بكدار ابن الشيخ أبي زكريا يحيى بن علال المالكي البوخصيبي رأى النبي صلى الله عليه وسلم يوما فشكا اليه أولاد مطاع لما رآهم عليه من الفساد في الارض فقال له النبي صلى الله عليه وسلم يأتيهم أحمد فكان كذلك أتاهم عقب ذلك السلطان أبو العباس المنصور فاخذهم وفل جمعهم اه وأخبار المنصور من هذا النمط كثيرة وكان رحمه الله طويل القامة ممتلئ الخدين واسع المنكبين تعلوه صفرة رقيقة أسود الشعر أدعج أكحل ضيق البلج براق الثنايا حسن الشكل جميل الوجه ظريف المنزع لطيف الشمائل وكانت بيعته بعد الفراغ من قتال النصارى بوادي المخازن يوم الاثنين منسلخ جمادى الاولى سنة ست وثمانين وتسعمائة واجتمع عليها من حضر هنالك من أهل الحل والعقد ثم لما قفل المنصور من غزوته تلك ودخل حضرة فاس يوم الخميس عاشر جمادى الآخرة من السنة المذكورة جددت له البيعة بها ووافق عليها من لم يحضرها يوم وادي المخازن ثم بعث الى مراكش وغيرها من حواضر المغرب وبواديه فأذعن الكل للطاعة وسارعوا الى الدخول فيما دخلت فيه الجماعة * قال الفشتالي * لما كانت وقعة وادي المخازن ونصر الله دينه وكبت الكفر وأهله واستوسق الامر للمنصور كتب الى صاحب القسطنطينية العظمى وهو يومئذ السلطان مراد بن سليم العثماني والى سائر ممالك الاسلام المجاورين للمغرب يعرفهم بما أنعم الله به عليه من اظهار الدين وهلاك عبدة الصليب واستئصال شأفتهم فوردت عليه الارسال من سائر الاقطار مهنئين له بما فتح الله على يده وكان أول من وفد عليه رسول صاحب الجزائر ثم تلته ارسال طاغية البرتقال وهو الريكي القائم بأمرهم بعد هلاك سبستيان وليس خاله واتماخاله طاغية الاصبنيول فليب الثاني الذي جمع المملكتين معا بعد هلاك الريكي المذكور وبعد وقعة وادي المخازن بثلاث سنين فقدموا بهدية عظيمة وضعوها يوم دخولهم الى فاس على الكراريص والعجل فعجب الناس منها عجبا بليغا وكان ذلك اليوم يوما مشهودا وكان من جملة ما فيها ثلاثمائة ألف دكات من ريال الفضة وأما الطرف النفيسة والاثاث الرفيع فشيء لا يحصى ثم وردت ارسال طاغية الاصبنيول صاحب قشتالة بهدية عظيمة منها اليواقيت الكبار التي انتزعها الطاغية من تاج آبائه وصنيديق مملوء من الدر الفاخر وقضب الزمرذ وغير ذلك وتكلم الناس فيما بين الهديتين أعني هدية البرتقالي وهدية الاصبنيولي أيهما أعظم ولم يهتد أهل العقل والمعرفة الى مقدار التفاوت بينهما ثم قدمت ارسال السلطان مراد العثماني ومعهم هدية وهي سيف محلى لم ير مثله مضاء وصفاء متن ثم قدمت ارسال طاغية افرانسة ومعهم هدية عظيمة ولم تزل الوفود مترادفة بباب المنصور والارسال تصبح وتمسي على أعتاب تلك القصور الى ان لم يبق أحد ممن تتشوف النفوس اليه وحينئذ اطمأنت بالمنصور الدار وطاب المقام وتم القرار * وفي جمادى الاولى سنة سبع وثمانين وتسعمائة * مرض المنصور مرضا مخوفا وطال به حتى كادت الامور تختل ثم تداركه الله على يد الحكيم الماهر أبي عبدالله محمد الطبيب ولما أبل من مرضه أحسن الى الطبيب المذكور ونثر عليه يوم خروجه من الخلع ما لا يحصى وكان يوم خروجه يوما مشهودا وفي ذلك يقول الفقيه الاديب أبو عبدالله محمد ابن علي الهوزالي المعروف بالنابغة

تردى أذى من سقمك البر والبحر * وضجت لشكوى جسمك الشمس والبدر
وبات الهدى خوفا عليك مسهدا * وأصبح مذعور الفؤاد الندى الغمر

فلما أعاد الله صحتك التى * أفاق بها من غمه البدو والحضر
تراءت لنا الدنيا بزينة حسنها * وعاد الى ابانه ذلك البشر
وصار بك الاسلام فى كل بلدة * يهنى ويدعى أن يطول لك العمر
وصحت لنا الآمال بعد اعتلالها * وعادت الى الاينياع أغصنها الخضر
ولا غرو ان صامت على سمط الندى * اذا اغبرّ وجه الارض واحتبس القطر
لبيت أبى العباس انضت عجافها * قديما نخافت أن يعاودها الضر
لئن صدئت بيض المعالى لقد غدت * تسيء الكماة البيض والسدن السمر
بقيت لهذا الدين تحمى ذماره * ويحميك رب العرش مابقى الدهر

## ﴿عقد المنصور ولاية العهد لابنه محمد الشيخ المدعو المأمون﴾

﴿قال الفشتالى﴾ لما أبلّ المنصور من مرضه المذكور وعاد الى حاله من الصحة أجمع رأى أعيان الدولة واتفقت كلمة كبرائها على أن يطلبوا منه تعيين من يلى الامر بعده ويكون ولىّ عهده وكان المنصور مهيبا لا يقدر أحد على مواجهته بمثل هذا فاتفقوا على أن يكون البادئ لذلك القائد المؤمن ابن الغازى العمرى لماله من الادلال على المنصور بطول الخدمة وسالف التربية فقال له القائد المذكور يامولانا الله تعالى حفظ الاسلام بابلالك من هذا المرض وعصم الدين بابقائه عليك وقد بقى الناس فى أيام سقمك فى حيرة عظيمة ودخلهم من الدهش مالا يخفى عليك فلو عينت لنا من أبنائك القساورة من تجتمع كلمة الاسلام عليه ويشار بالخلافة اليه لكان أولى وأليق بسياسة الملك وان ابنك الابر أباعبد الله محمد المأمون حقيق بذلك وجدير بسلوك تلك المسالك لما فيه من خلال الخير وخصال السيادة زيادة على ماهو عليه من التيقظ فى أموره والحزم فى شؤنه وقد ظهرت للناس محاسن سيرته واطلعوا على جميل سريرته فاستحسن المنصور ذلك وأعجبه ما أشار عليه به فقال له سوف أستخير الله فى ذلك فان يكن من عند الله يمضه ﴿قلت﴾ هذا الذى حكاه الفشتالى على لسان القائد مؤمن فى حق المأمون المذكور هو بخلاف الواقع كما ستقف عليه من أحوال المأمون بعد هذا ان شاء الله ولكن المؤرخين والشعراء يمدحون ويقدحون بحسب أغراضهم لا بحسب الواقع غالبا لاسيما اذا كان من يعنونه بذلك مخدوما لهم ومنعما عليهم فلا ينبغى لمن وقف على كلام هؤلاء الصنف منهم أن يعتمد عليه الا بعد التثبت والتبصر والله تعالى الهادى الى الصواب بمنه ثم لبث المنصور بعد هذه الاشارة أياما يستخير ربه فى ذلك ويستشير من يعلم أهليته للشورة من أهل العلم والصلاح فلما انقضت أيام الاستخارة وتواطأت الآراء على حسن تلك الاشارة جمع المنصور أعيان حاضرة مراكش وأعيان مدينة فاس وغيرهم من أشياخ القبائل ووجوه الناس من أهل الحواضر والبوادى وأوصى بالعهد لولده المذكور أبى عبد الله محمد المأمون وذلك يوم الاثنين منسلخ شعبان سنة سبع وثمانين وتسعمائة وكان المأمون اذ ذاك خليفة أبيه على فاس فلم يحضر هذه البيعة فبعث اليه المنصور بعد ذلك ليقدم من فاس ويبايع بحضرته ولم يقنعه ما كان عقد له من البيعة وهو غائب ولما بعث اليه خرج المنصور بعسكره الى تانسيفت خارج مراكش ثانى عشر صفر سنة تسع وثمانين وتسعمائة ولم يزل بعسكره هنالك متلوما ومنتظرا لقدوم المأمون الى ان قدم غرة جمادى الثانية من السنة المذكورة فكانت ملاقاتهما من عجائب الزمان ولما اصطف جيش المنصور وجيش المأمون ترجل المأمون عن فرسه وتقدم حافى القدم فعفر وجهه بين يدى والده ثم قبل رجله والمنصور على فرسه واقفا بين الصفين قد عاله بخير وأظهر الفرح بقدمه وكان المأمون قد عبا جيشه تعبية لم ير مثلها ورتبهم ترتيبا حسنا فى لباسهم وسائر أمورهم فسرّ المنصور بذلك وبعد أيام من بلوغه أمر به فاجلس فى سرادقه

الاعظم

الاعظم الذى لم يكن للملوك قبله مثله كما سيأتى وأمر أهل الحل والعقد فازدحموا على تقبيل يده واقتضيت منهم الأعيان بحضرته وقام الشعراء فأفصحوا عن وصف الحال وغمر المنصور الناس بالنوال وكان ذلك اليوم يوما مشهودا وبعد أيام منه أمر المنصور المأمون أن يرجع الى حضرة فاس فرجع ودخل المنصور حضرته وتم غرضه الذى قصده

## ﴿ثورة داود بن عبد المؤمن بن محمد الشيخ والسبب فى ذلك﴾

﴿قال الفشتالى﴾ لما وقعت البيعة للمأمون وتكامل أمرها ثار الرئيس الاجل أبو سليمان داود بن عبد المؤمن ابن السلطان محمد الشيخ وهو ابن أخى المنصور وفر الى جبل سكسيوة وشق العصا ودعا الى نفسه فانثالت عليه أوشاب من البربر وغيرهم ونجم أمره وأثرت فى أذن الرعية جمجمته فبعث اليه المنصور قائده الزعيم أباعبد الله محمد بن ابراهيم بن بجة فناوشه القتال بجبل سكسيوة فهزمه وفر الى جبل هوزالة فتحزبوا عليه وقويت بهم شوكته وأخذ يشن بهم الغارات على أهل درعة الى ان ضاقوا به ذرعا فشكوا أمره الى المنصور فبعث اليه قائده الذى ذكر فلم يزل فى مقابلته ومقاتلته الى ان شرده عن جبل هوزالة ففر داود منه الى الصحراء واستقر به الرحل بها عند عرب الودايا من بنى معقل فلم يزل عندهم الى ان هلك سنة ثمان وثمانين وتسعمائة وكفى المنصور أمره

## ﴿حدوث النفرة بين المنصور والسلطان مراد العثمانى وتلافى المنصور لذلك﴾

قد علمت ما كان من التجاء عبد الملك المعتصم وأحمد المنصور الى السلطان سليمان العثمانى وتطارحهما عليه حتى أمدهما بالجيش الذى كان سببا فى تملكهما المغرب ولما صفا الامر لعبد الملك أهمل جانب العثمانى ولم يكاتبه بشئ ولا عرج على ساحته ثم لما ملك المنصور وكتب الى النواحى بخبر وقعة وادى المخازن كتب الى السلطان مراد فى جملتهم فبعث السلطان المذكور الى المنصور بالهدية التى تقدم ذكرها وكأن المنصور استقلها وأنف منها فتشاغل عن الوفد وتركهم مهملين بحضرته وتأخر عن جواب السلطان مراد فكان ذلك سببا للنفرة وكان وزير البحر للعثمانى واسمه الرئيس على علوج يبغض المنصور فلم يزل يسعى به عند سلطانه ويذكره ما كان من أبيه الشيخ من القدح فى ولاية الترك والطعن عليهم وقال له فى ذلك قد ضاع صنيعك فى هذا الغادر وصنيع والدك من قبلك ولم يزل يفتل له فى الذروة والغارب ويهون عليه أمر المغرب حتى أذن له فى توجيه العمارة اليه ومنازلته والاخذ بما فاته الى ان يستأصل أمر المنصور ويخمد جمرته ويقال ان السلطان مرادا أمر وزيره المذكور أن يذهب بالعمارة الى الجزائر فتكون هنالك ثم يتقدم بالعساكر فى البر الى المغرب فأخذ الوزير فى التأهب لذلك واتصل الخبر بالمنصور على يد بعض قناصل النجليز فارتحل الى فاس من حينه وحصن الثغور وملأ المراسى وكان على أهبة وكمال استعداد وبعث ارساله الى السلطان المذكور بهدية عظيمة تلافيا لما فرط واعتذارا عما سلف وكان من جملة ارساله القائد الانجد أبو العباس أحمد بن ودة العمرانى والكاتب الشهير أبو العباس أحمد ابن يحيى الهوزالى فركبوا البحر من مرسى تطاوين قاصدين القسطنطينية العظمى وبينما هم فى أثناء الطريق على ثبج البحر لقيهم الوزير علوج فى أسطوله قاصدا ديار المغرب عازما على منازلة المنصور به فلما رآهم سقط فى يده وأيقن بخيبة مسعاه فراجعهما عما قصدا اليه وأيأسهما من تدارك الامر وقال لهما ان الخرق قد اتسع على الراقع ولو كان لصاحبكم غرض فى المسالمة ما بقى أصحابنا بأبوابه كالكلاب والبادى أظلم فلم يزل الوزير علوج بالقائد ابن ودة الى أن صرفه عن رأيه ورده معه وترك الهوزالى يبلغ الرسالة والهدية ظنا منه أنه صغير السن لا يحسن مخاطبة الملوك العظام وابن ودة الذى كان عنده مظنة لكمال التدبير ومثافنة الملوك رده معه فلما انتهى الهوزالى الى السلطان مراد ودخل عليه أظهر

من تبـله ولطف مخاطبته ماخلب به قلب السلطان المذكور واستل السخيمة من صدره واعتذر له عن تأخر المنصور عن الجواب بما لا يعود بوهن على مخدومه ولا يفيد غلبة خصمه فقبل السلطان مراد الاعتذار وتقبل الهدية بقبول حسن وكتب مع الهوزالي الى الوزير علوج بالرجوع عن منازلة المنصور فرجع بها الهوزالي يطير سرورا ولم يغب عن علوج الانحو الشهر حتى قدم عليه بأمر الملك فقرع لها علوج سن الندم وأسف على تفريطه في الهوزالي وتركه وبعث السلطان مراد رسله مع الهوزالي الى المنصور يلومه على التراخي في أمور الملوك فلما قدموا عليه أكرم وفادتهم وأحسن نزلهم وردهم مكرمين الى مرسلهم وبعث معهم الفقيه الامام قاضي الجماعة بحضرة مراكش أبا القاسم ابن علي الشاطبي والقائد الانجد أبا زيد عبد الرحمن بن منصور الشيظمي المريدي فلما وردوا على خاقان الترك فرح بهم كل الفرح ورتب الشاطبي كلاما بليغا أعرب فيه عن فضل الدولتين وقرر فيه حق أهل البيت وأطرى المنصور وحض فيه على اتحاد كلمة الاسلام وقرأ ذلك على السلطان مراد فاهتز لسماعه ثم بعد أيام أحسن اليهم وأجزل صلتهم وردهم مكرمين الى مرسلهم ﴿وقال صاحب خلاصة الاثر﴾ كان المنصور موادعا لسلاطين آل عثمان فيرسل اليهم بالهدايا في كل سنة وكانوا هم يرسلون اليه بالمكاتيب والخلع السنية حتى ان السلطان مراد بن سليم كتب اليه أثناء مكاتبه لك على العهد أن لا أمد يدي اليك الا بالمصافحة وان خاطري لا ينوي لك الا الخير والمسامحة وكانت رسله دائما تأتي الى القسطنطينية من جانب البحر ويمكثون زمانا طويلا ويتعهدون الوزراء ومن له قرب من الدولة من جملتهم الرئيس الاديب محمد الامين الدفتري فقد ذكر صاحب خلاصة الاثر ان هذا الرئيس كان يجمع نفائس الكتب ويبعث بها الى المنصور فبسبب ذلك كانت المراسلات بينهما غير منقطعة وقد ذكر صاحب خلاصة الاثر في ترجمة الرئيس المذكور بعض تلك المراسلات فانظره ولما تكامل هذا الغرض وصح جسم الدولة من المرض ورجعت الارسال في أحسن الاحوال عاد المنصور الى مراكش وفي يوم خروجه من فاس خرج أعيان أهلها ومشيخة العلم بها وقرئ البخاري بين يديه سردا على عادة الخلفاء في ذلك وكان ذلك كله سنة تسع وثمانين وتسعمائة

## ﴿ايقاع المنصور بعرب الخلط والسبب في ذلك﴾

قد قدمنا في أخبار الدولة المرينية ما كان لهؤلاء الخلط من الاعتزاز والدالة عليها بسبب ما كان لهم من الشوكة والمصاهرة مع ملوكها ولما أدبرت دولة بني مرين واستولى على ملكهم أبو عبد الله محمد الشيخ المهدي انحاشوا اليه وأظهروا الخدمة والنصيحة فلما جاء أبو حسون الوطاسي بجيش الترك حسبما شرحناه قبل أوقعوا الهزيمة على المهدي لابي حسون كما مر فلما غلب المهدي على المغرب وصفاله أمره خلعهم من الجندية ووظف عليهم الخراج ومحى اسمهم من ديوان الخدمة ونقل أعيانهم الى مراكش واتخذهم رهائن عنده ولم يزل الامر على ذلك الى أيام المنصور فرأى جلادهم يوم وادي المخازن وحسن بلائهم فاختار النصف منهم ورده الى الجندية وأبقى نصفهم الآخر في غمار الرعية ونقلهم الى آزغار فاستوطنوه حينا من الدهر ثم عاثوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد ومدوا أيديهم الى أولاد مطاع فنهبوهم وضايقوا بني حسن فكثرت الشكاية بهم الى المنصور فضرب عليهم سبعين ألف غرامة فلم يزدادوا الا عتوا وشدة فارسل اليهم ليبعثوا طائفة منهم الى تيكورارين فامتنعوا من ذلك فحينئذ بعث اليهم القائد موسى بن أبي جداي العمري فانتزع منهم الخيل وأبقاهم رجالة ثم حكم السيف في رقابهم واستأصل جمهورهم فمن ثم خضدت شوكتهم ولانت للعاصر قناتهم

## ﴿استيلاء المنصور على بلاد الصحراء تيكورارين وتوات وغيرهما﴾

لما استقر المنصور بمراكش مرجعه من فاس وأمن من هجوم الترك على المغرب طمحت نفسه الى التغلب على بلاد تيكورارين وتوات من أرض الصحراء وما انضاف الى ذلك من القرى والمداشر اذ كان أهل تلك البلاد قد انكفت عنهم أيدي الملوك ولم تسسهم الدول منذ أزمان ولا قادهم سلطان قاهر الى ما يراد منهم فسنح للمنصور أن يجمع بهم الكلمة ويردهم الى أمر الله فبعث اليهم القائد أبا عبد الله محمد بن بركة والقائد أبا العباس أحمد بن الحداد العمري المعقلي في جيش كثيف فقطعوا اليهم القفر من مراكش وانتهوا اليهم على سبعين مرحلة منها فتقدموا اليهم أولا بالدعاء للطاعة والاعذار والانذار فامتنعوا فنازلوهم وقاتلوهم وطالت الحرب بينهم أياما ثم كان الظهور لجيش المنصور ففلوا جمعهم وأثخنوا فيهم الى ان أذعنوا للطاعة وصاروا في حزب الجماعة وأنهي خبر الفتح الى المنصور فسر بذلك سرورا عظيما وقال الشعراء في ذلك وعم الفرح بلاد المغرب وكان ذلك سنة تسعين وتسعمائة وبعد هذا تشوفت نفس المنصور الى الاستيلاء على بلاد السودان فكان من أمرها ما نذكره ان شاء الله

## ﴿تلخيص القول في سودان المغرب والاشارة الى ممالكهم ودولهم من لدن الفتح الاسلامي الى هذا التاريخ﴾

اعلم ان هؤلاء السودان هم من نسل حام بن نوح عليه السلام باتفاق النسابين والمؤرخين ويجاور البربر بأرض المغرب منهم أمم كثيرة من أعظمها أهل مملكة غانة وهم المتصلون بالبحر المحيط من جهة الغرب على مصب النيل السوداني فيه وتتصل بهم من جهة الشرق أمة أخرى تعرف بصوصوا بصادين أو سينين مهملتين مضمومتين ثم بعدها أمة أخرى يقال لها مالي ثم بعدها أمة أخرى تسمى كوكوا ويقال كاغوا ثم بعدها أمة أخرى تعرف بتكرور ويقال لهم أيضا سغاي ثم بعدها أمة أخرى تدعى كانم وهم أهل مملكة برنوا المجاورة لافريقية من جهة قبلتها ثم بعدها أرض النوبة المجاورة لبلاد مصر وهكذا الى آخر الشرق أمم لا يحصيهم الا خالقهم ﴿فاما أهل مملكة غانة﴾ فقد كانوا في صدر الاسلام من أعظم أمم السودان أسلموا قديما وكان لهم ملك ضخم وكانت حاضرة ملكهم هي غانة وهي مدينتان على ضفتي النيل السوداني من أعظم مدن العالم وأكثرها عمرانا ذكرها صاحب نزهة المشتاق وصاحب المسالك والممالك وغيرهما * وقال الفقيه الاديب أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي في شرح المقامات الحريرية مانصه غانة بلد من بلاد السودان واليها ينتهي التجار يعني من المغرب والمدخل اليها من سجلماسة ومن سجلماسة اليها ذهابا مسيرة ثلاثة أشهر ومن غانة الى سجلماسة ايابا مسيرة شهر ونصف ودون ذلك وسبب ذلك ان الرفاق تتجهز اليها من سجلماسة بالامتعة والاثقال فتباع في غانة بالتبر فمن سافر اليها بثلاثين جملا يرجع منها بثلاثة أجمال أو بجملين واحد لركوبه وثان للماء بسبب المفازة التي في طريقها حدثني غير واحد من تجارها أنهم يقطعون المفازة في ستة عشر يوما لا يرون فيها ماء الا على ظهور الابل فاثمان أحمال الثلاثين جملا يجتمع فيها من التبر ما يحمل في مزود واحد فيطوون المراحل للخفة قال وغانة بلد مملكة السودان وانتشر الاسلام في أهلها وبها مدارس العلم وبها من تجار المغرب كثير يدخلون للتجارة فيه يبون الخصب والامن وكثرة المتاجر فيشترون بها خدما للتسري ويقيمون بها عند أميرها في غاية الكرامة والاماء فيها قد جعل الله فيهن من الخصال الكريمة في خلقهن وخلقهن فوق المراد من ملاسة الابدان وتفتق السواد وحسن العينين واعتدال الانوف وبياض الاسنان وطيب الروائح اهـ ﴿وقال ابن خلدون﴾ كان في غانة فيما يقال ملك ودولة لقوم من العلويين يعرفون ببني صالح ﴿وقال صاحب نزهة المشتاق﴾ انه صالح بن عبد الله

ابن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم قال ولا يعرف صالح هذا في ولد عبد الله بن حسن
وقد ذهبت هذه الدولة لهذا العهد اه ثم ان أهل غانة ضعف ملكهم وتلاشى أمرهم في المائة
الخامسة واستفحل أمر الملثمين المجاورين لهم من جهة الشمال مما يلي البربر وزحف اليهم الامير
أبو بكر بن عمر اللمتوني فاتح المغرب ومستخلف يوسف بن تاشفين عليه حسبما مر ذلك في أخبارهم
فلما رجع الامير أبو بكر الى الصحراء غزا بلاد السودان وفتح منها مسيرة ثلاثة أشهر واقتضى منهم
الاتاوات وحمل الكثير منهم ممن لم يكن أسلم قبل ذلك على الاسلام فدانوا به ثم اضمحل ملك أهل غانة
بالكلية وتغلب عليهم أهل مملكة صوصوا المجاورين لهم واستعبدوهم وصيروهم في جملتهم ثم ان
أهل مالي كثروا وأمم السودان في نواحيهم تلك واستطالوا على الامم المجاورين لهم فغلبوا على صوصوا
وملكوا ما كان بايديهم وبايدي أهل غانة ثم افتتحوا بلاد كوكو وأضافوها الى ملكهم وصارت دولة مالي
متصلة فيما بين غانة في الغرب وأرض التكرور في الشرق واعتز سلطانهم وهابتهم أمم السودان ومن
هذه الدولة كان السلطان منساموسى بن أبي بكر وأخوه منسا سليمان اللذان كان بينهما وبين
السلطان أبي الحسن المريني من المهاداة والمواصلة ما تقدم ذكره وكان مع السلطان منساموسى
المذكور الاديب الشاعر أبو اسحق الطويجي الاندلسي الذي بنى له القبة المربعة العجيبة الصنعة
البديعة النقش والتخريم التي أجازه عليها باثني عشر ألف مثقال من التبر وغير ذلك مما ذكره في أخبار
الدولة المرينية وكان منها أيضا السلطان ماري زاطة الذي هادى السلطان أبا سالم المريني وأغرب عليه
بالزرافة حسبما تقدم قالوا وكان هذا السلطان مسرفا مبذرا بحيث أفسد ملكهم وأتلف ذخيرتهم وكاد
أمر سلطانهم يختل حتى لقد انتهى الحال به في سرفه وتبذيره أن باع حجر الذهب الذي كان من الذخائر
الموروثة عندهم وهو حجر بزن عشرين قنطارا من الذهب العين منقولا من المعدن كذلك من غير
علاج ولا تصفية بالنار فكانوا يرونه من أنفس الذخائر وأكبر الغرائب لندور مثله في المعدن فعرضه
منسازاطة على تجار مصر المترددين الى بلده فاشتروه منه بابخس ثمن ثم أصابته علة النوم وهو مرض
يطرق أهل ذلك الاقليم كثيرا وخصوصا الرؤساء منهم بحيث يعتاده غشي النوم عامة زمانه حتى لا يكاد
يفيق ولا يستيقظ الا في القليل من الاوقات ويضر بصاحبه غاية ويتصل سقمه الى أن يهلك ودامت
هذه العلة بهذا السلطان سنتين ثم هلك منها سنة خمس وسبعين وسبعمائة ثم توارث بنوه الملك من بعده
فكانوا في تراجع وانتقاص الى أن انقرض أمرهم شأن غيرهم من الدول وظهرت دولة آل سكية
من أهل مملكة كوكو ويقال كاغو ﴿قال الامام التكروري في كتابه نصيحة أهل السودان﴾ أن آل
سكية أصلهم من صنهاجة وملكوا كثيرا من بلاد السودان وأول ملوكهم الحاج محمد سكية بضم
السين وسكون الكاف بعدها ياء مفتوحة ثم هاء تأنيث وكان الحاج محمد المذكور رحل في أواخر
المائة التاسعة الى مصر والحجاز بقصد حج بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه صلى الله عليه وسلم فلقي بمصر
الخليفة العباسي اذ كان رسم الخلافة العباسية لا زال قائما بها يومئذ حتى محاه السلطان سليم العثماني
أيام تغلبه على مصر سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة فلما اجتمع الحاج محمد سكية بالخليفة المذكور
طلب منه أن يأذن له في امارة بلاد السودان وأن يكون خليفته هنالك ففوض اليه الخليفة العباسي
النظر في أمر ذلك الاقليم وجعله نائبه على من وراءه من المسلمين فرجع الحاج محمد سكية الى بلاده
وقد بنى أمر رياسته على قواعد الشريعة وجرى على منهاج أهل السنة ولقي بمصر أيضا الامام شيخ
الاسلام حافظ الحفاظ جلال الدين السيوطي فاخذ عنه عقائده وتعلم منه الحلال والحرام وسمع عليه
جملا من آداب الشريعة وأحكامها وانتفع بوصاياه ومواعظه فرجع الى السودان ونصر السنة وأحيا
طريق العدل وجرى على منهاج الخليفة العباسي في مقعده وملبسه وسائر أموره ومال الى السيرة

العربية وعدل عن سيرة العجم فصلحت الاحوال وبرئ جسد الرشاد من الداء العضال وكان الحاج محمد المذكور سهل الحجاب رقيق القلب خافض الجناح شديد التعظيم لائمة الدين محبا للعلماء مكرما لهم يفسح لهم في المجلس ويوسع عليهم في العطاء ولم يكن في أيامه كلها بؤس ولا بأس بل كانت رعيته في خفض عيش وأمن سرب وفرض عليهم شيأ خفيفا من المغارم وظفه عليهم وزعم انه ما فعل ذلك حتى استشار الامام السيوطي شيخه ولم يزل على سيرته المذكورة الى أن اخترمته المنية فقام بالامر بعده ولده داود بن محمد فاحسن ما شاء وتبع طريقة أبيه الى أن لحق بربه ومضى لسبيله فقام بالامر بعده ولده اسحق بن داود فعدل عن بعض سيرة أبيه ولم يكن في أمره بالذميم واستمر حاله على الانتظام الى أن غزته جيوش المنصور فنقضت ملكه وتثرت سلكه وانقرض عليه أمر آل سكية بعد ان كان تحت طاعتهم مسيرة ستة أشهر من بلاد السودان وسنذكر كيفية ذلك ﴿وأما مملكة التكرور وكانم﴾ فقال ابن خلكان ما نصه كانم بكسر النون جنس من السودان وهم بنو عم تكرور وكل واحدة من هاتين القبيلتين لا تنسب الى أب ولا أم وانما كانم اسم بلدة بنواحي غانة فسمي هذا الجنس باسم هذه البلدة وتكرور اسم للارض التي هم فيها وسمي جنسهم باسم أرضهم اهـ ﴿قلت﴾ وكان من كانم الاديب أبو اسحق ابراهيم بن يعقوب الكانمي الاسود الشاعر وهو الذي دخل على يعقوب المنصور الموحدي فانشده

أزال حجابه عني وعيني * تراه من المهابة في حجاب
وقربني تفضله ولكن * بعدت مهابة عند اقترابي

وأهل كانم هم أهل مملكة برنو المجاورة لافريقية من جهة قبلتها كما قلنا وكانت لهم مع الدولة الحفصية في المائة السابعة وما بعدها مهاداة ومواصلة كما كان لاهل مالي مع بني مرين ﴿قلت﴾ ومن أهل برنو الشيخ العارف بالله تعالى أبو محمد عبد الله البرنوي شيخ الولي العارف بالله تعالى أبي فارس عبد العزيز الدباغ الموضوع في مناقبه كتاب الذهب الابريز واتصل أمر أهل برنو على الانتظام الى ان كان من أمرهم مع المنصور ما نذكره وكل هؤلاء الامم كانوا على دين الاسلام قديما كما رأيت وكان فيهم العلماء والصلحاء والادباء والشعراء كما علمته آنفا وتعلمه فيما بعد ان شاء الله تعالى ﴿قال الشيخ أبو العباس أحمد بابا السوداني في تقييده المسمى بمعراج الصعود﴾ ان أهل السودان أسلموا طوعا بلا استيلاء أحد عليهم كأهل كنو وكتني وبرنو وسغاي ما سمعنا قط أن أحدا استولى عليهم قبل اسلامهم ومنهم من هم قدماء الاسلام كأهل مالي أسلموا في القرن الخامس أو قربه وكأهل برنو وسغاي اهـ وقد علمت أن أهل غانة تقدم اسلامهم على هذا التاريخ والله تعالى أعلم ولنرجع الى ما كنا بصدده من أخبار المنصور فنقول

## ﴿وصول هدية صاحب برنو الى المنصور بحضرة فاس وما نشأ عن ذلك من بيعته له والتزام طاعته﴾

كان المنصور رحمه الله مسعودا محظوظا كما أشرنا اليه سابقا وكان من سعادته ما هيأ الله له من مهاداة صاحب مملكة برنو ومخاطبته له حتى كان ذلك سببا في مبايعته له والدخول في طاعته وكان من خبر ذلك ما حكاه في مناهل الصفا قال وفي سنة تسعين وتسعمائة ورد على المنصور الخبر وهو بمدينة فاس بقدوم رسول صاحب مملكة برنو من ملوك السودان وجلب في هديته ما جرت عادتهم أن يجلبوه من فتيان العبيد والاماء وكسى السودان وطرفه وكان من ذلك عدد كثير يناهز المئين فوافى المنصور بعسكره على رأس الماء من ساحة فاس وكان يوم ملاقاته يوما مشهودا حسنا وأبهة وجلالة جلس نصره

الله تعالى بالقبتين التوأمتين المضروبتين أمام السياج المحيط بقبابه وهو آفراك واستوقف الموالى والمماليك سماطين من التوأمتين الى القبة العربية ثم منها الى فسطاط الجلوس المعلوم بالديوان ثم منه الى باب المعسكر القبلى وأتى بالرسول يخترق السماطين حتى نزل بالديوان وكان الملا من أكابر الدولة وصدور المملكة جلوسا وكرسى المملكة وسرير الخلافة منصوبا به والمهابة قد أخرست الالسن وأخشعت القلوب والابصار فجلس الرسول هنالك مليا ثم توجه به على سبيل الترقى الى القبة العربية فجلس بها ثم جاء الاذن الكريم بايصاله الى مقر أمير المؤمنين بالتوأمتين فوقف بين يديه وتشرف بالنظر الى طلعته السعيدة فأدى الرسالة وقضى فرض التهنئة وسنة الهدية وأعرب عن مقاصد مرسله واعترف للمملكة العظيمة بحقها وأظهر من الخضوع والتملق والاستكانة والخدمة والطواعية ما أوصاه به مرسله ثم توجه به الى معسكر ولى العهد وتاج الاسلام وكافل الامة بعد والده المولى الامير أبى عبد الله محمد الشيخ المأمون بالله وكان لصق معسكر أمير المؤمنين برأس الماء فاشرف الرسول على دنيا أخرى وأبهة مدهشة ومحلة هائلة فوقف موقف الحيرة واستدرج الى ان وصل لقباب ولى العهد ومضاربه وكان قد قعد له بفسطاط جلوسه أفخم قعود ولما استؤذن عليه ووقف بين يديه هنأ وحيى وفدى وانصرف عنه الى محل نزوله بالقصبة من فاس وأدر عليه من الانعام والاكرام مالم يكن له فى حساب وكان من أغراض الرسالة التى أنفذه بها سلطانه طلب المدد من أمير المؤمنين بالعساكر والاجناد وعدة البندق ومدافع النار لمجاهدة من يليهم بقاصية السودان من الكفار وكان هذا الرسول قد وفد قبل على سلطان الترك بالاصطنبول السلطان مراد العثمانى يطلب منه المدد لجهاد كفار السودان وأخفق سعيه ولم يحصل على طائل فوجهه فى هذه النوبة الى ملك المغرب يطلب منه المدد ولما قرئ كتابه على أمير المؤمنين اتفق أن وقع بينه وبين كلام الرسول اختلاف بين وتباين واضح فكان الذى دل عليه الكتاب خلاف مادل عليه كلام الرسول جر اليهم ذلك توغلهم فى الجهل والغباوة وعدم من يحسن الاعراب عن مقاصدهم من فرسان الانشاء والكتابة لطموس معالم العلوم عندهم على الجملة وقارن ذلك ما كان من توجيه أمير المؤمنين عساكره لتدويخ قطرى توات وتيكورارين وأمل أن يجعلها ركابا لبلاد السودان والاستيلاء على ممالكها التى وجه اليها عساكره بعد ذلك فبلغت مملكة مالى عظيم السودان الى ان وردت من نيلها على مائة مرحلة من ثغور المغرب فاغتنم المنصور لذلك اختلاف الرسول والرسالة وبنى عليه ما اعتذر به على صاحب برنو ورجع الرسول الى مرسله بعد مكافأته وتوجيه هدية من عتاق الخيل وأشرافها بكسى من ملابس الخلافة وأسباب أخر ولما بلغ الرسول وألقى المعذرة الى سلطانه استأنف الهدية وأعرب اذذاك عن مراده ورد الرسول ثانية الى باب أمير المؤمنين فوافاه بحضرته ودار خلافته من مراكش فأزال اللبس وبين الغرض وصرح بالمقصود فلما تحقق المنصور بقصده صدع له بالحق والدعاء الى التى هى أقوم وطالبهم بالبيعة له والدخول فى دعوته النبوية التى أوجب الله عليهم وعلى جميع العباد فى أقطار البلاد الانقياد اليها وقرر لهم بلسان السنة الناطق والكتاب المنزل على جده الصادق أن الجهاد الذى ينتحلونه ويظهرون الميل اليه والرغبة فيه لا يتم لهم فرضه ولا يكتب لهم عمله مالم يشدوا فى أمرهم الى اذن من امام الجماعة الذى اختص الله أمير المؤمنين بوصفه اذ هو الكافل لهذه الامة ووارث تراث النبوة وقيضه الله لحماية بيضة الاسلام وخصه بالشرف القرشى الذى هو شرط فى الخلافة باجماع من علماء الاسلام وأئمة السنة الاعلام وألزمهم القيام فى أقطارهم بدعوته ومجاهدة أعدائهم الكفار بكلمته وعلق لهم أيده الله الامداد على البيعة والوفاء بهذا الشرط فالتزمه الرسول وزعم أيضا عن سلطانه بالقبول والاجابة وطلب من السلطان نسخة يتوجه بها من صورة البيعة اذ ليس ببلدهم من يحسن الانشاء ويوفى الغرض لئلا يخاوا بشئ

من الشروط التي شارطهم عليها أمير المؤمنين فانشأها كاتب الدولة أبو فارس عبد العزيز الفشتالي ونصها الحمد لله الذي أعلى لكلمة الحق منارا دسامي في مطالعها النجوم وأزاح بها عن شمس الهداية المنيرة غياهب الغباوة المدلهمة وسحائب الغواية المركوم وحيّ على الفلاح بها داعي التوفيق الذي نشر للنجاح كتابه الموقوت واستنجز للسعادة أجلها المعلوم وشرّف هذا الوجود والعالم الموجود بالخلافة النبوية والامامة الحسنية العلوية التي صرفت الوجوه الى قبلتها المشروعه واستبان الحق بتبلج الصباح في مبايعتها والانقياد لدعوتها المسموعه ونسخ بدولتها الغراء دول الحيف التي هي بسيف النبوة المصلت مقطوعه وبلسان السنة مدفوعه وقوض بها مباني الادعاء التي هي على غير أساس الشرع الصحيح مرفوعه وفرق بكلمتها المجموعة على التوحيد فرق التثليث التي هي على مشاقة الله ورسوله تابعة ومتبوعه وخلع بظهورها على اعطاف الحنيفية السمحة رداء العز الفضفاض واستل بتأييدها الدين المحمدي سيف الانفة والامتعاض وأشار للاعادي من بأسها المروع بلسان الحية النضناض وفجر للمؤمنين ينبوع رحمتها الجاري على حصاعدها الرضراض ومهد بسيوفها المنتضاة الآفاق والاقطار تمهيدا أزال عن حكمه الاعتراض وجلى بأنوارها المتألقة سدف الجهالة التي ادلهم جوها وغيم وأسعد الوجود بيمنها الذي لبث في أكناف مجدها وخيم وقضى لها بتراحم الارض ومن عليها ان شاء الله الى عيسى ابن مريم والصلاة والسلام على مولانا محمد الذي تعاضدت البراهين القاطعة على صدق رسالته البارعه ونهج للدين القويم طريقة الحق المثلى ومادته الشارعه وسوغ لمن آمن به مناهل الهدى النميرة الزلال وموارده العذبة ومشارعه نبي الرحمه وشفيع الامه وعلى آله وأصحابه الكرام أئمة الهدى ومصابيح الظلام والدعاء لمولانا الامام العلوي الهمام أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين نجل سيد المرسلين وخاتم النبيين وسليل الوصي والسبطين وبعد فانه لما أذن الله في ليل الجهالة أن ينجاب وفي شمس الحق الوهاجة أن يرتفع عنها الحجاب وفي العز الخلق الجلباب أن يعود الى الشباب وفي النجاح والاستقامة أن يفتح لهما الباب وفي الامارة أن تستند الى السنة والكتاب وتتعلق من الشرع باسباب تدارك الله سبحانه الوجود وأعز العالم الموجود واستطارت الانوار المضيئة للاغوار والنجود بطلوع شمس الخلافة النبوية والامامة الهاشمية العلوية ففاضت على أديم البسيطة أنوارها وارتفع الى حيث السها والفرقدين منارها وتبلج بالاصباح نهارها ولاحت في سماء المجد بدورها وأقمارها وكادت تنهب نجوم السماء أتباعها وأنصارها وانتشرت في الآفاق والاقطار على البعد والقرب آثارها وهزت عطف الزمان انتشاء مناقبها وأخبارها وفاض ببركتها على اكناف المعمور عبها الزاخر وتيارها خلافة ينتمي الى النبوة عنصرها وتستنبط من رسالة الوحي أسطرها ويناط بعروتها الوثقى خنصرها وامامة عليّ وليها والله نصيرها والسبط بدرها الذي حياه منبرها وسريرها والحمد لله الذي اصطفى من هذه الدوحة النبوية الشماء والشجرة الطيبة الهاشمية التي أصلها ثابت وفرعها في السماء اماما ألقى الله له في القلوب حبا جميلا وموليّ جعله الله على مرضاته سبحانه علامة ودليلا وخليفة استرعاه فكان بحسن الرعي لخلقه وعباده كفيلا وانتضى من بأسه وبسالته لحماية حمى الشريعة حساما صقيلا مولانا أمير المؤمنين وخليفة الله في الارضين وسليل خاتم النبيين ووارث الانبياء والمرسلين المفترضة طاعته على الخلق أجمعين والممنون بامامته المقدسة على العالمين بحر الندى والباس وعصمة الله للناس أمير المؤمنين المنصور بالله مولانا أبا العباس صلوات الله عليه وعلى آله الخلفاء الراشدين والائمة الطيبين الطاهرين وطيب بانفاس المغفرة لحودهم أجمعين امام تهتز لذكره أعطاف المنابر وتتقلد من شريف دعوته أبهى من نفيس الجواهر وتستضيء البلاد باكليل شرفه الزاهر وتسكن العباد تحت ظل رحمته الوارف الوافر أبقى الله أيامه

الغر بقاء يصحب النصر دوامه وخلده ولاعقابه هذا الامر الكريم الى يوم القيامه ولما طلعت أيده الله
على هذه الاصقاع الزنجية طلائع امامته النبوية وخلافته ولاحت في سمائها شهب مناقبه المنيفة
الدالة على فخامة شرفه وانافته وتليت لمجده الآيات البينات التي تشهد له بتراث الرساله وتقضي له على
الاسلام وعلى الانام بحكم الولاء والكفاله وأوضح الله سبحانه للناس من اعتقاد وجوب طاعته
والاقتداء بامامته والانقياد لدعوته وتقليد بيعته ماجاء به كتابه الحكيم وورد به سنة نبيه
الكريم كما قال عليه السلام لا تزال الخلافة في قريش مابقي منهم اثنان وكما ورد في صحيح الخبر ان
الخلافة في قريش والقضاء في الانصار وفي الحبشة الاذان ويدل على هذا تعاضد الخبر والعيان فلا
نا كران ليس في المعمور على هذا الشرط غيره أيده الله من ثان فنهض بدليل الشرع انه امام الجماعة حقا
المستوفي شروطها والوارث للخلافة النبوية والحريص على بيضة الاسلام أن يحوطها وأن القائم
بهذا الامر على الاطلاق غيره دعي ومحاوله دون اذنه المشروع بدعي فتعين لذلك أن الرجوع الى الحق
فريضه واستبان بما تقرر وعلم ان امارة لا تلاقي في الشروع محلها المشروع منبوذة ومرفوضه
وعروتها الذلك مفصومة ومنقوضه فانتدب لهذه الآثار وصحيح الاخبار وصرف الحرضا الله العنايه
ووقف من الشرائع المشروعة حيث مركز الرايه ومنتهى الغايه الرئيس أبو العلاء ادريس أكرمه
الله انتداب من وقفت به مطية التوفيق على حضرة الاخلاص والتصديق وأخذت بزمامه السعادة
الى حيث الفوز برضا الله ورضا رسوله حقيق والتأييد صاحب ورفيق وروض الآمال أنيق وراح
الراحة والاطمئنان عتيق الى تقلد بيعة امام الجماعة أمير المؤمنين المنصور بالله زاده الله تقديسا
وتشريفا التي تؤسس ان شاء الله على تقوى من الله ورضوان وتشهد عقدها الكريم ملائكة الرحمن
وآثر أسعده الله أن يؤدي فرضها المعدود من فروض الاعيان وحكمها الذي توجه به خطاب الشرع
العام الى القاصي والدان وينشر سنتها المشروعة في صقعه وما يليه من الاصقاع والبقاع بالسودان تقلدا
يستضيء ان شاء الله بأنواره ويستشرف به للعز المكين على مناره ويخمد به للجهل جذوة ناره وتنتظم
به في اتباع الحق زمر أنصاره ويجتلي به صورة انسانه ويستوجب من الله عوارف صنعه واحسانه
ويرهف به للعدو على العزمات حد سيفه وسنانه ويقرع به لرضا الله باب القبول ويتضاعف له ببركته
العمل المقبول ويستنشق بمشهد عقده الكريم نواسم النبوه ويعود له به الزمان للشباب والفتوه
ويرفع به منار الامارة على قواعد الشرع الوثيقه ويعدل به في كل الاحوال عن المجاز الى الحقيقه وتتسنى
له به وهي المقصد الاسنى والخاتمة الحسنى الاسوة الحسنة بامامي بني العباس السفاح والمنصور ويحيى
سنتهما التي نقلها ثقات الاعلام والصدور في مبايعتهما الامام الخليفة المهدي الاكبر سليل سيد المرسلين
وجد مولانا أمير المؤمنين الذي رأى امام دار الهجرة أنه بتراث الخلافة النبوية أولى وأحق وفي
منصب الامامة على شرطها أعرق وبسريرها ومنبرها أليق فتأكد للمنتدب أكرمه الله بهذه الآثار
الشريفه والمناقب المنيفه العزم والقصد وأنجز له فيما أراده صادق الوعد وساعدته نيته الصالحة فيه
السعد فبايعه أعلى الله يده على الامن والامانه والعفاف والديانه والعدل الذي يشيد للمجد أركانه
مبايعة شائعة على عقدها الكريم أكرم الله اتباعه وجوعه وأشياعه بحكم الوفاق والاتفاق والمواثيق
الشديدة الوثاق وبجميع الايمان الصادقة الايمان أعطوا بها صفقة أيديهم ورفع بها العقيرة مناديهم
عارفين أن يد الله فيها فوق أيديهم وأمضوها على السمع والطاعه والانتظام في سلك الجماعه امضاء
يدينون به في السر والجهر واليسر والعسر والرخاء والشده والازمان المشتده والتزموا شروطها
طوعا واستوعبوها جنسا ونوعا بنيات منهم خالصة صادقه وعدة من الله بالخير لهم سابقه وسعادة
بالحسنى لاحقه أبرموا اعقدها وأحكموا وعدها وعهدها على حكم الكتاب والسنة والجماعه والاخذ

بسنتها

بسنتها أعقابا عن أعقاب وأحقابا اثر أحقاب الى يوم القيامة واقتراب الساعه لا يلحق عقدها الكريم فسخ ولا يعقبه بحول الله نسخ ولا يتطرق اليه نقض ولا نكث ولا يشوبه بشوائب الشبهات بحث وأجمع على هذا أسعده الله بالمواثيق المستفيضه والأيمان اللازمة المغلظة هو وأتباعه اجماعا شرعيا وحتموه على أنفسهم حتما مقضيا واعتقدوه اعتقادا أبديا وعرضوا على التزامه بمشهد عقده المبارك أفرادا وأزواجا ووحدانا وأفواجا وأشهدوا على الوفاء به بأيمانهم الصادقة البرور ومواثيقهم المثلجة للصدور قائلين بالله الذى لا اله الا هو الملك القدوس العليم بالخفيات والخبير بالآجال الوفيات وبجميع الرسل الكرام والانبياء وملائكة الرحمن فى الارض والسماء وعلى انهم ان حادوا عن هذا السبيل وانقادوا الدعاء داعى التغيير والتبديل أو انحرفوا عن هذا المنهاج وسنته فهم برآء من حول الله وقوته ومن دينه وعصمته ومستوجبين لعذابه وغضبه وسخطه ونقمته وبعداء من رحمته ومن شفاعة نبيه الكريم يوم القيامة لامته وانهم خالعون لربقة الاسلام وخارجون عن سنة الرسول عليه السلام أعلنوا بهذا اعلانا تعضده النجوى وأدوه بشروطه الجارية على مذاهب الفتوى وأحكامه اللازمة لكلمة التقوى استرضاء لله وللخلافة النبويه والامامة العلويه ورياضة للنفوس على بيعتها المباركة الميمونة النقيبه واستيفاء لشروطها وأقسامها الواجبة والمستحبة والمندوبه مستسلمين الى الله بالقلوب الخاشعه ومتضرعين الى بابه الكريم بالادعية النافعه فى أن يعرفهم خير هذا العقد الكريم والعهد الصميم بدأ وختاما وأن يمنحهم بركته التى تصحبهم حالا ودواما لا رب غيره ولا خير الا خيره أشهد على نفسه بما فيه وعلى رعيته الرئيس أبو العلاء ادريس أسعده الله وأكرمه وبتاريخ المحرم الحرام من عام تسعين وتسعمائة من الهجرة النبويه انتهى ﴿ولما كتبت﴾ هذه البيعة دفعت للرسول وأكرم وكافأه أمير المؤمنين على هدية سلطانه وتوجه الى بلاده بجواب مرسله ولم يلبث ان رجعه سلطانه ثالثة ووجه معه هدية ورسالة وخاض القفر الى دار الخلافة فوصل الى بلاد تيكورارين وهناك اعترضته منيته فاعتل وهلك فاشخص أولوا الامر الذين بتيكورارين الهدية مع رفقائه القادمين معه من عند سلطانه فوصلوا بها الى حضرة أمير المؤمنين بمراكش وقدموا اليه رسالتهم وهديتهم فتقبلها بقبول حسن وتم السرور وعظم الحبور واستقامت للمنصور الامور

## ﴿بعث المنصور رسوله بالدعوة الى آل سكية وكيفية ذلك﴾

لما أدى الوفد الواردون على المنصور من السلطان أبى العلاء صاحب مملكة برنو ما قدموا لاجله ردهم المنصور الى صاحبهم مكرمين وانتخب رسولا عارفا مجربا ممن لهم بصيرة باحوال السودان فبعثه معهم عينا يأتيه باخبار البلاد حتى كأنه يشاهدها وبعث معه رسالة الى السلطان اسحق بن داود من آل سكية صاحب مملكة كاغو من أرض السودان يأمره فيها أن يرتب على معدن الملح الذى بتغازى بين المغرب والسودان ومنه يحمل الملح الى أقطار السودان وظيفا بان يجعل على كل من يحمل منه شيأ من الواردين عليه مثقالا من الذهب العين لكل حمل تستعين بذلك الخراج عساكر المسلمين على جهاد الكفار لان ذلك بحر لا ساحل له وكان المنصور لم يكاتبه فى ذلك حتى استفتى علماء ايالته وأشياخ الفتيا بها فأفتوه بما هو المنصوص للعلماء رضوان الله عليهم من أن النظر فى المعادن مطلقا انما هو للامام لا لغيره وأنه ليس لاحد أن يتصرف فى ذلك الا عن اذن السلطان أو نائبه وبعث اليه المنصور بتلك الفتاوى مع الرسالة الموجه بها مع الرسول وكانت من انشاء العلامة الاديب مفتى الحضرة المراكشية المولى أبى مالك عبد الواحد بن أحمد الشريف السجلماسى لان كاتب الانشاء أبا فارس عبد العزيز بن محمد الفشتالى كان مريضا ومشذولا فرغ الشريف المذكور من انشائه ما بقى عليه الصدر فلم يدر كيف يقول فى مخاطبة

اسحق سكية ولا كيف يمدحه وهل يتوغل في المدح أو يتوسط فكتب أبو مالك حين تحير في ذلك الى المنصور ما نصه أيدكم الله ونصر أعلامكم أن مخاطبة هذا الرجل الذي هو في مرتبة مماليك الحضرة المولوية أمر تعلثم فيه لساني ووقف عن خوض لجته بناني لان النأي عن هذه المحجة قد مد بيني وبينها حجابا وأغلق في وجهي بابا فلا آمن من أقتحم الوقوع في تفريط أو افراط وخير الامور لو علمته الاوساط لكن لا سبيل الى معرفته الا بعد علم الطرفين والعبد محجوب عن ذلك دون مين فتركت أيدكم الله الصدر لمن هو به مني أقعد وتحاميت عقده لمن هو له أعقد أبي فارس عبد العزيز الذي فاضت عليه أنواركم وأضاءت له سبل هذا المخبر أقماركم والا قرعت هواتف لسان الحال سمعي بقول القائل

يا باري القوس بريا ليس يحسنه * لا تظلم القوس أعط القوس باريها

ولما بلغت رسالة المنصور الى السلطان اسحق سكية واطلع عليها اشق عليه ذلك وماطل في الجواب وحيث أبطأ الرسول فطن المنصور لما انطوى عليه سكية من عدم اجابته لما طلب من الوظيف على الملاحة فاشتد غضبه وعزم على توجيه العساكر الى السودان فهذا هو الحامل له على قصد تلك البلاد وتدويخها ولما فتح تيكورارين وتوات قوى عزمه على ذلك وطمحت نفسه للاستيلاء على ما هنالك على ما نذكره ان شاء الله

## ﴿مفاوضة المنصور الملأ من أصحابه في غزو آل سكية وما دار بينهم في ذلك﴾

﴿قال الفشتالي رحمه الله﴾ لما رجعت ارسال المنصور اليه من عند اسحق سكية وأعلموه بمقالته وامتناعه واحتجاجه بانه أمير ناحية والمنصور أمير ناحية وأنه لا تجب طاعته عليه شاور المنصور أصحابه وجمع أعيان دولته والتقى أهل الرأي والمشورة فاجتمعوا وكان يوم اجتماعهم يوما مشهودا فقال لهم المنصور اني عزمت على منازلة أمير السودان صاحب كاغوا وبعث الجيوش اليهم لتجتمع كلمة المسلمين وتتحد الرعية ولان بلاد السودان وافرة الخراج كثيرة المال يتقوى بها جيش الاسلام ويشتد تساعد كتيبته مع أن صاحب أمرهم والمتولي لسلطنتهم اليوم معزول عن الامارة شرعا اذ ليس بقرشي ولا اجتمعت شروط السلطنة فيه العظمى فلما انثل المنصور ما في كنانته وأبدى ما في خبيئته وعرض ما في عيبته سكت الحاضرون ولم يراجعوا بشئ فقال لهم أسكتم استهوابا لرأيي أو ظهر لكم خلاف ما ظهر لي فأجاب كلهم بلسان واحد ورأي متفق أن ذلك رأي عن الصواب منحرف وأنه بهامه عن الآراء السديدة ولا يخطر ببال السوقة فكيف بالملوك وذلك لان بيننا وبين السودان مهامه فيحاء تقصر فيها الخطا وتحار فيها القطا وليس فيها ماء ولا كلا فلا يتأتى السفر فيها ولا اعتساف شئ من طريقها مع كونها مخوفة مملوءة الجوانب ذعرا وأيضا فان دولة المرابطين على ضخامتها ودولة الموحدين على عظمها ودولة المرينيين على قوتها لم تطمح همة واحد منهم لشئ من ذلك ولا تعرضوا لما هنالك وما ذاك الا لما رأوا من صعوبة مسالكها وتعذر مداركها وحسبنا أن نقتفي أثر تلك الدول فان المتأخر لا يكون أعقل من الاول فلما قضى أولئك الاقوام كلامهم وأبدوا لله رأيهم وملامهم قال لهم المنصور ان كان هذا غاية ما استضعفتم به أمري وفيلتم به رأيي فليس فيه حجة ولا ما يخدش فيما عندي أما قولكم بيننا وبينها صحار مخوفة ومفاوز مهلكة لجدوبتها وعطشها فنحن نرى التجار على ضعفهم وقلة استعدادهم يشقون تلك الطرق في كل وقت ويخوضون في احشائها مشاة وركبانا وجماعة ووحدانا ولم تنقطع قطر ركاب التجار عنها وأنا أقوى أهبة منهم والجيش همة ليست للقوافل وأما قولكم ان من كان قبلنا من الدول الطنانة لم تطمح أبصارهم لذلك فاعلموا أن المرابطين صرفوا عنايتهم لغزو الاندلس ومقابلة الافرنج ومن بذلك الساحل من الاروام والموحدون اقتفوا سبيلهم في ذلك وزادوا بحرب ابن غانية والمرينيون كانت غالب وقائعهم مع بني عبد الواد بتلمسان

ونحن اليوم قد انسد عنا باب الاندلس باستيلاء العدو الكافر عليها جملة وانقطعت عنا حروب تلمسان باستيلاء الترك عليها ثم ان أهل تلك الدول لو أرادوا ما أردنا لصعب عليهم لان جيوشهم كانت فرسانا رامحة ورماة ناشبة ولم يكن عندهم هذا البارود وعساكر النار المرهبة الصواعق وأهل السودان ليس عندهم الآن الا الرماح والسيوف وهي لا تقاوم هذه المدافع المستحدثة فقاتلهم سهلة وحربهم أيسر من كل شئ وأيضا فان بلاد السودان أنفع من افريقية فالاشتغال بها أولى من منازلة الترك لانه تعب كثير في نفع قليل فهذا جواب ما عرض لكم ولا يحملنكم ترك الملوك الاول ذلك على استبعاد القريب واستصعاب السهل فانه كم ترك الاول للآخر وقد يفتح على المتأخر بما لم يفتح به على المتقدم فلما فرغ المنصور من خطابه وأبدى ما في وطابه استحسن الحاضرون جوابه واستحلوا اشارته واستجادوا رأيه وقالوا والله قد طبقت المفصل وألهمت الصواب ولم تبق لاحد ما يقول وصدق من قال عقول الملوك ملوك العقول فانفصل الجمع على البعث الى السودان ومناهضة أهله ومتابعة المنصور في رأيه عليه ﴿قلت﴾ وفي كلام المنصور أمران يحتاجان الى مزيد بيان الاول ما قاله من أن الملثمين لم تكن لهم سلطنة على السودان يعني بهم الذين أقاموا بارض المغرب ودبروا أمره مثل يوسف بن تاشفين وبنيه فلا يرد عليه أن الامير أبا بكر بن عمر غزا السودان وفتح منه مسيرة ثلاثة أشهر لان ذلك كان بعد رجوعه الى الصحراء واستقراره بها واعراضه عن ملك المغرب بالكلية كما مر الثاني ما قاله من أن البارود لم يكن في تلك الدول الفارطة يعني به لم يكن موجودا فيها بكثرة بحيث يستغني به الجيش عن غيره ساعة القتال فلا يرد عليه أن ظهوره كان في أوائل المائة السابعة لاول دولة بني مرين كما مر اذ ظهوره في تلك المدة كلا ظهور والله تعالى أعلم بحقائق الامور

## ﴿استجازة المنصور لعلماء مصر رضي الله عنهم وتلمذه لهم﴾

قالوا ومن اعتناء المنصور رحمه الله أنه بعث الى علماء مصر يستجيزهم رغبة في اتصال حبل السند واقتفاء لاحب ذلك الطريق الاسد ﴿وممن أجازه﴾ الامام العارف بالله أبو عبد الله محمد ابن الشيخ أبي الحسن البكري رضي الله عنه * ومن بعض فصول اجازته له قوله يمدح كتاب المنصور اليه ويثني عليه بالفصاحة والبلاغة ما نصه ولقد وصل الى المثل العديم المثال المزري نظامه بعقود اللآل فاذا به السحر الا أنه الحلال ولو ادعى أحد أن من معجزات أحمد صلى الله عليه وسلم أن عبد الله كراما كاتبين في زمان نجله أمير المؤمنين أحمد بكتاب كريم على أسلوب قويم يرسله الى محب قديم من النبعة والصميم لم تكذب دعواه فامن خارق في الامة الا وهو من معجزاته صلى الله عليه وسلم دال على علاه وأما ما شرفني به من طلب الاجازه فالبيت والحديث له ولكن رب أب أرسل الى ابنه على يد عبده عطاء فقبله واليه بامره حمله وحيث وقع الامر فامر مولانا حتم وطاعته غنم فمولانا مجاز من هذا العهد من جميع ما يجوز لهذا العبد بجميع ما يجوز له وعنه روايته بشرطه المعتبر عند أهل الامر وكذلك مجاز أهل العصر اجازة عام بعام ليكون أبناء الوقت جميعا على مائدة فضل مولانا وتحت ظلال ذلك الانعام فانه هو السبب في تحصيل ذلك المرام وكتب تحريرا في رابع عشر ربيع الثاني سنة اثنتين وتسعين وتسعمائة محمد بن أبي الحسن الصديقي سبط آل الحسن اه ﴿وممن استجازه المنصور أيضا من علماء مصر﴾ الامام العلامة أبو عبد الله محمد بن يحيى المصري الشهير ببدر الدين القرافي صاحب ذيل الديباج فأجازه اجازة عامة بسط فيها القول ثم ختمها بقوله

أجزت لمن تفضل واستجازا * وبادر لاقتناء الخير وحازا

وأبرز في سلوك العلم حالا * به من فضل مولانا يجازى

امام كامل غوث البرايا * أمير المؤمنين حوى مجازا
وذلك بعد تشريفي بأمر * وقصد للاجازة فاستجازا
فبادرت امتثالا قدر وسعي * ومقتفيا مناهج من أجازا
وقد أبديت حقا لا محالا * بما صار الامام به مجازا
بفاتحة وسنة خير هدى * وسلسلة لمن حاز امتيازا
بدار الهجرة العليا امام * بما أبداه من فضل مجازا
وأرجو منه يهدى لى دعاء * لما أرجوه من خير مجازا
بخاتمة تبلغني مراما * بجنات أراها لى مفازا
وأشياخي يبلغهم رضاء * ويوصلهم الى خير مجازا

﴿تجديد المنصور ولاية العهد لابنه المأمون وما وقع فى ذلك﴾

قالوا وفى شوال سنة اثنتين وتسعين وتسعمائة جدد المنصور البيعة لولده محمد الشيخ الملقب بالمأمون وأخذها له على اخوته خصوصا لانهم كانوا فى البيعة الاولى قبل البلوغ فأراد أن يستوثق له منهم بعد البلوغ حسما لمادة النزاع بينهم فارتحل المنصور من مراكش الى تامسنا وبعث الباشا عزوز بن سعيد الوزكيتي ليأتيه بولى عهده المذكور من فاس فتوافى القصدان بتامسنا وباشر المنصور أخذ البيعة له بنفسه وحضر الأعيان وأهل الحل والعقد وأحضر المصحف الكريم الذى هو مصحف عقبة بن نافع الفهرى رضى الله عنه وهو من ذخائر الخلفاء وأحضر الصحيحان للشيخين وقرئ ظهير البيعة فتولى قراءته الكاتب أبو فارس عبد العزيز الفشتالى وبجنبه القاضى أبو القاسم الشاطبى يفسر ما أشكل من لفظ الظهير ﴿ولما أخذ البيعة﴾ أخر أولاده الى غد يومها فكتبوا خطوطهم عقبها بالموافقة على ذلك والالتزام له ووقع فى رسالة السلطان زيدان لابى زكرياء بن عبد المنعم الامام بذكر هذه البيعة فقال انى حضرت بيعة محمد الشيخ صاحب الغرب سامحه الله وحضر أولاد السلطان فاستحلفهم له الا أنا فانه رضى الله عنه قال فلان لا يخاف لا يحتاج اليه فيما نأمره به ونفعله وعظم ذلك على اخوتى وظهرت فى وجوههم لاجله الكراهية اه ﴿ولما فرغ﴾ المنصور من تجديد البيعة رأى أن يرشح كلا من أولاده للامارة ويقسم بينهم البلاد حتى لا تبقى فى نفوسهم احن ولا تنطوى قلوبهم على ضغائن فعقد لابى فارس شقيق المأمون على السوس وسائر عمائره وعقد لابى الحسن على مكناسة وما والاها وعقد لزيدان على تادلا ثم عكس ذلك لامر اقتضاه الحال فنقل زيدان الى مكناسة ونقل أبا الحسن الى تادلا ولم يزالوا على ذلك الى ان كان من أمرهم ما نذكره فى محله ان شاء الله

﴿ثورة الحاج قرقوش ببلاد غمارة ومقتله﴾

قالوا وفى سنة ثلاث وتسعين وتسعمائة ثار رجل يقال له الحاج قرقوش بجبال غمارة وبلاد الهبط وتسمى بامير المؤمنين وكان فى ابتداء أمره حائكا فتلبس بالزهد والصلاح واعتقدته العامة ثم استحال أمره الى ما ذكرنا فأخذ وقتل وحمل رأسه الى مراكش وانقطعت مدة فساده فلم تبكه أرض ولا سماء

﴿بناء المسجد الجامع بباب دكالة من حضرة مراكش حرسها الله﴾

كانت الحرة مسعودة أم المنصور وهى بنت الشيخ الاجل أبى العباس أحمد بن عبد الله الوزكيتى الوارزازى من الصالحات حريصة على اقتناء المفاخر راغبة فى فعل الخير ﴿قال فى المنتقى﴾ وهى التى أنشأت المسجد الجامع بحومة باب دكالة داخل مدينة مراكش ووقفت عليه أوقافا عظيمة وكان ذلك

سنة

سنة خمس وتسعين وتسعمائة قال وهي التي بنت جسر وادي أم الربيع وغير ذلك اهـ ﴿قلت﴾ المرقوم على رخامة قبرها انها بنت جسرين بلفظ التثنية وتزعم العامة أنها بنت المسجد المذكور كفارة لما انتهكته من حرمة رمضان وذلك انها دخلت بستانا من بساتين قصورها وهي في حال الوحم فرأت به خوخا ورمانا فتناولتهما وأكلت منهما في نهار رمضان ثم ندمت على ما صدر منها وفعلت أفعالا كثيرة من باب البر رجاء أن يتجاوز الله عنها ومنها الجامع المذكور ولا زال النساء والصبيان يسجعون بقضيتها الى الآن فيقولون عودة أكلت رمضان بالخوخ والرمان في أسجاع غير هذه ولفظ عودة مخفف من مسعودة على طريقة البربر في مثل هذا والله تعالى أعلم

## ﴿بعث المنصور بيلة الرخام الى جامع القرويين من فاس حرسها الله﴾

﴿قال ابن القاضي في المنتقى المقصور﴾ ان المنصور رحمه الله بعث الخصة العظيمة سنة ست وتسعين وتسعمائة الى جامع القرويين من فاس مع كرسي من المرمر توضع عليه وزنهما معا مائة قنطار قال وهي الخصة التي تحت منار الجامع المذكور ﴿وقال ابن القاضي المذكور رقم ما نقش برقبتها

امام دار الهدى المنصور شيدني * بحر المكارم من أبناء عدنان
حوت المفاخر بالمنصور أجمعها * ومن علاه سنام المجد أرساني
من جاء يشكو الظما وماؤقبالي * أغناه ما قد همى من صوب أجفاني
لا تنكرن وجود الدمع من فرح * فالعين تدمع من افراط سلوان
واشرب هنيئا من السلسال لا حرج * معين دمع جرى من فيض خلجاني
فخر السلاطين من أبناء فاطمة * أشاع صيتي الى أطراف عمان
وقد جرت مقلتي تحكي سحائبها * كف الخليفة من أبناء زيدان
لا زال للدين والدنيا يسوسهما * ما هيجت عاشقا ورق بأفنان
انشائي في زمن التاريخ وافقه * للدين والاجر بحر الجود سواني

﴿وفي هذه السنة﴾ أعني سنة ست وتسعين وتسعمائة في ذي الحجة منها سافر المنصور الى فاس وبينما هو في الطريق وافته البشرى بالفتك بنصارى سبتة وان زعيم الفئة الجهادية وهو المقدم أبو العباس أحمد النقسيس التطواني كمن لهم مع جماعة من الفرسان في موضع مخرج النصارى بأولادهم وحشمهم فخال النقسيس بينهم وبين سبتة وأوقع بهم وكاد يفتحها وسر المنصور بهذا الخبر وأنشده في ذلك الكاتب أبو عبد الله محمد بن علي الفشتالي بيتين زجر له منهما الفال باستيلائه عليها وهما

هذه سبتة تزف عروسا * نحو ناديك في شباب قشيب
وهي بشرى وأنت كفؤ اللواتي * كافأت بعلها بفتح قريب

وفي سنة سبع وتسعين وتسعمائة في اليوم الثاني من ذي القعدة منها أخلى النصارى مدينة آصيلا حملهم الخوف من كتيبة المسلمين المرابطة هنالك أي على الفرار بأنفسهم فتركوها يبابا وذهبوا وفي ذلك يقول أبو العباس ابن القاضي

يا أيها المنصور أبشر بالعلى * فالله أبلغ في العدا المأمولا
أنضا لكم سيفا الحتف عن داته * وبكم غدا سيف الردى مفلولا
وهزمتم الشرك المتين بعزمكم * من غير سيف لم يرى مسلولا
وأذبتم كيد الخبيث بهمة * وفتحتم دار العدا آصيلا
أكرم به من مالك بل صالح * أضحى ابار ود العداة خليلا

لا زال في أنف الهدى شمما وفى * عين العلاء يشا كل التكحيلا

وأشار بقوله لبارود العداة خليلا الى ما صنعه النصارى دمرهم الله حين أرادوا الخروج من آصيلا فانهم حفروا تحت قصبتها وملؤا الحفرة بالبارود وأوقدوا فتيلا لا تبلغه ناره عند دخول المسلمين فيهلكون ففر نصراني منهم وأخبر المسلمين بذلك فنجاهم الله تعالى من مكيدة الوبال وكفى الله المؤمنين القتال وقال في ذلك أيضا الكاتب البارع أبو فارس عبد العزيز الفشتالي شعرا ذكره صاحب نشر المثاني فانظره وكان في زمان المنصور رجال من بيوتات المغرب معروفون بالشجاعة والنجدة في قتال العدو منهم أولاد النقسيس التطوانيون ومنهم أولاد أبي الليف من أهل بلاد الهبط ﴿قال في المرآة﴾ لما كان المقدم المجاهد الشهيد أبو عبد الله محمد بن الحسن أبو الليف من الشهامة والصرامة على ما كان عليه ومن شدة نكايته في العدو الكافر الطنجي وبعد أثره فيهم جرت أمور بينه وبين صاحب عمل القصر يسعى به الى المنصور فأمر برحيله الى فاس هو وعشيرته مغتربين عن وطنهم كأنهم في سجن فأقاموا بفاس مدة لا أدري هل هي سنة أم أكثر الا أني كنت أراه عند الشيخ سنة ثمان وتسعين وتسعمائة وأنا اذ ذاك صغير ويعني بالشيخ والده أبا المحاسن رحمه الله قال فضاقت عليهم أنفسهم من الاغتراب فقال يوما المقدم عمر لأخيه كبيره المقدم محمد لو زارنا الشيخ اليوم وتبركنا به لعل الله يفرج عنا فان الناس كثيرا ما يقصدونه في المهمات فقال له لا أتحرك فقد غلب اليأس فسار المقدم عمر وحده فلما وصل الى الشيخ قال له قنطتم قال نعم يا سيدي فقال له الشيخ غدا يخلي سبيلكم ان شاء الله فرجع الى أخيه وأخبره فلما كان من الغد بعث اليهم القاضي أبو محمد عبد الواحد الحميدي فلما أتوه قال لهم أبشروا بالسراح والرجوع الى الوطن ان شاء الله فانه قد قرئ الآن بين يدي السلطان بعض الغزوات التي ذكرها ابن النحاس وغناء أبطال المسلمين فيها فقال السلطان أو غيره ترى هل بقي في هذا الزمان من يعمل فعلهم وهاهم أولاد أبي الليف المغتربون هنا يفعلون مثل ذلك فقال السلطان سرحوهم الى بلادهم ليحموا ثغورهم ويجاهدوا في سبيل الله فرجعوا الى بلادهم وفعلوا الافاعيل في عدو الدين الى ان استشهد المقدم محمد في ربيع الثاني سنة اثنين وألف اهـ

## ﴿غزو السودان وفتح مدينة كاغو وقتل سلطانها اسحق سكية رحمه الله﴾

قد تقدم لنا ما كان من مفاوضة المنصور لحاشيته في غزو السودان واستقرار رأيهم على ذلك فبقي المنصور يقدم رجلا ويؤخر أخرى الى ان كانت سنة سبع وتسعين وتسعمائة فقوي عزمه واشتغل بتجهيز آلة الحرب وما يحتاج اليه الجيش من آلة السفر ومهماته وأمر القواد أن يقوموا احصاء القبائل وما يحتاجون اليه من ابل وخيل وبغال وان من أتى بجمل ضعيف يعاقب واشتغل هو بتقويم آلة الحرب من المدافع والعجلات التي تحملها والبارود والرصاص والكور وتقويم الخشب واللوح والحديد للغلائط والسفن والفلك والمجاذيف والقلوع والبراميل والروايا لحمل الماء وألف النجارون ذلك في البر الى ان تألف ثم خلعوه وشدوه أحمالا واستمر الحال الى ان استوفى المنصور أمر الغزو في ثلاث سنين ثم أمر باخراج المضارب والمباني لوادي تانسيفت فخرجت الاحمال والاثقال من مراكش في اليوم السادس عشر من ذي الحجة سنة ثمان وتسعين وتسعمائة ونزلت العساكر وضربت أبنيتها خيلا ورجلا وجلتها عشرون ألفا ومعهم من العلجين البحرية والطبجية ألفان فالمجموع اثنان وعشرون ألفا وعقد المنصور على ذلك الجيش لمولاه الباشا جوذر وشد أزره بجماعة من أعيان الدولة فاختار منهم من يعلم نجدته ويعرف كفايته وتخير من الابل كل بازل وكوماء ومن الخيل كل عتيق وجرداء ثم نهضوا في زي عظيم وهيئة لم ير مثلها وذلك في محرم فاتح سنة تسع وتسعين وتسعمائة وكتب المنصور الى قاضي تنبكتوا

الفقيه

الفقيه العلامة أبى حفص عمر ابن الشيخ محمود بن عمر آقيت الصنهاجي بأمره بحض الناس على الطاعة ولزوم الجماعة ولما نهضوا من تانسيفت جعلوا طريقهم على ثنية الكلاوى ثم على درعة ودخلوا القفر والفيافى فقطعوها فى مائة مرحلة ولم يضع لهم عقال بعير ولا نقص منهم أحد فنزلوا على مدينة تنبكتوا ثغر السودان فأراحوا بها أياما ثم صاروا قاصدين دار اسحق سكية ولما سمع بقدومهم احتشد أمم السودان وقبائلها وقبائل الملثمين المهادنين لهم وخرج من مدينة كاغو بجر الشوك والمدد يقال انه جمع مائة ألف مقاتل وأربعة آلاف مقاتل ﴿وقال الفشتالى﴾ ولم يقنع بالجيوش التى جمع حتى أضاف اليها أشياخ السحرة وأهل النفث فى العقد وأرباب العزائم والسيمياء ظنا منه أن ذلك يغنيه شيأ وهيهات ويرحم الله أبا تمام اذقال فيما يقرب من هذا الحال

السيف أصدق أنباء من الكتب * فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف فى * متونهن جلاء الشك والريب
والعلم فى شهب الارماح لامعة * بين الخميسين لا فى السبعة الشهب
أين الرواية بل أين النجوم وما * صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
تخرصا وأحاديثا ملفقة * ليست بنبع اذا عدت ولا غرب

ولما تقارب الجمعان عبا الباشا جوذر عساكره وتقدم للحرب فدارت بهم عساكر السودان من كل جهة وعقلوا أرجلهم مع الابل وصبروا من الضحى الى العصر وكانت سلاحهم انما هى الحرشان الصغار والرماح والسيوف ولم تكن عندهم هذه المدافع فلم تغن حرشانهم ورماحهم مع البارود شيأ ولما كان آخر النهار هبت ريح النصر وانهزم السودان فولوا الادبار وحق عليهم البوار وحكمت فى رقابهم سيوف جوذر وجنده حتى كان السودان ينادون نحن مسلمون نحن اخوانكم فى الدين والسيوف عاملة فيهم وجند جوذر يقتلون ويسلبون فى كل وجه وفر اسحق فى شرذمة من قومه ولم يدخل قلعة ملكه وتقدم جوذر فدخلها واحتوى على ما فيها من الاموال والمتاع وكان ذلك منتصف جمادى الاولى من سنة تسع وتسعين وتسعمائة ويقال ان جوذرا لم يدخل مدينة كاغو وانما تحصن بها اسحق فحاصره جوذر فيها وكتب الى المنصور بخبر الفتح وبعث اليه بهدية فيها عشرة آلاف مثقال ذهبا ومائتان من خيار الرقيق وغير ذلك وامتدت العساكر المنصورة فى بلاد آل سكية تعيث وتفسد وتسبى وتغنم الى أن راسل اسحق الباشا جوذرا فى تقرير الصلح على مال معين يدفعه الآن وضريبة يؤديها كل سنة فأجابه الى ذلك على مشورة المنصور وامضائه اياه ثم كتب الى المنصور بذلك وكانت العساكر قد أصابها الحمى ووخامة تلك الارض فاتفق رأى الامراء على الرجوع والاقامة بتنبكتوا الى أن يأتى جواب المنصور فرجعوا وأخذ جوذر فى انشاء الغلائط والسفن وتركيبها ولما أكملها دفعها فى النيل ولما بلغ المنصور خبر الصلح قام وقعد وقوم عسكرا خفيفا وبعث به مع مملوكه الآخر محمود باشا وهو أخو جوذر وقلده أمر العساكر كلها وعزل جوذرا عنها وأمر محمودا أن يبقيه معه وكتب الى أمراء العسكر يعاتبهم ويوبخهم على ما فعلوه مع اسحق من الصلح ويؤكد عليهم فى الرجوع الى بلاده واتباعه حيثما توجه ولو عبر النيل الى العدوة الاخرى وخرج محمود باشا فيمن عين له من العسكر فى زمان الحر فى وقت لا يقدر على الحركة فيه الا القطا الكدر وقطع القفر فى خمسين مرحلة أمر لم يسمع بمثله ونزل بالعساكر على ظاهر تنبكتوا على رأس سنة الالف فأراح بها ثلاثا ثم شحن الغلائط والسفن والفلك بالرؤساء والملاحين ووجوه الجند فساروا فى النيل وسار السواد الاعظم فى البر الى أن نزلوا على مدينة كاغوا قاعدة ملك اسحق سكية وكان اسحق لما رجعت عنه العساكر الى تنبكتوا احتشد أمم السودان المجاورين له وتذامروا وأصفقوا معه على الموت فلما بلغه رجوع العساكر الى كاغو قصدهم فى جموعه ولما التقى الجمعان لم يكن

الامقدار فواق ناقة حتى انهزم السودان من سماع رعد المدافع والمهاريس وارتفاع القنابر فى الجو وهدير الطبول وتبعتهم العساكر يقتلون و يأسرون الى أن غشيهم ظلام الليل و رجعوا بالغنائم والسبي فاستراحوا ثلاثا ثم أمر محمود أخاه جوذرا أن يقيم بمدينة كاغو اعام الهاو يترك معه عددا من العسكر يكون ردءا لهم وسار هو فى اتباع اسحق الى ان لحقه ببعض الجهات فأوقع به وقعة شنعاء وفرّ فى فل من قومه فعبر النيل الى العدوة الاخرى وتبعه محمود فعبر النيل بعساكره فى السفن وسار خلفه الى أن لحقه فأوقع به وقعة ثالثة احتوى فيها على ما معه من المال والحريم ودخل اسحق القفر فهلك فيه ثم كانت لمحمود وقعة أخرى مع أخيه الذى كان ينازعه فى الملك فانه قام بعد مهلك أخيه وجمع الجموع وزحف الى محمود باشا فنهض اليه محمود فهزمه وقتله فيمن معه من جنده وأتباعه وتمهدت له البلاد واستولى عليها استيلاء كليا وكتب بخبر الفتح الى المنصور ولما بلغه هذا الفتح وصورته كان عنده ذلك اليوم عيدا من الاعياد أخرج فيه الصدقات وأعتق الرقاب وأقام مهرجانا عظيما بظاهر الحضرة خرج له عامة الناس للفرجة والنزهة وزينت الاسواق وأخرجت المدافع بالنفط وتسابقت الخيول وأطعم المنصور الناس عدة أيام ونظم الشعراء قصائدهم ورفعوا أمداحهم وأجازهم بما تحدث الناس به دهرا وكتب بخبر الفتح وصورته نسخ وجهت الى جميع الآفاق وكان مما قيل فى ذلك من الشعر ما أنشده الكاتب أبو فارس عبد العزيز الفشتالى فقال

جيش الصباح على الدجا متدفق ✻ فبياض ذا لسواد ذلك يمحق

وكأنه رايات عسكرك التى ✻ طلعت على السودان بيضا تخفق

لاحت وأفقهم ليال كله ✻ كعمود صبح فى الدجا يتألق

نشرت لتطوى منه ليلا دامسا ✻ أضحى بسيف لذى الفقار يمزق

أرسلتهن جوانحا وجوارحا ✻ فى كل مخلبها غراب ينعق

وسرت فكان دليلهن الى الهدى ✻ مشحوذ عزمك والسنان الازرق

فهى الليالى قد جلى أحلاكها ✻ نور النبوة من جبينك يشرق

صعقت بهن رعود نارك صعقة ✻ رجت لصيحتها العراق وجلق

سحقا لاسحق الشقى وحزبه ✻ فلقد غدا بالسيف وهو مطوق

رام النجاة وكيف ذاك وخلفه ✻ من جيش جوذرك الغضنفر فيلق

جيش أواخره ببابك سيله ✻ عرم وأوله بكاغوا محدق

لم يشعروا الا وأسوار الردى ✻ ضربت عليهم من قناك وخندق

كتب الاله على عداتك أنهم ✻ قنص لسهمك غربوا أو شرقوا

ضلت ملوك ساجلوك على العلا ✻ سفها وشأوك فى العلى لا يلحق

ان يشبهوك ولا شبيه يرى لكم ✻ فى الخلق أين من اللجين الزئبق

بشر ملوك الارض أنك فاتح ✻ بالمشرفى على الولا ما اغلقوا

وبقاصل لك ذى الفقار مفرق ✻ ما جمعوه وجامع ما فرقوا

دامت طيور السعد وهى غوارد ✻ بالمشتهى لك والمسرة تنطق

ما دام أصل علاك فى صحف الثنا ✻ أصل الفخار وكل غيرك ملحق

والمشتهى والمسرة بستانان للمنصور ورّى بهما هذا الشاعر وسيأتى الكلام عليهما وكان محمود باشا لما استوسق له الامر هنالك بعث بنصف جيشه الى المنصور مع هدية عظيمة فيها من الذخائر ما لا يحصى من ذلك ألف ومائتان من متخير الرقيق الجوارى والغلمان وأربعون حملا من التبر وأربعة سروج

ذهبا

ذهبا خالصا وأحمال كثيرة من اليانبور وقطوط الغالية وغير ذلك ولما وافت المنصور سر بذلك سرورا عظيما وأمر بعمل المفرحات في بلاد المغرب وبتزيين الاسواق غدوة وعشية ثلاثة أيام ووفدت عليه الوفود من كل ناحية مهنئين له بما منحه الله من الظفر والنصر وانتظمت الممالك السودانية في سلك طاعته ما بين البحر المحيط من أقصى المغرب الى بلاد برنو المتاخمة لبلاد النوبة المتاخمة لصعيد مصر ﴿قال الفشتالي﴾ فكلمة المنصور نافذة فيما بين بلاد النوبة الى البحر المحيط من ناحية المغرب وهذا ملك ضخم وسلطان فخم لم يكن لمن قبله والله يؤتي ملكه من يشاء ولما فتح الله عليه ممالك البلاد السودانية جلب اليه من التبر ما يعيي الحاسبين ويحير الناظرين حتى كان المنصور لا يعطي في الرواتب الا النضار الصافي والدينار الوافي وكان ببابه كل يوم أربع عشر مائة مطرقة لضرب الدينار الوافي دون ما هو معد لغير ذلك من صوغ الاقراط والحلي وشبه ذلك ولاجل هذا لقب بالذهبي لفيضان الذهب في أيامه والامور كلها بيد الله

## ﴿وفاة أم المنصور الحرة مسعودة الوزكيتية رحمها الله﴾

كانت الحرة مسعودة هذه من الخيرات الصالحات وتقدم بعض مآثرها من بناء المسجد الجامع بباب دكالة وغيره وكانت وفاتها سحر يوم الثلاثاء السابع والعشرين من المحرم فاتح سنة ألف ومن المستفيض انها رئيت بعد موتها فسئلت ما فعل الله بها فقالت غفر لي بسبب اني كنت ذات يوم جالسة لقضاء الحاجة فسمعت المؤذن شرع في الاذان فرددت على ثيابي اعظاما لذكر الله تعالى حتى فرغ المؤذن من آذانه فشكر الله لي ذلك فغفر لي ﴿وفي سنة احدى وألف﴾ أتي بالفيلة من بلاد السودان الى المنصور وكان يوم دخولها لمراكش يوما مشهودا برز لرؤيتها كل من بالمدينة من رجال ونساء وشيوخ وصبيان ثم حملت الى فاس في رمضان سنة سبع وألف ﴿قال في نشر المثاني﴾ كان دخول الفيل الى فاس يوم الاثنين سادس عشر رمضان سنة سبع وألف وبعث المنصور مع الفيل الى ولده المأمون بهدية سنية فيها تحف وأموال عريضة وخرج أهل فاس في ذلك اليوم للقاء الفيل بنحو مائة ألف نفس ﴿قال بعضهم﴾ وبسبب دخول هذه الفيلة الى المغرب ظهرت هذه العشبة الخبيثة المسماة بتابغ لان أهل السودان الذين قدموا بالفيلة يسوسونها قدموا بها معهم يشربونها ويزعمون أن فيها منافع فشاعت منهم في بلاد درعة ومراكش وغيرهما من بقاع المغرب وتعارضت فيها فتاوى العلماء رضوان الله عليهم فمن قائل بالتحريم ومن قائل بالتحليل ومتوقف والعلم فيها عند الله سبحانه قاله اليفرني ﴿قلت﴾ من تأمل أدنى تأمل في قواعد الشريعة وآدابها علم يقينا أن تناول هذه العشبة حرام لانها من الخبائث التي حرمها الله تعالى على هذه الامة المطهرة وبذلك وصفها في الكتب السالفة اذ قال تعالى الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث وبسط هذا المقام ان تعلم أن الله تعالى اختار هذه الامة من بين سائر الامم قال تعالى كنتم خير أمة أخرجت للناس واختار لها من الطاعات وأنواع العبادات ما هو أفضلها قال تعالى اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا وأفضل تلك العبادات كلها الصلاة التي هي من الدين بمنزلة الرأس من سائر الجسد ثم اذا أمعنت النظر رأيت الشارع صلوات الله عليه قد بالغ في الاحتياط لهذه العبادة الشريفة والاستعداد لها باستعمال كل طيب أمكن واجتناب كل خبيث أمكن فشرع أولا الطهارة الكبرى الشاملة لسائر البدن وحظر من مقاربة الصلاة وما هو في معناها حال الخلو عنها ثم شرع ثانيا الطهارة الصغرى المتعلقة باطراف البدن زيادة في الاعتناء بها لانها تبرز في غالب الاحوال فيعلق بها من الاقذار ما لا يعلق بغيرها وألزم المكلف استعمال هذه الطهارة

حكم شرب الدخان

عند عروض كل حدث مستقذر حتى الريح والسبب الداعي الى خروجه ثم ندبه الى استعمالها عند القيام الى كل صلاة من الصلوات الخمس ثم انا اذا تأملنا أفعال هذه الطهارة وجدناها تشتمل على مبالغات كثيرة تستدعي غاية النظافة وتنفي كل قذر وان قل فشرع الغسل في أعضاء الوضوء مكررا وشرع مسح وشعر الرأس بالماء دفعا لما يعلق به من الغبار وشرع تتبع مسام الوجه بالغسل والتنظيف كالمضمضة والاستنشاق ثلاثا تطييبا للنكهة وشرع مسح الاذنين من ظاهرهما وباطنهما حتى الصماخين ازالة لما بداخلهما من تلك الفضلة مع أن الحي ودمعه وعرقه ولعابه ومخاطه كلها طاهرة أوليس في هذا دليل واضح على أن الحكمة في هذا كله انما هو المبالغة في النظافة وتطييب الرائحة والنكهة اذ بذلك يستحق العبد أن يتلبس بالعبادة ويدخل حضرة الرب وشرط للدخول فيها طهارة البدن والثوب والمكان من سائر المستقذرات حتى يكون على أكمل الحالات بعيدا عن القذر بكل وجه ثم لم يكتف الشارع بهذا حتى شرع السواك عند القيام الى كل صلاة وقال لولا أن أشق على أمتي لامرتهم بالسواك عند كل صلاة كل ذلك المقصود منه طيب النكهة فانظر وتأمل اعتناء الشارع بتطييب رائحة فم المؤمن ونكهته حتى في حق الصائم الذي خلوف فمه أطيب عند الله من ريح المسك هذا كله في حال الصلاة وأما خارجها فقد علم من الشرع علما ضروريا أن العبد مطلوب بالمحافظة على هذه الحال والبقاء عليها سائر أوقاته متى قدر على ذلك وتيسر له ومن هذا المعنى ما حرم الله تعالى على هذه الامة من تناول المستقذرات كالميتة والدم وسائر النجاسات اذ علة حرمة الاشياء وتناولها اما كونها مستقذرة كالنجاسات اجماعا وكالحشرات وما تعافه النفوس على مذهب الشافعي رضي الله عنه أو مضرة كالسم والطين ونحوهما مما يضر بالبدن أو ببعض الاعضاء منه أو محترمة امالذاتها كالآدمي أو لكونها ملكا للغير وهو ظاهر فالشارع له غرض أكيد في اجتلاب الطيبات واجتناب ما يضادها من المستخبثات وقد ثبت في الصحيح أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يعملون في حوائطهم فاذا حضرت الجمعة أتوا الى المسجد وأبدانهم سهكة فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بالاغتسال عند كل جمعة ثم منع كل من تلبس برائحة كريهة كالثوم والبصل والكراث من حضورها وحبب الى النبي صلى الله عليه وسلم من دنيانا النساء والطيب وندب أمته الى استعماله في المشاهد العامة مثل الجمع والاعياد ونحوها وخصال الفطرة انما شرعت لهذا المعنى ففيها كفاية لمن تأملها وقال صلى الله عليه وسلم ازرة المؤمن الى انصاف ساقيه دفعا للسرف والخيلاء ولئلا يعلق به شيء من النجاسات والاقذار الى غير هذا مما لو استقصى لطال ودل دلالة قطعية على ان المطلوب من العبد أن يكون نظيفا طيب الرائحة حسن البزة طاهر البدن والثوب مجانبا لكل خبيث مستقذر وهذه حالة أهل الجنة والعكس بالعكس وأنت لا تجد أخبث ولا أقذر من رائحة أفواه شربة الدخان ولا أنتن ولا أعفن من نكهات المستفين لغبار تابغ وهذا النتن من أقبح العيوب في نظر الشرع حتى انه جعل الخيار لاحد الزوجين اذا كان صاحبه أبخر فاذا لا نشك أن استعمال هذه العشبة الخبيثة في الفم أو الانف من أعظم المحظورات لانها تصدم غرضا كبيرا من أغراض الشارع وتضاده وتنفيه وأقول لو كان نتنها يعلق بعضو من الاعضاء غير الوجه لكان هينا لكنه يعلق بالفم والانف اللذين وضعهما الحكيم العليم في وسط الوجه الذي هو أشرف الاعضاء فأي مضمضة وأي استنشاق وأي سواك يزيل ذلك النتن الذي يرسخ في أنفاس أهلها وأفواههم وخياشيمهم رسوخا لا يماثله شيء ولقد أفصح العامة عن شدة نتن هذه العشبة وصادفوا الصواب حيث قالوا ان فضلة الدخان المسماة بالقير تنجس النجاسة هذا الى ما يتبع ذلك من المفاسد المتعددة من تغيير عقل متعاطيها حتى انه اذا انقطعت عنه صار كالمجنون لا يأوي الى عمل يصدر منه ومن دخول الشك في صيامه لان بقايا ذلك الدخان أو ذلك الغبار قد عكث في حلقه الى طلوع الفجر وما بعده لان جلهم اذا قرب الفجر والوا استعماله حتى يكون هو خاتمة سحورهم وبالجملة فلا يستعمل ذلك الا من

لا خلاق له ولا يكترث بمروءة ولا دين وهو قادح في الشهادة والامامة والله تعالى الموفق بمنه

## ﴿نكبة الفقيه أبي العباس أحمد بابا السوداني وعشيرته من آل آقيت والسبب في ذلك﴾

كان بنو آقيت المتكرورين من أهل مدينة تنبكتو وممن لهم الوجاهة الكبيرة والرياسة الشهيرة ببلاد السودان دينا ودنيا بحيث تعددت فيهم العلماء والأئمة والقضاة وتوارثوا رياسة العلم مدة طويلة تقرب من مائتي سنة وكانوا من أهل اليسار والسودد والدين لا يبالون بالسلطان فمن دونه ولما فتح جيش المنصور بلاد السودان أبقاهم الباشا محمود على حالهم الى ان كانت سنة اثنتين وألف فكان أهل السودان قد سئموا ملكة المغاربة وآنسوا منهم خلاف ما كانوا يعهدونه من سلطانهم الاول وكانت أذنهم مع ذلك صاغية لآل آقيت فتخوف المنصور منهم ووربما وشي اليه بهم فكتب الى عامله محمود بالقبض عليهم وتغريبهم الى مراكش فقبض على جماعة كبيرة منهم كان فيها الفقيه العلامة أبو العباس أحمد بن أحمد بن أحمد ثلاثة أحمد بن عمر بن محمد آقيت المدعو بابا صاحب تكميل الديباج وغيره من التآليف وكان فيها أيضا الفقيه القاضي أبو حفص عمر بن محمود بن عمر بن محمد آقيت وغيرهما وحملوا مصفدين في الحديد الى مراكش ومعهم حريمهم وانتهبت ذخائرهم وكتبهم ﴿قال في بذل المناصحة﴾ سمعت الشيخ أبا العباس أحمد بابا يقول أنا أقل عشيرتي كتبا وقد نهب لي ست عشرة مائة مجلد وكان القبض عليهم في أواخر المحرم سنة اثنتين وألف ووصلوا الى مراكش في أول رمضان من السنة المذكورة واستقروا مع عيالهم في حكم الثقاف الى ان انصرم أمد المحنة فسرحوا يوم الاحد الحادي والعشرين من رمضان سنة أربع وألف ففرحت قلوب المؤمنين بذلك ولما دخل الفقيه أبو العباس على المنصور بعد تسريحه من السجن وجده يكلم الناس من وراء حجاب وبينه وبينهم كلة مسدولة على طريقة خلفاء بني العباس ومن يتشبه بهم فقال له الشيخ ان الله تعالى يقول وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب وأنت قد تشبهت برب الارباب فان كانت لك حاجة في الكلام فانزل الينا وارفع عنا الحجاب فنزل المنصور ورفعت الاستار فقال له الشيخ أي حاجة لك في نهب متاعي وتضييع كتبي وتصفيدي من تنبكتو الى هنا حتى سقطت عن ظهر الجمل واندقت ساقي فقال له المنصور أردنا أن تجتمع الكلمة وأنتم في بلادكم من أعيانها فان أذعنتم أذعن غيركم فقال الشيخ أبو العباس فهلا جمعت الكلمة بترك تلمسان فانهم أقرب اليك منا فقال المنصور قال النبي صلى الله عليه وسلم أتركوا الترك ما تركوكم فامتثلنا الحديث فقال أبو العباس ذاك زمان وبعده قال ابن عباس لا تتركوا الترك وان تركوكم فسكت المنصور وانفض المجلس ولما سرح الشيخ أبو العباس تصدر لنشر العلم وأهرع الناس اليه للاخذ عنه ولم يزل بمراكش الى أن مات المنصور لانه ما سرحهم حتى شرط عليهم السكنى بمراكش ولما توفي أذن ابنه زيدان لآل آقيت في الرجوع الى بلادهم بعد ان مات جماعة منهم بمراكش وقد كان الشيخ أبو العباس يتشوق الى رؤية بلدته ويسكب العبرات عند ذكرها ولم ييأس من روح الله في العود اليها وله في ذلك شعر على طريقة الفقهاء ولما خرج من مراكش قاصدا بلده شيعه أعيان طلبتها فاخذ بعضهم بيده عند الوداع وقرأ قوله تعالى ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد على ما جرت به العادة من قراءتها عند وداع المسافر فيرجع سالما فانتزع الشيخ أبو العباس يده بسرعة وقال لا ردني الله الى هذا المعاد ولا رجعني الى هذه البلاد ثم لحق بتنبكتو فاستقر بها الى أن مات سنة ست وثلاثين وألف رحمه الله ﴿تتمة﴾ قد تبين لك بما قصصناه عليك من أخبار السودان ما كان عليه أهل تلك البلاد من الاخذ بدين الاسلام من لدن قديم وانهم من أحسن الأمم اسلاما وأقومهم دينا وأكثرهم للعلم وأهله تحصيلا ومحبة وهذا الامر شائع في جل ممالكهم الموالية للمغرب كما علمت وبهذا يظهر لك شناعة ما عمت به البلوى ببلاد المغرب من لدن قديم

من استرقاق أهل السودان مطلقا وجلب القطائع الكثيرة منهم فى كل سنة وبيعهم فى أسواق المغرب حاضرة وبادية يسمسرون بها كما تسمسر الدواب بل أفحش قد تمالأ الناس على ذلك وتوالت عليه أجيالهم حتى صار كثير من العامة يفهمون أن موجب الاسترقاق شرعا هو اسوداد اللون وكونه مجلوبا من تلك الناحية وهذا لعمر الله من أفحش المناكر وأعظمها فى الدين اذ أهل السودان قوم مسلمون فلهم ما لنا وعليهم ما علينا ولو فرضنا أن فيهم من هو مشرك أو متدين بدين آخر غير الاسلام فالغالب عليهم اليوم وقبل اليوم بكثير انما هو الاسلام والحكم للغالب ولو فرضنا أن لا غالب وانما الكفر والاسلام متساويان هنالك فمن لنا بأن المجلوب منهم هو من صنف الكفار لا المسلمين والاصل فى نوع الانسان هو الحرية والخلو عن موجب الاسترقاق ومدعى خلاف الحرية مدع خلاف الاصل ولا ثقة بخبر الجالبين لهم والبائعين لهم لما تقرر وعلم فى الباعة مطلقا من الكذب عند بيع سلعهم واطرائها بما ليس فيها وفى باعة الرقيق خصوصا بما هو أكثر من ذلك كيف ونحن نرى ان الذين يجلبونهم أو يتجرون فيهم انما هم من لا خلاق لهم ولا مروءة ولا دين والزمان كما علمت وأهله كما ترى ولا يعتمد أيضا على قول ذلك العبد نفسه أو الامة نفسها كما نص عليه الفقهاء لاختلاف الاغراض والاحوال فى ذلك فان البائع لهم قد يضربهم حتى لا يقرون الا بما لا يقدح فى صحة بيعهم وقد يكون للعبد أو الامة غرض فى الخروج عن ملك من هو بيده بأى وجه كان فيهون عليه أن يقر على نفسه بالرقية كى ينفذ بيعه عاجلا الى غير ذلك من الاغراض وقد استفاض عن أهل العدل وغيرهم ان أهل السودان اليوم وقبل اليوم يغير بعضهم على بعض ويختطف بعضهم أبناء بعض ويسرقونهم من الاماكن النائية عن مداشرهم وعمرانهم وان فعلهم ذلك كفعل أعراب المغرب فى اغارة بعضهم على بعض واختطاف دوابهم ومواشيهم أو سرقتها والكل مسلمون وانما الحامل لهم على ذلك قلة الديانة وعدم الوازع فكيف يسوغ للمحتاط لدينه أن يقدم على شراء ما هو من هذا القبيل وكيف يجوز له التسرى بالاماء وفى ذلك ما فيه من الاقدام على فرج مشكوك ﴿وقد قال الشيخ أبو حامد الغزالى رضى الله عنه﴾ فى كتاب الحلال والحرام من احياء علوم الدين ما نصه اعلم أن كل من قدم اليك طعاما أو هدية أو أردت أن تشترى منه أو تتهب فليس لك أن تفتش عنه وتسأل وتقول هذا مما لا أتحقق حله فلا آخذه بل أفتش عنه وليس لك أيضا ان تترك البحث فتأخذ كل ما لا تتيقن تحريمه بل السؤال واجب مرة وحرام مرة ومندوب مرة ومكروه مرة فلا بد من تفصيله والقول الشافى فيه هو أن مظنة السؤال مواقع الريبة ثم أطال رضى الله عنه فى تقرير ذلك وصرح بأن البائع اذا كان متهما على ترويج سلعته لا يعتمد على قوله فاذا كان هذا فى الاموال فكيف باسترقاق الرقاب وملك الابضاع الذين للشارع بهما مزيد اعتناء كما هو معلوم من الشرع وأصوله ﴿وقد ذكر﴾ الشيخ أبو العباس أحمد بابا فى تقييده الموضوع فى هذه المسئلة المسمى بمعراج الصعود تفصيلا ختم به كلامه وذكر قبائل من كفار السودان مثل موشى وبعض فلان وغيرهم وقال ان كل من كان من هؤلاء القبائل فيجوز استرقاقه وكذلك ذكر ولى الدين ابن خلدون أن وراء النيل قوما من السودان يقال لهم لملم قال وهم كفار ويكتوون فى وجوههم وأصداغهم قال وأهل غانة والتكرور يغيرون عليهم ويسبونهم ويبيعونهم للتجار فيجلبونهم الى المغرب وهم عامة رقيقهم وليس وراءهم فى الجنوب عمران يعتبر الى آخر كلامه لكن هذا التفصيل الذى ذكره الشيخ أبو العباس انما ينفع أهل تلك البلاد المجاورين لهم والمطلعين على المجلوب منهم ومن غيرهم فاما أهل المغرب الذين هم من وراء وراء وبينهم وبين أرض السودان مهامه فيح وقفار لا يعمرها الا الريح فمن الذى يحقق لهم ذلك وقد قلنا أنه لا يجوز الاعتماد على قول الجالبين لهم وأيضا فمن لنا بأن أولئك القبائل لا زالوا على كفرهم الى الآن على ان الناس اليوم لا يلتفتون الى ذلك أصلا ومهما رأى أحدهم العبد أو الامة يسمسر فى السوق الا ويقدم على شرائه

غافلا

غافلا عن هذا كله لا يسأل الا عن عيوب بدنه لا فرق في ذلك بين أسود وأبيض وغيرهما بل صار الفسقة اليوم وأهل الجراءة على الله يختطفون أولاد الاحرار من قبائل المغرب وقراه وأمصاره ويبيعونهم في الاسواق جهارا من غير نكير ولا امتعاض للدين وصار النصارى واليهود يشترونهم ويسترقونهم بمرأى منا ومسمع وذلك عقوبة من الله لنا لو اعتبرنا فانا لله وانا اليه راجعون على ما دهينا به في ديننا فالحاصل أنه لما كان الاصل في الناس هو الحرية كما قلنا وعلم تواترا أن أهل بلاد السودان الموالية لنا جلهم أو كلهم مسلمون واستفاض عن أهل العدل وغيرهم انهم يغير بعضهم على بعض ويختطف بعضهم أبناء بعض ويبيعونهم ظلما وعدوانا ورأينا بالمشاهدة أن الجالبين لهم والمتجرين فيهم انما هم من لا خلاق لهم ولا دين لهم لم يبق لنا توقف في ان الاقدام على شراء هذا الصنف محظور في الشرع والمقدم عليه مخاطر في دينه وأما وضع يد الجالبين لهم عليهم فلا تكفي شرعا في جواز الاقدام على شرائهم منهم لضعف هذه العلامة بما احتف بها من القرائن المكذبة لها وليستفت المرء قلبه فقد قال صلى الله عليه وسلم استفت قلبك وان أفتوك فانه متى رجع الى قلبه في هذه المعضلة الا ولا يقدر أن يحوم حول هذا الحمى بحال ثم نتنزل عن هذا كله ونقول لو لم يكن في ذلك الا الشبهة القوية وفساد الزمان ورقة ديانة أهله لكان في هذه الامور الثلاثة مع ملاحظة سد الذريعة الذي هو أحد أصول الشريعة لا سيما عند الامام مالك رضي الله عنه ما يقتضي وجوب التخلي عن ملابسة هذه المفسدة المزرية بالعرض والدين فنسأله سبحانه أن يوفق من ولاه أمر العباد لحسم مادة هذا الفساد فان سبب الاسترقاق الشرعي الذي كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح مفقود اليوم وهو السبي الناشئ عن الجهاد المقصود به اعلاء كلمة الله تعالى وسوق الناس الى دينه الذي اصطفاه لعباده هذا هو ديننا الذي شرعه لنا نبينا صلى الله عليه وسلم وخلافه خلاف الدين وغيره غير المشروع والتوفيق انما هو بيد الله ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين

---

## ﴿بناء قصر البديع بحضرة مراكش حرسها الله﴾

﴿قال في مناهل الصفا﴾ كان السبب الحامل للمنصور على بناء البديع وانفاقه فيه جلائل الاموال ونفائس الذخائر هو أنه أراد أن تكون لاهل البيت به مأثرة وشفوف على دولة البرابر من المرابطين والموحدين ومن بعدهم فان كلا من أهل تلك الدول أبقى بناء يحيا به ذكره ولم يكن لاهل البيت في ذلك المعنى شيء تزداد به حظوتهم مع انهم أحق الناس بالمجد والسودد الاثيل فتصدى لبنائه بقصد تشريف أهل البيت لان البناء كما قيل

هم الملوك اذا أرادوا ذكرها * من بعدهم فبألسن البنيان

ان البناء اذا تعاظم شأنه * أضحى يدل على عظيم الشان

﴿قلت﴾ هذا اعتذار بارد كما لا يخفى ولما أراد المنصور أن يشرع فيه أحضر أهل العلم ومن يتسم بالصلاح فتحينوا أوان الابتداء ووقت الشروع فيه فكان ابتداء الشروع في تأسيسه في شوال خامس الاشهر من خلافته سنة ست وثمانين وتسعمائة واتصل العمل فيه الى سنة اثنتين وألف ولم يتخلل ذلك فترة وحشد له الصناع حتى من بلاد الافرنجة فكان يجتمع كل يوم فيه من أرباب الصنائع ومهرة الحكماء خلق عظيم حتى كان ببابه سوق عظيم يقصده التجار ببضائعهم ونفائس اعلاقهم وجلب له الرخام من بلاد الروم فكان يشتريه منهم بالسكر وزنا بوزن على ما قيل وكان المنصور قد اتخذ معاصر السكر ببلاد حاحة وشوشاوة وغيرهما حسبما ذكره الفشتالي رحمه الله في المناهل وأما جبصه وجيره وباقي أنقاضه فانها جمعت من كل جهة وحملت من كل ناحية حتى انه وجدت بطاقة فيها أن فلانا دفع

صاعا من جير جسله من تنبكتو اوظف عليه فى غمار الناس وكان المنصور مع ذلك يحسن الى الاجراء غاية الاحسان ويجزل صلة العارفين بالبناء ويوسع عليهم فى العطاء ويقوم بمؤن أولادهم كى لا تتشوف نفوسهم وتتشعب أفكارهم وهذا البديع دار مربعة الشكل وفى كل جهة منها قبة رائقة الهيئة واحتف بها مصانع أخر من قباب وقصور ودور وفخم بذلك بناؤه وطالت مسافته ولاشك أن هذا البديع من أحسن المبانى وأعجب المصانع يقصر عنه شعب بوان وينسى ذكر غمدان ويبخس الزهراء والزاهره ويزرى بقباب الشام واهرام القاهره وفيه من الرخام المجزع والمرمر الابيض والاسود ما يحير الفكر ويدهش النظر وكل رخامة طلى رأسها بالذهب الذائب وموه بالنضار الصافى وفرشت أرضه بالرخام العجيب النحت الصافى البشرة وجعل فى أضعاف ذلك الزليج المتنوع التلاوين حتى كأنه خمائل الزهر أو برد موشى من عمل صنعاء وتستر وأما سقوفه فتجسم فيها الذهب وطليت الجدرات به مع بديع النقش ورائق الرقم بخالص الجبس فتكاملت فيه المحاسن وأجرى بين قبابه ماء غير آسن وبالجملة فان هذا البديع كان من المبانى المتناهية البهاء والاشراق المباهية لزوراء العراق ومن المصانع التى هى جنة الدنيا وفتنة المحيا ومنتهى الوصف وموقف السرور والقصف

كل قصر بعد البديع يذم * فيه طاب الجنى وطاب المشم
منظر رائق وماء غير * وثرى عاطر وقصر أشم
ان مراكشا به قد تباهت * مفخرا فهى للعلا الدهر تسمو

وبه من الاشعار المرقومة فى الاستار والابيات المنقوشة فى الجهات على الخشب والزليج والجبس ما يسر الناظر ويروق المتأمل ويبهر العقول وعلى كل قبة ما يناسبها وفى بعض القباب مفاخرة على لسانها لمقابلتها وتتبع ذلك يطول لكن لا بأس أن نلم هنا بنبذة من ذلك الحوض ونخوض فى بحار تلك البدائع بعض الخوض اذ فى ذلك عبرة لمن اعتبر وترويح للقلوب بكيفية فعل الدهر بمن غبر فمن ذلك ما نقش خارج القبة الخمسينية لان فيها خمسين ذراعا بالعمل من انشاء الكاتب البليغ أبى فارس عبد العزيز الفشتالى على لسان القبة المذكورة

سموت فخر البدر دونى وانحطا * وأصبح قرص الشمس فى أذنى قرطا
وصغت من الاكليل تاجا لمفرقى * ونيطت بى الجوزاء فى عنقى سمطا
ولاحت بأطواقى الثريا كأنها * نثير جمان قد تتبعته لقطا
وعديت عن زهر النجوم لاننى * جعلت على كيوان رحلى منحطا
وأجريت من فيض السماحة والندى * خليجا على نهر المجرة قد غطا
عقدت عليه الجسر للفخر فارتمت * اليه وفود البحر تغرف ما انطا
ينضنض ما بين الغروس كأنه * وقد رقرقت حصباؤه حية رقطا
حواليه من دوح الرياض خرائد * وغيد تجر من خمائلها مرطا
اذا أرسلت لدن الفروع وفتحت * جنى الزهر لاح فى ذوائبها وخطا
يرنحها مر النسيم اذا سرى * كما مال نشوان تشرب اسفنطا
يشق رياضا جادها الجود والندى * سواء لديها الغيث أسكب أم أبطا
وسالت بسلسال اللجين حياضه * بحارا غدا عرض البسيط لها شطا
تطلع منها وسط وسطاه دمية * هى الشمس لا تخشى كسوفا ولا غمطا
حكت وحباب الماء فى جنباتها * سنا البدر حل من نجوم السما وسطا
اذا غازلتها الشمس ألقى شعاعها * على جسمها الفضى نهرا بها لطا

توسمت فيها من صفاء أديمها * نقوشا كأن المسك ينقطها نقطا
اذا انسقت بيض القباب قلادة * فاني لها في الحسن درتها الوسطا
تكنفني بيض الدمى فكأنها * عذارى نضت عنها القلائد والريطا
قدود ولكن زادها الحسن عريها * وأجمل في تنعيمها النحت والخرطا
سمت صعدا تيجانها فتكسرت * قوارير أفلاك السماء بها ضغطا
فبالك شأوا بالسعادة آهلا * بأكنافه رحل العلا والهدى حطا
وكعبة مجد شادها العز فانبرت * تطوف بمغناها أماني الورى شوطا
ومسرح غزلان الصريم كناسها * حنايا قباب لا الكثيب ولا السقطا
فلكن به ما طاب لا الاثل والخطا * ووسدن فيه الوشي لا السدر والارطا
تراه من المسك الفتيت مدبر * اذا مازجته الصب عادبها خلطا
وان باكرته نسمة يسري بها * الى كل أنف عرف عنبره قسطا
أقرت له الزهراء والخلد وانثنت * أواوين كسرى الفرس تغبطه غبطا
جناب رواق المجد فيه مطنب * على خير من يعزى لخير الورى سبطا
امام يسير الدهر تحت لوائه * وترسي سفائن العلا حيثما حطا
وفتاح أقطار البلاد بفيلق * يفلق هامات العدا بالظبى خبطا
تطلع من خرصانه الشهب فانثنت * ذوائب أرض الزنج من ضوءها شمطا
كتائب نصران جرت لملمة * جرت قبلها الاقدار تسبقها فرطا
اذا ما عقدن راية علوية * جعلن ضمان الفتح في عقدها شرطا
فما للسما تلك الاهلة انما * سنابكها أبقت مثالا بها خطا
يطاوع أيدي المعلوات عنانها * فيعتاض من قبض الزمان بها بسطا
يد لامير المؤمنين بكفها * زمام يقود الروم والفرس والقبطا
أدار جدارا للعلا وسرادقا * يحوط جهات الارض من رعيه حوطا

وقال أيضا مما كتب بداخل القبة المذكورة

جمال بدائعي سحر العيونا * ورونق منظري بهر الجفونا
وقد حسنت بقوسي واستطارت * سنا يعشي عيون الناظرينا
وأطلع سمكي الاعلى نجوما * ثواقب لا تغور الدهر حينا
وجوي من دخان الند ألقى * على أرضي الغياهب والدجونا
علوت دوائر الافلاك سبعا * لذاك الدهر ما ألفت سكونا
فصغت من الاهلة والحنايا * أساور والخلاخل والبرينا
تكنفني حياض مائجات * أمامي والشمائل واليمينا
يقيد حسنها الطرف انفساحا * ويجري الفلك فيها والسفينا
تدافع نهرها نحوي فلما * علاه البحر في غدا دفينا
وقد نشر الحباب على سماها * لآلي تزدري العقد الثمينا
فخرت وحق لي لما اجتباني * لمجلسه أمير المؤمنينا
هو المنصور حائز خصل سبق * وباني المجد بنيانا مكينا
وليث وغى اذا زأر امتعاضا * يروع زئيره هندا وصينا

اذا أمّت كتائبه الاعادي * بعثن برعبه جيشا كمينا
يدير عليهم من كل حرب * تدقهم رحى أو منجنونا
امام بالمغارب لاح شمسا * بها الشرق اكتسى نورا مبينا
بقيت بذى القصور الغر بدرا * تلوح بأفقهن مدى السنينا
تحف بكم عواكف عند بابى * ملائكة كرام كاتبينا
لك البشرى أمير المؤمنين اد * خلوها مع سلام آمنينا

وقال أيضا مما كتب في بهو هابرمر أسود في أبيض

لله بهو عز منه نظير * لما غدا كالروض وهو نضير
رصفت نقوش حلاه رصف قلائد * قد نضدتها في النحور الحور
فكأنها والتبر سال خلالها * وشي وفضة تربها كافور
وكأن أرض قراره ديباجة * قد زان حسن طرازها تشجير
واذا تصاعد نده نوأ فبق * أغاطه نوربه ممطور
شأ والقصور قصوره عن وصفه * سيان فيه خورنق وسدير
فاذا أجلت اللحظ في جنباته * يرتد وهو بحسنه محسور
وكأن موج البركتين أمامه * حركات معصم صافحته دبور
صفت بضفتها تماثل فضة * ملك النفوس بحسنها تصوير
فتدير من صفو الزلال معالا * يسري الى الارواح منه سرور
مابين آساد يهيج زئيرها * وأساو ديعاوا لهن صفير
ودحت من الانهار أرض زجاجة * وأضلها فلك يضيء منير
راقت فمن حصبائها وفواقع * يطفوا عليها اللؤلؤ المنثور
ياحسنه من مصنع فبهاؤه * باهى نجوم الافق وهي تنور
وكأنما زهر الرياض بجنبه * حيث التفت كواكب وبدور
ولدسته الاسمى تخير رصفه * فخر الورى وامامها المنصور
ملك أناف على الفراقد رتبة * وأقل له فوق السماك سرير
قطب الخلافة تاج مفرق دولة * رميت بجحفلها اللهام الكور
وجرى الى أقصى العراق لرعبها * جيش على جسر الفرات عبور
نجل النبي ابن الوصي سليل من * حقن الدماء وعف وهو قدير
بحر الندى لكنه متموج * سيف العلا لكنه مطرور
طود يخف لحلمه ووقاره * ولجيشه يوم النزال ثبير
دامت معاليه ودام ومجده * طوق على جيد العلا مزرور
وتعاهدته من الفتوح بشائر * يغدو عليه بها مساو بكور
ما زال منزل سعده يرتاده * نصر يرف لواؤه المنشور
وجرت به مرحا جياد مسرة * وأدار كأس الانس فيه سمير

﴿وقال بعض الكتاب﴾ مما نقش في عضادتي باب القبة الحسينية المذكورة

يا ناظرا بالله قف وتأمل * وانظر الى الحسن البديع الاكمل
واذا نظرت الى الحقيقة فلتقل * السر في السكان لا في المنزل

﴿وقال بعض الكتاب أيضا﴾ مما طرزت به الاستار المذهبة المحكمة الصنعة لتستر بها النواحي الاربع من القبة الخمسينية وتسمى هذه الاستار عند أهل المغرب بالحائطي ﴿ففي الجهة الاولى﴾

متع جفونك في بديع لباسي * وأدر على حسني حميا الكاس
هذى الربا والروض من جرعائها * لم تغتذي بالعارض البجاس
أنى لروض أن يروق بهاؤه * مثلي وأن يجري على مقياسي
فالروض تغشاه السوام وانما * تأوي الى كنفي ظباء كناس

﴿وفي الجهة الثانية﴾

من كل حسنا كالقضيب اذا انثنى * تزري بغصن البانة المياس
ولقد نشرت على السماك ذوائبي * وتطرت من شزر الى الكناس
وجررت ذيلي بالمجرة عابثا * فخرا بمختر عي أبي العباس
ما نيط مثلي في القباب ولا ازدهت * بفتى سواه مراتب وكراس

﴿وفي الجهة الثالثة﴾

ملك تقاصرت الملوك لعزه * ورماهم بالذل والاتعاس
غيث المواهب بحر كل فضيلة * ليث الحروب مسعر الاوطاس
فرد المحاسن والمفاخر كلها * قطب الجمال أخو الندى والباس
ملك اذا وافى البلاد تأرجت * منه الوهاد بعاطر الانفاس

﴿وفي الجهة الرابعة﴾

واذا اتطلع بدره من هالة * يعشي سناه نواظر الجلاس
أيامه غرر تجلت كلها * أبهى من الاعياد والاعراس
لازال للمجد السني يشيده * ويقيم مبناه على الاساس
ما مال بالغصن النسيم وكللت * درر الندى في جيده المياس

﴿وقال أبو فارس الفشتالي﴾ مما كتب على المصرية المطلة على الرياض المرتفعة على القبة الخضراء من بديع المنصور وكان أنشأها في جمادى الاولى من سنة خمس وتسعين وتسعمائة

يا كرالدي من السرور كؤسا * وارض النديم أهلة وشموسا
واعرج على غرفي المنيف سماؤها * تلق الفراقد في سماي جلوسا
واذا اطلعت بأوجها قمر العلى * لا ترتضي غير النجوم جليسا
شرق القصور بريقها لما اجتلت * مني على بسط الرياض عروسا
واعتضت بالمنصور أحدضيغما * وردا تخير من بديعي خيسا
ملك أرى كل الملوك بما الكا * لعلاه والدنيا عليه حبيسا
وهناك يا شرف الخلافة دولة * تلقى براياتها طلائع عيسا

وقال أيضا مما كتب في بعض المباني البديعية

معاني الحسن تظهر في المغاني * ظهور السحر في حدق الحسان
مشابه في صفات الحسن أضحت * تمت بها المغاني للغواني
بكل عمود صبح من لجين * تكون في استقامته خوط بان
مفصلة القدود مثلثات * مواصلة العناق من التدان
تردت سابري الحسن يزري * بحسن السابري الخسرواني

ونعطوا الخيزرانة من جاها * بسالفة القطيع البرهماني
لجدك تنتمي لكن غاها * الى صنعاء ماصنع اليدان
يدين لك ابن ذي يزن ويعنو * لها غمدان في أرض اليمان
غدت حرما ولكن حل فيها * لوفدكم الامان مع الاماني
مبان بالخلافة آهلات * بها يتلو الهدى السبع المثاني
هي الدنيا وساكنها امام * لاهل الارض من قاص ودانى
قصور مالها في الارض شبه * وما في المجد للمنصور ثاني

﴿وقال مما نقش في بعض الابواب﴾

هذي وفود السعد نحوي ترتمي * وطلائع البشرى لبابي تنتمي
وسمت الى عفاة عرفك مثل ما * يسمو الحجيج الى سقاية زمزم
حطت بصحن ابي السعود بشائرا * لاحت على الشرفات مثل الانجم
وأوان صنعي أن تقول ولا تبل * ببديع أحمد جنة المتنعم

﴿قال الفشتالي﴾ لما عرضت عليه هذه الابيات استحسنها الا انه كره لفظة جنة وتغير منها كثيرا * وقال الوزير الاديب أبو الحسن على بن منصور الشيظمي مما كتب على مباح قبة الزجاج

ان شئت تاريخا كمال البديع فقل * ايوان أحمد ايوان السعادات

وقال الوزير المذكور مما نقش على أحد أبواب البديع

باب أتى كبراعة استهلال * وكأنما القصر القصيد التالي
ولذاك سمي بالبديع وجاء بال * اغراق والتجنيس والاغال
وأتى التمام فقلت في تاريخه * يتسابلا عقد ولا اشكال
صرح على تقوى من الله انبنى * في طالع السعد والاقبال

﴿وقال أيضا في تمام البديع مهنئا﴾

ياملكا ماله فيمن ملك * كطلوع القمر من بعد الحلك
تم هذا القصر فاسكنه على * حسن حال بدوام الملك لك

وكان الفراغ من تمام البديع سنة اثنتين وألف وفي تاريخه يقول الوزير المذكور وهو مما نقش بباب الرخام أحد أبواب البديع

الحسن لفظ وهذا القصر معناه * ياما أميلح مرآه وأبهاه
فهو البديع الذي راقت بدائعه * وطابق اسم له فيه مسماه
صرح أقيمت على التقوى قواعده * ودل منه على التاريخ معناه
ولاح أيضا وعين الحفظ تكلؤه * تاريخه من تمام قل هو الله

﴿وقال في نفح الطيب﴾ اخترع المنصور من المصانع ثلاثة أشياء فجاءت غريبة الشكل بديعة الحسن وهي البديع والمسرة والمشتهى وفيها يقول المنصور مورّيا

بستان حسنك أبدعت زهراته * ولكم نهيت القلب عنه فما انتهى
وقوام غصنك بالمسرة ينثني * ياحسن رمان به للمشتهى اه

﴿وقال اليفرني﴾ والذي ذكره صاحب كتاب البيان المعرب عن أخبار المغرب وهو الشيخ أبو عبد الله محمد ابن عذارى الاندلسي حسبما رأيته في السفر الثاني منه أن أول من أنشأ المسرة التي بظاهر جنان الصالحة عبد المؤمن بن على كبير الموحدين قال وهو بستان طوله ثلاثة أميال وعرضه قريب منها

فيه كل فاكهة تشتهى وجلب اليه الماء من أغمات واستنبط له عيونا كثيرة ﴿قال ابن اليسع﴾ وما خرجت أنا من مراكش فى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة الا وهذا البستان الذى غرسه عبد المؤمن يبلغ مبيع زيتونه وفواكهه ثلاثين ألف دينار مؤمنية على رخص الفاكهة بمراكش اه ولعل المنصور جدد معالم المسرة بعد اندراسها وأفاض سجال الحياة على ميت غراسها وكان المنصور يفتخر بالبديع كثيرا وبنوه بقدره وفى ذلك يقول أبو فارس الفشتالى

هذا البديع يعز شبه بدائع * أبدعتهن بمجاء غريبا
أضنى الغزالة حسنه حسدا له * أبدى عليها للاصيل شحوبا
وانقضت الزهر المنيرة اذ رأت * زهر الرياض به ينور عجيبا
شيدتهن مصانعا وصنائعا * أنجزن وعدك للعلا المرقوبا
وجريت فى كل الفخار لغاية * أدركتهن وما مسست لغوبا
فانعم بملكك دام فيه مؤبدا * تجنى به فنن النعيم رطيبا

ولما أكمل المنصور البديع وفرغ من تنميق برده وتطريز حلته صنع مهرجانا عظيما ودعا الاعيان والاكابر فقدم لهم من ضروب الاطعمة وصنوف الموائد وأفرغ عليهم من العطايا ومنحهم من الجوائز مالم يعهد منه قبل ذلك وكان ممن دخل فى غمار الناس رجل من البهاليل ممن كانت له شهرة بالصلاح فى الوقت فقال له المنصور مباسطا كيف رأيت دارنا هذه يا فلان فقال له اذا هدمت كانت كدية كبيرة من التراب فوجم لها المنصور وتطير منها وتحكى هذه الحكاية عن غير المنصور والله أعلم ﴿قال اليفرنى﴾ وقد ظهر مصداق ذلك على يد السلطان المظفر المولى اسمعيل ابن الشريف فانه أمر بهدمه سنة تسع عشرة ومائة وألف لموجب يطول شرحه فهدمت معالمه ومحيت مراسمه وفرق ما كان به من جموع الانس وعاد حصيدا كأن لم يغن بالامس حتى صار مرعى للكلاب والمواشى ووكرا للصدى والبوم وحق على الله أن لا يرفع شيأ من الدنيا الا وضعه ومن العجائب أنه لم يبق بلد من بلاد المغرب الا ودخله شئ من أنقاض البديع ولقد تذكرت بهذا ما حكاه بعض مؤرخى الاندلس أن الزاهرة التى بناها المنصور بن أبى عامر وهى من عجائب الدنيا مر عليها فى أيام المنصور بعض أهل البصائر وهى فى نهاية العمران والازدهاء بسكانها فقال يا دار فيك من كل دار فجعل الله منك فى كل دار قال فضرب الدهر ضربانه وسلط عليها أيدى العدوان فهدمت وخربت وتفرقت محاسنها حتى نقل بعض أنقاضها الى العراق ﴿قال اليفرنى﴾ ولما دخلت البديع مقفلى من الرحلة ورأيت ما هاانى أنشدت أبياتا أنشدها الشيخ محيى الدين ابن عربى فى كتاب المسامرة لما دخل الزاهرة فوجدها متهدمة وهى

ديار بأكناف الملاعب تلمع * وما ان بها من ساكن فهى بلقع
ينوح عليها الطير من كل جانب * فتصمت أحيانا وحينا ترجع
فخاطبت منها طائرا متفردا * له شجن فى القلب وهو مروع
فقلت على ماذا تنوح وتشتكى * فقال على دهر مضى ليس يرجع

وأنشدت ما أنشده ابن الابار فى تحفة القادم

قلت يوما لدار قوم تفانوا * أين سكانك الكرام علينا
فأجابت هنا أقاموا قليلا * ثم ساروا ولست أعلم أينا

ثم قال اليفرنى رحمه الله ﴿لطيفة﴾ تأملت لفظ البديع فوجدت عدد نقط حروفه بحساب الجمل مائة وسبعة عشر وهذا القدر هو الذى بقى فيه البديع قائما فانه فرغ منه سنة اثنتين وألف وشرع فى هدمه سنة تسع عشرة ومائة وألف فمدة عمره مائة وسبع عشرة سنة على عدد اسمه وذلك من غريب الاتفاق

فسبحان من دقت حكمته وجلت قدرته وعمت رحمته لا اله الا هو الحكيم العليم

## ﴿ثورة الناصر ابن السلطان الغالب بالله ببلاد الريف ومقتله﴾

كان الناصر هذا في حياة أبيه عبد الله الغالب بالله خليفته على تادلا ونواحيها ولما توفي أبوه المذكور وقام بالامر أخوه المتوكل كما استوفينا خبره قبض على الناصر فاعتقله فلم يزل معتقلا عنده سائر أيامه الى ان قدم المعتصم بجيش الترك وانتزع الملك من يد المتوكل كما مر فسرح الناصر من اعتقاله وأحسن اليه فلم يزل عنده في أرغد عيش الى أن توفي المعتصم يوم وادي المخازن وأفضى الامر الى المنصور ففر الناصر الى آصيلا وكانت للنصارى يومئذ ثم عبر البحر منها الى الاندلس فكان عند طاغية قشتالة مدة طويلة الى أن سرحه الطاغية الى المغرب بقصد تفريق كلمة المسلمين واحداث الشقاق بينهم فخرج الناصر بمليلية ونزل بها لثلاث مضت من شعبان سنة ثلاث وألف وتسامعت به الغوغاء والطغام من أهل تلك البلاد فأقبلوا اليه يزفون فكثرت جموعه وتوفرت جيوشه واهتز المغرب باسره لذلك ﴿وذكر اليفرني في الصفوة﴾ أن الفقيه أبا عبد الله محمد بن قاسم القصار كتب كتابا الى الشيخ الصالح أبي عبد الله محمد بن علي بن ريسون من أهل بلاد غمارة وكان مسموع الكلمة بها يحضه على الاستمساك بدعوة المنصور وأن يلزم الطاعة له فوقع الكتاب في يد المنصور فعرف للشيخ القصار حقه ولما وفد عليه بعد ذلك وصله وولاه الفتوى والخطبة بجامع القرويين وتفرقة صدقة المساكين ثم ان الناصر خرج من مليلية قاصدا تازا فدخلها واستولى عليها ونزعت اليه القبائل المجاورة لها كالبرانس وغيرهم فتألبوا عليه وتمالؤا على اعزازه ونصره ولما دخل تازا طالب أهلها بالمكس وقال لهم ان النصارى يغرمون حتى على البيض ولما سمع المنصور بخبره أقلقه ذلك وتخوف منه غاية لان الناصر اهتز المغرب لقيامه وتشوفت النفوس اليه لميل القلوب عن المنصور لشدة وطأته واعتسافه للرعية ﴿وقال في ابتهاج القلوب﴾ في ترجمة الولي الصالح أبي الحسن علي بن منصور البوزيدي المعروف بأبي الشكاوي دفين شالة أنه كان سائرا يوما على بغلة ومعه أصحابه فقال لهم يا فقراء أتسمعون ما تقول بغلتي انها تصيح بالنصر لمولاي الناصر وكذلك الشجر والحجر واني أرى غير ذلك فكان الامر كما قال اهتز لقيام الناصر كل شئ ثم قتل عن قريب ولم يتم له أمر اه ثم ان المنصور بعث اليه جيشا وافرا فهزمهم الناصر واستفحل أمره وتمكن ناموسه من القلوب فأمر المنصور ولي عهده المأمون عنا زلته فخرج اليه من فاس في تعبية حسنة وهيئة تامة فلما التقى الجمعان كانت الدبرة على الناصر بالموضع المعروف بالحاجب ومر على وجهه فاحتل بالجاية بلدة من عمل بلاد الزبيب فلحق به ولي العهد فلم يزل في مقاتلته الى أن قبض عليه فأزال رأسه وبعث به الى مراكش وكان ذلك سنة خمس وألف وقيل سنة أربع وألف ﴿وقال في نشر المثاني﴾ كان مقتل الناصر وادخاله مقطوع الرأس الى فاس يوم الثلاثاء الثالث والعشرون من رمضان سنة أربع وألف وهو الاصح ﴿وذكر الشيخ أبو علي اليوسي في المحاضرات ما نصه﴾ حدثوا عن صلحاء تادلا أنه لما قام على السلطان أحمد المنصور ابن أخيه الناصر قال الشيخ أبو العباس أحمد بن أبي القاسم الصومعي ان الناصر يدخل تادلا يعني دخول الملك فلما بلغ الخبر الى الشيخ أبي عبد الله محمد الشرقي التادلي قال مسكين بابا أحمد رأى رأس الناصر قد دخل تادلا فظنه الناصر يدخلها فكان الامر كذلك فانه هزم في نواحي تازا ثم قطع رأسه وحمل الى مراكش فدخل تادلا في طريقه اه ولما قتل الناصر سر المنصور بذلك وأتته الوفود للتهنئة وقال الشعراء في ذلك منهم الكاتب أبو عبد الله محمد بن عمر الشاوي قال

تهنأ أمير المؤمنين فقد جرت * بسطوتك الاقدار جري السوابق
أضاءت لك الايام واحلولكت على * عدوك وارتجت رؤس الشواهق

وذلك

وذلك الذى قد خيب الله سعده * تردّى فلم تنفعه نصرة مارق
فكان كما قد قيل لكن رأسه * أتى سابقا والرجل ليست بسابق

ضمن قول بعضهم فى الوزير ابن الفرس وقد رآه مصلوبا منكوس الرأس

لقد طمح المهر الجموح لغاية * تقطع أعناق الجياد السوابق
جرى بجرت رجلاه لكن رأسه * أتى سابقا والرجل ليست بسابق

وكتب المنصور بخبر هذا الفتح الى الآفاق فمما كتبه للشيخين الامامين أبى عبد الله محمد زين العابدين البكرى وأبى عبد الله محمد بدر الدين القرافى رسالة يقول فيها مانصه من عبد ربه المجاهد فى سبيله أحمد المنصور بالله أمير المؤمنين الحسنى الى الفاضل الذى اعتجر بالتقوى وهو زين العابدين وتحلى بحلى المعارف الربانية وتلك حلى العارفين والسالك الذى برز فى الطريقه وسلك على المجاز الواضح الى الحقيقه ففات شأو السابقين والعارف الذى تجرد عن رعونة الاهواء النفسانيه فكان سلوكه على التجريد الى حضرة الواصلين الشيخ العالم الحجة الوافى السيد بدر الدين القرافى والشيخ العارف الواصل السرى الكامل سلالة العلماء سبط الفضلاء أبى عبد الله زين العارفين ابن الشيخ السامى المقام قطب المشايخ الاعلام فخر علماء الاسلام الشهير البركة فى الانام أبى عبد الله محمد بن أبى الحسن الصديق أبقاكما الله أرواحكما تتعطر برياحين الانس فى حضرة القدس وتشم النفحات الهابة من رياض المشاهدة الى مدارج الانس ومعارج النفس وسلام عليكما ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد حمد الله مفيض أنوار عناية أحمد على صاحبه الصديق مظهر كنوز المعارف الربانية جيلا بعد جيل من بيت عتيق والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى اختار لمرافقته صاحبه فى الغار والعريش والطريق والرضا عن آله أئمة الخلق وسيوف الحق وأصحابه الذين فاضت أنوار هداياتهم على الغرب والشرق وببركتهم اتسق لنا الفتح اتساق الاسلاك وبفضلهم يعلو سعدنا على الكفر علو القطب على دائرة الافلاك فكتبناه هذا اليكم من حضرتنا مراكش حاطها الله وصنع الله هامقعم السجال وواسع المجال وعزمتها الماضية تبعث الى العدا رسل الاوجال والايام بعز صولتها وبمن دولتها بهذه المغارب باسمة الثغور مؤذنة باتصال أمرها العزيز بحول الله الى ان تطوى ملاءة الدهور هذا وانه اتصل بعلى مقامنا كتابكما الذى صدحت على أفنان البلاغة سواجعه وعذبت فى موارد المحبة الصديقية مناهله ومشارعه ولطفت فى كل معنى من المعانى أفانينه ومنازعه وتألفت على الاجادة فى كل مقصد من المقاصد مواصله العذبة ومقاطعه وأينعت بأزهار العناية الربانية أباطحه الفيح وأجارعه ومعه المنظومات التى سحبت بالحكم ذيلها ورسا فى البلاغة قدمها وربا فى منبت المواهب الربانية يراعها الفصيح وقلمها وحل من نفوسنا موقعها العجيب محلا من دونه الثريا فى مطلعها والبدر ليلة تمامه اعجابا بها وتنويها بمهديها وابتهاجا بالخوارق التى أطلق الله على لسان مبديها والى هذا فليحط علمكما بان مقامنا تنفق فيه على الدوام ان شاء الله نفائس بضائعكم وتنمو فيه مع الايام سعود مطالعكم وتسمو فيه على كل مقام مقاماتكم وتستوضح فيه على المحبة الصميمة اماراتكم الواضحة وعلاماتكم فعلى هذا تنعقد منكم الخناصر وتشتد الاواخى والاواصر بعز الله ومنه ثم مما نسطر لكم ذكره على جهة البشرى واهداء المسرة الكبرى اعلامكم أن عدو الدين طاغية قشتالة الذى هو اليوم العدو الكبير للاسلام وعميد ملل التثليث وعبدة الاصنام لما آنس من تلقاء جانبنا نار العزم تلتهب منا التهابا وبحر الاحتفال تضطرب أمواجه الزاخرة بكل عدد وعدة اضطرابا وهممنا قد همت بتجديد الاسطول والاستكثار من المراكب المتكفلة بالجهاد ان شاء الله بقضاء كل دين ممطول وعلم أن الحديث اليه يساق والى أرضه بالخسف والتدمير بحول الله يهفو كل لواء خفاق رام

خذله الله مكافاتنا على ذلك بما أمل أن يفت به فى عضدنا الاقوى وعزمنا الذى بعناية الله يزداد و يقوى فرمى بجذول من أبناء أخينا عبد الله كان ربى لديه وطوحت به الطوائح منذ ثمانية عشر عاما اليه الى مليلية احدى الثغور المصاقبة لغرب مما لكنا الشريفة التى الى كفالة ولدنا وولى عهدنا كافل الامة من بعدنا الامير الاجل الارضى صارم العزم المنتضى وحسام الدين الامضى أبى عبد الله محمد الشيخ المأمون بالله وصل الله لراياته التأييد والظهور والعز الذى يستخدم الايام والدهور فالتف عليه من اغتر باباطيله الواهية البناء من أوباش العامة والغوغاء ومن قضى له من أجناد تلك الناحية بالشقاء جموع تكاثر الرمل وتفوت الحصا والنمل لاح بها للشقى خلب بارق أكذبته أمنيته اذ صدقته منيته فصمم نحوه ولدنا أعزه الله بجنود الله التى اليه وبعساكر تلك الممالك التى ألقينا زمام تدبيرها فى يديه فاراع الشقى الا انقضاضه عليه من الجو انقضاض الاجدل وتصميمه اليه بعزائم تدك الطود وتفلق الصخر والجندل فاستولى عليه بحمد الله المعين وعلى جموعه الاشقياء فى يوم أغر محجل وساعة أنزل الله فيها على الخوارج المارقين العذاب المعجل فاستأصلتهم الشفار وحصدت هشيمهم المصوح أسنة النار وقبض على الشقى فى يوم كان شفاء الصدور ومنتزها لحلة السيوف وربات الخدور وأحوزالله تعالى نحر هذا الفتح العظيم والمن الجسيم لولدنا أعزه الله عز وجل فى خاصة أجناده ونهض وحده باعبائه ونحن على سرير ملكنا وادعون مطمئنون وأجنادنا فى أوطارنا الاهون ومفتنون فلم يحتج الى انجاده من قبلنا ولا امداده والعاقبة للمتقين والحمد لله حمد الشاكرين وعرفنا كم لتأخذوا بحظكم من السرور بهذه البشرى التى سرت الاسلام وساءت بحمد الله عبدة الاوثان والاصنام وتعلموا مع ذلك ما عليه الاحوال اليوم بحول الله لدينا من خفق رايات العزم وشحذ آراء الحزم واعمال عوامل الجزم الى مجازاة عدو الدين ان شاء الله على فعلته التى عادت عليه أسفا ولهفا واعادة ما كان أسلف من ذلك ان شاء الله بالمكيال الاوفى وقدمنا اليكم التعريف لتمدونا ان شاء الله بأدعيتكم الصالحة فى أوقات الاجابه وتحرصوا على التماسها هنالك وبالحرمين الشريفين من كل ذى خضوع وانابه أن يؤيدنا الله على عدو الدين بفضله و ينجز لنا وعده الصادق فى اظهار دين الحق على الدين كله ويسهل علينا بفضله ومعونته أسباب فتح الاندلس وتجديد رسوم الايمان بها واحياء اطلاله الدرس حتى ينطق لسان الدين فى أرضها بكلمة الله التى طالما سكت عنها نداؤه وخرس وشرق بريقه فغص وخنس فبيده الحول والقوه وعنايته العناية المرجوه ثم نوصيكم بحسن الوقوف مع أصحابنا فيما يشترى من الكتب العلميه برسم خزانتنا الكريمة الامامية العليه ثم الاتحاف بديوان الشيخ والدكم التماسا لجيل بركاته وتمسكا بما سبق من الاجازة العامة فى سائر منظوماته وموضوعاته ومروياته وهذا موجبه اليكم والسلام الاتم معاد عليكم ورحمة الله وبركاته فى ربيع النبوى سنة خمس وألف اهـ وهذه الرسالة من املاء المنصور على ما قيل ﴿ومما كتب به أيضا﴾ بخط يده الى سلطان مكة والمدينة والحجاز الشريف أبى المحاسن حسن بن أبى نمى بن بركات مانصه من عبد الله المجاهد فى سبيله الامام المنصور بالله أحمد أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين الشريف الحسنى الى الاصالة التى تبحبحت من ذؤابة هاشم فى صميمها وتوغلت من غرفات حومة الله بين زمزمها وحطيمها وتمتعت من عرارة نجد بانتشاق نفحاتها الاريجة وشميمها اصالة السلطان الاثيل الاثير الاسنى الاسمى الازكى السلطان حسن ابن أبى نمى أبقاكم الله والبيت ذو الاستار تتفيئون ظلاله وتلثمون من الحجر الاسود الاسعد خاله وسلام عليكم ورحمة الله وبركاته (أما بعد) حمد الله الذى أعز هذه المثابة العلويه الامامية النبويه العزيزة الانصار السامية المحتد والنجار الساحبة أذيال عزها الوريف الظلال على أهل البيت السامى المقدار سكان الحمى والذين تبوؤا الدار والصلاة والسلام على مولانا محمد الذى أطلع شموس الهداية الساطعة الانوار والرضا عن آله الذين تتضاءل

لمجدهم السامى المنار الشموس والاقمار وعن أصحابه الذين استأصلوا شأفة الكفر بمواضى الشفار وصلة الدعاء لهذا المقام العلى "الامامى" المنصورى "الحسنى" بنصر تجنى الفتوح من قضب رماحه وتجرى الاقدار على وفق اقتراحه فكتابنا هذا اليكم من حضرة مراكش حاطها الله ووسع لها المجال فى ميادين السجال والايام بعز صولتها وبمن دولتها بهذه المغارب باسمة الثغور مؤذنة باتصال أمرها العزيز بحول الله الى أن تطوى ملاءة الدهور بعز الله وعنايته هذا وان شيخ الركب المغربى وهو المرابط الخير الحاج محمد بن عبد القادر لما أزمع الى المعاهد الشريفة الرحيل لتجديد رسم الطاعة الذى ليس بعاف ولا محيل وهب له من محارم الله نسيم عليل وآن للمطايا أن تعمل الوخد والذميل مد الى على مقامنا أكف الرغبة فى كتاب كريم يتشرف بحمله ويتعرف منه السعادة بحول الله فى مرتحله ومحله يتضمن الايصاء به اليكم فى المورد والمصدر ومدة مقامه من جواركم بحرم الله تجاه البيت والمشعر فحملناه هذه العجالة لترعوا له ان شاء الله عنها الحق المعتبر وتولوه من جانبكم بما يصدق به الخبر وتدنوا له من آماله قطوف كل فنن مهتصر ومما نكلفكم النهوض لاجل حقوق الاخوة باعبائه ونطالبكم لوشائج الرحم بالاعتناء بأدائه التماس الدعاء مع الاحيان تجاه البيت الحرام وعند الملتزم والمقام أن يؤيدنا الله على عدو الدين بفضله وينجز لنا وعده الصادق فى اظهار دينه على الدين كله ويسهل علينا بفضله ومعونته أسباب فتح الاندلس وتجديد رسوم الايمان بها واحياء اطلاله الدرس حتى ينطق لسان الدين فيها بكلمات الله التى طالما سكت عنها ناداؤه وخرس وشرق بريقه فنص وخنس فذلك دعاء لا يرد لانه يجرى من أهله فى محله ومعاد السلام الاتم عليكم ورحمة الله وبركاته انتهى (وقوله) حتى ينطق لسان الدين فيه تورية بابن الخطيب رحمه الله

## ﴿ذكر احتفال المنصور بالمولد الكريم واعتنائه بسائر الاعياد﴾

﴿قال الفشتالى﴾ كان ترتيب المنصور فى الاحتفال بالمولد النبوى الكريم انه اذا اطلعت طلائع شهر ربيع الاول صرف الرقاع الى الفقراء أرباب الذكر على رسم الصوفية والمؤذنين النعارين فى الاسحار فيأتون من كل جهة ويحشرون من سائر حواضر المغرب ثم يأمر الشماعين بتطريز الشموع واتقان صنعتها فيتبارى فى ذلك مهرة الشماعين من كل من يبارى النحل فى نسيج أشكالها الطفا وادماجا فيصوغون أنواعا من الشمع التى تحير النواظر ولا تذبل زهورها النواضر فاذا كان ليلة المولد تهيأ لحملها وزفاف كواعبها الصفافون المحترفون بحمل خدور العرائس عند الزفاف فيتزينون لذلك ويكونون فى أجمل شارة وأحسن منظر ويجتمع الناس من أطراف المدينة كلها لرؤيتها فيمكثون الى حين يسكن حر الظهيرة وتجنح الشمس للغروب فيخرجون بها على رؤسهم كالعذارى يرفلن فى حلل الحسن وهى عدد كثير كالنخل فيتسابق الناس لرؤيتها وتمتد لها الاعناق وتبرز ذوات الخدور ويتبعها الاطبال والابواق وأصحاب المعازف والملاهى حتى تستوى على منصات معدة لها بالايوان الشريف فتصطف هنالك فاذا طلع الفجر خرج السلطان فصلى بالناس وقعد على أريكته وعليه حلة البياض شعار الدولة وأمامه تلك الشموع المختلفة الالوان من بيض كالدمى وحمر جليت فى ملابس أرجوان وخضر سندسية واستحضر من أنواع الحسك والمباخر ما يلهى المحزون ويدهش الناظر ثم دخل الناس أفواجا على طبقاتهم فاذا استقر بهم المجلس تقدم الواعظ فسرد جملة من فضائل النبى صلى الله عليه وسلم ومعجزاته وذكر مولده ورضاعه وما وقع فى ذلك باختصار فاذا فرغ اندفع القوم فى الاشعار المولديات فاذا فرغوا تقدم أهل الذكر المزمزمون بكلام الششترى وأشعار الصوفية ويتخلل ذلك نوبة المنشدين البيتين فاذا فرغوا من ذلك كله قام شعراء الدولة فيتقدم قاضى الجماعة الشاطبى بلبل منابر الجمع والاعياد فينشد قصيدة يفتتحها

بالتغزل والنسيب فاذا تم تخلص لمدح النبي صلى الله عليه وسلم ثم يختم بمدح المنصور والدعاء له ولولي عهده فاذا قضى نشيده تقدم الامام المفتي المولى أبو مالك عبد الواحد الشريف فينشد قصيدته على ذلك المنوال فاذا فرغ تلاه الوزير أبو الحسن علي بن منصور الشيظمي ثم تلاه الكاتب أبو فارس عبد العزيز الفشتالي ويليه الكاتب محمد بن علي الفشتالي ويليه الاديب محمد بن علي الهوزالي النابغة ويليه الاديب الفقيه أبو الحسن علي بن أحمد المسفيوي فاذا طوى بساط القصائد نشر خوان الاطعمة والموائد فيبدأ بالاعيان على مراتبهم ثم يؤذن للمساكين فيدخلون جملة فاذا انقضت أيام المولد الشريف برزت صلات الشعراء على أقدارهم هكذا كان دأبه في جميع الموالد ولا يحصى ما يفرغ فيه من أنواع الاحسان على الناس اه من كتاب مناهل الصفاء ﴿وقال صاحب النفحة المسكية في السفارة التركية﴾ وهو العلامة المشارك أبو الحسن علي بن محمد التامجروتي حضرت المولد الشريف بعد القفول من بلاد الترك فاستدعى المنصور الناس لايوانه السعيد واستدخلهم لقصره البديع المشيد المحتوي على قباب متقابلة عالية وقد مد فيهما من فرش الحرير وصفت النمارق وتدلت الاستار والكلل والحجال المخوصة بالذهب على كل باب قبة وحنية كل سرير ودار على الحيطان حائطيات الحرير التي هي كأزهار الخمائل ما رئيت قط في عهد الاوائل وتلك القباب مرفوعة الجوانب على قواعد وأساطين من رخام مجزع مطلية الرؤس بالذهب الذائب مفروش جلها بالمرمر الابيض مخططا بالسواد يتخلل ذلك ماء عذب فيدخل الناس على طبقاتهم ويأخذ كل مرتبته من قضاة وعلماء وصلحاء ووزراء وقواد وكتاب وأصناف الاجناد فيخيل لكل منهم أنه في جنة النعيم والسلطان جالس في فاخر ملابسه تعلوه الهيبة والوقار وترمقه الابصار بالتعظيم والاكبار ويجلس من عادته الجلوس ويقف على رأس السلطان الوصفان والعلوج وعليهم الاقبية المخوصة والمناطق المرصعة والحزم المذهبة مما يدهش الناظر وركز أمامهم الشمع الملون وأذن لعامة الناس فدخلوا من أصناف القبائل على أجناسها من الاجناد والطلبة وسكنت بعد حين الجلبة وأتى بانواع الطعام في القصاع المالقية والبلنسية المذهبة والاواني التركية والهندية وأتي بالطسوس والاباريق وصب الماء على أيدي الناس ونصبت مباخر العنبر والعود وأبرزت صحائف الفضة والذهب وأغصان الريحان الغض فرش بها من ماء الورد والزهر وأنشدوا قصائد وتكلم المنشدون وأحسن اليهم السلطان ثم ختموا المجلس بالدعاء للامير * واذا كان يوم السابع يكون ترتيب أبدع من الاول وهذه سيرته دائما اه وهكذا كانت سيرته في شهر رمضان عند ختم صحيح البخاري وذلك أنه كان اذا دخل رمضان سرد القاضي وأعيان الفقهاء كل يوم سفرا من نسخة البخاري وهي عندهم مجزأة على خمسة وثلاثين سفرا في كل يوم سفر الا يوم العيد وتاليه فاذا كان يوم سابع العيد ختم فيه صحيح البخاري وتهيأ له السلطان أحسن تهيء الا ان العادة الجارية عندهم في ذلك أن القاضي يتولى السرد بنفسه فيسرد نحو الورقتين من أول السفر ويتفاوض مع الحاضرين في المسائل ويلقي من ظهر له بحث أو توجيه ما ظهر له ولا يزالون في المذاكرة فاذا تعالى النهار ختم المجلس وذهب القاضي بالسفر فيكمله سردا في بيته ومن الغد يبتدئ سفرا آخر وهكذا والسلطان في جميع ذلك جالس قريب من حاشية الحلقة قد عين لجلوسه موضع ﴿وقال الفشتالي﴾ وكان المنصور يعطي أموالا لذوي الحاجات عند انقضاء رمضان ويقيم مهرجانا يوم عاشوراء لختان أولاد الضعفاء وكل من ختن منهم أعطى أذرعا من كتان وحصة من الدراهم وسهما من اللحم اه ﴿وأما ترتيب جيش المنصور﴾ وعادته في أسفاره فسنذكرها في الفصل بعد هذا ان شاء الله ولنذكر بعض القصائد المولدية التي أنشدت بمجالس المنصور حسبما تقدمت الاشارة اليه فمن ذلك قول القاضي أبي القاسم بن علي الشاطبي رحمه الله

ما بال طيفك لا يزور لماما * ويمنحني الاحشاء ضربت خياما

أيعيش فيك عواذلى لسلوّهم * وأموت فيك صبابة وغراما
وتبيح نهرك سائلا من أدمعى * أو ليس نهر السائلين حراما
ماذقت ماء الماك فى سنة الكرى * الا انتبهت فكان لى أحلاما
عرض اذا حدّثت عن بان الحمى * فحديث قلبى بالاجارع هاما
أروى حديث الرقتين مسلسلا * عن دمع باكية الغمام سجاما
وتلق من جيب النسيم تحية * أضحى الهوا بردا لها وسلاما
ياجيرة العلمين دعوة شيق * للسفح عيش بالغضا ودواما
فخذوا بجرعاء الحمى قلبى فقد * ألف الاقامة بالحمى فأقاما
وخذوا بثارى أهل نجد انهم * سلبوا الفؤاد وأدنفوا الاجساما
فى كل غرب دموع عينى مشرق * لكواكب فيها اثرن ظلاما
صليت بنار الشوق ثم رثت الى * انسانها فى لجة قد عاما
وتسلسلت عبراتها شوقا لمن * وقفت عليه صلاتها وسلاما
خير الانام محمد الهادى الذى * أردى الضلال وجب منه سناما
كنز العوالم سر طينة آدم * ولحفظ ذاك السر جاء ختاما
وأجل أرسال الاله ومن به * قد لاذ يونس حين خاض ظلاما
وتقاصرت عن فرده اعدادهم * فلذا تقدم فى الحساب اماما
أسرى الى السبع الطباق فأقبلت * زمر الملائك وفده اعظاما
فى ليلة غصت بأملاك السما * فتسير خلف ركابه وأماما
ياخير من بهر المعاند شأنه * عجزا فغص بريقه افحاما
أعيا جلالك أن يحيط بوصفه * وصف البليغ وأخرس الاقلاما
صلى عليك الله ما زار الحيا * روضا ففتح زهره الاكماما
ما الذى فى مدح غيرك مخلصا * الا بمدحى من بنيك اماما
خير الورى وامامها المنصور من * فى ظل دولته الانام أناما
أضفى على الارضين ظل مهابة * فحمى بها حام العباد وساما
وسما على الدنيا عقاب تنوفة * فانقض يفترس الاسود بهاما
قل للملوك هبوا الممالك كم فدى * وخذوا الانفسكم لديه ذماما
هذا الذى يحيى البلاد بعدله * ويعيدها ثمرا وكن رماما
هذا الذى وعد الاله بانه * يطوى البلاد ويفتح الاهراما
يامشبه المهدى فى آرائه * حزما وفى عزماته اقداما
أنت الذى يبنيه ابناء العلى * أرسى البلاد ووطد الاسلاما
فكأنها من حولك الاشبال فى * غاب الوشيج تبوّأت آجاما
وأمينها المأمون عضب سمامها * علم اناف على الهضاب سناما
وأجل مضطلع تخيره الورى * بعد الامام فقدموه اماما
وحباه أحمد عهد أمة أحمد * فوفى فكان لرعيه المقاما
لا يعدونّ النصر سيفك انه * سيف يحوط الدين والاسلاما
خذها تنم على العبير مدبجها * ويفض عن مسك الختام ختاما

وقال العلامة مفتي الحضرة أبو مالك المولى عبد الواحد بن أحمد الشريف الفيلالي

أرقت وشاقتني البروق اللوامع * وذكرى خليط هيجتها المرابع
مرابع عفتها الرواسس والسما * تراق من الاشواق فيها المدامع
كأن لم تكن من قبل قدما أواهلا * اذ السلك منظوم وشملي جامع
تذكرني عهد الاجازع واللوى * وأين اللوى مني وأين الاجازع
سحبنا بها ذيل الصبابة برهة * وجفن الردى عنا وحاشاك هاجع
وقفت بها بالبزل والليل دامس * أنازعها الشكوى بها وتنازع
أسائلها عن جيرة بان حيهم * وضمت هواهم بعد ذاك الاضالع
فهل قدموا نحو العقيق صدورهم * ولاح لهم برق من الغور لامع
يخبر عن دار الرسول وقربها * عراص بها للوحي فاضت ينابع
ديار بها حل الحمى سيد الورى * وهبت على الاشراك منها زعازع
عليك صلاة الله يا خير مرسل * ويا خير من تثني عليه الاصابع
فلولاك هذا الكون ما زال معدما * وأنت الذي يرجوه عاص وطائع
لك الفخر في الدارين والموقف الذي * لاهول له كل النبيين جازع
فآدمهم والكل تحت لوائكم * وليس لنا والله غيرك شافع
فجاز الرب العرش ما أنت أهله * جزاء به يشجي المناوي المخادع
وجازي اماما قد غمته اليكم * أصول وآباء كرام فوارع
سميك وابن السبط حقا ومن له * عوارف في أعناقنا وصنائع
فدم للعلا يا ابن الخلائف مفردا * اليك اشتراؤها وغيرك بائع
ودام ولي العهد بعدك صارما * يخب الى نيل العلا ويسارع
هو الامن المأمون من كل فتنة * لفيض الندى من راحتيه تدافع
ففيك أقول والنصوص شواهد * أحاديث صحت ليس فيها منازع
بكم رأس هذا القرن جدد ديننا * وفاضت بحور للعلوم هوامع

أشار بهذا الى ما أخرجه أبو داود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله يبعث على رأس كل قرن من يجدد لهذه الامة أمر دينها وحمله بعض الأئمة على ان المجدد من الملوك وقيل من العلماء وقيل من الاولياء والصواب الاطلاق وقال الوزير القائد أبو الحسن علي بن منصور الشيظمي رحمه الله تعالى

من بعد أهل قباوأهل كداء * شوقي يزيد وعز ذاك عزائي
ولي الشفاء بقربهم وهم جلا * ما في الخواطر من صدى وصداء
لكنه بعد المزار فأين من * تلك المعاهد ساكن الحمراء
بانوا وهاج الشوق ذكر ربوعهم * ذات السنا والزند والاضواء
وشدا بهم حادي الركاب فكاد أن * تدع القلوب جسومها بفضاء
يا سعد لو ان الزمان مساعدي * ومجيب داعي البعد بعد ندائي
لركبت حرفا كالهلال منافرا * للهمز الافي المنادى النائي
وجبت أحياء الفلا وطويتها * طي الملا بنجيبة فوداء
تختاض في جوف الظلام كأنها * سر تولج في ضمير رجاء
وتخال في لجج السراب سفينة * تجري القلوع بها بريح رخاء

هل أنزلن بها المحصب من منى * وأزور بعد معاهد الزوراء
فأحط عنها الرحل ثم نخيما * فى ظل أحمد بغيتى ومنائى
وأمرغ الخدين ملتمما ثرى * وطئته رجلا خاتم النبئاء
محيي الهدى ماحى الضلالة والردى * بالبيض والخطية السمراء
صلى عليه الله ما نسخ السنا * لوما وما أجلى الدجا ابن ذكاء
وعلى صحابته الكرام وآله * أكرم بهم من سادة فضلاء
أكرم بوارث مجده وعلائه * سبط الرسالة غرة الابناء
خير الخلائف أحمد المنصور من * حاز الكمال وشرط كل علاء
الصارم الهندى فى عين الهدى * والكوكب الوقاد فى الظلماء
يا أيها الملك الذى بسيوفه * حاط الهدى وبرأيه الوضاء
نحو الالاه لك الفتوح وصانها * كالزهر فى الاكمام والاوعاء
لا بد من فتح بروقك واضح * كالصبح يدرو فى نحور عداء
وستملك الحرم الشريف وينتمى * للوائك المنصور دون مراء
وترى الجهات وقد أتت منقادة * بظبى بنيك السادة النجباء
وتقر عينا بالخليفة منهم * وزر البرية عدة الامراء
بمحمد المأمون خير من ارتقى * درج الكمال ودب للعلياء
فرع سيحكى أصله ولقد حكى * بمقاصد قد سددت ودهاء

وقال الكاتب أبو فارس عبد العزيز بن محمد الفشتالى رحمه الله تعالى

هم سلبونى الصبر والصبر من شانى * وهم حرموا من لذة الغمض أجفانى
وهم أخفروا فى مهجتى ذمم الهوى * فلم ينثهم عن سفكها حبى الجانى
لئن أترعوا من قهوة البين أكؤسى * فشوقهم أضحى سميرى وندمانى
وان غادرتنى بالعراء حمولهم * كفى أن قلبى جاهدا اثر أظعانى
قف العيس وسئل ربعهم أية مضوا * ألجزع ساروا ام لجنبى أم البان
وهل باكروا بالسفح من جانب اللوا * ملاعب آرام هنالك وغزلان
وأين استقلوا أهل بهضب تهامة * أناخوا المطايا أم على كثب نعمان
وهل سال فى بطن المسيل تشوقا * نفوس ترامت للحمى قبل جثمان
واذ زجروها بالعشى فهل نبى * أزمتها الحادى الى شعب بوان
وهل عرسوا فى دير عبدون أم سروا * يؤم بهم رهبانهم دير نجران
سروا والدجا صبغ المطارف فانثنى * باحداجهم شتى صفات وألوان
وأدلج فى الاسحار بيض قبابهم * فلحن نجوما فى معارج كثبان
لك الله من ركب يرى الارض خطوة * اذا زمها بدنا نواعم أبدان
أرحها مطايا قد تمشى بها الهوا * تمشى الحميا فى مفاصل نشوان
ويمم بها الوادى المقدس بالحمى * به الماء صدا والكلا نبت سعدان
وأهد حلول الجزع منه تحية * تفاوح عرفا ذاكى الرند والبان
لقد نفحت من شيح يثرب نفحة * فهاجت مع الاسحار شوقى وأشجانى
وقد منها الشرق فى الغرب مسكة * سحبت بها فى أرض دارين أردانى

وأذكرني نجدا وطيب عراره * نسيم الصبا من نحو طيبة حياني
أحن الى تلك المعاهد انها * معاهد راحاتي وروحي وريحاني
وأهفو مع الاشواق للوطن الذي * به صح لى أنسي الهني وسلواني
وأصبو الى أعلام مكة شائقا * اذا لاح برق من شمام وثهلان
أهيل الحمى ديني على الدهر زورة * أحث بها شوقا لكم عزمي الواني
متى يشتفي جفني القريح بنظرة * يزج بها في نوركم عين انساني
ومن لى بان يدنو لقاكم تعطفا * ودهري عني دائما عطفه ثاني
سقى عهدهم بالخيف عهد تمده * سوافح دمع من شؤوني هتان
وأنعم في شط العقيق أراكة * بافيائها ظل المنى والهوى داني
وحيا ربوعا بين مروة والصفا * تحية مشتاق لها الدهر حيران
ربوع بها تتلو الملائكة العلا * أفانين وحي بين ذكر وقرآن
وأول أرض باكرت عرصاتها * وطرزت البطحا سحائب ايمان
وعرس فيها للنبوة موكب * هو البحر طام فوق هضب وغيطان
وأدى بها الروح الامين رسالة * أفادت بها البشرى مدائح عنوان
هنالك فض ختمها أشرف الورى * ونخر نزار من معد بن عدنان
محمد خير العالمين باسرها * وسيد أهل الارض والانس والجان
ومن بشرت بالبعث من قبل كونه * نوامس كهان وأخبار رهبان
وحكمة هذا الكون لولاه ما سمت * سماء ولا غاضت طوافح طوفان
ولا زخرفت من جنة الخلد أربع * تسيح فيها آدم حور وولدان
ولا طلعت شمس الهدى غب دجية * تجهم من ديجورها ليل كفران
ولا لحقت بالمذنبين شفاعة * يذود بها عنهم زبانى نيران
له معجزات أخرست كل جاحد * وسلت على المرتاب صارم برهان
بها انشق قرص البدر شقين وارتوى * بماء همى من كفه كل ظمآن
وأنطقت الاوثان نطقا تبرأت * الى الله فيه من زخارف ميان
دعا سرحة عجما فلبت وأقبلت * تجر ذيول الزهر ما بين أفنان
وضاءت قصور الشام من نوره الذي * على كل أفق نازح القطر أو داني
وقد عم الانوا بدعوته التي * كست أوجه الغبراء بهجة نيسان
وان كتاب الله أعظم آية * بها افتضح المرتاب وابتأس الشاني
وعدى على شأو البليغ بيانه * فهيهات منه سجع قس وسحبان
نبي الهدى من أطلع الحق أنجما * محى نورها اسداف افك وبهتان
بعزتها ذل الاكاسرة الالى * هم سلبوا تيجانها آل ساسان
وأحرز للدين الحنيفي بالظبا * تراث الملوك الصيد من عهد يونان
وتقرع من سمر القنا السمر قيصرا * بجرعه منه مجاجة ثعبان
وأضحت ربوع الكفر والشرك بلقعا * يناغي الصدا فيهن هاتف شيطان
وأصبحت السمحا تروق نضارة * ووجه الهدى بادى الصباحة للرائي
أيا خير أهل الارض بيتا ومحتدا * وأكرم كل الخلق عجم وعربان

فمن

فمن القوافي أن [illegible] م * راو سحبان [illegible] بمقام مادح حسان
اليك بعثناها أمانيّ أجدبت * لتسقى بمزن من أياديك هتّان
أجرني اذا أبدى الحساب جرائمي * وأثقلت الاوزار كفة ميزاني
فأنت الذي لولا وسائل عزه * لما فتحت أبواب عفو وغفران
عليك سلام الله ما هبت الصبا * ومست على كثبانها أملد قضبان
وحمل في جيب الجنوب تحية * يفوح بمسراها شذا كل تربان
الى العمرين صاحبيك كليهما * وتلوهما في الفضل صهرك عثمان
وحيّ عليا عرفها وأريجها * ووال على سبطيك أوفر رضوان
اليك رسول الله صممت عزمة * اذا أزمعت والشحط والقرب سيان
وخاطبت مني القلب وهو مقلب * على جمرة الاشواق فيك فلباني
فياليت شعري هل أزم فلا أنصي * اليك بدارا أو أقلقل كيراني
وأطوي أديم الارض نحوك راحلا * نواحي المهاري في صحاصح قيعان
يرنحها فرط الحنين الى الحمى * اذا غرد الحادي بهن وغناني
وهل تمحون عني خطايا اقترفتها * خطى لي في تلك البقاع وأوطان
وماذا عسى يثني عناني وان لي * بآلك جاها صهوة العز أمطاني
اذا صد عن زوارك الباس والغنى * فجود ابنك المنصور أحمد أغناني
عمادي الذي أوطا السماكين أخمصي * وأوفى على السبع الطباق فأدناني
متوج أملاك الزمان وان سطا * أسال سيوفا في معاقد تيجان
وقاري أسود الغاب بالصيد مثلها * اذا اضطرب الخطي من فوق جدران
هزبر اذا زار البلاد زئيره * تضاءل في أخياسها أسد خفان
وان أطلعت غيم القتام جيوشه * وزمزم في مركومه رعد نيران
صببن على أرض العدا بوارقا * أسلن عليهم بحر نسف ورجفان
كتائب لو يعلون رضوى تصدعت * صفاه الجياد الجرد تعدو بعقبان
عديد الحصا من كل أروع معلم * وكل كميّ بالرديني طعان
اذا جن ليل الحرب عنهم طلى العدا * هدتهم الى أوداجها شهب خرصان
من اللاء جرعن العدا غصص الردى * وعفرن في وجه الثرى وجه بستان
وقدن أقطار البلاد فأصبحت * تؤدي الخراج الجزل أملاك سودان
امام البرايا من علي نجاره * ومن عترة سادوا الورى آل زيدان
دعائم ايمان وأركان سودد * ذوو همم قد عرست فوق كيوان
هم العلويون الذين وجوههم * بدور اذا ما حلولكت شهب أزمان
وهم آل بيت شيد الله ملكه * على هضبة العلياء ثابت أركان
وفيهم أتى الذكر الحكيم وصرحت * بفضلهم آيات ذكر وقرآن
فروع ابن عم المصطفى ووصيه * فناهيك من فخرين قربى وقربان
ودوحة مجد منسب الروض بالعلا * يجاد بأمواه الرسالة ريان
بجدهم الاعلى الصريح تشرفت * معد على العرباء عاد وقحطان
أولئك فخري ان فخرت على الورى * ونافس بيتي في الولا بيت سلمان

المراد به سبستيان ملك البرتقال لكنه عربه فقال بستان

اذا اقتسم المداح فضل فخارهم * فقسمى بالمنصور ظاهر رجحان
امام له فى جبهة الدهر ميسم * ومن عزه فى مفرق الملك تاجان
سما فوق هامات النجوم بهمة * يحوم بها فوق السموات نسران
وأطلع فى أفق المعالى خلافة * عليها وشاح من علاه وسمطان
اذا ما احتبى فوق الاسرة وارتدى * على كبرياء الملك نخوة سلطان
توسمت لقمان الحجا وهو ناطق * وشاهدت كسرى العدل فى صدر ايوان
وان هزه حر الثناء تدفقت * أنامله عرفا فاندفق خلجان
أيا ناطر الاسلام شم بارق المنا * وباكر لروض فى ذرا المجد فينان
قضى الله فى عليائك أن تملك الدنا * وتفتحها ما بين سوس وسودان
وانك تطوى الارض غير مدافع * فمن أرض سودان الى أرض بغدان
وتملاها عدلا يرف لواؤه * على الهرمين أو على رأس غمدان
فكم هنأت أرض العراق بك العلا * ووافت بك البشرى لأطراف عمان
فلو شارفت شرق البلاد سيوفكم * أتاك استلابا تاج كسرى وخاقان
ولو نشر الاملاك دهرك أصبحت * عيالا على عليائك أبناء مروان
وشايعك السفاح يقتاد طائعا * برايته السوداء أهل خراسان
فما المجد الا ما رفعت سماكه * على عمدى سمر الطوال ومرّان
وهانيك أبكار القوافى جلوتها * تغازلهن الحور فى دار رضوان
أتتك أمير المؤمنين كأنها * لطائم مسك أو خمائل بستان
تعاطمن حسنا أن يقال شبيهها * فرائد در أو قلائد عقيان
فلازلت للدنيا تحوط جهاتها * وللدين تحميه بملك سليمان
ولازلت بالنصر العزيز مؤزرا * تقادلك الاملاك فى زى عبدان

انتهت القصيدة الفريدة ﴿قال فى نفح الطيب﴾ أخبرنى ناظمها أنه أراد بقوله * ونافس بيتى فى الولاية بيت سلمان * قبيلة سلمان التى منها لسان الدين ابن الخطيب اشارة الى ولاء الكتابة للخلافة كما كان لسان الدين رحمه الله وفيه مع ذلك تورية بسلمان الفارسى رضى الله عنه انتهى وهذه القصيدة على طولها من غرر القصائد ولذا لم يذكر فى المنتقى من الامداح المنصورية غيرها وقد أثنى عليها فى نفح الطيب جدا وتتبع ما قيل فى هذا الاحتفال واقامة المولد العديم المثال من الامداح يفضى الى الطول وفى هذا القدر كفاية وبالله التوفيق

## ﴿ذكر سيرة المنصور فى ترتيب جيوشه وحالات أسفاره﴾

﴿قال الفشتالى﴾ كانت السيرة على عهد أبى عبد الله المهدى وولده الغالب بالله وابنه المتوكل سيرة العرب فى الجيش والمآكل والملبس وغير ذلك ولما ولى المعتصم حمل الناس على السيرة العجمية وجنح اليها فى سائر شؤونه لما رأى منها فى بلاد الترك حيث كان بها فكره الناس ذلك وأنفوا منه وقوفا مع العوائد فلما جاء الله بالمنصور ألف بين سيرتى العرب والعجم واصطفى من العجم موالى رباهم بنعمته وأشملهم درور احسانه منهم مصطفى باى ومعناه بلغة الترك قائد القواد ويختص به قائد الاصباحية وكان برسم حراسة الباب العالى ومنهم الباشا محمود وهو صاحب خزائن الدار بيده مفاتيح بيوت الاموال ومنهم القائد علوج قائد جيش العلوج والباشا جوذر فاتح السودان وهو قائد جيش الاندلس وكان لاهل الاندلس جيش عظيم رماة

وعمار قائد جيش السوس فهؤلاء أكابر العلوج وتليهم طائفة أخرى منها بختيار وبغا ثم ان جيش العجم من الاتراك والعلوج قسمه الى أقسام (منها البياك) وهم أهل القلانس الصفرية المذهبة ذوات الاعراف من ريش النعام الملوّن يقفون سماطين أمام قبته أو فسطاطه (والسلاق) أهل القلانس الطويلة البيض المرسلة على المناكب وبناط بها من أعلى الجباه جعاب صفر مذهبة ويضيفون اليها وقت الحزام أجنحة طوالا يؤلفونها أيضا من ريش النعام الباقي على أصل خلقته ويركزونها في الجعاب المنوطة بالقلانس من أعلى الجباه ويرسلونها الى وراء ويقف هؤلاء خلف البياك (وبلبدروش) وهم أهل القاقيف وهي رماح قصيرة غليظة العصى مغشاة بالحديد مرصعة بالمسامير البيض ركبت عليها أسنة عظام وزجاج هائلة ينبت من ريشتي كل سنان منها أضلاع مستقيمة ويقف هؤلاء خلف السلاق (والشنشرية) وهم أهل الطعام وضعاورفعا لاغير وقائدهم بختيار من سبي وادي الحازن (والقبجية) وهم أهل حفظ الابواب وغلقها وفتحها وقائدهم مولود المشاوري وطائفة من هؤلاء تحرس ليلا وتطوف على مسايف السور المحيط بالدار ومن وظيفة هؤلاء خدمة الكرسي والسرير اللذين يجلس عليهما السلطان بالايوان وتعاهد اغاط الجلوس وكنسها (والشوّاش) وهم الذين يتولون ضبط الجيوش في المصاف في حرب أو سلم وانهاء الكتب والرسائل للجهات بخير أو شر ﴿قال الفشتالي﴾ وهذا مما ازدادت به دولته على سائر الدول فاذا خرج في يوم عيد أو ملاقاة أو تهنئة خرجوا مترتبين وكل قائد يقف عند مبدا انبعاث حبل جيشه تحت ألويته محفوفا بجيش من رؤساء جنده أهل الخيل وهم الذين يدعون عندهم بالكاشات فاصلا بذلك بين جيشه وجيش من يردفه خلفه وهكذا يمتد الى انبعاث الجيش من تلقاء أمير المؤمنين وكل يعرف مركزه ورتبته لا يتعداه الى غيره بتقدم أو تأخر ولا يجد السبيل الى ذلك لو أراده ﴿قال الفشتالي﴾ والترتيب الذي جرى به العمل في عساكر النار أن يتقدم أولا جيش السوس ثم يردفه جيش شراكة وكل منهما ينقسم حبلين ثم يردفهما العسكران العظيمان عسكر الموالي من العلوجي ومن انضاف اليهم وعسكر الاندلس ومن لبس جلدتهم ودخل في زمرتهم وهذان يسيران صفين متساويين لاستواء مرتبتهما وعند العطاء تارة يتقدم هؤلاء وتارة هؤلاء غير ان الموالي يكونون في الميمنة لمزية الولاء وكلاهما يحظى بموالاة ركاب السلطان ويتقدم قائداهما محمود قائد الموالي وجوذر قائد الاندلس وترفع على رأس كل منهما الرايات ويحفه عسكر من بلكاشات ثم يتصل بهذين العسكرين الدخلة العظيمة المؤلفة من البياك والسلاق وبلبدروش فتسير الفرق الثلاث أمام المنصور صفوفا متساوية فاما البياك فيلون ركابه يحفون به يمينا وشمالا ويرفع البعض رماحه اليزنية المنصوبة أمامه ومنهم صاحب المظل المرفوع على رأسه كالغمامة يحمله حالة ركوبه أقربهم درجة لقائدهم ابرويز واذا مشى المنصور الى جامع المنصور من جهة قبور الاشراف أو للمشتهى وهو الروض المتصل بقصر البديع على رجليه حمله ابرويز بنفسه ثم يسير عن يمينهم وشمالهم السلاق ويسير عن يمين هؤلاء وشمالهم بلبدروش أهل اللقاقيف وتتكيف من الجميع صورة تزرع الرعب في القلوب وتسير الجنائب فيما بين سماطي هذه الدخلة مجنوبة صفا صفا الى ألوية عساكر النار ومنبعث حبالها الممدودة يقودها صناع يدعون السراجة ركابا وكانت جنائب الخلفاء يقودها الرجل من الوزعة وهذا أكمل مزية وجيش الاصباحية الذي الى نظر الاربابي ينقسم كتيبتين عظيمتين تسير احداهما ذات اليمين والاخرى ذات الشمال أمام الموكب الذي يرفع اللواء العظيم الابيض المدعو باللواء المنصور علامة على شعار الدولة على رأس المنصور ويسامته من خلفه وهناك ألوية كثيرة ذات ألوان مختلفة وأمامه الطبل العظيم الذي يسمع دويه من مسافة بعيدة ومن خلفه الطبول الاخر معها الغيطات واحدتها غيطة يتولى النفخ فيها قوم من العجم أسانيد يتعلمونها فينفخون فيها فتنبعث منها أصوات وتلاحين لا تحرك الطباع ولا تبعثها على شيء دون الحرب فانها تشجع الجبان وتقوي جاش

الخائف حكمة فيلسوفية وهنالك من امير آخر وجعاب طوال صفرية على مقدار النفير تسمى الطرنباط مما أحدثه أيضا فى دولته وزادت بدولته فخامة وضخامة ثم يردف هذه الالوية والآلات من خلف أمير المؤمنين موكبه العظيم فهذا ترتيب جيش المنصور وانتهى باختصار من كتاب مناهل الصفا وليس اتخاذ المظل مما أحدثته الدولة السعدية كما زعمه بعضهم بل كان ذلك موجودا فى الدول القديمة شرقا وغربا ﴿قال اليفرني﴾ وما ذكره الامام الفشتالى من توافر أجناد المنصور وتبكاثر جيوشه هو كذلك وقد أولعت انعامه ... خرج مرة الى الرملية بظاهر مراكش ولم تعلم أصحابه بخروجه فخين علموا بخروجه تبعوه خفافا وثقالا فأمر بعدّ ما معه هنالك من الجيش فوجد ثمانين ألفا فقال يا سبحان الله قد خاطرنا بالا ... هذا العدد دستقله ولا يخفى ما فى هذا الكلام من الافراط والذى ذكره الشيخ أبو العباس أحمد افغاى الاندلسى فى كتابه المسمى برحلة الشباب الى لقاء الاحباب ما معناه قال ان جزيرة الاندلس التى ... تردد ... الكفار سهل واسترجاعها منهم قريب لما دخلت مراكش فى أيام المنصور وجدت عنده من الخيل نحوا من ستة وعشرين ألفا فلو تحركت همته لفتحها لاستولى عليها انى الحين اهـ ... اهـ كلام اليفرني ﴿وأما بيان حالة المنصور فى السفر﴾ فقد قال شارح زهرة الشماريخ ان المنصور كان قليل الاسفار وانما سافر الى فاس مرتين لا غير وانما كان متفرغا للذاته واستيفاء شهواته مدة خلافته ﴿قال اليفرني﴾ وبه يعلم أن ما شاع على الالسنة من انه كان يمكث بفاس ستة أشهر وبمراكش مثلها ليس بصحيح والله أعلم وكان المنصور اذا سافر استعد غاية الاستعداد وأحسن فى التهيئة ما شاء ﴿قال صاحب النفحة المسكية﴾ كان له قصر من عود مسمر بمسامير وخطاطيف وحلق وصفائح مفضضة على هيئة عظيمة وقد أحدق بذلك كله سرادق كالسور من نسيج الكتان كأنه حديقة بستان وزخرفة بنيان وفى داخل القصر المذكور القباب الملونة بيضاء وسوداء وحمراء وخضراء كأنها أزاهير الرياض قد نقش ذلك أحسن النقش وملئ بابهى الفرش وللسرادق الذى هو كالسور أبواب كأنها أبواب القصور المشيدة يدخل منها الى دهاليز وتعاريج ثم ينتهى منها الى القصر الذى فيه القباب وهذا القصر كأنه مدينة تنتقل بانتقاله وهو من الابهات الملوكية التى لم يوجد مثلها عند الملوك الماضين اهـ ﴿ومما يتعلق به ما حكاه أبو فارس الفشتالى فى المناهل﴾ قال خرج المنصور يوم الاثنين عاشر شعبان سنة اثنتين وتسعين وتسعمائة لزيارة أضرحة الصالحين باغمات قال فتأخرت وراءه فلحقنى المولى عبد الواحد بن أحمد الشريف وأنا فى أخريات الناس فأنشده أبا فارس

بان الخليط وودّعوا فقانا ... ولو أوحسن الصبر منى شيعوا

فقال وغرد حادى البين وانشقت العصا * وكاد فؤادى للنوى يتقطع

فقلت الى الله أشكو فرقة منهم وقد * تجرعت من كاس النوى ما تجرعوا

ثم زدت ائن شرد السلوان عنى بعدهم * ففى صحبة المنصور أنسى أجمع

ثم قال تدور عليه هالة لقبابه * ومركزها قصر الخلافة الجمع

فقلت سماح به بحر الندى متموج * ومن أفقه شمس الامامة تطلع

وكان المنصور خرج لزيارة أغمات فى شارة حسنة ... أغمات ... وفى الثالث نهض الى زيارة الامام أبى عبد الله الهزميرى وعاج على ضريح الشيخ سيدى ... وقف عند الجبانة الكبرى فدعا ما شاء ... وفرق أموالا على ذوى الحاجات على يد القاضى الشاطبى والفقيه الامين أبى الحسن على بن سليمان الشاملى وكان معه الفقيه القاضى أبو مالك عبد الواحد بن أحمد الحميدى كان قد استقدمه من فاس برسم القراءة معه وكان الحميدى لوذعيا خفيف الروح وفى هذه السفرة صدرت منه الابيات التى تبارى فى معارضتها شعراء الدولة وقد ذكرها فى النزهة فلتنظر هنالك ﴿ومما يتعلق باخبار الحميدى

المذكور

المذكور ﴿أن المنصور سافر مرة الى تارودانت ومعه جماعة من الاعيان كالقاضي الحميدي وأبي العباس المنجور وغيرهما فخيم المنصور بباب تارودانت وضرب الناس أخبيتهم فمر رجل عليه أطمار بالية وهيئة رثة ويقال ان هذا الرجل هو أبو عثمان الهلالي الروداني فوطئ على طنب من أطناب خباء القاضي الحميدي فصاح القاضي من هذه البقرة التي قوضت على خيمتي فتهكم الرجل فالقى اليه الرجل قرطاسا فيه أبيات وقال البقرة من لا يجيب عن هذه ونص الابيات

الى بابك العالي مسائل ترتقي * تفطن لهن يا حميدي واصدق
فما الحكم في الاوزاغ هل ساغ أكلها * وما الحكم في موتى الجانبين فانطق
وهل جاز للمسبوق بعد تشهد * دعاء اذا مارام اكمال مابقي
وماوزن ليس يا أديب وأصله * وما جمع قل له لصاع محقق
وما وزنه شمر ولات واثننا * بجمع سواء والمقيد أطلق
وبين لنا من في أعوذ بربنا * من ابليس والتضمين في الكل فائق

فبدا للحميدي مالم يكن يحتسب وتوقف عن الجواب فرفعت القضية الى المنصور فاستغربها وقال هذا رجل من أهل البادية فضح قاضي قضاة الحواضر وأمر المنجور فأجاب عنها يقال بعد أربع سنين وبعد موت السائل ونص الجواب

جوابك في الاولى اباحة أكلها * بمذهبنا فاجزم بذلك وصدق
كذا ابن حبيب في الخشاش أباحه * لمحتاجه مثل العقارب فاسبق
وقد قيل في الاوزاغ يحرم أكلها * وذلك في الكافي ليوسف فادق
ومستقذر يحكى المخالف منعه * وأنكره التنبيه فانهض وفق
ورجح مايحكى المخالف بعض من * له العزو للتحقيق والا للتشدق
وميت مجنون جرى خلف حكمه * بعلم كلام لا تكن غير محق
وتحقيقها ان الجنون الذي طرا * يصير كموت فصل الحق يعبق
فآونة بعد البلوغ طروه * وحينا يرى قبل البلوغ فطبق
وآونة اثر الصلاح وقوعه * وحينا به عصيان الكبيرة يلتقي
وحينا يدوم للممات وتارة * يفيق فخذ حكم الجميع ووثق
ويندب للمسبوق دعوى تشهد * وذاق امام في المناجاة فارتق
وليس له فعل كنال وأصله * بكسر لياء فاكسر الغين ترتقي
وجمعك صاعا في القليل بأصوع * وأصؤع بهمز الواو فاتبع وحقق
وان شئت فاقلبه فبئر جمع أصوعا * لذا باب تصريف فالعلم شرق
وصاع كعام عينه فرع ضمة * وتحريكه فتح فوزنه يحقق
وجمع سواء فالذي منه جامد * بأسوية مع سيتان ففرق
ومشتقه وزن الخطايا قياسه * وأسوية نقل فبالحق فانطق
ومقصد من في العوذ بدء الغاية * فابليس مبدأ العوذ عند الموفق

## ﴿انتقاض ولي العهد محمد الشيخ المأمون على أبيه المنصور وما آل اليه أمره في ذلك﴾

كان المأمون كما تقدم ولي عهد أبيه المنصور وكان خليفته بفاس [illegible] سائر مدة أبيه وكان للمنصور اعتناء تام به واهتمام بشأنه حتى قيل ان المنصور كان لا يختم على صندوق من صناديق المال الا قال جعل

الله فتحه على يد الشيخ رجاء أن يقوم بالامر بعده فلم يساعد القدر وخرج الامر كما قال القائل

ما كل ما يتمنى المرء يدركه * تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن

فأساء المأمون السيرة وأضر بالرعية (قال اليفرني) وكان فسيقا خبيث الطوية مولعا باللعب بالصبيان مدمنا للخمر سفاكا للدماء غير مكترث بامور الدين من الصلاة وشرائطها ولما ظهر فساده وبان للناس عواره نهاه وزير أبيه القائد أبو اسحق ابراهيم السفياني عن سوء فعله فلم ينته واستمر على قبح سيرته فاعاد عليه اللوم فلج فى مذهبه ولما أكثر عليه من التقريع سقاه السم فكان فيه حتف القائد المذكور ومما أنكر عليه انه قبض على كاتب أبيه أبى عبد الله محمد بن عيسى وهو مؤلف كتاب الممدود والمقصور من سنا السلطان المنصور ووظف عليه أموالا وابتز ذخائره حتى كان مما أخذ منه ثمانون سكة مذهبة ومائة بخ من الملف المختلف الالوان فلما كثرت قبائحه وترددت الشكايات لابيه كتب اليه لينكف عن غيه وينزجر عن خبثه فما زاده التحذير الا اغراء فلما رأى المنصور أنه لم يكترث بامره ولم ينزجر عن قبائحه عزم على التوجه الى فاس بقصد أن يمكر به ويؤدبه بما يكون رادعا له فسمع الشيخ بذلك فجمع عساكره وهيأ جنده ودفع المرتب لاصحابه وكان عدد جيشه فيما قيل اثنين وعشرين ألفا كلهم بكساوى الملف والحرير على أحسن شارة وأكمل زى وعزم انه ان بلغه خروج أبيه من مراكش أن يتوجه فى أصحابه الى تلمسان ويستجير بالترك فلما بلغ المنصور ما عزم عليه الشيخ من الذهاب الى تلمسان تخلف عن الخروج من مراكش وكتب الى الشيخ يلاطفه ويأمره أن لا يفعل وولاه سجلماسة ودرعة وتخلى له عن خراجهما وقال له قد سوغتكه ولا أطالبك فيه ومراده بذلك أن تسكن نفرته ويرجع اليه عقله وأظهر الشيخ امتثال الامر وخرج يؤم سجلماسة فما انفصل عن فاس بشئ يسير حتى ندم ورجع اليها وعاد لما كان عاكفا عليه فبعث اليه المنصور أعيان مراكش وعلماءها فنصحوه ووعظوه وخوفوه سخط والده وحذروه عاقبة العقوق ولم يألوا جهدا فى نصحه فوجدوه مشغول القلب عن نصيحتهم مغمور الذهن بخلاف قولهم الا أنه أظهر الرجوع عما كان عازما عليه من الفرار عن أبيه وأقصر فى الظاهر عن بعض تلك المساوى فرجع الوفد الى المنصور وقالوا له انه قد تاب وحسنت حاله واطمأنت نفسه وانه واقف عند الامر والنهى فلم يطمئن المنصور لقولهم وقال لهم لعل هذا اطفاء لنار الشحناء وكذب لاصلاح الباطن وصمم على المكر بالشيخ فكتب اليه كتابا طويلا يلاومه فيه على بعض الاشياء وفى ضمن ذلك تسكين خاطره حتى يبغته على حين غفلة (ونص الكتاب) من عبد الله تعالى المجاهد فى سبيله الامام المنصور بالله أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين أبى عبد الله محمد الشيخ الشريف الحسنى أيد الله أوامره وظفر عساكره الى ولدنا وولى عهدنا الامير الاجل الافضل الاكمل الاعز بابا الشيخ وصل الله كمالكم وسنى من خير الدارين آمالكم وسلام عليكم ورحمة الله أما بعد فكتابنا هذا اليكم من حضرة مراكش حاطها الله ولا جديد الا ما عوده مولانا من الخير لله الحمد وله المنة هذا والذى أوجبه أسعدكم الله وكلاكم انه بلغنا انكم قد استخدمتم هنالكم جماعة من أولاد طلحة كاولاد أخى على بن محمد وأخى على بن ملوك وغير هؤلاء وأنك قد فرضت لهم فى أعطياتهم نحو خمسة آلاف والى هذا أى مصلحة ظهرت لك فى استخدام هؤلاء القوم حتى تتحمل كلفة فرض هذه الفروض بل ما فى ذلك الا الفساد البين لان هذا الذى تعرضتم له لا يفى به المغرب ولا يقوم معه بكم شئ ومسئلة هؤلاء أولاد طلحة ان كنت رأيت استخدامنا وأردت تقليدنا فى ذلك واقتفاء سيرتنا فيه فاعلم ان بيننا وبينكم فى هذه المسئلة فرقا من وجوه منها ان مراكش ليست كفاس وان خدمتهم هنا لبعدهم عن بلادهم ليست كخدمتهم هنالك وأيضا هؤلاء الناس أنا أعرفهم وكنت فى بلادهم وهذه الخدمة كانوا قد طلبوها منى وأنا هنالك فوعدتهم اذا مكننى وأنا ببلادهم الا مساعفتهم فلما جاؤا اليوم وطالبونا بالوعد لم يمكن الا الوفاء لهم به فعليه شرطنا عليهم مراكش وسكناها

وعلى هذا الشرط استخدمناهم ومع هذه الوجوه كلها والاعتبارات فقد ندمت والله على استخدامهم غاية
الندامة وكنت فى ذلك على خطأ اذ كان الاولى أن كنا حاسناهم وتركناهم من الخدمة وأما أنت ففى
مندوحة عن هذا كله لانه لا وعد لك سابق حتى يلزمك الوفاء به ويمكنك أن تحياهم على اذ نناوه شورتنا
فتكفهم عنك بالشرط الذى شرطناه عليهم من الخدمة هنا بمراكش وسكناها وعلى هذا الشرط
استخدمنا منهم من استخدمنا والى هذا فالذى نؤكد به عليك أن تنقصهم من الخدمة ولا تستخدم منهم
حتى فارسا واحدا أصلا من الذين ذكرنا لك ومن غيرهم من كافة أولاد طلحة وأمرناك أن تتنصل لهم
فينا وتقول لهم ان السلطان منعنى من استخدامكم هنا وتقرأ عليهم كتابنا الواصل اليكم صحبة هذا
لتتفادى منهم ولكن الجفاء مع هذا كله لا تظهره بل تحسن اللقاء بهم وتواليهم باظهار البشر والقبول
وباب الطمع تسده دونهم والذى شق علينا أعظم من هذا كله واستنكرناه ولم نجد صبرا عليه هو ما
وجدناهم قد اطلعوا عليه أعنى أولاد طلحة على بن محمد وغيره من أحوالكم وأخباركم وألفيناهم قد توصلوا
من ذلك الى ما لم يتوصل اليه أحد من كبار خدامكم أهل بلادنا وخواص أهل بساطنا الان أهل بلادنا
أحباء مالهم بحث الا فى مصالح أنفسهم وهؤلاء انما ينتقدون ويبحثون عن الغرة وعورات المملكة فاذا
بكم تتخذونهم بطانة وأصدقاء وتطلعونهم باحوالكم وأموركم مع ان القوم لا زالوا ببلاد العدو وبين
أظهرهم وما يطلعون عليه تحتاج تقطع وتجزم بان الترك قد اطلعوا عليه حتى كأنهم شاهدوه ووقفوا
بأنفسهم عليه وأيضا لو كانوا أصدقاء ولا يريدون بنا الا خيرا فالقوم عرب لا يتحفظون على ما يطلعون
عليه ولا يفهمون ما يحسن اخفاؤه ولا ابداؤه ولا يتمالكون قولا ولا نطقا وبالجملة فقد أحرقتنا هذه
المسئلة وتفطرت لها أكبادنا وصارت قلوبنا منها مطعونة وما عندكم علم بان الناس كانوا يتحفظون فى أقل
الامور أن يطلع عليها الاجانب وان كانوا أحب من كل محب وأقرب من كل قريب وهل ما عندكم علم بان
أخانا بابا منصور كان عرض له غرض ضعيف جدا أراد أن يطلبه من أخينا بابا عبد الله وحضر فى المجلس
منصور بن المزوار فلم يرد بابا منصور لفطنته أن يذكر ذلك حتى يشاور من بازائه لئلا يكون عيب فى ذكر
ذلك بحضره فعليه شاور القائد حو ابن فرج كان بازائه فقال له هذا الرجل برانى ولا تطلب شيأ قدامه
على ان منصور بن المزوار هذا كان مع أسلافنا من أقرب ما اليهم من خواص الخدام أهل بساطنا
محبة وقربا لانه أسلف معهم خدمة عظيمة فقد كان عدو الترك وبينه وبينهم أرواح وحضر مع أخينا بابا
حمو الحران جميع ما كان فى تلك البلاد أيام استيلائه على المغرب الاوسط ثم مع بابا عبد القادر كذلك
وشرب معهم الحلوة والمرة ولما جاء من تلمسان جاء باولاده منها راحلا كما جاء منها بابا عبد الله باولاده وكما
جاء معهم خدامنا أهل تلك البلاد وما زال على الخدمة والوفاء حتى حصلت له يد عظيمة مع أسلافنا
وناهيك بمن بلغ الى ان قلدوه حاضرة تازا ثم بلاد الفحص التى لا تعطى كلتاهما الا لاقرب الخدام الموثوق
بمحبتهم وخدمتهم وقربهم ومع بلوغه الى هذا المبلغ كله محبة وصداقة وهجرة وانقطاعا حتى انه فى دخول
صالح رئيس مدينة فاس رحل باولاده مع السلطان الى هنا كما فعل أهل هذه البلاد وحين دخلنا نحن
من جهة الشرق لفاس رحلوا أيضا مع صاحب الجبل الى مراكش ولا يعدوا أنفسهم من هذا الجانب
أبدا فى الحديث والقديم ثم ان الناس استبعدوا ان يطلبوا أقل المسائل بحضره وقالوا انه برانى فضلا عن
هؤلاء الذين ما زالوا الى اليوم فى بلاد العدو يباكرونه ويراوحونه فاذا بكم تنزلون معهم الى ان تطلعوهم
على أموركم ويتوصلوا الى المعرفة باحوالكم فاغتممنا لكم بهذه المسئلة ولا وجدنا عليها صبرا ومن جملة
الامور التى غاظتنا وقلنا كيف يتوصل الرجل البرانى الى أمثال هذه الامور أن على بن محمد كان يتكلم
يوما معنا وأخذ يثنى عليكم فى نجدتكم وصبركم عند الشدة وسخائكم عند الحاجة ثم قال الا ان الخيل ليست
عنده لا فى الحركة الاولى ولا فى الثانية لان القبائل أهل الخيل امتنعوا من الحركة معه وهى التى غاظتنى

وقلت كيف يتوصل الرجل البرانى الى أمثال هذه الامور حتى انما وجدنا الا الرد عليه وعكس ما عرفنا انهم اعتقدوه وقلنا اللهم نسبة التقصير اليكم ولا اعتقادهم خلو البلاد من الخيل لا نافهمنا منهم ذلك ولهذا أجبت وقلت له ان ولد تالم يعطهم شيأ وأعطى من لا يستحق من ضعفاء القواد المعروفين بأكل المال وعدم التحزين ولو أعطى تلك القبائل لحشرها اليه لان أولاد مطاع عندهم من الخيل نحو الثلاثة آلاف وعند أولاد أبى عريز نحو ألف ونصف وعند ... وعند أولاد عمران وعند عبدة وعند الشياظمة وعند أولاد أبى رأس وعند أحمر وعند المنابهة أهل سايس وعند المنابهة أصحاب عمر بن محمد عبو اوجعت أعدله قبائل السوس ... وأحصى له ... وقلت له لو أنصفهم لحزلك منهم معه ستة عشر ألفا أو أكثر ويكون قدملأ بهم تلك البلاد وسال عليها منهم سيل العرم لا فى الحركة الاولى ولا فى الثانية ولو وجه اليهم المحركين والرماة لاتوه أيضا بالاخلاص والى هذا نوصيكم على المحافظة من أولئك الناس ومن رفع الحجاب لهم من أموركم والاطلاع على أحوالكم وعدم الغفلة عن أمثال هذا واعلم أن من جملة ما بلغنا أيضا ان الخلاط وجهوا كلهم رماة على يد مصطفى باشا مع حديث يهددهم بالفساد والخلاف وكنا انتشنا معهم بالاعودات فاذا بهم اليوم بالمدافع وعدة النار وهل هذا مما يجوز عليكم حتى تسمعوا فيه مع أن هذه المسائل ليست بغائبة عنكم سمعتموها بالسماع فقط ولا طويلة عهد حتى تنساها بالامس ... ورأيت فعل الذى أنساك فعلهم ومازال بوجههم الآن لم يبرأ الان خروج القائد ... الآن ما كان الا اليهم والآن نؤكد عليك أن تنقصهم من الخدمة ولا تسمع لمصطفى فى هذه المسئلة وقد سمعنا أيضا أن قواد الفساد الذين عندكم من أولاد حسين قد صارت جلتهم من باب الخنيق الى دار الدبيبغ وكأنكم نسيتم أيضا ما عمل أولاد حسين بالامس دون بعد من النهب وأضرموا من الفساد فى البلاد حتى بتزلوا تلك المنازل والى هذا فساعة وصوله اليكم نقبض على قواد الفساد هؤلاء خصوصا أحمد بن عبد الحق ... يحيى بن غانم الذى كان أبوه حاجبا عند المرينى فهو أصل الفساد ثم لا تترك لقبائلهم جناحا واحدا وزد للقائد مؤمن بن ملوك ألف ريال ليستوفى لكم الغرض فى هؤلاء وأمثالهم من كل ما تأمره به لان بقاء الرماة هنالك ما فيه الا الاشتغال بالفساد فى المدينة فتحتاج ان تتولاهم بالقتل كل يوم باطلا فكان خروجهم اذ ذاك دفعا لمضرتهم وجلبا للصالح بهم وحتى الكاتب اللائق بامثالكم ورسائلكم لم يكن عندكم لان كتبكم تأتى بخط سالم وهو غير عارف بالانشاء وتارة بخط الكرينى وهو جاهل مع انك انما كنت خليفتنا وولى عهدنا كنت بصدد أن يكتب لك كل أحد لا صاحب الجزائر ولا صاحب تونس وحتى صاحب الترك وصاحب النصارى وكل من يكتب لنا من ملوك الارض بصدد أن يكتب لك فتحتاج حينئذ الى من يحسن الجواب عنك لكل من يكتب اليك ويكون أيضا ... يوثق به فى المحافظة على أسراركم والى هذا لابد من تعيين قائد المحلة وحاجب وكاتب سرك ومناسب مشورتك وغير ... المطالم كما هنا هو عندنا السيد على بن سليمان واعلم ان مما تحتاج أن تنتبه عليه مسئلة القواد الذين يريدون أن يعملوا أعمال أولادهم مثل ما فعل فى أولاد القائد بركة واخوتهم الذين استخدمتهم وجعلت لهم خمسمائة أوقية فنؤكد عليك أن لا تستخدم منهم أحدا فما أعطيناه سلا الا ليرفع فيها أولاده واخوته وكذلك الحكم فى أمثاله ممن أعطيناه عملا وقلدناه القيادة ومن جملة من نحذرك من استخدامه فى الرماية أهل الجبال من أهل الصحفة والدينار فلا تستخدموا منهم أحدا والا فاعلموا انكم ما أردتم حينئذ ان يغرموا لكم ولا يعطوكم شيأ وان أردتم الخدمة فها هم أهل هذه البلاد مثل أهل السوس وأهل درعة وأهل مراكش فكل ما تستخدمون من هؤلاء فلا عليكم واذا لم يكن من هؤلاء وكان ولابد من غيرهم ففى أهل فاس سكان الحاضرة وأما من عداهم فلا على أن الرماة أهل السوس ها هى ... كثيرة فكل ما تريد منهم عرفنا نبعثهم لك ونضيفهم الى خدمتك

ونؤكد

ونؤكد عليك أن تكتب بجواب هذه الامور كلها فصلا فصلا مع المملوك الحامل لهذا الكتاب ان شاء الله ولابد ولابد وهذا موجبه اليكم والله يحرس بمنه علاكم والسلام وفي مهل جمادى الاولى من عام احد عشر وألف اه ثم لم يلبث المنصور ان بعث الى ولده زيدان وكان خليفته على تادلا يأمره أن يرسل مائة من الفرسان على طريق تاقبالت وكل من وجدوه قاصد المغرب من ناحية مراكش يردونه وأرسل مولاه مسعود الدورى على طريق سلا يفعل مثل ذلك وخرج المنصور من مراكش في اثنى عشر ألفا أوائل جمادى الاولى سنة احدى عشرة وألف وجد السير فى بعض الأيام قلائل حتى نزل بالدوح موضع قريب من فاس والشيخ في جميع ذلك لاشعور له بخروج أبيه ولا بما هو عليه فبعث بوما عيونه يرصدون له من قدم من مراكش ويكشفون عن الخبر فراعهم الا الاباطح تسيل بأعناق الجياد وأفواه الشعاب تقذف بالجيوش من بطون الاودية والوهاد لانهم كانوا قد عميت عليهم الانباء بقطع المنصور السابلة فرجعوا الى الشيخ مسرعين والرعب يفت فى أعضادهم ويطفئ جذوة عزائمهم فقصوا عليه ما دهمهم وأخبروه بما رأوا فعلم أنه محاط به فلم يمكنه الا الفرار فركب من حينه وفر الى زاوية الشيخ الصالح أبى الشتاء من بلاد فشتالة قرب نهر ورغة وكان الشيخ أبو الشتاء قد توفى قبل ذلك سنة سبع وتسعين وتسعمائة كما فى المرآة فنزل بالزاوية ومعه بطانته وأصحاب دخلته من الاحداث وقرناء السوء فبلغ خبره المنصور فبعث اليه الباشا جوذر امع القائد منصور النبيلي وحلف لهما بأغلظ الأيمان ان لم يأتياه به ليمكرن بهما او يجعلهما عبرة فذهبا اليه فامتنع من الدخول في يدهما وانعزل فى أصحابه حتى ناوشوه القتال وتراموا بالنبال ثم قبضوا عليه وأتوا به الى المنصور وفي خبر طويل فامر به الى مكناسة فسجن بها ودخل المنصور دار الملك من حضرة فاس الجديد وشكر الله على ما أولاه من الظفر والنصر من غير اراقة دم وتصدق فى ذلك باموال عظيمة وكتب بذلك الى ولده أبى فارس خليفته على مراكش يعلمه بما كيف الله له من الظفر والنصر (ونص الكتاب) الى ولدنا الاجل الارضى الاكمل الاسعد الاصعد الامجد الاسمى الاسنى بابا أبى فارس وصل الله كمالكم وسنى بمنه آمالكم وسلام عليكم ورحمة الله وبركاته (وبعد) فكتابنا هذا اليكم أسعدكم الله من محلتنا السعيدة بالمستقر ولا شىء الا ما جرت به الاقدار وحكم به الفاعل المختار وما جاء به من عجائب الدهر الليل والنهار وهى قضية أخيكم التى ثارت الى بها صروف الدهر من مكمنى وطلعت على من مأمنى الا ان الله تعالى بصنعه الجميل كفانا أولا ثم شفانا آخرا فلله الحمد دائما والشكر واظبا وشرح ذلك أسعدكم الله ووقاكم السوء أن الحال كان انتهى فى معالجة أمره الذى تجاوزنا فى وجوه الخير اليه حد الاستقصى وأتينا فى محاولة استصلاحه من أحوال السياسة المرجوة النجح بما لا يحصى الى ما كنا سوغناه من ولاية سجلماسة بخراجها وخراج درعة وأبحناله التوجه اليهما بجملته وجمعه رجاء أن تسكن بالانتباذ اليهما انفرته وتطمئن نفسه ويثوب اليه قلبه الطائر ويراجعه أنسه الحائر فاظهر أولا التوجه اليهما ونهض مرتحلا عن فاس مورياً بالقدوم عليهما ثم بدا له على الحين فكر راجعا الى فاس ورجونا أن يكون قد ذهب عنه النفار والشماس وثاب لنفسه السكون والاستئناس فاذا به قد انطوى برجوعه على خلاف ما أظهر فأبدى ما أضمر فما كان الا ان طرأ عليه خبر نزولنا بالدوح فلم يتمالك ان أقلع ليلة الخميس خامس عشر شهر تاريخه اقلاعا أزعجه من الدار فريدا وطاوت به النفرة الى ان حل بزاوية الشيخ أبى الشتاء وحيدا فتلاحق به من جيش رماته اليكشارية ومتفرقة سماسرة الفتن وطلائع الشؤم والمحن جمع عظيم وعدد من كثرته لا يريم فبادرت حينئذ بتجهيز جوذر باشا من غير اغفال فى خمسمائة صبائحية ومعه القائد مؤمن بن ملوك فى خمسمائة فارس ثم أردفناه ببعوث أخر تألبت اليه وتتابعت عليه تناهز الالفين ورماة بابا زيدان حفظه الله فأحدقت به من كل الجهات وملكوا عليه الفجاج والثنيات ونحن مع ذلك خلال هذه الاحوال لم نهمل مقابلة

درعة وذكرتم أنه غير لا نثق بها وأنكم استصغرتموه عن تلك العمالة فلا شك انه كما ذكرتم ولكن انما اوقع الاختيار عليه لامرين الاول الذمة لانه عياله ولا نخشى ان شاء الله على مالنا الثانى ان خراج درعة سهل معلوم ولعله يكره هذه الولاية ويحب الجلوس بداره ويغرى من يتكلم فيه عندكم فان كان من ذكره لكم مثل مسعود أو تاودى فاتهمه وقد طالعنا فى جريدتكم انكم وجهتم مع زرع المعاصر مائة رام وهذا الذى ذكرتم ما نعلم انا كتبنا لكم عليه قط وانما كتبنا لكم على الزرع تحملونه فى البحر برسم المحلة التى هنا كم بخنق الوادى فان كان هو هذا فنحن أردناه للمحلة وان كان غيره فعرّفنا بقضيته فان زرع المعاصر انما يلزم اليهود والنصارى المكترين للمعاصر وفيها أيضا ما أخبركم به أحمد بن محمد بن موسى بخبر ما سقط من القنطرة وانكم عنفتموه على عدم المبادرة وقد أشكل علينا الامر لانكم لم تعرّفوا مقامنا بالساقط هل هو من القديم أو من هذا الاصلاح الذى أمرنا به فعرّفنا لنكون على بصيرة من ذلك وفيها أيضا مسئلة أولاد طلحة فدبروا عليهم اما من عند ايسى أو غيره حتى لا يرجعون الينا شاكين وولد ابراهيم بن الحداد الى الآن لم يصل وزمام الاسرى وصل وأما الدراقة التى ذكرتم فها السلنة المعدّة لها عند صاحب بيت ثيابنا فوجه ليوسف العبد حتى تكلمه ومره يخرجها من عنده وركبها فى موضعها ولا تركب التى عندكم بل تمسكونها لانفسكم واعلم انى تركت عند أولئك المعلمين أعنى معلمى بركاضو اسلاتى برسم ابنتنا العزيزة طاهرة صانها الله وكلاها وحيث يفرغون من الدراقة اجمعهم عليها كى نجد ذلك طالعا ان شاء الله فانا قد أمرنا بنسج درارق تلكم السلاتى هذا والمراد ان نجد السلاتى قد فرغ منها ان شاء الله وقصر الخيل مع الجام حوض المعلمين على المبادرة باشتغالهما بهما وحاول أن تسقفوا ذلك البلاط الذى يوالى سور القصبة من قدم الخيل والقبة التى فيه لنجده كاملا ان شاء الله عند قدومنا اليكم وحتى سوارى الرخام ركبوها فى تلك الجهة اذا سقفتم ولا تزالوا تعرّفوننا بما تزايد من الاشغال فى الموضعين المذكورين وأوصيكم أعزكم الله أن تتفقدوا فرسنا الاحمر الصغير ولا تتركوهم يعطونه القصيل لئلا يكثر لحمه ويزداد ألمه بل انظروا له من يركبه كل يوم بل لا تنزع السرج بالكلية عن ظهره بياض النهار كله أو أعطوه لصاحب المسرّة يركبه فى ذهابه وايابه لداره والمسرة وأوصوه أن لا يركبه غيره ولا ينزل عن ظهره النهار كله وأوصيكم أيضا اذا ظهر المرض بتلكم الناحية وخرجتم خروج يمن وسلامة بحول الله وقوته أن لا تتركوا وراءكم بنت عمكم والدة ولدنا العزيز بابا عبد الملك حفظه الله وأمر يوسف العبد أن يخرج لكم من عند صاحب بيت الثياب القدر المحتاج اليه من الترياق الجديد الذى كان بقبة المشور ويدخل على أيديكم لدارنا واستدعوا أم المال قهرمانة الدار واعطها اياه برسم أهل دارنا وأمرها أن تعطيهم اياه فى كل رابع من اليوم الذى يأكلونه فيه وهى أيضا تأكل منه والعبد يوسف أيضا يأكل منه وحتى صاحب السقيف أعطوه منه أعنى مسعود ابن مبارك والله سبحانه يرعاكم ويتولى حفظكم أنتم وأولادكم وقد استودعناكم الله الذى لا تضيع لديه الودائع وأنتم فى أمان الله وحفظه والله سبحانه خليفتى عليكم أنتم فى عين الرحمن وكلتا يديه يمين والسلام الاتم عائد عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ونسلم على ولدنا الاعز الارضى بابا عبد الملك وعلى ابنتنا الرضية سيدة الملك ونحن فى غاية الاشتياق والتوحش لها جمع الله بكم الشمل جميعا آمين بحرمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله خير آل والسلام اهـ ﴿قال مؤلفه عفا الله عنه﴾ قد وقع فى كلام المنصور رحمه الله أمران يحتاجان الى التنبيه عليهما الاول اذنه لولده أبى فارس فى الخروج من مراكش اذا ظهر بها أثر الوباء ولو شيأ يسيرا وهذا الامر محظور فى الشرع كما هو معلوم ومصرح به فى الاحاديث والثانى أمره اياه أن لا يقرأ البطائق الواردة عليه من السوس وانما يتولى قراءتها كاتبه بعد أن تغمس فى الخل وهذا عمل من أعمال الفرنج ومن يسلك طريقهم فى تحفظهم من الوباء المسمى عندهم بالكرنتينة وقد اتفق لى فيها كلام أذكره هنا تتميما للفائدة وذلك انه لما كانت سنة ست وتسعين ومائتين وألف عرض لنا

سفر

سفر الى حضرة السلطان المولى أبى على الحسن بن محمد الشريف أيده الله عز وجل بمراكش المحروسة بالله فخرجنا من سلا أواخر ربيع الاول من السنة المذكورة ومررنا فى طريقنا على المحب القائد الانبل أبى عبد الله محمد بن ادريس الجرارى بثغر الجديدة وهو يومئذ متول لعملها فأجل قدومنا على عادته حفظه الله فى محبة العلم ومن ينتمى اليه وحضر معنا عنده بعض فقهاء الوقت وكانت السنة سنة وباء فجرت المذاكرة فيما يستعمله النصارى فى أمر الكرنتينة من حبس المسافرين وشدّ الافاق عن المرور بالسبل والدخول الى الامصار والقرى ومنع الناس من مرافقهم وأسباب معاشهم وحصل التوقف تلك الساعة فى حكمها الشرعى ماذا يكون لو أجريت على قواعد الفقه ثم بعد ذلك بنحو ثلاثة أشهر وقفت على رحلة العلامة الشيخ رفاعة الطهطاوى المصرى فى أخبار باريز فرأيته ذكر فى صدرها انه وقعت المحاورة بين العلامة الشيخ أبى عبد الله محمد المناعى التونسى المالكى المدرس بجامع الزيتونة ومفتى الحنفية بها العلامة الشيخ أبى عبد الله محمد البيرم فى اباحة الكرنتينة وحظرها فقال المالكى بحرمتها وألف فى ذلك رسالة واعتماده فى الاستدلال فيها على ان الكرنتينة من جملة الفرار من القضاء وقال الحنفى باباحتها واستدل على ذلك من الكتاب والسنة أيضا فلما وقفت على هذا الكلام تجدد لى النظر فى حكم هذه الكرنتينة وظهر لى ان القول باباحتها أو حرمتها منظور فيه الى ما اشتملت عليه من مصلحة ومفسدة ولو مرسلة على ماهو المعروف من مذهب مالك رحمه الله ثم يوازن بينهما وأيهما رجحت على الاخرى عمل عليها فان استويا كان درء المفسدة مقدما على جلب المصلحة كما هو معلوم فى أصول الفقه ونحن اذا أمعنا النظر فى هذه الكرنتينة وجدناها تشتمل على مصلحة وعلى مفسدة ﴿أما المصلحة﴾ فهى سلامة أهل البلد المستعملين لها من ضرر الوباء وهذه المصلحة كما ترى غير محققة بل ولا مظنونة لانه ليست السلامة مقرونة بها كما يزعمون وانه مهما استعملها أهل قطر أو بلد الا ويسلمون لا دائما ولا غالبا بل الكثير أو الاكثر انهم يستعملونها ويبالغون فى اقامة قوانينها ثم يصيبهم ما فرّوا منه كما هو مشاهد ومن زعم ان السلامة مقرونة بها دائما أو غالبا فعليه البيان اذ البينة على المدّعى فنتج من هذا ان مصلحة الكرنتينة مشكوكة أو معدومة واذا كانت كذلك فلا يلتفت اليها شرعا بل ولا طبعا لانها حينئذ من قبيل العبث ﴿وأما المفسدة﴾ فهى دنيوية ودينية أما الدنيوية فهى الاضرار بالتجار وسائر المسافرين الى الاقطار بحبسهم وتعويقهم عن أغراضهم وتعطيل مرافقهم على أبلغ الوجوه وأقبحها كما هو معلوم وأما الدينية فهى تشويش عقائد عوام المؤمنين والقدح فى توكلهم وايهام ان ذلك دافع لقضاء الله تعالى وعاصم منه وناهيك بهما مفسدتين محققتين ترتكبان لشئ يكون أو لا يكون فان العامة لقصور أفهامهم قد تذهب أوهامهم مع هذه الظواهر فيقفون معها ويقعون فى ورطة ضعف الايمان عياذا بالله ﴿فان قلت﴾ هذا الكلام فيه ميل الى سوء الظن بالعامة وهم جمهور الامة ﴿قلت﴾ ليس فيه ميل الى سوء الظن بهم وانما فيه تقرير الخوف عليهم والاحتياط لهم حتى لا نتركهم هملا يفعلون ما شاؤا أو يفعل بهم ما يضرهم فى دينهم ودنياهم مع أن سد الذريعة قاعدة من قواعد الشرع لا سيما فى المذهب المالكى ولامر ما جاءت الشريعة المطهرة ممتلئة من التحذيرات من مكامن هذه المفاسد ونحوها وردّ الاسباب والمسببات كلها الى الله تعالى مع ما فى استعمال هذه الكرنتينة من الاقتداء بالاعاجم والتزيى بزى الكفرة الضلال ورمقهم بعين التعظيم ونسبتهم الى الاصابة والحكمة كما قد يصرح به الحمقى من العوام فاما اذا وافق قدر بالسلامة عند استعمالها فهى الفتنة والعياذ بالله فاى مفسدة أقبح من هذه فالحاصل أن الكرنتينة اشتملت على مفاسد كل منها محقق فتعين القول بحرمتها وجلب النصوص الشاهدة لذلك من الشريعة لا تعوز البصير وقد ذكر العلامة الحافظ القسطلانى فى تفسير سورة النساء من الجامع الصحيح عند قوله تعالى ولا جناح عليكم ان كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن

تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم مانصه دل ذلك على وجوب الحذر من جميع المضار المظنونة ومن ثم علم أن العلاج بالدواء والاحتراز عن الوباء والتحرز عن الجلوس تحت الجدار المائل واجب اﻫ وهو يقتضى بظاهره أن الاحتراز عن الوباء واجب باى وجه كان ولا يخفى انه يتعين تقييده بالوجه الذى ليس فيه مفسدة شرعية كعدم القدوم على الارض التى بها الوباء ونحو ذلك مما وردت به السنة ولا تأباه قواعد الشريعة كبعض العلاجات المستعملة فى ابانه المنقولة عن أئمة الطب اما بالوجه الذى يشتمل على مفسدة أومفاسد كهذه الكرنتينة فلا هذا ما تحرر لنا فى هذه المسئلة والله أعلم ولما وقف على هذا الكلام أخونا فى الله الفقيه العلامة الاستاذ أبو محمد عبد الله بن الهاشمى بن خضراء السلاوى وهو اليوم قاضى حضرة مراكش كتب الى بمانصه وأما حكم الكرنتينة فهو ماذكرتم من الحظر وبه أقول لما فيه من الفرار من القضاء مع المفاسد العظيمة التى لا تفى بها مصلحتها على فرض تحققها أو غلبة ظن حصولها سيما وقد انتفيا بعد التجربة المتكررة فى الجهات المتعددة ولا يخالف فى هذا الحكم الا مكابر متبع للهوى فماذا بعد الحق الا الضلال ثم جلب حفظه الله من النصوص ما يشهد لذلك تركناها اختصارا والله تعالى الموفق بمنه

## ﴿وفاة المنصور رحمه الله﴾

كان المنصور رحمه الله بعد فراغه من قضية ابنه المأمون قد عزم على الرجوع الى مراكش فلما بلغه ظهور الوباء بتلك الناحية تربص الى ان دخلت سنة اثنتى عشرة وألف فانتشر الوباء فى بلاد الغرب أيضا فكان مصاب المنصور به على ما نذكره ﴿قال صاحب الاصليت﴾ وهو الفقيه أبو العباس أحمد بن عبد الله السجلماسى المعروف بأبى محلى كنا نسمع أن السلطان المنصور اذا خرج من مراكش قاصدا مدينة فاس لا يرجع الى مراكش وذاع هذا الخبر فى الناس قبل نزوله فكان الامر كذلك ثم لا أدرى من أين للناس بذلك هل أنطقهم الله به أو عن علم تلقوه عن أربابه وكأنه الاشبه والله أعلم قال ومن هذا ما ذكره بعضهم أيضا لكن بعد الوقوع والنزول ان دخول رايات أبى العباس المنصور فى حياته للسودان واستيلاءه على سلطانها سكية فى دار امارته كاغو مع تنبكتو وأعمالها كل ذلك من امارات خروج الامام المهدى الفاطمى وكذلك الوباء المنتشر فى هذه الاعوام وكثرة الهرج والغلاء فى سائر البلاد حتى الآن وبقى من امارات خروجه فيما نسمع فتح وهران اما على يده أو باذنه فيما يقوله من لا علم عنده بحقيقة الامر اﻫ وكان ابتداء مرض المنصور بمحلته خارج فاس الجديد قرب سيدى عميرة يوم الاربعاء حادى عشر ربيع النبوى سنة اثنتى عشرة وألف ودخل الى داره بالمدينة البيضاء عشية ذلك اليوم واحتمل بها بعد الغروب وتوفى هنالك ليلة الاثنين الموالى لتاريخه ودفن بازاء مقصورة الجامع الاعظم هنالك ضحوة يوم الاثنين المذكور وحضر جنازته ولده زيدان وقدم للصلاة عليه مفتى فاس وخطيب جامع القرويين بها الفقيه أبو عبد الله محمد بن قاسم القصار ﴿قال اليفرنى﴾ كانت وفاة المنصور بالوباء ﴿وقال الشيخ﴾ أبو محمد عبد الله بن يعقوب السملالى فى شرحه لجامع شامل بهرام كان بالمغرب وباء استطال به من سنة سبع الى سنة ست عشرة وألف وعم سهل المغرب وجبله حتى أفنى أكثر الخلق ومات به جمع من الاعيان وبه مات السلطان أبو العباس أحمد المنصور رحمه الله ونحوه ذكره صاحب الفوائد وغيره ﴿قال اليفرنى﴾ وبه تعلم أن ما شاع على الالسنة من ان المنصور سمه ولده زيدان باشارة من أمه الشبانية فى باكور أوائل ظهوره وقطع عنه الاطباء الى ان هلك وان المنصور لما أحس بذلك قال استعجلتها يا زيدان لا هنأك الله بها أو كلاما هذا معناه قالوا وبسبب ذلك لم تنتصر لزيدان راية فانه انهزم فى زهاء سبع وعشرين معركة كله كذب لا أصل له لان المنصور طعن بالوباء ولم يذكر أحد ممن يوثق به

ماشاع على ألسنة العامة وأضرابهم من الطلبة اهـ ثم نقل المنصور رحمه الله بعد دفنه الى مراكش فدفن بها فى قبور الاشراف قبلى جامع المنصور من القصبة وقبره هنالك شهير عليه بناء حفيل ومما نقش على رخامة قبره هذه الابيات

هذا ضريح من غدت * به المعالى تفتخر
أحمد منصور اللوا * لكل مجد مبتكر
يارحمة الله اسرعى * بكل نعمى تستمر
وباكرى الرمس عبا * ء من رضاه منهمر
وطيبى ثراه من * ند كذكره العطر
وافق تاريخ الوفا * ة دون تفنيد ذكر
مقعد صدق داره * عند مليك مقتدر

## ﴿ بقية أخبار المنصور و بعض سيرته ﴾

كان المنصور رحمه الله حسن السياسة حازما يقظا مشاورا فى مهمات الامور وكان قد اتخذ يوم الاربعاء للمشورة وسماه يوم الديوان تجتمع فيه وجوه الدولة ويتطارحون فيه وجوه الرأى فيما ينوب من جلائل الامور وعظيم النوازل وهنالك يظهر شكايته من لم يجد سبيلا للوصول الى السلطان قالوا ومن حزمه انه كان متطلعا لاخبار النواحى بحاثا عنها غير متراخ فى قراءة مايرد عليه من رسائل عماله ولا يبطئ بالجواب ويقول كل شئ يقبل التأخير الا مجاوبة العمال عن رسائلهم وكان الكتاب لا يفارقون مراكزهم الا فى أوقات مخصوصة ﴿قال الفشتالى﴾ ولقد كنا بالباب يوما يعنى معشر الكتاب قبل ان يخرج المنصور فورد النذير على الكاتب أبى عبد الله محمد بن على الفشتالى بان ولد اله فى النزع فلم يملك نفسه ان ذهب الى داره فخرج المنصور على أثره فسأل عنه فقيل انه ذهب الى داره فاستشاط غضبا وبعث اليه فجىء به منزعجا وما شككنا فى عقوبته فلما مثل بين يديه قال له ما الذى ذهب بك فذكر له أمر ولده وانه اشتد به المرض ولم ينجع فيه دواء طبيب فرق له وقال ان أمراض الصبيان قلما ينجع فيها الا طب العجائز ولا كعجائز دارنا فابعث من يسألهن ومن حزمه انه اخترع أشكالا من الخط على عدد حروف المعجم وكان يكتب بها فيما يريد ألا يطلع عليه أحد يمزج فيها الخط المتعارف فيصير الكتاب مغلقا فاذا سقط ووقع فى يد عدو أو غيره لايدرى مافيه ولا يعرف معنى ما اشتمل عليه فكان اذا جهز أحد أولاده ناوله خطا من تلك الخطوط يفك بها رسائله اليه ويكتب عنوانه كذلك ومن ضبطه أنه تعلم الخط المشرقى فكان يكاتب به علماء المشرق كتابة كأحسن مايوجد فى خط المشارقة ومما وقع له فى ذلك انه بعث بطاقة بخط يده على طريقة أهل المشرق لكاتبه أبى عبد الله ابن عيسى يستدعى منه كتابا فبعثه ابن عيسى اليه وبعث معه بهذين البيتين

سقتنى كؤس السرور دهاقا * خطوط أتتنى فى مهرق
رأت كف أحمد فى الغرب بحرا * فجاءت اليه من المشرق

وكان المنصور على ماهو عليه من ضخامة الملك وسعة الخراج يوظف على الرعية أموالا طائلة يلزمهم بأدائها وزاد الامر على ما كان عليه فى عهد أبيه حسبما مر وكانت الرعية تشتكى ذلك منه ونالها اجحاف منه ومن عماله وكان غير متوقف فى الدماء ولا هياب للوقيعة فيها ﴿قال اليفرنى﴾ وتتبع ماوقع فى ذلك يناقض المقصود من الاغضاء عن العورات والستر على الفضائح وقد ألمعنا لك بما يكون دالا على ماوراءه ﴿وذكر﴾ أن بعض عمال المنصور عدى على امرأة من دكالة فأخذ منها أموالا فقدمت المرأة على المنصور

عراكش تشكوله مانالها من عامله فلم يشكها ولا كشف ظلامتها فخرجت الى أولادها بالباب وقالت لهم انصرفوا فاني كنت أظن ان رأس العين صافية فاذا بها مكدرة فلذا تكدرت مصارفها ﴿ويحكى﴾ ان الفقيه القاضي أبا مالك عبد الواحد الحميدي قد سافر في جمع من فقهاء فاس وأعيانها الى مراكش بقصد العيد مع المنصور كما هي العادة فمروا في طريقهم على جماعة رجال ونساء قد سلكوا في سلسلة واحدة وفيهم امرأة قد أخذها الطلق وهي في كرب المخاض فرأوا من ذلك ما أهمهم وأحزنهم فبقي ذلك في نفس القاضي فلما جلس الى المنصور ذكره له وأظهر الشكاية منه فسكت المنصور عن جوابه وهجره على ذلك أياما ثم ان القاضي تلطف في القول وأظهر التوبة مما صدر منه وعدها بادرة فقال له المنصور لولا ما رأيت ما أمكنك أن تجيء مع أصحابك مسيرة عشرة أيام في أمن ودعة فان أهل المغرب مجانين مارستانهم هي السلاسل والاغلال ولقد وفد القاضي المذكور على المنصور في بعض المواسم مع الفقهاء فلما انصرفوا من الحضرة جمعتهم الطريق بأرباب الموسيقا وأصحاب الاغاني من أهل فاس وقد كانوا وفدوا أيضا على المنصور على سبيل العادة فاخرج بعضهم شبابة من الابريز مرصعة أعطاه اياها المنصور وبعضهم قال أعطاني كذا وقال الآخر أجازني بكذا ما لم يعط مثله للقاضي وشيعته من الفقهاء فقال القاضي لئن بلغت فاسا لاردن أولادي الى صنعة الموسيقا فان صنعة العلم كاسدة ولولا أن الموسيقا هي العلم العزيز ما رجعنا مخفقين ورجع المغني بشبابة الابريز فنقل الى المنصور هذا الكلام فلذعه عليه بيسير من الملام ﴿وذكر أبو زيد في الفوائد ماصورته﴾ عدا محمد الكبير خال المنصور على رجل بدرعة في ضيعة له فشكاه الى المنصور فقال له كم تساوي ضيعتك قال سبعمائة أوقية قال خذها وقل لخالي الموعد بيني وبينك الموقف الذي لا أكون أنا فيه سلطانا ولا أنت خال السلطان فرجع صاحب الضيعة وأبلغ الى العامل كلام المنصور فامسك برأسه ساعة ثم قال له الحق بضيعتك وغرم له كل ما أكل منها اهـ ﴿وقال في المناهل﴾ كان للمنصور مصانع اخترعها وما ثر خلفها منها المعقلان الكبيران اللذان أنشأهما بفاس أحدهما خارج باب عجيسة والآخر قبالته بباب الفتوح وهذان المعقلان يعرفان عند العامة بالبستيون وهما من الاتقان بحيث لا يعرف قدرهما الا من وقف عليهما وكان الشروع في بنائهما يوم الاثنين الثاني والعشرين من ربيع الاول سنة تسعين وتسعمائة ومن ذلك الحصنان اللذان بناهما بثغر العرائش أحدهما يعرف بحصن الفتح وهما أيضا في نهاية الوثاقة والحسن ومن ذلك معاصر السكر فانه أحدثها بمراكش وبلاد حاحة وشوشاوة ﴿قال العشتالي﴾ وكان ابتدأ ذلك والده أبو عبد الله الشيخ فكثر السكر في أيامه بالبلاد المغربية حتى لم تكن له قيمة وقد تقدم أنه كان يشتري الرخام من النصارى بالسكر ومن ماثره البيلة العظمى مع كرسيها من المرمر بجامع القرويين تحت منار الجامع المذكور وقد تقدم الخبر عنها ﴿وقال ابن القاضي في المنتقى المقصور﴾ ان اللباس المسمى بالمنصورية وهو لباس من الملف لم يكن مستعملا قبله وهو أول من اخترعه وأضيف اليه فقيل المنصورية اهـ وكان في مدة المنصور من الاحداث انه ﴿في سنة سبع وثمانين وتسعمائة﴾ وقع غلاء عظيم بالمغرب حتى عرف ذلك العام بعام البقول ﴿وقال في المرآة﴾ لما انتهب الناس غنيمة وادي المخازن كان الناس يتوقعون مغبتها لاختلاط الاموال بالحرام فظهر أثر ذلك من غلاء وغيره وكنا نسمع ان البركة رفعت من الاموال من يومئذ ﴿وفي هذه السنة أيضا﴾ أصاب الناس في بعض فصولها سعال كثير قل من سلم منه وكان الرجل لا يزال يسعل الى ان تفيض نفسه فسمي العامة تلك السنة سنة كحيكحة ﴿وفي سنة احدى وتسعين وتسعمائة﴾ توفي الشيخ العارف بالله تعالى الكبير الشان أبو النعيم رضوان بن عبد الله الجنوي نسبة الى جنوة من بلاد الفرنج كان أبوه نصرانيا وأمه يهودية وسبب اسلام والده ما حكاه أبو العباس الاندلسي في رحلته انه كان له فرس ببلده جنوة فانطلق ليلا ودخل الكنيسة العظمى وراث فيها من غير ان يشعر بذلك أحد من السدنة ولا غيرهم

ثم بادر باخراج الفرس ولما أصبح أهل الكنيسة ورأوا الروث قالوا ان المسيح جاء البارحة على فرسه الى الكنيسة وراث فيها فاهتز البلد لذلك وتنافس النصارى فى شراء ذلك الروث حتى بيع قدر الذرة منه بمال جزيل فعلم أن النصارى على ضلال وهاجر الى بلاد الاسلام فنزل برباط الفتح من أرض سلا فوجد هنالك امرأة يهودية فتزوجها وولدت له الشيخ أبا النعيم فنشأ مثلا فى العلم والولاية ومحبة النبى صلى الله عليه وسلم ﴿وكان رضى الله عنه يقول﴾ خرجت من بين فرث ودم أخذ الطريقة عن أبى محمد الغزوانى وقدم عليه مراكش ثم عاد الى فاس فمات بها فى السنة المذكورة ودفن خارج باب الفتوح ﴿وفى سنة خمس وتسعين وتسعمائة﴾ توفى الشيخ العلامة الامام أبو العباس أحمد بن على المنجور كان متبحرا فى العلوم خصوصا أصول الفقه أخذ عن اليسيتنى وأبى زيد سقين العاصمى وأبى الحسن بن هرون وأبى مالك الوانشريسى وغيرهم ﴿وفى سنة سبع وتسعين وتسعمائة﴾ توفى الشيخ أبو الشتاء الشاوى دفين جبل آمركو امن بلاد فشتالة ويقال اسمه محمد بن موسى وكنى بابى الشتاء لان الناس قحطوا ولجؤا اليه فسقوا فى الحين وهو من أصحاب الشيخ الغزوانى ويقال ما لقيه الاامرأة بقبيلتها الشاوية فعينه ومكنه فهام على وجهه وكان من أمره ما كان ﴿وفى ثامن عشر ربيع الثانى سنة ثلاث وألف﴾ توفى القاضى أبو محمد عبد الواحد بن أحمد الحميدى ودفن بروضة الشيخ أبى زيد الهزميرى خارج باب محمودة من عدوة فاس الاندلس وقد تقدمت بعض أخباره ﴿وفى سنة أربع وألف﴾ توفى الشيخ أبو الحسن على بن منصور البوزيدى المعروف بأبى الشكاوى دفين شالة وبها كان سكناه أخذ عن الشيخ المجذوب وأبى الرواين المحجوب وغيرهما وأولاده ينتسبون الى عيسى بن ادريس الحسنى دفين آيت عتاب والله تعالى أعلم ﴿وفى سنة ست وألف﴾ توفى الشيخ الربانى أبو عبد الله محمد بن مبارك الزعرى دفين تاستاوت من مشاهير الاولياء كان أول نشأته بمكاسة الزيتون ثم خرج الى البادية بعد ان صعبت عليه القراءة ورأى النبى صلى الله عليه وسلم فقال له انك لن تقرأ ولكنك شيخ فخرج الى البادية وكان يظن أنه يكون من أشياخ القبائل حتى هبت عليه نفحة رحمانية فقدم مراكش وأخذ عن الشيخ أبى عمرو القسطلى ورجع الى باديته فبنى مسجدا فى الموضع الذى عين له شيخه لسكناه فيقال انه لما قيل له جعلت محرابه منحرفا عن القبلة أشار بيده الى جهة مكة فتزحزحت الجبال حتى شاهد الحاضرون مكة والله على كل شئ قدير وكان الشيخ أبو عبد الله محمد الشرقى معاصرا له فقيل له ان الشيخ ابن مبارك قال أهل زماننا محسوبون علينا فقال اشهدوا انا من أهل زمان ابن مبارك ﴿وفى هذه السنة أيضا﴾ كان الطاعون العظيم بمراكش وغيرها بحيث عم تلول المغرب واستطال فيها وماتت به جمع من الاعيان منهم الشيخ ابن مبارك المذكور ﴿وفى سنة تسع وألف﴾ فى جمادى الآخرة منها كان سيل عظيم بفاس ثم فى شعبان من السنة المذكورة كان سيل أعظم من الاول تهدمت منه الدور والحوانيت وتهدم سد الوادى بفاس على وثاقته واحكامه وهذا السد هو الذى كان جدده السلطان أبو العباس أحمد الوطاسى ثم جدده المنصور فى هذه المرة من أحباس القرويين ﴿وفى سنة عشر وألف﴾ توفى الشيخ العارف بالله الربانى أبو عبد الله ويقال أبو عبيد محمد الشرقى ابن الولى الصالح أبى القاسم الزعرى الجابرى ثم الرئمى هكذا نسبه صاحب المرآة وغيره ورفع أبو على المعدانى فى كتابه الروض الفائح نسبه الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ثم نقل عن حفيده العارف بالله تعالى أبى عبد الله محمد الصالح ابن المعطى مانصه ان الشيخ سيدى محمد الشرقى لم توجد هذه النسبة العمرية بخطه فيما اعثرنا عليه أما بنو أخيه وبنوه وحفدته فقد وجدت بخط الثقة منهم وتواترنقلها عنهم وكتبت فى اجازاتهم وكذا فى عقد نكاتهم اه وهذا الشيخ أعنى أبا عبد الله الشرقى كان من أكابر أهل وقته يقال انه بلغ درجة القطبانية وتخرج به جماعة من الاولياء وبعث اليه المنصور جماعة يختبرونه فظهرت لهم كراماته واتفقت له مع الشيخ المنجور كرامة حملته على ان وفد عليه زائرا ومدحه بقصيدة ذكر بعضها

﴿وفى نشر المثانى﴾ عن الشيخ أبا عبد الله المسناوى فى نسب الشيخ المذكور السميرى وهكذا بلفظ التصغير قال وأولاد سمير بالتصغير ينتسبون الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وفى تقييد المؤلف الممتع مانصه هو من بنى جابر ثم من ورديغة ثم من الرغة ثم من أولاد بحر ثم من أولاد سمير وكلهم ينتسبون الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه

اليفرني في الصفوة وله مع أبي المحاسن الفاسي مراسلات ومواصلات ووقع بينهما كلام طويل انظر ابتهاج القلوب أخذ رضي الله عنه عن والده عن الشيخ التباع واعتمد على الشيخ الكبير أبي عبد الله محمد ابن عمر والمختاري من أحواز مكناسة وأخذ أيضا عن ابن مبارك الزعري وأبي محمد بن ساسي وتوفي أوائل المحرم من السنة المذكورة ودفن بجعيدان وقبره شهير نفعنا الله به وبسائر أهل الله

## ﴿الخبر عن دولة السلطان أبي المعالي زيدان بن أحمد المنصور رحمه الله تعالى﴾

لما توفي المنصور رحمه الله وفرغ الناس من دفنه اجتمع أهل الحل والعقد من أعيان فاس وكبرائها والجمهور من جيش المنصور على بيعة ولده زيدان وقالوا ان المنصور استخلفه في حياته ومات في حجره وكان ممن تصدى لذلك القاضيان قاضي الجماعة بفاس أبو القاسم بن أبي النعيم والقاضي أبو الحسن علي ابن عمران السلاسي والاستاذ أبو عبد الله محمد الشاوي والشيخ النظار أبو عبد الله محمد بن قاسم القصار وغيرهم ﴿ويحكى﴾ أن القاضي ابن أبي النعيم قام في الناس خطيبا وقال أما بعد السلام عليكم فان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما مات اجتمع الناس على أبي بكر رضي الله عنه ونحن قد مات مولانا أحمد وهذا ولده مولانا زيدان أولى بالملك من اخوته فبايعه الحاضرون يوم الاثنين السادس عشر من ربيع الاول سنة اثنتي عشرة وألف قالوا وكان زيدان لما توفي والده كتم موته وبعث جماعة للقبض على أخيه الشيخ المسجون بمكناسة فمنعهم من ذلك الباشا جوذر كبير جيش الاندلس وحمل الشيخ موثقا الى مراكش حتى دفعه الى أخيه أبي فارس وكان شقيقا له فلم يزل مسجونا عنده الى ان كان من أمره ما يأتي كذا قال بعضهم ﴿وقال في شرح زهرة الشماريخ﴾ ان زيدان لما اشتغل بدفن والده احتال القائد أبو العباس أحمد ابن منصور العلج فذهب بنصف المحلة الى مراكش نازعا عن زيدان الى أبي فارس ومر في طريقه بمكناسة فاخرج الشيخ من اعتقاله واحتمله معه الى أبي فارس فسجنه فلم يزل مسجونا عنده الى ان كان من أمره ما نذكره والله تعالى أعلم

## ﴿انحراف أهل مراكش عن طاعة زيدان وبيعتهم لابي فارس وما نشأ عن ذلك من الفتنة﴾

كان المنصور رحمه الله قد فرق عمالات المغرب على أولاده كما مر فاستعمل الشيخ على فاس والغرب وولاه عهده واستعمل زيدان على تادلا وأعمالها واستخلف عند نهوضه الى فاس ابنه أبا فارس على مراكش وأعمالها وكان يكاتبه بما مر بعضه من الرسائل فلما اتصل باهل مراكش وفاة المنصور وكتب اليهم أهل فاس بمبايعتهم لزيدان امتنعوا وبايعوا أبا فارس لكونه خليفة أبيه بدار ملكه التي هي مراكش ولان جل الخاصة من حاشية أبيه كان يميل الى أبي فارس لان زيدان كان منتبذا عنهم بتادلا سائر أيام أبيه فلم يكن لهم به كثير المام ولا مزيد استئناس مع انه كان جديرا بالامر لعلمه وأدبه وكمال مروءته رحمه الله الا ان السعد لم يساعده وقد قيل في المثل قديما قاتل بسعد والا فدع ولما شق أهل مراكش العصا على زيدان كثر في ذلك القيل والقال حتى صدرت فتوى من قاضي فاس ابن أبي النعيم ومفتيها أبي عبد الله القصار تتضمن التصريح بحديث اذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما وكانت بيعة أبي فارس بمراكش يوم الجمعة أواخر ربيع الاول من سنة اثنتي عشرة وألف وهو شقيق الشيخ المأمون أمهما أم ولد اسمها الجوهر ويقال الخيزران واسم أبي فارس هذا عبد الله وتلقب بالواثق بالله وكان أكولا عظيم البطن مصابا بمس الجن ويقال انه لذلك ابتنى المسجد الجامع بجوار ضريح الشيخ أبي العباس السبتي وشيد مناره وشحن الخزانة التي بقبلي الجامع المذكور بمنتخب الكتب ونفيس الدفاتر كل ذلك رجاء أن تعود عليه بركة ذلك الشيخ بالبرء من تلك العلة وكان مع ذلك يميل الى المروءة والرفق وحسن السيرة رحمه الله

(نهوض

## ﴿نهوض السلطان زيدان لحرب أبي فارس وانهزامه بام ربيع ثم فراره الى تلمسان﴾

لما بايع أهل مراكش أبا فارس بن المنصور عزم زيدان على النهوض اليه فخرج من فاس يؤم بلاد الحوز واتصل الخبر بابي فارس فجهز لقتاله جيشا كثيفا وأمر عليهم ولده عبد الملك الى نظرة الباشا جوذر فقيل له ان زيدان رجل شجاع عارف بمكائد الحرب وخدعه وولدك عبد الملك لا يقدر على مقاومته فلو سرحت أخاك الشيخ لقتاله كان أقرب للرأي لان أهل الغرب لا يقاتلونه لانه كان خليفة عليهم مدة فهم آنس به من زيدان فاطلق أبو فارس أخاه المأمون من ثقاف السجن وأخذ عليه العهود والمواثيق على النصح والطاعة وعدم شق العصا ثم سرحه في ستمائة من جيش المتفرقة الذين كان المنصور جمعهم ليبعثهم الى كاغو من أعمال السودان وقال له ولاصحابه جدوا السير الليلة كي تصبحوا بمحلة جوذر على وادي أم الربيع فلما انتهى الشيخ الى المحلة المذكورة وعلم الناس به أهرعوا اليه واستبشروا بمقدمه ثم كانت الملاقاة بينه وبين السلطان زيدان بموضع يقال له حواتة عند أم ربيع ففر عن زيدان أكثر جيشه الى المأمون وحنوا الى سالف عهده وقديم صحبته فانهزم زيدان لذلك ورجع ادراجه الى فاس فتحصن بها وكان أبو فارس قد تقدم الى أصحابه في القبض على الشيخ متى وقعت الهزيمة على زيدان فلما فر زيدان انعزل الشيخ فيمن انضم اليه من جيش أهل الغرب وامتنع على أصحاب أبي فارس فلم يقدروا منه على شئ وانتعش أمره واشتدت شوكته ثم سار الى فاس يقفو أثر السلطان زيدان ولما اتصل بزيدان خبر مجيئه اليه راود أهل فاس على القيام معه في الحصار والذب عنه والوفاء بطاعته التي هي مقتضى بيعتهم التي أعطوا بها صفقتهم عن رضى منهم فامتنعوا عليه وقلبوا له ظهر المجن وأعلنوا بنصر الشيخ وبيعته لقديم صحبتهم له ولما أيس زيدان من نصرهم وقد أرهقه الشيخ في جموعه خرج من فاس بحشمه وثقله ناجيا بنفسه وتبعه جمع عظيم من أصحاب الشيخ فلم يقدروا منه على شئ وذهب الى تلمسان فاقام بها الى ان كان من أمره ما نذكره وأما الشيخ فانه لما وصل الى فاس تلقاه أهلها ذكورا واناثا وأظهروا الفرح بمقدمه فدخلها ودعا لنفسه فاجيب واستبد بملكها ثم أمر جيش أهل مراكش أن يرجعوا الى بلادهم فانقلبوا الى صاحبهم مخفقين وكان الشيخ لما تم غرضه من الاستبداد بالامر والانفراد بالسلطنة دعا بالشيخين الفقيهين قاضي الجماعة أبي القاسم بن أبي النعيم ومفتيها أبي عبد الله محمد ابن قاسم القصار فلامهما على مبايعة زيدان وقولهما فيه وفي أخيه أبي فارس ان أولاد الاماء لا يتقدمون في الامر على أولاد الحرائر وكان أبو فارس والشيخ ولدي أمة اسمها الخيزران كاس وزيدان أمه حرة من الشبانات وعزم أن ينكل بهما ثم بعث بهما مع جيش مراكش الى أخيه أبي فارس ليرى فيهما رأيه ✻فأما الشيخ القصار فتوفي رحمه الله على مقربة من مراكش بزاوية الشيخ ابن ساسي وحمل الى مراكش فدفن بقبة القاضي عياض وذلك في أواسط سنة اثنتي عشرة وألف✻وأما القاضي أبو القاسم فاجتمع بابي فارس فقبل عذره وصفح عنه ورده مكرما الى فاس هكذا ذكره بعضهم وقيل ان الذي بعث بالشيخ القصار الى مراكش هو السلطان زيدان على وجه يخالف هذا والله أعلم

## ﴿نهوض عبد الله بن الشيخ لحرب عمه أبي فارس واستيلاؤه على مراكش﴾

ثم ان الشيخ المتغلب على فاس دعا بتجار أهلها فاستسلف منهم مالا كثيرا وأظهر من الظلم وسوء السيرة وخبث السريرة ما هو شهير به ثم تتبع قواد أبيه فنهب ذخائرهم واستصفى أموالهم وعذب من أخفى من ذلك شيأ منهم ثم جهز جيشا لقتال أخيه أبي فارس بمراكش وكان عدد الجيش نحو الثمانية آلاف وأمر عليه ولده عبد الله فسار بجيوشه فوجد أبا فارس بمحلته في موضع يقال له اكليم ويقال في مرس الرماد فوقعت الهزيمة على أبي فارس وقتل نحو المائة من أصحابه ونهبت محلته وفر هو بنفسه الى

مسفيوة ودخل عبد الله بن الشيخ مراكش فاباحها الجيشه فنهبت دورها واستبيحت محارمها واشتغل هو بالفساد ومن يشابه أباه فما ظلم حتى حكى انه زنى بجوارى جده المنصور واستمتع بحظاياه وأكل رمضان وشرب الخمر فيه جهارا وعكف على اللذات وألقى جلباب الحياء عن وجهه وكان دخوله مراكش فى العشرين من شعبان سنة خمس عشرة وألف

## ﴿مجيء السلطان زيدان الى المغرب واستيلاؤه على مراكش وطرده عبد الله بن الشيخ عنها﴾

كان السلطان زيدان لما فر من فاس الى تلمسان كما مر أقام بها مدة وكان قد بعث الى ترك الجزائر يستمدهم ويستعديهم على أخويه فأبطؤا عليه وطال عليه انتظارهم فلما يئس منهم توجه الى سجلماسة فدخلها من غير قتال ولا محاربة ثم انتقل عنها الى درعة ومنها الى السوس فكتب اليه أهل مراكش وقد ندموا على ما فرطوا فيه من أمره والدخول فى طاعته فكتبوا اليه أن يأتيهم ولو وحده فتوجه اليهم ودخل عليهم ليلا فلم يفجأ عبد الله بن الشيخ الا نداء أهل مراكش بنصر السلطان زيدان وتحزبوا معه وتقدموا الى قائدهم عبد الله أعراس الذى ولاه عليهم الشيخ فقتلوه وخرج عبد الله فارا بجموعه من أهل فاس والغرب فحاصرهم أهل مراكش بين الاسوار والجنات وقتلوا من أصحاب عبد الله بموضع يعرف بجنان بكار نحو الخمسة آلاف وخمسمائة وأمر زيدان بقتل كل من تخلف عن عبد الله من جيشه فاتى القتل على جميع من وجد بمراكش من جيش أهل فاس وذلك فى أواخر سنة خمس عشرة وألف وفر عبد الله ابن الشيخ ناجيا بنفسه حتى قدم على أبيه بفاس فى أسوأ الحالات مفلول العساكر مهزوم الجموع معتاضا عن جيش النصر بجيش الدموع

## ﴿عود عبد الله بن الشيخ الى مراكش واستيلاؤه عليها وطرده زيدان عنها﴾

لما قدم عبد الله بن الشيخ على أبيه بفاس سليبا مهزوما قامت قيامته ورأى ان يهيء عسكرا آخر ويجدد جمعا ثانيا فلم يجد لذلك طاقة لفراغ يده من المال وقلة جبايته واستحيى أن يستسلف من التجار لانه كان استسلف منهم فلم يرد لهم شيأ ولما أعيته الحيلة رجع الى قواده فقلب لهم ظهر المجن ونهب أموالهم واستلب ذخائرهم وصار يفرقها على التجار فاجتمع له من ذلك أموال عريضة فرقها فى جيشه وتهيأ عبد الله للسير الى مراكش وكان أهل فاس قد غضبوا لمن قتل من اخوانهم بها ونادوا باخذ ثارهم حتى ان بعضهم خرج مع عبد الله من غير أخذ مرتب ولا جامكية فخرج عبد الله بجموع عديدة وجيوش حفيلة ولما بلغ خبره السلطان زيدان بعث اليه العلج مصطفى باشا فى جيوش كثيرة ﴿قال فى شرح زهرة الشماريخ﴾ كان بعث مصطفى باشا وخروجه من مراكش فى شعبان سنة ست عشرة وألف فالتقى الجمعان بموضع يقال له تافلفلت على طريق سلا فهزم مصطفى باشا وقتل من جيش مراكش نحو التسعة آلاف وبعث الشيخ جماعة من عدول فاس الى موضع المعركة حتى أحصوا القتلى ثم توجه عبد الله الى مراكش فبرز اليه أهلها فى ستة وثلاثين ألف مقاتل والتقى الجمعان بموضع يقال له رأس العين فانهزم أهل مراكش وتقدم عبد الله بن الشيخ فاقتحمها بجيشه وفر زيدان الى المعاقل المنيعة والجبال الشامخة فبقى متنقلا هنالك الى ان كان من أمره ما نذكره

## ﴿ثورة محمد بن عبد المؤمن ابن السلطان محمد الشيخ وانقراض أمره وعود زيدان الى مراكش﴾

لما دخل عبد الله بن الشيخ مراكش واستولى عليها فعل فيها أعظم من فعلته الاولى وهربت شرذمة من أهل مراكش الى جبل جيليز واجتمع هنالك منهم عصابة من أهل النجدة والحمية واتفق رأيهم على

ان يقدموا للخلافة محمد بن عبد المؤمن ابن السلطان محمد الشيخ وكان رجلا خيرا دينا صينا وقورا فبايعه أهل مراكش هنالك والتفوا عليه فخرج عبد الله بن الشيخ لقتال من بجبل جيليز والقبض على أميرهم المذكور ولما التقى الجمعان انهزم عبد الله وولى أصحابه الادبار فخرج من مراكش مهزوما سادس شوال سنة ست عشرة وألف وترك محلته وانفاضه وعدته وجل الجيش وأخذ على طريق تامسنا وامتحن أصحابه فى ذهابهم حتى كان مد القمح عندهم بثلاثين أوقيـة والخبزة من نصف رطل بربع مثقال ولم يزل أصحابه ينتهبون ما مروا عليه من الخيام والعمود ويسبون البنات الى ان وصلوا الى فاس فى الرابع والعشرين من شوال من السنة المذكورة وأما محمد بن عبد المؤمن فانه لما دخل مراكش واستولى عليها صفح عن الذين تخلفوا بها من أهل الغرب من جيش عبد الله بن الشيخ وأعطاهم الراتب فلم يعجب ذلك أهل مراكش ونقموا عليه ابقاءه عليهم وكانوا نحوا الالف ونصف فكتبوا سرا الى السلطان زيدان بالجبل فأتاهم وخيم نازلا بظاهر البلد فخرج محمد بن عبد المؤمن الى لقائه فانهزم ابن عبد المؤمن ودخل السلطان زيدان مراكش واستولى عليها وصفح هو أيضا عن الفئة المتخلفة عن عبد الله بن الشيخ ﴿وذكر فى شرح زهرة الشماريخ﴾ ان هذا الثائر بجبل جيليز اسمه أبو حسون من أولاد السلطان أبى العباس الاعرج والله أعلم ولعل هذا الصواب بدليل ما يأتى فى رسالة زيدان ان شاء الله

## ﴿خروج جالية الاندلس من غرناطة وأعمالها الى بلاد المغرب وغيرها﴾

قد قدمنا ما كان من استيلاء الطاغية صاحب قشتالة على غرناطة وأعمالها سنة سبع وتسعين وثمانمائة وان أهل غرناطة التزموا طاعته والبقاء تحت حكمه على شروط اشترطوها عليه قد ذكرنا بعضها فيما سلف وان عدو الدين قد نقض تلك الشروط عروة عروة وكان أهل الاندلس من أجل ذلك كثيرا ما يهاجرون من بلاد الكفر الى بلاد الاسلام أثناء هذه المدة السالفة غير ان عامتهم كانوا قد تخلقوا بأخلاق العجم وأثر فيهم ذلك أثرا ظاهرا لطول صحبتهم لهم ونشأة أعقابهم بين أظهرهم فكانت تصدر منهم فى بعض الاحيان مقالات قبيحة فى حق ولاة المسلمين من أهل المغرب وعامتهم لا سيما اذا نالهم منهم بعض الظلم ولقد رأيت فى كتاب المعيار وغيره سؤالات وفتاوى صدرت من علماء المغرب فى حق هؤلاء الصنف منهم وكان الملوك السعديون قد جمعوا منهم جندا كبيرا وبهم فتح المنصور اقليم السودان واستمر الحال على ذلك الى ان كانت سنة ست عشرة وألف فهاجر جميع من لم يتنصر منهم الى بلاد المغرب وغيرها ﴿وقال فى نفح الطيب﴾ كان النصارى بالاندلس قد شددوا على المسلمين بها فى التنصر حتى انهم أحرقوا منهم كثيرا بسبب ذلك ومنعوهم من حمل السكين الصغير فضلا عن غيرها من الحديد وقاموا فى بعض الجبال على النصارى مرارا ولم يقيض الله لهم ناصرا الى ان كان اخراج النصارى اياهم أعوام سبعة عشر وألف فخرجت ألوف بفاس وألوف أخر بتلمسان ووهران وخرج جمهورهم بتونس فتسلط عليهم الاعراب ومن لا يخشى الله تعالى فى الطرقات ونهبوا أموالهم وهكذا كان ببلاد تلمسان وفاس ونجا القليل منهم من هذه المضرة وأما الذين خرجوا بنواحى تونس فسلم أكثرهم وهم لهذا العهد قد عمروا قراها الخالية وبلادها اهـ ﴿وقال صاحب الخلاصة النقية فى أمراء افريقية ما نصه﴾ وفى سنة ست عشرة وألف قدمت الامم الجالية من جزيرة الاندلس فأوسع لهم صاحب تونس عثمان داى كنفه وأباح لهم بناء القرى فى مملكته فبنوا نحو العشرين قرية واغتبط بهم أهل الحضرة وتعلموا حرفهم وقلدوا ترفهم اهـ ﴿ثم قال فى نفح الطيب﴾ وكذلك خرج طوائف منهم بتطاوين وسلا والجزائر ولما استخدم سلطان المغرب الاقصى منهم عسكرا جرارا وسكنوا سلا كان منهم من الجهاد فى البحر ما هو مشهور والآن وحصنوا قلعة سلا وبنوا بها القصور والحمامات والدور وهم الآن بهذا الحال ووصل جماعة منهم الى القسطنطينية العظمى

والى مصر والشام وغيرهامن بلاد الاسلام اهـ كلام نفح الطيب وقوله وحصنوا قلعة سلا يعنى بها رباط الفتح اذهى يومئذ مضافة الى سلا ومعدودة منها والله تعالى أعلم

﴿استيلاء السلطان زيدان على فاس وفرار الشيخ بن المنصور عنها الى العرائش ثم الى طاغية الاصبنيول﴾

كان الشيخ بن المنصور عفا الله عنه على ماتقدم من قبح السيرة والاساءة الى الخاصة والعامة حتى ملته النفوس ورفضته القلوب وضاق أهل فاس بشؤمه ذرعا وكان قد بعث ابنه عبد الله مرة ثالثة الى حرب السلطان زيدان بمراكش وأعمالها فخرج عبد الله من فاس آخر ذى الحجة سنة ست عشرة وألف فالتقى الجمعان بوادى بوركراك فكانت الهزيمة على عبد الله وفر فى رهط من أصحابه وترك محلته بمافيها بيد السلطان زيدان فاستولى عليها وانضم اليه جيش عبد الله من أهل فاس وغيرهم ميلا اليه ورغبة فى صحبته فعفا عنهم وتألفهم واستفحل أمر السلطان زيدان وتكلم به أهل فاس وسائر بلاد الغرب واتصل الخبر بالشيخ وعرف أن قلوب الناس عليه فخاف الفضيحة وأصبح غاديا بأهله وحشمه الى ناحية العرائش فاحتل بالقصر الكبير وهنالك لحق به ابنه عبد الله مهزوما من وقعة بوركراك وانضم اليهما أبو فارس بن المنصور فانه بعد فراره من مرس الرماد الى مسفيوة أقام بها مدة ولما استولى السلطان زيدان على مراكش كمامر شدد فى طلبه ففر الى السوس ولما أعيت عليه المذاهب وزيدان فى طلبه لحق بشقيقه الشيخ فكان معه الى هذا التاريخ ثم ان السلطان زيدان بعث كبير جيشه مصطفى باشا الى فاس فانتهى اليها ونزل مخيما بظهر الزاوية ووجد لاصحاب الشيخ زروعا كثيرة فارسل مصطفى باشا عليها جيشه فانتسفوها ودخلت فاس فى طاعته ثم نهض الى ناحية القصر الكبير ناويا القبض على الشيخ وحزبه واتصل بالشيخ خبره ففر الى العرائش ومنها ركب البحر الى طاغية الاصبنيول مستصرخا به على السلطان زيدان وحمل معه أمه الخيزران وبعض عياله وجماعة من قواده وبطانته وذلك فى ذى القعدة سنة سبع عشرة وألف وانتهى مصطفى باشا الى القصر الكبير فقبض على من وجد به من أصحاب الشيخ وفر عبد الله وأبو فارس فنزلا بموضع يقال له سطح بنى وارتين فبلغ خبرهما الى السلطان زيدان فجاء حتى نزل قبالتهما بموضع يقال له آروورات ففر من كان معهما الى السلطان زيدان ولما بقيا أوحش من وتد بقاع فرا الى دار اليهودى ابن مشعل من بلاد بنى يزناسن فاقاما بها واختصر صاحب المرآة هذا الخبر فقال كان السلطان أبو المعالى زيدان بن المنصور التقى مع ابن أخيه عبد الله بن الشيخ صاحب فاس برؤس الشعاب يوم الخميس السابع والعشرين من شوال سنة سبع عشرة وألف فانهزم عبد الله بن الشيخ وفر الى محلة أبيه بالعرائش ثم رجع الى جهة فاس وانتهى الى دار ابن مشعل واستولى عمه السلطان زيدان على محلته وسار الى فاس فدخلها وأقام بها اهـ وفى دخلة السلطان زيدان هذه الى فاس قبض على الفقيه القاضى أبى الحسن على بن عمران السلاسى رحمه الله ﴿قال اليفرنى فى الصفوة﴾ كان القاضى المذكور ممن أخذ عن الشيخ القصار وكان مع ذلك لما ولى القصار الفتوى والخطابة بجامع القرويين يسعى عند السلطان فى تأخيره حتى أخر وولى هو مكانه مدة يسيرة ثم أعيد القصار وكانت بينهما شحناء عظيمة بسبب فتوى تنازعا فيها ثم أفضت الحال بالقاضى أبى الحسن الى أن قبض عليه السلطان زيدان بسبب أنه عثر له على كتاب كتبه الى بعض اخوته ينتقصه فيه ويوهن أمره فاوغر ذلك قلب السلطان عليه فسطا به وسجنه ونهب داره وأثاثه ثم سقاه سما على ماقيل فكان فيه حتفه وقد حكى هذا الخبر فى موضع آخر من الصفوة مطولا فقال كان القاضى أبو الحسن على بن عمران السلاسى شديد الانحراف عن الشيخ العارف بالله أبى زيد عبد الرحمن بن محمد الفاسى سيئ الاعتقاد فيه ولم يزل يسعى به ويكيده فاتفق ان اجتمع بالشيخ فى بعض الليالى بعض من يتعاطى العلم فتكلموا فى مسائل من صفات الله فنقل كلام الشيخ الى القاضى على غير وجهه فانكر

ذلك

ذلك وركب من حينه الى السلطان زيدان وهو يومئذ بفاس منتهز للفرصة فقال ان ههنا رجلا يعلم الناس البدع ويلقنهم آراء الفرق الضالة فقال له السلطان من هو قال فلان قال أخو سيدي يوسف قال نعم قال معنا أنه أعلم من أخيه ثم بعث السلطان اليه وهو مستشيط غضبا الخبر بلغه من ثورة بعض أقاربه عليه فجاء الشيخ أبو زيد ولم يخلع نعله حتى بلغ بساط السلطان فسلم عليه ومد يده فصافحه ثم تكلموا في المسئلة فانقطع القاضي ولم يجد ما يقول الا أن الناقل لم يحسن نقلها فقال له الشيخ فهلا تثبت وكان بعض علماء مراكش حاضرا فبالغ في عتاب القاضي وقيل للشيخ ما سبب الوحشة بينك وبين هؤلاء فقال لا شيء الا الاستغناء عنهم فقالوا يا سيدي هذا وصف يوجب الحب فانفصل الشيخ عن السلطان حتى اطلع على ما يوجب القبض على القاضي فقبض عليه ونهب داره في الحين فنزل الشيخ من فاس الجديد فلقي أثاث القاضي في الطريق جيء به منهوبا وبقي في السجن الى أن مات مسموما رحمه الله وكان الاديب الكاتب أبو عبد الله المكلاتي قد كتب اليه بأبيات يقول فيها ما نصه

أما الهلال غاب عنا سفور * فيجلى به خطب دجاه تثور
فصبرا لدهر رام يضحك الاسى * فانت عظيم والعظيم صبور
سيظهر ما عهدته من جمالكم * فللبدر من بعد الكسوف ظهور
وتحيى رسوم للمعالي تغيرت * فللميت من بعد الممات نشور
أبا حسن اني على الحب لم أزل * مقيما عليه ما أقام ثبير
ففي الفم ماء من بقايا ودادكم * وذلك عندي سائغ وغدير
عليكم سلام الله ما هطل الحيا * وغنت باغصان الرياض طيور

قال منشئها وقد أنشدتها بين يديه بمجسه فبكى حتى ظننت انه سيهلك ثم أفاق وقال لله الامر من قبل ومن بعد ثم راجعني رضي الله عنه بأبيات يقول فيها

تفتق عن زهر الربيع سطور * فما هي الا روضة وغدير
هزمت من الصدر الجريح همومه * فانت على جند الكلام أمير
محمد هل في العصر غيرك شاعر * له معكم في الخافقين ظهور
فاني على صفو الوداد وانني * سأشدو وقلبي بالهموم كسير
متى وعسى يثني الزمان عنانه * بنهضة جد والزمان عثور
فتدرك آمال وتقضى مآرب * وتحدث من بعد الامور أمور
عليك سلام الله مني فانني * غريب باقصى المغربين أسير

وكانت وفاة القاضي المذكور رحمه الله في جامع المشور في مهل ربيع الثاني سنة ثمان عشرة وألف

## ﴿عود عبد الله بن الشيخ الى فاس واستيلاؤه عليها ومقتل مصطفى باشا رحمه الله﴾

لما دخل السلطان زيدان حضرة فاس واستولى عليها أقام بها الى أن دخلت سنة ثمان عشرة وألف فاتصل به خبر قيام بعض الثوار عليه بناحية مراكش فنهض اليها مجدا واستخلف على فاس مولاه مصطفى باشا ولما اتصل خبر نهوضه بعبد الله بن الشيخ وهو بدار ابن مشعل زحف الى فاس فيمن انضم اليه فبرز اليه مصطفى باشا وضرب محلته بظاهر فاس من ناحية باب الفتوح ﴿قال في المرآة﴾ وعرض لابي الحسن علي بن يوسف الاندلسي المعروف بالبيطار غرض من الامور العامة كان يتردد فيه الى المحلة فركب اليها يوم الاثنين السابع عشر من ربيع الثاني سنة ثمان عشرة وألف فالتقى الجمعان يومئذ بين الظهرين فاجلت الحرب عن مقتل مصطفى باشا وفقد أبو الحسن بن البيطار ﴿وقال في النزهة﴾ لما رحل زيدان الى

مراكش بسبب ما بلغه من قيام بعض الثوار عليه فهنالك قدم عبد الله بن الشيخ وعمه أبو فارس الى فاس فخرج مصطفى باشا لقتالهما فعثر به فرسه وقتل وأخذت محلته بأسرها وهلك من لا يحصى من الناس ووقع النهب حتى انتهب من البقر التي تحلب نحو ستة آلاف ودخل عبد الله بن الشيخ فاسا مع عمه أبي فارس وذلك سابع عشر ربيع الثاني سنة ثمان عشرة وألف

## ﴿تلخيص خبر أبي فارس ومقتله رحمه الله تعالى﴾

تقدم لنا أن أبا فارس بن المنصور بويع بمراكش وبعث أخاه الشيخ لقتال السلطان زيدان فنكث الشيخ عهده واستبد عليه ثم بعث اليه ابنه عبد الله فهزمه الى مسفيوة ثم فر منها الى السوس فأقام عند حاجب أبيه عبد العزيز بن سعيد الوزكيتي ثم لما بلغ زيدان في طلبه فر الى أخيه الشيخ فلم يزل مع ابنه عبد الله بن الشيخ الى أن قتل مصطفى باشا ودخل عبد الله فاسا فاستولى عليها كما ذكرناه آنفا فاتفق رأي قواد شراكة على قتل عبد الله وتولية عمه أبي فارس فبلغ ذلك عبد الله فدخل على عمه أبي فارس ليلا مع حاجبه جوابن عمر فوجده على سجادته وجواريه حوله فأخرجهن وأمر بعمه فخنق وهو يضرب برجليه الى أن مات وذلك في جمادى الاولى سنة ثمان عشرة وألف هذا هو الصواب لا ما في نشر المثاني على اضطرابه فأسف الناس عليه لانه كان يرده عن المناكر ويزجره عن كثير من القبائح وذكر في المنتقى أبياتا من انشاء الكاتب أبي محمد عبد القادر بن أحمد بن القاسم الفشتالي مما كتب تطريزا على نجاد الواثق بالله أبي فارس المذكور وهي

أتيه وأزري بكل نجاد * يروق على حلة اللابس
اذا كنت يوم الوغا محملا * لعضب حكى شعلة القابس
على عاتق الملك المرتضى * سليل الوصي أبي فارس

## ﴿عود السلطان زيدان الى فاس واستيلاؤه عليها ثم اعراضه عنها سائر أيامه﴾

لما سمع السلطان زيدان وهو بمراكش بمقتل مصطفى باشا نهض الى فاس وجاء على طريق الجبل وكان نصارى الاصبنيول يومئذ قد نزلوا على العرائش وحاولوا الاستيلاء عليها وذلك باذن الشيخ كما سيأتي وكان عبد الله بن الشيخ بفاس فسمع بنزول النصارى على العرائش فاستنفر الناس وحضهم على الجهاد فتهيؤا لذلك وعزموا على النهوض اليها فما راعهم الا السلطان زيدان قد أقبل من ناحية ادخسان وقد أنزل بها محلته وتقدم الى جهة فاس وضرب بانفاضه فانهزم الناس عن عبد الله ودخل شراكة فاسا فبعث زيدان قائده عبد الصمد لتسكين روعة أهل البلد وأمر المنادي أن ينادي بنصره فنزل المنادي الى أن بلغ باب السلسلة فقام في وجهه بعض السباب من أهل العدوة وضربه بجرحه ورجع المنادي وبطل الامر فبلغ الخبر السلطان زيدان فأمر باطلاق السبيل في أهل فاس وتحكيم السيف فيهم ثم ندم فأمنهم وسكن روعتهم ونزل زيدان بوادي فاس فخرج الناس للقائه وهو غضبان عليهم وقد استولى على فاس وتمكن منها فأخذ بسبب أعيانهم وهم بقتلهم ولكن الله سلم ثم ان العرب اجتمعوا عند قنطرة المهدومة في نحو ثمانية آلاف فخرج اليهم زيدان ومعه عرب الشرق فانهزموا عنه ولم يبق معه الا رهط يسير فرأى زيدان أمامه خيلا قليلة فقصدها فاذا فيها عبد الله بن الشيخ وقد رأى زيدان مقبلا اليه ففر مع ان زيدان انما قصد الفرار اليه من غير علم له به فاستتب أمر زيدان وتراجع اليه أصحابه ومن الغد رجع الى فاس فخرج اليه أهل فاس يهنؤنه كبارا وصغارا فاتهمهم بانهم يستهزؤن به فأمر بهم فسلبوا رجالا ونساء فكان بعضهم ينظر الى عورة بعض وكان عدد السلب نحو عشرة آلاف كسوة ودخل أصحاب زيدان

فأسافهبوها وفعلوا فيها الافاعيل ثم أمر زيدان بتسكين الروعة والامان وكان ذلك كله سادس رجب سنة تسع عشرة وألف فلما كان اليوم الحادي عشر من الشهر المذكور نزل عبد الله بن الشيخ برأس الماء فخرج اليه زيدان واقتتلوا فانهزم زيدان وقتل من أصحابه نحو الخمسمائة وفر الى محلته التي ترك بادخسان وكان ذلك آخر رجوع زيدان الى فاس فانه لما أعياه أمر الغرب أعرض عنه وصرف عنايته الى ضبط ما خلف وادي أم ربيع الى مراكش وأعمالها وتوارث بنوه سلطنته على ذلك النحو من بعده وبقي عبد الله بن الشيخ يقاطع الايام بفاس الى أن هلك وقام بأمر فاس من بعده ثوارها وسيابها على ما نذكر ﴿وفي﴾ كتاب ابتهاج القلوب في أخبار الشيخ المجذوب ما صورته تكلم الشيخ سيدي كذار بوما في ملوك وقته فقال أما الشيخ معطي العرائش فان أهل الله قد دقوا أوتاده هنالك حتى يموت فلم يتجاوز محله الى أن قتل به حوز تطاوين كما سيأتي وأما زيدان فانه لما أطلق السبيل في أهل فاس ضربه مولاي ادريس بركلة صيرته وراء أم ربيع فلم يتجاوزه بعد ذلك اه

## ﴿استيلاء نصارى الاصبنيول على العرائش والسبب في ذلك﴾

قد تقدم لنا ما كان من خبر الشيخ المأمون من انه فر الى العرائش ومنها ركب البحر الى طاغية الاصبنيول مستصرخا به على أخيه السلطان زيدان فأبى الطاغية أن يمده فراوده الشيخ على أن يترك عنده أولاده وحشمه رهنا ويعينه بالمال والرجال حتى اذا ملك أمره بذل له ما اشارطه عليه ولم يزل به الى ان شرط عليه الطاغية أن يخلي له العرائش من المسلمين ويملكه اياها فقبل الشيخ ذلك والتزمه وخرج حتى نزل بحجر باديس في ذي الحجة سنة ثمان عشرة وألف ثم تقدم فنزل ببلاد الريف ولما سمع ذلك أهل فاس خافوا من شوكته وذهب جمع من علمائهم وأعيانهم كالقاضي أبي القاسم بن أبي النعيم والشريف أبي اسحق ابراهيم الصقلي الحسيني وغيرهما لملاقاته وتهنئته بالقدوم فلما وصلوا اليه فرح بهم وأمر قبطان النصارى أن يخرج مدافعه وأنفاضه ارهابا واظهارا للقوة النصارى الذين استنصر بهم ففعل حتى اصطكت الآذان وارتجت الجبال ونزل القبطان من السفينة للسلام على الاعيان فلما رأوه مقبلا أمرهم الشيخ بالقيام له فقاموا اليه أجمعون وجازوه خيرا على ما فعل مع الشيخ من الاحسان والنصرة وسلم هو عليهم بنزع قلنسوته على عادة النصارى وأنكر الناس على أولئك الاعيان قيامهم للكافر وضربوا بعصا الذل حتى انهم في رجوعهم الى فاس تعرض لهم عرب الحياينة فسلبوهم وأخذوا ما معهم وجردوهم من ملابسهم جميعا ما عدا القاضي ابن أبي النعيم فانه عرف بزي القضاء فاحترموه ثم ان الشيخ انتقل الى القصر الكبير وهو قصر كتامة وقصر عبد الكريم فأقام به مدة وراود قواده ورؤساء جيشه ان يقفوا معه في تمكين النصارى من العرائش ليفي له الطاغية بما وعده من النصرة فامتنع الناس من اسعافه في ذلك ولم يوافقه على غرضه الا قائده الكرني فانه ساعده على ذلك فبعثه الشيخ اليها وأمره أن يخليها ولا يدع بها أحدا من المسلمين فذهب الكرني المذكور وكلم أهلها في ذلك فامتنعوا من الجلاء عنها فقتل منهم جماعة وخرج الباقون وهم يبكون تخفق على رؤسهم ألوية الصغار ولما خرج منها المسلمون أقام بها القائد الكرني الى أن دخلها النصارى واستولوا عليها في رابع رمضان سنة تسع عشرة وألف ووقع في قلوب المسلمين من الامتعاض لاخذ العرائش أمر عظيم وأنكروا ذلك أشد الانكار وقام الشريف أبو العباس أحمد بن ادريس العمراني ودار على مجالس العلم بفاس ونادى بالجهاد والخروج لاغاثة المسلمين بالعرائش فانضاف اليه أقوام وعزموا على التوجه لذلك ففت في عضدهم قائدهم حمو المعروف بأبي دبيرة وصرف وجوههم عما قصدوه في حكاية طويلة وكان الشيخ لما خاف الفضيحة وانكار الخاصة والعامة عليه اعطاءه بلدا من بلاد الاسلام للكفار احتال في ذلك وكتب سؤالا الى علماء فاس وغيرها يذكر لهم فيه

أنه لما أوغل في بلاد العدو الكافر واقتحمها كرها باولاده وحشمه منعه النصارى من الخروج من بلادهم حتى يعطيهم ثغر العرائش وانهم ما تركوه خرج بنفسه حتى ترك لهم أولاده رهنا على ذلك فهل يجوز له أن يفدي أولاده من أيدي الكفار بهذا الثغر أم لا فاجابوه بان فداء المسلمين سيما أولاد أمير المؤمنين سيما أولاد سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم من يد العدو الكافر باعطاء بلد من بلاد الاسلام له جائز وانا موافقون على ذلك ووقع هذا الاستفتاء بعد أن وقع ما وقع وما أجاب من أجاب من العلماء عن ذلك الا خوفا على نفسه وقد فر جماعة من تلك الفتوى كالامام أبي عبد الله محمد الجنان صاحب الطرر على المختصر وكالامام أبي العباس أحمد المقري مؤلف نفح الطيب فاختفيا مدة استبراء لدينهما حتى صدرت الفتوى من غيرهما وبسبب هذه الفتوى أيضا فر جماعة من علماء فاس الى البادية كالشيخ أبي علي الحسن الزياتي شارح جمل ابن المجراد والحافظ أبي العباس أحمد بن يوسف الفاسي وغيرهما

﴿بقيــة أخبار الشيخ ومقتله رحمه الله وتجاوز عنه﴾

ثم ان الشيخ بن المنصور نزل بالفحص واجتمعت عليه ملة من أهل الدعارة والفساد على شاكلته فنهض بهم الى تطاوين فاستولى عليها وأخرج منها كبيرها المقدم المجاهد أبا العباس أحمد النقسيس ولم يزل الشيخ يجول في بلاد الفحص ويعسف أهلها الى ان ملته القلوب وتمالا أشياخ الفحص على قتله لما رأوا من انحلال عقيدته ورقة ديانته وتمليكه ثغر الاسلام الكفار فقتله المقدم أبو الليف في وسط محلته بموضع يعرف بفج الفرس وبقي صريعا مكشوف العورة أياما حتى خرج جماعة من أهل تطاوين فحملوه مع من قتل معه من أصحابه كالدبيريين وبعض أولاده ودفنوهم خارج تطاوين الى ان حمل الشيخ الى فاس الجديد مع أمه الخيزران فدفنا به وكان مقتله خامس رجب سنة اثنتين وعشرين وألف ﴿وقال منويل﴾ انه وصل الى قرب تطاوين وبني هنالك أفراكا وأقام ينتظر اجتماع الجيوش عليه ثم سكر ذات يوم على عادته وخرج الى عين ماء هنالك فاستلقى قربها في نبات أخضر أعجبته خضرته فجاءه اناس من أهل تلك البلدة فعرفوه وشدخوا رأسه بصخرة فقتلوه ويقال ان قتله كان باشارة الثائر أبي محلي الآتي ذكره وانه كتب الى المقدمين النقسيس وأبي الليف يحضهما على قتله فقتلوه وانتهبوا ماله وكان شيأ كثيرا ومن جملة ما نهب منه نحو المد من الياقوت وبقي من اثاثه نحو وسق سفينة كان قد تركه بطنجة فاستولى عليه نصارا أهلها من البرتقال لما قتل وكان للشيخ عفا الله عنه مشاركة في العلم ويد في مبادي الطب أخذ عن أشياخ الحضرتين وله شعر متقارب ومن كتابه الاديب المتفنن أبو العباس أحمد بن محمد بن القاضي وأبو العباس أحمد بن محمد الغرديس التغلبي وكان من أهل الاجادة والتبريز في صناعة الانشاء ﴿قال الشيخ﴾ أبو زيد الفاسي في شرحه لدلائل الخيرات عند قوله وكان لي جار نساخ ما نصه وقد كان الشيخ الكاتب الرئيس أبو العباس أحمد الغرديس شيخ كتاب الانشاء بحضرة فاس رحمه الله استعار مني كتاب الانباه في شرح الاسماء للاقليشي ثم مرض مرض موته فعدته فوجدت الكتاب عند رأسه ومعه كراريس منسوخة وأخرى معدة للنسخ فقال لي اني اذا وجدت راحة كتبت منه ما قدرت عليه فاذا غلبني ما بي أمسكت فقلت له ولم تتكلف هذا فقال اني عصيت الله بهذه الاصابع ما لا أحصيه فرجوت أن يكون ما أعانيه على هذه الحال من نسخ هذا الكتاب خاتمة عملي وكفارة لذلك فكمل الله قصده وأتم الكتاب وتوفي من مرضه ذلك وقد طال به سنة عشرين وألف اهـ ولهذا الكاتب يقول الشاعر

تمتعت يا غرديس والدهر راقد * وأنت بفاس وابن حيون واجد

بسعدك راحت خيزران لقبرها * مصائب قوم عند قوم فوائد

## ﴿رياسة ولي الله تعالى أبي عبد الله سيدي محمد العياشي على الجهاد ومبدأ أمره في ذلك﴾

هذا الرجل هو ولي الله تعالى المجاهد في سبيله أبو عبد الله محمد بن أحمد المالكي الزياني المعروف بالعياشي ونسبته الى بني مالك بن زغبة الهلاليين وهم اليوم قبيلة من عرب الغرب كان رحمه الله مستوطنا مدينة سلا وكان من تلامذة الولي العارف بالله تعالى أبي محمد عبد الله بن حسون السلاسي دفين سلا وكان ابتداء أمر أبي عبد الله انه كان ملازما لشيخه المذكور من أقرب التلامذة اليه وأسرعهم الى خدمته وأولهم دخولا عليه وآخرهم خروجا عنه وكان مع ذلك كثير الورع قليل الكلام مدمنا للصيام وقراءة القرآن فكان الشيخ ابن حسون ملتفتا اليه ولم يزل الامر على ذلك الى ان شاعت مناقب الشيخ وكثر غاشيه فأهدى له يوما بعض أشياخ القبائل فرسا فامر الشيخ باسراجه وقال أين محمد العياشي فقال ها أنا ذا يا سيدي فقال الشيخ اركب بحول الله فرسك ودنياك وآخرتك فتقهقر تأدبا فخلف عليه ليركبن وحبس له الركاب بيده وقال له ارتحل عني الى آزمور وانزل على أولاد أبي عزيز ولا بد لك من الرجوع الى هذه البلاد وسيكون لك شأن عظيم فودعه أبو عبد الله ووضع الشيخ يده على رأسه وبكى ودعا له بخير فقصد ناحية آزمور ونزل حيث عين له شيخه المذكور وذلك لاول دولة السلطان زيدان سنة ثلاث عشرة وألف فلم يزل أبو عبد الله العياشي مثابرا على الجهاد شديد الشكيمة على العدو عارفا بوجوه المكائد الحربية بطلا شهما مقداما في مواطن الاحجام وقورا صموتا عن الكلام فطار بذلك في البلاد صيته وشاع بين الناس ذكره لما هو عليه من التضييق على نصارى الجديدة وكانوا يومئذ قد أمر أمرهم ففرح بذلك قائد آزمور ولم يزل الامر على ذلك الى ان توفي قائد الفحص والبلاد الآزمورية فسأل السلطان زيدان عمن يليق بتولية ذلك الثغر فقيل له سيدي محمد العياشي فكتب اليه بالتولية فقبل ونهض باعباء ما حمل من ولاية الفحص وجهاده وكانت له مع نصارى الجديدة وقائع وضيق عليهم حتى منعهم من الحرث والرعي فبعث النصارى الى حاشية السلطان زيدان بالتحف ونفائس الهدايا ليعزلوا عنهم أبا عبد الله المذكور رامضايقته لهم فخوفوا السلطان زيدان عاقبته وحضوه على عزله وأظهروا له انه مسموع الكلمة في تلك النواحي وانه يخشى على الدولة منه وكان أبو عبد الله العياشي كلما بعث بالغنائم وما يفتح الله به عليه من الاسارى الى مراكش ازدادت شهرته وتناقل الناس حديثه فوغر بذلك قلب زيدان وحنق عليه فبعث اليه قائده محمد السنوسي في أربعمائة فارس وأمره بالقبض عليه وقتله وألقى الله في قلب القائد المذكور الشفقة عليه لما يعلم من براءته مما قذف به فبعث اليه خفية ان انج بنفسك فانك مغدور فخرج أبو عبد الله العياشي في أربعين رجلا فرسانا ومشاة قاصدين سلا فاستقر بها سنة ثلاث وعشرين وألف ولما انتهى السنوسي الى آزمور ولم يجد له أثرا أظهر العناية بالبحث عنه وعاقب شرذمة من أهل الفحص على افلاته تعمية على السلطان واقامة لعذره عنده فقبل السلطان زيدان ذلك والله غالب على أمره

## ﴿ثورة الفقيه أبي العباس أحمد بن عبد الله السجلماسي المعروف بأبي محلى﴾

﴿قال في كتابه اصليت الخريت﴾ ما ملخصه كانت ولادتي في سنة سبع وستين وتسعمائة بسجلماسة والذي تلقيته من أبي وكافة عمومتي ان أولاد أبي محلى من ذرية العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه وأما جدنا الاشهر المكنى بأبي محلى بفتح الميم والحاء وكسر اللام المشددة بعدها ياء تحتية ساكنة مع كبير شهرته لا علم لي الآن بسبب تكنيته بذلك ولا بتفاصيل أحواله بعد البحث عنه قال وبخطة القضاء اشتهر نسبنا فنعرف باولاد القاضي وزاوية تنا بزاوية القاضي ولم تزل بقية العلم في دورنا وخصوصا دار أبي اهـ ﴿وقال صاحب البستان﴾ أبو محلى هذا اسمه أحمد بن عبد الله وينتسب الى بني العباس ويعرفون في سجلماسة باولاد

ابن اليسع أهل زاوية القاضي انتهى ﴿قلت﴾ أما الانتساب الى العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه فقد أنكر ابن خلدون وجود النسبة العباسية في المغرب قال في فصل اختلاط الانساب وما بعده ما نصه ولم يعلم دخول أحد من العباسيين الى المغرب لانه كان منذ أول دولتهم على دعوة العلويين أعدائهم من الادارسة والعبيديين فكيف يسقط العباسي الى أحد من شيعة العلويين اهـ ثم قال أبو محلي في الكتاب المذكور فلما نشأت في حجر والدي بذل مجهوده في تعليمي وقد كانت أمي رأت وهي حامل بي وليا من أولياء الله تعالى أحد شيوخ التربية ببلادنا وهو الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الله السجلماسي قد سقاها قدحا من لبن وأرجو الله صدق تأويلها بالعلم والدين وحق اليقين قال وكان خروجي لطلب العلم بفاس في حدود الثمانين وتسعمائة وأنا يومئذ مراهق أو بالغ الحلم لا همة لي الا في العلم فأقمت بفاس نحو خمس سنين الى ان جاء النصارى الى وادي المخازن فدهش الناس واستشرت أخا من الطلبة فدلني على الخروج الى البادية حتى ينجلي نهار الامن فخرجت الى كريكرة فحفظت فيها الرسالة وقد كنت ما حصلت بفاس الا النحو ثم رجعت الى فاس بعد ان زال الدهش بهزيمة النصارى وولاية المنصور والنحو صنعتي وفي الفقه رغبتي وقد كنت في الخرجة الاولى الى البادية زرت قبر الشيخ أبي يعزى رضي الله عنه فطلبت الله عنده أن أكون من الراسخين في العلوم بأسرها وتوبة يتقبلها فما دار علي الحول الا وأنا بزاوية الشيخ أبي عبد الله سيدي محمد بن مبارك الزعري لا عن قصد لكوني اذ ذاك مولعا بالعلم أما طريق الفقر فلا تخطر لي ببال لان المعتمد يومئذ في فقراء الوقت اخلاق الضلال فكنت أشد الناس حذرا منهم الى ان انكشف الستر فرأيت ما رأيت ووعيت فصاحبت شيخي الذي لولاه مع فضل الله لهلكت ولولا هدايته باذن الله لضللت أعني أبا عبد الله مولاي محمد بن مبارك الزعري القبيل الجراري السبيل وهو رضي الله عنه من قبيلة عرب بالمغرب يقال لهم زعير بصيغة التصغير والنسب اليها زعري على التكبير وهي قبيلة من عرب السوس بالمغرب الاقصى قال فبقيت في صحبة شيخي المذكور نحوا من ثمان عشرة سنة وما فارقته الا عن أمره اذ هو الذي وجهني الى بلادي سجلماسة من غير اختيار قائلا الى صلاحهم فيك ثم ناولني عصاه وبرنسه ونعله من غير طلب مني لشيء من ذلك وجعل في رأسي قلنسوة كالخرقة بيده اليمنى عند الوداع فلما استوطنت بلادي عن اذنه زرته منه احدى عشرة مرة وفي الاخيرة منها وذلك بعد مقفلي من الحجة الاولى التي كانت سنة اثنتين بعد الالف دعا لي بقوله بلاك الله أكثر ما بلاني فتأولتها باقبال الخلق كما ترى وقد صاح عندها صيحة عظيمة لم أر مثلها منه منذ صحبته اذ عادته كانت الطمأنينة ولما توفي رحمه الله بقيت نحوا من ثلاث سنين عاطلا ثم تحلى النحر بدر لطائفه الموعود بها فله الحمد على ما أسدى وله الشكر فيما أولى ثم ذكر بقية أشياخه كالشيخ أبي العباس المنجور والشيخ أبي العباس السوداني والشيخ سالم السنهوري وغيرهم ممن يطول ذكرهم قال ثم كملت الفائدة بعد المقفل من الحج فرجعت الى الديار المغربية ونزلت بوادي الساورة ثم تحولت بجميع عيالي الى الوادي المذكور وهذا ملخص أوليته منقولا من كتابه المذكور * وقال الشيخ أبو العباس أحمد التواتي رحمه الله تعالى في رسالته التي سماها مقامة التحلي والتخلي من صحبة الشيخ أبي محلي وهي رسالة طويلة مسجعة قال كان الفقيه أبو محلي في أول أمره فقيها صرفا ثم انتحل طريقة التصوف مدة حتى وقع على بعض الاحوال الربانية ولاحت له مخايل الولاية فانحشر الناس لزيارته أفواجا وقصدوه فرادى وأزواجا وبعد صيته وكثرت أتباعه قال فلما سمعت بذلك ذهبت اليه وجلست عنده مدة الى ان وجدته يشير الى نفسه بانه المهدي المعلوم المبشر به في صحيح الاحاديث فتركته وراء ونبذته بالعراء اهـ ﴿وقال الشيخ اليوسي في محاضراته﴾ وقد تكلم على الدعوى الفاطمية ما نصه وممن ابتلي بها فقيرنا أحمد بن عبد الله بن أبي محلي التستاوتي خاض في الطريق حتى حصل له نصيب من الذوق وألف فيها كتابا يدل على ذلك ثم نزغت به هذه النزغة فحدثونا انه كان في أول أمره معاشر المحمد

ابن أبي بكر الدلائي وكان البلد اذ ذاك قد كثرت فيه المناكر وشاعت فقال ابن أبي محلى لابن أبي بكر ذات ليلة هل لك في ان نخرج غدا الى الناس فنأمر بالمعروف وننهى عن المنكر فلم يساعفه لما رأى من تعذر ذلك لفساد الوقت وتفاقم الشر فلما أصبحا خرجا فأما ابن أبي بكر فانطلق الى ناحية النهر فغسل ثيابه وأزال شعثه بالحلق وأقام صلاته وأوراده في أوقاتها وأما ابن أبي محلى فتقدم لما هم به من الحسبة فوقع في شر وخصام أداه الى فوات الصلاة عن الوقت ولم يحصل على طائل فلما اجتمعا بالليل قال له ابن أبي بكر أما أنا فقد قضيت مآربي وحفظت ديني وانقلبت في سلامة وصفاء ومن أتى منكرا فالله حسيبه أو نحو هذا من الكلام وأما أنت فانظر ما الذي وقعت فيه ثم لم ينته الى ان ذهب الى بلاد القبلة ودعا لنفسه وادعى أنه المهدي المنتظر وانه بصدد الجهاد فاستخف قلوب العوام واتبعوه اهـ وصار ابن أبي محلى يكاتب رؤساء القبائل وعظماء البلدان يأمرهم بالمعروف ويحضهم على الاستمساك بالسنة ويشيع انه الفاطمي المنتظر وأن من تبعه فهو الفائز ومن تخلف عنه فوبق وربما كان يقول لأصحابه محرضا لهم على نصرته أنتم أفضل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لانكم قمتم بنصر الحق في زمن الباطل وهم قاموا به في زمن الحق ونحو هذا من زخارف كلامه والى ذلك أشار الفقيه أبو زكريا يحيى بن عبد المنعم الحاحي في بعض قصائده معترضا بأبي محلى المذكور فقال

| | |
|---|---|
| يا أمة المصطفى الهادي أليس لكم | فيمن مضى اسوة من سائر العلما |
| نسيتم دين خير الخلق وافترقت | آراؤكم فغدا الاسلام منقسما |
| أتحسبون بان الله تارككم | سدى وخلقكم قد تعلمون لما |
| ناشدتكم بالذي في العرش يجمعنا | أما فطنتم ومالاكم من فهما |
| بان مغربكم قد عمه سخط | من المهيمن بالله معتصما |
| ان قيل للناس ان الهرج يوبقكم | قالوا الفقيه فلان قبلنا اعتزما |
| لولم يكن جازما أفتى الامام به | ولا أتاه ألا تبنوا الذي انهدما |
| ومن يقل قال خير الخلق قيل له | ها صاحب الوقت يكفينا الذي علما |
| ونحن أفضل من صحب الرسول لنا | أجر يضاعف في أجفار ناطما |
| وزخرف واترهات القول فانفعلت | لهم نفوس عوام رشدها عدما |

## (نهوض ابن أبي محلى الى سجلماسة ودرعة واستيلاؤه عليهما ثم على مراكش بعدهما)

كان أبو العباس بن أبي محلى عفا الله عنه لما كثرت جموعه وانثال الناس عليه يصرح بوجوب القيام بتغيير المنكر الذي شاع في الناس ويقول ان أولاد المنصور قد تهالكوا في طلب الملك حتى فني الناس فيما بينهم وانتهبت الاموال وانتهكت المحارم فيجب الضرب على أيديهم وكسر شوكتهم ولما بلغه ما فعل الشيخ من اجلاء المسلمين عن العرائش وبيعها للعدو الكافر استشاط غضبا وأظهر انه غضب لله لا لشيء سواه فخرج يوم سجلماسة وكان خليفة زيدان عليها يومئذ يسمى الحاج المير فخرج عامل زيدان لمصادمته وهو في نحو أربعة آلاف وابن أبي محلى في نحو أربعمائة فلما التقى الجمعان كانت الدبرة على جيش زيدان وأشاع الناس ان الرصاص يقع على أصحاب أبي محلى باردا لا يضرهم ونفخ الشيطان في هذه القرية فسكنت هيبته في القلوب وتمكن ناموسه منها ولما دخل سجلماسة أظهر العدل وغير المناكر فأحبته العامة وقدمت عليه وفود أهل تلمسان والراشدية يهنؤنه وفيهم الفقيه العلامة أبو عثمان سعيد الجزائري المعروف بقدورة شارح السلم وهو من تلامذة ابن أبي محلى كما ذكره في الاصليت ولما بلغ خبر الهزيمة الى زيدان وانتهى اليه فلما جهز اليه من مراكش جيشا وأمر عليه أخاه عبد الله بن المنصور المعروف

بالزبدة فسمع به أبو محلي فسار اليه فكان اللقاء بينهما بدرعة فوقعت الهزيمة على عبد الله بن المنصور ومات من أصحابه نحو الثلاثة آلاف فقوي أمر ابن أبي محلي واشتدت شوكته وجمع بين سجلماسة ودرعة وكان القائد يونس الايسي قد هرب من زيدان لامر نقمه عليه وقصد الى أبي محلي فجاء معه يقوده ويطلعه على عورات زيدان ويهوّن عليه أمره ومازال به الى ان أتى به الى مراكش فبعث زيدان اليه جيشا كثيفا فهزمه أبو محلي وتقدم فدخل مراكش واستولى عليها وفر زيدان الى ثغر آسفي وهمّ بركوب البحر الى برالعدوة هكذا في النزهة ﴿وذكر لويز البرتقالي في كتابه الموضوع في أخبار الجديدة﴾ ان نصارى الجديدة بعثوا الى السلطان زيدان بمائتين من مقاتلتهم اعانة له على عدوّه من غير ان يطلب منهم ذلك فلما وصلوا اليه أنف من الاستعانة بهم على المسلمين لكنه أحسن اليهم وأطلق لهم بعض أسراهم وردّهم مكرمين هذا كلامه والحق ماشهدت به الاعداء وذلك هو الظن بزيدان رحمه الله ولما دخل أبو محلي قصر الخلافة بمراكش فعل فيه ماشاء وولد له هنالك مولود سماه زيدان ويقال انه تزوج أم زيدان وبني بها وديت في رأسه نشوة الملك ونسي مابني عليه أمره من الحسبة والنسك وفي المحاضرات للشيخ اليوسي رحمه الله ماصورته وزعموا ان اخوانه من الفقراء ذهبوا اليه حين استولى على مراكش برسم زيارته وتهنئته فلما كانوا بين يديه أخذوا يهنؤنه ويفرحون له بما حاز من الملك وفيهم رجل ساكت لا يتكلم فقال له ماشأنك لا تتكلم وألحّ عليه في الكلام فقال الرجل أنت اليوم سلطان فان أمنتني على ان أقول الحق قلته قال له أنت آمن فقل فقال ان الكرة التي يلعب بها الصبيان يتبعها المائتان وأكثر من خلفها وينكسر الناس ويجرحون وقد يموتون ويكثر الصياح والهول فاذا فتشت لم يوجد فيها الا شراويط أي خرق بالية ملفوفة فلما سمع ابن أبي محلي هذا المثل وفهمه بكى وقال رمنا أن نجبر الدين فأتلفناه انتهى

﴿استصراخ السلطان زيدان بابي زكرياء يحيى بن عبد المنعم الحاحي ومقتل أبي محلي رحمه الله﴾

لما التف الرعاع من العامة على أبي محلي وكثرت جموعه وعلم زيدان ضعفه عن مقاومته كتب الى الفقيه أبي زكرياء يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي ثم الداوودي مستغيثا به ثم وفد عليه بنفسه وكان يحيى بزاوية أبيه من جبل درن وله شهرة عظيمة بالصقع السوسي وله أتباع فأتاه السلطان زيدان وقال له ان بيعتي في أعناقكم وأنا بين أظهركم فيجب عليكم الذب عني ومقاتلة من ناوأني فلبى أبو زكرياء دعوته وحشر الجيوش من كل جهة وخرج يؤم مراكش في ثامن رمضان سنة اثنتين وعشرين وألف ولما انتهى الى فم تانوت موضع على مرحلتين من مراكش كتب اليه أبو محلي بمانصه بسم الله الرحمن الرحيم من أحمد بن عبد الله الى يحيى بن عبد الله أما بعد فقد بلغني انك جندت وبندت وفي فم تانوت نزلت أهبط الى الوطاء ينكشف بيننا الغطاء فالذئب ختال والاسد صوّال والايام لا تستقيم الا بطعن القنا وضرب الحسام والسلام فاجابه يحيى بمانصه من يحيى بن عبد الله الى أحمد بن عبد الله أما بعد فليست الايام لي ولا لك انما هي للملك العلام وقد أتيتك باهل البنادق الاحرار من الشبانة ومن انتمى اليهم من بني جرار ومن أهل الشرور والبوس من هشتوكة الى بني كنسوس فالموعد بيني وبينك جيليز هنالك ينتقم الله من الظالم ويعز العزيز ثم زحف يحيى الى مراكش في جموعه فنزل بقرب جيليز جبل مطل على مراكش وبرز اليه أبو محلي والتحم القتال بينهما فكانت أول رصاصة في نحر أبي محلي فهلك مكانه وابذعرت جموعه ونهبت محلته واحتز رأسه وعلق على سور مراكش فبقي معلقا هنالك مع رؤس جماعة من أصحابه نحوا من اثنتي عشرة سنة وحملت جثته فدفنت بروضة الشيخ أبي العباس السبتي تحت المكتب المعلق هنالك عند المسجد الجامع وزعم أصحابه انه لم يمت ولكنه تغيب ﴿قال اليفرني﴾ وحدثني من أثق به من أهل وادي الساورة ان فيهم الى الآن من هو على هذا الاعتقاد ﴿وذكر الشيخ اليوسي في

المحاضرات﴾ أن أبا محلي كان ذات يوم عند أستاذه ابن مبارك فورد عليه وارد حال فتحرك وجعل يقول أنا سلطان أنا سلطان فقال له الاستاذ يا أحمد هب انك تكون سلطانا انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا ووقع في يوم آخر للفقراء سماع فتحرك أبو محلي وجعل يقول أنا سلطان أنا سلطان فتحرك فقير آخر وجعل يقول ثلاث سنين غير ربع ثلاث سنين غير ربع قال وهذه هي مدة ملكه اه ﴿ويذكر﴾ أنه لما طاف بالبيت في وجهته الحجازية سمع وهو يقول يارب انك قلت وقولك الحق وتلك الايام نداولها بين الناس فاجعل لي يارب دولة بينهم قالوا ولم يسأل حسن العاقبة فرزق الدولة وآل به الامر الى ما أبرمته يد القدرة وكان أبو محلي رحمه الله فقيها محصلا له قلم بليغ ونفس عال وله تآليف منها الوضاح والقسطاس والاصليت والهودج ومنجنيق الصخور في الرد على أهل الفجور وجواب الخروبي عن رسالته الشهيرة لابي عمر والقسطلي وغير ذلك وقد وقعت بينه وبين يحيى بن عبد الله مراسلات ومهاجيات نظما ونثرا كقوله

أيحيى الخسيس النذل مالك تدعى * بزورشعار الفحول الاوائل

كدعواك في بيت النبوة نسبة * وأنت دنيء من أخس القبائل

ووجهك وجه القرد قبح صورة * ورأسك رأس الديك بين المزابل

ويزعمون أن يحيى كان معاشرا لابي محلي أيام الطلب بالمدرسة بفاس ﴿قال اليفرني﴾ وحدثني صاحبنا القاضي أبو زيد السكتاني أنه وقف على تأليف كبير مشتمل على ماوقع بين يحيى وأبي محلي من الشعر في غرض الهجاء وغيره وقد ومن تاريخ ثورة أبي محلي ووفاته الشيخ الفقيه أبو العباس أحمد المريدي المراكشي فقال قام (طيشا) ومات (كبشا) ولا يخفى ما فيه بعد افادة التاريخ من حسن التلميح وبديع التورية ولما قتل ابن أبي محلي دخل يحيى مراكش واستقر بدار الخلافة منها والتي بها عصا تسياره ورام أن يتخذها دار قراره فكتب اليه السلطان زيدان يقول أما بعد فان كنت انما جئت لنصرتي وكف يد ذلك الثائر عني فقد أبلغت المراد وشفيت الفؤاد وان كنت انما رمت أن تجر النار لقرصك وتجعل الملك من قنصك فأقر الله عينك به والسلام فتجهز يحيى للعود الى وطنه وأظهر العفة عن الملك وانه انما جاء ليدافع عن السلطان الذي بيعته في عنقه وانقلب الى بلاده ورجع زيدان الى مراكش فاستقر بدار ملكه وقد قيل ان يحيى رام الملك وان أجناده من البربر لم يساعدوه في قصة طويلة والله أعلم

﴿بقية أخبار أبي زكريا يحيى بن عبد المنعم الحاحي وما دار بينه وبين السلطان زيدان رحمهما الله﴾

هو يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي الداوودي المنانى وكان جده سعيد واحد وقته علما ودينا وهو الذي أحيا الله به السنة بالسوس وانتعش به الاسلام فيه وتوفي سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة فخلفه ولده أبو محمد عبد الله وجرى على نهجه وسبيله بل كان بعض الناس يفضله على أبيه وتوفي سنة اثنتي عشرة وألف ودفن بزداغة من جبل درن حيث كانت زاويته ولما مات جلس ولده أبو زكريا يحيى موضعه وانتهج سبيله وكان فقيها مشاركا رحل الى فاس وأخذ عن شيوخها كالمنجور وغيره وعن الشيخ العارف بالله أبي العباس أحمد الحسني على ما وجد بخطه السوساني الشهير بادفال دفين درعة وهو معتمده أخذ عنه كثيرا من الفنون وأجازه في علوم الحديث اجازة عامة وكان يحيى شاعرا محسنا وكانت له شهرة عظيمة بالصلاح وله أتباع كوالده وجده وتوجهت الى زيارته الهمم وركبت اليه النجائب الا أنه وقع له قريب مما وقع لابي محلي فتصدى للملك وخاض في أمور السلطنة فتكدر مشربه وقد قال بعض العلماء أن الرياسة اذا دخلت قلب رجل لا تقصر عن اذهاب رأسه ولذلك قال صاحب الفوائد في حقه انه قام لجمع الكلمة والنظر في مصالح الامة فاستمر به علاج ذلك الى أن توفي ولم يتم له أمر وكان يراسل السلطان زيدان ويكثر

عليه ويجبر عليه من استجار به و يروم الى مناصحته ابتغاء ويسر من ذلك حسوا في ارتغاء وكان زيدان يتحمل منه أمرا عظيما فما كتب به يحيى اليه مانصه من يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم كان الله له بجميل لطفه آمين اللهم انا نحمدك على كل حال ونشكرك ياولى المؤمنين على دفع اللواء والحال ونصلى ونسلم على صفيك أفضل من شدت اليه الرحال ونستوهبك يامولانا جميل لطفك وجزيل فضلك فى المقام والترحال عائذين بوجهك الكريم من مؤاخذتنا بسوء أعمالنا ياشديد المحال هذا وسلام الله الاتم ورضوانه الاعم ورحمته وبركاته على المولى الامام العلم المقدام العلوى الهمام كيف أنتم وكيف أحوالكم مع هذا الزمان الذى شمر عن ساقه لسلب الاديان وألح فى اقتضاء هواه على كل مديان فانا لله ولاحول ولاقوة الابالله وهو حسبنا ونعم الوكيل وبعد فالباعث به اليكم فى هذه البطاقة أمور ثلاثة مدارها على قوله صلى الله عليه وسلم الدين النصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولخاصة المسلمين وعامتهم فالاول بيان سبب الركون الى جانبكم والثانى الحامل على دفع مناويكم والثالث ملازمة نصحكم وتذكيركم والصبر عما يصدر منكم ومن أعوانكم للرعية أما الاول فله أسباب كثيرة منها مراعاة الجناب النبوى الكريم فى أهل بيته ورضى الله عن أبى بكر الصديق القائل ارقبوا محمدا فى أهل بيته والقائل لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب الى ان أصل من قرابتى

يا أهل بيت رسول الله حبكم * فرض من الله فى القرآن أنزله
يكفيكم من عظيم المجد أنكم * من لم يصل عليكم لاصلاة له

ومنها نصح خاصة المسلمين الذى هو الدعاء بالهداية لهم ورد القلوب النافرة اليهم ونصحهم بقدر الامكان مشافهة ومراسلة ومكاتبة وقد بذلنا الجهد فى الجميع أخلص الله القصد فى الجميع وأما الثانى فلما جرى القدر بتغلب ذلك الانسان المتسلط على النفس والحريم والاموال وأدخل بتأويلاته البعيدة عن الصواب ماليس فى المذهب وتعدى خصوص الولاة الى سائر الرعية فاضلها ومفضولها ومد مع ذلك يد الوعيد المؤكد بالايمان البينا فى الانفس والاموال فناشدناه كما تقرر فى فتاوى الائمة رضى الله عنهم حيث توفرت فيه فصول الصائل كلها بشاهد العيان فكان الامر كما قدر الله تعالى ولله الامر من قبل ومن بعد وأما الثالث فالكتاب والسنة والاجماع أما الكتاب فسورة والعصر قائمة البرهان فى كل أوان وعصر وقال تعالى فى قضية كليمه رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين وقد استشهد به بعض العلماء فى برى قلم لكاتب بعض الامراء المتقدمين وحسبنا الله ونعم الوكيل وقوله جل من قائل وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الاثم والعدوان وأما السنة فالحديث الاول وقوله صلى الله عليه وسلم المعين شريك وقوله من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يقدر فبلسانه فان لم يقدر فبقلبه وذلك أضعف الايمان وقد كنا مقتصرين على التغيير باللسان والقلم لكون التغيير العملى اليكم حتى جذبتمونا اليه ودللتمونا بارتكاب أصعب مرام عليه وقوله من أعان على قتل مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله وقد قال المواق فى شرحه على المختصر من أعان على عزل انسان وتولية غيره ولم يأمن سفك دم مسلم فهو شريك فى دمه ان سفك ثم أتى بالحديث المتقدم استعظاما لذلك الامر الفظيع فانا لله وانا اليه راجعون على انا انخدعنا بالله حتى كنا نأمن بالقطع سفك الدماء اذذاك حيث كتبت اليناس مرارا وأمنت وأرسلت وكنت أتخوف من هذا الواقع اليوم با زمور وآسفى ومراكش والغرب ولذلك كنت ألححت عليكم فى تقرير العهد حتى أتانى القائد عبد الصادق بمصحف ذكر انه لسلطان تلمسان فى جرم صغير وقال لى أمرنى السلطان أن أحلف لك فيه نيابة عنه على بقائه على العهد فيما بينك وبينه من تأمين كل من أمنته وامضاء كل ما رأيته صلاحا لائقا ثم لم اكتف حتى أتى القاضى فكتبت الى معه ان كل ما رأيت فيه الصلاح اللائق أمضيته وانك آمنت كل من أمنته ثم بعد استقرارك فى دارك

كتبت الى" كذا ابانك باق على ماتعاهد نامعك عليه من الامور كلها على معيار الشريعة فسار اعنى الاوفد أخفرت فى" ذمة الله وأمانى الذى عقدته للناس فن مأسور ومقيد ومطلوب بمال ومطرود عن بلده وأخبار أخر ترد علينا من جهة السواحل وان الناس تباع فيها للعدو دمره الله ولم نرمن اهتبل بذلك ممن قلدتموه أمور الثغور فلم ندر هل بلغك ذلك فتسقط عنا ملامة الشرع أولم يبلغك فاعلمنا الله لتطمئن قلوبنا فانى أكاتبك فى ذلك فلا أرى جوابا فقضيت والله من الامر عجبا فان عددت مامن الله به عليك من رجوعك الى سرير ملكك واجتماعك بسربك آمنا من قبيل النعم فقيده بما تقيد به كافى كريم عملك وان رأيته بنظر آخر فان لله مافى السموات ومافى الارض وأما الاجماع فلم نر من العلماء من نهى عن نصح خاصة المسلمين وتنبيههم على مايصلحهم وبالرعية بل عدوه من الدين للحديث الاول وغيره وأماما استشعرناه من امتعاضكم من عدم الاناة القول فى مكاتبتنالكم فماخاطبناكم قط رعيا لذلك ولو ننصف ماخاطب به الائمة الاول أهل زمانهم اتكالا على مطالعتكم لكتبهم وعلمكم بما لم نعلمه من ذلك ولم نروه ويكفيكم نصح الفضيل وسفيان وامامنا مالك رضى الله عنهم لمعاصريهم من الولاة ومنهم من بكى وانتفع ومنهم من غشى عليه وتوجع ومنهم من ندم واسترجع الى غير ماذكرنا على اختلاف الاعصار وتنوع الدول والاقطار فبذلك اقتدينا وبما كان عليه أشياخنا وأسلافنا لكم ولا سلافكم عملنا كالفقيه شيخ الدنا رحمه الله سيدى عبد الله الهبطى لجدكم المرحوم بكرم الله فطمعت بنجح النصح ونفعه دنيا وأخرى فهذا أصل قضيتنا معكم وهلم جرا والذكرى تنفع المؤمنين على كل الاحوال والحمد لله على كل حال والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله خير آل وبتاريخ أواخر ربيع النبوى الانور كتبه عن اذنه رضى الله عنه عبد ربه محمد بن الحسن بن أبى القاسم لطف الله به بمنه اهـ فاجابه السلطان زيدان رحمه الله بما نصه

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما﴾

من عبد ربه تعالى المقترف المعترف زيدان بن أحمد بن محمد بن محمد الى السيد أبى زكريا يحيى بن السيد أبى محمد عبد الله بن سعيد أعاننا الله واياكم على اتباع الحق ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا وسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد فقد ورد علينا كتابكم ففضضنا ختامه ووقفنا على سائر فصوله ثم انا ان جاوبناكم على مايقتضيه المقام الخطابى ربما غيركم ذلك وأدى الى المباغضة والمشاحنة فيحكى عن عثمان رضى الله عنه أنه بعث الى على" رضى الله عنه وأحضره عنده وألقى اليه ما كان يجده من أولاد الصحابة الذين اعصوصبوا باهل الردة للذين كان رجوعهم الى الاسلام على يد الصديق رضى الله عنه وهو فى كل ذلك لايجيبه فقال له عثمان رضى الله عنه ما أسكتك فقال يا أمير المؤمنين ان تكلمت فلا أقول الا ما تكره وان سكت فليس لك عندى الا ما تحب ولكن لما لم أجد بدا من الجواب أرى ان أقدم لك مقدمة قبل الجواب فاتعلم أن الحجاج لما ولاه عبد الملك العراق وكان من سيرته مايغنى اشتهاره عن تسطيره هنا فتأول ابن الاشعث الخروج عليه وتابعه على ذلك جماعة من التابعين كسعيد بن جبير وأمثاله من أولاد الصحابة رضى الله عنهم ولما قوى عزمهم على ذلك استدعوا الحسن البصرى لذلك فقال لا أفعل فانى أرى الحجاج عقوبة من الله فنفزع الى الدعاء أولى ﴿قال بعض فضلاء العجم﴾ يؤخذ من هذا ان الخروج على السلطان من الكبائر وجواز المقام تحت ولاية الظلم والجور وقد علمت ما كان من أمر عبد الرحمن ابن الاشعث وسعيد وأمثاله وعلمت قضية أهل الحرة لما أوقع بهم جند يزيد بن معاوية بالحرم الشريف ولما بلغه الخبر أنشد

ليت أشياخى ببدر شهدوا * جزع الخزرج من وقع الاسل

وشاع ذلك عنه وذاع وكان على عهد أكابر الصحابة وأولادهم ولا تعرض أحد منهم لنكير عليه ولا تصدى

لقيام ولا خاطبه بملام وأما ما يرجع الى جواب الكتاب فأما ما حكيت عن الصديق رضي الله عنه في أهل البيت والاحاديث الواردة فيهم وأنه يجب تعظيمهم واحترامهم وتبجيلهم لاجل النبي صلى الله عليه وسلم فان كان يجب عليكم تعظيمهم فان تعظيمهم يجب علي أولى وأولى ثم لا بقوله تعالى قل لا أسئلكم عليه أجرا الا المودة في القربى وأجرى الله تعالى عادته انه ما تصدّى أحد لعداوة هذا البيت النبوي الا كبه الله لوجهه وأما ما أوردتم من الاحاديث النصح فاني والله أحب أن تنصحني سرا وعلانية مع زيادة شكري عليه وأراها منك مودة وأعدها محبة ولكني أفعل ما أقدر عليه لان الله سبحانه يقول لا يكلف الله نفسا الا وسعها ولهذا قال أكثر العلماء في صدور تصانيفهم ولم آل جهدا في كذا لان النفوس الشريفة العالية لا تترك من فعل الخير والجد في اكتسابه الا ما عز تناوله عليها وصعب اكتسابه وأما ما ذكرتم من أمر أبي محلي وسيرته وما كان تسلط عليه أما ما كان من استنهاضكم اليه المرة بعد المرة وتكررت في ذلك اليكم الرسل حتى أجبت اليه فلا نحتاج فيه الى اقامة حجة غير كونه خرج عن الجماعة وقد قال صلى الله عليه وسلم من أراد أن يشق عصا كم فاقتلوه كائنا من كان والا فلو دخل الملك من بابه وبايعه أهل الحل والعقد وأخذ ذلك بوسائط مثل بيعة جدنا المرحوم التي تضافرت عليها علماء المغرب وأهل الدين المشاهير فلو كان وصل الى ذلك بمثل هذه الوسائط لم يجب حربه ولا القيام عليه بما ذكرتم لان السلطان لا ينعزل بالفسق والجور والا فان الصحابة في زمن يزيد بن معاوية لا يحصى عددهم وما تصدّى أحد للقيام عليه ولا قال بعزله والا فانهم لا يقيمون على الضلالة ولو نشروا بالمناشير وأما أبو محلي فبمجرد قيامه يجب عليك وعلى غيرك اعانتنا عليه لانك في بيعتنا وهي لازمة لك فالطاعة واجبة عليك واعلم أيضا أن والدك أفضل منك بدليل آباؤكم خير من أبنائكم الى يوم القيامة وكان عمنا مولاي عبد الملك رحمه الله وسامحه على ما كان عليه واشتهر به اعلانا وكان والدك في دولته وبيعته ووفد عليه ولم يستنكف من ذلك ولا ظهر منه ما يخالف السلطنة ولا أنكر ولا عرض بما يسوء سلطان الوقت ولا سمع ذلك منه فان كان راضيا بفعله فهو مثله وان لم يرض فما وجه سكوته والوفادة عليه وقد تحققت وعلمت أن ولاية أحمد بن موسى الجزولي كادت تكون قطعية واشتهر أمره عند الخاص والعام حتى أطبق أهل المغرب على ولايته وقد كان على عهد مولاي عبد الله برد الله ضريحه وكان المولى المذكور على ما كان عليه واشتهر عنه وما برح الشيخ المذكور يدعو له ولدولته بالبقاء ويظهر حبه وكان المولى المذكور يعزل ويولي ويقتل وكان قد شرد منه الجزاوية الشيخ المذكور المرابط الاندلسي وولد أصناك وأمثالهم وكان الشيخ المذكور يقدم للشفاعة فيشفع ولا يتعقب ولا يبحث عما وراء ذلك باق على عهده ومودته وكان المولى المذكور بعث لابن حسين بسد داره فما فتحها حتى أمره ولا استعظم أحد ذلك ولا أكثر فيه ولا جعله سببا لفتح الفتنة وكان قواد المذكور مثل وزيره ابن شقراء وعبد الكريم بن الشيخ وعبد الكريم بن مؤمن العلج والهبطي والزرهوني وعبد الصادق ابن ملوك وغيرهم ممن لم يحضرني ذكرهم لبعد عصرهم قد انغمسوا في شرب الخمر واتخاذ القيان وبسط الحرير وغير ذلك من آلات الفضة والذهب وكان في عصره أحمد بن موسى المذكور وابن حسين ومحمد الشرقي وأبو عمرو القسطلي ومحمد بن ابراهيم التامنارتي والشيظمي وغير هؤلاء من المشايخ وأهل الدين الذين لا يسع من يدعي هذه الطريقة التقدم عليهم ولا اكتساب الفضيلة دونهم فاحسنوا السيرة ولا تعرضوا للسلطنة ولا سمع منهم ما يقدح في ولاة الامر وقادة الاجناد ممن ذكر الذين كان الملك يدور عليهم ويرجع في تدبيره اليهم ومثل من ذكر من الاولياء كان علامة الزمان وواحد وقته شيخ مشايخ افريقية وبعض أهل المغرب عبد العزيز القسنطيني الشيخ المتكلم الصوفي صاحب الآيات البينات قد كان من سكان تونس وكان ملوك تونس ومن انضاف اليهم على الفساد الذي لا ينحصر واشتهر أمرهم حتى عرفوا به في المشارق والمغارب ولم يبرح الشيخ المذكور من بينهم ولا تصدّى لتغيير المنكر والامر

بالمعروف حتى قبضه الله اليه وأما ماذكرتم من أن من أعان على قتل مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله هذه حجة عليك لا علينا الانى ما سعيت فى قتل أحد يعلم الله ولا قتل من قتل الا بأمر القضاة وأهل العلم ان كان واعلم انه اذا كان هذا يكون وعيدا فى قتل الواحد فما بالك بمن يريد فتح باب الفتنة حتى لا يقف القتل على المئين والآلاف ونهب الاموال وكشف الحريم الى غير ذلك أما تعلم ان فتنة أبى محلى قد هلك بسببها من النفوس والاموال مالا يحصى عدده ولا يستوفى نهايته كاتب وكان كل ذلك على رقبته لانه هو المتسبب الاول الفاتح أبواب الفتنة لانه كان يقتل كل من انتمى الينا حتى قتل بسببه فى يوم واحد بمكان واحد خمسمائة قتيل ولولا أبو محلى ماقتلوا وأعظم فى حرمة النفوس من هذا الذى قلت قوله تعالى كتبنا على بنى اسرائيل انه من قتل نفسا بغير نفس أوفساد فى الارض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا وليس فى قول المواق ما يحتج به على السلطان وانما هو فى أصحاب الخطط على الترتيب الذى كان على عهده مثل أصحاب الشرط كصاحب الشرطة الذى ينفذ أحكام القاضى وصاحب شرطة السوق الذى ينفذ الاحكام عن قاضى الحضرة وغير ذلك من الولايات وولاية أبى محلى لا تعدو لاية حتى يعتبر عزله وما عند المواق وغيره وقفنا عليه وعرفناه وتلقيناه عن الاشياخ الجلة وعرفنا ما عند الشافعية والحنفية ودرسناه المرة بعد المرة ولست ممن ينطبق عليه قوله أشقى الناس عالم لم ينفعه الله بعلمه ولكن لماذا تحتج بقول المواق لغرضك وتجعله حجة ولم تجبنا عن فيما كتبنا اليك به فى يونس اليوسى وقد قال صلى الله عليه وسلم الحرم لا يجير عاصيا قال الابى وهذا يحتج به على أهل الزوايا وأضربت عن الجواب وليس ذلك من أدب الجدل ولكن أخبرنا عن الوجه الذى منعت به يونس اليوسى من الشرع فان مناعنا عنده وأما أهلنا فى داره الى يوم الوقعة وترتب فى ذمته للمسلمين من الاموال والدماء ما علمت فان كنت ممن يريد العدل فهلا عدلت فيه فحينئذ نعلم انك لا تريح جهته ولا تذهب بك النفس مذهبا لاجرم حينئذ نكون عند ما تريد ومع هذا لما أمسكناه وجئته وكتبت لنا فيه اسرحناه ساعة وصول خطابك من غير توقف فلو كنت عنادا لعبثنا به اعبثه هو بأماء أهلى وأهل دارى على انى ما رددت شفاعتك منذ عرفتك بعثت لى على ابراهيم بن يعزى فسرحناه لغرضك على انه ترتب فى ذمته ما ينيف على خمسين ألف أوقية وذلك المال انما يقال له بيت مال المسلمين وانما كان يجب تخليده فى السجن وأهل الحصن أخرجناهم منه عن آخرهم وأنفذتم كتابكم بردهم فامرنا بردهم عن آخرهم وابن يعقوب أوزال حاكم البلد وشبه الخليفة تركناه على دارنا وحولك من غير اذننا ولا مشورتنا وبعثنا مكانه فانفذت الكتاب فيه فرد لمكانه ماهو الامر الذى سافرت كتبك فيه ولا أسرعنا فيه خفافا وأما مسئلة أهل آزمور فلما جاء كتابكم عزلنا صاحبه وسرحنا من كان عنده ووردنا الخيل وقضية الجناشة الناس فى شأنهم بالاجتهاد وقضية العرب اعلم أن العرب قد أفسدوا الارض واستطالوا اسواء هذه البلاد والغرب والذى يليق بهم ما أفتى به سحنون فى عرب افريقية والمغرب ولو طالبناهم بمجرد العشر مدة هذه الفتنة فى المغرب لأتى ذلك على أموالهم والناس قد خرجوا عن أطوارهم وأحبوا الفتن طلبا للراحة وانظر كتاب الافادة كذا القاضى واستطالتهم فيه عليه فى قضية شرعية مشروحة فى رسمها القديم على انهم أضعف الناس قاويا انظر ماصدر منهم فما بالك بالعرب الذين خرجوا عن الطاعة وتساوى الشيخ والصغير فى ذلك فان كنت تصغى لمقالاتهم واسعاف شهواتهم والتعرض للسلطان دونهم فهذا نفس خراب العالم وطالع كتاب صاحبنا من عند الرحامنة وما صدر منهم لخديمكم ورأيت أن أقدم لك مقدمة أمام هذا وان كانت أدبية قيل لابن الرومى وهو على بن العباس لم تقل كقول ابن المعتز

كأن آذريوننا * والشمس فيه عاليه
مداهن من ذهب * فيها بقايا غاليه

الجناشة كانوا يبيعون أولاد المسلمين للنصارى

فأجاب بأن قال لا يقدر أن يقول هو مثل قولي في وصف الرقاقة

ما أنس لا أنس خبازاً مررت به * يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصر

ما بين رؤيتها في كفه كرة * وبين رؤيتها قوراء كالقمر

الا بمقدار ما تنداح دائرة * في صفحة الماء يرمى فيه بالحجر

وقال كل منا وصف أواني بيته ورب البيت أعلم بما فيه وأهل مكة أدرى بشعابها والصيرفي أعرف بنقد الدينار وقصة الخضر والكليم صلوات الله على نبينا وعليهم فيها كفاية لمن يعتبر في خرقه السفينة وقتله الغلام وإقامته الجدار والكليم يرد عليه في كل ذلك حتى أنبأه الله بسر ما لم يعلم على أن علم الخضر في علم موسى كحلقة ملقاة في فلاة هكذا قال بعض العلماء وقال بعضهم كل منهم على علم خصه الله تعالى به ومن هنا جوز ابن عربي الحاتمي في بعض كتبه وأحسب أن ذلك في الفصوص أن الولي الذي يتخذه الله ويصطفيه بمحبته يطلعه على علم لم يطلع عليه الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم فقال مشيرا الى نفسه أطلعني الله على علم لم يطلع عليه آدم فمن دونه واعلم أن السلطنة لها أسرار لا بد منها وسياسة ينكر ظاهرها ولكن نرجع الى غرضك ومرادك أخبرنا كيف تحب أن يسلك الناس في العرب فان كنت تحب أن يسلك الناس فيهم مسلك مولاي عبد الله فالزمان غير الزمان والاسعار قد طاعت وبلغت النهاية والله تعالى قد بعث أنبياءه وأنزل كتبه بحسب ما يقتضيه الزمان وهذا يعرفه من خالط الشرائع والكتب المنزلة وأخذ العلم من أفواه الرجال وأدبته مجالس العلم ونحن نلخص لكم الكلام على بعض ما أورد الناس في الخراج أما ما بنوا عليه فرضه في صدر الاسلام والدول العظام فلا نطيل بذكره لشهرته وأما في المغرب خصوصا فأول من فرضه عبد المؤمن بن علي وجعله على أقطاع الارض بناء على أن المغرب فتح عنوة واليه ذهب بعض العلماء ومنهم من يقول أن السهل فتح عنوة والجبل فتح صلحا فاذا تقرر هذا وعلمت أن أهل ذلك العصر قد بادوا واندثروا وبقي السهل كله ارثا لبيت المال تعين أن يكون الخراج فيه على ما يرضى صاحب الارض وهو السلطان والجبل تتعذر معرفة ما كان الصلح عليه ولا سبيل الى الوقوف عليه فيرجع فيه الى الاجتهاد وقد اجتهد سلفنا الكرام رضوان الله عليهم في فرضه لاول الدولة الشريفة على حسب وفق أئمة السنة ومشايخ أهل العلم والدين في ذلك العهد فجرى الامر على السنن القويم الى ان هبت عواصف الفتنة لايام ابن عمنا صاحب الجبل واد الله مولانا الامام وصنوه المرحوم على حواضر المغرب وسهله عند الزحف بالاتراك وامتدت به الفتنة في الجبل الى أن هلك مع النصارى في الغزوة الشهيرة وجاء الله من مولانا المقدس بالجبل العاصم للاسلام من طوفان الاهوال فقدر رضي الله عنه الاشياء حق قدرها ورأى أن المغرب غب تلك الفتن قد فغر فيه لالتهامه عدوان عظيمان الترك وعدو الدين الطاغية فاضطر رحمه الله الى الاستكثار من الاجناد لمقاومة العدو والذب عن الدين وحماية ثغور الاسلام فدعا تضاعف الاجناد الى تضاعف العطاء وتضاعف العطاء الى تضاعف الخراج وتضاعف الخراج الى الاجحاف بالرعية والاجحاف بالرعية أمر يستنكف رضي الله عنه من ارتكابه ولا يرضاه في سيرة عدله طول أيامه فلم يمكن له حينئذ الا أن أمعن النظر رحمه الله في أصل الخراج فوجد بين السعر الذي بني عليه في قيمة الزرع والسمن والكبش الذي تعطيه الرعية منذ زمان الفرض وبين سعر الوقت أضعافا فحينئذ تحرى رحمه الله العدل فخير الرعية بين دفع كل شيء بوجهه ودفع ما يساويه بسعر الوقت فاختاروا السعر مخافة أن يطلع الى ما هو أكثر فأجابهم اليه رضي الله عنه وعرف الناس الحق فلم ينكره أحد من أهل الدين ولا من أهل السياسة ليت شعري لو طلبنا نحن الرعية بسعر الوقت الذي طلع اليوم الى أضعاف مضاعفة ماذا تقولون وقد انتقدتم علينا ما هو أخف من ذلك والحاصل راجعوا رضي الله عنكم ما عند الامام الماوردي في الاحكام السلطانية في ضرب الخراج فقد استوفى الكلام في ذلك وأما

ما تقتضيه

ماتقضيه من العجب لتعطل أجوبتنا عنك فنحن نراجع أقل منك ولكن كتابك آكد مبناه على قصة أهل آزمور فانفذنا من أخرج الذي كان به وأقصاه عنه وشرد من كان عنده فتوقف الجواب حتى رجع الخديم فحينئذ أجبنا كم بما وصلكم وتعجيل الاجوبة وبطؤها فاعلم أن الذي يقتضي ذلك أمور منها أن يكون الامر الذي ورد الخطاب فيه منكم ما سمعت به ولا بلغني فنتوجه للبحث عنه والفحص عن أسبابه فربما أوجب ذلك البطاء بحسب الاماكن والبلدان فيكون جوابنا على أساس وبنيان وان كان عندنا خبر ما ورد فيه خطابكم فالجواب لا يتأخر وقد وقع هذا منا غير مرة وكون تعطيله منشؤه ما من الله به علينا من رجوعنا الى سر يرملكنا واجتماعنا بسريرنا آمنين اعلم أن أهل هذا المغرب لما تمالؤا على وخرجت الى المشرق والتقيت بالترك والاروام وجالستهم وخاطبوني وخاطبتهم فمنهم مشافهة ومنهم مراسلة وكنت أيام مقامي في أرضهم كمقامي على سر يرملكي لان كبيرهم وصغيرهم ورئيسهم ومرؤسهم كان يشجع فضلي ويمد كفه رغبة في نعمتي وواسيت الجميع عطاء مترفا مع قلة الزاد والذخيرة وترفعت عن مواساة الاماثل والاكابر من العجم والعرب ولاركنت لاحد بل تجودت بما قدرت عليه من الاخبية حتى جعلت محلة برماتها وخيلها فتراءمت على العجم بالرغبة وبسطوا أكف الضراعة في المقام عندهم والدخول في جلتهم وعرضوا على الاقطاعات السنية والبلادات الملوكية بالطف مقال وأدب خطاب حتى قال لي القبطان مراد رئيس المجاهدين وما مثلك يكون مع العرب ها نحن نخدمك باموالنا وأنفسنا وبما لنا من السفن حيث أردت وأجبت وما انفصلت عنهم حتى كتبت لهم بخطي أني أحمل أهلي وحاشيتي وأرجع اليهم الا أن تمكن لي الدخول في الملك والغلبة على البلاد أو بعضها وقفلت من عندهم ولم يتعلق بثوب عفافي ما يشينه معهم ولا مع العرب ولا كان لاحد على منة ولا نعمة الا فضل الله سبحانه وكان فضل الله علينا عظيما ثم اني دخلت سجلماسة على رغم أنف أهلها والها ومنها دخلت السوس وجعلت ولي الله العارف به أبا محمد عبد الله بن المبارك واسطة بيني وبين أخي حتى اجتمعت باهلي ومالي ثم بعث الى الترك باحد بلكباشات اسمه مصطفى صولجي الى السوس راغبين في انجاز الوعد وجنحت للسير اليهم فرأيت الاهل والاتباع قد عظم الامر عليهم واستعظموا الخروج فاسعفت رغبتهم في المقام بالمغرب وشيعت الرسول قافلا الى قومه من سجلماسة عند الدخول الثاني لها ومغالبة أهلها عليها وعززته برسول من عندي اليهم بتحف وأموال وردبما عليهم مع رسولهم ثم اني اقتحمت مراكش على أهل فاس على كثرة عددهم وعددهم وقلتي ففتح الله ثم خرجت الى السوس مرة أخرى وأوقعت بولد مولاي أحمد الشريف وجموع مراكش وقد تعصبوا عليه لانهم شيعة جده ففضضته على رغمهم ونازلته بالسهل والحزن حتى أمكن الله منه وحكم بيني وبينه ثم نجم الغوى أبو محلى وغلبت على الرأى وقد قال من هو أفضل مني مولانا علي كرم الله وجهه لا رأى لمن لا يطاع ودخل هذه البلاد وخرجت أنا الى السوس ريثما تجتمع قبائلنا في المكان الذي كان اجتماعهم فيه الى أن بلغتهم وقصد اليهم أبو محلى فقاتلوه ورحل عنهم بعد أن أثخنوا فيه بالقتل ثم وافيتهم فكان الحرب بيننا سجالا فهل سمعتم خلال هذه الاحوال اني احتجت الى أحد فيما قل أو جل وهذا كله بحيث لا يخفى عليك اللهم الا أن تعدوا الوفادة التي وفدنا عليك من قبيل الاضطرار والاحتياج فلا أدري على اني ماقصدت تلك لطلب دنيا الا اني كنت أسمع ما أنت عليه من متانة الدين والصلاح والاقبال على طاعة الله والتمسك بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاغرو أن من كان هذا وصفه كان جديرا بان يقصد للدعاء ولاصلاح القلب ولاشك انه نازلنا ادراك وحلنا بكانك ولما وقع الاجتماع بك جرت المذاكرة في أبي محلى وغيره حتى كتبت الكتاب الذي علمنا عليه وها هو بخط يدك فان نسينا بعض ما فيه ولا فعلنا فاخبرنا به نستدركه وهذه مراكش التي ذكرتم قد كنت فيها كما ذكرتم ووقفت على عبد المؤمن بن ساسي وعدته مرة أخرى في مرضه وهل قصدته لطلب دنيا أو عرفته لاجلها ومحمد بن أبي عمر ولما وقفت

على المدرسة التي من بناء مولاي عبد الله وقفت عليه في داره وكل ذلك انما نفعله تأكيد للصحبة وزيادة في المعرفة بالله ولو علمت أن ذلك يعد عيبا ويظن أنه نوع من الاحتياج ما كنت والله لاقف على أحد ولو أنه ملكني الدنيا بحذافيرها لان الخير والشر بيد الفاعل المختار فهو أولى بالاضطرار اليه وأما سر بي فانه لا يروع قط حتى يأمن وأما من كان بالدار التي ذكرتم فانما هم أهلي ومتروك أعمامي وهذه الدار التي ذكرتم فها نحن ننتقل عنها الى بعض البلاد الغربية البحرية كما قلت لك ذلك مشافهة ساعة قلت لي ينبغي للاشراف بناء بالجبل لوقت ما وحكيت ذلك عن والدك وأما ما أخبركم به القاضي أيام ورودي الى السوس وقت بلغني كتابكم الذي نصه قد اجتمعت أناس وفسدت النيات وتعينت المطامع وأردنا تدبيركم لان الملوك أهل التدبير والمراد رجوعنا الا وكارنا من غير وصمة تلحق الجانبين فكل ما حمل فهو عني والتزمته الى الآن الا ما طرأ علينا فيه النسيان فذكرونا به فانا لا نخرج عنه وأما يمين المصحف وأني حلفت فيه للقائد عبد الصادق فلا والله ما حلفت فيه ولا أحلف لاحد الى لقاء الله أما علمت أني حضرت بيعة الشيخ المأمون صاحب الغرب سامحه الله وحضر أولاد السلطان واستحلفهم له الا أنا رضي الله عنه فانه قال فلان لا يحلف لا يحتاج اليه فيما نأمره به ونفعله وعظم ذلك على اخوتي وظهرت في وجوههم لاجله الكراهية ولكن الذي قلت لعبد الصادق أحلف المرابط فاني أوفي لك به ولا زلت على ذلك لان الذي كنت تقول في ذلك الوقت أخاف ان تقع في أهل مراكش والاكابر ونحوهم مثل حكومة عبد القادر ونحوها أما أهل مراكش فما تعرضنا لاحد منهم حتى تركنا متاعنا لاجلكم كولد المولوع وغيره وهذا الميدان والشقراء فابعث من رضيت ينادي فيهم من له حق علينا ننصفه منه ومن خدامي أيضا وان كنت سمعت قضية منصور العكاري فالعكاري نزل أهلنا في خيمته عند وقعة رأس العين فلما أرادوا الطلوع الى الجبل تركوا أكثر مالهم في خيمته مع بعض الخدم خوفا من غائلة البربر لما كان وقع منهم لاهل بابا أبي فارس فاخذ سماطا من ذهب يزيد على ستين ألف أوقية وكان أيام أبي حسون معه وفي جملته حتى مات القائم فبذل بجنته بالمجاز عشرين ألفا والباقي حتى يؤديه على سعة وطلب منا أن يتعمل ويتولى بعض الخطط لينتفع ويجمع بعض ذلك فصرفناه حتى اذا جاء أبو محلي ووقع ما وقع طالبناه بمتاعنا وهو لا يسعه انكاره وهكذا عبد الكريم الذي في زاوية بنفسه يعلم ان اخوته أخذوا الى سلعة في وسط حلتهم وأنا بين بيوتهم تزيد على خمسين ألفا وأخذوا الابل وها نحن سكتنا عنهم ولا طالبناهم بها وأيضا قال لك أنظر ما فعل باخوتي وصرت تكاتبنا وأنت لا علم عندك باصل المسئلة وأما الاموال فان الله سبحانه قد وسع علينا من فضله وعندنا ما يكفي الخامس والسادس من الولد وعرفنا الناس وعرفونا وعاملناهم وعاملونا ولو أردت خمسمائة ألف مثقال من أصحاب أفلامنك أو من أصحاب الانجليز وكتبت اليهم في ذلك ما تأنوا في بعثه ولا لاذوا فيه بعذرة وقد كفانا الله به والحمد لله على ذلك واعلم أن الظن فيك جميل ولولا ذلك ما أعطيت خمسة آلاف مثقال وسمحت بالمال الذي حمل اليكم ابن عبد الواسع أولا وسلعة السفن أخيرا وبهذا كله تستدل على صفاء السريرة وصالح النية والله سبحانه يعلم ذلك وأما الامتعاص من عدم الانة القول وحسن الخطاب فكما قال تعالى وقولوا للناس حسنا وانك لم تبلغ ولو نصف ما خاطب به الائمة رضوان الله عليهم أهل زمانهم اتكالا على علمنا به وحسبي نصح الفضيل بن عياض وسفيان ومالك رضوان الله عليهم فهذه المسئلة حسبي في الجواب منك انتهى ما وقفنا عليه من هذه الرسالة وهي دالة على براعة الرجل فقها وأدبا وكمال مروءة وعلو همة رحمه الله وغفر ذنوبه

## ﴿استيلاء نصارى الاصبنيول على المعمورة ونهوض أبي عبد الله العياشي لجهادهم﴾
## ﴿وانتقاض أندلس سلا على السلطان زيدان رحمه الله﴾

قد قدمنا في أخبار الوطاسيين ما كان من استيلاء البرتقال على المعمورة المسماة اليوم بالمهدية ومقامهم بها سنين قلائل ثم جلائهم عنها ثم لما استولى الاصبنيول خذله الله في هذه المدة على العرايش كما مر طمحت نفسه الى الاستيلاء على غيرها وتعزيزها باختها فرأى أن المهدية أقرب اليها فبعث اليها الطاغية فيليبس الثالث من جزيرة قادس تسعين مركبا حربية فانتهوا اليها واستولوا عليها من غير قتال لفرار المسلمين الذين كانوا بها عنها هكذا في تواريخ الفرنج ﴿وقال شارح الزهرة﴾ كان نزول النصارى بمرسى الحلق سنة اثنتين وعشرين وألف وقيل سنة ثلاث وعشرين بعدها وقيل غير ذلك وكان عدو الله الاصبنيول أراد أن يضمها الى العرائش لينضبط له ما بينهما من السواحل وتتقوى عساكره بهما فخيب الله ظنه ولقي من أهل الاسلام عرق القربة وكان أبو عبد الله العياشي بعد رجوعه من آزمور وسلامته من اغتيال قائد زيدان دخل سلا في نحو أربعين رجلا وزار ضريح شيخه أبي محمد بن حسون وبات عنده فجاءه أهل سلا وذكروا له ما هم فيه من الخوف من نصارى المعمورة وان مسارحهم قد امتدت الى الغابة وان النصارى ألفان من الرماة سوى الفرسان فأمرهم بالتهيء اليهم ﴿وفي نشر المثاني ما نصه﴾ وفي أواخر جمادى الثانية سنة ثلاث وعشرين وألف أخذ النصارى المهدية فكتب أهل سلا الى السلطان زيدان فبعث اليهم أبا عبد الله العياشي الذي كان مقدما بوكالته على الجهاد بدكالة وهو يقتضي أن مجيء العياشي الى سلا كان باذن السلطان لا فرارا منه والأول أصح اللهم الا أن يكون مجيئه فارا كان بعد هذا التاريخ والله أعلم وأمر أبو عبد الله العياشي أهل سلا بالتهيء للغزو واتخاذ العدة فلم يجد عندهم الا نحو المائتين منها وكانت السنون والفتن قد أضعفتها فحضهم على الزيادة والاستكثار منها فكان مبلغ عدتهم بعد ما زادوه زهاء أربعمائة ثم نهض بهم الى المعمورة فصادف بها من النصارى غرة فكانت بينه وبينهم حرب قربها الى ان غربت الشمس فقتل من النصارى زهاء أربعمائة ومن المسلمين ماثنان وسبعون وهذه أول غزوة أوقعها في أرض الغرب بعد صدوره من ثغر آزمور ومنها أقصرت النصارى عن الخروج الى الغابة وضاق بهم الحال ثم ان السلطان زيدان لما بلغه اجتماع الناس على سيدي محمد العياشي بسلا وسلامته من غدره قائده السنوسي بعث الى قائده على عسكر الاندلس بقصبة سلا المعروف بالزعروري وأمره باغتياله والقبض عليه ففاوض الزعروري أشياخ الاندلس في ذلك فاتفق رأيهم على أن يكون مع العياشي جماعة منهم عينا عليه وطليعة على نيته واستخبار ما هو عازم عليه وما هو طالب له فلازمه بعضهم وشعر العياشي بذلك فانقبض عن الجهاد ولزم بيته ثم ان الله أوقع النفرة بين السلطان زيدان وبين أهل الاندلس وذلك أن السلطان المذكور كان قد بعث قبل ذلك الى القائد الزعروري أن يجهز الى درعة أربعمائة من أندلس سلا فجهزهم اليها وطالت غيبتهم بها فافترأ كثرهم ونفرت قلوبهم عن الزعروري وسلطانه فكان زيدان يبعث الى أهل الاندلس بسلا بتجديد البعث الى درعة فيأبون الانقياد اليه في ذلك وكرهوه وأزمعوا على خلع طاعته ثم وشوا اليه بقائده الزعروري فبعث زيدان بالقبض عليه فقبض عليه ونهب أهل الاندلس داره وكتبوا الى السلطان بذلك مظهرين طاعته مكيدة ونفاقا فبعث اليهم مولاه وقائده المملوك عجيبا فمكث بين أظهرهم مدة فلم يعبؤا به وصاروا يهزؤن به ثم عدوا عليه فقتلوه فظهر منهم شق العصا على السلطان زيدان وأظلم الجو بينه وبينهم وبقي أهل سلا فوضى لا والي عليهم وكثر النهب وامتدت أيدي اللصوص الى المال والحريم وسيدي محمد العياشي ساكت لا يتكلم واستمر الحال على ذلك الى ان كان من أمره ما نذكره بعد هذا ان شاء الله

﴿انعطاف الى خبر عبد الله بن الشيخ بفاس والثوار القائمين بها وما تخلل ذلك﴾

قد قدمنا ما كان من قدوم السلطان زيدان الى فاس أواسط سنة تسع عشرة وألف واستيلائه عليها

ثم خروجه عنها واعراضه عنها وعن أعمالها الى آخر دولته وكان عبد الله بن الشيخ حياة أبيه الشيخ تحت أمره يصغي اليه ولا يقطع أمرا دونه وقيل انه خرج عن طاعته سنة عشرين وألف ولما قتل أبوه ببلاد الهبط كامر استبد عبد الله هذا بفاس وما انضاف اليها على وهن وفشل ريح وكان غالب جنده من شراقة وشراقة هؤلاء هم عرب بادية تلمسان وما انضاف اليها وسموا بذلك لانهم في ناحية الشرق من المغرب الاقصى فاهل تلمسان وأعمالها يسمون أهل المغرب الاقصى مغاربة وأهل المغرب الاقصى يسمون أهل تلمسان وأعمالها مشارقة لكن العامة يلحنون في هذه النسبة فيقولون شراقة فكان غالب جند عبد الله من هؤلاء العرب ومن انضم اليهم فهم حماته وأنصاره وبهم كان يعتصم حتى أعطاهم أجنة الناس ودورهم فكان الرجل من أهل فاس يأتي بستانه فيجد الاعرابي بخيمته في وسطه فيقول له أعطانيه السلطان ومدوا أيديهم الى حريم الناس ونهبوا الاسواق وجاهروا بالفساد وأظهروا السكر في الطرقات واقتحموا على الناس دورهم حتى ان امرأة كانت تطبخ خليعا وولدها رضيع عندها فاقتحم عليها الدار أحد شراكة فهربت المرأة وأغلقت عليها مشربة لها فلم يقدر لها على شئ فراودها على النزول فأبت فقال لها ان لم تنزلي رميت الولد في الطنجير فتمادت على الامتناع فرمى به فيه فما هو الا أن رأت ولدها في وسط الطنجير صاحت وألقت بنفسها عليه فاندقت رقبتها وماتت فغاظ الناس ذلك وأعظموه وقام رجل منهم يقال له أبو الربيع سليمان بن محمد الشريف الزرهوني محتسبا على شراقة واعصوصب عليه كثير من العامة وقاموا بنصرته فقتل شراقة والتلمسانيين بفاس حيث وجدوا وحكم السيف في رقابهم ونفاهم عن فاس وحماها من اذايتهم وطهرها من رجسهم فاستحسن الناس أمره وأذعنوا اليه ❊ وقال في المرآة ❊ وفي يوم الجمعة الحادي والعشرين من ربيع الاول يعني سنة عشرين وألف ثار بفاس الشريف أبو الربيع سليمان بن محمد الزرهوني وعضده الفقيه أبو عبد الله محمد اللطي المعروف بالمربوع وتبعهما أهل فاس بأجمعهم وأخرجوا من كان بها من جيش السلطان وقتلوا كثيرا منهم وجرت في ذلك خطوب آلت بعد سنين الى انقطاع الملك بفاس وبقي الناس فوضى الى الآن اهـ كلام المرآة وكان ابتداء أمر شراقة واشتداد شوكتهم سنة ست عشرة وألف كانوا ادالة على أهل فاس نازلين بقصبة الطالعة وبقصبة أخرى وببعض الفنادق وقرب باب المسافريين الى ان قام عليهم الشريف أبو الربيع في التاريخ المتقدم وكان عبد الله بن الشيخ يوم ثورة أبي الربيع وفتكه بشراقة غائبا في سلا فلما بلغه الخبر قدم ورام أن يصلح بين أهل فاس وبين شراقة وراودهم على ذلك فقالوا الالا فسميت تلك السنة سنة لالا ثم أمر أبو الربيع أهل فاس بشراء العدة والتهيؤ لقتال شراقة وخرج اليهم فاقتتلوا خارج باب الجيسة فانهزمت شراقة واستتب أمر أبي الربيع وسكنت أحوال المدينة وأمن الناس أمانا لم يعهد من زمان السلطان الغالب بالله وفي يوم الاربعاء رابع عشر جمادى الثانية سنة عشرين وألف كانت وقعة المترب موضع خارج باب الفتوح وسببها أن أهل فاس استغاثوا بهم الملالقة واستصرخوهم على شراقة مكيدة وحيلة فخرجوا في يوم شديد الريح وكمن لهم شراقة بخولان وأغاروا عليهم بغتة فانهزم الناس وقتل من أهل فاس نحو الالفين وفي نشر المثاني سبعمائة فقط قال وجلهم هلك بالعطش وغلقت الابواب واضطربت المدينة وهاج الشر بسبب ذلك مدة ثم خرج أهل فاس مرة أخرى لقتال عبد الله بن الشيخ فهزموه وأسروه وبقي في أيديهم فعفوا عن قتله وأطلقوه وذهبوا خلفه حتى دخل داره من فاس الجديد ولما قتل أبوه الشيخ سنة اثنتين وعشرين كامر واتصل خبر مقتله بابنه عبد الله عزم على الاخذ بثاره من قاتليه أولاد أبي الليف وأزمع المسير اليهم ووافقه على ذلك الشريف أبو الربيع والفقيه المربوع وأصحابهما وامتنعت العامة من الذهاب معهم لان الشيخ لم تبق له في نفوس المسلمين مودة حيث باع العرائش للنصارى فاجتمعت العامة بجامع القرويين وقالوا لا نقبل سليمان ولا المربوع وحاصوا حيصة حمر الوحش واتخذوا رؤساء آخرين

فوقع بسبب ذلك شر عظيم أدى الى قتل الشريف مولاى ادريس بن أحمد الجوطى العمرانى التونسى وبسبب ذلك ان منادى أبى الربيع مر ينادى فى السوق باستنفار الناس مع عبد الله بن الشيخ فقام اليه الشريف مولاى ادريس وضربه بعصاوسبه فأقبل أبو الربيع ومن معه واقتحموا على مولاى ادريس دار القيطون وقتلوه على خصتها ولما كان صباح القبر من الغد قام ولده مولاى ادريس وشكا مضيمته لعلماء فاس فأمروه بالصبر ثم التف عليه أهل العدوة وقصدوا دار أبى الربيع وناوشوه الحرب فرجعوا مفلولين وقتل بعضهم والامر لله وحده ووقع الغلاء حتى بيع القمح باوقيتين وربع للمد وكثرت الاموات حتى أن صاحب المارستان أحصى من الاموات من عيد الاضحى من سنة اثنتين وعشرين وألف الى ربيع النبوى من السنة بعدها أربعة آلاف وستمائة وخربت أطراف المدينة وخلت المداشر ولم يبق بلمطة الا الوحوش وكثر النهب فى القوافل ولما كان المحرم فاتح سنة ست وعشرين وألف قبض الشريف أبو الربيع على أربعة من كبار شراقة ثم قتلهم فوجم لها اللمطيون وخاف الناس على المدينة وتوقعوا الشر وعظم الرعب فى القلوب حتى وقعت بسبب ذلك الهزيمة فى كل مسجد من مساجد الخطبة بفاس وذلك انه كان امام جامع القرويين ذات يوم يخطب والناس فى صحن المسجد فوقع شؤبوب من المطر غزير فابتدر من فى الصحن الدخول الى تحت السقف فظن الناس ان أبا الربيع قد قصده شراقة فانهزموا وخرجوا من المسجد لا يلوى أحد على أحد فبلغ الخبر الى أهل جامع الاندلس فاقتدوا بهم وبلغ الخبر الى أهل الطالعة فكان كذلك وتتابعت الهزائم بالمساجد وفى يوم السبت الخامس من صفر سنة ست وعشرين وألف قتل الشريف أبو الربيع غدرا فى جنازة رجل لمطى خرج اليها فقتله الفقيه المربوع وقتل أباه وأبناء عمه وستة من أصحابه ودفن مع والده بمسجد الجرف ولما قتل أبو الربيع بقيت فاس فى يد المربوع واعصوصب عليه اللمطيون واشتدت شوكته ثم قدم جمع من عشيرة أبى الربيع من زرهون وحاولوا الفتك بالمربوع ففطن بهم ووقع بينه وبينهم قتال هلك فيه نحو مائة وثلاثين رجلا وسلم المربوع منها ﴿وقال صاحب معتمد الراوى﴾ لما قتل أبو الربيع الزرهونى قام أخوه مولاى أحمد يطلب بثاره وساق معه نحو أربعمائة من الزراهنة واقتحم بهم فاس وقاتلوا الفقيه المربوع وشيعته من اللمطيين فالتف أهل فاس على المربوع وقاتلوا معه الشريف يدا واحدة فانهزم الشريف وقتل جل من معه وكاد يقبض عليه باليد ففر الى روضة سيدى أحمد الشاوى ومعه نحو الثمانين من أصحابه فتبعهم الفقيه المربوع فى جمع عظيم من اللمطيين واقتحم عليهم الروضة ففر الزراهنة الى بيوت دار الشيخ فهجم عليهم المربوع بجنده وقتلهم أجمعين ثم ان المربوع واللمطيين جاؤا برجل يقال له عبد الرحمن الحنادق كان يتعبد بزرهون فاستقدموه فى جمادى الاولى سنة سبع وعشرين وألف وراموا أن يملكوه ويجتمعوا عليه فانزلوه مع أصحابه فى روضة الشيخ أبى الحسن على بن حرزهم واتصل الخبر بالقائد أحمد بن عميرة وزير عبد الله بن الشيخ فاتى وفتك باصحاب الرجل المذكور ولجأ هو الى ضريح الشيخ أبى حرزهم فرموه من طاق هنالك فقتلوه وسقط ميتا على القبر وبطل أمره ولما سئم أهل فاس من الفتن وكثرة الحصار وضاق بهم الحال من غارات الاعراب ذهبوا الى عبد الله بن الشيخ بفاس الجديد ونصروه وأظهروا المحبة له ففرح بهم غاية وتحالفت العامة والخاصة على نصره والاذعان اليه فصفح عنهم وعفا لهم عما سلف وبعث وزيره الى المربوع بالامان فلم يأمن وخاف على نفسه وصمم مع اللمطيين على قتال عبد الله وتهيؤا له حتى لم تصل الصلوات الخمس بالقرويين ثم ان القائد جو ابن عمرو وزير عبد الله أمر بان ينادى بامان اللمطيين ففر اللمطيون عن المربوع حينئذ حتى لم يبق معه الا قليل ثم بعث اليه عبد الله بسبحته وخاتمه أمانا فلم يأمن وفر ليلا الى بنى حسن فاخذه شيخهم سرحان وأتى به الى عبد الله فعفا عنه وعادت دولة عبد الله الى شبابها واستتب أمره وتمهدت له البلاد وذلك فى جمادى الاولى سنة سبع وعشرين وألف فجمع الجيوش وبعث بعض جنده لحصار

تطاوين وبعضهم لقبض الاعشار وبعث وزيره حم ابن عمرو مع المربوع لارجين موضع من جبال الزبيب فغدر المربوع بالوزير وقتله اعتمادا على كلام سمعه من عبد الله فغضب عبد الله وأسرها في نفسه ثم في يوم الاثنين ثالث ربيع النبوي سنة ثمان وعشرين وألف قتل المربوع اللطي ونهبت داره ﴿وقال في نشر المثاني﴾ قتله عبد الله بن الشيخ وعلقه على البرج الجديد خارج باب السبع ثم أنزله ولعبت عليه خيله ثم بعد أيام وظف عبد الله على اللطيين ثمانين ألفا فثقل عليهم أمرها فهربوا في كل وجه فأسقط عنهم نصفها والله تعالى أعلم

## ﴿ثورة محمد بن الشيخ المعروف بزغودة على أخيه عبد الله بن الشيخ وما وقع في ذلك﴾

﴿قال في شرح زهرة الشماريخ﴾ لما رأى أهل بلاد الهبط ما وقع من افتراق الكلمة وتوقد الفتن بايعوا محمد ابن الشيخ المعروف بزغودة على ضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه وكان الذي قام بدعوته الشريف أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن عيسى بن عبد الرحمن الادريسي المحمدي اليونسي المعروف بابن ريسون وهي أم جده على تزيل تاجروت وبايعوه على الكتاب والسنة وعلى احياء الحق وامانة الباطل فلما بلغ خبره أخاه عبد الله خرج لقتاله فالتقى الجمعان بوادي الطين واقتتلوا فانهزم عبد الله وتقدم محمد الى فاس فدخلها واستولى عليها في شعبان سنة ثمان وعشرين وألف وقبض على بعض عمال عبد الله فقتلهم واستصفى أموالهم وفي آخر شعبان المذكور وقعت الحرب بينهما بمكناسة فانهزم محمد ودخل عبد الله فاسا في مهل رمضان من السنة وأظهر العفو عن الخاص والعام ثم قتل أهل فاس قائده ابن شعيب وأخذوا حذرهم من عبد الله ثم وقع قتال بين أهل الطالعة وأهل فاس الجديد ودام أياما عديدة حتى اصطلحوا التاسع رجب من سنة تسع وعشرين وألف ثم ان عبد الله خرج لقتال أخيه محمد فوقعت المعركة بينهما بوادي بهت فانهزم محمد وفر شريدا الى أن قتله ابن عمه كما سيأتي ان شاء الله وفي يوم الجمعة خامس ذي القعدة من سنة اثنتين وثلاثين وألف قتل الفقيه العالم القاضي أبو القاسم بن أبي النعيم بعد ان نزل من صلاة الجمعة بفاس الجديد فقتلته اللصوص بباب المدرسة العنانية وفي نشر المثاني قتله اللطيون بالزربطانة لانهم أتهموه بالميل الى عبد الله بن الشيخ فوقع بسبب قتله شر عظيم بين أهل العدوتين من فاس ولم يزل عبد الله في معالجة أهل فاس فتارة يميلون اليه وتارة ينحرفون عنه لفساد سيرته وقبح طويته حتى كان قائده مامي العلج ينهب الدور جهارا ويعطي عبد الله كل يوم على ذلك عشرة آلاف مما ينهب من الناس من غير جريمة ولا ذنب وقام عليه بمكناسة أيضا رجل يقال له الشريف آمغار وقام عليه بتطاوين المقدم أبو العباس أحمد النقسيس ولم يبق في يده الا فاس الجديد وأما فاس القديم فتارة وتارة كما ذكرنا آنفا الا أنه استولى عليها الشريف أبو الربيع والفقيه المربوع ولما قتلا كما ذكرناه آنفا قام بفاس محمد بن سليمان اللطي المدعو الاقرع وعلي بن عبد الرحمن فقتل ابن سليمان وقام أحمد ابن الاشهب مع ابن عبد الرحمن المذكور فوقعت فتن وحروب ثم قام الحاج علي سوسان وابن يعلي وتولى أيضا يزرور ومسعود بن عبد الله وغيرهم من الثوار وكانت فاس أيام هؤلاء على فرق وشيع لا يأمن التاجر على نفسه الا ان استجار باحد من هؤلاء ووقع من الفتن ما أظلم به جو فاس ونتن أفقها العاطر الانفاس وخلا أكثر المدينة واستولى عليها الخراب ودام الشر بين أهل العدوتين حتى كادت فاس تضمحل ويعفو رسمها وحدث غير واحد من الثقات أنه لما دامت الحرب بين أهل العدوتين ولم يكن لاهل الاندلس غلبة على اللطيين قال الشيخ أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الفاسي لا يغلب أحد اللطيين ما داموا مواظبين على قراءة الحزب الكبير للامام الشاذلي رضي الله عنه وكانت طائفة من اللطيين يقرؤونه كل صباح بزاوية سيدي رضوان الجنوي من عدوة اللطيين فسمع ذلك أهل عدوة الاندلس

فاحتالوا

فاحتالوا على ابطال قراءة ذلك الحزب بان بعثوا أحدا فاحتال على أولئك الذين يقرؤنه فاستضافهم فباتوا عنده جميعا في منزله فلما طلع الفجر أو كاد زعم ان مفتاح الدار قد سقط منه وتلف ولم يزل يعاني فتحها الى ان طلعت الشمس فخرجوا ولم يقرؤا الحزب ذلك اليوم وأخبر أهل الاندلس بذلك فحملوا على أهل عدوة اللطيين فهزموهم وتحكموا فيهم مع انهم كانوا لم يجدوا اليهم سبيلا قبل ذلك ببركة حزب الشاذلي رضي الله عنه ﴿وذكر بعضهم﴾ أن سبب هذه الفترة ما حكي أن عبد الله بن الشيخ عزم على التنكيل باهل فاس في بعض غلباته عليهم أيام خروجهم عليه فاستشفعوا اليه بالصالحين المجذوبين سيدي جاول بن الحاج وسيدي مسعود الشراط وكانا من الملامتية فلما وقفا بين يديه قال أما وجد أهل فاس شفيعا غير هؤلاء الخراثين في ثيابهما فغضب سيدي جاول وقال والله لا تصرّف فيها يعني فاسا أحد أربعين سنة وانصرفا فيقال ان عبد الله بن الشيخ انقلبت معدته فخرج غائطه من فمه أياما الى ان أتي بالشيخين فاسترضاهما فكان أمر فاس كما قال سيدي جاول لم يطأطئ رؤس أعيانها سلطان الى ان جاء الله بالمولى الرشيد ابن الشريف السجلماسي رحمه الله كما سيأتي وانما كان يتصرف فيها رؤساء أهل فاس الذين يسمونهم السياب قال اليفرني وهذه حكاية صحيحة سمعتها من غير واحد بفاس وملخصها ما ذكرناه ولم يزل عبد الله في محاربة أهل فاس القديم من سنة عشرين وألف الى ان توفي في يوم الاثنين الثالث والعشرين من شعبان سنة اثنتين وثلاثين وألف بسبب مرض اعتراه من اسرافه في الخمر وادمانه عليه وكان لا يفارقه ليلا ولا نهارا ويتعاطاه سرا وجهارا ﴿قال في شرح زهرة الشماريخ﴾ ولما توفي عبد الله ولي بعده أخوه عبد الملك في شعبان سنة اثنتين وثلاثين وألف ولم يزل مقتصرا على ما كان قد صفا لاخيه الى أن توفي في ذي الحجة سنة ست وثلاثين وألف * ومن آثار عبد الله بن الشيخ القبة التي على الخصة الكائنة أسفل المنارة التي بوسط صحن جامع القرويين فانه لم يكن في القديم الا الخصة المقابلة لها شرقي الجامع المذكور ﴿غريبة﴾ قال اليفرني حدثني شيخنا الفقيه أبو الحسن علي بن أحمد قال كان شيخ شيوخنا الفقيه الامام أبو عبد الله محمد بن أحمد ميارة يقول ان أحمد بن الاشهب الذي تقدم ذكره قبل في الثوار أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم قال والحديث بذلك مذكور في كتاب الجامع الكبير للحافظ جلال الدين السيوطي رحمه الله اهـ وقتل ولد ابن الاشهب رابع جمادى الاولى سنة خمس وأربعين وألف قتله علي بن سعد في جامع القرويين وهو في صلاة العصر وقامت بسبب ذلك حرب بين أهل عدوة الاندلس واللطيين وانتهبت السلع التي بسوق القسارية وسوق العطارين وبني اللطيين الدرب الذي بباب العطارين واستمرت الحرب نحو ثمانية أيام ثم اصطلحوا

## ﴿ثورة أبي زكرياء بن عبد المنعم بالسوس ومغالبته لابي حسون السملالي﴾
## ﴿المعروف بابي دميعة على تارودانت﴾

كان الفقيه أبو زكرياء يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي لما رجع من مراكش الى السوس حسبما مر بداله في طلب الملك وجمع الكلمة لما رأى من افتراقها في حواضر المغرب وبواديه وكان المرابط أبو الحسن علي بن محمد بن محمد ابن الولي الصالح أبي العباس أحمد بن موسى السملالي ويقال له أيضا أبو حسون قد ظهر بالصقع السوسي عند فشل ريح السلطان زيدان به واستولى على تارودانت وأعمالها فلما ثار الفقيه أبو زكرياء سار الى تارودانت فتغلب عليها وملكها من يد أبي حسون المذكور وبعد أن وقع بينه وبينه معارك ومقاتلات كبيرة وكان القاضي بتارودانت يومئذ الفقيه العالم أبو مهدي عيسى بن عبد الرحمن السكتاني وكان أبو زكرياء قد استشاره فيما عزم عليه فلم يوافقه على ذلك ولم يساعده على مراده لما فيه من الخروج على السلطان بلا موجب فغضب عليه الفقيه أبو زكرياء حتى أمر بقتله غيلة فيما قيل فخرج القاضي من المدينة خائفا يترقب وذهب الى مراكش فاستقر بها وعصمه الله منه

وكتب الى أبى زكريا برسالة يعظه فيها وينهاه عن الخروج على السلطان ونصها

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ﴾

يقول الفقير الشديد الحاجة الى رحمة مولاه الغنى به عمن سواه السائل منه التوفيق واللطف فى ظعنه ومأواه كاتبه عيسى بن عبد الرحمن السكتانى عفا الله عنه وسمح له الحمد لله الذى جعل الصدع بالحق وظيفة الانبياء وأورثه بعدهم من خلقه فريق العلماء والصلاة والسلام على من أكد أمر النصح وقال الدين النصيحة فقيل لمن يارسول الله فقال لله ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم والرضا عن آله وصحبه الذين سلكوا سبيله وانتهجوا من المناهج طريقه وعن التابعين وتابع التابعين لهم الى وقوع القصاص بين الخليقه وبعد فانى لما قفلت بحمد الله بسلامة وعافية الى جبلى وجدت أهلى وأولادى مستوحشين من البادية وان كانت محل سلفى ومقر تلادى بعد أن ألفوا الحواضر وطبعوا على طباعها فكانوا أحق بها وكنت فى غاية الضيق والتأسف لما حل بالاولاد فتذكرت قول بعض فقهاء الاندلس ممن نابه مثل ما نابنى وأصابه مثل ما أصابنى

أليس من القبيح مقام مثلى * بدار الخسف منكسف الجمال
أخالط أهل سائمة وسرح * وأرتع بين راعية الجمال

فأجلت فكرى وان كان الكل بقدر الله وارادته فرأيت ان ذلك وفى القضاء لطف أمر انتجه كما لا يخفى على ذى بصيرة ما حل بالمغرب من افتراق الكلمة وتلاعب شياطين الانس والجن بذوى العقول منهم فصاروا أحزابا وفرقا فاتبعت كل طائفة من هواها ما كانت تعبد حتى اذا عرض لعاقل أو عرض عليه منهم الاقلاع بادره الشياطين فسدوا عليه بابه وأروه باغوائهم وزينوا له ان ذلك يشينه لدى العامة ويوجب له السقوط من أعين الناس مع أنه لا يعده من السقوط الا الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس وأين يغيب عن الموفق ان السقوط من عين الله هو الطامة الكبرى وأين غاب عنه ان العبرة بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لا بكلام الهمج الرعاع ممن لا يزال الشيطان يلعب به آخذا بزمامه ساكنا على قلبه ولسانه وأين يغيب عنه من كتاب الله فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هى المأوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى فقلت انا لله وانا اليه راجعون هذه مصيبة عظيمة نزلت بمغربنا فافترق ملأهم وقتلت سرواتهم وانتهبت أموالهم وهتكت حرمهم ومزقت أعراضهم وفسدت أديانهم واختلت وبعدت عن التوفيق آراؤهم وكادت تطمع بل طمعت فيهم أعداؤهم اللهم ياذا الطول والامتنان ياحنان يامنان ياذا الجلال والاكرام تداركنا بألطافك الخفية فى ديننا ودنيانا ياخالق الارض والسماء ﴿فان قلت﴾ ماذكرته من انجلاء وجلك من الحواضر الى البوادى هو نتيجة افتراق الكلمة كما فعله من يقتدى به من الصحابة رضى الله عنهم فتبدى صحيح وما دليلك على التلاعب ﴿قلت﴾ ما خرجه أئمة الصحاح من منع الخروج على الائمة وان الواجب فى حق من رأى منهم ما يكره الصبر والاحتساب اذ غائلة الجور وان تفاحش أقل بكثير من غائلة الخروج الذى يترتب عليه فساد المهج والاموال والاعراض والاديان وهتك الحرم ولهذا صبر على الحجاج من علماء الصحابة والتابعين من صبر حتى لقوا الله تعالى سالمى الاديان وبعبادته مغتنمى الزمان وتذكرنا بالعهد من قدم بالمرابط أبى محلى كان فى قطره عالى الصيت يقصد ويتبرك به ويعتقد فيه انه قطب زمانه وبلغ به الحال الى أن سولت له نفسه أو سولها أنه يصلح به ما لم يصلح بغيره من أهل الزمان فقام وأعانه عليه قوم آخرون حتى ملأ الدنيا صياحا ودعاوى وعياطا وأكاذيب لا يشهد لها عقل ولا نقل

فتمرد على المسلمين حتى لم يسلموا من لسانه ويده فقتل ونهب وسب واغتاب وحمل نفسه مالا تطيقه فاستهوته
شياطين الانس والجن والنفس والهوى ثم بعد ذلك كله لم يحصل من سعيه على طائل وآفته الغفلة عن
الكتاب والسنة والرضاع عن النفس حتى انه حكمها فصارت تلعب به الى أن فاه وادّعى بدعاوى استبيح بها
ما كان معصوما من دمه وهلكت بعده بسببه نفوس وأموال وغير ذلك أيشك من ارتاض بالكتاب
والسنة ونظر بعين الشريعة ان فعله ذلك مما جلبه عليه من تجب مخالفته من الشيطان والنفس والهوى
وربما استحسن فعله ذلك من شيعته من ابتلى به أو قلده تقليدا ارديا في فعله فان توليت فانما عليك
اثم الاريسيين والى الآن كانوا يستصوبون فعله ويستحسنون قوله مع انه بمعزل من الكتاب والسنة
﴿فان قلت﴾ وهذه طائفة الفقراء ما بين متعصب متحزب ومتحيل متصيد ومتسور على ما استأثر به
البارى من الغيوب مرتكب للآثام مصر على العيوب ﴿قلت﴾ وهذه طائفة الفقراء فيها جل
ما تقدم وزيادات تضيق عن الاحاطة بها السطور والطروس قد بددتها والعياذ بالله الفتن وشردها
ما تخوفته من المحن بانت العلوم واضمحلت الفهوم وتعطلت الرسوم فلا منطوق يذكر ولا مفهوم

هذا الزمان الذي كنا نحاذره * في قول كعب وفي قول ابن مسعود

﴿قلت﴾ وهذا الشيخ أبو زكرياء وهو الذي يساق الى نصحه الحديث كنا نستسقي به ونستشفي وكانت
تشد اليه الرحال ولا يأنف من اتيانه النساء والرجال قد أتته من أقطار مغربنا الوفود ودانت له
الذئاب والاسود وكان يعلم الجهال ويهدي الضلال ويطعم الجائع ويكسو العريان ويعين ذا الحاجة
ويغيث اللهفان وهي سبيل يا لها من سبيل وطريقة ما أحسنها من طريقة ثم صارت تلك الجموع وكان
أمر الله قدرا مقدورا أيدي سبا وتلاشت شذر مذر ما لها من نبا أيها الشيخ أكرمك الله بتسديده أو تجد
في الوجود ملكا أعظم من ذلك الملك فتطلبه أو سلطانا يوازيه أو يقاربه فتحاوله أين خفي عليك الشيء
وهو ضروري أم أين ضلت عنك النصوص من الكتاب والسنة وأنت منقولي معقولي ألم يأن
للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم وان أبغض
الكلام الى الله أن يقول الرجل للرجل اتق الله فيقول عليك نفسك وهو طرف من حديث خرجه النسائي
قد وعظتك وذكرتك ان نفعت الذكرى قال جل من قائل وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين

فقلت من التعجب ليت شعري * أأيقاظ أمية أم نيام

فان قال شيطان من شياطين الانس أو الجن هذا ما أريد به وجه الله قلت الله الموعد اياكم والظن فان
الظن أكذب الحديث وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وان خطر هذا وهجس بقلب الشيخ أكرمه
الله والشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم قلت أدل دليل على انى قصدت محض النصيحة هو انه
استصحبني على دفاع أبي محلي فنصحته وقلت له ان هذا لا تستقيم معه الديانة فكأنه ما قبل فانفصلت عنه
وهو يقول استخر لي الله فكاتبته بان لا يفعل ثم لما نزل وكان على باب الغزو من تارودانت خلوت به فقلت
له اذ ذاك ان الناس يقولون كذا وكذا وعرفته اذ ذاك بما عرفته من أبناء الزمان فجمعنا في رملة الى الآن
أتخيل حرها وتبرأ من كل ما يقال وما زلت على المنع الى ان جاءت كراريس من قبل أبي محلي فتأملتها
فوجدتها مشتملة على كفريات في جزئيات فحينئذ شرح الله صدري لاباحة دفاعه ثم وان قلت ذلك فنفسي
آمرة ولا أقول في نفسي ما كان يقوله سحنون في قضية ابن أبي الجواد مالي وله الشرع قتله ولو قلت أو
غششت لغششت في قضية ذلك الرجل وزينت لك قتاله أولا لان ذلك هو مقتضى التعصب للامير واذ لم
أتعصب اذ ذاك فكيف أستسهله الآن فتعين انى نصحت لكم ان قبلتم والا فكما قال تعالى عن نبي من
أنبيائه ولكن لا تحبون الناصحين أنشدك الله الذي باذنه تقوم السموات والارض أما قلت لك بعد
رجوعي العام الاول من مراكش بل الذي قبله أن العذر لا يحسن وصرحت ولوحت بان شق العصا

لا يحل غير مرة وما كفانى القول الدال على ذلك الى أن زدت الفعل بالخروج من مدينة لا أبغضها كما قال

فوالله مافارقتها عن قلى لها * وانى بشطى جانبيها العارف

ورضيت بالبادية مع جفائها فرارا من الفتن وعملا بقوله صلى الله عليه وسلم يوشك أن يكون خير مال الرجل غنما يتبع به سعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن ثم بعد فعلى هذا كله نصحت فلم أفلح وخانوا فافلحوا وعدوا على من القبائح طاعتى للائمة مع انك يوم جاء الى دارك قلت لهم هذا أميركم ونحن لا نشك انك من المعتبرين فى مغربنا وان بيعتك لاحد لازمة لنا وكذلك حين ذهبت الى مراكش فى وقعة أبى محلى قد أراد أهل مراكش فابيت وأبحت البلاد لخدم الامير وقلت لهم انه الامير وفهمه الناس عنك بلسان الحال وبلسان المقال ونصروه بمرءى منك ومسمع أفتشك بعد ان كان منك هذا انك مبايع وأنت قدوة واذا كان هذا فاى حجة لك على الامير ولا على المأمورين فمن زين لك قتاله فقد غشك اذ هو مسلم وابن مسلمين فان قلت موافقتى مشروطة بشروط لم يوف لى بها قلت هب انه لم يوف لك أفتستبيح قتاله لاجل ذلك والرسول صلى الله عليه وسلم يقول اذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار الحديث فبالله أيها الشيخ ماتقول فى هذا الحديث وأنظاره وماتقول فيما انتهب أو عسى أن ينتهب من أموال الناس وأخذ بغير حق وأنفق فى سبيل الطاغوت والرسول صلى الله عليه وسلم يقول لا يحل مال امرئ مسلم الا عن طيب نفس أوما تستحى من ربك يوم تسأل عن النقير والقطمير ولست ممن خفى عليه ذلك كله فتعذر عند المخلوقين أوما علمت أن كثيرا من العوام يعتقد جواز ذلك اذا رآك ارتكبته فتكون قد سننت هذه السنة وضل بسبب ذلك كثير من الناس أوما خشيت دعوة المظلوم التى ما بينها وبين الله حجاب أوما كنت تعير من يرتكب مثل ذلك من الولاة وتتأسف عليه لا تعير أخاك المؤمن الحديث

لا تنه عن خلق وتأتى مثله * عار عليك اذا فعلت عظيم

أما انتبهت لما وقع لاهل درعة من النهب والسلب واسترقاق الاحرار وهتك الحرم ان دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام الحديث وقد أتانا السؤال من قبل الشيخ عن صنيع سكانه ذلك ولم يستطع اذ ذاك من نظر بنور العلم أن يقول لهم فى وزر نظر الى ما آل اليه الحال فى أهل درعة مع ان جلهم حملة القرآن وعامتهم بله وأكثر أهل الجنة البله أفيليق بحق الصلحاء أن يسلط عليهم من لا يرحمهم ولا تنزع الرحمة الا من قلب شقى انما يرحم الله من عباده الرحماء من لا يرحم لا يرحم ارحموا من فى الارض يرحمكم من فى السماء أونسيت أنه يقتص للجماء من القرناء وأن الظلم الذى لا يتركه الله ظلم الناس بعضهم لبعض أفى علمك ان حسناتك تفى بما عليك من التباعات أو أنه لا تباعة لاحد عليك ولو كنت بدريا الاحتمل أن يقال فى شأنك ما قاله صلى الله عليه وسلم لعمر وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم أو كما قال عليه السلام والظلم ظلمات يوم القيامة أو تستطيع أن تقتحم ظلمات الصراط وأنت مسؤل عن القيراط وحتى أهل تارودانت بلغنا أنهم لم يغن فى شأنهم الترويع بل بلغ بهم الحال والجور الى التقريع فاتق الله أيها الشيخ ولا تكن كمن اذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم هذا ما يتعلق ببعض حقوق الناس على العموم ويتعلق بحق كاتبه على الخصوص انك أخذت عليه أن يؤدى الطاعة للامير ويرعى ما هو من شيم المؤمنين من حسن العهد والتبرى من الغدر وشق العصا بعد ان بذل وسعه فى نصحك نصح الامير وحاول بكليته على جمع الكلمة وتعب فى ذلك واقتحم فيه عقبات لا يقطعها الا بازل ولا سبيل اليها لمن يكون فى دينه وعمله مثلى عن هو نازل

لعمر أبيك ما نسب المعلى * الى كرم وفى الدنيا كريم

ولكن البلاد اذا اقشعرت * وصوح نبتها رعى الهشيم

اذا غاب ملاح السفينة فارتمت * بها الريح هو جادبرتها الضفادع

ولكن ليس من شرط النصيحة كمال الناصح كما انه ليس من شرط تغيير المنكر عدم ارتكاب المغير ما غير لان هذه طاعة وتلك أخرى والتوفيق بيد الله سبحانه نعم بلغني مع ذلك وجزم لي به أنك مع بذل النصح لك وللأمير أصلح الله الجميع وأصلح ذات بينهم أخذت علي بالرصد في قفولي لصبيتي والرجوع اليهم رعاية لما يجب ويندب من حقوقهم وهل هذا الاحكم الهوى والشيطان أعندك ما تستبيح به ذلك مع أني والحمد لله أينما كنت لا أسعى الا في مصلحة جهد الاستطاعة أو بث نصيحة حين لا أرى من يبثها أو اغاثة ملهوف حين تجب اغاثته لئن بسطت الي يدك لتقتلني الآية ولكن الله عز وجل يقول ولا يحيق المكر السيئ الا بأهله وفي التوراة من حفر حفرة فليوسعها ولا تحفرن بئرا تريد بها أخا فاني وجدت ما يسوغ لك ارتكاب مثل هذا قولا أو فعلا أو اشارة أو تصريحا أو تلويحا وأي جريمة توازي هذه الجريمة أو كبيرة من الآثام أكبر منها والله الموعد وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون هذا والسعاية المصحوبة بسوء الى عن دفاع سكانه أين تجدون ما يوجب اباحتها أين غاب عنكم انها من الكبائر وأين غاب عنكم قوله صلى الله عليه وسلم ان الرجل ليتكلم بالكلمة يهوى بها في النار سبعين خريفا أهذا من أخلاق المؤمنين والصالحين وأنت من بيت الصلاح ما كان جدك يرضى مثل هذا وما كان أبوك امرأ سوء وهذا والله أعلم نتيجة قرناء السوء ولا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله والى هذا ينتهي حق الصحبة أعني بذل النصح ان الله يسأل عن صحبة ساعة ونحن صحبناك واعتقدناك ونصحناك ووعظناك انصر أخاك ظالما أو مظلوما فنصرناك بالرد الى الجادة أين أنت من مولانا الحسن بن علي اذ تخلى عن الامر لابن عمه معاوية مع انه هاشمي علوي فاطمي احدى ريحانتي النبي صلى الله عليه وسلم ومعاوية أموي يجمعهما عبد مناف فتخلى عن الامارة مع انه امام وابن امام وأصلح الله به وهو سيد بين فئتين عظيمتين من المسلمين بعد ان كان يلقب بامير المؤمنين فقال له بعض أصحابه اذ سلم عليه ياعار المؤمنين فلم يكترث بذلك وقال النار أشد من العار ألهمنا الله واياكم رشد أنفسنا وجعلنا واياكم من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه انتهى ولم يزل الفقيه أبو زكرياء مصمما على طلب جمع الكلمة الى أن اخترمته المنية ﴿قال صاحب الفوائد ماصورته﴾ قام الشيخ أبو زكرياء بجمع الكلمة والنظر في مصالح الامة واستمر به علاج ذلك الى أن توفي ولم يتم له أمر انتهى وكانت وفاته ليلة الخميس سادس جمادى الثانية من سنة خمس وثلاثين وألف بقصبة تارودانت وحمل من الغد الى رباط والده فدفن بجنبه رحمه الله

## ﴿بقيـــة أخبار السلطان زيدان وذكر وفاته رحمه الله﴾

قد ذكر المؤرخ لويز البرتقالي في كتابه الموضوع في أخبار الجديدة شيأ من أخبار السلطان زيدان رحمه الله فقال كان السلطان زيدان صاحب مراكش مسالما لنا كافا عن حربنا وكانت القبائل تفتات عليه في غزونا فكانت غاراتهم لا تنقطع عنا وكان هو أيضا معهم في شدة ومكابدة من أجل اعوجاجهم عليه ثم ذكر أن من جملة من غزاهم في دولته السيد سعيد الدكالي ﴿قلت﴾ وأظنه والد السيد اسمعيل صاحب الزاوية المشهورة ببلاد دكالة قال فنهض سعيد بجبال وغيره وامتعاض للاسلام وسار الى الجبل الاخضر وغيره فجمع الجموع نحو اثني عشر ألفا وزحف بهم الى الجديدة ووافقه على ذلك قائد آزمور وبعض أشياخ الشاوية وكانوا في نحو مائتين وخمسين من الخيل وارتاع النصارى منهم وخافوا خوفا شديدا وأمرهم قائدهم بالجد في حراسة الاسوار والانقاب وان يسدوا باب الجديدة ولا يفتحوا منه الا خوخته وحاصرهم المسلمون ثلاثا ثم قضى الله بوفاة السيد سعيد فافترق ذلك الجمع قال لويز مات أسفا على ما فاته من الفتك بالنصارى كما يحب ﴿وفي سنة أربع وثلاثين وألف﴾ خرج السلطان زيدان من مراكش وقصد ناحية آزمور ولما انتهى الى الموضع المعروف بام غرس من بلاد دكالة حمل اليه نصارى

الجديدة هدية نفيسة ثم قدم ثغر آزمور فى نحو أربعين ألفا من الخيل على ما زعم لويز ودخل البلد وأخرج أهل آزمور عدة مدافع من البارود فرحا به ولما سمع نصارى الجديدة بذلك أخرجوا مدافعهم أيضا فرحا بالسلطان وأدبا معه ﴿وفى سنة ست وثلاثين وألف﴾ ثار على السلطان زيدان الفقير ابراهيم كانوت هكذا سماه لويز ولم أدر من هو قال وفى خامس عشر من دجنبر من السنة تواقف جيش الثائر المذكور مع جيش السلطان للحرب بيلاد دكالة وكان جيش السلطان يومئذ ألفا وخمسمائة فقط وجعل على مقدمته ابنه عبد الملك فانهزم ابراهيم وقتل وقتل جماعة كثيرة من أصحابه وقبض على ولده فبلغته السلطان مع عدد وافر من رؤس أصحابه الى مراكش وأخرج نصارى الجديدة المدافع أيضا فرحا بهذا الخبر فبعث اليهم السلطان زيدان بفرس أحمر لقائدهم اكراما له وكتب اليهم بكتاب تاريخه سادس رمضان سنة ست وثلاثين وألف مكافأة لهم على أدبهم معه انتهى كلام لويز ﴿وقال اليفرنى رحمه الله﴾ كان السلطان زيدان من لدن مات أبوه المنصور وبويع هو بفاس فى محاربة مع اخوته وأبنائهم ومقاتلة مع القائمين عليه من الثوار الذين تقدم ذكر بعضهم ولم يخل قط فى سنة من سنى دولته من هزيمة عليه أو وقيعة بأصحابه ووقعت بينه وبين اخوته معارك يشيب لها الوليد وكان ذلك سبب خلاء المغرب وخصوصا مدينة مراكش وبما عدّ من نحس زيدان واستدل به على قشل ريحه أنه فى بعض الوقائع بعث كاتبه عبد العزيز بن محمد الثعلبى بعشرة قناطير من الذهب الى صاحب القسطنطينية العظمى وطلب منه أن يمده ببعض أجناده كما فعل مع عمه عبد الملك الغازى فجهز له السلطان العثمانى اثنى عشر ألفا من جيش الترك وركبوا البحر فلما توسطوه غرقوا جميعا ولم ينج منهم الا غراب واحد فيه شرذمة قليلة ﴿وقال منويل﴾ ان قراصين الاصبنيول غنمت فى بعض الايام مركبا للسلطان زيدان فيه أثاث نفيسة من جملتها ثلاثة آلاف سفر من كتب الدين والادب والفلسفة وغير ذلك ﴿قال اليفرنى﴾ وكان زيدان غير متوقف فى الدماء ولا مبال بالعظائم ﴿قلت﴾ وهو مخالف لما ذكره زيدان فى رسالته التى خاطب بها أبا زكرياء المتقدمة من انه ما سعى فى قتل أحد الا بفتوى أهل العلم والظن بزيدان انه ما قال ذلك الاعن صدق والا فن البعيد أن يفخر على خصمه ويدلى بشئ هو متصف بضده وكان زيدان فقيها مشاركا متضلعا فى العلوم وله تفسير على القرآن العظيم اعتمد فيه على ابن عطية والزمخشرى ﴿قال اليفرنى﴾ وكان كثير المراء والجدال كما وقع له مع الشيخ أبى العباس الصومعى ﴿قلت﴾ الذى وقع له مع الصومعى هو انه لما ألف كتابه الموضوع فى مناقب الشيخ أبى يعزى رضى الله عنه وسماه المعزى بضم الميم وفتح الزاى بصيغة اسم المفعول من الرباعى عارضه زيدان وهو يومئذ بتادلا والياعليها من قبل أبيه بانه لم يسمع الرباعى من هذه المادة وانما قالت العرب عزاه يعزوه ثلاثيا فأصر أبو العباس رحمه الله على رأيه الى ان لطمه زيدان على وجهه بالنعل فشكاه الى المنصور فقال له لولطمك وهو المخطئ لعاقبته أما اذ كان الصواب معه فلا ﴿قلت﴾ كان زيدان يومئذ فى عنفوان الشبيبة فصدر منه ما صدر

فان يك عامر قد قال جهلا * فان مظنة الجهل الشباب

ومع ذلك فما كان من حقه أن يفعل وأظن أن انتكاس رايته سائر أيامه انما هو أثر من آثار تلك اللطمة فان لله تعالى غيرة على المنتسبين الى جنابه العظيم وان كانوا مقصرين فنسأله سبحانه أن يجنبنا موارد الشقاء ويسلك بنا مسالك الرفق فى القضاء وللسلطان زيدان شعر لا بأس به منه قوله

فتنتنا سوالف وخدود * وعيون مدعجات رقود

ووجوه تبارك الله فيها * وشعور على المناكب سود

أهلكتنا الملاح وهى ظباء * وخضعنا لها ونحن أسود

﴿وقوله﴾

مررت بقبرهامدوسط روضة * عليه من النوار مثل النمارق
فقلت لمن هـذا فقالوا بذلة * ترحم عليه انه قبر عاشق

وكانت وفاته رحمه الله فى المحرم فاتح سنة سبع وثلاثين وألف ودفن بجانب قبر أبيه من قبور الاشراف قبلى جامع المنصور من قصبة مراكش ومما نقش على رخامة قبره قول القائل

هذا ضريح من به * تفتخر المفاخر
زيدان سبط أحمد * مبتكر المآثر
حامى حمى الدين بكل ذابل وباتر
أجل من خاض الوغا * وللاعادى قاهر
لازال صوب رحمة الله عليه ماطر
ومن شذا رضوانه * نفحة كل عاطر
أرخ وفاة من غدا * جار الرب غافر
بمقعد الصدق علا * أبو المعالى الناصر

ووزراؤه الباشا محمود ويحيى آجانا الوريكى وغيرهما وكتابه عبد العزيز الفشتالى كاتب أبيه وعبد العزيز بن محمد الثعلبى وغيرهما وقضاته أبو عبد الله الرجراجى وغيره وترك عدة أولاد منهم عبد الملك والوليد ومحمد الشيخ وهؤلاء ولوا الامر بعده وأحمد وغيرهم رحم الله الجميع

## الخبر عن دولة السلطان أبى مروان عبد الملك بن زيدان رحمه الله

لما توفى السلطان زيدان رحمه الله فى التاريخ المتقدم بويع بعده ابنه عبد الملك ولما تمت له البيعة ثار عليه أخواه الوليد وأحمد فوقعت بينه وبينهما معارك وحروب الى أن هزمهما واستولى على ما كان بيدهما من العدة والذخيرة وفر أحمد الى بلاد الغرب فدخل حضرة فاس يوم الجمعة الخامس والعشرين من صفر بعد وفاة أبيه بستة وأربعين يوما فاتسم بسمة السلطان وضرب سكته وفى ثالث عشر شوال من السنة عدا على ابن عمه محمد بن الشيخ المعروف بزغودة فقتله غدرا بالقصبة ولما كان الحادى عشر من ذى الحجة سنة سبع وثلاثين وألف أخذ أحمد المذكور وسجن بفاس الجديد على يد قائدهم عبو وباها وبقى مسجونا سبع سنين ثم خرج من السجن مستخفيا بين نساء فى سابع رجب سنة أربع وأربعين وألف وأعان العامة بنصره ولم يتم له أمر ثم توفى قتيلا فى الرابع والعشرين من ذى القعدة سنة احدى وخمسين وألف رمى برصاصة من بعض العامة فكان منها حتفه وذلك بفاس الجديد ولم يتم له أمر

## ظهور أبى عبد الله العياشى بسلا ومبايعة أكابر عصره له على الجهاد والقيام بالحق

قد تقدم لنا انتقاض أندلس سلا على السلطان زيدان وقتلهم مولاه عجيبا فبقيت سلا فوضى لا والى بها فكثر النهب وامتدت أيدى اللصوص الى المال والحريم وسيدى محمد العياشى ساكت لا يتكلم وكثرت الشكايات من التجار والمسافرين بمخافة السبل وقطع الطرقات فاهرع الناس الى أبى عبد الله المذكور من كل جانب وكثرت وفوده وأشرقت فى الجو السلاوى أنواره فشمر عن ساعد الجد وأظهر الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ولما طالبه الناس بالتقدم عليهم والنظر فى مصالح المسلمين وأمور جهادهم مع عدوهم أمر أشياخ القبائل وأعيانها من عرب وبربر ورؤساء الامصار أن يضعوا خطوطهم فى ظهير بانهم رضوه وقدموه على أنفسهم والتزموا طاعته وان أى قبيلة خرجت عن أمره كانوا معه يدا واحدة على مقاتلتها حتى تفئ الى أمر الله فاعطوا بذلك خطوطهم فى ظهير وانهم رضوه وقدموه على أنفسهم ووافق على ذلك قضاة الوقت وفقهاؤه من تامسنا الى تازى وكان الحامل له على طلب ذلك منهم أنه بلغه عن بعض طلبة الوقت أنه قال لا يحل الجهاد الا مع الامير ففعل ذلك خروجا من تلك الدعوى الواهية والا فقد كتب له علماء الوقت كالامام أبى محمد عبد الواحد بن عاشر والامام أبى اسحق ابراهيم الكلالى بضم الكاف المعقودة والامام أبى عبد الله محمد العربى الفاسى وغيرهم بان مقاتلة العدو الكافر لا تتوقف

على وجود السلطان وانما جماعة المسلمين تقوم مقامه ولما كمل أمره وبايعه الناس على اعلاء كلمة الله ورد الظلم عن ضعفاء الامة ضاق الامر على عرب الغرب لاعتيادهم الفساد وعدم الوازع ومحبتهم الخلاف والفتنة فنكث بيعته جماعة منهم وكان ممن نكث الناصر بن الزبير فى لمة من شراكة فقاتلهم أبو عبد الله حتى ظفر بهم ثم عفا عنهم ونكث أيضا الطاغى بالتاء بدل الطاء فى لسانهم مع جموعه أولاد سجير فقتلهم وعفا عنهم وكذلك عرب الحياينة طغوا على أهل فاس وعاثوا خلال تلك البلاد باغراء ولد السلطان زيدان فقاتلهم أبو عبد الله فكانت الدبرة عليهم وتاب على يده جماعة من رؤساء شراكة الذين كانوا مع الحياينة وكانت عاقبة كل من بغى عليه خسرا وكان أهل سلا قد لقوا من نصارى المعمورة مضرة وشدة فلما اجتمعت الكلمة على أبى عبد الله العياشى ورد الله كيد من نكث فى نحره كان أول ما بدأ به أنه تهيأ للخروج الى حلق المعمورة واستعد لقتاله ومنازلة من فيه من النصارى طمعا فى فتحه فيتقوى المسلمون بذخائره وكان المسلمون قد حاصروه قبل ذلك فلم يقدروا منه على شئ وصعب عليهم أمره وكان أبو عبد الله اذا أراد الله أن يظفره بغنيمة رأى فى منامه انه يسوق خنازير أو نحوها ولما سار بجموعه الى الحلق ونزل عليه رأى قطعتين من الخنازير معها عنوز فكان من قضاء الله وصنعه انه فى صبيحة تلك الليلة قدمت أغربة من سفن النصارى بقصد الدخول الى الحلق فضيق عليهم رماة المسلمين الذين بالخندق فأرادوا أن ينحرفوا الى البحر فردهم البحر الى ساحل الرمل هنالك فتمكن المسلمون منهم وقتلوا وسبوا ووجدوا فى الاغربة زهاء ثلاثمائة أسير من المسلمين فأعتقهم الله وأسر يومئذ من النصارى أكثر من ثلاثمائة وقتل منهم أكثر من مائتين وظفر المسلمون بقبطان من عظمائهم ففدى به الرئيس طابق رئيس أهل الجزائر وكان عندهم محبوسا فى قفص من حديد واستقامت الامور لابى عبد الله العياشى بسلا وبنى داره داخل باب المعلقة منها وبنى برجين على ساحل مرسى العدوتين من ناحية سلا وهما المعروفان اليوم بالبساتين ثم كانت غزوة الحلق الكبرى وكان من خبرها أن جيش أهل فاس خرجوا بقصد الجهاد فنزلوا بموضع يعرف بعين السبع وكمنوا فيه ثلاثة أيام وفى اليوم الرابع خرج النصارى الى تلك الجهات على غرة فظفر بهم المسلمون وكان النصارى لما خرج جيش أهل فاس أعلمهم بذلك مسلم عندهم مرتد فاعطوه سلعا وجاء بها الى سلا بقصد بيعها والتجسس لهم على الخبر فأخذ وقتل وعميت عليهم الانباء اذ كانوا ينتظرون من يرد عليهم فيخبرهم ولما أبطأ عليهم خرجوا فلم يشعروا الا بالخيل قد أحاطت بهم وقتل منهم نحو السبعمائة ولم ينج الا القليل حتى لم يبت فى الحلق تلك الليلة الا نحو أربعين رجلا منهم وغنم المسلمون منهم أربعمائة من العدة ولم يحضر أبو عبد الله العياشى فى هذه الوقعة لانه كان قد ذهب الى طنجة حنقا على يوم المسامير لان النصارى خذلهم الله كانوا قد صنعوا نوعا من المسمار بثلاثة رؤس تنزل على الارض والرابع يبقى مرفوعا وبثوا ذلك فى مجالات القتال مكيدة عظيمة تتضرر منها الفرسان والرجالة فلما رجع وأعلم بضعف من بقى بالحلق بعث الى أهل الاندلس بسلا يصنعون له السلالم كى يصعد بها الى من بقى فى الحلق فيستأصلهم فتثاقلوا عن صنعها غشا للاسلام ومناواة لابى عبد الله حتى جاء المدد لاهل الحلق وكانت تلك الرابطة بين أهل الاندلس والنصارى متوارثة من لدن كانوا بأرضهم فكانوا آنس بهم من أهل المغرب فلما أتى أبو عبد الله بالسلالم لم تغن بعد شيأ ومن هنالك استحكمت البغضاء بينه وبين أهل الاندلس وكان أهل الاندلس قد أعلموا النصارى بان محلة أبى عبد الله النازلة لمحاصرة الحلق ليست لها اقامة فبلغ ذلك أبا عبد الله فاقام عليهم الحجة وشاور العلماء فى قتالهم فافتى أبو عبد الله العربى الفاسى وغيره بجواز مقاتلتهم لانهم حادوا الله ورسوله ووالوا الكفار ونصحوهم ولانهم تصرفوا فى مال المسلمين ومنعوهم من الراتب وقطعوا البيع والشراء عن الناس وخصوا به لانفسهم وصادقوا النصارى وأمدوهم بالطعام والسلاح وكان سيدى عبد الواحد بن عاشر لم يجب عن هذه

القضية حتى رأى بعينه حين قدم الى سلا بقصد المرابطة فرأى أهل الاندلس يحملون الطعام الى النصارى ويعلمونهم بعورة المسلمين فافتى حينئذ بجواز مقاتلتهم فقاتلهم أبو عبد الله وحكم السيف فى رقابهم أياما الى أن أخذ بدعتهم وجمع الكلمة بهم ولما وقعت غزوة الحلق الكبرى قدمت الوفود على أبى عبد الله بقصد التهنئة بما منحه الله من الظفر فحض الناس على استئصال شأفة من بقى بالحلق من النصارى وعير العرب بترك الكفار فى بلادهم وكان ممن حضر من العرب جماعة من الخلط وبنى مالك والتاغى والدخيسى وغيرهم فقال لهم أبو عبد الله والله والله والله ان لم تأخذكم النصارى لتأخذنكم البربر فقالوا ياسيدى كيف يكون هذا وأنت فينا فقال لهم اسكتوا أنتم الذين تقطعون رأسى فكان كذلك وهذا من كراماته رضى الله عنه ثم صرف عزمه الى التضييق على نصارى العرائش وشن الغارات عليهم فتقدم فى جمع من المسلمين وكمن بالغابة نحوا من سبعة أيام فخرجوا على حين غفلة فمكن الله من رقابهم وكان فى مدة كمونه بالغابة أخذ حناشا من عرب طليق يقال له ابن عبود والحناش فى لسان عامة أهل المغرب هو الجاسوس فاراد أبو عبد الله قتله فقال له استبقنى وأنا تائب الى الله وأنا أنفع المسلمين ان شاء الله فتركه فذهب الى النصارى وكان موثوقا به عندهم حتى كانوا يؤدون اليه الراتب فقال لهم ان احياء العرب وحلالها قد نزلوا بوادى العرائش فلو أغرتم عليهم لغنمتموهم فخرجوا فمكن الله منهم وطحنهم المسلمون فى ساعة واحدة طحن الحصيد ولم ينج منهم الا الشريد وكان ابن عبود قد بقى بايديهم فاخذوه ومثلوا به ونزعوا اسنانه وأرادوا قتله لولا انه رفعهم الى شرعهم وكان عدد من قتل من النصارى نحو ألف وكانت هذه الوقعة سنة أربعين وألف

## ﴿بقية أخبار السلطان عبد الملك بن زيدان ووفاته﴾

﴿قال اليفرنى﴾ كان عبد الملك بن زيدان فاسد السيرة مطموس البصيرة وبلغ من قلة ديانته أنه تزايد له مولود فاظهر انه أراد أن يحتفل لسابعه فبعث الى نساء أعيان مراكش ونساء خدامه أن يحضرن وصعد هو الى منارة فى داره فنظر الى النساء وهن منتشرات قد وضعن ثيابهن فأيتهن أعجبته بعث اليها وكان مدمنا على شرب الخمر الى ان قتله العلوج بمراكش وهو سكران يوم الاحد سادس عشر شعبان سنة أربعين وألف ودفن الى جنب قبر أبيه وبسط منويل خبر مقتله فقال لما ثار الوليد على أخيه عبد الملك وعادت الكرة عليه بقى متنقلا فى البلاد ثم رغب الى أخيه حتى رده الى مراكش فاخذ الوليد يستميل رؤساء الدولة ووجوهها وتجارها ويعدهم بالاحسان حتى وافقوه على الفتك باخيه فترصدوه حتى غفل البوابون ودخلوا عليه قبته وهو متكئ على طنفسة فرموه برصاصة وتناوله بالخناجر المسماة عند المغاربة بالكميات وقامت الهيعة بالمشور والقصبة فخاف الوليد على نفسه من بعض قواد الجند فاخرج جنازة أخيه الى المشور حتى شاهده الناس ميتا فسكنوا وانقطع أملهم وبايعوه انتهى ﴿قال اليفرنى﴾ ومما رأيته منقوشا على رخامة قبره هذان البيتان

لا تقنطن فان الله منان * وعنده للورى عفو وغفران

ان كان عندك اهمال ومعصية * فعند ربك افضال واحسان

ومن وزرائه محمد باشا العلج ويحيى آجانا الوريكى وجوذر وغيرهم وقاضيه الفقيه أبو مهدى عيسى ابن عبد الرحمن السكتانى قاضى مراكش ومفتيه أبو العباس أحمد السملالى رحم الله الجميع

## ﴿الخبر عن دولة السلطان أبى يزيد الوليد بن زيدان رحمه الله﴾

لما قتل السلطان عبد الملك بن زيدان فى التاريخ المتقدم بويع أخوه الوليد بن زيدان فلم يزل مقتصرا

على ما كان لاخيه وأبيه من قبله لم يجاوز سلطانه مراكش وأعمالها وعظمت الفتن بفاس حتى عطلت الجمعة والتراويح من جامع القرويين مدة ولم يصل به ليلة القدر الا رجل واحد من شدة الهول والحروب التي كانت بين أهل المدينة واقتسم المغرب في أيام أولاد زيدان طوائف فكان حاله كحال الاندلس أيام طوائفها كما ذكرناه ونذكر بعد ان شاء الله

﴿ظهور أبي حسون السملالي المعروف بابي دميعة بالسوس ثم استيلاؤه على درعة وسجلماسة وأعمالهما﴾

هذا الرجل هو أبو الحسن ويقال أبو حسون علي بن محمد بن محمد ابن الولي الصالح أبي العباس أحمد بن موسى السملالي وكان بدء أمره أنه لما ضعف أمر السلطان زيدان بالصقع السوسي وفشل ريحه فيه نبغ هو فدعا لنفسه وجرّ نار الرياسة الى قرصه وتألبت عليه البرابرة من بسائط جزولة وجبالها والتفت عليه غالب القبائل السوسية فاستولى على تارودانت وأعمالها الى ان أخرجه عنها الفقيه أبو زكرياء بن عبد المنعم بعد حروب وفتن عظيمة حسبما مرت الاشارة اليه ولما توفي أبو زكرياء في التاريخ المتقدم صفا لابي حسون قطر السوس ونفذ فيه أمره وسمعت كلمته ثم بعد مهلك زيدان مد يده الى درعة فاستولى عليها ثم استولى على سجلماسة ونواحيها فاستحكم أمره وتقوى عضده ولم يزل أمره نافذا في سجلماسة الى أن ثار عليه الاسد الهصور المولى محمد بن الشريف فاخرجه من سجلماسة بعد حروب يشيب لها الوليد ثم أخرجه من درعة أيضا على ما نذكره بعد وقد وقفت على سؤال رفع من جانب أبي حسون الى القاضي أبي مهدي السكتاني في شأن مدينة ايليغ دار رياسته ومقر عزه يستفتيه في احداث كنيسة اليهود بها هل يجوز أم لا وفيه مع ذلك بعض الكشف عن حال هذه المدينة فلنذكره ونصه

الحمد لله الذي ارتضى للاسلام دينا وأنزل به على خيرة خلقه كتابا مبينا الفقيه الاجل العلامة الاحفل القاضي الاعدل خاتمة المحققين ومعتمد الموثقين أبا مهدي عيسى بن عبد الرحمن السكتاني وفقه الله لما يرضيه وأعانه على ما هو متوليه السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فقد تقرر عند سيدنا أمر هذه الحضرة العلية العلوية ايليغ أدام الله بهجتها كما رفع كغيرها من الحواضر درجتها وانها محدثة فتوفرت ببركة بانيها عمارتها ومبانيها فاتخذها مسكنا أهل السهول والحزون وجمعت لطيب تربتها بين الضب والنون فنزلها برسم الاستيطان أوشاب من أهل الذمة باذن مختطها الامام العالي الهمة فاختطوا بها عن اذنه منازلهم وبنوا بفنائها كنيستهم وصيروها متعبدهم فاتفق والحديث شجون أن جرى ببعض أندية علمائها ومحضر جمع من نبهاء البلدة وفقهائها كلام أفضى بهم الى ذكر الكنيسة المذكورة والمجادلة في محصل الحكم الشرعي فيها في الدواوين المسطورة فأفتى بعضهم بوجوب هدمها لانها محدثة ببلاد الاسلام ولما في تركها من المفاسد العظام وانها لا تترك لهم متعبدا وجزم الكلام وقال هذا محصل ما ذكره في مثل هذه القضية الاعلام وأفتى فريق بجواز ابقائها وانه لا ينبغي تقويض بنائها ولا التعرض لهم في احداثها اذ على مثل هذا من دينهم الفاسد أقروا وأعطوا الذمة فاعطوا الجزية صاغرين ولم يرد منع اجتماع دينين الا في جزيرة العرب وكم من بلد اسلامي محدث مشحون بالعلماء أحدثت فيه ولم يقولوا بمنعه وتواطؤهم على تركها كالنص والدليل على جواز احداثها وابقائها بعده واستمر الحجاج وكثر اللجاج ولم يقنع كل فريق بما أبداه الآخر من الاحتجاج فعطلت لذلك الى أن تفرقوا فيها بحكم النافع بين العذب والاجاج بفتوى تبين صحيح الاقوال من سقيمها وتفصل بين ليلى وغريمها ولولا محل النازلة من الدين مارفعت اليكم فلذلك وجب الجواب عنها عليكم مع مسئلة أخرى وهي انهم طلبوا أن تترك لهم بقعة يوارون فيها جيف موتاهم لان مسافة ما بينهم وبين افران التي هي مقبرة قديمة لهم بعيدة هل يساعفون أم لا والله يبقيكم ومجدكم محروس وظل من استنزلكم منكوس والسلام عليكم ﴿الجواب﴾

الحمد لله وعلى فقهاء بلادنا السوسية حرسها الله وأكرمهم باتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم السلام ورحمة الله وبركاته أما بعد فقد وقف كاتبه عفا الله عنه على نازلة أهل الذمة النازلين بايليغ مختط أولاد السيد البركة قطب بلادنا سيدى أحمد بن موسى نفعنا الله ببركاته وبارك فى ذريته وسددهم لما فيه رضاه آمين ولما وقفت عليها وتأملتها رأيت أن الصواب فيها الفتوى بمنع احداث أهل الذمة الكنائس فيها وبهدم ما بنى فيها بعد احداثه لان ايليغ من بلاد الاسلام ولا فيه شبهة لاهل الذمة الطارين عليه لا باعتبار الفتح العنوى ولا باعتبار الصلحى على الخلاف فى المغرب باعتبار فتحه وحاصل أمرها خفاء الحال فيها واذا كان الامر هكذا فالحكم انها ملك لمدعيها الحائزلها والاراضى أقسام أرض اسلام لا يجوز احداث الكنائس بها باتفاق ثم ان وقع شئ من ذلك هدم وأرض ايليغ من هذا القسم فان ملكوا الارض التى بنوا فيها الكنيسة بوجه من وجوه التملك كالعطية وجب هدمها ونقضها ويكون لهم ما يسوغ من المنافع وان كان بناء الكنيسة شرطا ردت العطية وفسخ البيع ان كان به لانه فى معنى التحبيس على الكنيسة والحاصل ان وجه دخول اليهود ايليغ معلوم وان بلده ملك للاسلام فبناء اليهود فيها الكنائس معصية وتمكينهم منه اعانة عليها وهذا لا يخفى وأما الجواز والافتاء به فى النازلة فبمعزل عن الصواب والاستدلال على الجواز بحواضر المغرب وسكوت علمائها وموافقة أمرائها لا يتم لان أصل تمكينهم من الكنائس مجهول اذ يحتمل أموراً منها انه يحتمل ان يكون بعهد كان لهم فى غير تلك البلاد من اقرارهم على بلد يسكنونه مع بقائهم على متعبداتهم ثم نقلوا المصلحة اقتضت ذلك أو أرجح ولان البلاد تقدم فيها اليهود وغيرهم من أهل الصلح والحاصل أن وجه دخولهم مجهول فى هذه البلاد بخلاف ايليغ ونازلة ايليغ معلومة الدخول فبينهما بون فقياس احداهما على الاخرى لا يصح وبالله التوفيق وكتب عيسى بن عبد الرحمن وفقه الله آمين ولما علم المرابط بالحكم أمر بهدمها ومنع اليهود مما أرادوه

## ﴿بقيــــة أخبار السلطان الوليد بن زيدان ووفاته رحمه الله﴾

﴿قال فى شرح الزهرة﴾ كان الوليد بن زيدان متظاهراً بالديانة لين الجانب حتى رضيته الخاصة والعامة وكان مولعاً بالسماع لا ينفك عنه ليلا ولا نهاراً الا انه كان يقتل الاشراف من اخوته وبنى عمه حتى أفنى أكثرهم وكان مع ذلك محباً فى العلماء مائلا اليهم بكليته متواضعاً لهم وله ألف القائد أبو الحسن على ابن الطيب منظومته المشهورة فى الفواكه الصيفية والخريفية وألف القاضى أبو مهدى السكتانى شرح صغرى الصغرى للسنوسى برسمه والقصبة المعروفة بالوليدية على ساحل البحر المحيط فيما بين آسفى وتيط هى منسوبة اليه وأظنها من بنائه والله أعلم ﴿وأما وفاته﴾ فسببها أن جنده من العلوج طالبوه بمرتبهم وأعطياتهم على العادة وقالوا له أعطنا مانأكل فقال لهم على طريق التهكم كلوا اقشر النارنج بالمسرة فغضبوا لذلك وكمن له أربعة منهم فقتلوه غدراً يوم الخميس الرابع عشر من رمضان المعظم سنة خمس وأربعين وألف ﴿وقال منويل﴾ لما ولى الوليد قتل أخاه اسمعيل واثنين من أولاد أخيه عبد الملك وسبعة من بنى عمه ولم يترك الا أخاه الشيخ بن زيدان استصغاراً له اذ كان سنه يومئذ احدى عشرة سنة وكانت أمه تخاف عليه من الوليد فكانت تحرسه منه حراسة شديدة وألقى الله محبته فى قلب سائر نساء القصر لما رأين من هلاك الاعياص وعرضة الملك للزوال وكن حازمات يقمن مقام الرجال حتى ان بعضهن كانت لها طبنجات فى حزامها دائماً تحرس الشيخ من أخيه الوليد ثم ان رؤساء الدولة سئموا ملكته فاتفقوا مع نساء القصر على قتله وكان الوليد عازماً على قتل أخيه الشيخ أيضاً فاحتال بان صنع ذات ليلة صنيعاً عظيماً وطعاماً كثيراً دعا اليه وجوه الدولة وأعيان مراكش وكان أخوه الشيخ عنده فى الدار لا يتركه يخرج بحال وعزم انه اذا اشتغل نساء القصر بامر الطعام ونحوه خالف اليه وقتله فكان

من قدر الله أن العلوج قد عزموا فى تلك الليلة على اغتيال الوليد فكمنوا له فى الحجرة التى كان الشيخ محبوسا فيها ثم لما جاء الوقت واجتمع الناس فى القبة التى أعدها لهم الوليد قام ودخل الى الحجرة التى فيها الشيخ للفتك به فوجد الاعلاج كامنين له هنالك فلما رآهم فزع وقال مالكم فرموه بالرصاص ثم تناولوه بالخناجر حتى فاظ انتهى

## ﴿الخبر عن دولة السلطان أبى عبد الله محمد الشيخ بن زيدان رحمه الله﴾

لما قتل السلطان الوليد فى التاريخ المتقدم اختلف الناس فيمن يقدمونه للولاية عليهم ثم أجمع رأيهم على مبايعة أخيه محمد الشيخ والقاء القياد اليه فاخرجوه من السجن وكان أخوه الوليد قد سجنه اذ كان يتخوف منه الخروج عليه فبويع بمراكش يوم الجمعة الخامس عشر من رمضان سنة خمس وأربعين وألف ولما بويع سار فى الناس سيرة حميدة وألان الجانب للكافة وكان متواضعا فى نفسه صفوحا عن الهفوات متوقفا عن سفك الدماء مائلا الى الراحة والدعة متظاهرا بالخير ومحبة الصالحين وهو الذى بنى على قبر الشيخ أبى عبد الله محمد بن أبى بكر الدلائى بزاويته قبة حافلة البناء رائقة الصنعة الا انه كان منكوس الراية مهزوم الجيش وبسبب ذلك لم يصف له مما كان بيد أبيه واخوته الا مراكش وبعض أعمالها وقد ثار عليه رجل من هشتوكة خارج باب الخميس من مراكش وقاسى فى محاربته تعبا شديدا ولم يزل يناوشه القتال الى ان كانت له عليه الكرة فتفرق جمعه ثم خرجت عليه أيضا قبيلة الشبانات فقصدهم وكانت الملاقاة بينه وبينهم عند جبل الحديد فانهزم هزيمة شنعاء ثم حدث بينه وبين أهل زاوية الدلائى ما نذكره بعد ان شاء الله ﴿ومما ذكره منويل من أخباره﴾ أنه كان محسنا للسائر رعيته وكان حاله على الضد من جور أخيه الوليد وعسفه قال وسرح الفرايلية الذين كانوا فى سجن مراكش وأعطاهم الكنيسة التى بالصحينة منها وخالفت عليه سلا وأعمالها انتهى

## ﴿بقيــــة أخبار أبى عبد الله العياشى بسلا والثغور وما يتبع ذلك﴾

كان أمر أبى عبد الله العياشى بسلا وسائر بلاد الغرب على ما وصفناه قبل من جهاد العدو والتضييق عليه والمصابرة له والابلاغ فى نكايته فانتعش به الاسلام وازدهت الايام ودخلت فى طاعته القبائل والامصار من تامسنا الى تازا كما قلنا لا سيما فاس وأعلامها فانهم قد شايعوه وتابعوه على ما كان بصدده من الجهاد والرباط وحصل لهم بصحبته وولايته أتم اغتباط ولم يزل فى نحر العدو الى ان أمن سرب المسلمين وحق القول على الكافرين

## ﴿وفادة أعلام فاس وأشرافها على أبى عبد الله العياشى بسلا﴾

هذه الوفادة قد ذكرها الامام العلامة أبو عبد الله محمد بن أحمد ميارة الفاسى فى فاتحة شرحه الصغير على المرشد المعين ﴿قال فى نشر المثانى﴾ وسببها ما وقع من الحرب بين أهل فاس وبين الحياينة وشراقة على قنطرة وادى سبو وقتل فيها من أهل فاس خمسة وأربعون رجلا فخرج شرفاء فاس وفقهاؤها الى سلا مستغيثين بابى عبد الله العياشى قال وكان الذى أغرى الحياينة بفاس هو أحمد بن زيدان التفوا عليه وقاموا بدعوته ووصلوا أيديهم بشراقة وفعلوا بفاس وأهلها الافاعيل حتى اختطفوا فى بعض الايام نساءهم من الجنات وباعوهن فى القبائل وفعلوا بهن ما لا يجوز ﴿قال الشيخ ميارة﴾ قد من على ذو العظمة والجلال الكريم المتفضل المتعال بزيارة الولى الصالح العالم العامل السالك قطب الزمان وكهف الامان المجاهد فى سبيل رب العالمين المرابط فى الثغور مدة عمره لحياطة المسلمين ذى الكرامات الشهيرة العديدة والفتوحات العظيمة الجيدة من لا شبيه له فى عصره وما قرب منه ولا نظير ولا معين

له على نصرة الاسلام ولا نصير الا الله الذى تفضل به علينا وأقره بعنه وجوده بين أظهرنا فهو كما قيل

حلف الزمان ليأتين بمثله * حنثت يمينك يا زمان فكفر

البركة القدوة المجاب الدعوة أبى عبد الله سيدى محمد بن أحمد العياشى أبقى الله بركته وعظم حرمته وبلغه من خير الدارين امنيته وأطال للمسلمين عمره وقواه وجعل الجنة نزله ومأواه مع جماعة من أعيان الساده من الشرفاء والفقهاء القاده وذلك أواسط ذى الحجة الحرام متم سبعة وأربعين وألف عام وهو رزقنا الله رضاه بثغر سلا أمنها الله من كل مكروه وبلا فاجتمعت اذ ذاك بنجله السعيد الموفق الرشيد العالم الهمام حجة الله فى الاسلام ذى العقل الراجح والهدى الواضح عهود من الآباء توارثها الابناء المتواضع الخاشع صاحب القلم البارع سيدى وسندى أبى محمد عبد الله سلمه الله من كل مكروه ووقاه فحضنى حفظه الله على اختصار الشرح المذكور يعنى شرحه الكبير على المرشد المعين بعد ان طالع حده وسر به كل السرور وحث على فى تقديم ذلك على جميع الامور فلما قفلت من وجهتى شرعت فى ذلك تاركا للتسويف طالبا من المولى سبحانه السلامة من الخطا والتحريف انتهى المقصود منه ﴿قال فى نشر المثانى﴾ ان أبا عبد الله العياشى قدم فاسا ونظر فى أمرها وغزا عرب الحياينة مرارا وأثخن فيهم حتى خضعوا للطاعة

## ﴿ايقاع أبى عبد الله العياشى بنصارى الجديدة﴾

سبب هذه الغزوة كما ذكره الفقيه العلامة قاضى تامسنا أبو زيد عبد الرحمن بن أحمد الغنامى الشاوى المعروف بسيدى رحو الغنامى أن نصارى الجديدة عقدوا المهادنة مع أهل آزمور مدة فكان من عزة النصارى وذلة المسلمين فى تلك المدة ما تنفطر منه الاكباد وتخر له الاطواد فمن ذلك أن زوجة قبطانهم خرجت ذات يوم فى محفتها ومعها صواحباتها الى أن وصلت حلة العرب فتلقاها أهل الحلة بالزغاريت والفرح وصنعوا لها من الاطعمة وحملوا لها من هدايا الدجاج والحليب والبيض شيأ كثيرا فظلت عندهم فى فرح عظيم ولما كان الليل رجعت ووقع لها أيضا انها أمرت القبطان زوجها أن يخرج بجيشه ويبعث الى قائد آزمور أن يخرج بجيش المسلمين فيلعبوا فيما بينهم وهى تنظر اليهم بقصد الفرجة والنزهة فكان كذلك فجعلوا يلعبون وهى تتفرج فيهم فما كان بأسرع من أن حمل نصرانى على مسلم فقتله فتكلم قائد المسلمين القبطان وأخبره بما وقع فقال له القبطان فما ضركم ان مات شهيدا يهزأ بالمسلمين ويسخر منهم قال وكان الولى الصالح العابد الناسك الزاهد المجاهد رافع لواء الاسلام ومحيى منهاج النبى عليه الصلاة والسلام سيدى محمد العياشى كلما سمع شيأ من ذلك تغير وبات لا يلتذ بطعام ولا منام وهو يفكر كيف تكون الحيلة فى زوال المعرة عن المسلمين بتلك الجهة وغسل أعراضهم من وسخ الاهانة وهو مع ذلك يخاف من العيون الذين يرصدونه من صاحب مراكش وقائد آزمور ومن قبطان الجديدة اذ كان ما خلف وادى أم ربيع الى مراكش باقيا فى دعوة السلطان لم يدخل فى دعوة أبى عبد الله المذكور فمكث كذلك ثلاث سنين ولما رأى أن الامر لا يزيد الا شدة أوعز الى بعض أولاد ذويب من أولاد أبى عزيز أن يجلبوا الى النصارى شيأ من القمح خفية وأن يكون ذلك شيأ فشيأ حتى تطمئن نفوسهم ويذوقوا حلاوته ويوهموهم النصح والمحبة فلما حصل ذلك جاءه جماعة منهم وأخبروه الخبر وأطلعوه على غرة النصارى خذلهم الله فعزم على قصد الجديدة ثم بدا له فى تقديم غزو العرائش ثم يأتى الجديدة بغتة ففعل رحمه الله وكان ذلك أوائل صفر سنة تسع وأربعين وألف ثم عزم على قصد الجديدة فذكروا له أن وادى أم ربيع فى نهاية المدو الامتلاء فلم يثنه عن ذلك وسار حتى بلغ الوادى المذكور على مشرع أبى الاعوان فوجده ممتلئا جدا لا يكاد يدخله أحد الا غرق فقال لاصحابه وسائر من معه توكلوا على الله واجتهدوا فى الدعاء ثم اقتحم الوادى

بفرسه وتبعه الناس فعبروا جميعا ولم يتأذ منهم أحد وكان الماء يصل الى قريب من ركب خيلهم مع أن مدد ذلك الوادي حين امتلائه لا يدرك له قعر عند الناس كما هو شهير وهذه كرامة عظيمة وقعت له رضي الله عنه وكان القاضي أبو زيد الغنامي حاضرا لها وشاهدها ولم يقع مثل هذا فيما علمناه الا للصحابة رضي الله عنهم مثل ماوقع لسعد بن أبي وقاص في عبوره دجلة لفتح المدائن ومثل ماوقع للعلاء بن الحضرمي في فتح بعض بلاد فارس وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ولما وصل أبو عبد الله الى الجديدة وجد طائفة من أولاد أبي عزيز قد نذروا به وألجؤوا الى القبطان خوفا منه أن يوقع بهم لاجل مهادنتهم للكفار واتصالهم بهم فخرج القبطان في خيله وكان سيدي محمد كامنا بازاء الجديدة بالغابة التي كانت هنالك وقد زالت اليوم فلما انفصل القبطان بجيشه عن الجديدة حمل عليهم أبو عبد الله فقطعهم عنها ففروا الى جهة البحر فاوقع بهم فهلكوا ولم ينج منهم الا سبعة وعشرون رجلا فتغير صاحب مراكش من ذلك وأنكر ماصنع أبو عبد الله وكذا أنكره قاضيه الفقيه أبو مهدي السكاني وقد ذكر لو يزماريه خبر هذه الوقعة فقال ان طائفة من المسلمين قدموا على قائد البرتقال بالجديدة وقالوا له انا قد جئناك من عند المولى محمد بن الشريف يطلب منك أن تعينه بجماعة من عسكرك على بعض عدوه فاستفهم بذلك وكان شابا غرا لم يجرب الامور فنهاه بعض كبار عسكره وحذره عاقبة الغدر فأبى وعزم على الخروج مع أولئك المسلمين وتقاعد عنه عسكره فقال لهم اني أخرج وحدي وذهب ليخرج وحده فتبعوه حينئذ وكانوا امائة وأربعين فارسا فلما انفصلوا عن الجديدة بمسافة وجدوا خيلا كثيرة كامنة لهم فلم يشعروا حتى أحاطت بهم نصف دائرة منهم فما كلموهم حتى كملت الدائرة عليهم وصاروا مركزها فحينئذ التفت قائد العسكر الى ذلك الرجل الذي نهاه عن الخروج وقال له ما الحيلة فاجابه بان الحيلة القتال حتى نموت ثم أنشده شعرا مضمنه اني أشرت عليك وأنت أعظم جاها مني فلم تسمع والآن نقتل معا وتختلط دماؤنا حتى لا يتميزان ولا يعرف دم الشريف من الوضيع والحاصل أن المسلمين أوقعوا بهم حتى لم يرجع منهم الى الجديدة الا ثلاثة وأسر منهم خمسة عشر أحياء والباقي أتى عليه القتل وقامت بالجديدة مناحة عظيمة لم يتقدم مثلها ومكث الاسارى بسلا سنين في بعض دهاليزها حتى افتداهم سلطانهم خوان الذي جمع مملكتهم من يد الاصبنيول انتهى ولما قدم سيدي محمد العياشي من هذه الغزوة سار الى فاس للنظر في أمرها لما هاج من الجهة بين أهلها وذلك أن رجلا منهم يقال له ابن الزين عدا على رجل آخر يقال له أحمد عميرة فرماه برصاصة من علية مسجد فوق سويقة ابن صافي فقتله وهاجت الحرب بفاس بين أهل عدوة الاندلس وكان المقتول رئيسهم وبين اللطيين فتقدم سيدي محمد العياشي فاسا في آخر جمادي سنة خمسين وألف فاصلح بينهم وأقاد من قاتل عميرة كبير الاندلسيين وبالجملة فغزوات سيدي محمد العياشي رحمه الله كثيرة وذبه عن الاسلام وحمايته للدين مما هو شهير عند الخاص والعام وفي هذه الغزوة يقول الكاتب الاديب أبو عبد الله محمد بن أحمد المكلاتي مادحا لسيدي محمد العياشي ومشيرا الى الكرامة التي وقعت له في عبور النهر

حديث العلا عنكم يسير به الركب * وينقله في صحفه الشرق والغرب
وحبكم فرض على كل مسلم * تنال به الزلفى من الله والقرب
فانت رفيع من أصول رفيعة * نجوم الدياجي في الانام لها سرب
سمي رسول الله ناصر دينه * تجلى بكم عن أفقه الشك والريب
ولم أر بحرا جاوز البحر قبلكم * تجود لمستجد أنامله السحب
ومايستوي البحران عندي فان ذا * أجاج لعمري في المذاق وذا عذب

وكان رحمه الله عازما على أخذ العرائش فحال بينه وبينها انصرام الاجل وكذلك كان ملحا على أخذ طنجة فلم تساعده الاقدار

## ﴿مقتل أبي عبد الله العياشي رحمه الله والسبب فيه﴾

قد قدمنا أن أهل الاندلس بسلا تحزبوا على أبي عبد الله العياشي ورموه عن قوس واحدة وانه كان قد اطلع على خبثهم ونصحهم للكفر وأهله وانه استفتى العلماء فيهم فأفتوه باباحة قتال من هذه صفته فاطلق فيهم السبيل أياما فقتل من وجد منهم وهرب أكثرهم فهربت طائفة منهم الى مراكش وهربت طائفة الى الجزائر وأخرى الى النصارى وفرقة الى زاوية الدلاء فجاء أهل الدلاء يشفعون في أهل الاندلس فأبى أبو عبد الله أن يقبل فيهم الشفاعة وقال ان الرأي في استئصال شأفتهم فلما رأى أهل الدلاء امتناعه ورد شفاعتهم غضبوا لذلك وأجمعوا على حربه ومن قبل ما كانت القوارص تسري منهم اليه يدل على ذلك الرسالة التي كتبها الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الدلائي الى أبي عبد الله العياشي ونصها الحمد لله الحليم العفو الرؤف المنزه عن صفات من وصف بها موؤف وصلى الله على سيدنا محمد مدينة العلم المسورة بسور السماحة والحلم وعلى سادتنا آله وصحبه وكل من انتظم في سلك أتباعهم من أهل حزبه هذا وان المجلي بنور طلعته ظلم الظلم والفساد المحلي خزائن المعالي عوجبات النفاق على حين الكساد المستوطن حبه بسويداء الفؤاد من ألقت اليه المكارم أزمة الانقياد وصلحت به بحمد الله العباد والبلاد حوطة الاسلام وحمايته وخديم الدين المحمدي وكفايته سيدي محمد بن أحمد المحمود الاوصاف بشهادة من يعتد من أهل الانصاف زاده الله من المكارم أعلاها ومن نفائس درر المجد أغلاها وتوجه بتاج الكرامة والرضى وأمده بدائم مدده السرمدي حتى يرضى وسلم جنابه القدسي العلمي العملي المرابطي المجاهدي من جميع البلايا وأتحفه من تحفه الفاضلة الوهبية بأعلى المزايا وأهدى اليه من طيب بركاته ورحماته ما يرضاه دينه العلي لحماته قد شهدنا على أنفسنا بالاقرار بفضله علينا وان ما يسره يسرنا وما يضره يضرنا علم ذلك منا يقينا من له معنا أدنى مخالطه بحيث لا يمكنه أن يدفع ذلك بنوع من المغالطه وان الضار بالعين ضار بانسانها لكن النفوس الانسانية محل لخطاها ونسيانها ومن أقتناه لديكم مقام الخادم والولد قد ساءنا منه ما ساءكم مما عنه ورد وطلبنا من جميل أوصافكم معاملته بالصفح والجميل فلن يزال الانسان الا من عصمه الله يستمال أو يميل ولولا الحرارة ما عرف الظل ولولا الوابل لقيل النهاية في الطل وما عرف العفو لولا الاساءه ولا يقال صبر المرء الا فيما ساءه وما عرفنا صاحبه الا محبا لجانب كل من للدين ينتسب فان خرج عن نظركم فقد أتاه الغلط من حيث لا يحتسب انتهى وكان الشيخ ابن أبي بكر رحمه الله يطيل الثناء على أبي عبد الله العياشي ويذيع محاسنه وكان يقول في دعائه اللهم أجز عنا سيدي محمدا العياشي أفضل المجازاه وكافه أحسن المكافاه واجعل مكافأتك له كشف الحجب عن قلبه حتى تكون أقرب اليه منه اللهم لا تحرمه توجهه اليك وانقطاعه لخدمتك اللهم نفس كربته وكمل رغبته وأجب دعوته وسدد رميته واردد له الكرة على من عاداه في الحق انك على كل شيء قدير انتهى فهذا حال الشيخ ابن أبي بكر رحمه الله مع أبي عبد الله العياشي ثم قدر الله ان حدث بين أولاده وبين العياشي من النفرة ما أفضى الى المقاتلة وذلك بسبب رده شفاعتهم في أهل الاندلس وأمور أخر فأجمعوا على حربه كما قلنا فخرج اليهم أبو عبد الله العياشي فاوقع بهم وهزم جموعهم وفتك بالعرب الذين كانوا مع الناغي فتفرقت الجموع وتبرأ التابع من المتبوع ثم ذهب أبو عبد الله العياشي الى طنجة بقصد الجهاد فلما قفل من غزوه وجد البربر من أهل الدلاء قد وصلوا الى أطراف أزغار ومعهم الناغي والدخيسي وأهل حزبهم من الكدادرة وغيرهم وعزموا على مصادمة أبي عبد الله فاراد أن يغض الطرف عنهم ويصرف عنانه عن جهتهم فلم يزل أصحابه به الى أن برز لمقاتلتهم فلما التقى الجمعان كانت الدبرة على أبي عبد الله العياشي وقتل فرسه تحته فرجع الى بلاد الخلط وكان رؤساء الخلط أكثرهم في حزب الناغي وعلى

رأى الكدادرة فرجعت البربر الى أوطانهم وبقى أبو عبد الله العياشي عند الخلط أياما ثم غدروا به فقتلوه بموضع يسمى عين القصب واحتزوا رأسه وحمله بعضهم الى سلا وكأنه حمله الى أهل الاندلس اذ هم أعداؤه بها ﴿قال في نشر المثاني﴾ ودفنت جثته بازاء روضة أبي الشتاء رضي الله عنه ومن كراماته المتواترة أنهم لما جاءوا بالرأس سمعوه ليلا وهو يقرأ القرآن جهارا حتى علمه جميع من حضر فردوه الى مكانه وتاب بسببه جماعة من الناس وأما القبة المنسوبة اليه بقبيلة أولاد أبي عزيز من بلاد دكالة فالظاهر انها متخذة على بعض معاهده التي كان يأوي اليها أيام كونه بالقبيلة المذكورة في ابتداء أمره كما مر وليس هنالك قبر له على الصحيح ولما قتل أبو عبد الله العياشي فرح النصارى بقتله غاية الفرح وأعطوا البشارة على ذلك وعملوا المفرحات ثلاثة أيام وكان مقتله رحمه الله تاسع عشر المحرم سنة احدى وخمسين وألف وقد رمزوا لتاريخ وفاته بقولهم (مات زرب الاسلام) باسقاط ألف الوصل وحدث رجل أنه كان بالاسكندرية فرأى النصارى يومئذ يفرحون ويخرجون أنفاضهم فسألهم فقالوا له قتل سانطو بالمغرب ﴿وفي الرحلة لابي سالم العياشي﴾ قال أخبرني الشيخ محمد الفزاري بمكة قال كان بالمدينة المشرفة رجل مغربي من أهل القصر في السنة التي قتل فيها الولي الصالح المجاهد سيدي محمد بن أحمد العياشي قال فجاء في ذات يوم وقال لي اني رأيت في النوم أختي ورأيت رجلا جالسا مقطوع اليد تسيل دما فقلت له من أنت قال الاسلام قطعت يدي بسلا قال فلما أخبرني قلت له الذي يظهر لي من رؤياك ان الرجل الصالح المجاهد الذي كان بسلا قد قتل قال وبعد ذلك في آخر السنة قدم حجاج المغرب فاخبرونا بموته وقد رثي رحمه الله بقصائد كثيرة منها قصيدة الاديب البليغ أبي العباس أحمد الدغوغي التي ذكرها في النزهة ويحكى أنه وجد مقيدا بخط أبي عبد الله العياشي المذكور ان جملة ماقتله من الكفار في غزواته سبعة آلاف وستمائة وسبعون ونيف ومما مدحه به العلامة الامام الشهير أبو محمد عبد الواحد بن عاشر قوله

يا حادي الاظعان في الرياشي * أبلغ سلامي نخرنا العياشي
من نوره بدا وفضله غدا * تحدوا به الركبان والمواشي
طود الهدى عين الندى فرد الورى * فريد وقته الامام الخاشي
لله سيف صارم وقاصم * ظهر العدا كبيرهم والناشي
يتركهم عند اللقا رهن الشقا * صرعى على الارض كما الكباشي
يا مسلمين تهنيكم حياتكم * ماعاش فيكم سيدي العياشي
أنام لاشك الانام الكل في * ظل الامان لين الفراش
ياعاذلي في حبه عذلك دع * ولا تحدثني حديث الواشي
اني امرؤ بالحسن مفتون وعن * جميع لوم لاغ عين عاشي
هديتي الى الكرام أبرزت * سلامها السامعين فاشي

وثناء الناس عليه كثير فقد أثنى عليه الشيخ ميارة كما مر وأبو عبد الله محمد العربي الفاسي وابن أبي بكر الدلائي وغيرهم وكان رحمه الله مجاب الدعوة مادعا الله في شئ الا أستجيب له شوهد ذلك منه مرارا ومن أدعيته المحفوظة عنه اللهم اني أسألك باسمك السريع المجيب الذي خزنت فيه فواتح رحمتك وخواتم ارادتك وسرعة اجابتك ياسريع لمن قصده ياقريب ممن سأله يامجيب من دعاه أسرع لي بقضاء حاجتي وبلوغ ارادتي ياسميع يامجيب ياسريع ياقريب آمين آمين آمين يارب العالمين وكان فقيها مشاركا في الفنون وله أتباع ظهرت عليهم بركاته ولاح عليهم سره ومن أتباعه الشيخ أبو الوفاء اسمعيل بن سعيد الدكالي القاسمي صاحب الزاوية المشهورة ببلاد دكالة ومن أتباعه أيضا المقدم المجاهد أبو العباس الخضر غيلان الجرفطي وقد ذكر ذلك الشيخ أبو عبد الله محمد بن ناصر الدرعي في رسالة كتب بها الى المجاهد

المذكور

المذكور يقول فيها مانصه من عبيد الله تعالى محمد بن ناصر كان الله له الى الفارس القائم بنصر دين الله البائع نفسه فى اعلاء كلمة الله الخضر غيلان سلام عليك ورحمة الله وبركاته وانى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو أما بعد فانى أحبك فى الله وان لسانى لهج بالتضرع الى الله تعالى فى نصرك على الكافرين منذ خروج النجليز والباعث على اعلامك بهذا أمران أحدهما قوله صلى الله عليه وسلم اذا أحب أحدكم أخاه فليعلمه والثانى استنهاض همتك للجد فيما أنت بصدده من الجهاد وعدم الالتفات الى ماتورط فيه غيرك من الاغترار بالفانى فانت مادمت فى هذا على طريق صالحة وعباد الله الصالحون كلهم معك ورحم الله صاحبك الذى أسس لك هذه الطريق الصالحة وربّاك عليها أعنى أمير المؤمنين نور البلاد الغربية سيدى محمد العياشى جزاه الله عنا واياك وعن المسلمين خيرا فهو سيدنا وسيدغيرنا الذى ندين الله بمحبته ويجب علينا وعلى المسلمين تعظيمه وتعظيم من هو منه بسبيل ثم قال الشيخ ابن ناصر رحمه الله بعد كلام مانصه وتستوصى بآل سيدنا وسيد المسلمين فى زمانه كافة خيرا سيدى محمد العياشى فهو عزك وبتعظيمهم قوام أمرك وهذا من نصيحتى اليك التى هى من نتيجة محبتنا لك فعاملهم بالوفاء ولا تؤاخذهم بالجفاء انتهى المقصود منه ولولد سيدى محمد العياشى وهو الفقيه العلامة سيدى عبد الله أرجوزة نظم فيها أهل بدر وتوسل بهم الى الله تعالى فى هلاك الذين تمالؤا على قتل أبيه فلم تمض الامدة يسيرة حتى دارت عليهم دائرة السوء ولم ينج منهم أحد ﴿وفى البستان﴾ ان أبا عبد الله محمد الحاج الدلائى دخل بلاد الغرب وذلك بعد مقتل أبى عبد الله العياشى فلقيه ولده سيدى عبد الله المذكور بجموع الغرب بوادى الطين فوقعت الحرب فى قبائل وانتهبت حللهم ومواشيهم انتهى وكان ذلك فى أوائل ربيع الاول سنة ثلاث وخمسين وألف ولسيدى عبد الله ابن سيدى محمد العياشى فى بعض زياراته لابيه قوله

أتينا اليك وأنفسنا ❊ تكاد من الخوف منك تذوب

ولم ندر أين هواك الذى ❊ تحب فتنحو اليه القلوب

أقمنا خففنا وجئنا خففنا ❊ فمن خوفنا قد دهتنا خطوب

فها نحن من خوفنا منك جبرا ❊ وها نحن من خوفنا منك شيب

﴿قال اليفرنى فى الصفوة﴾ وأخبرنى حافده العلامة قاضى القضاة أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد العياشى أن جده سيدى عبد الله المذكور كان قد أصابه مرض أعيى الاطباء علاجه فلما طال عليه أمره رغب منهم أن يحملوه الى ضريح الشيخ سيدى الحاج أحمد بن عاشر بسلا فلما وقف على الضريح أنشد ارتجالا

أقول لدائى اذ تفاقم أمره ❊ وعز الدوا من كل من هو ناصرى

الا فانصرف بالله عنى اننى ❊ أنا اليوم جار للولى ابن عاشر

قال فكأنما نشط من عقال وانقشع عنه سحاب ذلك الضرر فى الحال وكانت وفاة سيدى عبد الله المذكور ليلة عرفة سنة ثلاث وسبعين وألف ودفن بجوار الولى الاشهر الشيخ أبى سلهام من بلاد الغرب وبنيت عليه قبة صغيرة وأخبار العياشيين ومحاسنهم كثيرة وبيتهم بيت خير وصلاح رحمهم الله ونفعنا بهم آمين

## ﴿ظهور أهل زاوية الدلاء وأوليتهم بجبال تادلا وما يتبع ذلك﴾

أما نسبهم فهم من برابرة مجاط بطن من صنهاجة حسبما ذكره ابن خلدون وغيره وكان مبدأ أمر أهل زاوية الدلاء أن جدهم الولى الاشهر سيدى أبا بكر بن محمد وهو المعروف بمحمى بن سعيد بن أحمد بن عمر ابن يسرى المجاطى كان ممن أخذ عن الشيخ الصالح أبى عمر القسطلى دفين مراكش وسكن الدلاء واتخذ

هنالك زاوية فجاء ولده الولي الاظهر أبو عبد الله محمد بن أبي بكر فكمل من الفضائل ما بقي وأبدى من الاسرار ما خفي فتناقل الركبان حديث هذه الزاوية وقصدها الناس من كل ناحية الى ان كان من أولاد الرجلين ما نذكره وأخذ الشيخ محمد بن أبي بكر عن الشيخ أبي عبد الله محمد الشرقي فحصل له من الحظوة والوجاهة فوق ما كان لسائر من عاصره وكان أعلام الوقت كالحافظ أبي العباس المقري والحافظ أبي العباس بن يوسف الفاسي والامام أبي محمد بن عاشر والفقيه العلامة أبي عبد الله محمد ميارة وغيرهم يقصدون زيارته والتبرك به ويراجعونه في عويص المسائل العلمية وكان رحمه الله عالما حافظا دراكا متوسعا في علمي التفسير والحديث وعلم الكلام حسن المشاركة فيها وفي غيرها وكانت وفاته سنة ست وأربعين وألف ﴿قال اليفرني﴾ وحدثني غير واحد من أشياخنا أنه لما دنت وفاته جمع أولاده وعشيرته وقال لهم ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فانه مني الا من اغترف غرفة بيده وأنا أقول لكم ولا من اغترف غرفة بيده يشير بذلك الى ما تجاذبوه من أمر الرياسة بعده وذلك من مكاشفاته رضي الله عنه وقد اعترض عليه بعض الطلبة في قوله وأنا أقول بانه سوء أدب لمقابلة كلام الله بكلامه وأجاب عنه حافده وهو الفقيه العلامة الشهير أبو عبد الله محمد بن أحمد بن المسناوي بن محمد بن أبي بكر برسالة مستقلة ولما توفي خلف من الاولاد عدة فكان أكبرهم أبو عبد الله محمد الملقب بالحاج لانه حج مع أبيه ووحده مرارا ويقال انه خطب الناس يوم عرفة على ظهر الجبل لامر اقتضاه الحال ولم يكن ذلك لاحد من أهل المغرب قبله وفي أيامه تكامل أمر أهل الدلاء وشاع ذكرهم وكان للزاوية في أيامه وأيام أبيه صيت عظيم وكان بها من معاطاة العلوم والدؤوب على درسها واقرائها وقراءتها الليل والنهار ما تخرج به جماعة من صدور العلماء وأعيانهم كالشيخ اليوسي وأضرابه حتى كانت اليها الرحلة في المغرب لا يعدوها الطالب ولا يأمل سواها الراغب وتمهد الامر بها لابي عبد الله محمد الحاج وأولاده واخوانه وبني عمه الى أن تملك مدينة فاس ومدينة مكناسة وأحوازهما وكافة القطر التادلي ﴿قال في نشر المثاني﴾ وفي سنة ست وأربعين وألف كان قيام محمد الحاج الدلائي على الشيخ ابن زيدان ﴿قلت﴾ ولعل المكاتبة الآتي بيانها بعد انما كانت في هذا التاريخ ﴿وقال في البستان﴾ وفي سنة خمسين وألف زحف محمد الحاج الدلائي بعساكر البربر الى مكناسة فاستولى عليها ثم زاد الى فاس فاعترضه أبو عبد الله العياشي بجموع أهل الغرب ووقعت الحرب بينهما فانهزم العياشي وسار محمد الحاج لحصار فاس فرجع العياشي وأعاد حربا ثانية فانهزم محمد الحاج وعاد الى بلاده وفي سنة احدى وخمسين وألف بعد موت العياشي نزل محمد الحاج على فاس وحاصرها ستة أشهر وقطع عنها المواد وجميع المرافق الى ان لحقهم الجهد وارتفعت الاسعار فدخلوا تحت حكمه ولما قام اجتمعت عليه برابرة ملوية وأذعنوا له واعصوصبوا عليه وقد كانت بينه وبين السلطان محمد الشيخ بن زيدان وقعة أبي عقبة فانهزم فيها السلطان المذكور وانتشر جمعه وذلك في سنة ثمان وأربعين وألف ومن ثم قطع النظر عما وراء وادي العبيد

## ﴿ذكر ما وقع بين السلطان محمد الشيخ بن زيدان وبين أهل زاوية الدلاء من المراسلات والمعاتبات﴾

﴿قال في النزهة﴾ وفي أيام السلطان محمد الشيخ بن زيدان قويت شوكة أهل الدلاء وانتشرت كلمتهم في بلاد الغرب وضعف الشيخ عن مقاومتهم وعجز عن مقارعتهم وبعث اليهم قاضيه العلامة الفقيه أبا عبد الله محمدا المزوار المراكشي يطلب منهم ترك الشنآن والرجوع الى اجتماع الكلمة ويحتج عليهم بان أباهم الولي الصالح سيدي محمد بن أبي بكر كان قد بايع أخاه الوليد بن زيدان والتزم طاعته وانهم أولى الناس باقتفاء طريقته واتباع منهاجه فلما بلغهم القاضي المذكور وأدى الرسالة ونثل ما في العيبة وبين قصده اعتذروا اليه بمسائل وتعللوا بوجوه ﴿قال اليفرني﴾ وقد وقفت على رسالة كتبها السلطان محمد الشيخ

المذكور اليهم بعد رجوع القاضي من السفارة وهذا نص القدر المحتاج اليه منها بعد الخطبة وانصرف عنان الغرض لمن عيناه لمسنون العتاب والمفترض من هم لدقائق المجاز ضابطون وفي حقائق الجواز خابطون أهل وطن الدلاء لمن هو لورود الشراب محتاج السيد أبو القاسم بن ابراهيم والسيد أبو عمرو والسيد محمد الحاج ومن لنشر صحف الانصاف منهم مطابق كالسيد المسناوي والسيد عبد الخالق ولا زائد الا قصد ايقاظكم من الغفوة التي طال كطلوع الشمس من المغرب ليلها وامتد كأرض المحشر فرسخها وميلها هل هذا منكم استخفاف بحضرة الخلائف أو تعام وتصام عما يجب على الرعايا من لازم الوظائف هذا من العار الماحي لصحف المناقب ولا يلوي بن توخاه الا الهيع الذي لا تحمد لمنتجعه العواقب وخصوصا مثلكم الذي شق عصا الشقاق وشرع يمد أيدي الاطماع في استخلاص قبائل الآفاق وكنتم لا تدرون لباس القمصان ولا الشواشي الى ان جسركم على وطء الغرب فاخذ كم معه المغتر محمد العياشي فنبذتم موائد الضيوف وتقلدتم بلا حياء السيوف وأعانكم اضطراب القبائل مع وقوع الجوع ومن مضى الى أي قطر تعذر عليه الرجوع الى ان أمكنتم من أزمتها الرعايا وكل عنيد من رباط تازا الى وادي العبيد فاستحليتم سكر الجبايات من الابريز والفضة الى ان جمعتم منه مالا ينحصر في عد بواسطة القرافي والمنتصر من غير ان تنفقوه على اقامة جند ولا انتفع به الا أشياع الموسسات وشياطين الفساد والشر ولم تراقبوا مكر من رفعكم عن غمار عموم البرابر وأقعدكم في القباب على الاسرة وفي بيوت الله على الكراسي والمنابر عويتم علينا معشر الثوار كالذئاب من كل عراء وشعبه لتكون عزيمة نهوضنا اليكم معطلة صعبه وان لا ندري أين تميل النفوس ألتلك الصحاري أم الى ايليغ السوس وهذا المغرب لا يخلو وملآن من نواميس كل كاهن ومدع قرقار تمسي فيه البومة خاملة وتصبح بالمخلب والمنقار ومعادين الهمز واللمز والمجون هم أهل الزوايا والديارات والفنادق والاسواق والسجون لكن من صفعته يمينه لا يبكي ومن ألقى بيده الى التهلكة لا يشكي أهملناكم وأمهلناكم لعوائدكم من العبادة والطعام فطلعتم لنا في الحلوق عظاما ورعام لم تعلم الفقراء الا بحرمة جاه الدخيل على صلح أو زواج أو لسماح البخيل وحتى الآن دعوناكم لعقد البيعة الواجبة لنا على كل من أطاع أو عصى من وجدة الى حدود السوس الاقصى فتزهدلكم فيما يقوم بحق تلك الزاوية وأهلها بشرط أن تفيقوا من سنة الغفلة وجهلها وان أمسكتم أقدام الانقياد عن سلوك سبيل السداد وقبول سوله فأذنوا بحرب من الله ورسوله فقد شيعنا لكم فقيهنا وقاضينا أبا عبد الله محمد المزوار فصددتموه أرهب صد وانقلب عن المحاورة مردودا أقبح رد لولم نبال بكم بالفكر والذكر ما صرفنا فيما سلف وصيفنا الامين مباركا السوسي فشيد ضريح السيد محمد بن أبي بكر قد نسيتم خالص عرضه فانه كان لكم علينا بريدا وبصيره بما انطوت عليه منكم غرة السريره فقص علينا دون ان نفحصه ان عين الجش فراره ولا يسعنا ان ندعكم مع أشراف سجلماسة وبني موسى تلعبون بنا كهر الغالية في القفص لا يعطى غناء علته الا بوخز المسال التي تكلفه الرقص وحاصل الغرض تأدية البيعة كما عقدها أبوكم الابر الجواد المرحوم الفاضل المجيد لاخينا الارضى مولاي الوليد لتنتظم كلمة الاسلام في الاقطار اذ لو فعلتم لاقتفى أثركم جموع المنتجعين والامصار وان عظمت عليكم مفارقة تقبيل الرأس واليد والركبة فانتظروا صبيحة طلوعي عليكم طلوع الفجر على غسق الليل بخضرم خضرم من الرماة والخيل ونؤم بعدكم دولة الاشراف الصحراوية ونأوي على زاوية الساحل الى أن تعود الايالة الشيخية علوية عالية بالصيت والذكر أو تهوي الى حضيض بني سعد بن بكر انتهى وكان جواب أهل زاوية الدلاء عن هذه الرسالة ما حاصله باختصار ولا زائد بعد حمد الله الا أن مسطوركم الاحرش لما ورد ساحتنا سلب الاذهان والعقول فلا جارحة الا ولها حصة من الطنين فكادت الحبالى تسقط المشائم فضلا عن الجنين فياله من صوت زجر لا ينسى علينا طول

السنين أسمعتنا غرائب لم تمر مرارتها على أهل الدهر الآتي والغابر لو صدح بها على جبانة انهض أهل المقابر حتى سمتنا بالخسف في أسواق المذلة والهوان وما نحن الا عز وركن لكل من طرقته وصمة أوغمه وأنت تعمل بتدبير واشارة الاعلاج المجبولين على طبائع الخداع والغش وتبنى على قواعد ما الكم بها من عرين ولا عش ومن الدليل الشاهد والبرهان فتكهم باخيك مع مشاورة النسوان على غيب من الجند والديوان فلا تدعهم يخدعونك وهم سلبوا روح جدك السمي من غمد الجسد وجعلوا هامته في مخلاة من مسد وأيم الله لئن داموا لك في الغرب بطانه لطلقوا عليك ثلاثا أوطانه وأما نحن فبيعة والدنا رحمه الله لم تزل لنا في الاعناق ولا ينبغي ان تعاد فتكرر كالظهير لمن تحرر وأيضا منعنا من تجديدها انسلال البربر عن ساحتنا فتكون أقوى سبب لفضيحتنا وأجلها هذا الاجدل الذي لا تؤده سموم الليالي ولا حرارة قيظ المصيف مولانا محمد ابن مولانا الشريف عقاب أشهب على قنة كل عقبه لم يقنعه عد المال دون حسم الرقبه وربما غرتنا غفلة فيشن الغارة على شعوب شعاب ملويه أو ينشر جيوشه على رباط تازا بالرايات والالويه سيما وجناحاه ذوو النفوس النفيسة بربر صنهاجة وعرب دخيسة براة النزوات بالحلة والحال والغزوات والعياشي كما تعلمون كانت همة هجرته أولا لله أهل الشرك ثم تخطا العزم الى درجة الملك وأما وصيفكم الامين مبارك السوسي فحيث أناخ علينا كلكل الاقامة لاختلاط ضريح الوالدين رحمهما الله فقنا بوظيف حقه الظاهر والباطن حيث اختبر بعين الحقيقة أرجاء أغوار المواطن ولاشك أن حال مطالعته هي التي أرخصت لنا في سوق نحو الطركم الاسعار الى ان نصبتم لنا بعد الرضا حبائل الاذعار الجالبة للعار وجد قبائلنا متبددة على ضم حبوب الصيف وأعيانهم مغتدين على الخيول بدون رمح ولا مدفع ولا سيف فخالهم على غرة غنيمة بارده وما علم أنهم أغوال الغيل صادرة وواردة فان كانت معاينته هي التي أطمعتك أن يعودوا بعد العز نوائب فادرى أن ظنه كان الخاوي الخائب من ركب الخيل لنفسه دون راتب المخزن لا ترضى همته ان يهان فيحزن وقاضيك السيد محمدا نزوار حيث عاين وفود الاقاليم منتشرة كالجراد على الازقة والادراب دون من لازم خدمة الابواب تحقق عيانا ان انتظام شمل الممالك والمملوك لا يكون الا على عظماء الملوك فقص عليكم وعلى من حضر ما اعتقد وسمع ونظر وحتى الآن ان قصدتم الغرب أو حصن فاس لا تنالكم من جانبنا مساءة ولا باس فبعد ان يكون لكم في المدينة البيضاء الجديدة والقديمة قرار يكون لنا بعد ذلك حكم الاختيار بين ان نؤمن لك أو نترك لك الديار أو نستصرخ بمن هو منك شريف حقيقي وسلطان له شغف أكثر منك في ضبط الاوطان فنقابل اذ ذاك القهورة بالسباط ونلقى بطانة من شاط لا سنان الامشاط أيهما للغرب غلب نؤدى له على الرغم ما طلب وان قنعت بحوز الحمراء من مراكش ورفضت عنك معاناة المراش والتناوش فدعنا ومراعاة من تجارته الرياسه وهمته اشتراء نفيس السياسه ضرغام غاب سجلماسه وأما صاحب ايليغ السوس فمراده ومراد ذويه الا غنيمة سلامة الاعراض وتجارة سلب النفوس وفيما تلوناه عليك من القصص كفاية فلئن غادرتنا مستترين في حرمة الاحترام والوقار فنعم وان زاحمتنا بنكب الهوان يدافعك عنا من ادعى انه زعيم وان طرقتنا مناخ عزمك على عبور وادي العبيد أو أم ربيع فهنالك يجمع الله بين من يشتري ويبيع والسلام وكتب عن اذن جمهور اخوته عبد الله المسناوي ابن محمد بن أبي بكر الدلائي في يوم الاحد الثاني والعشرين من رجب انتهى ولما رأى السلطان محمد الشيخ بن زيدان تعاصي أهل زاوية الدلاء عليه واستحكام أمر الغرب لهم وتقويهم بالعدد والعدد صرف عنانه عن مقارعتهم ومال الى مسالمتهم وقطع النظر عما في أيديهم والامر كله لله

## ﴿ذكر مادار بين السلطان محمد الشيخ بن زيدان وبين الامير المولى محمد بن الشريف رحمهما الله تعالى﴾

كانت المكاتبات والمراسلات تقع بين السلطان محمد الشيخ بن زيدان السعدى وبين الامير المولى محمد بن الشريف السجلماسي فمن ذلك رسالة بعث بها السلطان المذكور الى الامير المذكور فكان من فصولها أن قال له وبلغنى أنك تعلن فى النوادى من الحواضر والبوادى أن جرثومة انتمائنا لبنى سعد بن بكر بن هوازن مع انها فى بنى نزار بن معد وافية المكاييل ثقيلة الموازن وانما من تيدسى أحد القصور بوادى درعه ومنها أنبت الله أصلنا فأزهر غصنه وأثمر فرعه فلئن كان غرضك حط منطقة قدرنا من اللبب فهذا من العلى عليك عار وان تحاول محونا من صحيفة النسب فتلك دعوى لا تغلى أو ترخص أسواق الاسعار وقد صرفنا اليك نسخة من مناهل الصفاء فى أخبار الشرفاء ليطلع عليها أنظارك من الملوك فيزول ما بالخاطر من اشراك الشكوك فاجابه المولى محمد بن الشريف عن هذا الفصل بان قال له وعتابكم اننا عزوناكم لبنى سعد بن بكر بن هوازن بن منصور وناشرون لذلك فى الحلل والمدن والقصور تالله ما فهنا بذلك عن معايرة لكم ولا جهل ولا بان نضيفكم لمن لا عشيرة له ولا أهل بل اعتمدنا فى ذلك بحمد الله على ما نقله الثقات المؤرخون لاخبار الناس من علماء مراكش وتلمسان وفاس ولقد أمعن الكل التأمل بالذكر والفكر فما وجدكم الا من بنى سعد بن بكر ولا معوّل على كتاب المنصور ومن الفشتالة ولا ابن القاضى المكناسى ولا ابن عسكر الشريف الشفشاونى وسواهم اذ الكل أهل بساطكم ومحل من احكم وانبساطكم ولقد بلغتنا نسخة مناهل الصفا فلم نجد فيها مورداعذب وصفا وكفى دليلا بالباطن والظاهر قول الثقة مولانا عبد الله بن طاهر ومع هذا فلم نتمدد فعكم عن شرف النسب ولا رفعكم على ما وسمكم الله به من زينة الحسب انتهى الغرض من هذه الرسالة وأشار بقوله قول الثقة مولانا عبد الله بن طاهر الى ما اتفق له مع المنصور حين جالسه على المائدة وقال له المنصور أين اجتمعنا فقال له ابن طاهر على هذا الخوان والحكاية قد مرت فى صدر هذه الدولة السعدية ومما كتب به السلطان محمد الشيخ بن زيدان للامير المذكور أيضا وذلك حين غلب المولى محمد على فاس وملكها فكتب اليه السلطان المذكور يحذره من غائلة أهل الغرب وغدرهم برسالة من انشاء وزيره القائد أبى عبد الله محمد بن يحيى آجانا وفى آخرها قصيدة من انشاء القائد المذكور وهى

يا شبل مولانا الشريف محمدا * شمس السعادة والهلال الاكمل
ملأت مهابتك الكبيرة مغربا * فزهت بشرقه اصبهان وموصل
صقر الصياصى على الاعادى صائل * طورا بغير وفى الملاحم سيئل
أنيابه البيض الحداد صوارم * وبكل ظفر منه أبتر مقصل
فجناحك الجرد العتاق وان نظر * ت الى تلمسان يطيش الشمأل
هابتك ثوار الاقالم عنوة * والوحش فهى يغص منها المنهل
قد طبت ان عرقت عروقك فى الوغا * خلت العنا برديف فيها المندل
يا مالكا سعدت به أوطانه * فيما مضى وزها به المستقبل
نادى بك النصر العزيز لمغرب * ولكم على فاس الجديد الكلكل
فاحذر كما حذر الغراب ولا تكن * كالبط يطفو عن عطاه القوقل
واعدل تفوز ولا تواخى طامعا * ترد العداة ونعم عنك العذل
لا تصدمن جبل البرابر واصطبر * حتى يهون على الجواسيس مدخل
لا تأمن الاعراب فى أقوالها * واقمع قطاطة من يجور ويختل

وعليك بالغارات فى أوطانها * بكتائب تسبى الاناث وتقتل
واغضض ولا تردى تجار مداش * يبقى عليك الستر دأبا يسبل
لا تتخذ من حصن فاس صاحبا * أوما كما يصل الامور ويفصل
كالبغل عادته الفرار وان غدا * فى مربط فتى استفزك يركل
لا تنقلن الى الصحارى ذخائرا * فيقول أهل الغرب حتما يرحل
واضرب لبيت الملك أوتاد الدها * تزداد صيتا فى القلوب وتقبل
ألف وفود الغرب واعرف قدرها * وقروم كل قبيلة لا تجهل
وابسط يديك على العيال هنيئة * واذا غرست عروق عدل تنقل
هذى وصايا قد أضعنا حقوقها * فى آخر مما نحاه الاول
فتى نشد الى المعالى رحالنا * يأباه نصر والمقادير تخذل
فرضينا متبعين أحكام القضا * والله يحكم ما يريد ويعدل

فأجابه المولى محمد بن الشريف فى سنة تسع وخمسين وألف بقصيدة ختم بها جوابه من انشاء الفقيه أبى عبد الله محمد بن سودة الفاسى ونصها

أمحمد الشيخ بن زيدان الرضا * فخر الخلائف الهمام الاكمل
فلقد أجبتك عما قد كاتبتنى * نظما ونثرا كى ترى ما يمثل
انى أبث لكم وصايا جمة * ان أنت للنصح المصرح تقبل
فالى متى طول الرقاد أما ترى * أظعان ملكك كل يوم ترحل
والدهر ينتف فى رياش جناحكم * ويدنس من الصفا ما تغسل
ما من مليك ذاق لذة راحة * الا تجلى له الهوان فيسفل
أحرى الذى كثرت شقاشق ثواره * يعوى عليه لكل عاد معقل
تحتال تخدعه بكل حبالة * حتى يصاد كما يصاد المغفل
فاستيقظن من الخمار ومن رعى * فى أرض آساد الشرى لا يغفل
وانفض غبار الذل واخلع ثوبه * يزداد وجهك بهجة ويهلل
ضيعت ملكك فى الرخا وتركته * للخزى فى دار الهوان يذلل
وركنت للظل الوريف وغادة * يزهو البديع بها اذا ما ترفل
واذا أردت دوام هيبة همة * وتدوم فى ستر عليكم يسبل
دع عنك فى الحمراء وقت سفرجل * ومدربلا بالزعفران يغلل
واركب مطايا الصافنات الى الوغا * اما تحوز مزية أو تقتل
واقرع طبولا للرعاة وفى الوغا * يجبى الى الحرب العوان الجحفل
وخض الفقار وهز رمحا وادرع * واثن العنان وفى يمينك منصل
خاطر بنفسك فى الفيافى جائلا * تردى العدو وكل ليل منزل
واصطد نهارك بالسلاق وبعدها * عقبانها وكذاك صقر أجدل
وقد الجيوش كما الوحوش ولا تدع * من يعص أمرك وازجرنه فيفعل
جنب أجانا الجبن فى تدبيره * واصحب شجاعا للذخائر يبذل
لا تجمعن من العلوج بطانة * فطباعها الغدر البليغ الاعجل
أما الشبانة فاحذرن من غيها * لا بد تغدر بالاخير وتخذل

ترجو عواقب دولة لنفوسها * وتود من وافى جنابك يحفل
يعطف عليك الدهر بعد نفوره * فتعود أيام السعود وتقبل
ماذاق زيدان أبوك حلاوة * من ملكه حتى غذاه الحنظل
فاذا امتثلت صواب صدق وصيتي * يصفى الزمان لكم ويصفو المنهل

واعلم ان هذه الرسائل والاشعار التى أثبتناها هنا نازلة كما ترى عن درجة البلاغة وعادمة لما تستحقه من فن الوزن ونقد الصناعة ولكن لما كان الكتاب كتاب تاريخ وأخبار لا كتاب أدب وأشعار لم نبال بذلك اذ كان المقصود منها ما تضمنته من بيان الاحوال والافصاح عنها على أصح منوال فان هذه الرسائل هى عماد التاريخ وملاكه ونازلة منه بالمحل الذى نزلت من الدار اسلاكه فلذا أكثرنا منها فى هذا الكتاب والله تعالى الملهم للصواب

## ﴿وفاة السلطان محمد الشيخ بن زيدان رحمه الله﴾

كانت وفاة السلطان محمد الشيخ بن زيدان رحمه الله سنة أربع وستين وألف وفى نشر المثانى أنه توفى قتيلا سنة ثلاث وستين وألف ودفن بقبور الاشراف من قصبة مراكش فى روضة أبيه وعشيرته ومما نقش على رخامة قبره قول القائل

لبدر سموات المعالى أفول * وفى ذا الضريح كان منه نزول
محمد الشيخ بن زيدان غاله * حمام فحزن العالمين طويل
امام الانام ذو المآثر فعله * له غرة فى الصالحات جميل
حباه اله العرش رحمى تخصه * بما هو فى الفردوس منه كفيل

وزراؤه يحيى آجانا وولده محمد وغيرهما وقضاته أبو مهدى عيسى بن عبد الرحمن السكتانى وأبو عبد الله محمد المزوار رحم الله الجميع

## ﴿الخبر عن دولة السلطان أبى العباس أحمد بن محمد الشيخ بن زيدان رحمه الله﴾

لما توفى السلطان محمد الشيخ فى التاريخ المتقدم بويع ابنه أبو العباس أحمد والعامة يقولون مولاى العباس بدون لفظ الكنية وقام مقام أبيه فى جميع ما كان بيده الا ان حى الشبانات وهم أخواله قويت شوكتهم فى أيامه وغلط أمرهم عليه وثبوا على الملك وراموا الاستبداد به فضايقوه وحاصروه بمراكش أشهرا ولما رأت أمه أن الامر لا يزيد الا شدة كلمته فى أن يذهب الى أخواله ويأخذ بقلوبهم ويزيل ما فى نفوسهم عليه فذهب اليهم فلما تمكنوا منه قتلوه غيلة وأقبلوا الى مراكش مسرعين وبايعوا فيها لاميرهم عبد الكريم بن أبى بكر الشبانى ثم الحريزى كما سيأتى وكان مقتل السلطان أبى العباس رحمه الله سنة تسع وستين وألف كذا فى النزهة والذى فى نشر المثانى أنه قتل سنة خمس وستين وألف والله أعلم بغيبه ﴿قال اليفرنى رحمه الله﴾ وقد أذكرتنى هذه الفعلة قول المولى محمد بن الشريف فى قصيدته السابقة

أما الشبانة فاحذرن من غيها * لا بد تغدر بالاخير وتخذل

فان الامر وقع كما قال مع ان المولى محمد بن الشريف كتب بالقصيدة المذكورة للسلطان محمد الشيخ فى سنة تسع وخمسين وألف وغدر الشبانات للسلطان أبى العباس كان سنة تسع وستين وألف ولعل المولى محمد بن الشريف تلقى ذلك من بعض أهل الكشف أو نحوهم فان كلامه كثيرا ما يقع فيه مثل هذا وبهلاك السلطان أبى العباس رحمه الله انقرضت دولة السعديين من آل زيدان وانهار جرفها وانطوى بساطها وسبحان من لا يبيد ملكه ولا يزول سلطانه لا اله الا هو العزيز الحكيم

## ﴿الخبر عن دولة الشبانات بمراكش وأعمالها وما آل اليه أمرها من دثورها واضمحلالها﴾

لما قتل السلطان أبو العباس أحمد بن محمد الشيخ بن زيدان في التاريخ المتقدم ثار كبير حي الشبانات بمراكش من عرب معقل وهو الرئيس عبد الكريم ابن القائد أبي بكر الشباني ثم الحريزي وحريز فخذ منها هي النبعة والصميم فيها وعبد الكريم هذا يعرف عند العامة بكروم الحاج فدخل مراكش ودعا الناس الى بيعته فبايعوه بها سنة تسع وستين وألف وانتظمت له مملكة مراكش ونواحيها وسار في الناس سيرة حميدة وكان في أيامه الغلاء المؤرخ بعام سبعين وألف وهو غلاء مفرط بلغ الناس فيه غاية الضرر حتى أكلوا الجيف ولم يزل مستقيم الرأي بمراكش الى أن توفي بها سنة تسع وسبعين وألف قبل أن يدخلها المولى الرشيد بن الشريف بأربعين يوما ﴿وقال منويل﴾ لما بايع أهل مراكش عبد الكريم الشباني خالفت عليه آسفي وأعمالها فغزاهم ثم رجع مفلولا الى مراكش وكانت المجاعة المشهورة عقب ذلك ثم قتله بعض أجناده دخل عليه فطعنه برمح فأتلفه ثم قبض على القاتل وقتل أيضا في الحين ولما توفي بايع الناس ولده أبا بكر بن عبد الكريم فبقي الى أن قدم المولى الرشيد وتقبض عليه وعلى عشيرته فقتلهم ثم تتبع الشبانات فأفناهم قتلا وأخرج عبد الكريم من قبره فأحرقه بالنار وانقرضت دولة الشبانات والبقاء لله وحده ۞ ولنذكر ما كان في هذه المدة من الاحداث فنقول ﴿في سنة ثلاث عشرة وألف﴾ في ثاني عشر محرم منها توفي الولي الكبير أبو محمد عبد الله بن أحمد بن الحسن الخالدي السلاسي المعروف بابن حسون نسبة الى جده الحسن المذكور وهذا الشيخ هو دفين سلا الشهير بها أصله من سلاس مدشر على مرحلة من فاس ثم انتقل الى سلا وسبب انتقاله اليها أنه كان بين أهل سلاس حروب ومقاتلات فكان الشيخ أبو محمد عبد الله اذا غلب أهل مدشره فرح واذا انهزموا حزن ففكر في نفسه وقال محبة الغلبة تستدعي محبة الشر للمسلمين وعلي عهد الله لا جلست في موضع أفرق فيه بين المسلمين وأبغي الشر لهم فارتحل الى سلا ولما استقر بها أتاه جماعة من عشيرته يراودونه على الرجوع الى بلادهم وحثوا عليه في ذلك فأخذ قدحا وملأه من ماء البحر ووضعه ثم قال لهم ما بال ماء البحر يضرب بعضه بعضا وتتلاطم أمواجه وما لهذا الماء الذي منه في القدح ساكن فقالوا له لانه لم يبق في البحر فقال لهم الغربة تصفي وتسكن فعلموا مراده وانصرفوا آيسين ﴿قلت﴾ وفي انتقاله من سلاس الى سلا اشارة لطيفة وهي ان لفظ سلاس باعتبار تفكيكه سلو موصول بحرف السين وهو حرف ذو قرون ثلاثة متشعبة فيؤخذ منه بطريق الاشارة انه سلو موصول بكدر بخلاف لفظ سلا فانه سلو محض وقد قدمنا في أخبار ابن الخطيب رحمه الله أن مدينة سلا كانت مقصد العباد وأهل الخلوة والانفراد من لدن قديم أخذ الشيخ ابن حسون عن أبي محمد الهبطي عن أبي محمد الغزواني عن التباع عن الجزولي رضي الله عنهم وكان صاحب أحوال تهدى اليه الثياب الرفيعة فيأمر بها فتلقى في بيت مسدود فتبقى فيه حتى يأكلها السوس وتضيع وكان كل يوم يصبح على بابه أرباب الآلات بالطبول والابواق يضربون عليه النوبة وغير ذلك وقد تكلم عليه الشيخ اليوسي في المحاضرات وحمله محملا جميلا وكرامات ابن حسون كثيرة شهيرة نفعنا الله به وبأمثاله ﴿وفي السنة المذكورة في ربيع الاول منها﴾ توفي الشيخ العارف بالله تعالى العالم الرباني أبو المحاسن يوسف بن محمد الفاسي جد السادة الفاسيين وأخباره ومناقبه شهيرة قد تكفل ببسطها كتاب مرآة المحاسن لابنه العلامة أبي عبد الله محمد العربي الفاسي الموضوع لهذا القصد بالخصوص ﴿وفي سنة أربع عشرة وألف﴾ كان الغلاء العظيم بفاس قال صاحب الممتع في ترجمة الشيخ أبي عبد الله محمد بن حكيم الاندلسي أنه اعتراه ذات يوم حال فجاء الى بعض أفران فاس وجعل يقول لصاحب الفرن اغلق فرنك اغلق فرنك ويصيح به فاذا بالغلاء العظيم حدث عقب ذلك وهو غلاء سنة أربع عشرة وألف فتعطل ذلك

الفرن وغيره من أفران المدينة وكان يمر بالطرقات فيقول الناس يأكلون عن أولادهم ويكرر ذلك على جهة الانكار فجاء الغلاء المذكور فكان الناس يأكلون فى الاسواق عن أولادهم ولم يكن يعهد الاكل بالاسواق قبل ذلك ﴿وفى سنة خمس عشرة وألف﴾ فى ثانى جمادى منها جاء بفاس سيل عظيم حتى غمر دور عمل الفخارين وذهب بعض أنادر الزرع وحمل أمة من باب الفتوح فماتت ﴿وفى سنة اثنتين وعشرين وألف﴾ حدث الشر بفاس ووقع الغلاء حتى بيع القمح باوقيتين وربع للمد وكثرت الموتى حتى ان صاحب المارستان أحصى من الموتى من عيد الاضحى من سنة اثنتين وعشرين وألف الى ربيع النبوى من السنة بعدها أربعة آلاف وستمائة وخربت أطراف فاس وخلت المداشر ولم يبق بلمطة سوى الوحوش ﴿وفى سنة ثلاث وثلاثين وألف﴾ وذلك عند فجر يوم السبت الثانى والعشرين من رجب منها حدثت زلزلة عظيمة بفاس ذكر صاحب الممتع فى ترجمة أبى عبد الله بن حكيم المذكور آنفا انه كان قبل الزلزلة المذكورة يصيح المردومات المردومات فاذا بالزلزلة حدثت قال فما بقيت دار من دور فاس غالبا الا دخلتها الفؤس ﴿وفى خامس شعبان من السنة المذكورة﴾ نزل برد عظيم قدر بيض الدجاج وأكبر وأصغر ورىء حجر عظيم منها نزل على خيمة فخرقها وقتل أهلها اعنها وبقى لم يذب نحو ثلاثة أيام ﴿وفى سنة ست وثلاثين وألف﴾ توفى الامام العارف بالله تعالى أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الفاسى المعروف بالعارف بالله وهو أخو أبى المحاسن المذكور آنفا ومناقبه شهيرة أيضا ﴿وفى السنة المذكورة﴾ كان الغلاء بفاس والمغرب ﴿وفى سنة أربعين وألف﴾ عشية يوم الخميس ثالث ذى الحجة منها توفى الشيخ الامام العلامة الهمام أبو محمد عبد الواحد بن أحمد بن على بن عاشر الانصارى نسبا الاندلسى أصلا الفاسى منشأ ودارا العقيه المشهور وكان رحمه الله له الباع الطويل فى المشاركة فى العلوم مع غاية التحرير والتحقيق وله التآليف الحسان التى أغنى فيها عن الخبر العيان وكان ورعا سنيا وكان لا يتخذ القراء على جنائز أقاربه ويقول يمنعنى من ذلك انهم يفسدون قراءة القرآن وقراءتهم تلك عذر فى التخلف عن الجنائز ﴿وفى سنة اثنتين وخمسين وألف﴾ توفى الشيخ الامام أبو عبد الله محمد العربى ابن أبى المحاسن يوسف الفاسى كان رحمه الله متفننا عالما له عناية كبيرة بتحصيل المسائل وتقييدها والاطلاع على غريبها وشريدها وهو صاحب مرآة المحاسن وكان جوالا فى بوادى المغرب وحواضره حتى أدته خاتمة المطاف الى مدينة تطاوين وألقى بها عصا التسيار الى ان توفى فى السنة المذكورة ثم نقل الى فاس بعد سنتين فوجد طريا رحمه الله

﴿وفى سنة ستين وألف﴾ كان بالمغرب رخاء مفرط وغلاء مفرط وبلغ صاع البر عدينة سلا مثقالا وكاد ينعدم بالكلية وهو غلاء لم يعهد مثله وانتشر الفساد فى البلاد وحل بالمغرب وباء كبير حتى كان الناس يموتون فى كل طريق رجالا ونساء نسأل الله العافية ﴿وفى سنة سبعين وألف﴾ كان الغلاء المفرط بالمغرب لاسيما بمراكش وهذه السنة هى المعروفة عند العامة بسنة كروم الحاج لا زالوا يضربون المثل بغلائها الى اليوم والله تعالى يحفظ المسلمين ويحاسهم من كنفه فى حصن حصين آمين

﴿تم الجزء الثالث ويليه الجزء الرابع وأوله الخبر عن دولة الاشراف السجلماسيين﴾
﴿من آل على الشريف وذكر نسبهم وأوليتهم﴾